المجلس الأعلى للثقافة

دار السلطنة فى مصر

العمارة والتحولات السياسية

خالد عزب

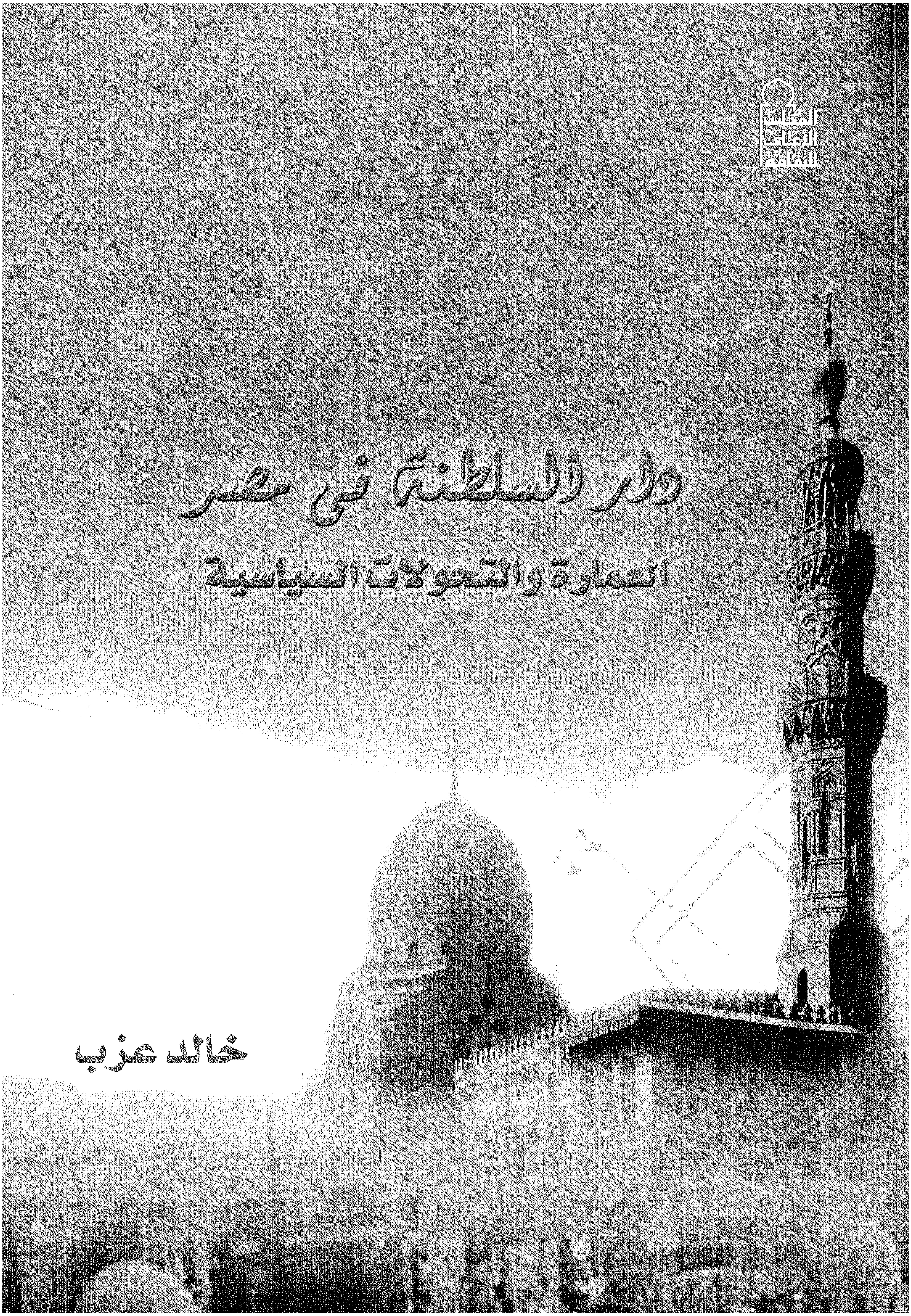

المجلس الأعلى للثقافة

دار السلطنة فى مصر

العمارة والتحولات السياسية

خالد عزب

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٧

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عزب ، خالد .

دار السلطنة فى مصر : العمارة والتحولات السياسية .

تأليف : خالد عزب - ط ١ - القاهرة ؛ المجلس الأعلى للثقافة ،

٢٠٠٧ ؛ ٢٥٦ ص ؛ ٢٤ سم .

١ - العمارة الإسلامية .

(أ) العنوان ٧٢٢,٥

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٧١٦٧

الترقيم الدولى I.S.BN. 977 - 437 - 262 - X

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

حقوق النشر محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084 E.Mail: asfour@onebox.com

المقدمة

منذ أن بدأت الدراسات الآثارية للعمارة الإسلامية في القرن التاسع عشر اعتمدت المنهج الوصفى للعمائر القائمة. هذا المنهج أخذ مساحة كبيرة من هذه الدراسات امتدت حتى القرن العشرين، وشهد القرن العشرون مولد دراسات وصفية تعتمد على الوثائق، وهذه المرحلة من الدراسات كانت ضرورية للتعرف على الأنماط المعمارية وأنواع المنشآت، وبلغت هذه الدراسات مرحلة النضج في كلية الآثار بجامعة القاهرة مع ظهور عدد من الأساتذة الذين أخذوا على عاتقهم تقديم العمارة الإسلامية في صورة متكاملة. ولذا بات حقل الدراسات الآثارية المعمارية متخما بالدراسات التى أنجزها هؤلاء الأساتذة، وبات من المهم التحول إلى الدراسات التحليلية للعمارة الاسلامية بعد أن توافرت لها القاعدة الأساسية التى يمكن الاعتماد عليها. ومن هنا جاءت فكرة هذه الدراسة، التى أرى أنها ليست سوى مقدمة لمثل هذا النوع من الدراسات قد تحتمل الأخذ منها والرد عليها، وقد يتفق البعض مع ما جاء فيها وقد يختلف البعض الآخر معها.

وبداية فإن عنوان هذه الدراسة "دار السلطنة في مصر — العمارة والتحولات السياسية" يثير العديد من التساؤلات لعل أبرزها هو كيفية تناول العلاقة بين العمارة والسياسة. هذا التناول رأيت أن يكون من خلال شقين، الشق الأول يرتكز على الدراسة النظرية لنمط هذه العلاقة، وهو ما يشكل الإطار الحاكم لها. الشق الثاني، الدراسة التطبيقية التى تكشف مدى ما ذهبت إليه في الدراسة النظرية.

وواجهت خلال فترة البحث وجمع المعلومات صعوبات شتى منها ندرة المراجع والمصادر المطبوعة التى تتحدث مباشرة في موضوع الدراسة. وكانت أكثر الدراسات نضجا في هذا المجال دراسة أولج جرابار عن "العمارة والقوة"[1] والتى ركز فيها على مدى إظهار العمارة الحربية لقوة السلطة الحاكمة. كما حملت دراسات ناصر الرباط[2] العديد من المضامين السياسية. كان على أن ألجأ إلى الوثائق والمصادر والمراجع لاستخلاص المعلومات التى تخدم موضوع الدراسة. ودارت في ذهنى في هذه المرحلة أسئلة لا حصر لها كنت أدونها لكى أصل من خلالها إلى ما أريد. منها ماهية العلاقة بين السلطة والسياسة، والعلاقة بين المجتمع المدنى والعمارة؟ وكيف تم التحول من النمط المعمارى الإسلامى إلى النمط المعمارى الغربي؟.

ومعظم الأسئلة التى دارت في ذهنى وجدت أنها تبحث في نهاية الأمر عن طبيعة العلاقة بين السلطة والعمارة. لذا بات على أن أبحث عن منهج ملائم لدراسة هذه العلاقة. فوقع اختيارى على مقر الحكم وعمارته كنموذج للدراسة، وبينت في التمهيد أسباب اختياره. فقد كان علماء المسلمين سباقين في وضع أطر عامة لسياسة العمران في الحضارة الإسلامية. وكانوا يركزون على دور السلطة السياسية، في حركة العمران الذى انحصر في مجال السياسة العامة وركزوا على مقر الحكم والشروط العامة التى يجب أن تتوافر فيه، وهى شروط يجب أن تتوافر أيضا في المدن. وهذا يرجع إلى أن المجتمع المدنى لدى المسلمين كان متكفلاً بحركة

العمران داخل المدن من خلال قانون حاكم لهذه الحركة هو فقه العمارة؛ ومن خلال مؤسسة الأوقاف التى تكفلت بتمويل حركة العمران وإنشاء المنشآت العامة. برز دور الدولة في حركة العمران في مؤلفات علماء السياسة الشرعية. وبرز دور المجتمع من خلال الوقفيات وسجلات المحاكم الشرعية وكتابات فقهاء المسلمين عن فقه العمارة. لذا كان مقر الحكم في مصر وما طرأ عليه من تحولات هو محور هذه الدراسة لأنه يبرز دور السياسة في صياغة حركة العمران خاصة مع المركزية الشديدة للحكم في مصر، تلك المركزية التى نراها في سطوة مقر الحكم على العاصمة المصرية منذ العصر الأيوبى إلى عصر الخديوى إسماعيل.

تناول الفصل الأول من الدراسة نشأة مقر الحكم في مصر منذ فتح العرب لها. فتعرض لبناء مدينة الفسطاط عاصمة، وبساطة مقر الحكم بها، فهذه المدينة لم تشهد دارا للإمارة إلا عندما بنى عبد العزيز بن مروان دارا للإمارة عرفت بدار الذهب، ثم بناء ضاحية العسكر مقراً لحكم العباسيين في مصر إلى أن بنى أحمد بن طولون القطائع مقراً لحكمه، ثم عودة مقر الحكم إلى العسكر بعد قضاء العباسيين على الدولة الطولونية. وتعرض الفصل لاتخاذ الحصون كمقار للحكم منعزلة عن العاصمة، وهو ما تجسد في القاهرة حصن الفاطميين في مصر. تحول هذا الحصن بمرور الوقت ومع سقوط الدولة الفاطمية إلى جزء من التكوين الحضرى للعاصمة المصرية، وكان الحكام قد أدركوا سرعة اندماج الحصون في الحياة الحضرية للمدن؛ لذا ومع الحروب الصليبية أدركوا أهمية اتخاذ القلاع التى شيدت على الجبال أو على الهضاب مقار للحكم. وهذا يفسر اتجاه صلاح الدين الأيوبى لتشييد قلعة الجبل كمقر للحكم.

خصص الفصل الثانى لنشأة القلعة. مرت قلعة الجبل بمرحلتين أساسيتين، الأولى هى مرحلة التأسيس وهى موضوع الفصل، هذه المرحلة بدأت على يد صلاح الدين وامتدت إلى انتقال الكامل بن العادل إلى القلعة ليتخذها مقرا لحكمه عام ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م. وفى هذه المرحلة باتت القلعة تستكمل مقوماتها باعتبارها مقراً للحكم. وتناول الفصل التغييرات التى طرأت على القلعة إلى عصر الأشرف خليل. وتوقف الباحث عند اتخاذ الصالح نجم الدين أيوب قلعة الروضة مقرا لحكمه وبين مدى أهمية قلعة الجبل في تلك الفترة.

جاء الفصل الثالث ليبين المرحلة الثانية التى مرت بها القلعة باعتبارها مقراً. وتتمثل في عصر الناصر محمد بن قلاوون. حيث وصلت القلعة في هذه المرحلة إلى قمة ازدهارها، واستكملت مقوماتها على أنها مقر لحكم مصر والبلاد التابعة للسلطنة المملوكية وتتمثل هذه المقومات في :

- المساجد بخاصة المسجد الجامع للقلعة.
- دار العدل.
- القصر الأبلق.
- قاعة الأعمدة.
- الحوش السلطاني.

- النطاق الشمالي وما يحتويه من طباق للجند وأسوار ودواوين ودار النيابة.

- الإسطبل.

- الميدان.

هذه الدراسة الرأسية صاحبها دراسة أفقية موازية لها للتحولات التي طرأت على القلعة منذ عصر الناصر محمد إلى دخول الفرنسيين مصر، وما طرأ على القلعة من تقسيم في العصر العثماني نتيجة لطبيعة الحكم في ذلك العصر، وما أحدثه الفرنسيون من تدمير في القلعة.

تناول الفصل الرابع القلعة في عهد محمد على وخلفاؤه. تدل أعمال محمد على في القلعة على استيعابه لتقنيات العصر، ولنا في ذلك ثلاثة إجراءات اتخذها:

الأول: إنشاؤه قلعة فوق جبل المقطم أعلى قلعة الجبل.

الثاني: إقامة أبواب جديدة للقلعة تسمح بمرور العربات التي بدأت تشيع في مصر منذ دخول الفاطميين.

الثالث: تشييده دارا للصناعات الحربية في القلعة المكان الذى شغله جند العزب في العصر العثماني.

كما أحدث إضافات وتجديدات أخرى في القلعة ذكرها الباحث منها: سراى الحرم وسراى الجوهرة ودار الضرب وسراى العدل والقصر الأحمر ومسجده، وعكس هذا الفصل مدى اهتمام خلفاء محمد على بالقلعة والإضافات والتجديدات التي أحدثوها.

تعرض الفصل الخامس لانتقال مقر الحكم من القلعة إلى القصور وتتبع جذور القصور مقار الحكم في مصر إلى عصر محمد على حيث تنقل بين القلعة وقصورى الأزبكية وأثر النبى إلى أن استقر في قصر شبرا. وفى عهد عباس حلمى الأول تنقل بين القلعة وقصره بالحلمية وقصر العباسية، وتنقل سعيد باشا بين قصوره والقلعة. واستقر مقر الحكم في عهد الخديوى إسماعيل في قصر عابدين الذى شيد على طراز عصر النهضة الفرنسى المستحدث ليواكب اتجاهه نحو تغريب مصر وتحويلها إلى نمط الحكم الغربي.

وقد وجدنا أنه من الضرورى بعد هذه الدراسة أن أنطلق من الحديث عن بنية العمارة، وذلك بتفكيك هذه البنية في محاولة للفهم ووجدت من خلال هذا التفكيك أن العلاقة بين العمارة والسياسة تقوم على ثلاثة مستويات كانت هذه المستويات هى محور الفصل السادس بعنوان "العلاقة بين العمارة والسياسة -رؤية تحليلية-"، وفى هذا الفصل تم دراسة ثلاثة مستويات من العلاقة بين العمارة والسياسة، المستوى الأول العمارة شاهدًا سياسيًا، وفى هذا المستوى تكون العمارة سجلا للعديد من الأحداث السياسية التي مرت عليها، أو حدثت في المنشأ المعماري، أو تركت أثرها عليه والمستوى الثاني الرمزية السياسية للعمارة وفى هذا المستوى تجسد العمارة قوة الدولة وتوجهاتها السياسية. ومثل هذا النوع من العمائر شاع في العمارة الإسلامية. تتمثل هذه الرمزية في عدد من التعابير المعمارية، يحمل بعضها مضمونا حضاريا، وبعضها الآخر مضمونا سلطويا سياسيا، ويجمع بينهما بعض العمائر ذات التعابير المتعددة. المستوى الثالث يتمثل في

العلاقة الفكرية بين السياسة والعمارة. وهذه العلاقة هى التى تحكم طبيعة العمارة وموضوعاتها وحركيتها وتخطيطها. وهى تنبع من التوجه السياسى للسلطة، هذا التوجه يكون أيديولوجيا، ينعكس على العمارة في صور متعددة، وهو لا يحدث دفعة واحدة، بل يطل على العمارة القائمة على مراحل حتى يكسبها – عند التحول من نمط إلى نمط بتغير السلطة – شخصية جديدة، تعرف عند الآثاريين والمعماريين بالطراز المعماري.

أخيرًا فإننى أتقدم بخالص الشكر إلى الزملاء الأعزاء الذين لولا دفعهم لى ما خرج هذا العمل بصورته الراهنة، وهم حلمى النمنم، ومحمد السيد، وهبة الله حجازي، فلهم خالص التحية والتقدير.

الحواشي

١ Olg Graber. power and archecture. in archiecture of islam world. london 1977.

٢ ومن هذه الدراسات دراسة، نحو إعادة تقييم للثقافة الفنية الأموية، التى نشرت فى مجلة أبواب، العدد ١٩، دار الساقي، لندن ١٩٩٩ م.

تمهـــيد

ارتبطت الدراسات المتعلقة بالعمارة في العصور الإسلامية المختلفة برؤى جزئية، ترى الأجزاء المتفرقة دون جمعها تحت مظلة واحدة. ومن هنا نبعت هذه الدراسة لجمع هذه الأجزاء، في محاولة لفهمها وطرح رؤية تحلل أسباب وجود العديد من الأنماط المعمارية.

وهنا نشير إلى أن ثم ثلاثة مستويات من العمائر، المستوى الأول: يتعلق بالسلطة، ويتمثل في مقر الحكم أيًا كان موقعه من العاصمة أو المدينة. والمستوى الثاني: يتعلق بالخدمات والمرافق داخل المدينة، وهذا المستوى مشترك بين السلطة والمجتمع، ويبرز بصفة خاصة في مؤسسة يمكن أن نعتبرها وسيطة، هى مؤسسة الأوقاف. والمستوى الثالث: عمائر المحكومين، وهى لا تخضع لسيطرة السلطة إذ إن حركة العمران داخل الأحياء تخضع للسيطرة الجماعية لقاطنيها ولحقوق أفراد المجتمع.

ونستطيع أن نحدد ما سبق ذكره من خلال تحديد الأدوار طبقا للغة علماء السياسة الشرعية والفقهاء. فالمدينة في العصور الإسلامية تشكلت فيها المسئولية عن طريق الولاية أو ما نعرفه حاليا بالمسئولية، فهناك ولاية عامة وولاية جماعية وولاية خاصة. فالولاية العامة دورها كان يتجسد في أغلب الأحيان في السلطة الحاكمة ونراه بصفة خاصة في دار الإمارة والمسجد الجامع وأسوار المدن. والولاية الجماعية تظهر في الهياكل الحضرية الوسيطة واستمرارها كالأحياء السكنية والتنظيمات الحرفية والدروب المشتركة والملكيات الجماعية وغير ذلك. أما دور الولاية الخاصة فيرتبط بالحياة الفردية من بناء المساكن واستعمالها اليومي والتصرف فيها.

وموضوع هذا الكتاب يتعلق بالمستوى الأول؛ إذ إن عمائره ترتبط بالسياسة ارتباطا وثيقا، ونستطيع أن نقول إنها عمائر ذات طبيعة سياسية بحتة، وإن تداخلت هذه الطبيعة مع عوامل أخرى كالعامل الدينى في المسجد الجامع أو مساجد الصلوات الخمس، أو عامل فقه العمارة أو قانون العمران عند وقوعها في داخل المدن ....الخ. ولكنها في النهاية منشآت ذات طبيعة سلطوية. والبحث يحاول أن يفسر طبيعة العلاقة بين العمارة والسلطة[1] الحاكمة.

ولذا جاء عنوان هذا الكتاب كما يلى **"دار السلطنة في مصر – العمارة والتحولات السياسية"** والمقصود بالتحولات انتقال السلطة من جماعة إلى جماعة أو من فرد إلى فرد، وهذا الانتقال يكون له في أغلب الأحوال أثر مباشر على العمارة، يتضح بصفة خاصة في مقر الحكم. وهذا المقر إما أن يستمر في ضوء انتقال السلطة في أداء دوره ووظائفه. وإما تتغير طبيعة هذه الوظائف تبعا لمراسم السلطة الجديدة وتقاليدها، أو يتغير التركيب الداخلى لهذا المقر تبعا لنمط السلطة الجديدة. أو ينتقل مقر الحكم إلى مكان آخر جديد بعيدا عن المقر القديم الذى يكون في بعض الأحيان محاطا بأنصار السلطة القديمة. وقد يكون المقر الجديد محاولة من السلطة لإثبات وجودها على الساحة السياسية للبلاد. معطيات متعددة في هذا المجال تحاول الدراسة استكشافها.

لقد وقف علماء السياسة الشرعية، وهم المعنيون بالدراسات السياسية في العصور الإسلامية عند الماوردي[2] وكتابه "الأحكام السلطانية"[3]، وبقى كتابه لقرون طويلة الأساس المرجعى لتحديد مؤسسات الدولة الإسلامية[4]. ولم يحاول أحد أن يرصد ما طرأ من تطور نتيجة لانتقال السلطة وتغير تركيبتها. ويعد

مقر الحكم وما اشتمل عليه من معالم صورة يمكن من خلالها استكمال ما جاء في كتاب الماوردى الذى وقف عند نموذج بغداد.

كان الماوردى الذى عاش في العصر العباسي، منظرا لمقر الحكم في صورته البسيطة والتى نراها في الفسطاط، ثم في صورته الأكثر تركيبيا والتى نراها في بغداد. لقد عبر تأسيس الفسطاط عن المشروع الفكرى والحضارى للدولة الإسلامية آنذاك، فعمرو بن العاص أراد أن يكون مجتمع الفسطاط منفتحا على المجتمع المصرى لذا لم يشيد سورا للفسطاط، بل جعلها مدينة مفتوحة وشجع الأقباط على الإقامة بها، وشيدوا كنائس فيها. بينما حملت الدولة الفاطمية مشروعا يقوم على فرض الخلافة الفاطمية الإسماعيلية في مصر، ولذا كان مقر حكمهم منعزلا عن المصريين، ولم يشرعوا في كسب المجتمع إلا في عصر ضعفهم حين شيدوا مشاهد وأضرحة لآل البيت لكسب العاطفة الدينية عند المصريين. وحمل صلاح الدين مشروعا دفاعيا في وجه الهجمة الصليبية؛ لذا بات تشييد قلعة الجبل والأسوار في العاصمة المصرية همه الأول. بينما كانت دولة المماليك دولة تقوم على القوة العسكرية لأفرادها، لذا بات الاستيلاء على مقر الحكم آنذاك استيلاءً على حكم مصر وبلاد الشام. وظلت القلعة رمزا للسلطة في العصر العثماني.

ومع مجيء محمد على بدأت المفاهيم السياسية في التغير، وأصبح دور الدولة يتعاظم داخل المجتمع، حتى صارت حياة الأفراد مرهونة بسياسات الدولة، ومع انتقال مقر الحكم إلى المدينة بعد سنوات من عزلته، أصبحنا أمام نقلة سياسية وعمرانية. فالحاكم الذى كان يتحصن خلف الأسوار، أجبرته المدفعية على مغادرة الحصن. وصار مقر حكمه في داخل المدينة وسط الناس متحصنا بالمدينة والناس. وتحولت المدينة كلها إلى مقر للحكم، فبها قصر الحاكم والدواوين أو الوزارات. واستتبع هذا إخضاع المجتمع لسيطرة السلطة من خلال فكرة الدولة التى تنظم كل شيء وتحدد أهدافه طبقا لسياستها، فأصبحت الشوارع منظمة والتعليم منظمًا، وحتى وقت الناس خاضعًا لفكرة النظام الذى يفرض هيمنة الدولة على كل شيء[٥].

تقلص في ضوء ما سبق دور الولاية الجماعية والولاية الخاصة إلى أبعد حد ممكن تصوره لصالح الدولة. فبعدما كانت حركة العمران تخضع لسلطة المجتمع المتمثلة في فقه العمارة، والتى كانت قانون يطبقه الجميع دون الرجوع إلى الدولة. فرضت الدولة على المجتمع قوانين عمرانية ومعمارية وأنشأت جهازًا يتولى تنفيذ هذه القوانين ورقابة حركة العمران في المجتمع، هو ديوان الأشغال[٦].

ومن هذا المنطلق يحاول البحث رسم صورة متكاملة لطبوغرافية مقر الحكم منذ صورته البسيطة في الفسطاط حتى صورته المركبة في القاهرة إلى صورته الأكثر تركيبا ووضوحا في قلعة الجبل. كما يرصد البحث أثر التحولات السياسية على هذا المقر في العصور المختلفة. ومدى تأثر هذا المقر بتركيبة السلطة الحاكمة. وما طرأ من تغير على مقر الحكم نتيجة لتغير نمط السلطة وفكرها مع أسرة محمد على.

لذا بات من الضرورى تحديد مفهوم التغيير، فالتغيير يقصد به الخروج عن النمط المعتاد. أما التطور فهو إحداث إضافات تتواءم مع المستجدات. وما حدث في العصور الإسلامية المتلاحقة هو تطور طبيعى وتلقائى نتيجة للخبرة المتراكمة. أما ما حدث في عصر أسرة محمد على فهو تغيير جذرى في نمط الحكم وطبيعته وبالتالى في طبيعة مقر الحكم وتركيبته. ولم يجئ هذا دفعة واحدة، بل جاء على مراحل متتالية وصلت أوجها في عصر الخديوى إسماعيل.

الحواشي

١ السلطة: تعنى السلطة السيطرة على الآخرين من قبل جماعة أو فرد، وهى مبنية على الاعتراف بكفاءة ذلك الفرد أو تلك الجماعة وسعة اطلاعهم وفضائلهم الأخلاقية .... الخ / الاعتراف بحق فرد معين في اتخاذ القرارات في المواقف المهمة بالنسبة للأفراد أو الجماعة. وفى الحالة الأولى: تتطابق السلطة مع فكرة القوة. أما في التعريف الثانى فلا يستلزم بالضرورة فكرة القوة. إذ يمكن منح السلطة لشخص يملك درجة عالية من المصداقية والثقة في عيون الآخرين رغم عدم تمتعه بأى مصدر شرعى للسلطة. أ. ف بتروفسكى وم.ج ياروشفسكى، معجم علم النفس المعاصر، ص ١٢٣. محرر الطبعة العربية سعد الفيشاوى، ترجمة حمدى عبد الجواد وعبد السلام رضوان. مراجعة د. عاطف أحمد. دار العالم الجديد، القاهرة ١٩٩٧ م.

٢ الماوردي: أبو الحسن على بن حبيب البصرى الشافعي، علم من أعلام الفكر الإسلامي، فقيه حافظ من أكبر فقهاء الشافعية ورجل من أبرز رجال السياسة في الدولة العباسية وأديب متقن عاش بين ٣٦٤ هـ و ٤٥٠ هـ. له كتب في السياسة مثل: الأحكام السلطانية وتسهيل النظر وتعجيل الظفر بأخلاق الملك وسياسة الملك وأدب الدنيا والدين، وكتب في الفقه مثل الحاوى والإقناع. انظر ترجمته في: السبكى، تاج الدين عبد الوهاب، طبقات الشافعية، ج٣، ٣١٤٣، القاهرة ١٤٠٠ هـ.

٣ الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٩٧٣ م.

٤ لؤى صافى، العقيدة والسياسة، معالم نظرية عامة للدولة الإسلامية، ص٢١: ٤٤، المعهد العالمى للفكر الإسلامي، هيرندن فيرجينيا ١٩٩٦م.

٥ تيموثى ميتشل، استعمار مصر، ص ٨ – ٩، ١٠٩ – ١١٠. ترجمة بشير السباعى وأحمد حسان، سينا للنشر ١٩٩٠ م.

٦ أنشئ هذا الديوان سنة ١٨٦٤ م، وكان أول رئيس له هو نوبار باشا، انظر حول هذا الديوان، ثناء عميرة، تحديث مدينة القاهرة، ص ١٣٦، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر ١٩٩٥ م.

الفصـــل الأول

مقر الحكم في مصر من الفتح الإسلامى
حتى بداية العصر الأيوبى

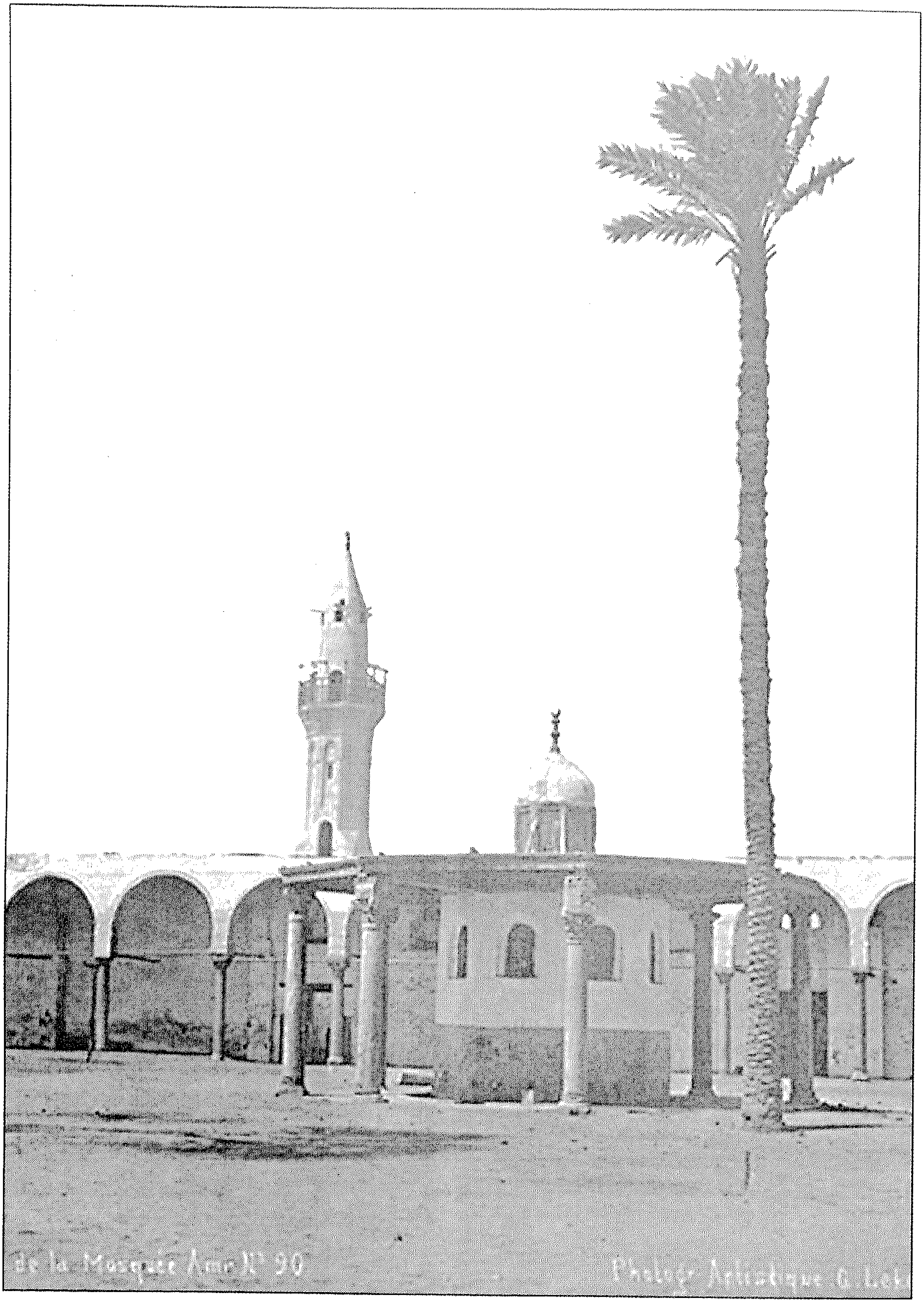

جامع عمرو بن العاص – الفسطاط

شهدت مصر منذ الفتح الإسلامى ٢١هـ/٦٤١م وحتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، تحولات سياسية أثرت بشدة على اختيار الحاكم لموقع مقر الحكم، وعلى طبيعته من البساطة إلى التركيب، ومن الاتصال بما حوله إلى الانفصال عما حوله وتحوله إلى حصن، ومن الحصن الذى يعبر عن التحول إلى نمط المجتمع المدنى على النمط الأوروبي.

كان المسجد في المدينة المنورة هو مكان الالتقاء بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، بوصفه نبيا مرسلا وحاكما، واستمر هذا الوضع في عهد الخلفاء الراشدين[١]، ولذا لم يكن في الفسطاط في بداية عهدها دار إمارة خاصة، بل كان مسجد عمرو والدار التى يقيم بها الوالى بمثابة دار إمارة[٢].

اختط عمرو بن العاص عند تأسيسه للفسطاط سنة ٢١هـ/٦٤٢م داراً له بجوار المسجد الجامع، لا يفصل بينها وبين المسجد الجامع سوى الطريق[٣]. ويعود دور المسجد مقراً لإدارة الحكم إلى كون إمام المسلمين في الصلاة هو الحاكم الذى يناط به شئونهم، واستغلال داره في شئون الحكم إلى بساطة الدولة الإسلامية عند نشأتها، ولكن أدت التطورات المتلاحقة بدءًا من عهد عمر بن الخطاب١٣هـ-٦٣٤م/٢٣ هـ-٦٤٤م إلى اتساع الدولة، واستلزم ذلك استحداث الدواوين[٤]؛ لمساعدة الحاكم في إدارة دفة شئون الحكم، وهو ما حول الحكم تدريجيا إلى حكم يعتمد على الإدارة من خلال الدواوين لا على الفرد.

أدت التطورات المتلاحقة في حركة الفتوح الإسلامية إلى تأسيس قواعد ثابتة لجيوش المسلمين في العراق كالبصرة والكوفة، هذه القواعد شيدت الفسطاط على غرارها سنة ٢١هـ/٦٤٢م ووزعت خططها على القبائل التى شاركت في فتح مصر. وكانت خطط المدينة تعكس تكوين الجيش الفاتح، وهو ما يؤكد كون الفسطاط عند إنشائها قاعدة عسكرية للجيش الفاتح، مثل خطط الفارسين الذين أسلموا وشاركوا في الفتح، وخطط الحمراوات[٥] التى تنسب إلى عجم الشام الذين أسلموا قبيل فتح مصر.

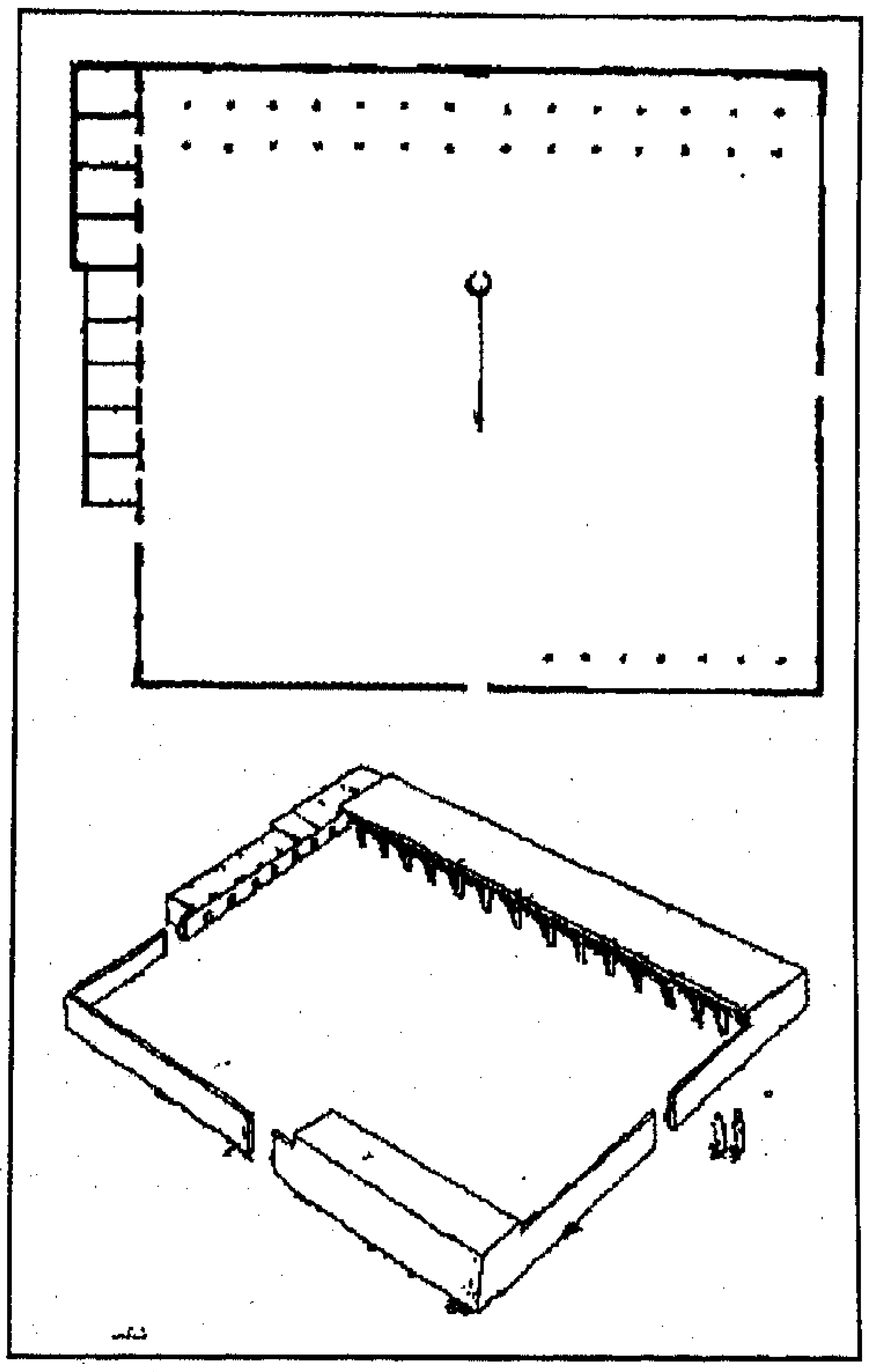

المسجد النبوى – مسقط أفقى ومنظور

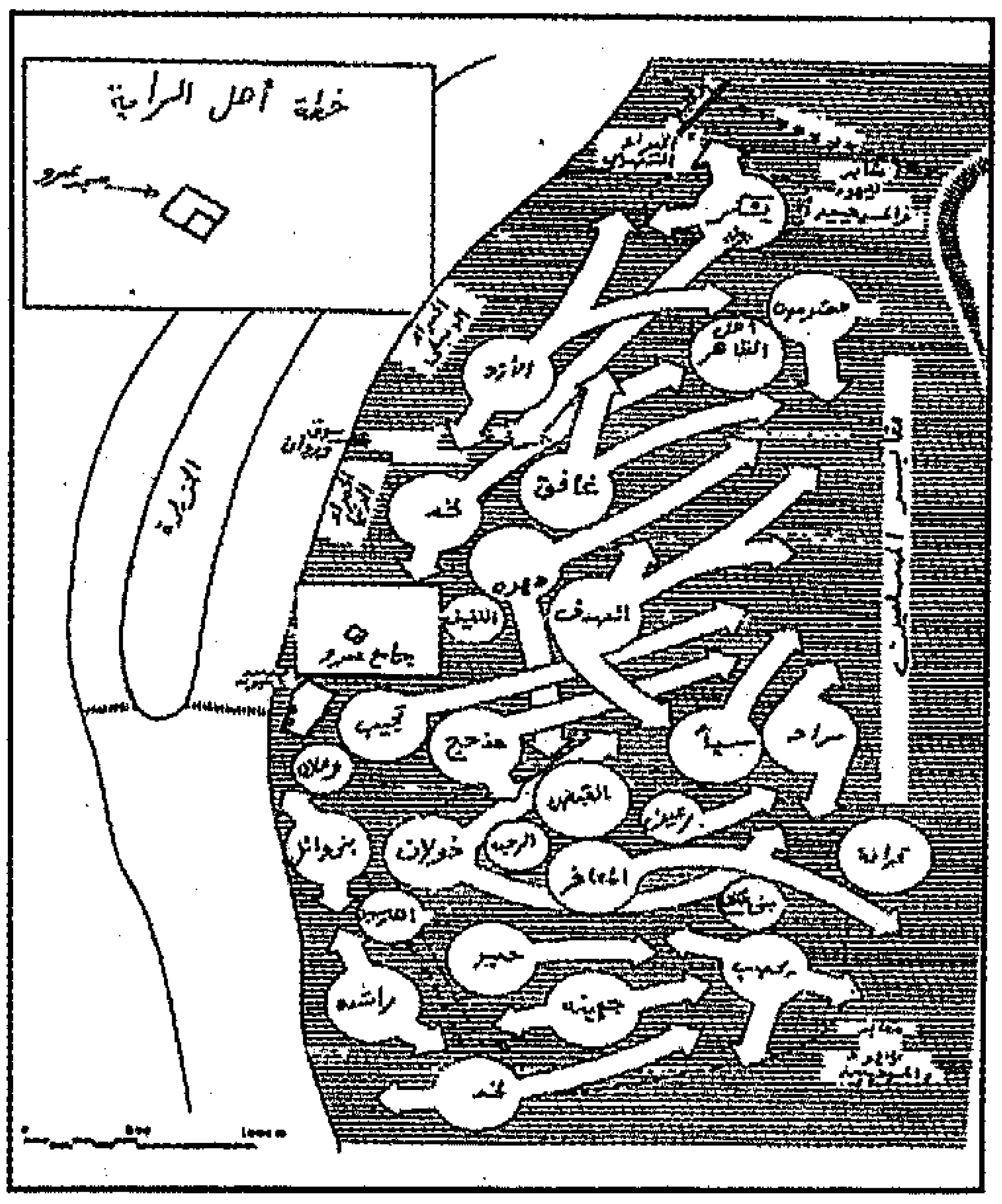

خطط الفسطاط

كان موقع الفسطاط حصينا بطبيعته لذا لم تتم إحاطته بسور عند إنشاء المدينة، إذ يحميه جبل المقطم من الشرق والجنوب، ويحميه مجرى مائى طبيعى هو نهر النيل من الغرب، ولم يبق من الفسطاط غير جانب واحد مفتوح هو الجانب الشمالي، ولم يهتم عمرو بتحصين هذا الجانب، وربما كان السبب في ذلك أنه لم يخش تعرضه للأخطار من هذا الجانب، كما أنه كان المجال الطبيعى لنمو الفسطاط.

سمح عمرو بن العاص لبنى وهدان ومن والاهم أن يقيموا على الضفة الغربية من النيل، حيث بنى لهم حصنا في الجيزة. يعتصمون به عند الخطر، وشرع في بناء الحصن سنة ٢١هـ/٦٤٢م. وأتمه سنة ٢٢هـ/٦٤٣م. ومن المحتمل أن عَمرًا كان يهدف من وراء ذلك إلى زيادة تأمين الجانب الغربى من الفسطاط[٦]. بتأسيس الفسطاط انتهت مرحلة فتح مصر، وبدأت مرحلة فتح بلاد المغرب، وبتأسيس القيروان ٤٥هـ/ ٦٦٥م بدأت مرحلة إتمام فتح المغرب.

كان فتح المغرب يعنى تحول مصر من ولاية حدودية تتولى فتح ما جاورها من البلاد. إلى ولاية داخلية إيذانًا بتقلص الدور العسكرى للفسطاط وتحولها من قاعدة عسكرية إلى مدينة طبيعية، وهذا ما حدث بالفعل، وعزز ذلك اتخاذ الفسطاط مركزًا إداريا لحكم مصر، واندماج المصريين في المجتمع العربى بالمدينة بمرور الوقت.

ظلت الفسطاط بلا دار مستقلة للإمارة إلى أن بنى عبد العزيز بن مروان في خلافة عبد الملك بن مروان دارًا سميت "دار الذهب" سنة ٦٧هـ/٦٨٦م. وهى ذات قبة مذهبة، لفرط سعتها كانت تعرف بالمدينة، اتخذها عبد العزيز بن مروان مقرا له[٧] ثم مقرا لأمراء الدولة الأموية في مصر من بعده[٨]. كانت هذه الدار تقع غرب مسجد عمرو بن العاص. وهو ما يعضد الارتباط العضوى بين المسجد الجامع ودار الإمارة في المدن الإسلامية التى شيدت في تلك العصور الإسلامية المبكرة[٩]. هذا الارتباط نشأ عن طبيعة الحكم آنذاك؛ إذ كان الحاكم يشترط فيه أن يكون عالما بأمور الدين والدنيا. وكان من وظائفه إمامة المسلمين في الصلاة والخطابة فيهم يوم الجمعة. لكن حدث في مراحل تالية أن انفصل مقر الحكم عن المسجد نتيجة لتغير طبيعة الطبقة الحاكمة.

جاء بناء دار الإمارة بالفسطاط على هذه الدرجة من الفخامة ليدل على طبيعة التحول الحضرى الذى حدث في المدينة، والذى ارتبط باستقرار الحكم لبنى أمية، وازدهار الدولة الإسلامية، ومن هذه الإجراءات تعريب الدواوين سنة ٨٧هـ/٧٠٦م. هذا الإجراء الذى جعل اللغة الرسمية لمكاتبات الدولة هى اللغة العربية بدلا من اللغة اليونانية[١٠]، وهو ما يعنى أن أهل مصر من القبط صار عليهم تعلم اللغة العربية حتى ولو لم يكونوا مسلمين، هذا الإجراء ساعد على اندماج المصريين في المجتمع العربى بالفسطاط.

وكان إحراق مروان بن محمد ١٢٧هـ-٧٤٤م/ ١٣٢هـ-٧٥٠م "الدار المذهبة" بالفسطاط في أثناء فراره منها، رمزا لنهاية سلطة بنى أمية في مصر وبداية سلطة جديدة، إذ إن تدمير مقر ولاة مصر الأمويين يعنى نهاية عصرهم.

وكان على العباسيين أن يوطدوا نفوذهم في مصر، في وقت تحولت فيه الفسطاط إلى مدينة حضرية، حيث اندمجت القبائل العربية في المجتمع المدني. وكان للأمويين أنصار في هذا المجتمع، لذا سعى العباسيون إلى تأسيس مقر حكم جديد لهم ولعسكرهم، الأمر الذى يوفر لهم الأمن، وهاجس الأمن بدأ يسيطر على الخلفاء والأمراء والولاة نتيجة لتتابع الأحداث بدءا من مقتل عثمان بن عفان وعلي ابن أبى طالب، انتهاءً بالصراع الأموى العباسي.

هذا فضلا عن اتساع رقعة العالم الإسلامي، وما استلزمه ذلك من تحول في طبيعة الحكم. هذا الأمر الذى سبق أن أدركه عمر بن الخطاب حين أسس الدواوين، واستوعبه عبد الملك بن مروان بتعريبه النقد والدواوين ليعطى للدولة شخصيتها الدولية التى كانت مؤهلة لها.

لم يكن مقر حكم العباسيين منعزلا عن الفسطاط، بل كان امتدادًا لها، وهذا الامتداد يعبر عن أن الحكم العباسى هو امتداد لمفهوم الحكم الوراثى الذى عرف في عهد بنى أمية، فمفهوم ودور الخلافة لم يختلف كثيرا بين

العهدين. ولكن الذى اختلف هو العناصر التى اعتمدت عليها الخلافتان في توطيد حكمهما، فالأمويون اعتمدوا على العرب بينما اعتمد العباسيون على العناصر الفارسية والتركية[١١].

وقد كان لوجود عرب موالين للأمويين في الفسطاط ومساندة عمرو بن العاص لهم أثر في عدم تفكير الأمويين في إقامة مقر جديد للحكم في مصر. علما بأنهم نقلوا مقر الخلافة من الكوفة إلى دمشق مقر ولاية الشام التى استقر بها معاوية حاكما من قبل عثمان بن عفان. لما تم النصر للعباسيين اختط صالح بن علي وأبو عون العسكر، وجعلا بها مسجدا جامعا ودارا للإمارة وسكن الجند حولهما في خطط[١٢]. وذكر البلوى أن دار الإمارة بالعسكر كان يطلق عليها بلد الإمارة لفرط سعتها[١٣]. وفى ولاية السري بن الحكم (٢٠٠ – ٢٠٥هـ/ ٨١٦ – ٨٢٠م) أذن للناس بالبناء حول العسكر حتى اتصل عمرانها بالفسطاط[١٤]. وتحولت العسكر إلى مدينة حضرية منذ ذلك التاريخ، يعنى هذا أننا أمام ظاهرة تحول المدن المؤسسة قواعد عسكرية إلى مجتمعات حضرية بمرور الوقت. وتاريخ هذا التحول المرتبط بأمر السري بن الحكم هو في أغلب الظن إقرار لواقع بدأ فعلا في العسكر، فضلا عن رغبة السري في تغيير التركيبة السكانية حول العسكر التى كان سكانها الأصليون موالين للعباسيين.

ثم جاء أحمد بن طولون وقطائعه نموذجا سوف نرى صدى له عند دراسة التحولات السياسية وأثرها على العمارة، إذ رغب ابن طولون الذى استقل بمصر عن دولة العباسيين أن يكون له مقر حكم يعبر عن مدى قوته واستقلاليته، وكان الدافع الظاهر لبناء هذا المقر هو ضيق العسكر به وبحاشيته[١٥] التى بدأت تتضخم نتيجة لطموحه. بنى ابن طولون مسجدا جامعا للقطائع على جبل يشكر، وهو مساحة مرتفعة عما حوله ليكون المسجد معلما بارزا في المدينة يرمز لسلطة ابن طولون. وبالمسجد تأثيرات معمارية وفنية من مدينة سامراء.

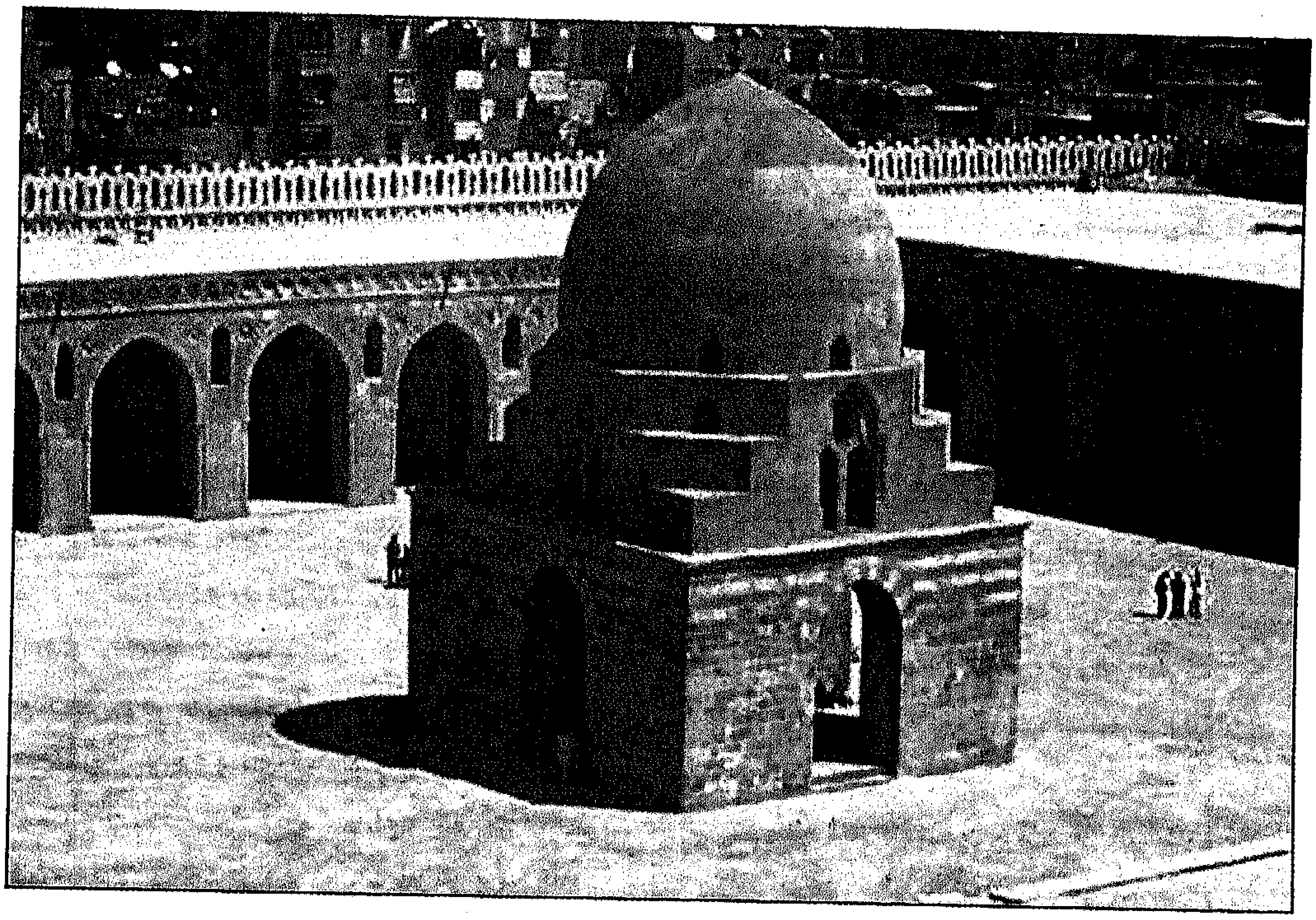

جامع أحمد بن طولون – القطائع

ولعل الاتساع والعمارة اللذين اتصف بهما قصره والميدان الملحق به، كان تأثيرا وافدا أيضا من العمارة العراقية آنذاك. وقطع ابن طولون مدينته على عسكره وأتباعه ولذا سميت بالقطائع[١٦]. ولكن دوام الحال من المحال إذ سرعان ما سعى العباسيون إلى القضاء على دولة الطولونيين ونجحوا في ذلك، وقاموا بتدمير قصر بنى طولون وكل ما يرمز إلى سلطتهم في المدينة. عاد مقر الحكم مرة أخرى إلى دار الإمارة في العسكر، وهى مقر الولاة العباسيين منذ استيلائهم على مصر وستظل كذلك حتى دخول الفاطميين مصر[١٧].

مثّل قيام خلافة فاطمية في مصر حدثا مهمًا، إذ منذ ذلك الحين أصبحت مصر دولة غير تابعة، وكان على الفاطميين القادمين من الغرب أن يتخذوا مقرًا جديدًا للحكم، ويعود ذلك لأسباب عديدة، لعل أهمها: قرب مصر من بلاد تسيطر عليها الخلافة العباسية وخطر القرامطة، والاختلاف المذهبى بين المصريين والفاطميين، فضلا عن قدوم الفاطميين بجيوشهم التى كانت بحاجة إلى مكان تعسكر فيه حول مقر الخليفة لتحميه. لذا فقد كان تشييد مقر جديد للحكم أمرا حتميا.

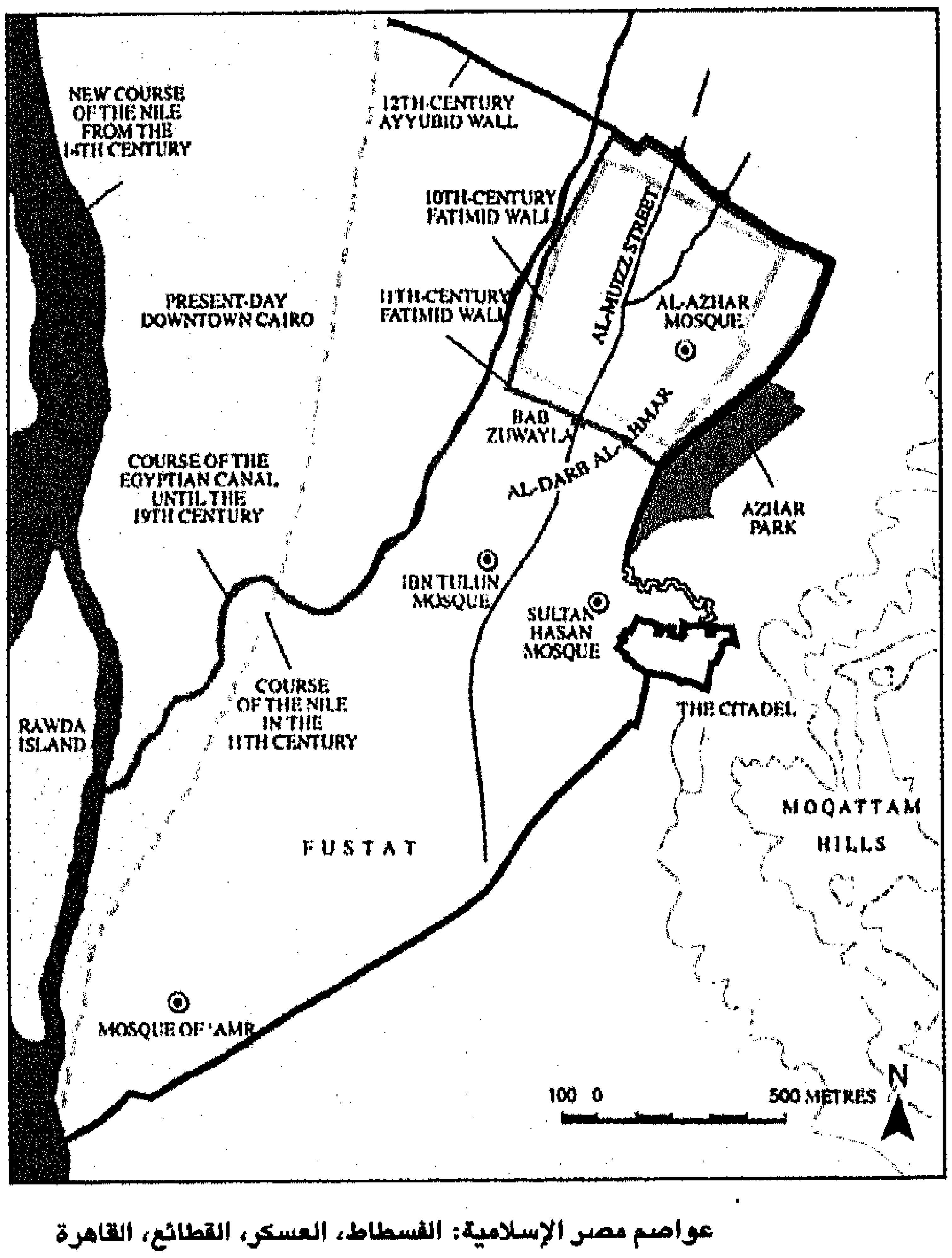

عواصم مصر الإسلامية: الفسطاط، العسكر، القطائع، القاهرة

وقع هذا المقر في مكان منعزل عن المقار الثلاثة السابقة لحكم مصر وهى الفسطاط والعسكر والقطائع، حيث كانت الأخيرتان امتدادا طبيعيا للأولى، ولم يُبن سور يفصل بينهم، لاستقرار الأوضاع السياسية في مصر إلى حد ما. وإن كان ابن طولون قد شيد سورا حول قصره ليوفر الأمن له[١٨]، وقلعة في جزيرة الروضة ليحتمى بها من خطر العباسيين[١٩]، إلا أنه لم يشيد سورا حول القطائع.

أدى تراكم الخبرات لدى الحكام إلى الاقتناع بضرورة اتخاذ نموذج جديد لمقر الحكم يوفر الأمن الذى كان كل الحكام يبتغونه. فالنموذج الأول البسيط في عمارته والذى وإن كان قد تطور بمرور الوقت ليشمل المسجد الجامع ودار الإمارة والدواوين ودار الضرب وخطط إقامة الجند سرعان ما يندمج في الكتلة العمرانية للعاصمة كما حدث في الفسطاط والعسكر. وهو ما يستدعى تشييد مقر جديد للحكم عند كل تحول أو انتقال للسلطة. لذا بات عزل مقر الحكم عن العاصمة هو الحل الأمثل، فانتشر تبعا لذلك نموذج الحصن الذى يضم كل مؤسسات الحكم بالإضافة إلى قصر الحاكم وجنده داخل سور يفصل بين المقر والعاصمة.

الحصن

مثلت الحصون كمقار حكم نموذجا بدأ العالم الإسلامى يعرفه في ظل الاضطرابات السياسية، لذا كان على الحكام أن يحتموا في حصون[٢٠]. عبر عن ذلك تشييد أبى جعفر المنصور بغداد حصنًا في ظل عدم استقرار الأوضاع في الكوفة والهاشمية[٢١]. بنيت بغداد حصنًا حصينًا دائرى الشكل ذى سلسلة من الحلقات الدفاعية المتداخلة معزول بعضها عن بعض بحيث إذا استطاع العدو أن يخترق إحداها واجه موانع أخرى تحول بينه وبين غرضه.

وجاء تخطيطها ليوحى بالرهبة، وبكثرة الاستعدادات الأمنية بحيث يشعر الإنسان وكأنه يدخل قصرا محاطا بتحصينات غير مسبوقة[٢٢].

جاء جوهر الصقلي[٢٣] إلى مصر وهو ينوى تشييد مقر حصين للحكم الفاطمي، وذلك بأوامر من الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٣٤١-٣٦٥هـ/ ٩٥٢-٩٧٥م)[٢٤] شيد جوهر القاهرة حصنًا يحيط به سور به أبواب ويضم بداخله قصور الخلفاء، ومسجدا جامعا هو الجامع الأزهر، ومن الملاحظ أن الدواوين بقيت في دار الإمارة الطولونية المجاورة[٢٥] للمسجد الطولونى إلى أن نقلها يعقوب بن كلس إلى داره بالقاهرة[٢٦] وبالإضافة إلى الدواوين، ارتبطت دار الضرب بأى حراك جغرافى لمركز الحكم. وبالرغم من

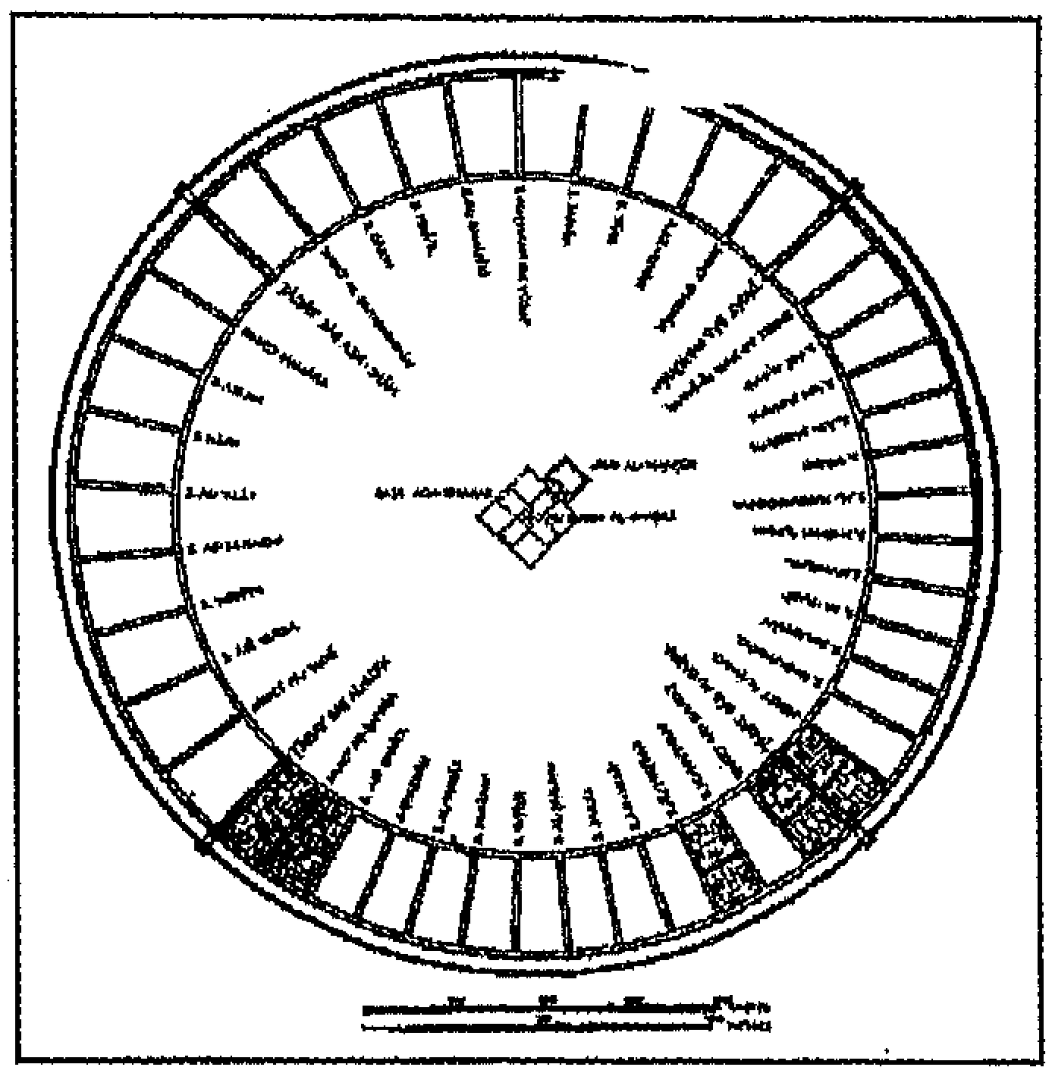

مدينة بغداد - تخطيط

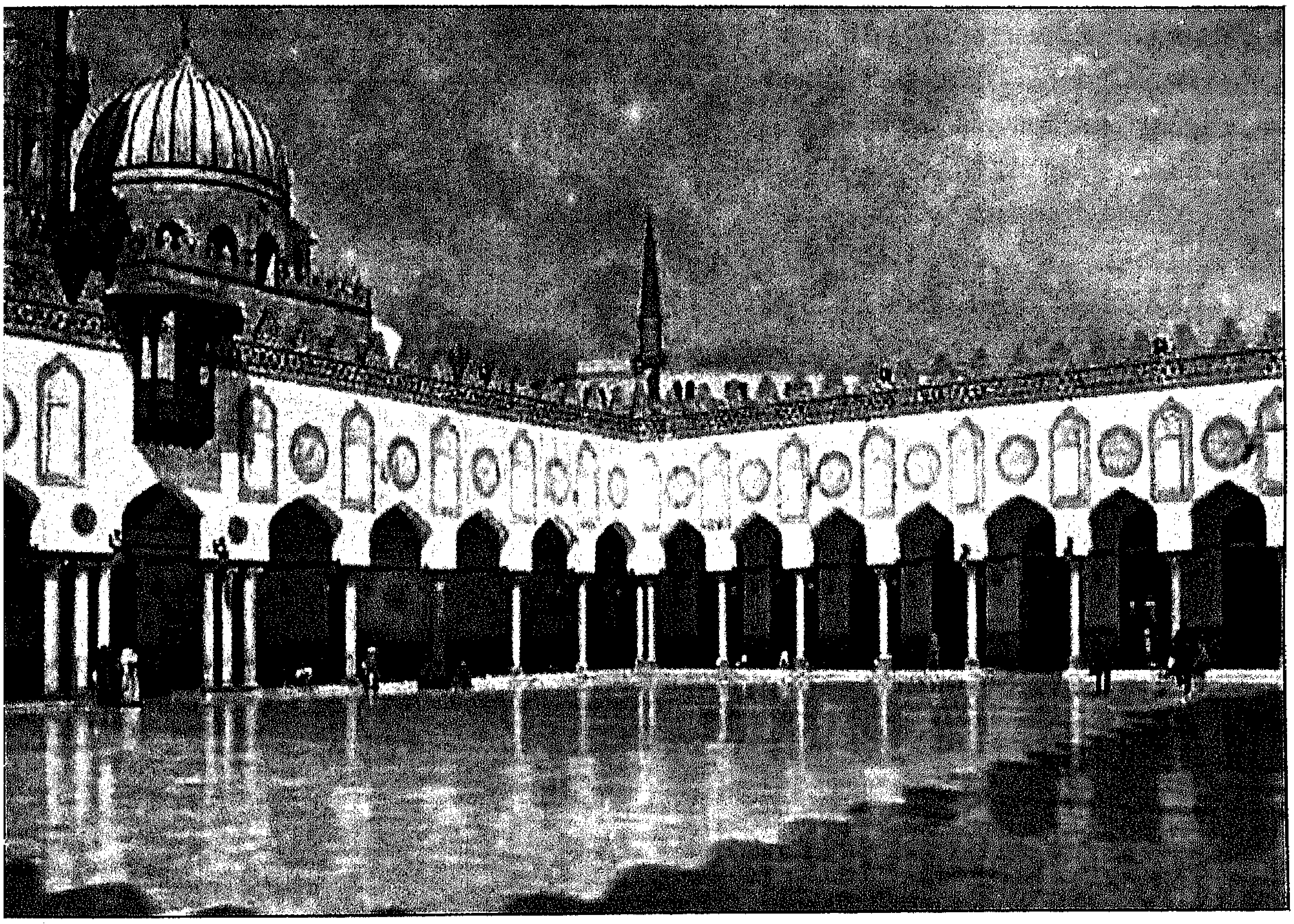

الجامع الأزهر - القاهرة

انتقال مقر الحكم من الفسطاط إلى العسكر ثم إلى القطائع ثم إلى القاهرة. فقد ظلت دار الضرب بالفسطاط لكونها عاصمة مصر، بيد أن تداعيات الشدة المستنصرية في أواسط القرن ٥ هـ / ١١م، فرضت تحويل الحصن الفاطمي إلى مدينة ملكية أكثر انفتاحا على المجتمع المصري، وهو ما أدى فيما بين عامي ٥١٥ -٥١٩هـ / ١١٢١ - ١١٢٥م إلى إنشاء دار ضرب بالقاهرة[٢٧]، أكتسب حصن القاهرة طابعا مدنيا، إذ سمح لبعض الفئات القريبة من السلطة بالإقامة فيه، ولكن مع سقوط الدولة الفاطمية أباح صلاح الدين الحصن لعامة المصريين[٢٨]، وهذا يعنى أن سقوط الدولة أنهى وظيفة الحصن كمقر للحكم في مصر، ولكن ظل هذا المقر يؤدى دوره إلى حين تأسيس المقر الجديد للدولة الأيوبية.

ويثير نموذج الحصن كمقر للحكم العديد من التساؤلات؟. إذ إن كلا من بغداد والقاهرة شيد ليكون مقرا للحكم ولكن هناك فروقا واضحة بينهما. لقد عبرت القاهرة عن مفهوم قوة السلطة وأضافت إلى ذلك فصل الحصن الملكى عن المراكز الحضرية تماما، فقد كانت الأسوار والبوابات – على عكس ما حدث في بغداد- ستارًا يفصل الحاكم عن الشعب ولم تشيد لتحيط بالمجتمع ككل بدءا من الحكام نزولا إلى عامة الشعب[٢٩]. وتكررت ظاهرة فصل الحصن عن المركز الحضرى عند تأسيس المرينيين[٣٠] لحصن فاس الجديدة الذى عرف بالبيضا ليكون مقرا لحكمهم ينفصل عن مدينة فاس القديمة التى عرفت بفاس البالي، وذلك في عام ٦٧٦هـ / ١٢٧٦م، ويبعد الحصن الملكى عن المدينة الحضرية بمسافة قدرها ٦٧٥مترا[٣١].

اختلف مفهوم كل من أبى جعفر المنصور والمعز لدين الله الفاطمى للحصن وأهدافه وعبر كلاهما عن ذلك بطريقته:

إذ وصف أبو جعفر بغداد بأنها (مشرعة للدنيا كل ما يأتى في دجلة من واسط والبصرة والأبلة والأحواز وفارس والبحرين وما يتصل بذلك فإليها ترقى وبها ترسو، وكذلك ما يأتى من الموصل وأذربيجان وأرمينية مما يحمل في السفن بدجلة، وما يأتى من مصر والمغرب مما يحمل في السفن بالفرات فيها يحط وينزل ومدرجة أهل الجبل وكور خراسان)[٣٢]. إن ما جاء في وصف أبى جعفر المنصور، يعبر عن رغبته في أن تكون بغداد مقرا لحكم هذه الأقاليم، في وقت كان فيه رسوخ لفكرة عالمية ديار الإسلام. ولأنه رغب في أن يعم السلام دولة الخلافة العباسية، حمل مقر حكمه اسم دار السلام أو مدينة السلام.

بينما كان لقاء المعز لدين الله مع أهل مصر معبرًا عن طبيعة مقر حكمه وحكمه إذ قال لهم "هل بقى منكم أحد؟ فقالوا: لم يبق معتبر فسل نصف سيفه وقال هذا نسبى، ونثر عليهم الدنانير. وقال هذا حسبى! فقالوا سمعنا وأطعنا"[٣٣]. وهكذا مجد اسم القاهرة قوة السلطة في وقت بدأت تتلاشى فيه عالمية ديار الإسلام.

وهناك سؤال يطرح نفسه: هل نجح الحصن مقرًا للحكم؟

تثير تجربتا بغداد والقاهرة الإجابة عن هذا السؤال. إذ لم يستمر الحصن مقر حكم دائم على الرغم من نجاح القاهرة في صد هجومين للقرامطة عند تأسيسها أحدهما في ربيع الأول ٣٦١هـ / ٩٧١م، وثانيهما في ٣٦٣هـ / ٩٧٢م[٣٤]، فقد كان للعامل الاقتصادى وضعف السلطة الفاطمية أثره في تحول الحصن لأداء دور مدنى أوسع، ثم لسقوط الدولة أثره في إنهاء وظيفة الحصن كمقر للحكم.

وكان للصراع الدامى الداخلى بين أبناء البيت العباسى أثره في إنهاء وظيفة المدينة المدورة (بغداد) كمقر للحكم، إذ كان للصراع بين الأمين والمأمون أثره في تدمير الحصن[٣٥]، وما تلى ذلك من أحداث وصراعات أدت في النهاية إلى إنهاء وظيفة الحصن سريعا. وعلى الرغم من إعادة تحصين المدينة في عهد المستعين بالله (٢٤٨-٢٥١هـ / ٨٦٢-٨٦٦م)[٣٦]، وفى عهد المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ / ١٠٩٤- ١١١٨م)، إلا أن السور هنا دار حول المدينة. وكان الهدف منه حمايتها وليس حماية مقر الحكم الذى تمثل في دار الخلافة أو في قصور الخلفاء والوزراء التى دار حولها سور أيضا[٣٧].

كان البحث عن نموذج آخر يصلح مقرًا للحكم هو هدف حكام المسلمين خاصة بعد أن أثبت نموذج الحصن عدم قدرته على الصمود، أمام التغييرات السياسية

والتحديات التى تواجه السلطة. فمع اضطراب السلطة أو تغيرها يندمج الحصن في العاصمة وهو ما حدث في بغداد والقاهرة.

نموذج القلعة

القلعة استحكام حربى يبنى للدفاع عن المدن أو عن الطرق التجارية. والقلعة في اللغة هى: الحصن الممتنع في جبل، كما أنها الحصن المشرف صعب المرتقي[٣٨]. واستعمال القلاع مقار للحكم نتج عن حاجة الحاكم إلى الأمن[٣٩] والسيطرة، ولذا وردت القلعة castle في الموسوعة البريطانية للدلالة على المكان المحصن الذى يعطى صاحبه القدرة على الدفاع عنه إما بحكم العوامل الطبيعية، وإما بما تصنعه يد الإنسان، وهى مسكن النبلاء يتم اختياره على أرض ملائمة ليسهل مهمة السيطرة على المدينة أو القرية في حال قيام ثورة فيها[٤٠]، وهذا التعريف يعبر عن مفهوم ودور القلاع في أوروبا، والتى بنيت لتحمى وتفرض نفوذ الإقطاعيين على الأرض والإنسان الذى يمتلكه هذا الإقطاعي[٤١].

بينما شيدت القلاع لتدافع عن حدود العالم الإسلامى وعرفت في بادئ الأمر بالربط[٤٢]، وتطورت عمارتها إلى أن أصبحت متينة البنيان، وتحولت العديد من التحصينات الدفاعية في شمال العراق وبخاصة حول الموصل إلى مدن قلاعية. أغرت حكامها أحيانا بأن يستقلوا عن الدولة؛ ظهر هذا في عصر ضعف الدولة العباسية (٢٣٢ – ٦٥٦ هـ / ٧٤٧ – ١٢٥٨م) خاصة أن معظم قلاع شمال العراق جبلية مما زاد في حصانتها. كان الخليفة العباسى قد عين عماد الدين زنكى واليًا على الموصل عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م[٤٣]، ومن هذه المنطقة بدأت رحلة الجهاد ضد الصليبيين، والتى وصل الأمر فيها إلى تولية صلاح الدين الأيوبى حكم مصر وبلاد الشام.

عندما استتب حكم مصر لصلاح الدين فكّر في مشروع طموح، وهو تحصين حواضر مصر بسور حصين تكون به قلعة تمثل المفصل القوى الذى يشد هذه الأسوار بعضها ببعض، أو تكون بمثابة نقطة ارتكاز قوية في هذه التحصينات[٤٤]، وبالتالى مقرا لحكم مصر. ويجب النظر في خطة صلاح الدين هذه إلى كونها خطة لتحصين مصر وبصفة خاصة مدينتى الفسطاط والقاهرة معا على أنها خطة لحماية المصريين من الخطر الصليبي، والذى سبق أن عانت منه البلاد وكان سببا مباشرا لقدوم أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر[٤٥]، خاصة أن التهديد الصليبى بغزو مصر ظل قائما[٤٦]، وجاء تشييد القلعة لتكون ملاذا أخيرا في حالة سقوط المدينة في يد الأعداء. يمكن من خلاله استردادها[٤٧]. كان صلاح الدين كذلك في حاجة إلى مقر جديد للحكم، فدار الوزارة التى أقام بها في القاهرة[٤٨] كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدولة الفاطمية، وبمنصبه هو في أواخر أيامها كثانى رجل في السلطة، وكان في حاجة إلى مكان لإقامة جنده خاصة فرقة الصلاحية[٤٩] وخصوصا بعد أن وزع القصور الفاطمية على أمرائه.

وهكذا رغب صلاح الدين في أن تؤدى القلعة وظائف متعددة، كمقر له ومقر لإيواء جنده، ولتثبيت صورته كسلطان ومؤسس لعصر جديد بتأسيس مقر للحكم يرمز لهذا العصر. والجديد في عصر صلاح الدين في مصر هو اتخاذ القلعة مقرًا للحكم، وهى استحكام حربى يوفر الأمن في ظل الاضطراب السياسى الذى ساد العالم الإسلامى حينئذ. فحينما كان صلاح الدين في بلاد الشام يضم دمشق وما حولها لدولته تعرض لمحاولتين لاغتياله على يد طائفة الحشاشين، الذين كانوا يحقدون عليه لأنه قضى على الدولة الفاطمية المصدر الروحى لهم. وفى الفترة نفسها تم القضاء على ثلاث محاولات للتمرد عليه من الموالين للفاطميين في مصر وهو ما انعكس على الإجراءات الأمنية المحيطة بصلاح الدين[٥٠].

لقد جاء صلاح الدين إلى مصر من الشام وهو متأثر بما رآه من قلاع في مدنها، فقد ولد في قلعة تكريت[٥١] وعاش طفولته في مدينة بعلبك المحصنة، ودخل في خدمة نور الدين محمود في سنة ١١٥٢م في سن الرابعة عشرة، وفى عام ١١٥٤م انتقل إلى دمشق مع والده الذى عين حاكما عليها وعمه أسد الدين شيركوه الذى عين قائدًا للجيش النوري، وسرعان ما ظهرت مواهب صلاح الدين واختاره نور الدين في عدة مناصب، وقضى السنوات الخمس عشرة التالية في

صحبة نور الدين في رحلاته وحملاته الحربية ما بين المدن والقلاع الحصينة التى تقع في نطاق ملكه ومهاجما للقلاع والمدن الصليبية وتعلم كيف يحكم دولة إقطاعية وكيف يقود جيشا[٣٥]. ومن المحتمل أنه في تلك الفترة نفسها اعتنق الأهداف العريضة للجهاد الإسلامى وإحياء السنة وإستراتيجية نور الدين في التعامل مع الصليبيين، وشهد صلاح الدين تجديد عدد من قلاع الشام بعد حدوث زلزالين ضربا المنطقة في عامى ١١٥٧م و١١٧٠م، مما أثر في قلاع حمص ودمشق وحلب وبعلبك والتى تم إعادة بنائها وتحصينها حتى تقاوم التطورات الجديدة في آلية الحصار.

مثلت قلعة الجبل في ضوء ما سبق أكثر من مجرد اهتمام بالدفاع والأمن أو التقدم في أساليب البناء وتقنيات الحصار. لقد كانت أحد المظاهر الطبيعية للتغيير في التعبير المعمارى في العالم الإسلامى آنذاك. والذى تجلى في بناء وإعادة تجديد القلاع كمقار للأمراء في كل أنحاء آسيا الصغرى والشام في القرنين الحادى عشر والثانى عشر. مثل قلاع دمشق وحلب وحماة وحمص في سورية والموصل وتكريت وسنجار في العراق وقونية وقيصرية في آسيا الصغرى كل هذه القلاع تنتمى للتوجه نفسه، وكانت مقار للحكم لإمارات مستقلة ظهرت في القرنين السادس والسابع الهجريين، الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين مع انهيار الدولة السلجوقية[٣٦]، إن بناء وتجديد تلك القلاع، كان يبشر بعهود جديدة جذورها غير عربية وميولها عسكرية. وكثير من مؤسسى تلك الأسر الحاكمة كانوا في الأصل قوادا في الجيوش السلجوقية أو أتابك لأمراء سلجوقيين وكانوا أيضا فرسانا يتحدثون التركية، وينتمون إلى طائفة عسكرية سنية أسلمت مؤخرا وباتت تهيمن على الوضع السياسي[٣٧]؛ لذا لم يكن تولى المماليك الأتراك حكم مصر شيئا مستغربا في ظل هذه الأوضاع مع استمرار اتخاذهم للقلعة مقراً للحكم.

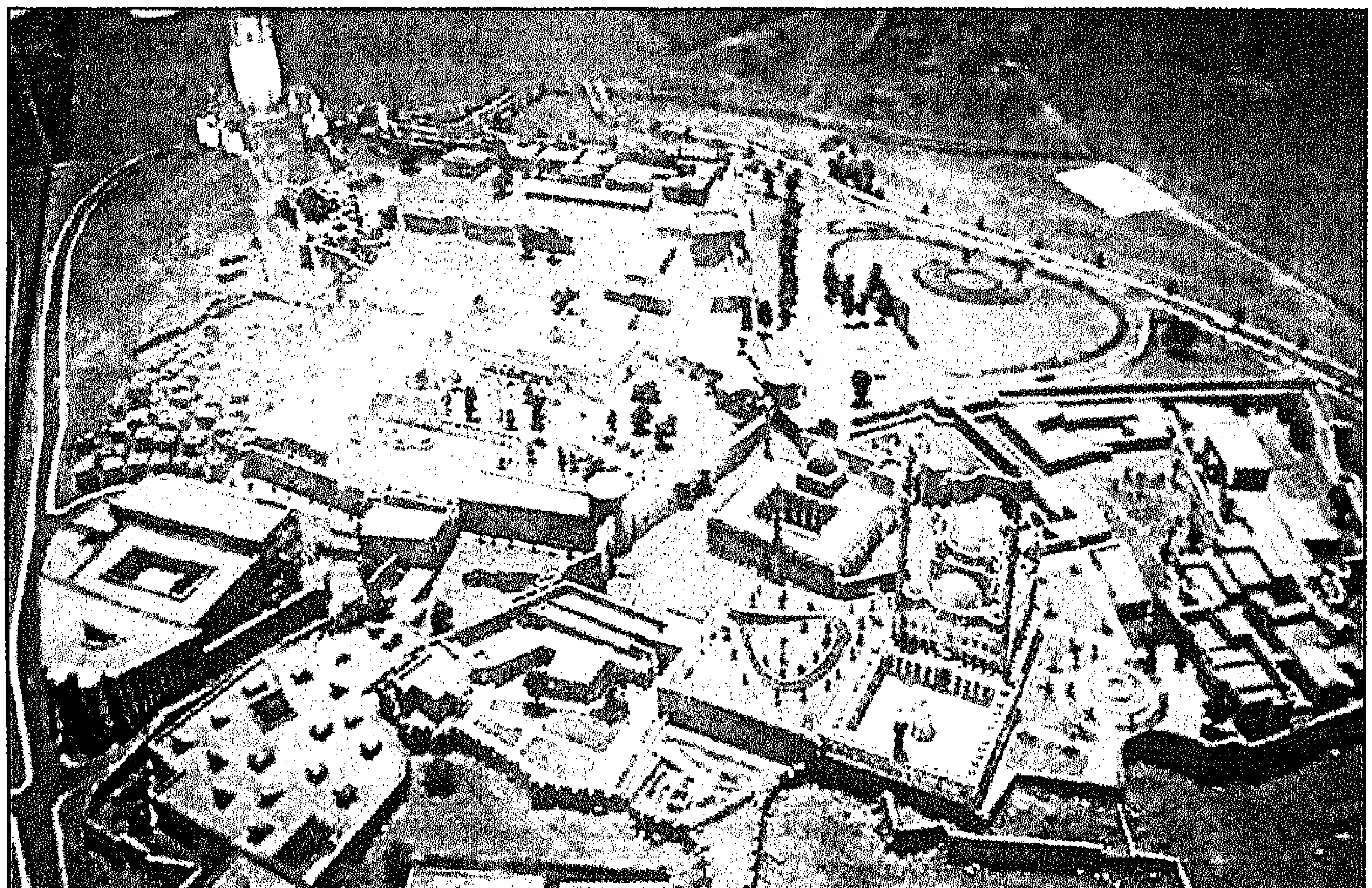

قلعة الجبل – المدينة الملكية والحصن

الحواشي

١ عبد الحى الكتانى، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية والولايات الدينية، ص ٧٦: ٨٦، نشر دار الكتاب العربى بيروت، دون تاريخ.

٢ ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر والمغرب، ص٩٦، ليدن ١٩٢٢. حورية سلام (دكتورة) الحياة الاقتصادية والاجتماعية بمدينة الفسطاط حتى العصر الفاطمي، ص٧٣، رسالة ماجستير، كلية الأداب، جامعة القاهرة ١٩٧٣.

٣ جاء في فتوح مصر لابن عبد الحكم، روايتان ثانيتان حول دار عمرو، تروى أولاهما أن دار عمرو هى تلك التى اختطها ابنه عبد الله عند المسجد الجامع حيث بنى دارا على تربيع الكعبة الأولى، والرواية الثانية تذكر أن عمرًا قد اختط إلى جوار المسجد دارا أراد أن يجعلها لعمر بن الخطاب إلا أن الخليفة رفض وكتب إلى عمرو (أنى لرجل في الحجاز أن تكون له دار بمصر) والروايتان لا أستطيع الأخذ بهما، لعلل فيهما، ذلك أن عمرو بن العاص كان من الطبيعي أن يبنى دارا له يسكن فيها إلى جوار دار ابنه، وأن يتجاور الاثنان في السكن، خاصة أن عبد الله قدم وهو كبير السن، واستقر بها إلى أن مات. ومن المحتمل أن يكون قد ضم دار والده إلى داره، سكن من قدم من الأمراء دار والده، واعتبرت مقرا لهم لقربها من المسجد الجامع. والرواية الثانية قد تكون من المبالغات التاريخية التى كثيرا ما ترددها كتب التاريخ. ويعود تعدد الروايات في هذا الشأن لدى ابن عبد الحكم إلى أن المؤرخين دأبوا على تسجيل ما يتردد من روايات. وكان القارئ قديما يستطيع تمييز الصحيح منها لعلمه بقواعد الجرح والتعديل ونقد المتن من خلال علم مصطلح الحديث. انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص٩٢، ٩٧.

٤ شوقى أبو خليل، الحضارة العربية الإسلامية، ص١٩٢، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ١٩٨٧.

٥ خطط الحمراوات ثلاث: دنيا ووسطى وقصوى، وسميت بذلك لنزول الروم بها، وهم حمر الألوان. ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ١٢٢– ١٢٣؛ ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص ٩١، دار الآفاق الجديدة. بيروت ١٩٨٧ م؛ يوسف أحمد، الفسطاط، ص ١٤–١٧. سلسلة المحاضرات الأثرية القاهرة ١٩١٧م.

٦ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ١٢٨– ١٢٩.

٧ اتخذ عبد العزيز بن مروان من حلوان مقرا لحكمه فيما بعد، وكان قد بدأ في تشييدها من عام ٦٧هـ/ ٦٨٦م بهدف أن تكون منتزها له، وليقيم فيها للراحة والاستجمام، ولكن ظهور طاعون في الفسطاط سنة ٧٠هـ/ ٨٨٩م جعله يتخذ من حلوان مقرا للحكم، وكان قد شيد بها قصرا ودورا. وعاد مقر الحكم إلى الفسطاط سنة ٨٧هـ/ ٧٠٦م في أثناء ولاية عبد الله بن عبد الملك. الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف، الولاة والقضاة، ص٤٩، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨م؛ ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٩. دار صادر بيروت ١٩٥٧م؛ سعاد ماهر (دكتورة)، القاهرة القديمة وأحياؤها، ص١١٧، المكتبة الثقافية، العدد (٧٠)، ١٩٦٢.

٨ الكندي، الولاة والقضاة، ص٤٩.

٩ على سبيل المثال دار الإمارة في واسط التى شيدها الحجاج بن يوسف الثقفي. انظر، عبد القادر المعاضيدى (دكتور)، واسط في العصر العباسي، ص١٢٤. دائرة الشئون الثقافية، بغداد. ١٩٨٣م.

١٠ أحمد مختار العبادى (دكتور)، أحداث مصر الإسلامية والمغرب والأندلس، ص٤٦٣، بحث في كتاب أزمنة التاريخ الإسلامي، ج١، القسم الأول، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٢م.

١١ عماد الدين خليل (دكتور)، القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي، ص ٤٣ – ٥٧. مكتبة النور، القاهرة ١٩٨٥.

١٢ أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١، ٢٢٦ – ٢٢٧، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٣.

١٣ البلوى، عبد الله بن محمد المديني، سيرة أحمد بن طولون، ص٥٥ – ٥٦، تحقيق محمد كرد على، طبعة دمشق ١٩٣٩م.

١٤ استقل السري بن الحكم بحكم مصر عن الدولة العباسية، مستغلا الاضطرابات التى سادت الدولة العباسية في أثناء الصراع بين الأمين والمأمون. الكندي، الولاة والقضاة، ص ١٦٦– ١٦٧؛ سامح عبد الرحمن فهمى (دكتور)، دولة بنى السري أول من استقلت بمصر عن الدولة العباسية، ص٧٣ – ١١٠، مجلة دراسات أثرية إسلامية، المجلد الرابع، القاهرة، ١٩٩١م.

١٥ البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٨٠ – ٨١.

١٦ المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، ج١، ص٣١٢ – ٣١٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١، ص٢٢٧.

١٧ المقريزى، الخطط المقريزية، ج١، ص ٣٠٥.

١٨ المقريزى، الخطط المقريزية، ج١، ص٣١٥.

١٩ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، من ص١٧٨ :١٨١؛ فريد شافعى (دكتور)، العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، ص٥٢٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية ١٩٩٤.

٢٠ شيد الحجاج بن يوسف الثقفى (٨٣ – ٨٦ هـ/ ٧٠٢ – ٧٠٥م) واسط بين الكوفة والبصرة وجعلها مدينة مسورة حصينة لكى تساعده في السيطرة على العراق ومدينتيه الكبيرتين الكوفة والبصرة. تعد واسط من أوائل الحصون التى شيدت لتكون مقرا للحكم يعبر عن قلق الحاكم الأمنى وحاجته للسيطرة على الإقليم الذى يحكمه. عبد القادر سليمان المعاضيدى (دكتور)، بناء المدن العسكرية، ص ٢٧٦. بحث ضمن كتاب الجيش والسلاح، الجزء الثالث بغداد ١٩٨٨م.

٢١ لم يستقر بنو العباس قبل تأسيس بغداد على عاصمة لهم إذ أقام أبو العباس هاشمية الأنبار، ونقل أبو جعفر الحكم منها إلى الحيرة، ثم أسس هاشمية الكوفة، غير أنه وقعت بهذه المدينة واقعة الراوندية التى كاد يقتل فيها المنصور، ولهذا السبب كره المنصور الإقامة فيها بعد أن قضى على حركة الراوندية، كما كرة الإقامة فيها لعامل آخر هو مجاورة أهل الكوفة أنصار العلويين. فقد كان لا يأمنهم على نفسه، وكانوا قد أفسدوا عليه جنده، وتحتم على المنصور البحث عن موضع جديد أفضل من المواضع السابقة تتوفر فيه جميع المزايا الاستراتيجية. السيد عبد العزيز سالم (دكتور) العصر العباسى الأول، ص٢٤٣ – ٢٤٤، مؤسسة الشباب، الإسكندرية. ١٩٨٤.

٢٢ لمزيد من المعلومات عن تحصينات بغداد انظر: عبد القادر المعاضيدى، بناء المدن العسكرية، ٢٣٣ – ٢٤٠.

٢٣ جوهر الصقلي: هو أبو الحسن بن عبد الله الرومى الصقلي، قاد جيوش الفاطميين لفتح مصر، وأسس حصن القاهرة ليكون مقرا لحكمهم بها. لمزيد من التفاصيل انظر: الذهبى، شمس الدين محمد بن أحمد ابن عثمان، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص٤٦٨. مؤسسة الرسالة ١٩٨١ م؛ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج١، ص ٢٧٥: ٣٨٠. تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت بدون تاريخ.

٢٤ ابن عبد الظاهر، محى الدين أبو الفضل عبد الله، الروضة البهية في خطط المعزية القاهرة، ص١٢، تحقيق . أيمن فؤاد سيد (دكتور)، الدار العربية للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م.

٢٥ المقريزى، الخطط المقريزية، ج١، ص٣٩٧.

٢٦ المقريزى، الخطط المقريزية، ج١، ص٣٩٧.

٢٧ ابن عبد الظاهر، الروضة البهية، ص٣٢–٣٤؛ أحمد الصاوى (دكتور) مجاعات مصر الفاطمية، ص١٢٩، بيروت – بدون تاريخ؛ محمد أبو الفرج العش(دكتور) مصر القاهرة على النقود العربية الإسلامية، ص١١، ج ٢، من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مطبعة دار الكتب ١٩٧١م.

٢٨ المقريزى، الخطط المقريزية، ج١، ٣٦٤.

٢٩ Olg graber. power and architecture, p75.

٣٠ ورث المرينيين الموحدين في حكم المغرب، وهم ينتمون إلى قبائل زناته البربرية، ظل حكمهم في المغرب من القرن ٦هـ/١٢م إلى القرن ٩هـ/١٥م. كان لهم دور كبير في مساعدة بني نصر حكام غرناطة بالأندلس في مقاومة الصليبيين. وشيدوا العديد من المنشآت الحضارية التي مازالت باقية حتى اليوم خاصة في مدينة فاس ومن أشهر ملوكهم الأمير عبد الحق بن محيو، وأبو يوسف يعقوب، وأبو يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب. لمزيد من التفاصيل عنهم انظر: كليفورد بوزروث، الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص ٥٩: ٦٢. ترجمة حسين اللبودى، مراجعة سليمان العسكري(دكتور)، عين للدراسات ومؤسسة الشراع العربية. القاهرة ١٩٩٥ م؛ عبد الفتاح مقلد الغنيمى (دكتور) موسوعة المغرب العربي، ج٣، ص١٩٧: ٢٤١، مكتبة مديولى ١٩٩٤م.

٣١ روجيه لوتورنو، فاس في عهد بني مرين، ص٢٦. ترجمة نقولا زيادة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٧م.

٣٢ اليعقوبى، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب، البلدان، ص٢٢٧ – ٢٢٨. ليدن ١٨٩٢م.

٣٣ ابن عبد الظاهر، الروضة البهية، ص١٤.

٣٤ عبد الرحمن زكى(دكتور)، امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك، ص٦٢٠، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ج٢، ١٩٦٩م.

٣٥ مصطفى عباس، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، ص١٣٩ – ١٤٠، دار الرشيد بغداد ١٩٨٢م.

٣٦ عبد العزيز حميد صالح (دكتور)، التحصينات الدفاعية في بغداد الشرقية، كتاب الجيش والسلاح، ج٢، ص٣٥٦.

٣٧ عبد العزيز حميد صالح، التحصينات الدفاعية، ص ٣٦٨ – ٣٦٩.

٣٨ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ج٨، ص٢٩٠، دار صادر بيروت، ١٩٦٨م.

٣٩ بدأت تظهر ضرورة ملحة إلى توفير الأمن للحكام في الدولة الإسلامية بعد تكرار محولات اغتيال الحكام ومن ذلك اغتيال على ابن أبى طالب في مسجد الكوفة سنة ٤٠هـ/ ٦٦٥م ومحاولة اغتيال معاوية بن أبى سفيان والتى ترتب عليها اتخاذ المقاصير في المساجد الجامعة. والمقصورة عبارة عن حاجز من الخشب الخرط توضع خلف المحراب الهدف منها حجب الحاكم عن الناس أثناء الصلاة. وقد كره الفقهاء اتخاذ المقاصير في المساجد لتفريقها الصفوف، وكان أول من اتخذها معاوية بن أبى سفيان في مسجد دمشق، وأقدم مقصورة باقية موجودة في مسجد القيروان، وهى تعود إلى القرن ٥هـ/ ١١م. وقد عملت مقصورة في مسجد عمرو ابن العاص في الفسطاط في ولاية قرة بن شريك في عهد خلافة عبد الملك بن مروان في القرن ١هـ/ ٧ م. الزركشى، إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ٣٧٥، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٤٠٣هـ. صالح لمعى (دكتور)، التراث المعمارى الإسلامى في مصر، ص ٩٧، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٤م. حسين مؤنس (دكتور)، المساجد، ص ١٤٨ – ١٤٩. سلسلة عالم المعرفة، العدد (٣٧)، الكويت ١٩٨١م.

٤٠ Encyclopaedia britanica. vol 5, p.38,39. 1972

٤١ Olg graber, Power and architecture ,p 69

٤٢ الرباط: ربط الشيء يربطه أى يشده، والرباط ما يربط به والمرابطة ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله ثم صار لزوم الثغر، ومنها أصبح الرباط المواظبة على الأمر، كذلك المواظبة على الطهارة والصلاة والجهاد، ورابطت أى لازمت. الأربطة منشآت حربية يقيم فيها المرابطون طوال العام لمواجهة أى هجوم محتمل على الثغور الإسلامية، انتشرت الأربطة على طول سواحل البحر المتوسط خاصة في العصر العباسى الذى تبقى منه رباطان

في تونس الأول رباط المنستير الذى شيده هرثمة بن أعين في الفترة مابين ١٧٩-١٨١هـ/ ٧٩٥ -٧٩٧م. والثانى رباط سوسة الذى شيد سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١-٨٢٢ م. وبمرور الوقت استغلت الأربطة كمنشآت لإقامة فقراء المسلمين أو لرعاية النساء اللاتى لا عائل لهن أو المغتربات أو المطلقات واستخدمت الأربطة أيضا لإقامة الصوفية ومن هنا جاء الخلط بينها وبين وظيفة الخانقاه. محمد عبد الهادى شعيرة (دكتور)، من تاريخ التحصينات العربية في القرنين الأول والثانى للهجرة، ص ٤٤٠: ٤٤٢. بحث ضمن أبحاث المؤتمر الدولى الرابع للآثار في البلاد العربية، القاهرة ١٩٦٥م. إبراهيم شبوح، قصر هرثمة بن أعين بالمنستير، رسالة ماجستير كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٦٤م. محمد سيف النصر أبو الفتوح (دكتور) منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك، ص ٣٥٢: ٣٦١. رسالة دكتوراه كلية الآداب بسوهاج جامعة أسيوط ١٩٨٠م. سعد المومني، القلاع الإسلامية في الأردن، ص ٨١. دار البشير عمان ١٩٨٧م. Neji Djelloul, Les Fortifications en Tunisie, Fortifications en Tunisie, p 42: 53. Tunisie 1999

٤٣ علاء نورس (دكتور) مدن القلاع، ص٢٦٧:ص٢٧٦. بحث ضمن كتاب المدينة والحياة المدنية، الجزء الثاني، بغداد ١٩٨م.

٤٤ بول كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص٦٧. ترجمة أحمد دراج (دكتور)، مراجعة جمال محرز (دكتور)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.

٤٥ محمد مصطفى زيادة (دكتور) الدولة الأيوبية، ص٤٦٠ - ٤٦٢. بحث ضمن كتاب الحضارة المصرية، المجلد الثاني، مكتبة مصر. أسامة عبد النعيم (دكتور)، أسوار صلاح الدين وأثرها في امتداد القاهرة حتى عصر المماليك، ص ٥٣، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة ١٩٩٢م.

٤٦ سهيل زكار (دكتور)، حطين مسيرة التحرير، ص ٨٩. دار حسان دمشق ١٩٨٤م.

٤٧ كريزويل، وصف قلعة الجبل، ص ١٢، ترجمة د. جمال محرز، مراجعة د. عبد الرحمن زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م.

٤٨ دار الوزارة الفاطمية، كانت تقع في موضع الخانقاه التى شيدها السلطان بيبرس الجاشنكير وشيدت على أرضها منشآت أخرى، شيد دار الوزارة بدر الجمالى أو ابنه الأفضل وربما أكملها الأفضل. يرجح المقريزى أن مشيدها هو الملك الأفضل. ظلت مقرا لوزراء الدولة. الفاطمية إلى أن ولى صلاح الدين الوزارة للخليفة الفاطمى العاضد وألغى الخلافة. فلم يتحول عنها لمكان آخر بل ظل يتخذها مقرا له. ابن عبد الظاهر، الروضة البهية، ص ٥٠؛ المقريزى، الخطط المقريزية، ج١، ص ٤٣٨.

٤٩ سهيل زكار(دكتور)، حطين مسيرة التحرير، ص٩٢.

٥٠ أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ص ٦٩٥.

٥١ تقع تكريت اليوم في العراق، وهى عاصمة محافظة صلاح الدين.

٥٢ أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، ص٢٥٢، ٣٥: ٤٢، ج٢، ص٥٣٥؛ المقريزى، السلوك في معرفة دول الملوك، ج١، ص ٣٥، ٤٢.

٥٣ Nasser O.Rabbat, The citadel of cairo, p 16 Leiden. New York, Kolen.1995

٥٤ Nasser O. Rabbat, The citadel, p16

الفصل الثاني

نشأة القلعة

التأسيس والتكوين

مرت قلعة الجبل بمرحلتين أساسيتين، الأولى هي مرحلة التأسيس التى بدأت على يد صلاح الدين وانتهت بانتقال الكامل بن العادل الأيوبى إلى القلعة ليتخذها مقرا لحكمه عام ٦٠٤هـ/١٢٠٧م[1]. في هذه المرحلة باتت القلعة تستكمل مقوماتها كحصن حربى ومقر للحكم. والمرحلة الثانية تبدأ من عصر الكامل إلى نهاية عصر الناصر محمد بن قلاوون، ونستطيع أن نعتبرها فترة تكوين مقومات القلعة كمقر للحكم، وبعد حكم الناصر لم تضف إلى القلعة منشآت جديدة تدل على تحولات مثيرة، سوى بعض الإضافات والتعديلات والتجديدات خاصة في العصر العثماني. يبقى عصر محمد على فترة حاسمة في تاريخ القلعة، إذ حدث فيه تغير في التعبير المعمارى كان انعكاسا للوضع السياسى الجديد، وهو ما سيأتى الكلام عنه في حينه.

طور التأسيس

بنيت القلعة على نتوء صخرى ارتفاعه ٧٥مترا يمتد غربا من جبل المقطم وهو في منتصف الطريق بين القاهرة والفسطاط. وطبقا لرواية المقريزى اختار صلاح الدين موقع القلعة بنفسه بواسطة تعليق ثلاث قطع من اللحم في ثلاثة مواقع. كان موقع الرصد هو أكثر هذه المواقع التى بقى فيها اللحم أطول فترة ممكنة دون أن يفسد. وهو ما يوضح لنا أهمية الميزات البيئية والصحية في اختيار الموقع. وبالرغم من ذلك وقع اختيار صلاح الدين على موقع القلعة الحالى لأسباب استراتيجية[2]. فهذا الموقع يطل ويهيمن على مدينة القاهرة في الشمال الغربى ومدينة الفسطاط في الجنوب. والمسافة بينهما نادرة السكان، والمر أو الطريق الشمالى الجنوبى بينهما. فضلا عن أنه قريب منهما بوضع يكفل للقلعة الإمدادات في حالة

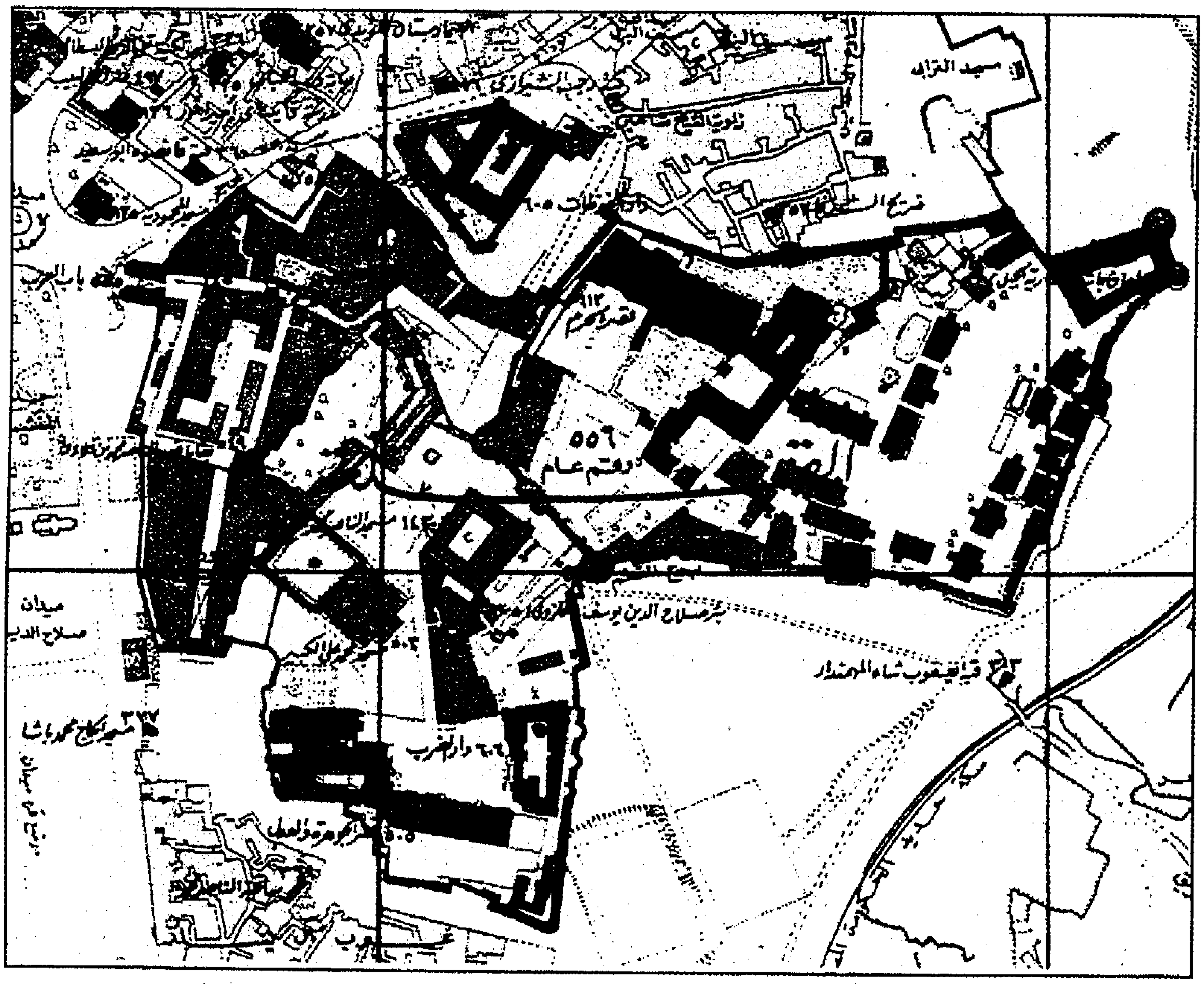

قلعة الجبل – المخطط العام

الحصار. وموقعها منعزل عما حولها مما يجعلها ملجأ آمنا للحاكم في حالات الاضطرابات السياسية. فضلا عن تأثر صلاح الدين بنمط القلاع الجبلية في الشام والعراق. لم يكن صلاح الدين ورجاله أول من التفت إلى أهمية موقع القلعة، فقد كان متنزها، إذ شيد فيه حاتم بن أبى هرثمة قبة الهواء وذلك فيما بين عامى ١٩٤-١٩٥هـ/ ٨٠٩-٨١١م[٣]. واستعملت من قبل الولاة العباسيين وأقام بها الخليفة المأمون عند زيارته لمصر، ودارت بها العديد من الأحداث السياسية إلى أن دمرت مع تدمير الجيش العباسى للقصر والميدان الطولونى اللذين كانا يقعان أسفلها[٤]، وكان ابن طولون ومن خلفه قد اعتنوا بها لذا عدها العباسيون جزءا من رموز السلطة الطولونية المستقلة عن دولة الخلافة. يرى كازانوفا أن مكان قبة الهواء كان يقع في المكان المعروف حاليا بمتحف الشرطة والقاعة الأشرفية المكتشفة حديثا[٥]، غير أن ناصر الرباط قد أجرى سلسلة من التحليلات انتهى فيها إلى أن موقعها في موقع مسجد الناصر محمد بن قلاوون[٦] والذى ذهب إليه يقرب من الصواب، إذ إن هذا الموقع شغل جزءًا منه مسجد سعد الدولة والذى يرجح أنه شيد لأداء الصلاة في هذا الموقع المنعزل عن العمران وربما أسسه حاتم ابن هرثمة مع تشييده القبة وهذا المسجد ربما جدد في العصر الفاطمي، ومن الطبيعى أن تشيد قبة الهواء في اتجاه العسكر، حاضرة العباسيين في مصر، فضلا عن أن هذا الموقع نستطيع أن نرى منه الأهرامات والنيل حينئذ. والمكان الذى اقترحه كازانوفا لموقع قبة الهواء كان يطل على صحراء جرداء في العصر العباسي. وإذا دققنا في سبب ترجيح كازانوفا له سنجد أنه اعتمد على مقولة المقريزى إن قبة الهواء كانت في سطح الجرف الذى عليه قلعة الجبل[٧] ولم يحدد اتجاهها. وتعلق الأمر هنا باستنتاج من كازانوفا. غير أن معطيات الموقع وما تحته من امتداد عمرانى ترشح ما ذهب إليه ناصر الرباط. وما سبق يعطينا دلالات على أن هذا الموقع له جاذبيته السلطوية منذ فترة مبكرة. وقبة الهواء نرجح أنها كانت تسمح لمن يجلس بها بالاستمتاع بما يراه منها من معالم، فضلا عن أنه من المرجح إلحاق مرافق بها للإقامة وتساعد على أداء الولاة دورهم في حالة وجودهم بها. ولاشك أنه ألحق بالقبة مسجد أو مصلى لأداء الصلوات الخمس في المكان المنعزل. ومن المحتمل أنه كان في موضع أو في جزء من موضع مسجد سعد الدولة. ولفرط أهمية قبة الهواء وما جرى بها من أحداث فقد ظلت ذكراها تتردد في المصادر التاريخية، وشيد في موضع القلعة عشرة مساجد في العصر الفاطمي[٨] بقى منها الآن مسجدان: مسجد سعد الدولة الذى شيد في موقعه مسجد الناصر محمد بن قلاوون ومسجد قسطة الذى شيد في موقعه مسجد سارية الجبل[٩]. وهدمت بعض هذه المساجد عند تأسيس القلعة[١٠].

قلعة الجبل في عهد صلاح الدين

إذا أردنا أن نحلل التطور الطبوغرافى للقلعة طبقا للتحولات السياسية المختلفة التى طرأت عليها فلابد من أننا سنتعامل مع مشيدها، وكذلك من أدخلوا تعديلات جوهرية عليها.

قلعة الجبل

استخدم بهاء الدين قراقوش الأسرى الصليبيين في بناء القلعة[١١]، وهو ما وفَّر عليه الكثير من الأموال والوقت اللازم لتدبير العمالة اللازمة لأعمال قطع الأحجار في منطقة الخندق المتاخم للقلعة والتى تفصل القلعة عن جبل المقطم. وتوحى ملحوظة ابن جبير حول قطع الأحجار بأن هذه الأحجار

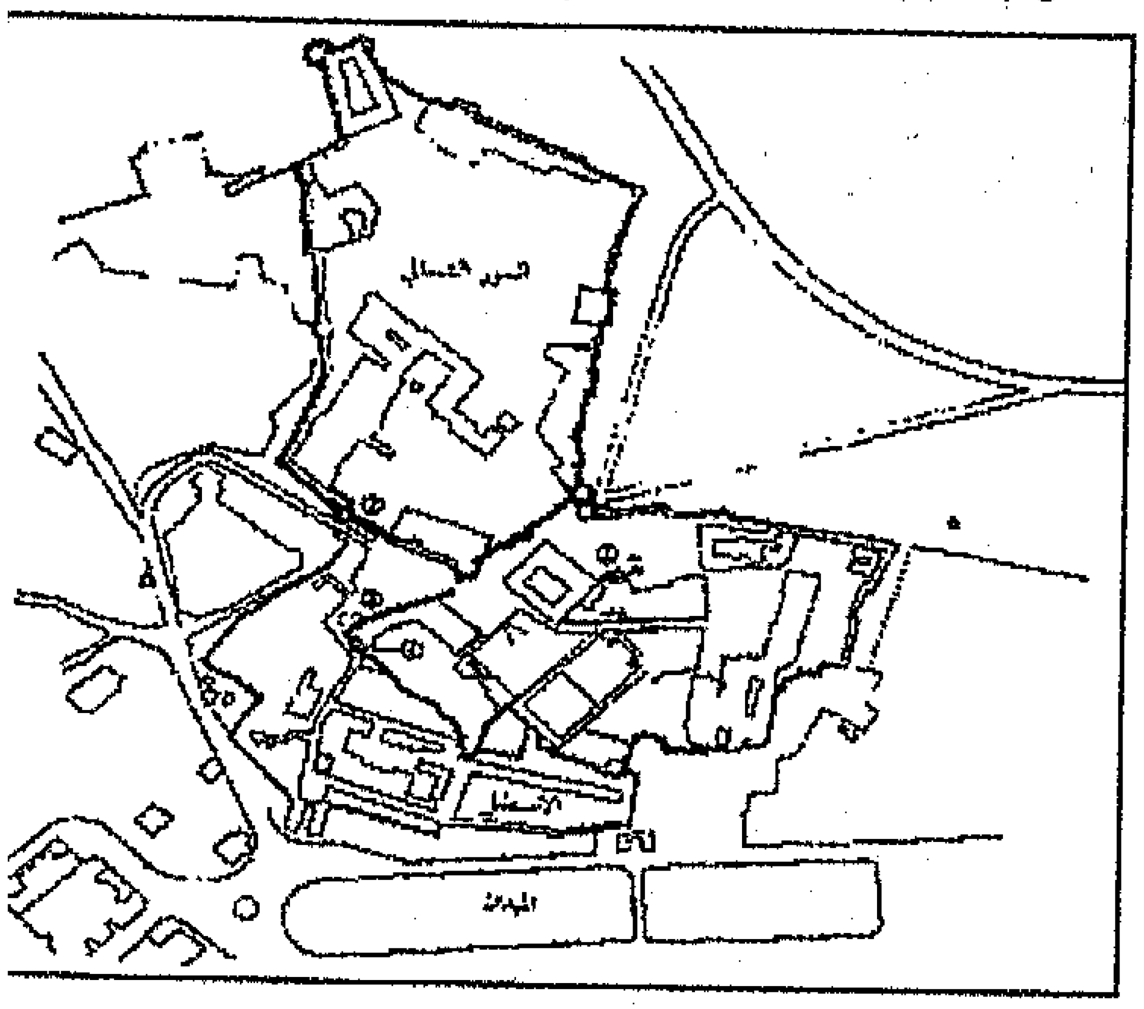

القلعة فى العصر الأيوبى

كانت تستخدم في بناء أبراج وأسوار القلعة، وهو ما يوفر المال والوقت والجهد. واعتمد بعض الباحثين على ما ذكره ابن جبير في دحض ما فهم خطأ من رواية عبد اللطيف البغدادى عن استخدامه أحجار الأهرامات الصغيرة في الجيزة في بناء القلعة، غير أن رواية البغدادى تفيد أنه استخدم هذه الأحجار في بناء جسر بين الجيزة والفسطاط، يتكون من أربعين عقدا[١٣]، غير أنه اكتُشِفَت أثناء أعمال الكشف عن أسوار صلاح الدين الشرقية في عام ١٩٩٨م، نصوص هيروغليفية بالسور تعود إلى عصر الدولة القديمة تثبت استخدام قراقوش لأحجار من منطقة أهرامات الجيزة غير أنه يبدو أنه قد تراجع عن ذلك لعدم جدوى نقل الأحجار من الجيزة إلى موقع السور وبالتالى إلى القلعة.

يعد الفصيل الذى زاد فيه قراقوش ليفصل بين موضع القلعة وجبل المقطم، والذى جعل منه خندقا عميقا من أكبر أعمال تأمين القلعة[١٤]. ويعتقد بعض الباحثين أن قلعة قراقوش هى القسم الشمالى فقط من القلعة الحالية، ومن هؤلاء كازانوفا[١٥] بينما يرجع البعض أن يكون قراقوش شيد أجزاء من القسم الجنوبى ومنهم كريزويل[١٦] وتعطى المعطيات التاريخية والتحليلية أن قراقوش شيد القسمين معا ولكن حدود القسم الجنوبى تعرضت للتغيير نتيجة لكثافة العمران وتتابعه في هذا القسم. والدليل على أن القسمين نفذا معا ضمن مخطط القلعة هو القياسات التى أوردها العماد الأصفهانى من الوثائق الرسمية للدولة الأيوبية، والذى أفاد بأن محيط القلعة بما فيه أبراجها

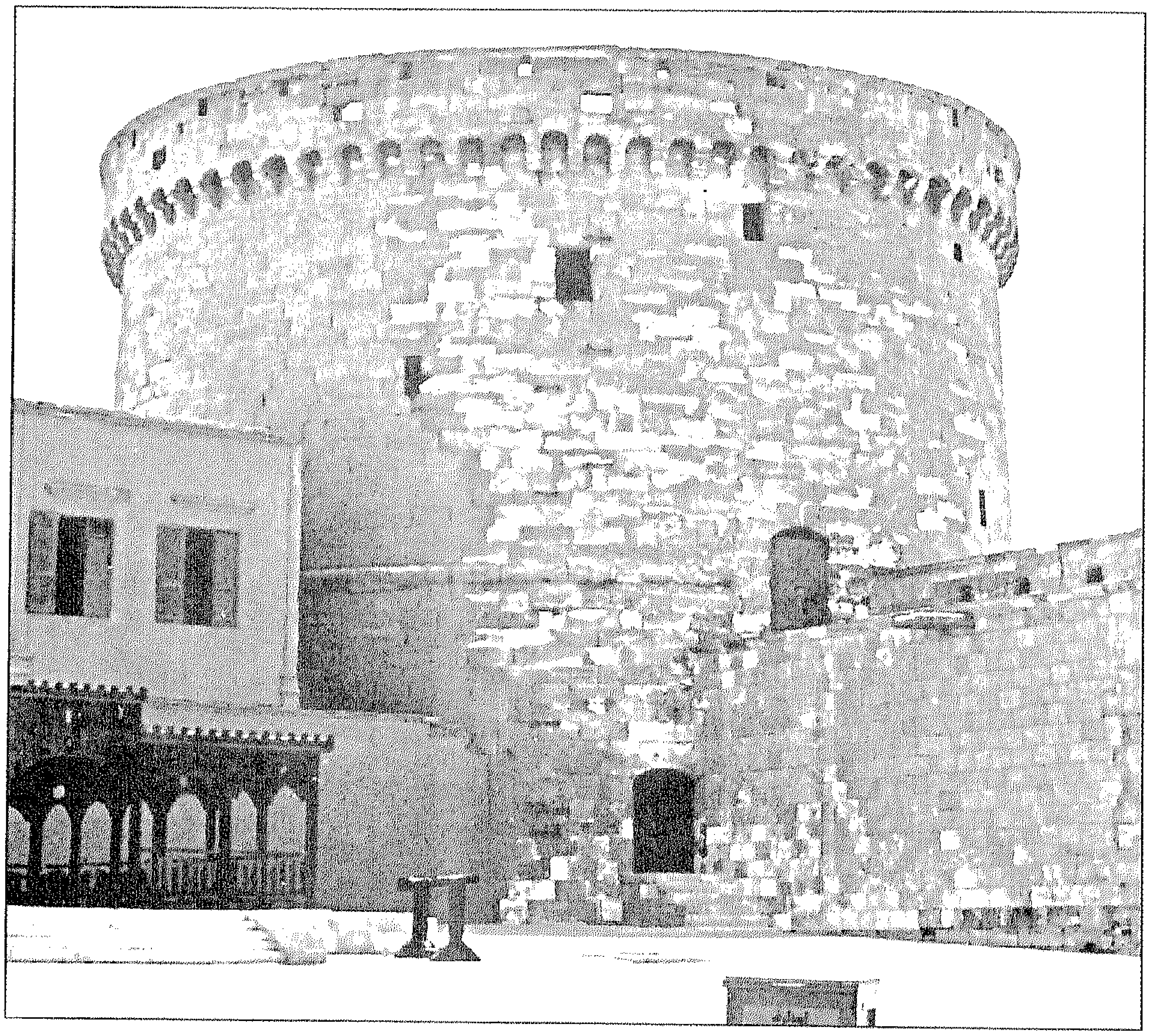

برج المقطم

هو ٣٢١٠ أذرع هاشمية، وهو إما ٢١٠٣م أو١٩٧٧م. واستخدم كل من كازانوفا وكريزويل الرقم الأول لإعادة بناء صورة قلعة قراقوش. وفى أثناء دراستهما اكتشفا أن الرقم المذكور أكبر من محيط النطاق الشمالى للقلعة، ولكنه أصغر من مجموع النطاقين الشمالى والجنوبى معا. وقدما تفسيرين مختلفين لهذا التناقض[١٧]. ومع أن حسابات كازانوفا نتج عنها نقص في ٣٠٠م لسور القلعة، فقد تمسك بأن النطاق الشمالى للقلعة كان يشكل القلعة الأصلية. أما النطاق الجنوبى وهو النطاق الملكى بدأ يفكر فيه صلاح الدين بعد الانتهاء من بناء النطاق العسكرى أو الشمالى ولم يتم بناؤه إلا في عصر الكامل، وأوضح كريزويل أن كازانوفا ضمن في حساباته أبراجا وأقساما بناها السلطان الكامل وليس صلاح الدين، وأجزاء من الأسوار بناها محمد علي في القرن التاسع عشر. ووصل إلى أن محيط النطاق الشمالى يقرب من ١٤٠٠م تاركا ما بين ٥٤٥-٧٠٠م غير داخلين في حساباته، وافترض كريزويل أن هذا الفرق يبدأ من برج المقطم والبرج الوسطاني، وتوقف مفترضا أن الحفريات في النطاق الجنوبى ستؤدى إلى نتائج جديدة. وإذا أردنا أن نبحث عن هذا الفارق في حسابات كازانوفا فعلينا أن نفترض أن النطاق الجنوبى يبدأ من امتداد كل من برج المقطم والبرج الوسطاني. آخذين في الاعتبار أن هذا السور تعرض للتجديد بخاصة الامتداد من برج المقطم الذى ينتمى إلى يكن باشا الذى أعاد تجديده في عام ١٧٨٥م. والجزء الممتد من البرج الوسطانى حتى متحف الشرطة الحالى رممت أجزاء منه وجددت أجزاء أخرى في عهد محمد على يدل على ذلك المقارنة بين الوضع

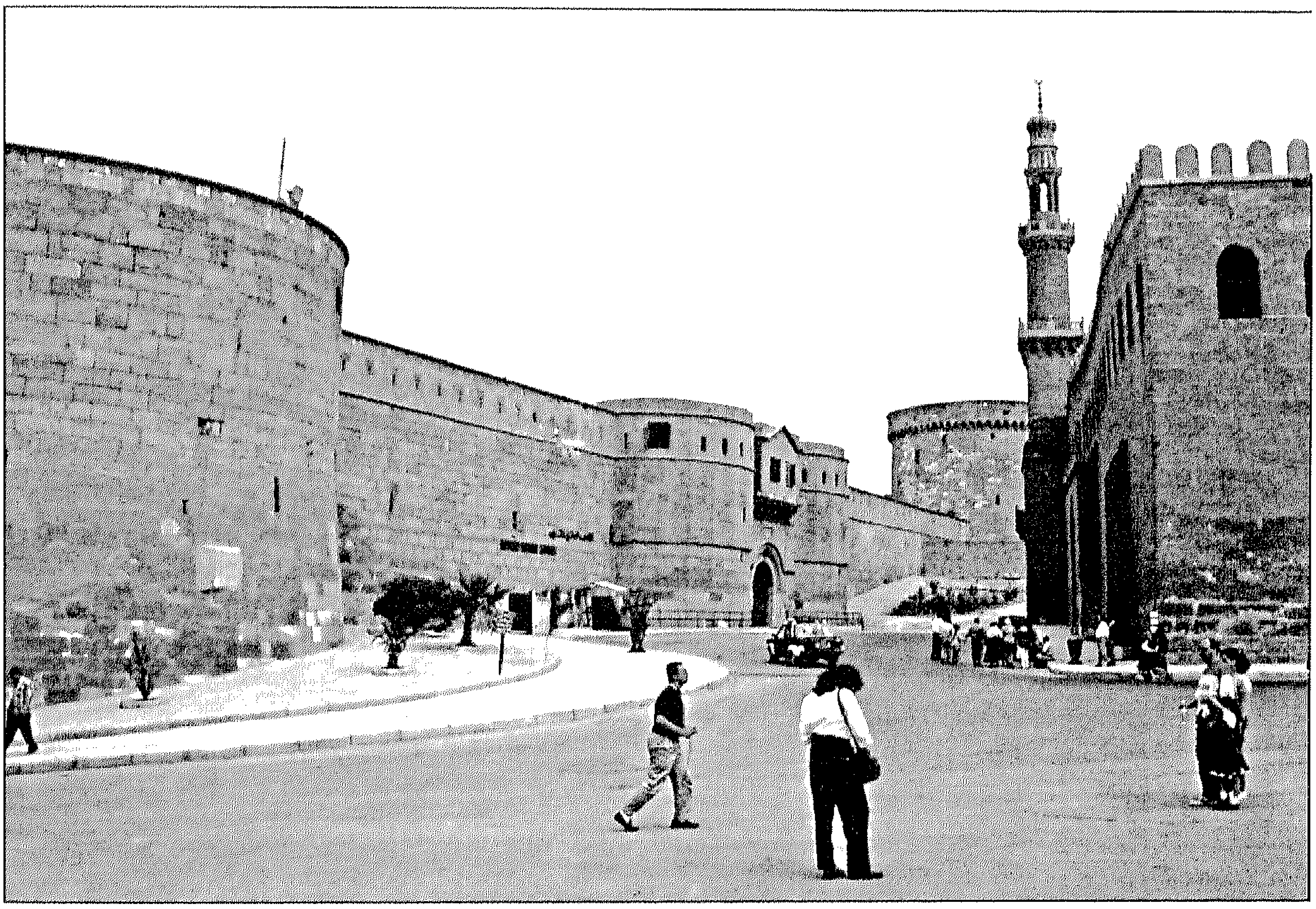

برج المقطم وبرج القلة والبرج الوسطاني

الحالى وما جاء في خريطة وصف مصر. ويرى كريزويل أن السور داخل النطاق الجنوبى والذى يمتد مسافة ٦٥م جنوب غرب برج المقطم إلى البرج العثمانى المضلع الذى على بئر يوسف[١٨]. ربما يكون جزءا من الحصن الأصلى وهو ما أكدته شواهد كشف عنها في الثمانينيات من القرن العشرين. ويقع برج مماثل بين البئر والركن الجنوبى لمسجد الناصر محمد، ويرتبط البرج الأخير بالبرج الأول بسور يعود لفترة متأخرة، ويثير وجود هذه الأبراج إلى جوار بئر الماء تساؤلات عديدة منها أن الاهتمام بالبئر يعود إلى أنه يشكل حافة القلعة، وأن الأبراج أحدثت بها تعديلات أو أعيد بناؤها في موضع الأبراج القديمة، فضلا عن أنه من المنطقى أن يكون بئر الماء في داخل القلعة.

وإعادة تخيل الجزء الباقى من قلعة قراقوش في النطاق الجنوبى أمر ممكن إذا بدأنا بتصور هذا الجزء وفقا لمعطياته، فالجزء الممتد من البرج الوسطاني إلى برج الشخص[١٩] والذى يقع غالبا في موقع برج قديم يعود لعصر قراقوش، هذا الجزء لا شك أنه يعود إلى تخطيط القلعة الأيوبية. ويتخلله باب السر الكبير الذى يشكل أحد محاور الدخول إلى القلعة وموقعه حاليا الباب الوسطانى الذى شيد فوقه في تجديدات محمد على بالقلعة. وهذا الباب كان المدخل إلى النطاق السلطانى بالقلعة ولا يفتح هذا الباب إلا في مناسبات محددة، ويشكل مع المر الصخرى الأيوبى الذى كان يدخل إليه من باب كان يفتح على ميدان القلعة، ومدخل الباب المدرج الذى دلت حفائر القلعة عام ١٩٨٨ أنه كان يقع في موقع أسفل نص تجديد القلعة الذى يرجع إلى عصر محمد علي[٢٠]، كان الباب المدرج يفضى إلى النطاق الشمالى بالقلعة وما زال باقيا منه السلم الصاعد والمدخل المنكسر الذى يفضى إلى النطاق وكلاهما جدد مرارا خاصة قبة المدخل المنكسر التى جددت في عصر الناصر محمد بن قلاوون كما هو ثابت بأركانها. والباب المدرج كان له محور آخر يفضى إلى باب السر الكبير، علما بأن النسر الأيوبى ذا الرأسين ما زال موجودا أعلى برج الشخص، وهذا البرج يقع على حافة الطرف الشمالى للنطاق الجنوبى وهو يشرف على المر الصخرى الذى حفره قراقوش لكى

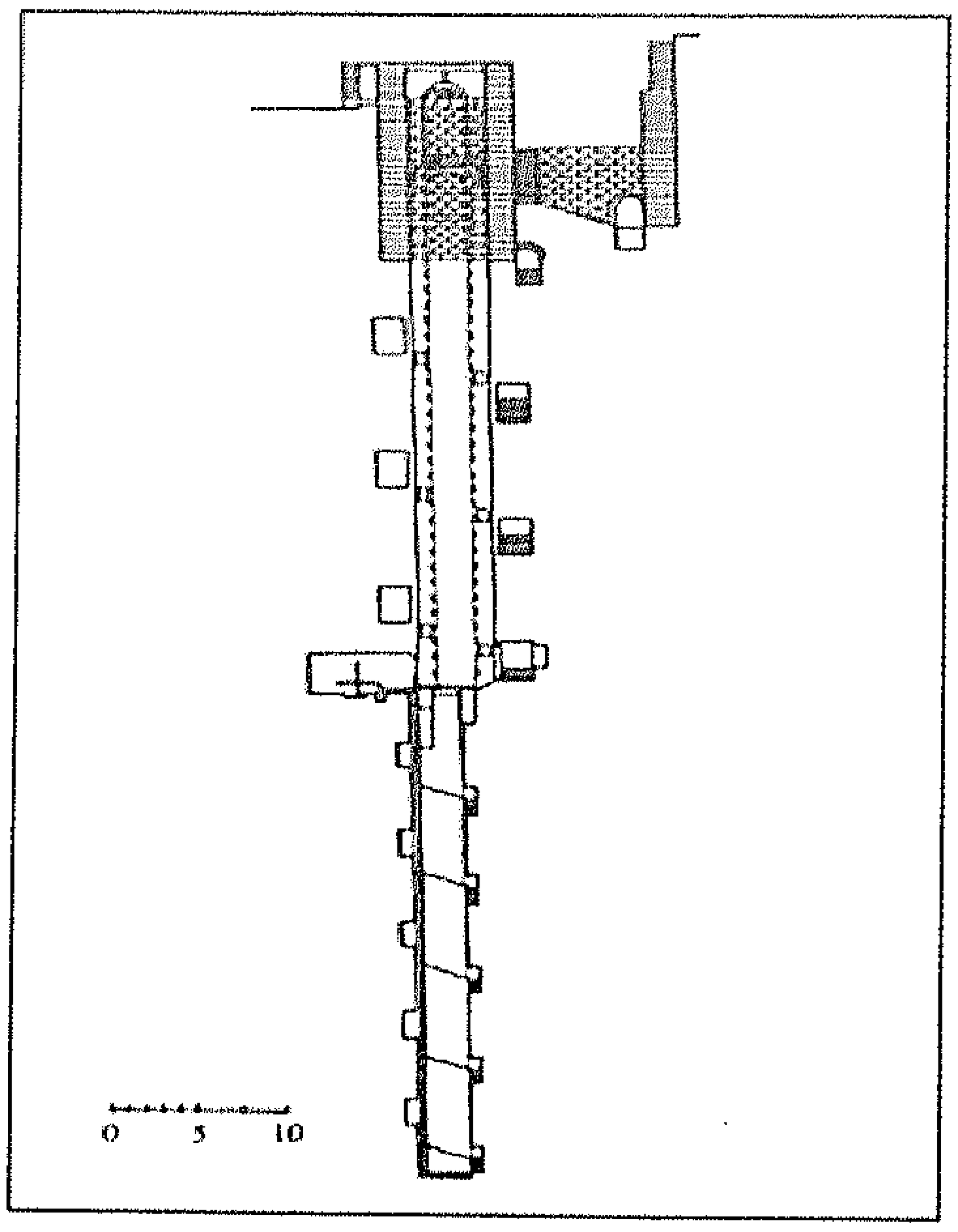

بئر يوسف

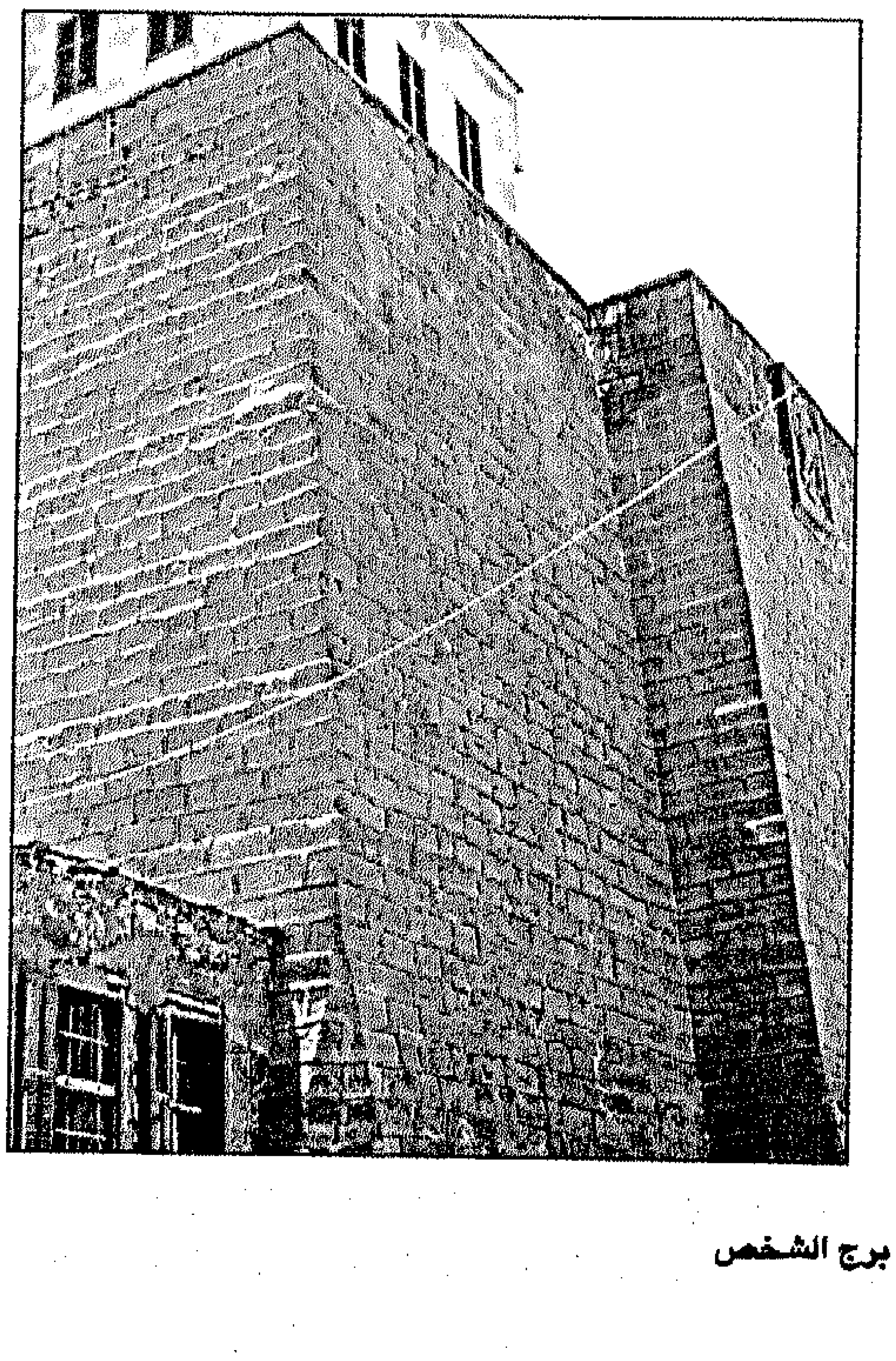
برج الشخص

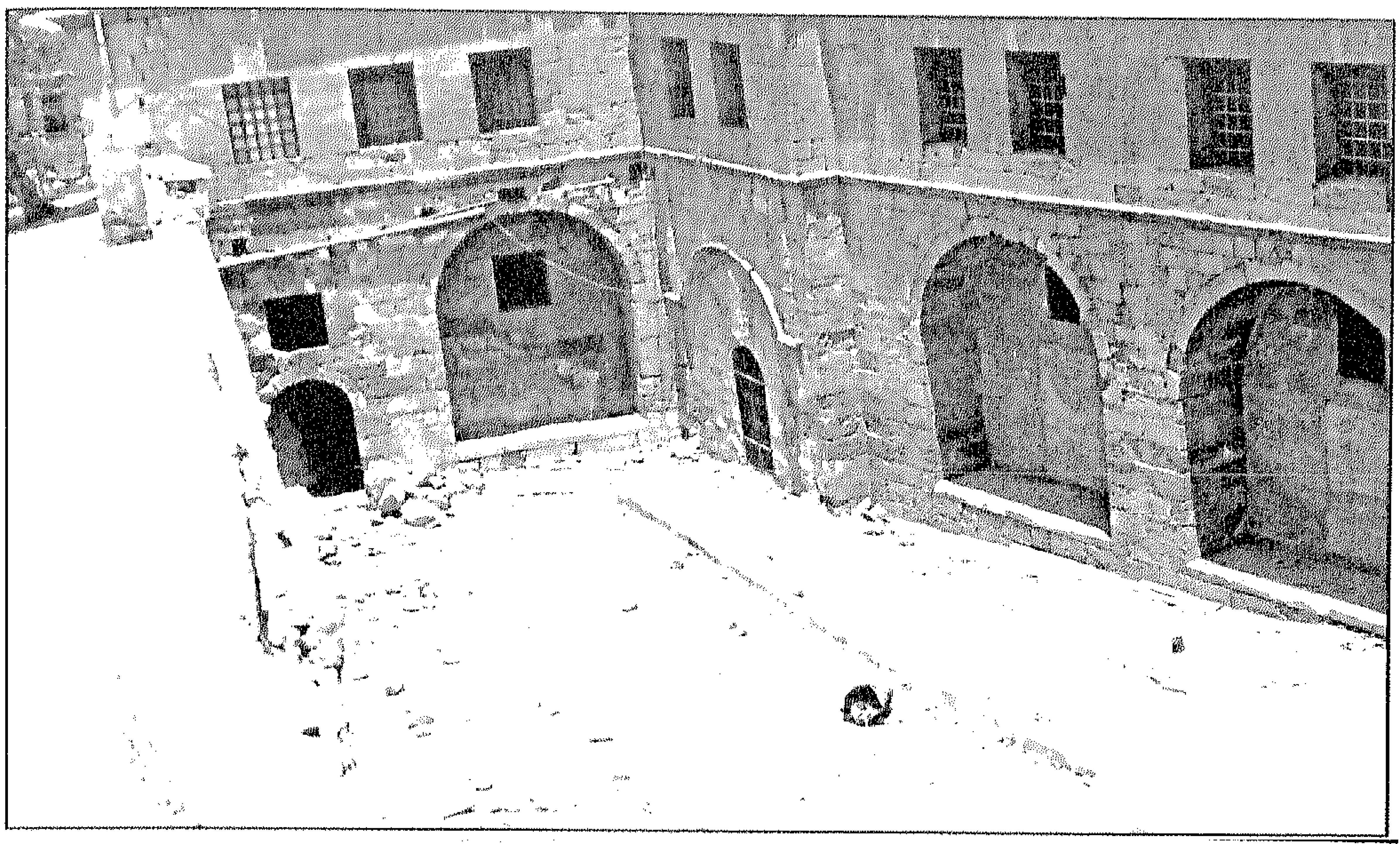

موقع حفائر القلعة – سنة ١٩٨٨

يصعد عن طريقه إلى القلعة فضلا عن وجود سور يصل بينه وبين برج الرفرف[٢١]، والذى يحتمل أنه يرجع إلى قلعة قراقوش ولكنه جدد.

قدم لنا ابن فضل الله العمرى أدلة تؤكد ما سبق ذكره؛ فأسوار النطاق الجنوبى عبارة عن ستارة حجرية تكون أحيانا جزءا من منشأة تصل بين أطراف هذا النطاق وليس بها ممرات. ويذكر العمرى ذلك بقوله "فأما القلعة، فهى على نشز عال،..... وهى مبنية على ذلك النشز، ترتفع فى موضع وتنخفض فى آخر، يدور بها سور حجر بأبراج وبدنات إلى أن ينتهى إلى القصر الأبلق الناصرى المستجد بناؤه، ثم من هناك تتصل بدور الملك وليست على أوضاع أبراج القلاع"[٢٢].

وإشارة العمرى هنا توضح معاملتين مختلفتين للأسوار. الأولى هى معاملة النطاق الشمالى التى تشتمل على أبراج تتخلل الأسوار الحربية[٢٣]. والمعاملة الثانية هى معاملة النطاق الجنوبى، وهى ستارة حجرية قد تكون جزءا من منشأة قائمة بالقلعة وربما تم هدم الستارة القديمة لتدمج المنشأة الجديدة فى محيط النطاق، والعمرى يحدد أن هذه المعاملة تبدأ من القصر الأبلق الذى شيده الناصر محمد بن قلاوون، الذى أعاد تنظيم وبناء هذا النطاق من القلعة خلال فترات حكمه فى القرن ٧هـ/ ١٤م.

ويعود اختلاف معاملة أسوار كل نطاق عن الآخر إلى وظيفة كل منهما، وإن كنا رأينا أبراجا فى النطاق الجنوبى أيضا، ولكن وجود هذا النطاق فى اتجاه المدينة خفف من حدة الحاجة إلى وجود أبراج به فضلا عن التخطيط المسبق من قبل قراقوش ليكون به قصر السلطان ليطل على الميدان أسفل القلعة. لقد كانت الأولويات الحربية عند تأسيس القلعة تقتضى الاهتمام بإنهاء النطاق الشمالى أولا فى ظل حرب تدور رحاها فى بلاد الشام. هذا النطاق هو الخاص بالجيش المدافع عن القلعة ومصر. لذا وجه قراقوش اهتمامه له فشيد به فى المقدمة برجى الرملة والحداد كبرجين أماميين كبيرين للدفاع عن القلعة ومراقبة المنطقة خارجها. وفى الوقت نفسه اهتم باستكمال النطاق الجنوبى، ولكن يبدو أن الظروف السياسية حالت دون ذلك كما حالت دون استكمال أسوار العاصمة المصرية[٢٤].

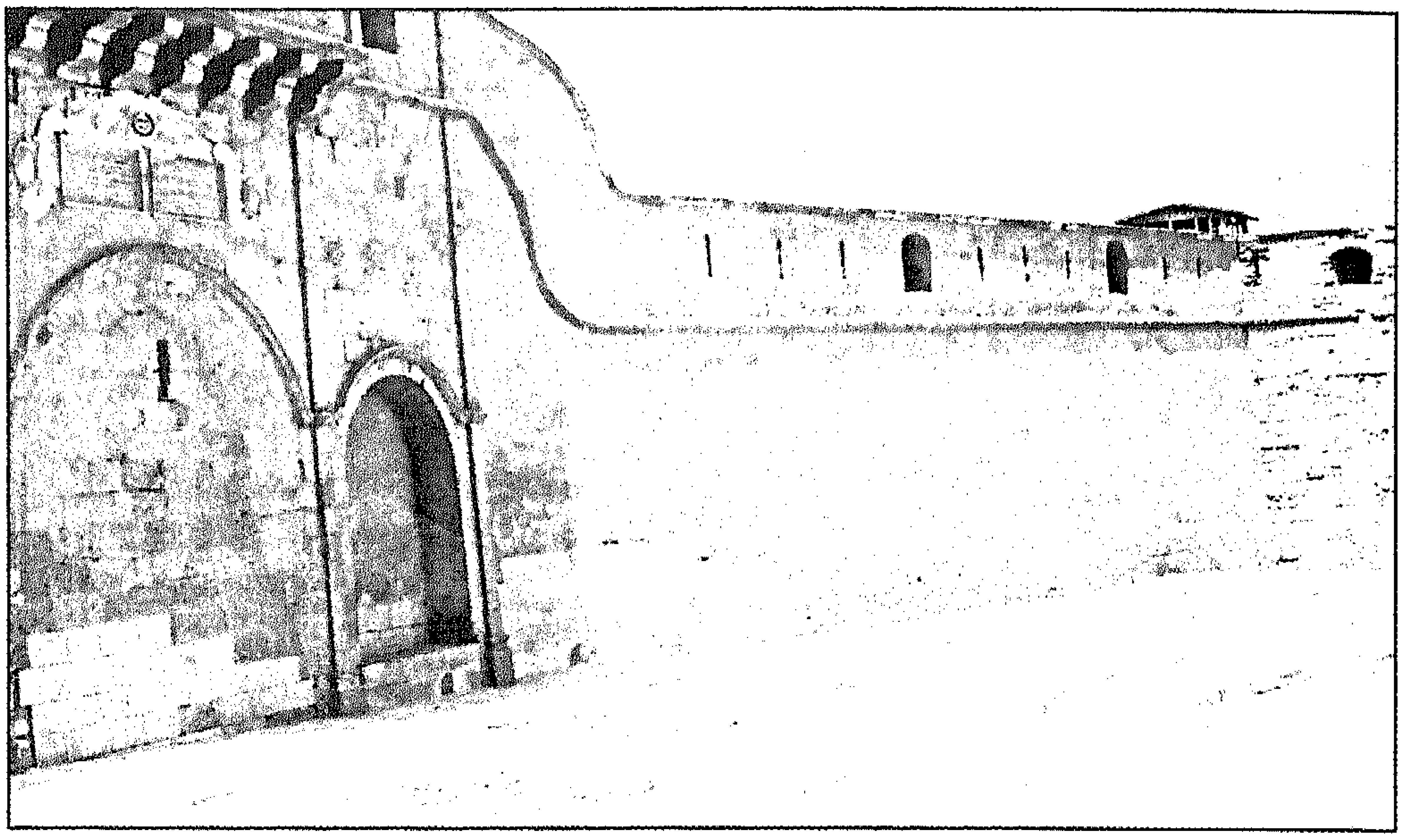

نص تجديد القلعة - عصر محمد علي

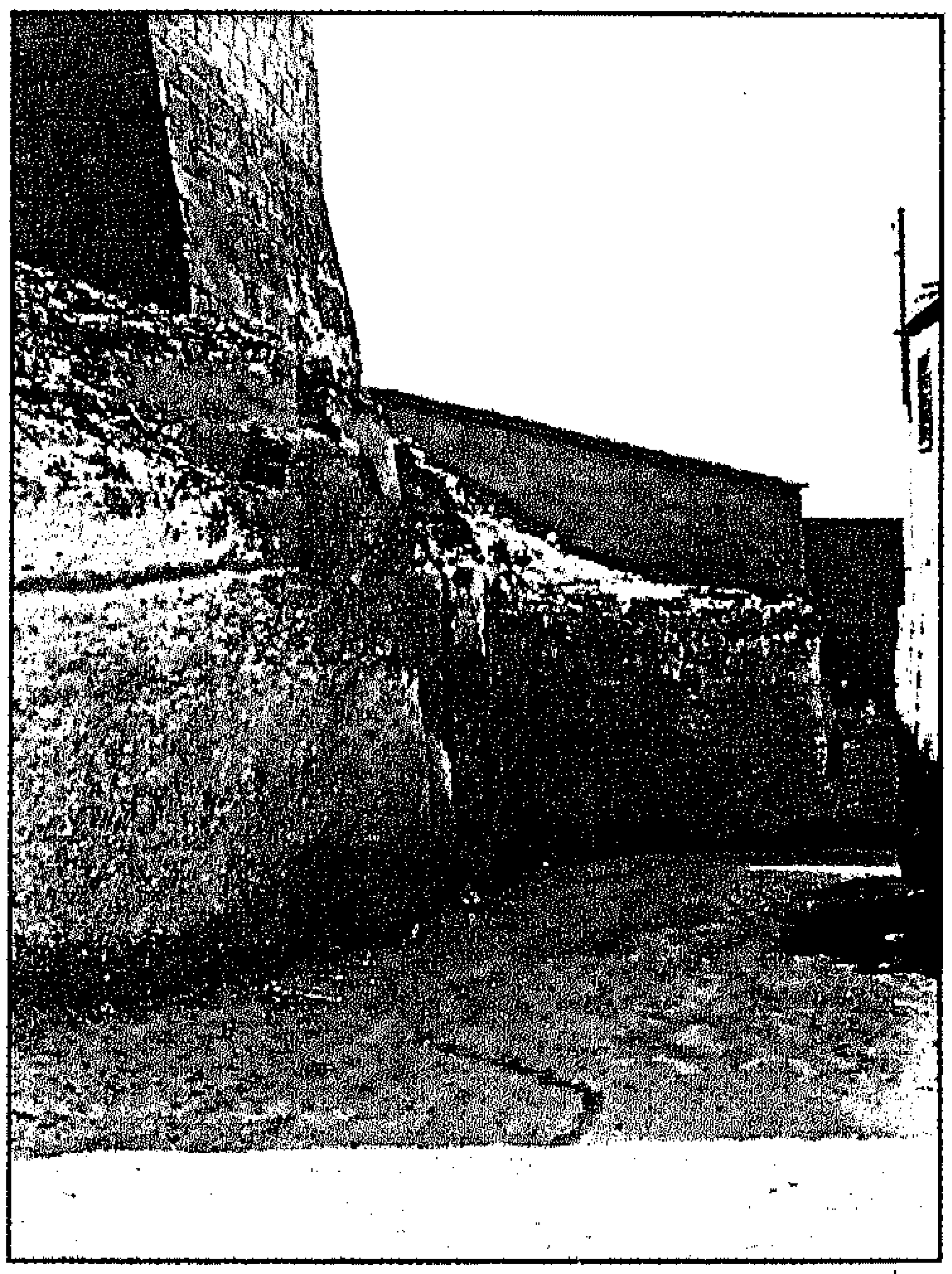

الممر الصخري

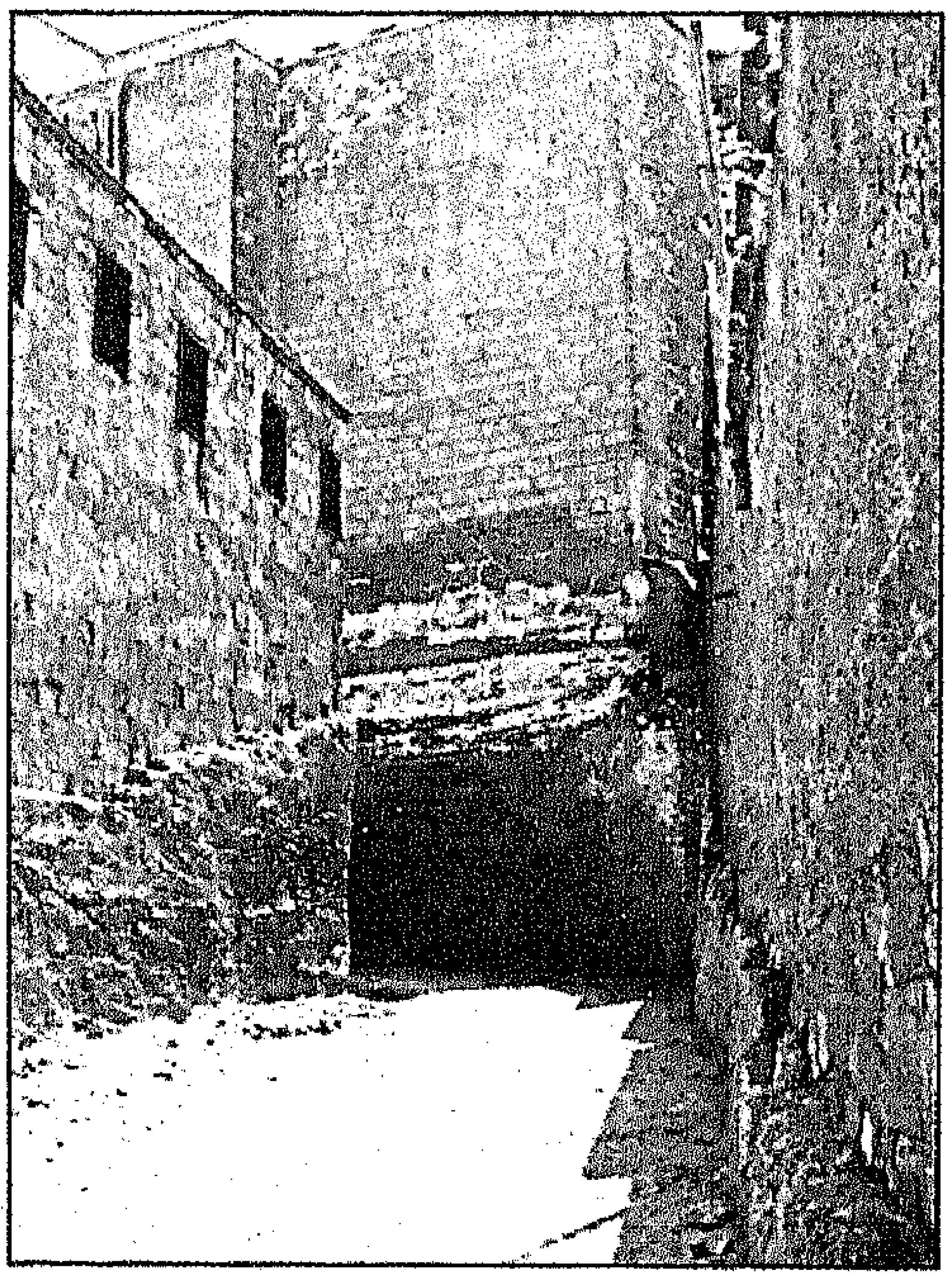

الممر الصخري

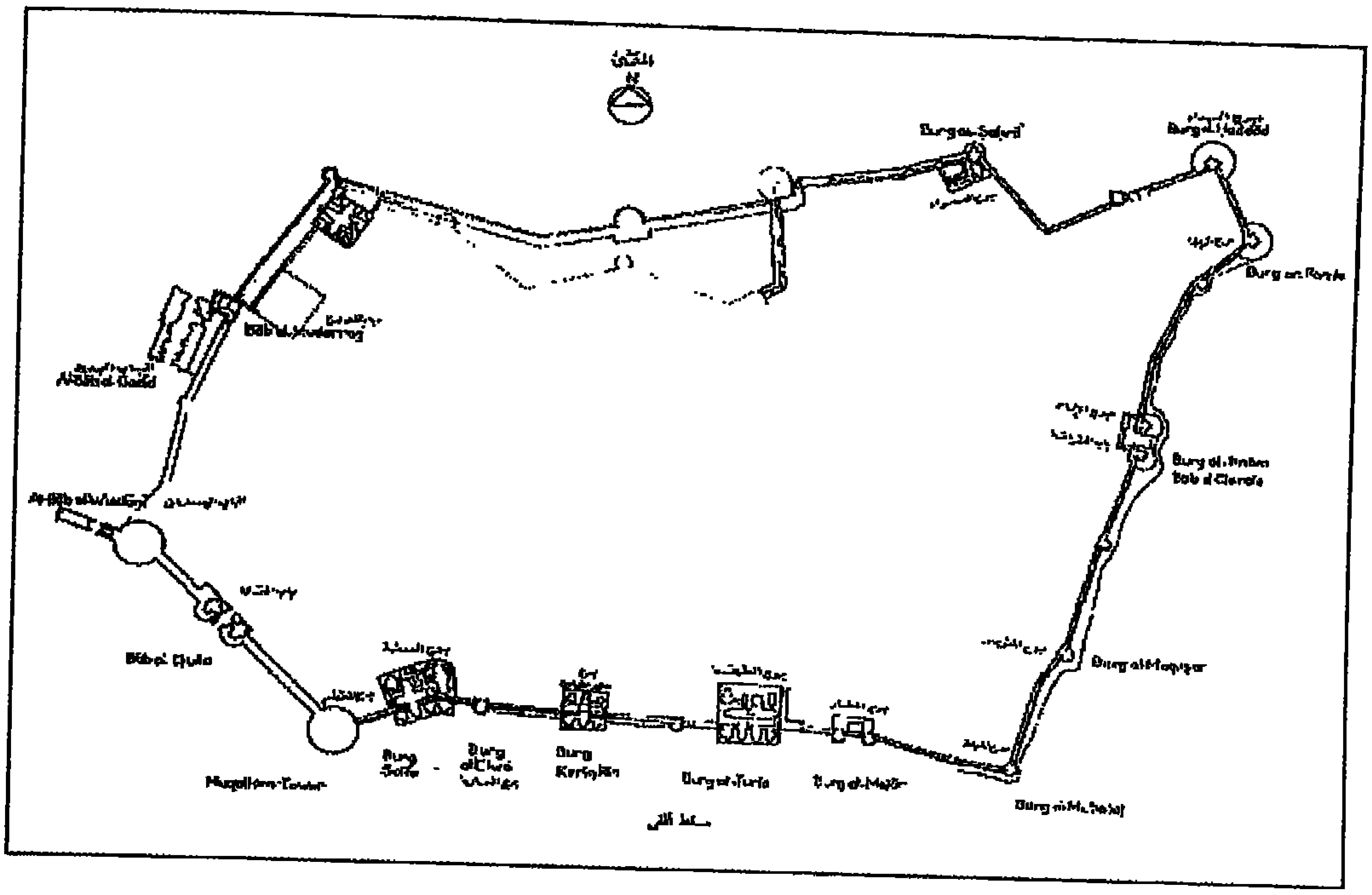

النطاق الشمالى وأسواره – قلعة الجبل

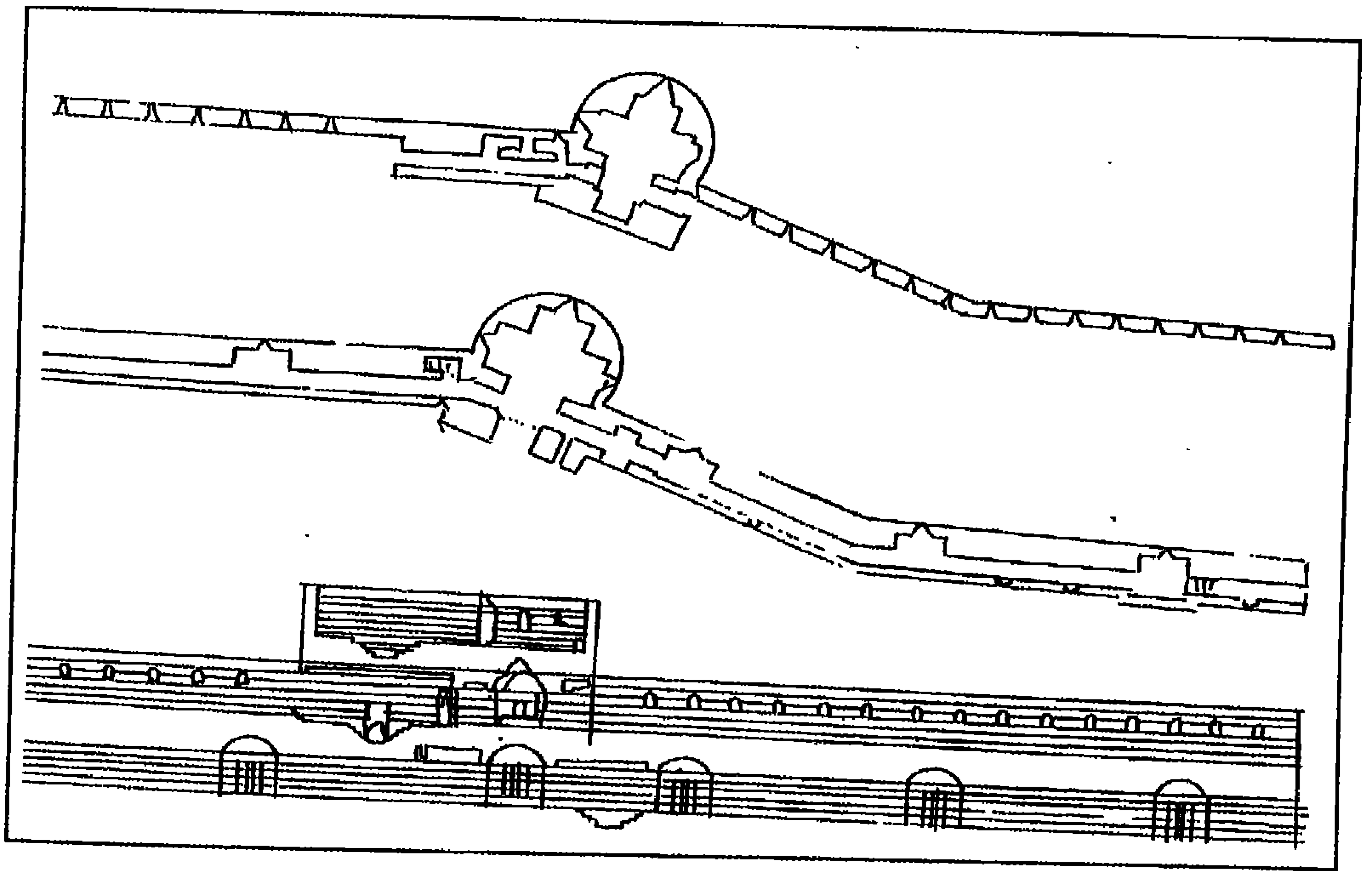

برج المقوصر

وينبهنا كذلك العمرى إلى ملحوظة مهمة وهى انتهاء أسوار النطاق الجنوبى إلى القصر الأبلق الذى بنى خارج النطاق الجنوبي، إذ رفعه الناصر محمد على قاعات مقبية من أرض نطاق الإسطبلات لكى تكون أرضيته فى مستوى أرضية النطاق الجنوبي، وهذه القاعات هى المسجلة على خريطة الكولونيل جران ١٨٩٦م. تحت اسم "قبوات مدمرة" ونستطيع أن نحدد حافة القلعة من برج الشخص إلى أن تبدأ المبانى التى رفعها الناصر محمد بن قلاوون، من أرضية نطاق الإسطبلات، وتشمل قبوات من ثلاثة طوابق وقاعتين مقببتين، وهذا يعنى أن القصر الأبلق شيد خارج النطاق الجنوبى للقلعة. إن الفارق بين تصور أن القلعة شيدت فى الأصل فى إطار النطاق الشمالى فقط، وبين تشييدها منذ أول الأمر بنطاقين رئيسيين، هو الفارق بين اتخاذ القلعة مفصلا قويا يربط أسوار القاهرة والفسطاط وبين اتخاذها بالإضافة إلى ذلك مقرًا للحكم علما بأن ابن جبير الذى شاهد القلعة عند تشييدها أقر بأنها شيدت لتكون حصنا ومقرا للحكم[٢٠]. والمعطيات التاريخية التى أشرنا إليها سابقا تؤكد أن صلاح الدين شيد القلعة مقرا للحكم ومفصلا قويا يربط أسوار العاصمة .

ونستطيع أن نطرح تساؤلا مفاده: هل كان ممكنا أن يترك قراقوش النطاق الجنوبى دون إعمار؟ على الرغم من وجوده على حافة الممر الصاعد إلى القلعة من داخل العاصمة، فضلا عن وجود بئر المياه به، بالإضافة إلى حاجة الأيوبيين إلى مقر آمن بعيدا عن القاهرة التى اكتظت بالسكان، إضافة إلى أن وجود السلطان بجوار جنده يكفل له سيطرته عليهم وحمايتهم له. كان من الصعب على قراقوش فعل ذلك إذ كان لا يستطيع تركه دون منشآت إذ سيسهل تركه محاصرة القلعة التى جاءت حصانتها من ارتفاعها عما حولها.

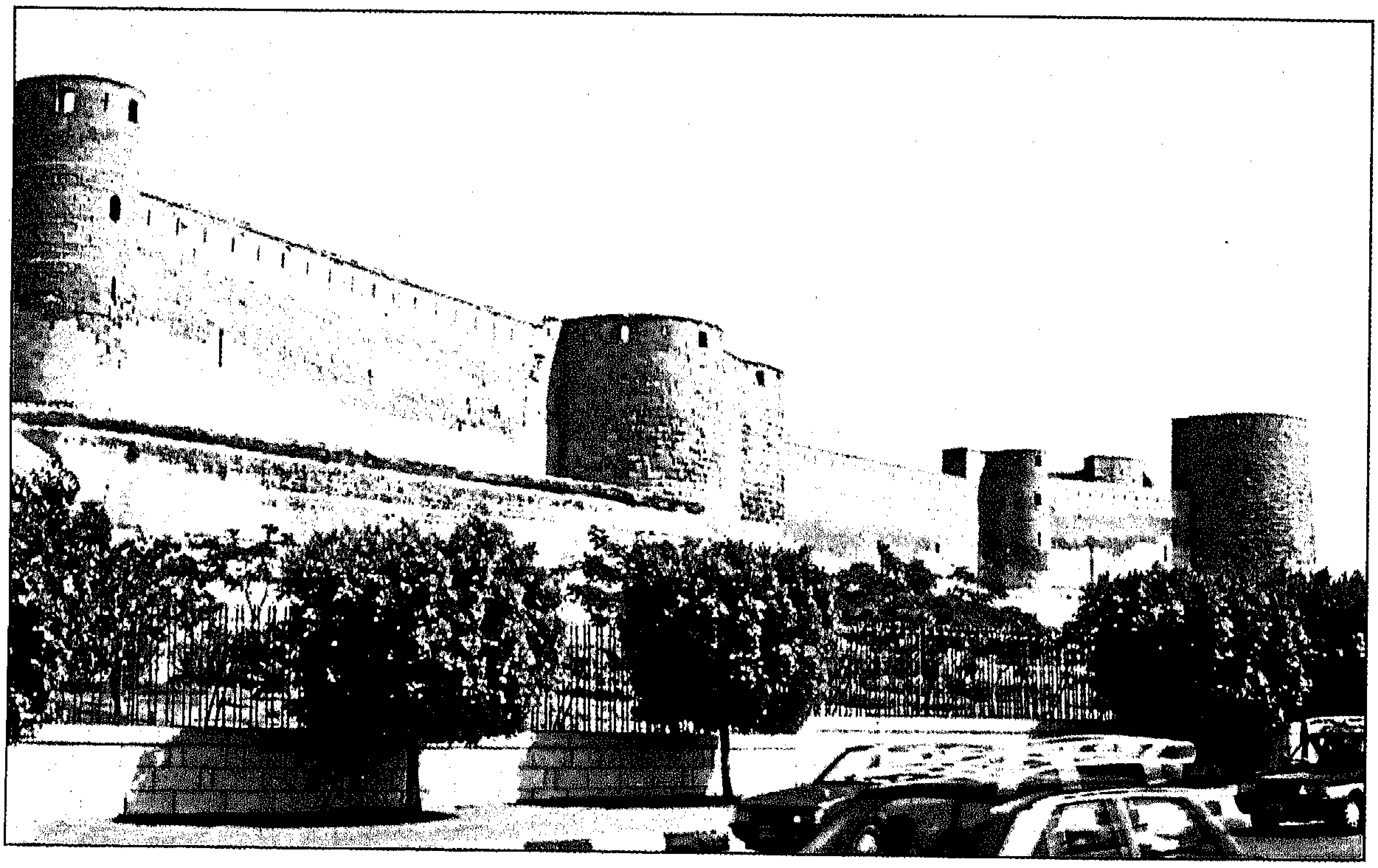

أسوار وأبراج القلعة

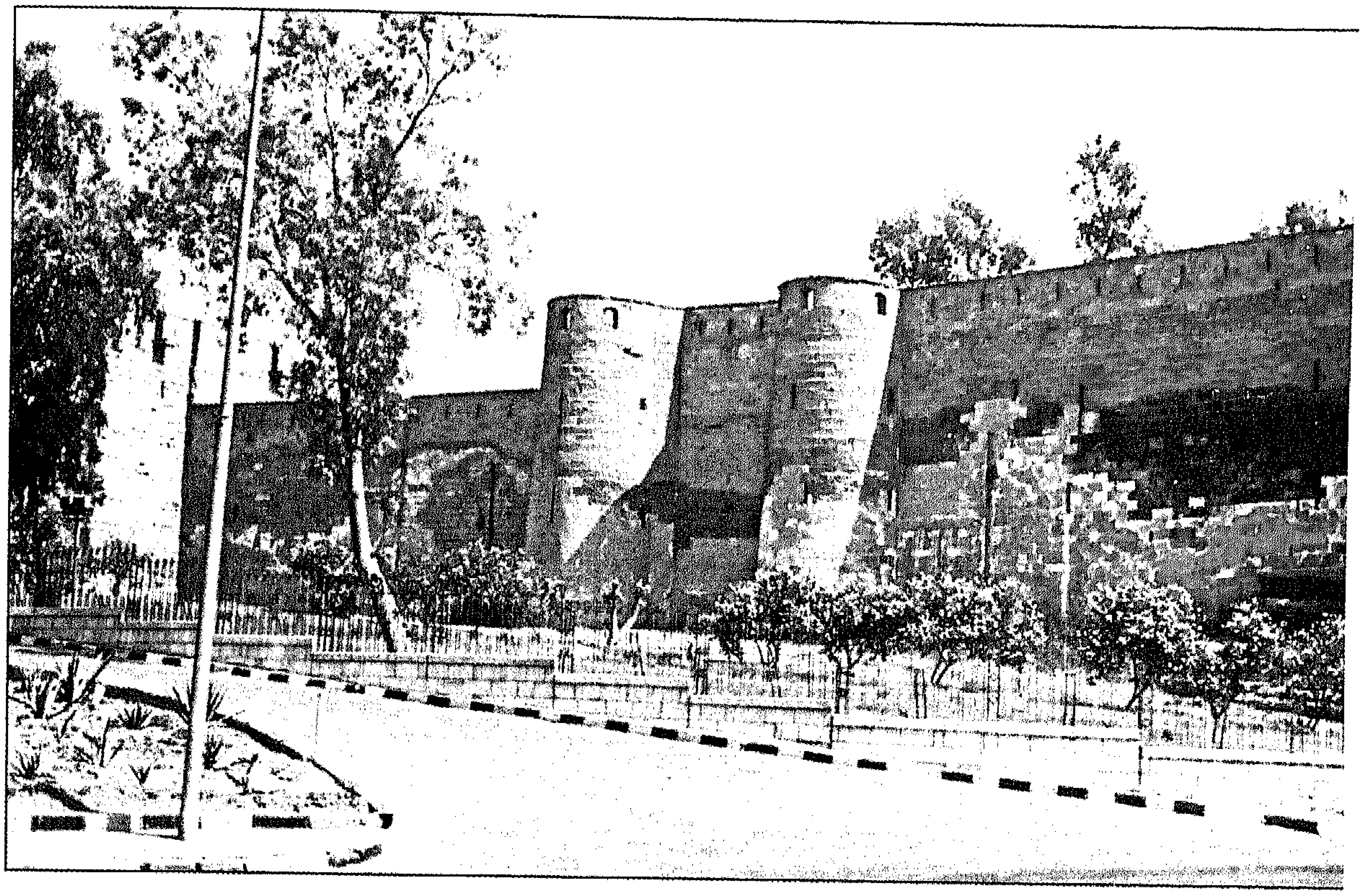

برج المطار

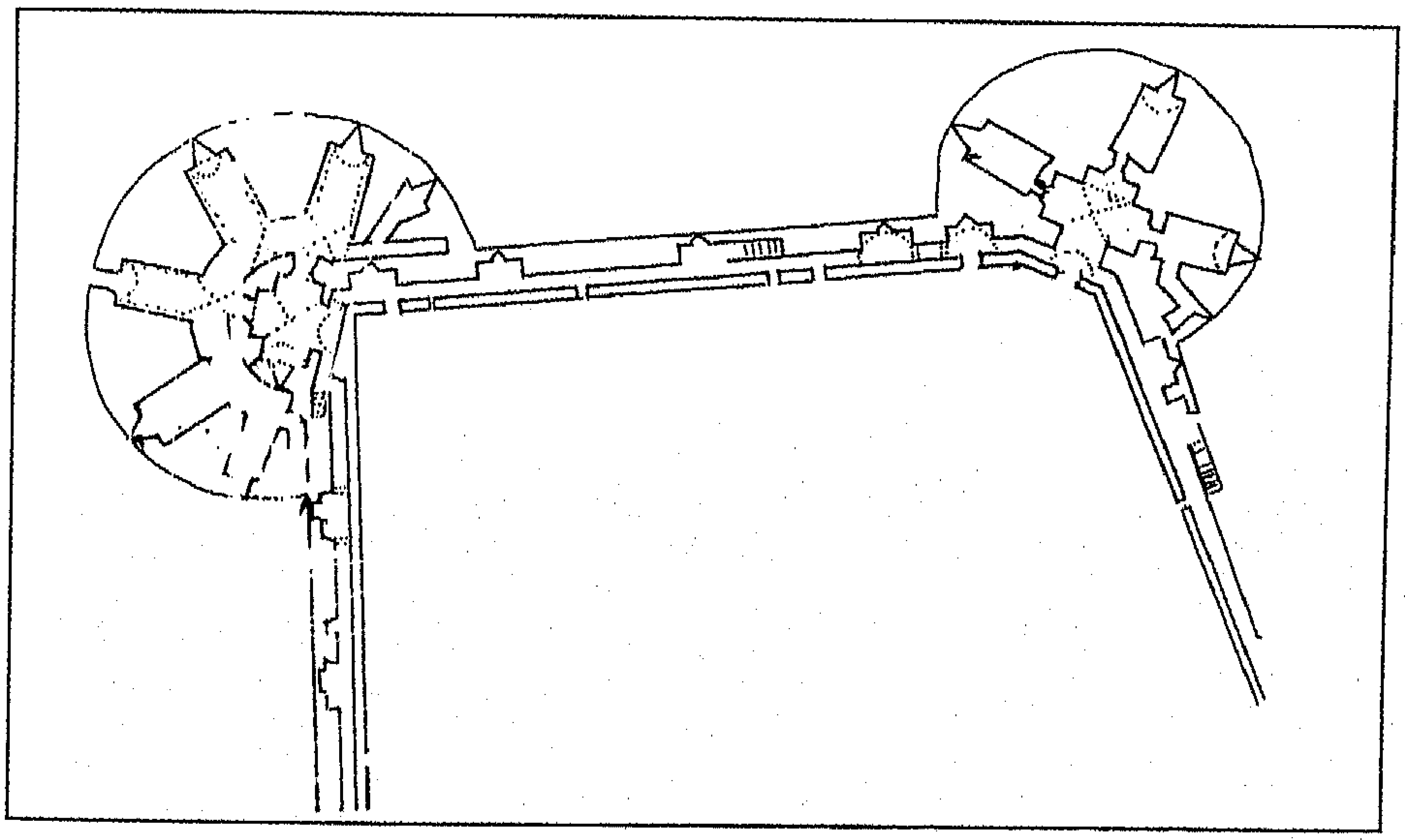

برجا الرملة والحداد

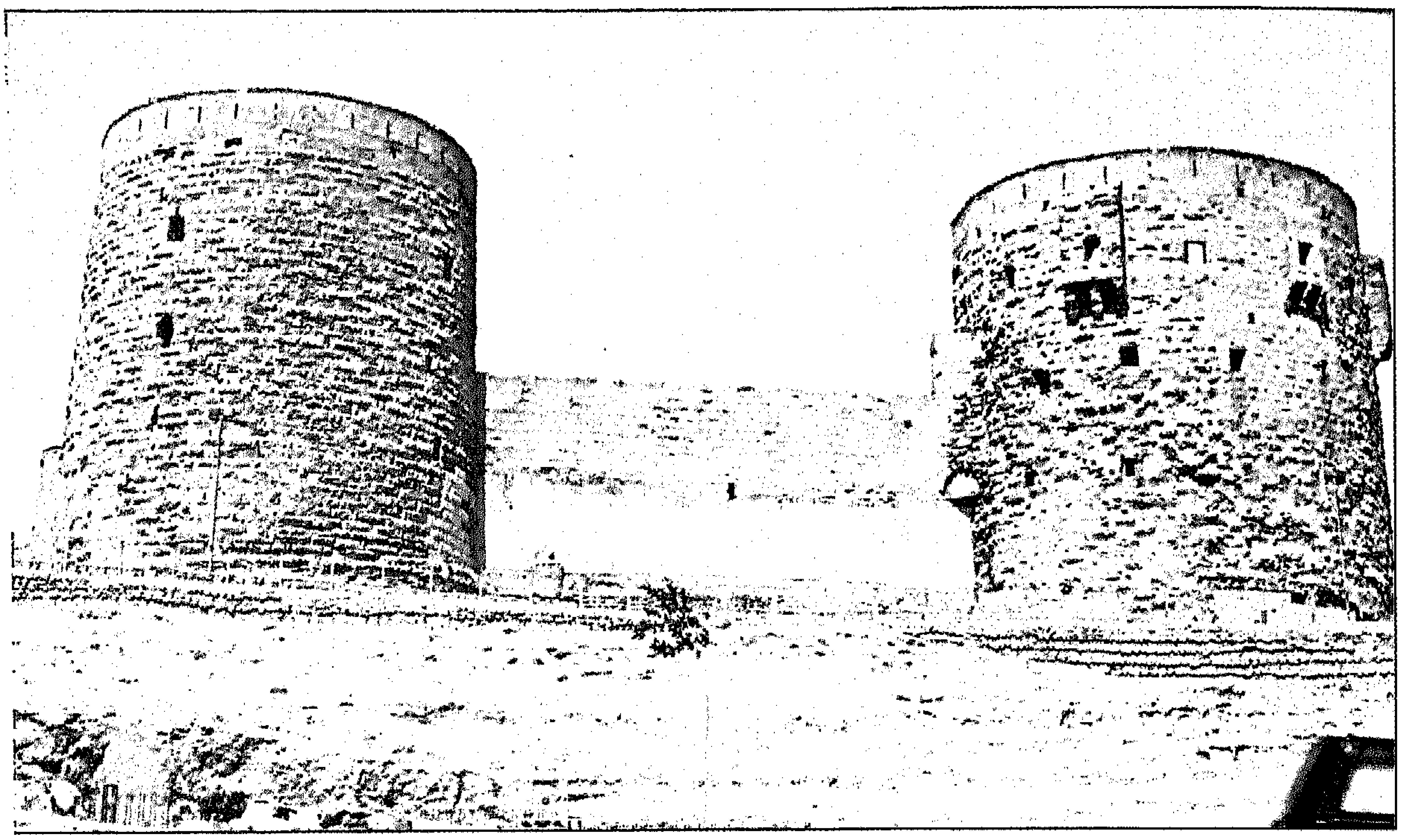

برجا الرملة والحداد

تبقى لنا من قلعة قراقوش رمزان يحملان دلالات سياسية. الرمز الأول: هو النسر الموجود أعلى برج الشخص بالنطاق الجنوبي بالقلعة، وهو نسر منحوت بشكل بارز على سطح لوحة مستطيلة مثبتة في أعلى الحائط المطل على الممر الصخري. وكان أول من تكلم عنه أوليا جلبي الذي أقام في القلعة لفترة حوالى عام ١٦٧٠م، وقد وصفه بأنه موجود في أعلى البرج المطل على باب العزب. أكد جلبي أن النسر مزدوج الرأس، وأضاف أن النسر قد وضع هناك كطلسم[٢٦]، وقد فقد الرأس فيما بعد، وكتب العديد من الرحالة الأوروبيين عن هذا النسر[٢٧] إلا أن المؤرخين العرب لم يذكروه في مؤلفاتهم. على أن عدم ذكرهم له لا يمكن اعتباره دليلا على إضافته للقلعة في فترة متأخرة، إذ إنه من الطبيعي أن يلفت نظر الرحالة الأوروبيين وأوليا جلبي لكونهم يترقبون بنظرات حادة كل شيء يلفت الانتباه في المكان. نسب كل من كريزويل وكازانوفا

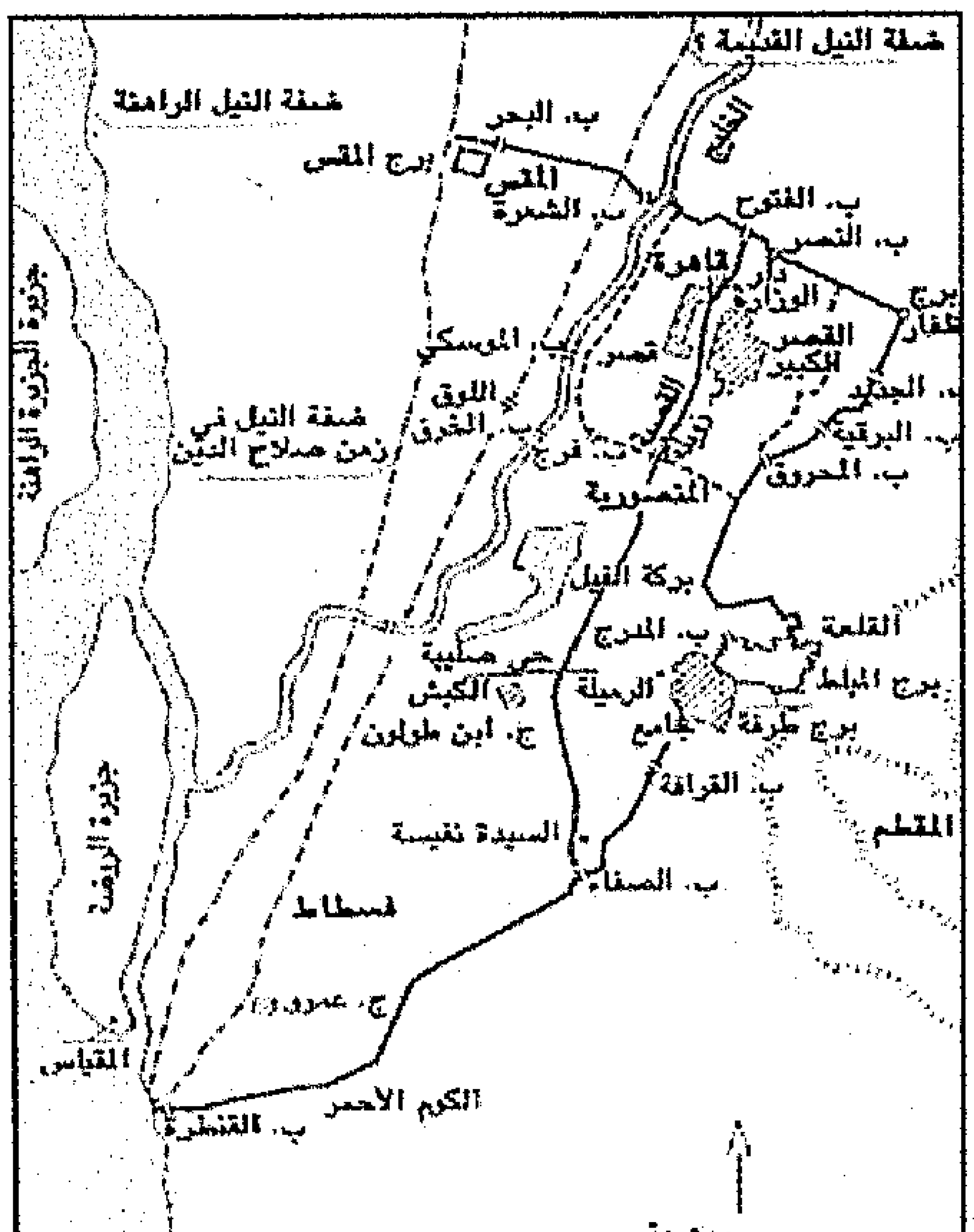

أسوار صلاح الدين

النسر إلى الفترة الأيوبية[٢٨] دون تحديد للتاريخ أو القصد من وضع هذا النسر في القلعة، وتدل المعطيات السياسية الأيوبية على احتمال نسبته إما لعصر صلاح الدين وإما العادل، فعندما جاء صلاح الدين إلى مصر. كان تابعا لنور الدين محمود، وكان والد نور الدين عماد الدين زنكى الذى ابتدأ حياته حاكمًا للموصل وأتابكًا لابنى السلطان محمود السلجوقي، قد أسس إمارة واسعة في سورية والجزيرة، كانت أرضها سابقا جزءا من الدولة السلجوقية، ومن الثابت تاريخيا أن النسر المزدوج الرأس كان من جملة شعارات الدولة السلجوقية، حتى إن هذا الشكل ما يزال يعرف بالنسر السلجوقى في الأناضول[٢٩] ويعتبر السلاجقة أول من استعار الأشكال الخرافية القديمة بخاصة النسر ذى الرأسين[٣٠] ليكون شعارا، وظهر بكثرة منحوتا على عمائرهم سواء في شكل النسر الطبيعى أو النسر ذى الرأسين الذى يرمز إلى القوة والعظمة. لقد كان النسر ذو الرأسين هو الشارة التى استخدمها السلطان السلجوقى علاء الدين كيقباد كشعار له، وعثر على نموذج لنسر علاء الدين في سور مدينة قونية[٣١]. وعثر في برجى باب مدينة الرها اللذين يعودان إلى العصر الأرتقي[٣٢]على رسم النسر ذى الرأسين[٣٣].

ويذكر الدكتور حسن الباشا أنه كان يوجد على باب الشعرية – وهو أحد أبواب سور القاهرة الذى شيده قراقوش في عصر صلاح الدين – نسر ذو رأسين. ويؤكد أن صلاح الدين كان أول من اتخذ النسر شعارا له كرمز للقوة والقدرة على الانقضاض على الأعداء[٣٤]، وعثر على نقود للملك الكامل نقش عليها النسر ذو الرأسين، وهو ما دفع بعض الباحثين لنسبة نسر القلعة إليه وكذلك نسبة النطاق الجنوبى إليه[٣٥]، ولكننا، بناء على المعطيات السابقة نرجح أن النسر يعود للسلطان صلاح الدين. وكان من الطبيعى أن يرث الكامل شعار عمه.

والرمز الثانى الذى يحمل دلالات سياسية، هو نص تأسيس القلعة الموجود بالباب المدرج ونصه كما يلى :

– بسم الله الرحمن الرحيم (إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم

– من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك

– الله نصرا عزيزا) [٣٦] أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة

– القاهرة بالعرمة التى جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجى إلى ظل

– ملكه وتحصينا مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو

– المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولى

– عهده الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد خليل أمير المؤمنين

– على يد أمين مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله الملكى

– الناصرى في سنة تسع وسبعين وخمس مائة

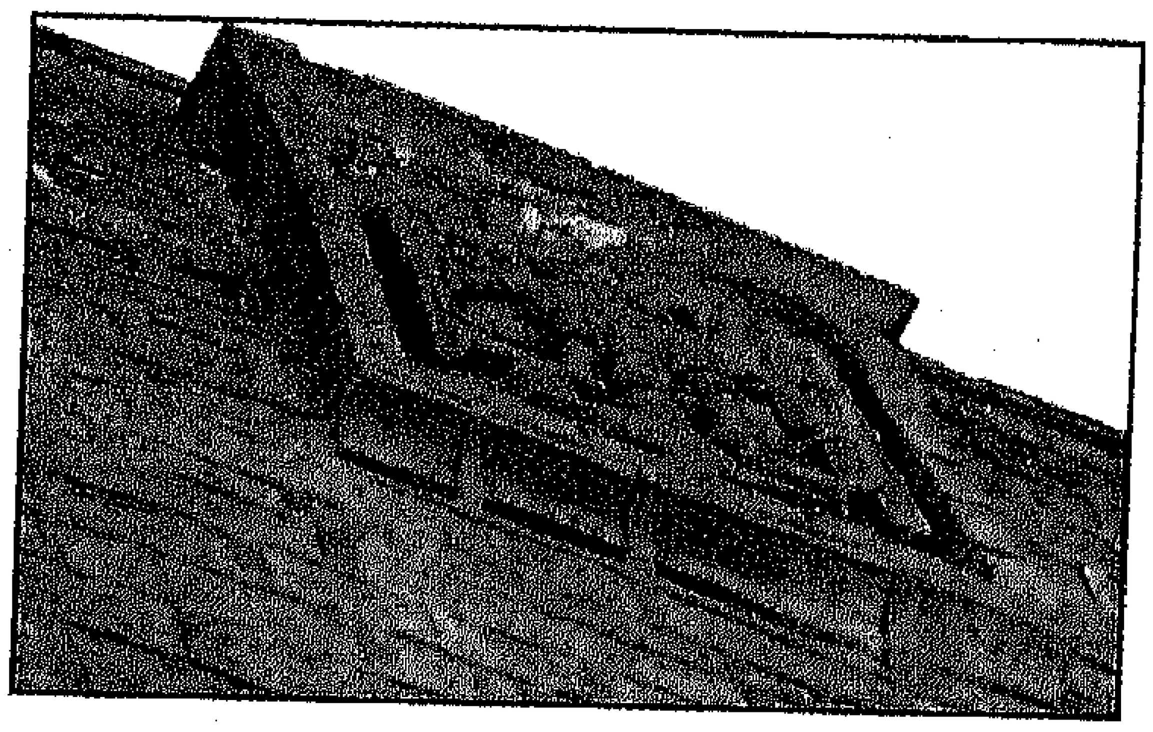

النسر أعلى برج الشخص

النقش التأسيسى للقلعة – باب المدرج

يعد النص السابق صورة صادقة للأوضاع السياسية في ظل الدولة الأيوبية، فقد كان صلاح الدين مشغولا في الحروب ببلاد الشام، وقام أخوه العادل بتولى أمور مصر، وسير قراقوش أمور الدولة بصورة حازمة[٣٧]. والنص يشير إلى سلطة صلاح الدين، حيث بدأ بسورة الفتح، والتى نزلت بعد فتح مكة المكرمة، والذى ضمن له صلى الله عليه وسلم السيطرة على كل أنحاء غرب الجزيرة العربية. وكانت سورة الفتح تستخدم بالتبعية من قبل الحكام المسلمين للاستبشار بها لتحقيق انتصارات، أو للإشارة إلى تحقيق انتصارات عسكرية فعلا، وكلاهما وجد لدى صلاح الدين الذى نجح في توحيد مصر مع الأجزاء التى لا تخضع للسيطرة الصليبية ببلاد الشام، وصعوده من ضابط في جيش نور الدين محمود إلى سلطان على دولة كبرى، وإلى الحروب التى يخوضها لتحرير بلاد الشام من الاحتلال الصليبي.

والنص يحوي العديد من ألقاب التكريم كلقب (محيى دولة أمير المؤمنين)[٣٨]. وهو هنا يشير إلى نجاح صلاح الدين في إعادة مصر إلى ظل الخلافة العباسية بعد أن قضى نهائيًا على الخلافة الفاطمية. واللقب الثانى هو لقب (خليل أمير المؤمنين) الذى تلقب به العادل الأيوبي، ليس لدينا ما يدل على أن العادل لقبه الخليفة العباسى بهذا اللقب، كما أن لقب (محيى دولة أمير المؤمنين) لم يلقب به الخليفة صلاح الدين، ولكن يبدو أن القوة التى تمتع بها بنو أيوب جعلتهم يتجاوزون حد الانتظار للحصول على هذه الألقاب، وسنرى أنه حين تسلطن العادل أعوام ٥٩٥-٦١٥هـ/ ١١٩٦ - ١٢١٨م، خاطبه الخليفة العباسى (بشاهنشاه خليل أمير المؤمنين)[٣٩]، وهو ما يبدو معه أن الخليفة يقر أمرا واقعا ليس إلا.

ويعطينا نص تأسيس القلعة، الهدف الذى من أجله شيدت في العبارة التالية "التى جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجى إلى ظل ملكه وتحصينا"، أى أنها ملجأ عند الأخطار، في وقت اشتد فيه الصراع الإسلامى الصليبي، ونجد تأكيدا على استقلالية صلاح الدين في إشارة النص إلى "ملكه".

ومن اللافت للانتباه السجع الذى بالنص، والذى يرجح معه أن صائغه، أحد اثنين من رجال دولة صلاح الدين، اشتهرا بالنثر الأدبى البديع وهما القاضى الفاضل ١١٣٥-١٢٠٠م، والعماد الأصفهانى ١١٢٥-١٢٠٠م. وكلاهما صاغا رسائل شهيرة[٤٠]، ومن المحتمل أن يكون القاضى الفاضل، هو الذى صاغ هذا النص لقرب أسلوبه النثرى من أسلوب القاضى الفاضل[٤١].

حدث تحول خطير في أعقاب وفاة صلاح الدين بدمشق في عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م، إذ تحولت المواجهات الإسلامية الصليبية إلى الأراضى المصرية[٤٢]، وذلك نتيجة للخلافات الشديدة بين أبناء البيت الأيوبي، والذين تخلوا عن مبدأ أن الحرب ضرورة حتمية يومية لمواجهة الخطر الصليبي، بل وصل الأمر في بعض الأحيان إلى استعانتهم بالصليبيين ضد بعضهم[٤٣]، وتولى عرش مصر بعد صلاح الدين ابنه العزيز عثمان من عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م إلى عام ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م. ثم ابن العزيز ناصر الدين محمد الذى كان بهاء الدين قراقوش وصيا عليه، ثم استدعى الملك الأفضل بن صلاح الدين ليتولى عرش مصر[٤٤]، وقد استسلم لعمه العادل سنة ٥٩٧هـ ١٢٠٠م[٤٥]، ليتولى حكم مصر نيابة عنه، وظل يحكمها بهذه الصفة من عام ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م إلى عام ٦١٥هـ/١٢١٨م. وورث أباه على عرش الدولة الأيوبية من عام ٦١٥هـ/١٢١٨م. حتى عام ٦٥٣هـ /١٢٣٧م.

والأعمال التى أنجزت بالقلعة بعد وفاة صلاح الدين غير واضحة المعالم ويبدو أنها توقفت نسبيا نتيجة للاضطراب السياسى الذى ساد الدولة آنذاك. حيث حالت المكائد السياسية بين الأيوبيين وبين ترك إنجازات تذكر، وتبين الحوادث التاريخية أن العزيز عثمان قد أقام في القلعة أثناء حياة أبيه ربما ليشرف على العمل فيها. لكنه انتقل إلى دار الوزارة[٤٦] عند اعتلائه عرش مصر[٤٧]، وكذلك أقام فيها ابنه ناصر الدين محمد. وأقام العادل فيها. وأدى ذلك إلى تحول اسم دار الوزارة إلى دار السلطان لتعبر عن تحولها من قصر للوزير إلى مقر للسلطان[٤٨]. ومن الواضح أن الدار السلطانية قامت بالعديد من وظائف الحكم. فقد كان بهاء الدين قراقوش، يجلس بها في أيام العزيز عثمان

للنظر في مظالم الناس[٤٩]، وهى وظيفة ستشيد من أجلها دار العدل بالقلعة فيما بعد. واستغلت دار الوزارة بعد أن نقل السلطان الأيوبى الكامل بن العادل مقر الحكم منها إلى القلعة كدار ضيافة للملوك والرسل القادمين إلى مصر[٥٠]، وأنزل بها السلطان المظفر قطز الأمير ركن الدين بيبرس، حين جاء إلى مصر عام ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م. وذلك بعد عودته لمصر للاتحاد مع قطز في مواجهة التتار. وعندما عاد إلى مصر بعد أن قتل السلطان قطز الذى انتصر على التتار في معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م في طريق العودة[٥١]، استقر بيبرس في القلعة[٥٢] التى صارت طوال الحكم المملوكى مقرا للحكم.

قلعة الجبل في عهد السلطان الكامل بن العادل

منذ أن تولى الكامل حكم مصر٥٩٥هـ/١١٩٨م سعى إلى استكمال مرافق القلعة، لتكون مقرا لحكمه. واعتمد كذلك مخططا لزيادة قوة تحصينات القلعة، فأضاف أبراجا مستطيلة لأسوار النطاق الشمالى منها برج الصفة وبرج كركليان وبرج الطرفة والزيادة التى إلى باب القرافة وبرج الرملة وبرج الحداد...الخ[٥٣]. ويعود الاهتمام بزيادة تحصينات القلعة قوة إلى أن مشروع إقامة سور حول القاهرة والفسطاط، والذى بدأ في عصر صلاح الدين، لم يكتمل إلى عصر الكامل[٥٤]، وهو ما أدى إلى تحول في مفهوم الدفاع عن العاصمة المصرية ككل إلى التركيز على حصن

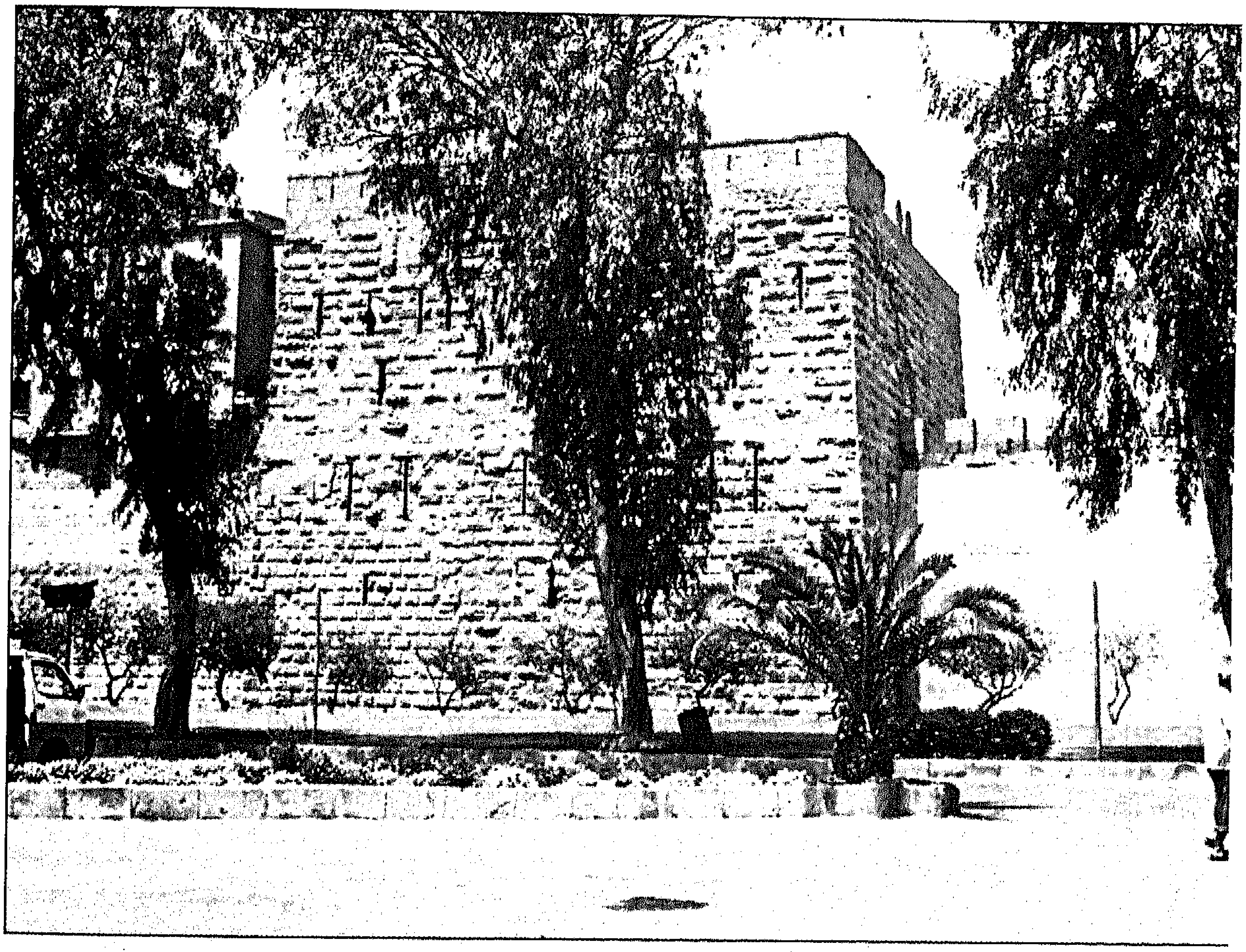

برج كركيليان

المدينة الرئيسى ومقر حكمها. واختار الكامل الإقامة في النطاق الجنوبى من القلعة مع حريمه[٥٥] وبين ابن سعيد المغربى أن الكامل بنى قصورا بالقلعة ونقل إليها بيت المال ومقر حكمه. وذكر أن بها المكان الذى سجن فيه بقايا الفاطميين، دون أن يحدد بانيه[٥٦]، ولكن المقريزى والقلقشندى نسبا للكامل مبنى آخر هو السجن المظلم الذى سجن فيه العديد من ذوى النفوذ أثناء العصرين الأيوبى والمملوكي، وكان يعتقد خطأ أنه هو برج المقطم. لكن المصادر التاريخية ترشدنا إلى أنه كان يقع في مواجهة برج المقطم حاليا في الجانب الغربي[٥٧]. ويدلنا حصار الناصر محمد بن قلاوون للقلعة في أثناء فترة حكمه الأولى (١٢٩٣– ١٢٩٤م)، والذى تسلق أثناءه الناصر إلى البرج الأحمر إلى المماليك، على موقع البرج الأحمر الذى كان قريبا من الباب المدرج[٥٨] وكذلك حادثة الصراع بين السلطان برقوق والأمير منطاش على العرش سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٩م. على موقع البرج[٥٩]، وهذه الحوداث تجعل موقع البرج عند مكان ما على امتداد السور الغربى للنطاق الشمالى بالقرب من باب المدرج. وتبين خريطة وصف مصر وجود برجين بين الباب المدرج والركن الشمالى الغربى للنطاق الشمالي[٦٠]، واللذين شيدت فوقهما منشآت من عصر محمد على، والبرجان يشبهان الأبراج التى تعود لإنشاء الكامل في القلعة سواء في التخطيط أو الحجم مثل أبراج كركليان والطرفة على امتداد سور النطاق الشمالي. وقد تم تجديد هذا البرج بعد ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠م في عصر الظاهر بيبرس[٦١] وينسب كازانوفا وماكتزى وعبد الرحمن زكى، العديد من المنشآت بالقلعة إلى السلطان الكامل، مع أنه لا يوجد مصدر ينسب له أى منها صراحة وينسبون إليه باب القلة، وباب السر والمسجد وأبراج الحمام وقاعة الصاحب (الوزير) والإيوان والإسطبلات السلطانية وخزانة الكتب فضلا عن القصور السلطانية[٦٢]. ويبدو أن هؤلاء الآثاريين درجوا على نسبة أية منشأة بالقلعة تعود إلى ما قبل عصر الظاهر بيبرس إلى الملك الكامل. مع أن خلفاءه الأيوبيين أو سلاطين المماليك ربما لهم منشآت بالقلعة. وخليفته العادل الثانى قام ببعض الأعمال بالقلعة مع أنه لا يوجد مبنى محدد منسوب

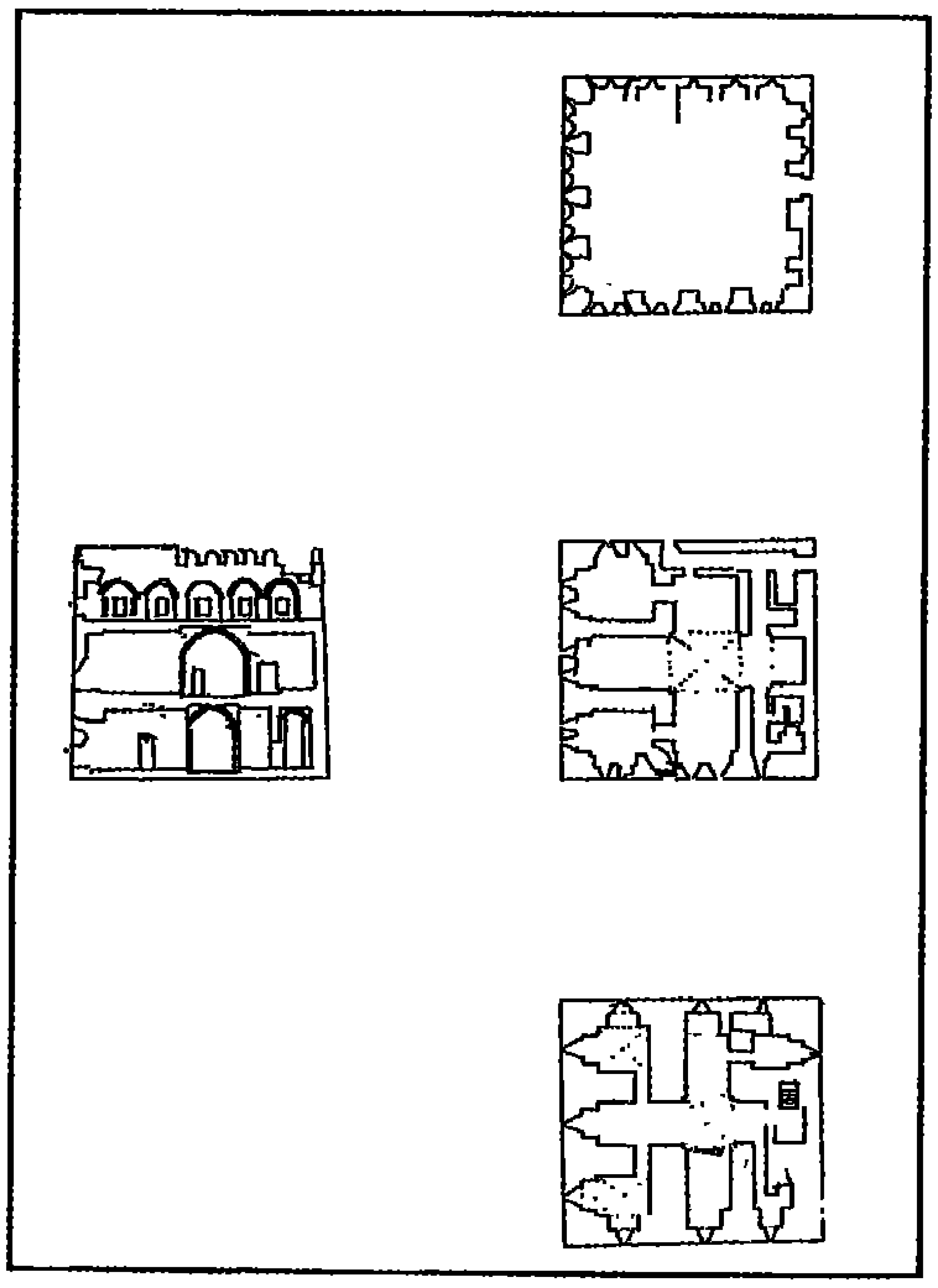

برج كركيليان – مساقط أفقية بطوابقه الثلاثة وقطاع رأسى له

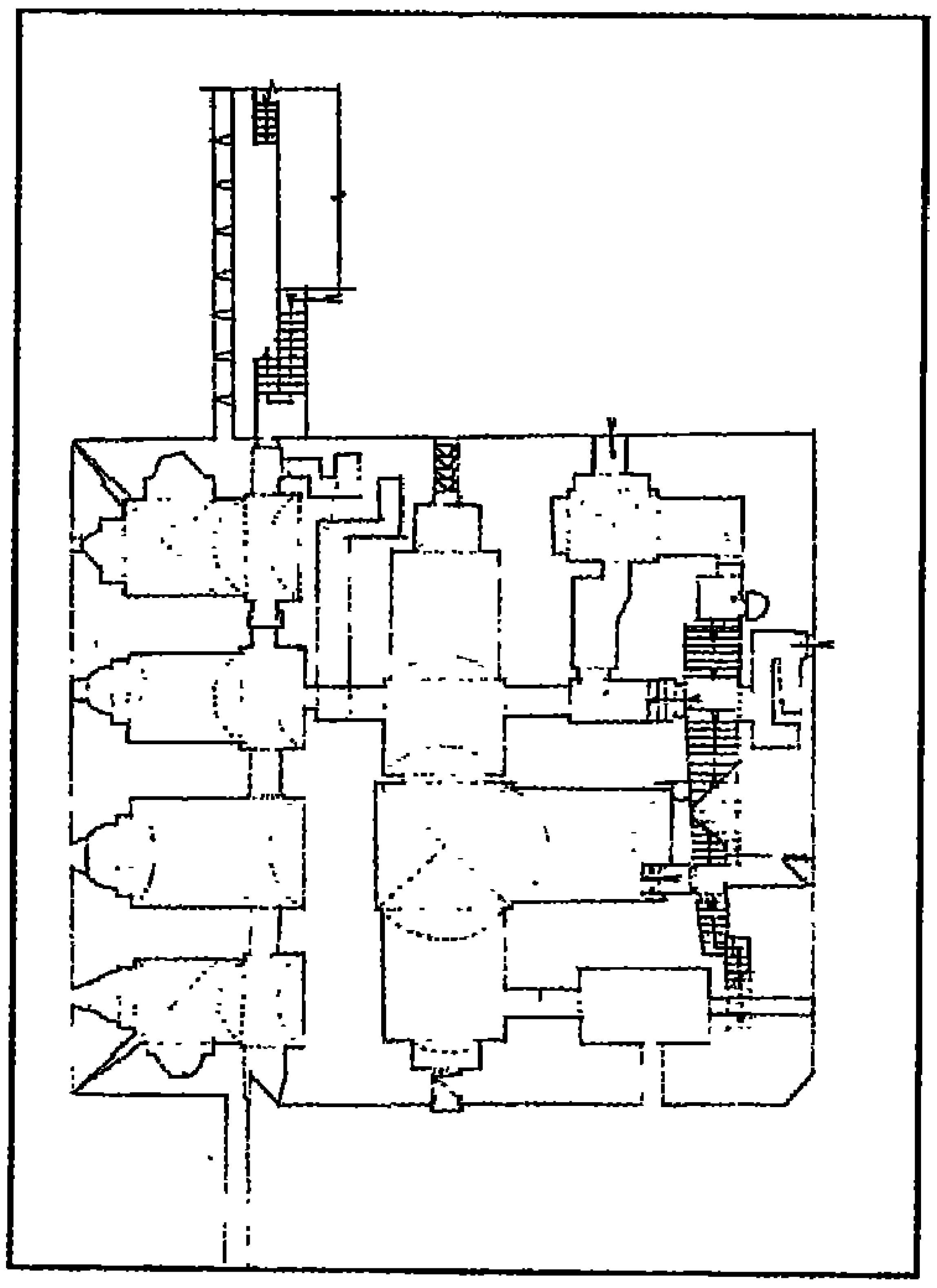

برج الطرفة – مسقط أفقي

إليه[٦٣]. ومن المؤكد طبقا لتحليلات كازانوفا نسبة أبراج الحمام والمسجد الجامع وخزانة الكتب للسلطان الكامل[٦٤]، وكذلك الإيوان حيث أقيمت مراسم تولية الخليفة العباسى في "الإيوان الكبير الكاملي" سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦١م. وهذا يعنى أن المبنى أقيم بواسطة السلطان الكامل[٦٥]، ونستطيع أن نتأكد من نسبة دار العدل بالقلعة إليه لذكرها في المصادر التاريخية باسم "دار العدل الكاملية" ويرجح ناصر الرباط أنها كانت تقع في المنطقة الممتدة بين باب القلة والباب المدرج وهى المنطقة التى كان بها العديد من المنشآت الإدارية[٦٦] ومن اللافت للنظر أنه في الوقت الذى كان فيه الكامل بن العادل يستكمل مقومات قلعة الجبل لتكون مقرا للحكم، كان والده السلطان العادل يقوم بتجديدات وإضافات في قلعة دمشق، وهى مقر حكم بلاد الشام، وذلك عام ٦٠٤هـ/١٢٠٦م. وربما كان مشروع العادل في دمشق يهدف إلى إصلاح ما تهدم بالقلعة نتيجة لزلزال٥٩٧ – ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٠ –١٢٠١م. وتقوية تحصيناتها وتنظيمها من الداخل[٦٧]. امتد العمل في تجديدات قلعة دمشق في الفترة من عام ١٢٠٦وحتى عام ١٢١٧م. كما هو واضح على العديد من النصوص الإنشائية بأبراج القلعة، والتى يبلغ عددها سبعا[٦٨]، وهذا يجعلنا نشير إلى أن الخطة التى اتبعت في عمارة قلعة دمشق تختلف عن خطة قلعة القاهرة التى لم يصلنا فيها من العصر الأيوبى سوى نص وحيد هو نص التأسيس، وهذا الاختلاف ناتج عن اختلاف الخطط التمويلية واستراتيجية البناء، ففى دمشق تذكر المصادر التاريخية أن العادل أمر كل واحد من أمرائه ببناء برج في القلعة، وهو ما وفر عليه مبالغ طائلة، وكانت هذه السياسة ذكية من العادل لإشغال واستنزاف أموال الأمراء الصالحية الذين كانوا في السابق مرتبطين بالولاء لأخيه صلاح الدين. ومعظمهم كان بدمشق وبعضهم كان ذا طموح. وتصرف العادل معهم بهذا الأسلوب، محاولة منه كذلك للتأكد من ولائهم له[٦٩]، وكان العادل أبقى مع الكامل في مصر الأمراء الصغار ومن يثق فيهم من كبار الأمراء.

تمثل قلعة صلاح الدين استثناء في ظل الدولة الأيوبية حيث تكفلت الدولة بتكاليف البناء مباشرة من خزانتها[٧٠]علما بأن استخدام الأسرى الصليبيين وفر الكثير من تكاليف البناء. واستخدام الأسرى في بناء قلعة صلاح الدين بالذات الغرض منه إبعادهم عن مناطق الوجود الصليبى ببلاد الشام وهو ما يحرمهم من إمكانية تحريرهم عن طريق الهجمات المباغتة على معسكرات أو قلاع المسلمين. كان كل من ابن جبير والمقريزي[٧١] قد أشارا إلى استخدام الأسرى الصليبيين في بناء القلعة، كما استخدمهم العادل الثانى للعمل في القلعة أيضا. وفى سنة٦٤١هـ/١٢٤٣م، استخدمهم الصالح نجم الدين في بناء قلعته بجزيرة الروضة[٧٢].

يبدو أن كلا من مشروعي قلعة صلاح الدين وقلعة دمشق كانا جزءا من خطة أكبر وضعها العادل لتقوية القلاع الرئيسية التى تقع تحت سيطرته شملت تجديد قلاع عجلون وحلب وبصري[٧٣]، ولعل هذا هو الذى دعى كريزويل إلى أن ينسب الأبراج الكبيرة في النطاق الشمالى للعادل أكثر منها للكامل[٧٤] مع أن المصادر التاريخية تتحدث عن الأخير أنه هو الذى أضافها وأكمل المخطط الداخلى للقلعة.

علما بأن العادل سكن القلعة عندما كان نائبا عن صلاح الدين في مصر، وذلك لكى يشرف على بنائها، وحينما زار مصر وهو سلطان أقام في دار الوزارة بالقاهرة، وأدار أمور السلطة منها، بينما بقى الكامل في القلعة ليوضح استقلاليته في حكم مصر تحت سيطرة أبيه[٧٥].

يجب أن نأخذ في اعتبارنا عند دراسة هذه الفترة أن الأمن كان هاجسا قويا يسيطر على الأيوبيين بسبب تنافسهم فيما بينهم، وحتى حينما كانت الأخطار الخارجية تنتهى فإن الأمن والحماية ظلا المعيار الأساسي في اختيار مقر الحكم لكثيرين منهم، وكانت القلاع توفر الأمن لأسرهم وممتلكاتهم وكانت ملاذا في وقت الشدة، ويحكى أن الكامل قبل عتبة القلعة عند عودته لها من حملة عسكرية في الشام وقال "أرى روحى في قلعتي"[٧٦]، وهو يعنى أن أمنه وراحته في القلعة.

نستطيع أن نرى في الخريطة السياسية لبلاد الشام والجزيرة في القرن السادس الهجري، الثانى عشر الميلادى سلسلة من القلاع في الإمارات والولايات، كانت وظيفة هذه

القلاع أن تكون مقار للحكم. وتحوي بداخلها قصورا ومبانى إدارية وثكنات للجند أو طباقا لهم، وألحقت بها الإسطبلات، ويتقدمها ميدان سلطاني[٧٧]، وتمثل هذه القلاع بالنسبة لحكام هذه البلاد المظهر العضوى لقوتهم وهيمنتهم، ولم تختلف قلعة صلاح الدين بمصر عن غيرها من هذه القلاع، فيما عدا حجمها الكبير، وتعدد الوظائف التى تقوم بها. نظرا لكونها مقرا لإدارة إقليم كبير هو إقليم مصر، بينما قلاع الشام والجزيرة كانت تدار منها مناطق محدودة المساحة والأهمية، كقلعة طرابلس وإقليمها، وقلعة عكا التى تحكم عكا وإقليمها، وقلعة حلب التى تحكم حلب وإقليمها، وقلعة دمشق أيضا وإن كانت قلعة دمشق في فترات متفاوتة كانت مقرا للسلطان كما حدث في عصر العادل أو نائب السلطان في بلاد الشام كما حدث في عصور لاحقة خاصة في العصر المملوكي، وكان سلاطين المماليك يقيمون بها عند زيارتهم لبلاد الشام، وتوفى بها العديد من السلاطين منهم صلاح الدين والملك العادل[٧٨] والسلطان الظاهر بيبرس البندقدارى في سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م[٧٩].

وعلى الرغم من اتساع رقعة مصر الجغرافية، فإنه لم تتخذ فيها القلاع كمقار للحكم. وقد وجدت بها قلاع صغيرة في بعض المدن الساحلية أو في سيناء، إلا أنها كانت ذات وظيفة عسكرية بحتة، ولذا كانت مصر تحكم كلها من قلعة الجبل، وهذا ما زاد في مركزيتها وأهميتها، وتعود الرمزية السلطوية المركزية للقلعة إلى شخصية مصر التى تتسم بالثبات والاستقرار وكان ارتكاز الحكم وتبلوره بعد تجارب عديدة في مصر الإسلامية تعبيرا عن الشخصية الإقليمية لمصر[٨٠]، والتى تتبلور في دورها الجهادى وفى قيادتها، لذا كانت دولة صلاح الدين هى المحرك لهذه الشخصية ولدورها، وبداية لعودة مصر مرة أخرى لتكون أكبر مركز حضاري في المنطقة واستيعاب مصر للأيوبيين والمماليك من بعدهم، هو تعبير عن مدى مرونتها الحضارية، ونحن هنا نتعامل مع شخصية إقليمية لديها قدرة فائقة على الاستيعاب والإبداع. فالاستيعاب يجدد قدرة هذه الشخصية على الإبداع والتجديد، وهو يجعلها تخرج من حالة الركود أو الكمون التى تدخل فيها أحيانا.

ولهذا كانت وظائف قلعة الجبل متعددة تتناسب مع شخصية مصر منذ عصر الكامل، الذى كانت مصر في عهده تحكم كلا من بلاد الشام والجزيرة والحجاز واليمن[٨١]، وتحولت القلعة إلى مقر لحكم هذه الأقاليم منذ ذلك الحين إلى دخول العثمانيين مصر ٩٣٢هـ/ ١٥١٧م، حيث تحولت إلى ولاية في دولة آل عثمان. وإذا تابعنا ما حدث في عصر بني أيوب سنجد العادل الثانى يخلف أباه على العرش ٦٣٥ هـ/١٢٣٨م لكن الخلافات الأسرية بين بني أيوب أدت إلى إقصائه عن العرش وتولى أخيه الأكبر العرش عوضا عنه، وذلك سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م[٨٢].

قلعة الروضة

ظل الصالح نجم الدين أيوب يدير أمور سلطنته من قلعة الجبل، وكان قد حبس أخاه العادل الصغير في برج العافية، حتى أمر بقتله، وهو عمل غير مسبوق في تاريخ الأسرة الأيوبية[٨٣]. وكان الصالح نجم الدين أيوب من السلاطين المحبين للعمارة، ولم يشيد الصالح في القلعة سوى القاعة الصالحية، وذلك في النطاق الجنوبي، واستخدمت هذه القاعة سكنًا للملوك، واختلف المؤرخون في أسباب اختفائها بعد ذلك من طبوغرافية القلعة، فقد ذهب المقريزى إلى أنها احترقت في حريق وقع بالقلعة سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م[٨٤]، ولكن يرى ابن شاهين الظاهرى أنها ظلت مستخدمة إلى أن أنشأ الناصر محمد بن قلاوون القصر الأبلق في سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م. وهذا أرجح الاحتمالات[٨٥].

كان لشك الصالح نجم الدين في ولاء الجند من غير مماليكه، وهذا ناتج عن الاضطراب الذى ساد حياة الصالح إلى أن أصبح سلطانا. أثره في تكوين فرقة من الجند المرتزقة من الأكراد والخوارزمية، وقد أدرك فضل مماليكه في وصوله إلى عرش مصر فضلا عن حاجته إلى جيش قوى يسانده[٨٦]. لذا كان اتجاه الصالح أيوب منطقيا نحو بناء مقر جديد للحكم بعيدا عن القوات المتمركزة في القلعة والتى لا يضمن ولاءها له، وأن يحيط نفسه بمماليكه الذين يضمن ولاءهم له، وهذا يفسر لنا سبب اختياره موقعا منعزلا في جزيرة الروضة المواجهة للفسطاط، وكان

لا يسمح لأمراء وقواد الدولة الأيوبية بالوصول إلى القلعة عبر جسرها إلا مترجلين وأن يتركوا خيولهم في الشاطئ المقابل للقلعة ويبدو أن ذلك جاء من الإجراءات الأمنية الصارمة[٨٧]. ويبدو أن هناك سببا إضافيا، وهو ما يدعونا إلى تذكر تلك القلاقل التى سادت بغداد نتيجة للجنود الترك وما يثيرونه من مشاكل في أيام الخليفة المعتصم، تلك القلاقل التى أدت إلى تأسيس مدينة سامراء عام ٢٤٩هـ / ٨٦٣م. لتكون حاضرة للمعتصم وجنده[٨٨]، ولكن في القاهرة لم يصل الأمر إلى حد الغضب الشعبى. ولكننا لا نستطيع أن نتجاهل تزايد الغل والغضب نتيجة للصعود السريع للمماليك الصالحية في الجيش[٨٩].

ولزيادة تأمين قلعة الروضة أمر الصالح بتوسيع فرع النيل الفاصل بين الجزيرة وشاطئ مدينة الفسطاط، لكى يجرى فيه النيل طوال العام، بدلا من جريانه فيه وقت الفيضان فقط، وكانت الجزيرة قد تم وَقفها بواسطة تقى الدين عمر على المدرسة التقوية بالفسطاط[٩٠]، فاستأجرها الصالح من ناظر الوقف لمدة ٦٠ عاما[٩١]، وأمر بهدم ما بها من مبان ليمهد الأرض لإنشاء القلعة، وتختلف الآراء حول عدد الأبراج التى ضمها سور قلعة الروضة، وتراوح عددها بين ١٧ إلى ٦٠ برجا والعدد الأخير هو الأقرب للواقع، إذ إنه يتناسب مع حجم القلعة بالجزيرة والرغبة في إحكام عزلتها ومناعتها، وتذكر المصادر التاريخية أن القلعة تضمنت على امتداد أسوارها قاعات ومقاعد ومناظر[٩٢]. وذلك لكى تتيح للموجودين فيها الاستمتاع بالنهر، وإحدى هذه القاعات ظلت موجودة حتى مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر، وكانت مجاورة للسور الشرقى للمقياس، وكانت مكونة من إيوانين بينهما دور قاعة مستطيلة يعلوها قبة، محمولة على أربع مجموعات من الأعمدة، كل مجموعة مكونة من ثلاثة أعمدة تشكل مثلثا، وكان يحد هذه القاعة من الشمال والغرب حجرات يتخللها أفنية ويتم الوصول إليها عبر مدخل منكسر[٩٣]، وتخطيط هذه القاعة يذكرنا بتخطيط عدد من القصور الأيوبية والأرطغرلية في قلاع الشام والجزيرة والتى يرجع تاريخها إلى أواخر القرن ١٣م. وهناك قاعات مشابهة لها في قلاع حلب وصهيون وديار بكر[٩٤].

استغرق بناء قلعة الروضة ثلاث سنوات ١٢٤٠ – ١٢٤٣م وسكن بها الصالح وأسرته وخدمه وألف من خاصة مماليكه. واتخذها مقرا لحكمه حتى نهاية عصره ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، ومع ذلك فإن قلعة الجبل احتفظت بأهميتها الرمزية إذ ظلت بها بقايا الجيش الأيوبى، والدواوين. وبهذا يكون الصالح أوجد مركزا جديدا للسلطة في المدينة، ونشأت منافسة رمزية بين القلعتين بخاصة مع بقاء العديد من إدارات الحكم والجيش بقلعة الجبل، وكانت القلعتان تتزينان عند انتصار الجيش الأيوبى في أى معركة حربية[٩٥].

ولم تستمر قلعة الروضة مقرا للحكم إذ هجرت بقيام دولة المماليك البحرية ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، وتحول مقر الحكم منها إلى قلعة الجبل. تبع ذلك أن تلاشت قلعة الروضة تدريجيا حتى صارت أثرًا بعد عين[٩٦]، وإن كنا نستطيع أن نشاهد منها برجين مستديرين أسفل الشاطئ الغربى لجزيرة الروضة.

القلعة في العصر المملوكى

تعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب عام٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م حدا فاصلا بين دولتين: الأيوبية والمملوكية، وإن كان حدا غير رسمي، إذ بوفاته استدعت شجر الدر ابنه تورانشاه من حصن كيفا ليتولى الملك، غير أن سوء تدبير الملك، وإهماله مماليك أبيه، أدى إلى قتله على يد المماليك في عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م[٩٧].

استقرت شجر الدر زوج الصالح أيوب بعد ذلك على عرش مصر، واتخذت من قلعة الجبل مقرا للحكم، وأدت الحوادث المتتالية إلى زواجها من عز الدين أيبك أتابك السلطان الأيوبى الأشرف موسى[٩٨]، استقر عز الدين أيبك في ملك مصر، غير أن نزاعه مع الفارس أقطاى، أدى إلى تصاعد الصراع بينهما، اتخذ أيبك عددا من الإجراءات التى كان لها أثرها في توطيد دور قلعة الجبل كمقر للحكم، منها على سبيل المثال أمره بهدم قلعة الروضة سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥٠م[٩٩]. حتى لا يتخذها مناوئه مقرا لهم ينافسون منه على الحكم ويتحصنون به، ومن أحجارها بنى مدرسة في

موقع دار الملك التى بناها الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالي، وتحول إليها بدواوينه[١٠٠]، ثم جددها الصالح لتكون دار ضيافة رسمية[١٠١]. لمواجهتها لقلعة الروضة. واستبدال الدار بمدرسة حولها عدد من المنشآت الوقفية، وهدم قلعة الروضة، كان له أثر في القضاء على دورها المركزى كرمز قوى لنشأة المماليك الصالحية.

أدى طلب الفارس أقطاى المنافس القوى لنفوذ المعز أيبك الانتقال إلى القلعة ليقيم فيها[١٠٢] إلى اضطراب الأخير، حيث إن ذلك سيؤدى إلى أن تكون الكلمة العليا لأقطاى بخاصة أنه اتخذ شارات الملك لنفسه، وهو ما جعل أيبك يتعجل الأمر باستدعاء أقطاى بصورة عاجلة لاستشارته في أمر مهم، ليقتله أيبك في قاعة الأعمدة بالقلعة[١٠٣] وحاصر مماليك أقطاى القلعة، غير أنه رميت لهم رأس أقطاى فهربوا إلى الشام[١٠٤]، هذه الحادثة تعتبر بداية لتجسيد دور جديد للقلعة، إذ إن الصراع على السلطة بين المماليك سيتمحور حولها، لتصبح السيطرة عليها رمزا للسيطرة على حكم مصر وبلاد الشام والحجاز. ومفهوم القلعة هنا مختلف عن المفهوم الذى شيدت من أجله، إذ إنها شيدت كمقر لحكم الحاكم الذى يسيطر على أسوار المدينة، وتعد القلعة في هذا المفهوم المفصل القوى وخط الدفاع الرئيسى عن العاصمة المصرية في ظل الحروب الصليبية. وتحولت القلعة إلى رمز للسلطة من يستولى عليها تصبح بيده السلطة، استمر هذا المفهوم سائدا حتى عصر محمد على.

وترشدنا حادثة مقتل أقطاى على منشأة مهمة في القلعة هى قاعة الأعمدة، وهى في الغالب قاعة استقبال رئيسية للأمراء، وينسبها كازانوفا إلى شجر الدر[١٠٥] غير أن ناصر الرباط يرى أنها ترجع إلى عصر الكامل[١٠٦] ويحدد موقعها في النطاق الجنوبى من القلعة ضمن سلسلة المبانى السلطانية[١٠٧]، وهو تحديد منطقي. وشيدت شجر الدر بقاعة الأعمدة "مرتبة خاتون"[١٠٨]، ويبدو أنها العرش المخصص لجلوس شجر الدر، والتى كان لها نفوذ قوى، وهذه القاعة شهدت مبايعة الخليفة العباسى الجديد في عهد بيبرس البندقدارى سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م. وتحولت هذه القاعة لتخصص كمقر لدكة جلوس الزوجة الأولى للسلطان أو الأثيرة لدى السلطان.

توالت الأحداث حتى أرادت شجر الدر التخلص من عز الدين أيبك، لإقدامه على الزواج من إحدى أميرات الموصل لكى يثبت شرعية حكمه، وخافت هى على عرشها فاغتاله خدمها في الحمام[١٠٩]، غير أن زوج المعز ومماليكه سرعان ما حنقوا على شجر الدر وحاولت المماليك البحرية الدفاع عنها، وانتهى الأمر بسجنها في البرج الأحمر، ولم تستطع مماليكها حمايتها طويلا، إذ سرعان ما أحضرت من البرج إلى دار السلطنة حيث تقيم زوجة أيبك وقتلها العبيد، وألقيت جثتها من القلعة في اتجاه القرافة حيث ظلت ثلاثة أيام إلى أن دفنت[١١٠] في قبتها[١١١]. وفى وضع مؤقت تولى السلطنة المنصور على بن أيبك ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م عرش مصر، كما جرت العادة في عصر المماليك، إذ لم تكن ثمة أسر حاكمة باستثناء أسرة قلاوون لنجاح المنصور في تكوين فرقة قوية من المماليك البرجية[١١٢] تدين بالولاء لأسرة قلاوون، وعلى الرغم من ذلك فقد تخلل عصر هذه الأسرة صراع سياسى مرير بين المماليك الأتراك والبرجية حول النفوذ والسيطرة[١١٣].

مرت سلطنة قطز ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠ م دون تأثير يذكر على القلعة كمقر حكم. وكان للقلعة دور محورى في تلك الفترة الحرجة ولم تستجد بها منشآت جديدة يذكرها المؤرخون. غير أننا سنتتبع ثلاثة سلاطين تركوا آثارا في القلعة هم: الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل. وهم الذين سبقوا الناصر محمد الذى أوصل القلعة في ظل حكمه إلى مرحلة النضوج والاستقرار العمرانى كمقر حكم.

القلعة في عهد الظاهر بيبرس

قتل الظاهر بيبرس المظفر قطز بعد تحالفهما معا ضد التتار، في طريق العودة إلى القاهرة، لقى قطز مصرعه، ليذكرنا ذلك بالصراع القديم بين مماليك أقطاى ومنهم بيبرس ومماليك المعز ومنهم قطز، ولكن الغلبة هذه المرة كانت لماليك أقطاى، ومن المتوقع منطقيا أن تتم محاكمة بيبرس القاتل، ولكن في ظل المبدأ المملوكى "الحكم لمن

غلب"[114]. تولى بيبرس السلطنة بعد أن استقرت مقاليد السلطة بيد المماليك البحرية حيث أدى انتصار المنصورة ضد الصليبيين، ومن بعده انتصارهم على التتار في عين جالوت إلى تثبيت شرعية حكمهم، حيث يعتبر فقهاء السياسة الشرعية حراسة بلاد المسلمين والجهاد إحدى الوسائل التى تعطى للحاكم الشرعية، بخاصة بعد أن احتاجت ديار الإسلام إلى الدفاع في ظل الهجوم الصليبي وكانت الخلافة هى النظام الذى استقر كحكم شرعى للمسلمين، ولكن دولتى الخلافة حين دخل الصليبيون المنطقة سقطت إحداهما وهى الخلافة الفاطمية كنتيجة مباشرة للصراع الصليبى الإسلامى على مصر، وتضاءلت الأخرى حتى إن قاضى دمشق ابن الهروى توجه إلى بغداد، في أعقاب سقوط القدس في يد الصليبيين، مستغيثا بالخليفة، فعاد (من غير بلوغ أرب ولا قضاء حاجة) كما يقول ابن الأثير[115]. انتهى الأمر بسقوط الخلافة العباسية على يد المغول ولم تغب فريضة الجهاد عن الأتابكة الزنكيين، إذ تفرد هؤلاء بحس جهادي، اخترق مناخ الإحباط المسيطر على الدولة العباسية، وإماراتها التى وقفت عاجزة أمام الغزو الصليبى، فاهتزت شرعية الخليفة القابع في قصره، وانهارت كذلك شرعية الأمراء المتسلطين باسمها على القرار، ليصبح الجهاد مدخلا يسوغ الوصول إلى السلطة الشرعية، وهو المنظور الذى أعطى للمماليك شرعية حكمهم.

لعل ذلك يبرر السبب الذى من أجله أقام المماليك مشهد النصر في عين جالوت ليكون شاهدا يذكر كل من يمر به بجهاد المماليك[116] وهو شاهد يخلد انتصارا كان بيبرس أحد صانعيه.

لقد كان الظاهر بيبرس ذا وعى سياسى أدرك من خلاله المرحلة وتحدياتها، وكان يتوق إلى أن يكون له دور متميز عادى فيها، تساعده على ذلك شخصية قيادية فذة، ونظرة ثاقبة في استقراء معالمها الصعبة ولعل أخطر التحديات حينذاك ما واجهه من انقسام في جبهة المماليك، وتحزب فريق ضده من أتباع السلطان السابق[117].

اتخذ مشروع السلطان الظاهر بيبرس بعدا إسلاميا واضحا فتبدو خيوطه مترابطة وأهدافه واضحة إلى حد كبير، فالتقرب من الفقهاء، وأداء فريضة الحج[118]، والانفتاح على المذاهب الأربعة وتعيين قضاتها في سائر الأقطار الإسلامية التابعة له[119]... ليست كلها سوى تعبيرات عن مشروعه الذى سيكتمل إطاره بعملية إحياء الخلافة العباسية، كما ينبغى أن نتوقف عند التعبيرات الأخرى، مثل تحصين الثغور وبناء القلاع والأبراج[120] فضلا عن مدرسته التى تأسست على أنقاض القصر الفاطمى الشرقي[121]، وكان مما يلفت النظر أيضا في هذا الاتجاه شيوع ظاهرة المساجد[122] التى حظيت باهتمام معظم السلاطين المماليك، وهى لا تعدو أن تكون إحدى السبل التى استخدمها هؤلاء للتقرب من المسلمين وإعطاء دولتهم الصفة الإسلامية[123].

حين بدأ الظاهر بيبرس إحياء الخلافة العباسية لأول مرة، بعث بالخليفة إلى بغداد لإحيائها هناك، غير أن الخليفة قتل هو وجيشه، ثم ولى آخر الخلافة بعد أن تم إثبات نسبه إلى بنى العباس كما فعل مع سابق، وبويع الخليفة أحمد، والذى أصدر تقليدا للسلطان الظاهر بحكم "البلاد الإسلامية، وما سيفتحه الله تعالى على يديه من بلاد الكفار..."، كما حصل على لقب (قسيم أمير المؤمنين) الذى لم يحصل عليه أحد قبله[124] وهو ما عزز دور وأهمية دولة المماليك.

استقرت نظم دولة المماليك في عهد الظاهر، وظهر ذلك بوضوح في قلعة الجبل، رتب الظاهر بيبرس فرقة جديدة من المماليك عرفت بالمماليك السلطانية أو الظاهرية تدين بالولاء له، وأبقى الأمراء الكبار من المماليك البحرية الذين كانوا دعامة حكمه حول القلعة حيث بنى لهم القصور بالقرب من القلعة، وذلك خشية احتكاكهم ومماليكهم بطبقات الشعب[125] كان بيبرس في حاجة إلى السيطرة على أمرائه ليكونوا إلى جانبه، وفى الوقت نفسه إلى إبعادهم عن القلعة، لأن وجودهم بها يسهل قيامهم بانقلاب ضده[126]. لذا جاء بناء هذه القصور حلا عمليا لهذه المعضلة. وحاول بيبرس أيضا إحياء دور قلعة الروضة، ولذلك أمر في سنة ٦٦٠هـ /١٢٦١م الأمير جمال الدين موسى بن يغمر الأستادار بتجديدها، وتجهيز قاعاتها، ووزع أبراجها بين

الأمراء، وجعل كل واحد منهم مسئولا عن إعادة بناء برج، فأقاموا بيوتا لهم وإسطبلات هناك[١٢٧]. وإحياء الظاهر قلعة الروضة ليس له سبب واضح، ويبدو أنه أراد أن يستوعب الأمراء ويضعهم ومماليكهم تحت سيطرته، وفي الوقت نفسه تنمية القوة المملوكية لمواجهة التحديات التي تواجهها سواء كانت صليبية أو مغولية.

أصبح العزل والشك في الأوساط المملوكية أمرا سائدا بخاصة في عصر دولة المماليك الجراكسة، في ظل تناوب السلاطين واحدًا بعد الآخر وفقدان السلطة المملوكية درجة معقولة من الاستقرار، حتى وصل الأمر إلى تهرب بعض أمراء المماليك من تولي السلطنة، لقد كان ابن تغرى بردى محقا كذلك حين رأى في إقامة المماليك بالقرب من القلعة وبعيدا عن سكان القاهرة، أمرا فيه راحة للسكان، حيث سبق وأن أرهق المماليك السكان. في الصراع بين أقطاي وأيبك بالمظالم. ومثل هذه الصراعات لها تداعيات سلبية على المدينة وسكانها.

أحدث الظاهر بيبرس العديد من المنشآت في القلعة، ولكن أهمها على وجه الإطلاق هو اهتمامه بإمدادات المياه، حيث إن عدم توافرها قد يؤدي إلى فقدان القلعة درجة مهمة من درجات الصمود عند حصارها، فضلا عن أن الماء يساعد على زيادة عمرانها، أنشأ الظاهر بيبرس صهريجا للمياه بالقرب من القلعة[١٢٨] جلب إليه المياه من بئر دار البقر المواجهة لحدائق سيف الإسلام [١٢٩]، وهذا البئر قريب من باب السلسلة، ويوجد مأخذ للماء بالقرب من زاوية حسن الرومي وبينته الوثيقة الخاصة بها حيث ذكرت وجود مجرى ماء أسفل مدخل الرواق قبل تشييدها[١٣٠]، ومن باب السلسلة كانت المياه تحمل على قناطر إلى البئر الرئيسية في القلعة، والتي يرجح أنها كانت بالقرب من بئر يوسف، وقناطر المياه هذه كانت تحمل ألقاب الظاهر بيبرس مذهبة[١٣١].

الدار الظاهرية

يذكر المؤرخون دارا للعدل[١٣٢] تحت القلعة أنشأها الظاهر بيبرس ولكنهم يقدمون معلومات غير كافية عن هذه الدار، والراجح أنها كانت موجودة كبناء قبل عصر الظاهر بيبرس فأعاد بناءها، وكانت تقع فيما بين بابي السلسلة والمدرج، وكانت عبارة عن مصطبة مظللة كان يجلس فيها الظاهر للنظر في المظالم واستعراض الجند، وكان يجلس فيها يومي الاثنين والخميس، ثم عرفت هذه الدار فيما بعد بدار العدل القديمة، بعد أن شيد إيوان العدل، واستخدمت في العديد من المناسبات الرسمية وتحولت هذه الدار إلى طبلخانة في عهد الناصر محمد٧٣٢هـ/ ١٣٢٢م[١٣٣]. وكانت الطبلخانة ساحة دون سقف، فلما ولي الأمير سودون من طاز أخور وسكن الإسطبل السلطاني، أعاد بناء الطبلخانة فجعلها طابقين، وكان يهدف من ذلك أن يجعل في الطابق الثاني رماة يواجهون رماة المدرسة الأشرفية[١٣٤] التي كانت تواجه الطبلخانة، وعد الاستيلاء على المدرسة الأشرفية من قبل المتمردين موقعا متميزا لرمي الطبلخانة وما حولها بالسهام[١٣٥].

سور القلة[١٣٦]

لا تشير المصادر التاريخية إلى سور القلة قبل عصر قلاوون، حيث أشار شافع بن علي في تذكرة من السلطان قلاوون إلى ولده علاء الدين إلى باب القلة ضمن الإجراءات الأمنية التي يجب اتخاذها عند تأمين القلعة[١٣٧]، ومن المعروف أن الظاهر بيبرس هو الذي بنى القلة[١٣٨] التي سمي باسمها باب القلة وسور القلة، وتوضح العديد من المصادر أن وظيفة القلة هي ضبط حركة المرور بين نطاقي القلعة العسكري والسلطاني، وبالتالي نستطيع أن ننسب السور بالباب بالقلة إلى السلطان الظاهر بيبرس، لذكر أجزائها بعده لدى المؤرخين على نحو ما تقدم، ويشير ابن الفرات في تاريخه -عند حدوث نزاع بين اثنين من أمراء دولة الأشرف خليل في عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م. إلى وصف باب القلة من أنه يتكون من ممر طويل ذي أبواب، به مقعد حجري للأستادار[١٣٩] يجلس به إلى أن يسمح له بالدخول للقصر السلطاني[١٤٠]، والمنطقة بين المسجد الجامع للقلعة وسور القلة كان بها العديد من المباني، وأنشئ سور القلة موازيا للجانب الأطول للرحبة التي تواجه القلة، وكان الباب في وسطه، وكان يغلق في الليل لعزل الجنود

عن السلطان. وهذا الإجراء الأمنى أتى ضمن سلسلة من الإجراءات التى اتخذها الظاهر بيبرس لكى يؤمن مقر إقامة السلطان، فكما كان حذرا من أى هجوم خارجى على القلعة، كان حذرا أيضا من أى تمرد يأتى إليه من داخل القلعة، والقلة الهدف منها مراقبة قسمى القلعة وما يجرى حولها، ويلزمها سور للفصل حتى يسهل السيطرة، ويشير شافع بن على فى تذكرة المنصور قلاوون لولده إلى الإجراءات الأمنية التى فى القلعة، وهى كما يذكر (أبواب القلعة تغلق وقت العادة، ووالى القلعة يحضر المفاتيح إلى القلة، ووالى القلة يدخل بالمفاتيح التى للقلعة والقلة، وتسلم لمن كانت له على العادة)[١٤١] وهذا يبين لنا شدة الإجراءات والدور المحورى لوالى القلة فيها وكانت القلعة يفصلها فى العصر الأيوبى رحبات واسعة تنساب خلالها حركة المرور بين قسمى القلعة[١٤٢] وترجع هذه الإجراءات الأمنية الشديدة إلى طبيعة الحكم المملوكى الذى اتصف بالاعتراف بالأقوى وكثرة المؤامرات.

شيد الظاهر بيبرس أيضا دار النيابة فى النطاق الشمالى من القلعة بجوار رحبات القلة، وكانت رحبات هذه الدار مخصصة لنائب السلطان[١٤٣]. هذه المنطقة هى التى يذكر القلقشندى أنها تضم الدواوين الإدارية للدولة، وحدد لنا هذه الدواوين بالترتيب. بعد أن ينزل الرجل من الباب المدرج، يدخل إلى دركاة فى جنوبها دار النيابة، وقاعة الصاحب التى يجلس بها الوزير وكتاب الدولة وديوان الإنشاء، وهو الذى يجلس فيه كاتب السر وكتاب ديوانه، وديوان الجيش، وباقى الدواوين السلطانية[١٤٤]، تمتد هذه المنطقة من نهاية الباب المدرج، فى الموقع الذى كانت تشغله سابقا دار الوثائق القومية حتى باب القلة الحالى. وقد تمتد منطقة الدواوين حتى المدرسة الحمراء وقصور الحريم الحالية. ولكن الترجيح الأول يكون واقعيا نسبيا، إذا أخذنا فى الاعتبار عدم إجراء حفائر أثرية فى هذه المنطقة إلى اليوم.

يذكر ابن شداد أن دار النيابة كانت عبارة عن قاعة لها إيوان كبير ذو رواق سقفه محمول على أربعة أعمدة خشبية مزخرفة[١٤٥]، وكان أول من جلس فى دار النيابة الأمير بدر الدين بيليك الخازندار، الذى كان نائبا للظاهر بيبرس، وابنه الملك السعيد[١٤٦].

دار الذهب

تحدث عن هذه الدار كل من ابن شداد والكتبى وابن تغرى بردى[١٤٧]. ويطلق عليها ابن شداد قاعة الذهب، ويذكر أن الظاهر بيبرس سماها دار الذهب ربما إشارة إلى بيت الذهب لخمارويه بن أحمد بن طولون، أو قاعة الذهب للخليفة الفاطمى العزيز بالله والتى كانت قاعة للاحتفالات والمراسم الخاصة بالدولة الفاطمية بالقصر الشرقى فى حصن القاهرة[١٤٨]. ولا نستطيع أن نحدد بالضبط موقع هذه الدار ضمن القسم السلطانى من القلعة. ويذكر المؤرخون منشأتين للظاهر بيبرس هما الدار الجديدة، والقاعة الظاهرية، ويرى كل من درسوا القلعة أن دار الذهب والدار الجديدة والقاعة الظاهرية هى أسماء لمنشأة واحدة، أنشئت بجوار باب السر الكبير الذى يعرف حاليا بالباب الوسطانى[١٤٩]. ويمكن الوصول من باب أسفل متحف الشرطة بالنطاق الجنوبى حاليا إلى بقايا تحت الأرض تشتمل على قاعتين لهما دهليز بينهما ولهما شبابيك تطل على الخارج يرجح أن هذه البقايا هى بقايا دار الذهب أو الدار الجديدة.

برج الزاوية

ينسب ابن تغرى بردى لبيبرس تشييد برج الزاوية بالقلعة[١٥٠]، ويدل اسمه على أنه أنشئ عند إحدى زوايا القلعة، ويذكر ابن شداد أنه كان يقع بالقرب من باب السر الكبير[١٥١]، وأدى كشف أثرى تم عند إعداد القلعة كمزار سياحى فى الثمانينيات إلى الكشف عن برج عليه سباع منحوتة والسبع كان رنكا للظاهر بيبرس وذكرت المصادر التاريخية برجا فى القلعة يعرف ببرج السباع[١٥٢] هكذا وجد لدينا اسمان لبرجين واحد ينسب للظاهر بيبرس، والآخر غير منسوب إليه. إن ما سبق يرجح أن برج الزاوية هو نفسه برج السباع[١٥٣]، وأنه اشتهر بمرور الوقت بالاسم الأخير للسباع المنحوتة عليه وواجهة

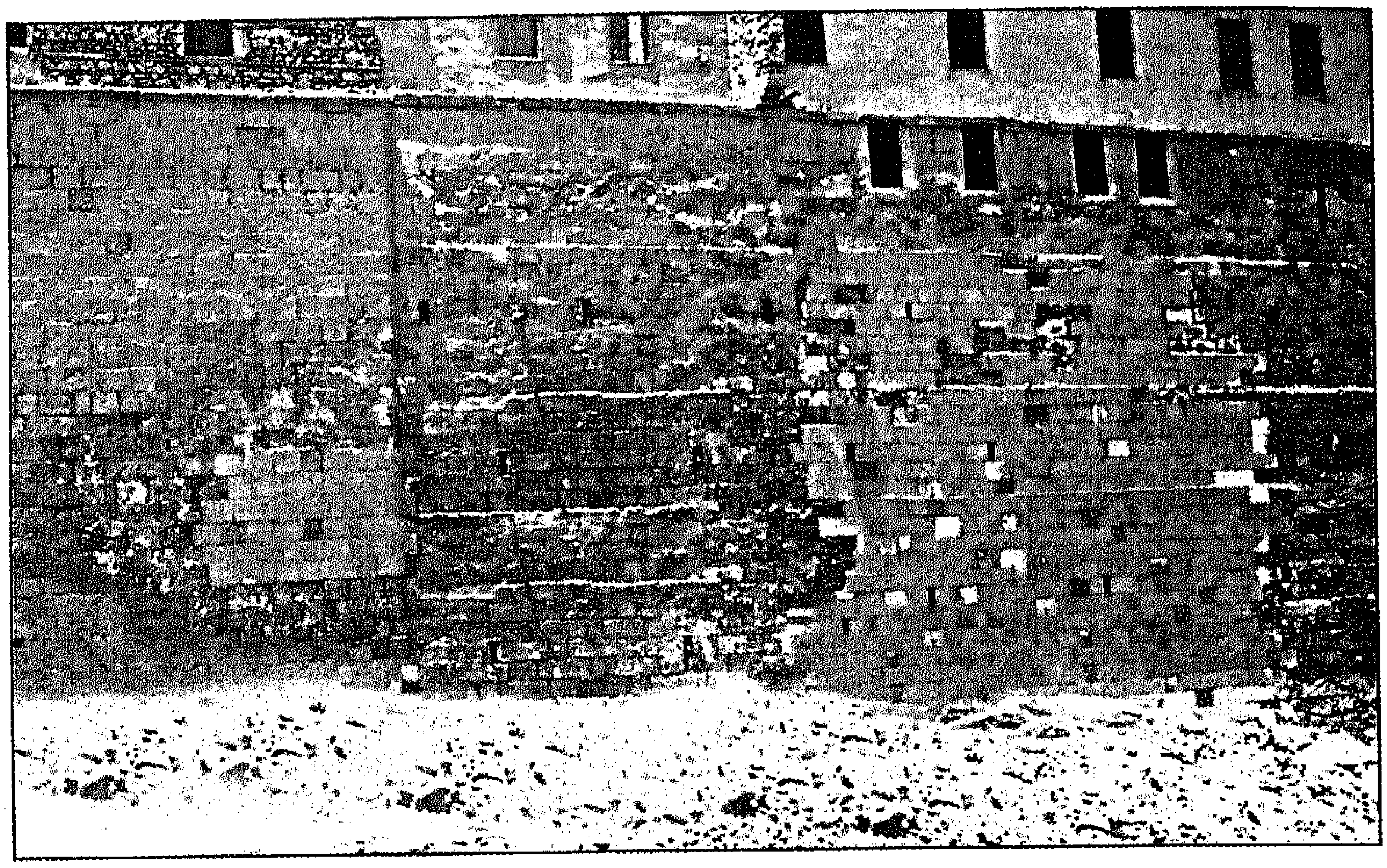

السور الخارجي لدار قاعة الذهب

البرج التى تقع داخل القلعة مازالت مدفونة، إلا أنه يمكن الدخول إليه عبر باب أسفل متحف الشرطة، ويذكر ابن تغرى بردى لنا الدار الظاهرية، والدار الصالحية في حادثة حجز الخليفة العباسى المستكفى بالله مع أولاد أخيه في القلعة في عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م. في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون[١٥٤]، وفى عام ٧١٠هـ/١٣١٠م يرد ذكر حجز الخليفة المستكفى أيضا، ببرج السباع مع أولاده، واحتجز ابن عمه إبراهيم في برج بجواره ومنعا من الاجتماع بالناس[١٥٥].

وهاتان الحادثتان تدلان على أن الدار الظاهرية تجاور برج السباع ويليها مباشرة الدار الصالحية التى أنشأها الصالح نجم الدين أيوب وعرفت بالقاعة الصالحية، ولما كانت هذه الدور تتخلل السور مع الأبراج في هذا الجزء من القلعة فقد اختلط الأمر على المؤرخين، فذكر ابن تغرى بردى مرة إقامة العباسيين بالدار الصالحية ومرة ببرج يجاور برج السباع. ولما كانت الدار الظاهرية ملاصقة لبرج السباع فهما يعدان امتدادا طبيعيا لبعضهما. ويبدو أن هذا الجانب من القلعة كان المكان المختار لحجز الخلفاء العباسيين حين الخوف منهم من قبل السلاطين المماليك، وبخاصة أن شرعية الحكم المملوكى تحولت إلى هؤلاء الخلفاء، ولذا بات التحفظ عليهم أمرا واجبا في بعض الأحيان[١٥٦] ويشير ابن تغرى بردى إلى أن الظاهر بيبرس أخرج من برج الزاوية رواشن[١٥٧] وبنى عليه قبة وزخرف سقفها[١٥٨]. والحقيقة أن موقع هذا البرج الذى يعرف أيضا في خريطة الحملة الفرنسية ببرج الشخص، يلفت الانتباه إلى هذا البرج موقعه الاستراتيجي فهو من جانبه الشرقى يشرف على مدخل القلعة المعروف بالباب المدرج وباب السر الكبير الذى يؤدى إلى النطاق الجنوبي، ومن جانبه الشمالى يشرف على القاهرة وأسوارها، التى بدأت حركة العمران بها تنمو في اتجاه القلعة، فضلا عن إشراف هذا البرج على الممر السلطانى المنحوت في الصخر المؤدى إلى باب السر الكبير، وإشرافه على حركة القادمين إلى القاهرة عبر الصحراء.

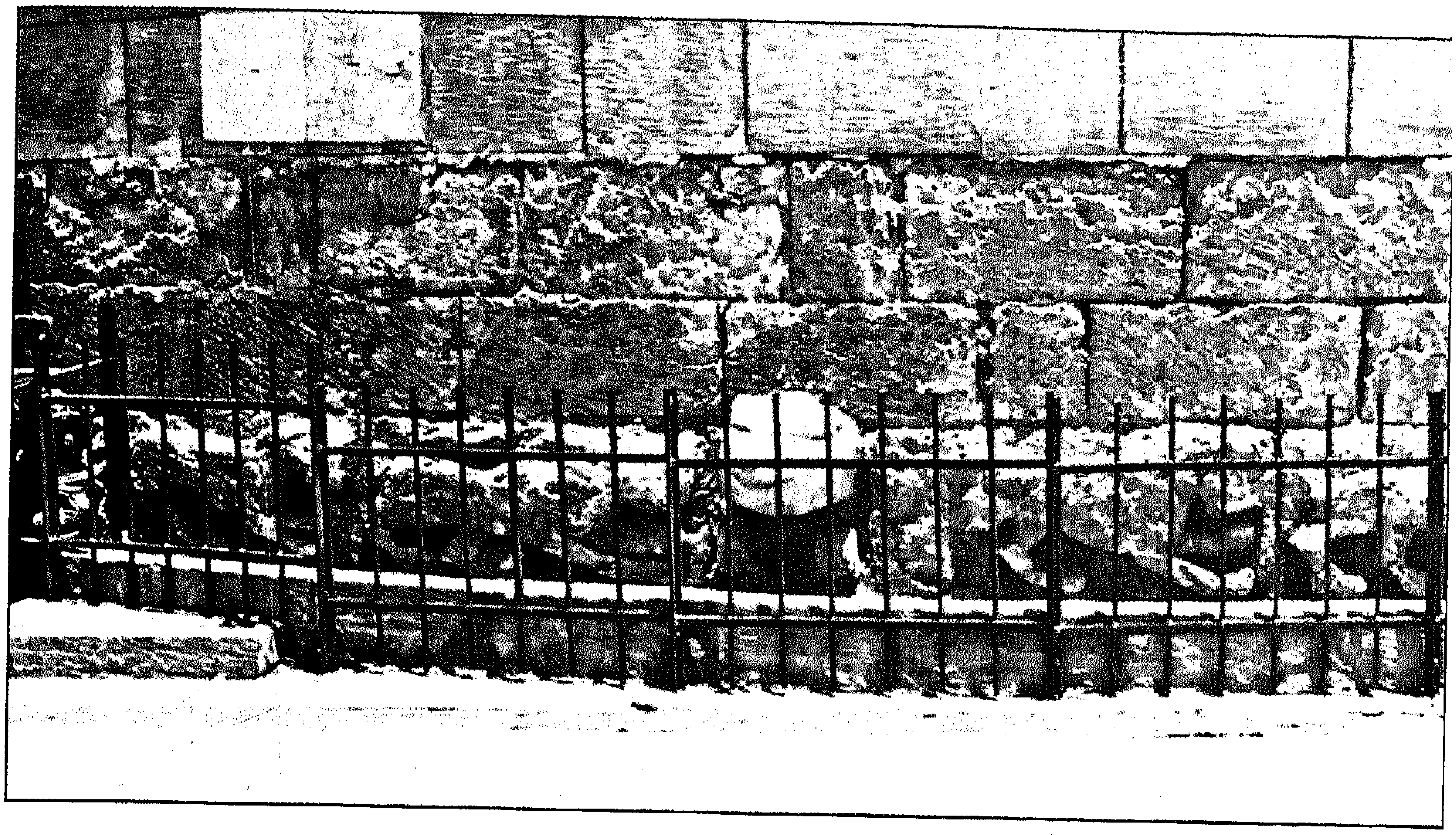

برج السباع

لعل هذه الأسباب التى جعلته من أهم أبراج القلعة، التى حرص قراقوش أن يضع عليها النسر السلطاني، وأن يجدده السلطان الظاهر بيبرس وأن يلحق بجواره الصالح أيوب قاعة يشرف منها على الحركة إلى داخل القلعة، ولعل ما حدث في مذبحة المماليك ١٨١١م، يوضح لنا أهمية هذا الموقع في السيطرة على القلعة وما حولها. هذه الأسباب مجتمعة هى التى جعلت بيبرس يعده كمجلس له بإخراج الرواشن منه ليستطيع من خلال الرؤية البصرية كشف الحركة حول القلعة والحركة داخلها.

قبة الظاهر

تنسب للظاهر بيبرس قبة شيدها حملت على اثنى عشر عمودا من الرخام، صور فيها الظاهر أمراءه على هيئتهم[١٥٩]، ومن الغريب أن هذا المبنى لم يرد توصيف وظيفى في المصادر التاريخية، ومن المرجح أنه كان مخصصا لجلوس السلطان وحوله الأمراء بترتيبهم حسب القواعد السلطانية، ويبدو أن تصويرهم بالقبة جاء حسب هذا الترتيب وبالتالى استغلت هذه القبة في المراسم السلطانية، وهى وظيفة تتعارض مع الإيوان الكاملى الكبير، الذى كان موقعه على يمين الداخل من باب السر الكبير، وفى مواجهة مسجد القلعة، ومن غير المعروف موقع قبة الظاهر على وجه التحديد، غير أن بعض المصادر تذكر أنها برحبة الحبارج ومنها ابن شداد[١٦٠] المعاصر للظاهر بيبرس والذى ينقل عنه كل من الكتبى وابن تغرى بردى[١٦١]، وهذه الرحبة غير معروف موضعها على وجه التحديد. ويبدو أن اسم الحبارج يكتنفه غموض إذ لم يتكرر ذكره في المصادر التاريخية.

ولما كانت القبة تتشابه مع وظيفة الإيوان الكاملي، فمن المرجح في هذا الشأن احتمالان، الأول أنها ألحقت بالإيوان الكاملي، أو أن الظاهر هدم الإيوان وأقامها مكانه. ويشير ابن الفرات في تاريخه أن المنصور قلاوون هدم قبة الظاهر وبنى موضعها قبة جديدة، دون أن يحدد الموضع بالضبط[١٦٢].

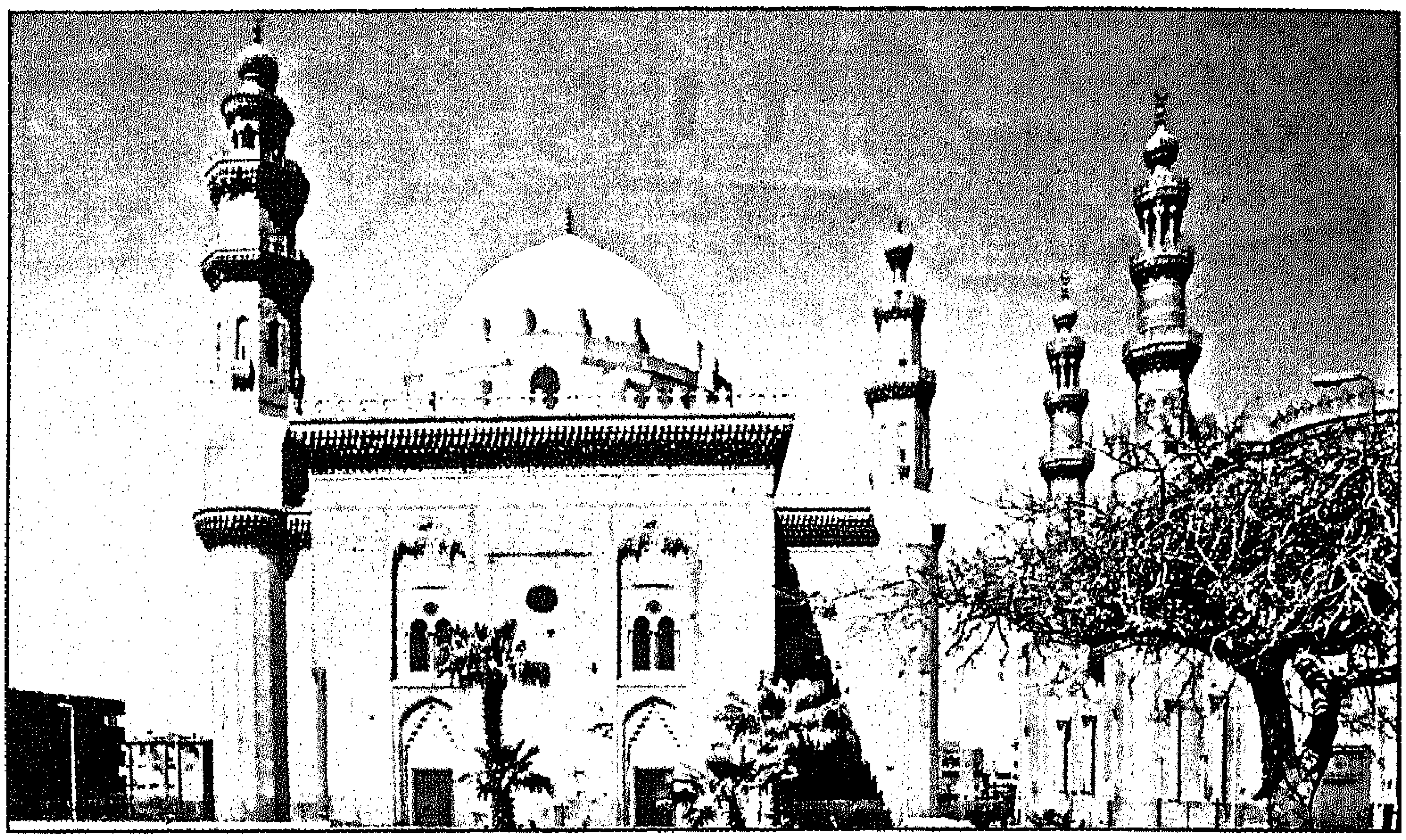

مدرسة السلطان حسن

تتبقى منشأة أخرى مهمة بناها الظاهر بيبرس لولده الملك السعيد، وهى دار أو قصر بناه أمام الباب المدرج، ومن المرجح أنها بنيت في موضع حفير، أى حفرة عميقة، أقام فيها ستة عشر عقدا، ليرتفع بأرضيتها إلى مستوى أرضية القلعة، من المرجح أن هذا الحفير أعد خصيصا ليكون خندقا يتقدم باب القلعة في هذا الاتجاه.

استخدم الجزء المعقود من الحفير كصهريج للمياه[١٦٣] رجح أنه كانت تصل إليه المياه من دار البقر التي توجد خلف مدرسة السلطان حسن[١٦٤]، ومن المرجح أن موضع هذه الدار حاليا هو دفتر خانة محمد علي.

القلعة في عهد المنصور قلاوون

يمثل عصر المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-١٢٩٠م) واحدا من عصور التحول في القلعة، وليست لدينا أى دلائل قاطعة على وجود مبان يمكن نسبتها إليه بطريقة قاطعة، سواء تلك المدفونة في الطبقات السفلى من القلعة أو حتى الظاهرة فوقها. ولكن التحول الأكبر حدث في استقدامه المماليك الجراكسة وأجناسًا أخرى أسكنهم بأبراج القلعة، فعرفوا بالمماليك البرجية[١٦٥] ليكونوا عونا له ضد المماليك الظاهرية، وعونا لأولاده من بعده، ولابد أن إسكان هؤلاء الذين بلغ عددهم على وجه التقريب ٣٧٠٠ مملوك[١٦٦]-استلزم تعديلات في أبراج القلعة، أو إضافة أبراج جديدة، لا تذكر المصادر منها سوى البرج المنصوري[١٦٧]- الذى يرجح أنه كان يقع في موقع البرج الوسطانى الذى يعرف في خريطة وصف مصر ببرج الطبلخانة[١٦٨] والذى يرجح أنه أحدثت به تجديدات عثمانية[١٦٩]. وهذا البرج من المحتمل أنه كان أحد الأبراج الأيوبية بالقلعة، وقد قام المنصور قلاوون بهدمه وإعادة بنائه في حجمه الحالى الكبير ليتناسب مع وظيفته الجديدة.

والمبنى الثانى المهم الذى ينسب للمنصور قلاوون هو القبة التى أقامها في موضع قبة الظاهر بيبرس، فقد هدمت في رجب ٦٨٥هـ/ ١٢٨٩م وأعيد بناؤها، وتبرز عملية الهدم والبناء لهذه المنشأة كإشكالية تدفعنا إلى التساؤل عن السبب في ذلك؟، بل لعل ذلك يطرح نفسه أيضا بالنسبة لإنشاء قبة الظاهر نفسها؟.

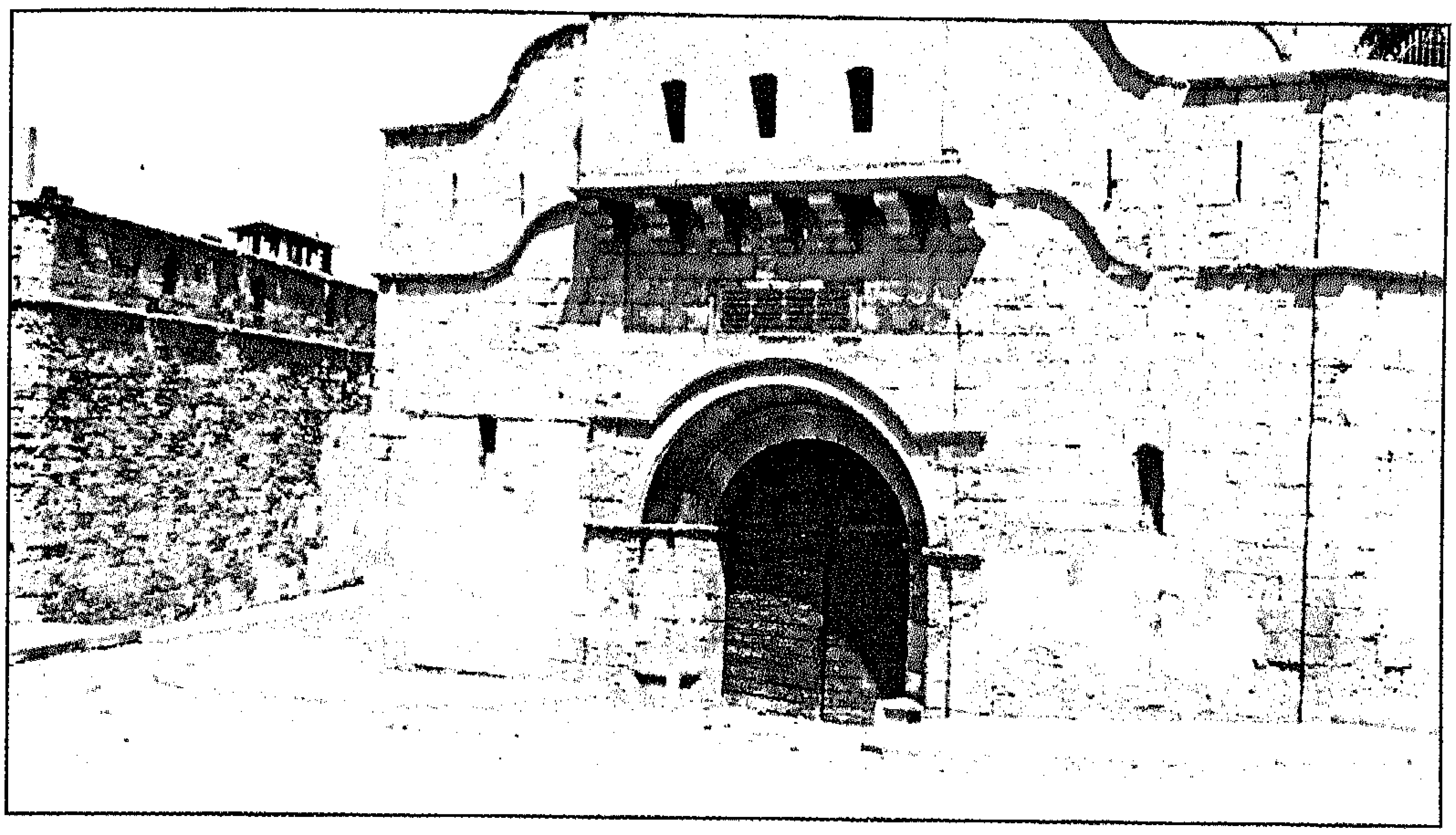

دفترخانة محمد علي

إن استخدام القبة أو الإيوان المنصورى كما كان يعرف لاحقا للاستقبال ولوجود العرش المملوكى به، يجعل لدى السلطان الرغبة في أن يكون منسوبا إليه. وقلاوون أراد أن يجعل الحكم له ولذريته من بعده، فهدم المبنى الرئيسى الذى يرمز إلى السلطة وشرعيتها داخل القلعة ليحل محله آخر أكثر فخامة.

هذه الإشكالية نراها لدى المؤرخين، فابن عبد الظاهر مؤرخ بلاط بيبرس وقلاوون يتجاهل حين يذكر القبة المنصورية، هدم قبة الظاهر بيبرس بينما ابن الفرات يذكر ذلك لأن الحساسيات تلاشت إذ إنه يسجل الأحداث التاريخية بعد أقل من قرن من وقوعها[١٧٠].

قدم لنا ابن عبد الظاهر وصفا دقيقا لقبة المنصور قلاوون، توضح مدى ما كانت عليه من عمارة فيقول (رسم ببناء قبة في الرحبة الحمراء بالقلعة المحروسة بمباشرة الأمير علم الدين المنصورى فجاءت من عجائب الأبنية التى ما عمر مثلها ملك في مملكة من الممالك ومن عارض في هذا القول فليقل فلان في المكان الفلانى فنسلم له. والذى بهذه القبة بخاصة من العمد الكبار والصغار الملونة والمذهبة أربعة وتسعون عامودا خارجا من الرواقات والذى ألصق بها من الذهب ألفان وثلاثمائة دست ذهبا مصريا. وأما من الرخام فما لا تحصى قيمته وفى جدران رواقاتها صفة قلاع مولانا السلطان قلعة قلعة وحصنا حصنا ببحارها وأنهارها وسهولها وجبالها

ومما نظمه الشاعر فيها:

شيدت للملك كل قصـــر	يربى اعتـلاء على البرابى
فصرح بلقيس في انقضاض	وصرح هامان في انقضـاب
وقصـر غمـدان في انقـلاء	وشـعب بوان في انقـــلاب
يا حســـنها قبـة تعـالت	حتى تناهت إلى السحاب[١٧١]

إن مقارنة واضحة بين عدد الأعمدة في قبتى الظاهر وقلاوون ١٢ في الأولى و٩٤ في الثانية يكشف عن فارق كبير في حجم المبنيين وتكوينهما، ولا شك أن هذا الفارق مقصود به بيان مدى قوة وعظمة حكم قلاوون تجاه سابقه بيبرس. والذى كان قد استقر حكمه في الوجدان الشعبى المصرى كحاكم عادل حتى دخلت سيرته وحياته في الأدب الشعبي[١٧٢].

هذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تعلق المصريين به. وكان على قلاوون أن يواجه هذا التحدى

لحكمه سواء بحزمه كحاكم، أو بتكوين مماليك موالين له في مواجهة المماليك الظاهرية، أو بتشييد عمائر تعبر عن عصره بقوة أكبر من عمائر سابقيه.

جدد المنصور قلاوون دار النيابة التى كانت مقرا لنائب السلطان، وهو من المناصب المهمة في الدولة التى عرفت منذ العصر الأيوبى ويعد النائب الساعد الأيمن للسلطان في تصريف شئون الدولة، ويشترك معه في توزيع الإقطاعيات ومنح ألقاب الإمارة. وإذا كان النائب ينوب عن السلطان في حضوره صار لقبه "نائب الحضرة"، أما إذا كان لا يجوز له أن ينوب عن السلطان إلا في غيبته، فيكون لقبه "نائب الغيبة" وهو أقل درجة من الأولى. كان صلاح الدين قد ولى نيابة عنه في مصر أخاه العادل، وولى مرة أخرى ابن أخيه تقى الدين عمر هذا المنصب أيضا[١٧٣]. ولما استقل العادل بمصر استدعى ابنه الكامل وجعله نائبا عنه بمصر[١٧٤].

وتوسع المماليك في المهام الممنوحة لنائب السلطنة. فكان كما يذكر القلقشندى[١٧٥] "سلطانا مختصرا" وصار من حقه أن يرأس مجلس المشورة في حالة ما إذا كان السلطان طفلا قاصرا[١٧٦]، وفاقت قوة نائب السلطنة في بعض الأحيان قوة السلطان نفسه، فالأمير بيدرا نائب السلطان الأشرف خليل كان بيده الحل والعقد في أمور السلطنة، ولسطوة نواب السلطنة بعد الأشرف خليل ألغى الناصر محمد هذا المنصب في سلطنته الثالثة[١٧٧]. من هذا كله تتضح أهمية دار النيابة في القلعة، حيث كانت تمارس منها سلطات واسعة النطاق. وإن كانت أهمية هذه المنشأة تلاشت مع تلاشى هذا المنصب في العصر المملوكى الجركسي[١٧٨]، ولعل ذلك كان هو السبب الذى دفع الناصر لهدم دار النيابة بالقلعة عام ٧٣٧هـ/١٣٣٧م[١٧٩] لكن المصادر التاريخية تشير إلى استغلال هذه الدار بعد ذلك، حيث أعاد الأمير قوصون دار النيابة إلى ما كانت عليه[١٨٠]، وكان يجلس في شباكها لكى يشرف على الداخلين إلى القلعة من الباب المدرج أو من الطريق السلطانى المنحوت في الصخر إلى باب السر الكبير، ويشرف منه على المواكب السلطانية[١٨١] ويبدو مما ذكره المقريزى عن هذه الدار أنها تلاشت في عصره[١٨٢] مع

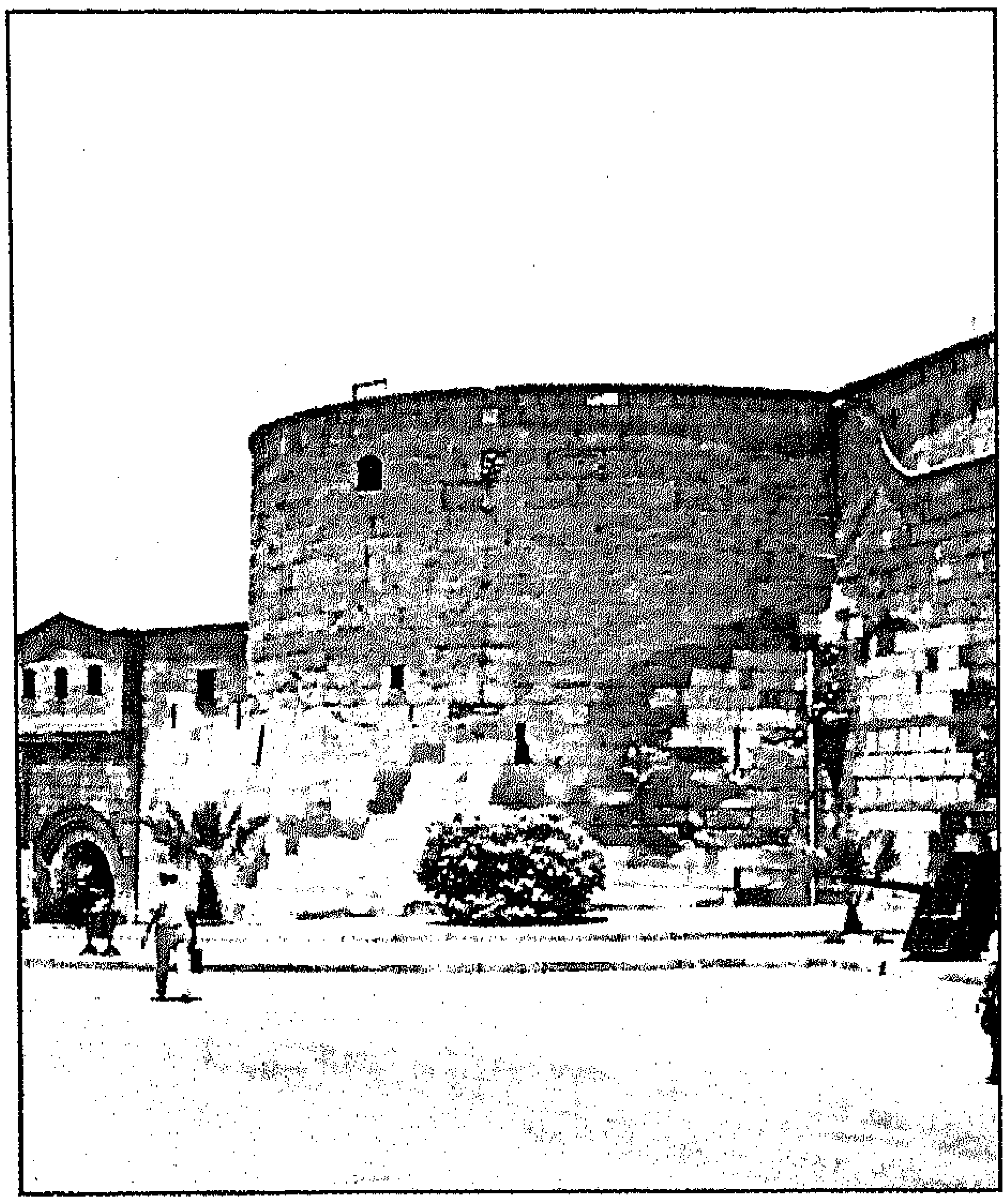

البرج المنصورى الكبير

تلاشى هذا المنصب في العصر المملوكى الجركسي. وربما تحولت إلى مبنى مهجور أو مستغل في وظائف أخرى.

القلعة في عهد الأشرف خليل

انتقلت السلطة من السلطان المنصور قلاوون إلى ابنه الأشرف خليل (٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) بهدوء، ولعل ذلك مرجعه إلى قوة المماليك السلطانية التى كانت تدين بالولاء لقلاوون وأسرته، وكان الأشرف في عمر يسمح له بالسيطرة على مجريات الأمور.

كان للأشرف طموح سياسى انعكس على إكماله مشروع أبيه لفتح عكا، وكذلك إثبات وجوده كسلطان، ورأيناه كعادة سابقيه يهدم القبة المنصورية، مقر عرش والده، ليجددها، ولم تعطنا المصادر التاريخية وصفا محدد المعالم لهذه القبة بعد التجديد[١٨٣].

القاعة الأشرفية

تعد القاعة الأشرفية أهم منشأة ارتبطت باسم الأشرف خليل، وقد عثر عليها في حفائر عام ١٩٨٧م بالقلعة[١٨٤]. وتشير المصادر التاريخية إليها تارة باسم القصر[١٨٥] وتارة بالقاعة[١٨٦] والغالب عليها أنها قاعة إذ لم يرد اسم القصر سوى في الخطط[١٨٧] وافتتحها السلطان سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٩١م بختان أخيه محمد وابن أخيه الأمير موسى بن صالح.

وهذه القاعة تتكون من إيوانين ودور قاعة وسدلتين وزينت جدرانها بالفسيفساء. ويحيط بها أبواب في جوانبها توضح أنها كانت متصلة بالقصر الأبلق والقصور الجوانية من جانب والإيوان من جانب آخر، ووقوعها بين هذه المنشآت، جعل لها دورا سياسيا، ومنذ عصر الناصر محمد بن قلاوون استغلت في أحداث سياسية عديدة، وعلى الرغم من أن الناصر هدم العديد من منشآت سابقيه ليشيد مجمعا ملكيا متكاملا بالقلعة، فإنه لم يهدم القاعة الأشرفية بدليل استخدامها أثناء مجريات الأحداث في عهده، ففى عام ٧١٠ هـ/ ١٣١١م، نشأت أزمة نتيجة لتآمر بعض الأمراء لتولية الأمير موسى بن صالح ابن شقيق الناصر محمد عرش مصر، وهو ما اكتشفه الناصر، فحجز الأمراء بالقاعة الأشرفية إلى أن ظهر الأمير موسى الذى كان مختبئا بأحد المنازل بالقاهرة[١٨٨].

وكان تولى الأمير قوصون الناصرى نيابة السلطنة للملك الطفل الأشرف علاء الدين كجك، فقرر إدارة السلطنة من القاعة الأشرفية، وليس من دار النيابة، التى كان يحجزها عن النطاق الجنوبى سور القلة، وكان لا يريد أن يفلت السلطان الطفل من قبضته[١٨٩]. وفى الوقت نفسه جدد قوصون دار النيابة وأنشأ بها قاعة حتى يضمن السيطرة على الداخلين إلى القلعة وعلى النطاق الشمالي[١٩٠].

وتدل حوادث محاصرة الأمير أيدغمش لقوصون في القلعة على موقع القاعة الأشرفية بالضبط إذ كان مماليك قوصون يرمون بالنشاب مماليك أيدغمش والعوام الواقفين في باب الإسطبل وعند الطبلخانة وخارج القلعة من علو القاعة الأشرفية[١٩١]. وهذا الموقع يتناسب مع الموقع المكتشف للقاعة الأشرفية، التى يطل الجزء العلوى منها

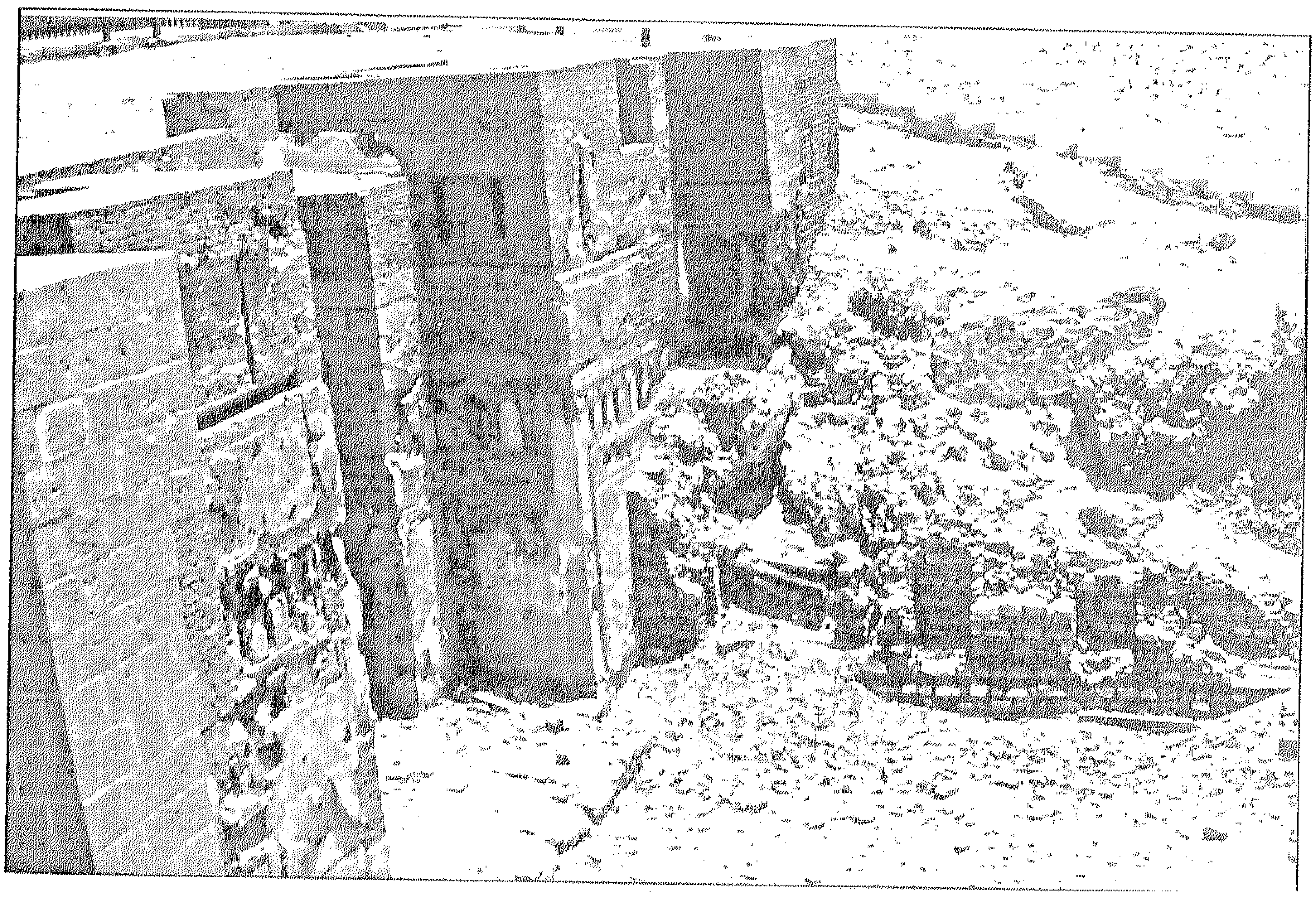

القاعة الأشرفية

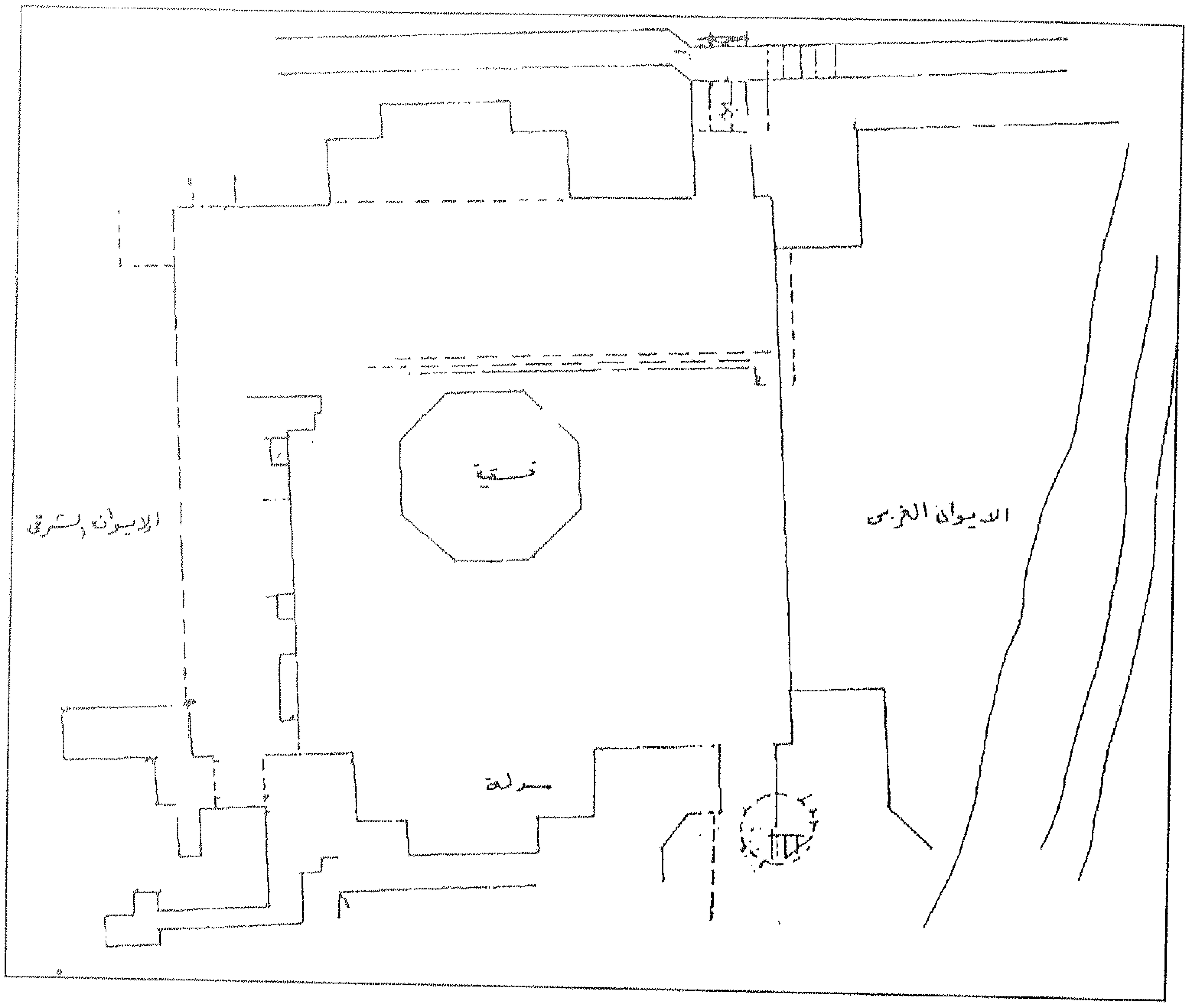

القاعة الأشرفية – مسقط أفقي

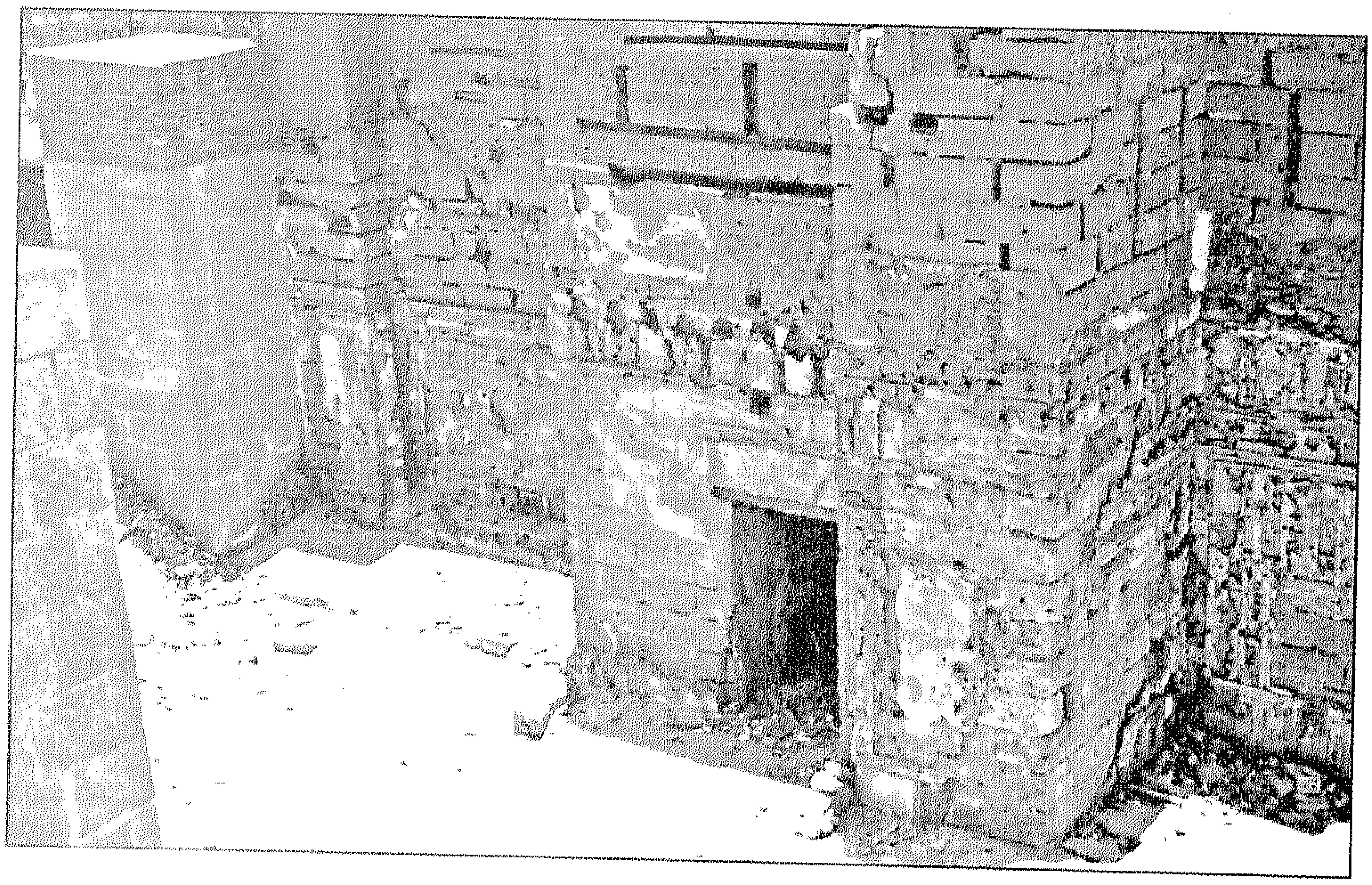

القاعة الأشرفية

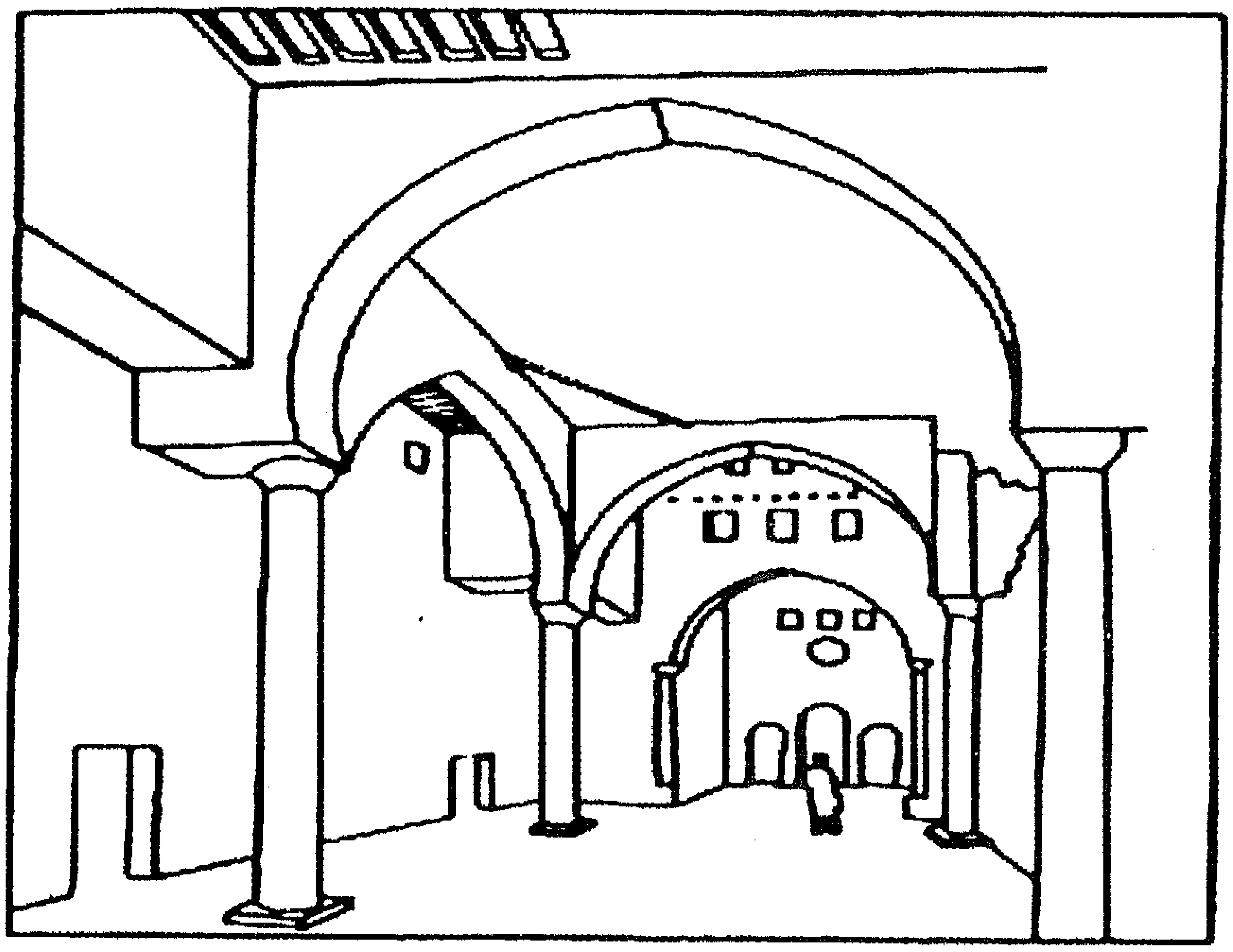

القاعة الأشرفية - مخطط توضيحي

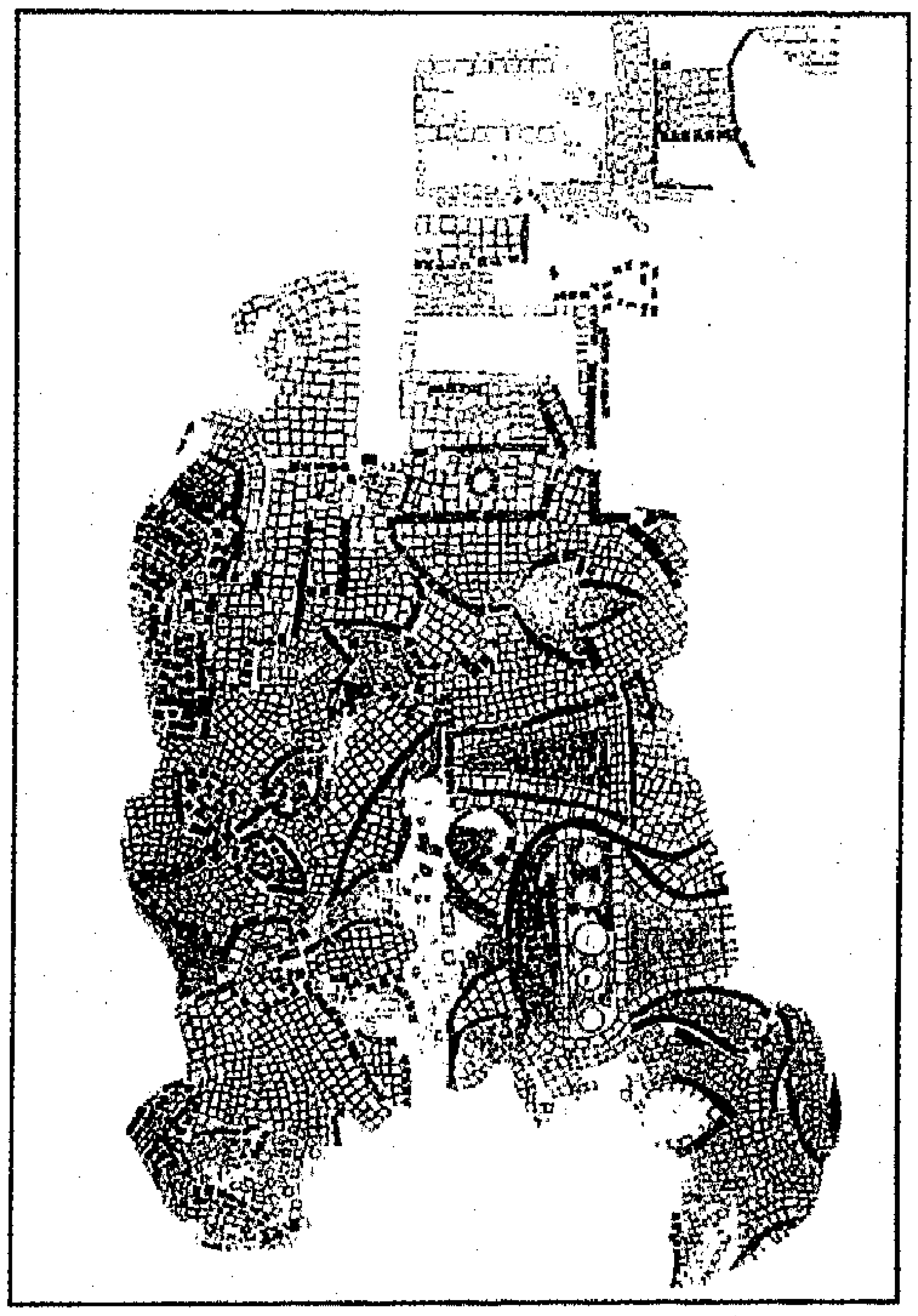

القاعة الأشرفية - فسيفساء

على باب الإسطبل (العزب حاليا) وعلى الطبلخانة وعلى ميدان الرميلة.

وممن سكن الأشرفية من كبار الأمراء ألجيبغا في دولة السلطان المظفر حاجى (٧٤٨ - ٧٤٩هـ/١٣٤٦-١٣٤٧م)[١٩٢]. والأمير شيخو الذى كان الأمير الكبير أثناء حكم السلطان حسن (١٣٤٧ - ١٣٥١م/ ١٣٥٤ - ١٣٦١م)[١٩٣]. وكان شيخو أول من لقب بأمير كبير من نواب السلطنة[١٩٤]، وصار لقب أمير كبير هو المفضل لدى هؤلاء الأمراء العظام، الذين يذكرنا نفوذهم وسطوتهم، بسطوة وزراء أواخر العصر الفاطمي.

وأقام ألجاى اليوسفى في القاعة الأشرفية حينما تولى منصب أمير كبير، للسلطان شعبان بن حسين (١٣٦٣ - ١٣٧٧م) وكان زوجا لأم السلطان[١٩٥]. تضاءلت مكانة القاعة الأشرفية بمرور الوقت كمبنى له دور في صناعة السلطة، وتحولت إلى سجن لكبار الأمراء، وفيما بعد إلى طباق للخاصكية[١٩٦].

برج الرفرف

وهو مازال قائما في الطرف الغربي من السور الجنوبي، واكتسب اسمه من الرفرف[١٩٧] الذى بناه الأشرف خليل فوقه عام ٦٩١هـ/١٢٩٢م. ويذكره بعض المؤرخين في حوليات السلطان بركة خان ابن الظاهر بيبرس، حيث خاطب الأمراء منه، وذكروا أنه يطل على الإسطبل، ولم ينسبوه إلى السلطان بركة خان[١٩٨]، وهذا يعنى وجود هذه المنشأة قبل عصر الأشرف خليل، وقد يكون في موقع القاعة الأشرفية منشأه قديمة هدمها الأشرف وأعاد بناءها. وهذا يجعلنا نعود بهذا البرج إلى قلعة صلاح الدين الأيوبى الذى ربما يكون هو ورفرفه جزءا من القلعة الأيوبية، ووظيفة هذا الرفرف تذكرنا بوظيفة برج الظاهر بيبرس الذى جدد جزءا من برج الشخص الأيوبي، الذى كان له وظيفة استراتيجية، فهذا البرج يبدو أنه كان برج مراقبة للحركة داخل المدينة، فمن خلاله يمكن رؤية أى حركة عند الصليبة، الحد الشمالى للفسطاط، وفى ظواهر القاهرة الجنوبية، وازدادت أهمية البرج نظرا لبدء تلاشى الخطر الخارجي، وبدء الصراع الداخلى بين أمراء المماليك على القوة والنفوذ، ولذا كان السلطان في حاجة إلى موقع يكشف من خلاله حركة القادمين إلى القلعة سواء عبر باب الإسطبل، أو المتجهين إلى باب القرافة عبر ميدان الرميلة.

ولذا حرص الأشرف خليل على تجديد هذا البرج، ولكن المصادر التاريخية نرى فيها المؤرخين يذكرون البناء بالرفرف، ويعود ذلك إلى فخامة هذا الرفرف الذى لم يسبق أن شيد مثيل له، وإن كنا نرجح أنه كان يشبه ما بناه الظاهر بيبرس من رواشن فوق برج الزاوية أو برج السباع.

وكان الرفرف عبارة عن قبة ترتكز على أعمدة دائرية، زخرفت القبة بصور أمراء الدولة و"خواصها"[١٩٩] ربما قصد بها المقريزى صورا لمدن الدولة وما تشتهر به، وهى رمزية تعبر عن تبعية الأمراء وهذه المدن والمعالم لسلطة الأشرف خليل. ولعل هذه القبة هى التى جعلت برج الرفرف تتكرر نسبته بقوة إلى الأشرف بالرغم من بنائه قبل عصره.

ويذكر المقريزى[٢٠٠] وابن تغرى بردى[٢٠١] أن الناصر محمد هدم برج الرفرف وأعاد بناءه مرة أخرى، غير أن نص ابن تغرى بردى يفهم منه أنه هدم الرفرف الذى يعلو البرج فقط وهو ما يؤكده الوضع الحالى للبرج، إذ إن به انقطاع رأسى يفصل بين برجين، وهو ما يعنى أن البرج حدثت به إضافة من قبل الناصر الذى جدد الرفرف بالكامل.

وكان كازانوفا أول من حدد موقع هذا البرج، وقرأ اللوحة التأسيسية التى وضعها الناصر عليه[٢٠٢]. ونصها:

- بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا البرج المبارك السعيد مولانا وسيدنا.
- السلطان المالك الملك الناصر الغازى في سبيل الله الحاج إلى بيت الله وقبر رسول.
- الله ناصر الدنيا والدين محمد بن مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور، بدؤه في جمادى الأولى والفراغ منه في .... سنة ثلاث عشر وسبعمائة[٢٠٣].

الحواشي

١ المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٠٣.

٢ المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص١٢٨، ج٢، ص٢٠٣.

٣ المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٠٢؛ كريزويل، وصف قلعة الجبل، ص١٩؛ بول كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص٦١-٦٢.

٤ المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٠٢.

٥ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص٦٢.

٦ Nasser, the citadel of cairo, p53

٧ المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص ٢٠٢.

٨ ذكر كل من ابن عبد الظاهر والمقريزي هذه المساجد ومنها: مسجد سعد الدولة ومسجد معز الدولة ومسجد شقيق الملك ومسجد ابن الملك سنان الدولة ومسجد ركين ومسجد عبد الجبار ومسجد أبي منصور قسطة ومسجد القاضي النبيه ومسجد العدة ومسجد الديلمي. ابن عبد الظاهر، الروضة البهية، ص ١٣١ – ١٣٢؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٠٢ – ٢٠٣.

٩ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص٦٥.

١٠ المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٠٣.

١١ قراقوش: هو أبو سعيد عبد الله الأسدي الملقب ببهاء الدين، ونعته بالأسدي يرجع إلى نسبته إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين، فقد جنده بالجند الأسدية، وبعد وفاة شيركوه انتقل إلى خدمة صلاح الدين الأيوبي، ويرجح بعض المؤرخين أنه رومي الأصل. كما نعت بأنه خصي، لذلك فقد كان من رتبة طبقة الخصيان في الدولة الأيوبية، وربما يكون من أسرى الحروب أو مملوكا. وقد تولى العديد من المناصب في دولة صلاح الدين حتى شهد له بالكفاءة بدءا من فرض سيطرته على القصر الفاطمي إلى تشييده قلعة صلاح الدين وأسوار العاصمة المصرية. وشيد أيضا قلعة فرعون ورمم سور دمياط، وقام بعمارة أسوار عكا، وكان أمينا لأولاد صلاح الدين بعد وفاته وظل يحفظ ملكهم إلى أن تولى العادل حكم مصر، توفى بهاء الدين قراقوش عام ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م. وقد ألف أعداؤه ضده العديد من الروايات والأكاذيب استندوا فيها على شدته وصرامته كرجل دولة ناجح. انظر: العماد الأصفهاني، أبو عبد الله محمد، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص٢٠٩، تحقيق وشرح محمد محمود صبح، القاهرة ١٩٦٥م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص ٩١؛ عفاف صبرة، بهاء الدين قراقوش، الوزير المفترى عليه، ص ١٣٦: ١٨١. مجلة الدارة، العدد الثاني، السنة الثالثة عشرة، محرم ١٤٠٨ هـ/ أغسطس ١٩٨٢م.

١٢ ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد، الرحلة، ص٢٥. تحقيق حسين نصار. دار نهضة مصر. القاهرة ١٩٨٨م.

١٣ البغدادي، عبد اللطيف بن يوسف، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، ص٢٥، كتابات مصرية العدد ١٠، القاهرة ١٩٨٨م. العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٢٠٩.

١٤ ابن جبير، الرحلة، ص٢٥؛ البغدادي، الإفادة والاعتبار، ص٢٥.

١٥ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص٨٢ – ٨٣.

١٦ كريزويل، تاريخ قلعة الجبل، ص١٠١ – ١٠٢.

١٧ كريزويل، قلعة الجبل، ص١٠١ – ١٠٢؛ كازانوفا، وصف قلعة الجبل، ص٧٦ – ٧٨.

١٨ حفر هذا البئر بعمق يبلغ ٩٠ مترا في الصخر لإمداد القلعة بالمياه، وذلك برفعها من أسفل هذا العمق الشديد بواسطة السواقي إلى أعلى، وهو يعد تحفة هندسية معمارية يندر أن يوجد مثلها، وهذا البئر يعود إلى عصر الناصر يوسف صلاح الدين، ولذا عرف ببئر يوسف. المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص ٣٢؛ عبد الرحمن عبد التواب، بئر يوسف، مقال بمجلة المجلة، العدد (٦٨) سبتمبر ١٩٦٢م؛ عاصم رزق (دكتور)، المنشآت المائية في مصر الإسلامية، ص ٢٨٧: ٢٩٠. بحث في كتاب النقائش والرسوم الصخرية في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٩٧ م؛ سامي نوار (دكتور)، المنشآت المائية بمصر، ص ١٠٨: ١١٢. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ١٩٩٩م.

١٩ هذا البرج يأخذ رقم ٨٦ في خريطة وصف مصر. انظر: جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ص١٥٣. ترجمة أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م.

٢٠ عرف هذا المدخل في العصر العثماني بباب الشرك لأنه كان يشترك في الدخول منه طائفتا الإنكشارية وعزبان. جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ص ١٥٣.

٢١ جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ص١٥٣.

٢٢ العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص٧٩ – ٨٠. تحقيق أيمن فؤاد سيد (دكتور)، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٥.

٢٣ عن أسوار وأبراج النطاق الشمالي، انظر حسني نويصر (دكتور)، العمارة الإسلامية في مصر، ص ٢٣:٩، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ١٩٩٦م.

٢٤ انظر: حول عدم استكمال الأسوار. أسامة عبد النعيم (دكتور)، أسوار صلاح الدين، ص ٤٧ – ٤٨.

٢٥ ابن جبير، الرحلة، ص٢٥.

٢٦ ناصر الرباط (دكتور)، تاريخ قلعة القاهرة، ص٨. مؤسسة الأغا خان ١٩٨٩م.

٢٧ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص١٩٥.

٢٨ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص١٩٥. كريزويل، قلعة الجبل، ص١٠٢.

٢٩ ناصر الرباط، قلعة القاهرة، ص٨.

٣٠ يقال إن الذى ابتدع النسر ذا الرأسين خيال أحد الكهان السومريين القدماء، ثم انتشر في الشرق الأدنى القديم ولاسيما عند البابليين والحيثيين، واقتبسه منهم بعد ثلاثة آلاف عام السلاجقة كشعار لهم. وجاء النسر ذو الرأسين منحوتا على تاج الرأس لأحد تماثيل البطل التركى كلتكن، وكان النسر مفرود الجناحين. كان هذا الشكل الخرافى شائعا ومفضلا عند قبائل الهون، بل إن النسر ذا الآذان والقرون كان الرمز الأعظم لقوتهم، والأخير بوجه خاص هو الذى شاع على الفنون السلجوقية. زكى حسن (دكتور)، فنون الإسلام، ص٢٧٥؛ منى بدر (دكتورة)، أثر الفن السلجوقى على الحضارة والفن في العصرين الأيوبى والمملوكى في مصر، ص٢٥٢. رسالة دكتوراه، كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٩١م، يوسف عزت باشا، تاريخ القوقان، ص١٣٣، تعريب خوستوقه عبد الحميد بك، القاهرة ١٩٣٣م؛ أوقطاى آصلان آبا، فنون الترك وعمائرهم، ص٦، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية. إستانبول ١٩٨٧م.

٣١ آصلان آبا، فنون الترك، ص٢٤٥.

٣٢ الأرتقيون: أسرة تركمانية حكمت أجزاء من دولة السلاجقة بعد تفتتها. انظر كليفورد أبوزورث، الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامى ٤٧ – ٤٩.

٣٣ آصلان آبا، فنون الترك، ص٢٣٢ – ٢٣٣.

٣٤ حسن الباشا (دكتور)، فنون التصوير الإسلامى في مصر، دار النهضة العربية.

٣٥ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص٩.

٣٦ قرآن كريم، سورة الفتح، الآيات من ١: ٣ .

٣٧ الأصفهاني، محمد بن محمد، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، ورقة ١٨٠، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث إستنبول رقم ٢٩٥٩.

٣٨ أطلق هذا اللقب على صلاح الدين في نقوش ووثائق كثيرة على الرغم من تلقبه رسميا (خليل أمير المؤمنين). وأطلق هذا اللقب على صلاح الدين في نص إنشاء بتاريخ سنة ٥٧٥هـ في الجامع الأموى بدمشق، فضلا عن وروده على بعض قطع من النقود الخاصة به وفى وثائق مختلفة. حسن الباشا (دكتور)، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص ٢٠٧. دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٧٨م

٣٩ حسن الباشا (دكتور)، الألقاب الإسلامية، ص٢٠٧.

٤٠ انظر ما كتبه عبد اللطيف حمزة (دكتور) عنهما في كتابه، الحركة الفكرية في العصرين الأيوبى والمملوكي، ص ٢٩٧، ٢٨٠. دار الفكر العربى ١٩٦٨م.

٤١ عن أسلوب القاضى الفاضل انظر عبد اللطيف حمزة(دكتور) مرجع سابق، ص٢٨٠، ٢٨١.

٤٢ قاسم عبده قاسم (دكتور)، ماهية الحروب الصليبية، ص١٨٩ – ١٩٠، عالم المعرفة، الكويت، العدد (١٤٩)، الكويت ١٩٩٠

٤٣ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص١٩٠.

٤٤ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٢٢٥.

٤٥ ابن الأثير، أبو الحسن على بن أبى الكرم، الكامل في التاريخ، ج٨، ص ٢٦٠. بيروت ١٩٨٢.

٤٦ المقصود هنا دار الوزارة الفاطمية، والتى يشغل موقعها حاليا خانقاه بيبرس الجاشنكير، أنشأها بدر الجمالي، وظلت سكن الوزراء الفاطميين إلى أن انتهى الأمر إلى بنى أيوب فسكنوها وعرفت من حين استيلائهم على ملك مصر بدار السلطنة وأقاموا فيها إلى أن استقر السلطان الكامل في القلعة كمقر لحكم مصر، ثم استغلت كدار ضيافة لكبار زوار الدولة إلى أن أنشئ في موضعها العديد من المنشآت كان أبرزها الخانقاه الجاشنكيرية. ابن عبد الظاهر، الروضة البهية، ص ٥٠؛ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص ٤٣٨، ٤٣٩.

٤٧ القلقشندى، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٢، ص٣٧٢؛ المقريزى، الخطط، ج١، ص٣٦٤. ج٢، ص٢٠٣.

٤٨ القلقشندى، صبح الأعشى، ج١، ص٤٢٨.

٤٩ عفاف صبرة، بهاء الدين قراقوش، ص٤٣٨.

٥٠ ابن عبد الظاهر، الروضة البهية، ص٥٠ – ٥١؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ٣٤٨.

٥١ ابن أيبك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨ (الدرة الزكية في تاريخ الدولة التركية) ص ٦١، ٦٢. تحقيق أولرخ هارلمان، المعهد الألمانى للآثار القاهرة ١٩٧١ .

٥٢ المقريزى، الخطط المقريزية، ج١، ص٤٣٨.

٥٣ كريزويل، قلعة الجبل، ص١٠٠؛ حسنى نويصر، العمارة الإسلامية، ص٢٥.

٥٤ أسامة عبد النعيم (دكتور)، أسوار صلاح الدين، ص ٤٧.

٥٥ الإدريسي، الشريف أبو جعفر محمد بن عبد العزيز، أنوار علوى الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام، ص٣٢.تحقيق ألريش هارمان، المعهد الألمانى للأبحاث الشرقية، بيروت، ١٩٩١م.

٥٦ المقريزى، على بن موسى، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، ص٢٩٠، ٢٩١. تحقيق د.حسين نصار، القاهرة ١٩٧١ م

٥٧ Nasser, The citadel of cairo, p 77

٥٨ المقريزى، السلوك في معرفة دول الملوك، ج١، ص٨٠٠.

٥٩ ابن الفرات، ناصر الدين محمد، تاريخ الدولة المملوكية. ج٩، ص٨١. تحقيق قسطنطين رزيق ونجلاء عز الدين، بيروت ١٩٤٢م.

٦٠ انظر خريطة وصف مصر في جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل.

٦١ ابن شداد، عز الدين محمد، تاريخ الملك الظاهر، ص٣٤١. تحقيق أحمد حتاته.

٦٢ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص٨٨: ٩٧؛ عبد الرحمن زكى (دكتور)، قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق الأول، ص٨ – ١٠.المطبعة الأميرية ١٩٥٠م.

٦٣ Nasser, The citadel of cairo, p79

٦٤ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص٨٨، ٩٨.

٦٥ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص٨٩.

٦٦ Nasser, The citadel of cairo,p79

٦٧ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، ج٣، ص١٨٢؛ عبد القادر الريحاوى، قلعة دمشق، ص٦١ :٦٥. دمشق ١٩٧٩م؛ عدنان البنى، قلعة دمشق، ص٣١ – ٣٢. الحوليات الأثرية السورية مجلد ٤، ٥. ١٩٥٤، ١٩٥٥م؛ هزار عمران وجورج دبورة، قلعة دمشق، ص ٢٣– ٢٤. وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٨م.

٦٨ ستة من هذه النصوص تحمل اسم السلطان العادل. انظر عبد القادر الريحاوى، قلعة دمشق، ص٢٧٦، ٢٧٨. دمشق ١٩٧٨ م.

٦٩ Stephen.r. humphreys, from saladin to mangols: the ayyabids of damascus. p148, Albany. n.y 1977. Jean sauvaget ,la citadelle de de damas ,p59, 90, 216, 241.syria. 1930

٧٠ Nasser, the citadel of cairo, p81

٧١ ابن جبير، مصدر سابق، ص٢٥. المقريزى، مصدر سابق، ج٢، ص٢٠٤، لسلوك، ج١، ص١٢٦.

٧٢ Nasser, the citadel of cairo,p82

٧٣ Creswell, k. a. c. muslim architeure of egypte. vol 2, p 39. oxford, 1959

٧٤ كريزويل، تاريخ وصف قلعة الجبل، ص١٠٠.

٧٥ ابن أيبك الدوادار، صفى الدين أبوبكر، الدر المطلوب في أخبار بنى أيوب، ص١٥٥. تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٢م.

٧٦ سبط بن الجوزى، يوسف بن محمد، مرآة الزمان في تاريخ الآوان، ج١، ص ٧٠، حيدر آباد. ١٩٥١م.

٧٧ Nasser, the citadel of cairo,p83

٧٨ ابن دقماق، إبراهيم بن محمد أيدمر العلائى، الجوهر الثمين في سير الخلفاء والسلاطين، ص٢٣٦. تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة د.أحمد دراج. مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، بدون تاريخ.

٧٩ عدنان البنى، قلعة دمشق، ص٣٢.

٨٠ يعتبر العلامة جمال حمدان أشهر من درس شخصية مصر الإقليمية. انظر: جمال حمدان(دكتور)، شخصية مصر، دراسة في عبقرية الزمان والمكان، كتاب الهلال، العدد٥٠٩، مايو ١٩٨٦:

٨١ انظر عن محاولات الكامل إخضاع الشام لنفوذه. حامد زيان (دكتور)، محاضرات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥٠: ٦٢.القاهرة ١٩٨٦م.

٨٢ سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٢٨. دار النهضة العربية، ١٩٧٠م.

٨٣ المقريزى، السلوك، ج١، ص٣٢٦؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص٢٤١. هذا ولم يرد ذكر برج العافية مرة أخرى في المصادر التاريخية ومن المرجح أنه كان من أبراج النطاق الجنوبى واندثر حين أجرى الناصر محمد توسعات غير مسبوقة في هذا النطاق، ويؤكد وجود هذا النطاق الجنوبى أن الصالح أيوب كان يشك في ولاء جند القلعة له وبالتالى سجن أخاه ومنافسه على العرش في أحد الأبراج المجاورة لسكن السلطان.

٨٤ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢١٢.

٨٥ ابن شاهين، غرس الدين خليل الظاهرى، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص٨٦.

٨٦ سعيد عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص١٩٩.

٨٧ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ١٨٣.

٨٨ مصطفى عباس، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، ص١٤٢–١٤٨. دار الرشيد، بغداد١٩٨٢.

٨٩ ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ص٢٦٩.تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٦١م؛ السيوطى، جلال الدين عبد الرحمن، بلبل الروضة، ص١١.تحقيق د. نبيل عبد العزيز، مكتبة الأنجلو ١٩٨١م.

٩٠ د. عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبى، ص١٥٨. كتاب المصريين (٥١) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م.

٩١ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص١٥٨.

٩٢. ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص١١٠.

٩٣ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص٢٣٧. Creswell, muslim architeure,vol 2, p84: 87.

٩٤ Yassertabbaa, circles of power:palace citadel and city in ayyubid aleppo ,arsorientalis 23, p181,191. Nasser, the citadel of cairo,p87

٩٥ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، ج٥. ص ٢٣٩.

٩٦ كان أول من بدأ الهدم في قلعة الروضة عز الدين أيبك بعد أن تسلطن وأراد أن يبنى مسجدا في الفسطاط، ثم لما تولى السلطنة الظاهر بيبرس أمر بعمارتها والاهتمام بها، غير أن المنصور قلاوون نقل منها ما يحتاجه من أعمدة ورخام لعمارة البيمارستان القلاوونى، وكذلك نقل منها الناصر محمد بن قلاوون ما احتاجه لعمارة إيوان العدل في القلعة والجامع الناصرى في الفسطاط، وظل باقيا منها إلى أيام المقريزى عقد كبير تهدم في حياته وأبراج بنى الناس فوقها دورهم وكشفت حفريات لجنة حفظ الآثار بالقرب من المقياس عن بقايا للقلعة. المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص١٨٤؛ لجنة حفظ الآثار ملحق تقرير ٧٠٤ في نوفمبر ١٩٣٥م.

٩٧ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص٢٤٧:٢٥١.

٩٨ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص٢٥٣ – ٢٥٤.

٩٩ المقريزى، الخطط المقريزية، ج١، ص٣٨١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٢.

١٠٠ يذكر بعض المؤرخين أن هذه المدرسة تقع برحبة دار الملك، ولكن المصادر التاريخية تسكت منذ عصر المعز أيبك عن دار الملك، وهو ما يعني أن قسما منها عل الأقل دخل في عمارة المدرسة المعزية. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٤؛ ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص٩٣؛ عبد الرحمن زكى (دكتور)، موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، ص١٠٩. مكتبة الأنجلو، الطبعة الثامنة ١٩٨١م.

١٠١ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٤.

١٠٢ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٠ – ١١؛ المقريزى الخطط ج٢، ص٣٨٣. ويذكر الذهبى، أن أقطاى طلب من أيبك أن يخلى له القلعة ليقيم بها عرسه على بنت صاحب حماة، إلا أن أيبك أشترك مع شجر الدر في التآمر على قتل أقطاى، وضرب قطز رأس أقطاي. الذهبى، الحافظ شمس الدين، دول الإسلام، ج٢، ص١٥٧. تحقيق فهيم شلتوت، محمد مصطفى إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٧٤م.

١٠٣ المقريزى، الخطط المقريزية، ج١، ص٣٨٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١١ - ١٢. Nasser ,the citadel of cairo,p92. Paul balog, the coinage of the mamluk sultans of egypte and syria p75,76. New york. 1964

١٠٤ الذهبى، دول الإسلام، ص ١٥٧.

١٠٥ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص٩٩.

١٠٦ Nasser, the citadel of cairo, p94

١٠٧ Nasser, the citadel of cairo, p94

١٠٨ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص٩٩.

١٠٩ المقريزى، السلوك، ج١، ص٢٨٨.

١١٠ ابن الدوادار، الدر المطلوب، ص٣٨٤ – ٣٨٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٧٦ – ٣٧٧.

١١١ دفنت شجر الدر في قبتها بحى الخليفة وتحمل هذه القبة عبارات ذات دلالات سياسية، تعبر عن المرحلة الانتقالية التى مرت بها القلعة ونظام الحكم المملوكى، ولعبت شجر الدر دورا فاعلا في نقل السلطة من الأيوبيين إلى المماليك، وعدها بعض المؤرخين أول السلاطين المماليك، غير أن اعتراض الخليفة العباسى على تولية امرأة عرش مصر أدى إلى زواجها من عز الدين أيبك الذى يرى البعض أن ضعف شخصيته كان السبب في اختيارها له. غير أنه بعد زواجهما دب النزاع بينهما وانتهى الأمر بمقتلها، ويرى حسنى نويصر (دكتور) أنها شيدت قبتها قبل زواجها من المعز أيبك في عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م. ويذكر محمد رمزى أن تربة شجر الدر. ألحق بها مدرسة وهو ما يعنى أنها أرادت أن تقلد السلاطين العظام من بنى أيوب بتشييد المنشآت الدينية الخيرية كالصالح أيوب والكامل. وتعد قبتها بذلك أول قبة ضريحية ألحقت بمنشأة دينية بمصر. حسنى نويصر (دكتور)، العمارة الإسلامية، ص٨٩، ٨٥، ١١٠، ١١١. محمد رمزي، حواشى النجوم، ج٦، حاشية ١، ص٣٧٨. المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٧٤ – ٢٧٥.

١١٢ البرجية: فرقة أسسها المنصور قلاوون لتدين بالولاء له ولأفراد أسرته ليقضى بها على فرقة المماليك البحرية التى أسسها الصالح نجم الدين أيوب وسكنت في قلعة الروضة على بحر النيل ومن هنا سميت بالبحرية. انظر حكيم عبد السيد (دكتور)، قيام دولة المماليك الثانية، ص٢٢:٣٢.الدار القومية للطباعة. القاهرة ١٩٦٦م.

١١٣ حكيم عبد السيد (دكتور)، قيام دولة المماليك الثانية، ص٤٠:٦٠.

١١٤ قاسم عبده قاسم (دكتور) عصر سلاطين المماليك، ص١٠.دار الشروق، القاهرة ١٩٩٤م.

١١٥ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن على، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٨٤.دار الريان للتراث، القاهرة ١٩٨٧م.

١١٦ أحمد العبادى (دكتور) دولة المماليك الأولى، ص١٧١– ١٧٢. الإسكندرية ١٩٧٨م.

١١٧ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص٣٠٩.

١١٨ المقريزى، السلوك، ج٦، ص٥١٢.

١١٩ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص١٢١، ١٢٢.

١٢٠ العبادي، دولة المماليك الأولى.

١٢١ المقريزى، الخطط، ص٢٠٨ – ٢٠٩.

١٢٢ العبادي، دولة المماليك الأولى، ص١٩٨.

١٢٣ إبراهيم بيضون، المماليك ومأزق الشرعية، ص٤٥.مجلة الاجتهاد العدد ٢٢، السنة ٦، ١٩٩٤.

١٢٤ السيوطى، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج١، ص٨٧؛ المقريزى، السلوك، ج١، ص٤٤٨:٤٥٧؛ قاسم عبده قاسم (دكتور) عصر سلاطين المماليك، ص٨٩.

١٢٥ ومن هذه القصور قصر الأمير سنقر الأشقر، وقصر آلين آق الحسامي والأخير مازالت بقاياه موجودة بشارع باب الوزير وتعتبر هذه القصور بداية إعمار ما حول القلعة، والتى تحولت مناطقها بمرور الوقت إلى مناطق ذات طبيعة أرستقراطية. ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص١٩١؛ محمد حسام الدين إسماعيل (دكتور)، أربعة بيوت مملوكية من الوثائق العثمانية، ص٤٩، حوليات إسلامية، المجلد ٤، ١٩٨٨م.المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة.

١٢٦ Nasser, the citadel of cairo, p101,102

١٢٧ ابن عبد الظاهر، محيى الدين بن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص٩٠، تحقيق د.عبد العزيز جويطر، الرياض ١٩٧٦م؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص١٩٢؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص٣٧٢؛ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص١٨٤. السلوك، ج١، ص٤٤٥.

١٢٨ ابن شداد، عز الدين محمد، تاريخ الملك الظاهر، ص٣٤٢.تحقيق أحمد حتاتة، ١٩٨٣م.

١٢٩سيف الإسلام هو أخو صلاح الدين الأيوبي، أما دار البقر فتقع خلف مدرسة السلطان حسن، وقد شيدت قبل عصر الظاهر بيبرس. الإدريسى، أنوار علوى الأجرام، ص٥٢. Nasser, the citadel of cairo, p 106

١٣٠ وثيقة وقف حسن الرومى رقم ١٠٧٩ أوقاف، المؤرخة ٨ شوال ٩٤١هـ/ ١٥٣٥م.

١٣١ ابن شداد، تاريخ الظاهر، ص٣٤٢.

١٣٢ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٠٤، السلوك، ج١، ص٢٠٢.

١٣٣ حول الناصر محمد بن قلاوون هذه الدار إلى طبلخانة، أى مقر للفرق الموسيقية السلطانية التى كانت تضرب مزاميرها وتدق طبولها وتزعق كوزستها (أى صنجاتها) مرتين يوميا كرمز لتواجد السلطان في القلعة. المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢١٣.ابن تغرى بردى، النجوم، ج٢، ص٢١٣.

١٣٤ قام الناصر فرج بن برقوق بهدم هذه المدرسة فيما بعد. المقريزى، الخطط، ج٢، ص٢١٢.

١٣٥ ابن الشحنة، عفيف الدين حسان، البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباى، ص٨٢: ٨٤، تحقيق عمر تدمرى ١٩٨٢م.

١٣٦ يقع سور القلة في الوقت الحاضر بين الباب الوسطانى وبرج المقطم.

١٣٧ العسقلانى، شافع بن على المصرى، الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، ص١٢٨، تحقيق عمر تدمرى (دكتور)، المكتبة العصرية صيدا ١٩٩٨م

١٣٨ القلة: المكان المرتفع. العسقلانى، الفضل المأثور، ص ١٢٨.

١٣٩ الأستادار: يذكر القلقشندى أن كلمة الأستادار أصلها فارسى، وتتكون من مقطعين أستذ بمعنى الأخذ ودار بمعنى ممسك، وأدغمت الكلمتان فصارت استادار والمعنى المتولى للأخذ، وسمى بذلك لأنه يتولى أخذ المال، و يقال فيه ستدار بإسقاط الألف في أوله وكسر السين، وبعض الكتاب يضمون الهمزة ويلحقون به ألفا بعد التاء فيقولون أستادار وربما قالوا أستاذ الدار وعلق على هذا الشكل الأخير خطأ صريح (القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٥٧) مع أن هناك من المؤرخين في العصر المملوكى من استخدموا القول أستاذ الدار أمثال السبكى والنويرى. واعترض بعض المستشرقين على ما ذكره القلقشندى من أن أستاذ الدار خطأ صريح، لأنهم يعتقدون أن الكلمة أصلها أستاذ الدار المكونه من أستاذ بمعنى السيد أو الكبير والدار بمعنى البيت، ويذكر محمد مصطفى زيادة أنه وجد عبارة في هامش أحد مخطوطات كتاب السلوك للمقريزى، بخط مغاير لخط المخطوطة نفسها بها ما يفيد أن أستادار كلمة فارسية أصلها (اصطى سرا) بمعنى اصطى كبير ثم عربوه فقالوا أستاذ: ومعنى سردار كبير كالسلطان ونحوه، فتلاعبوا بهذه الكلمة وقالوا أستادار. المقريزى السلوك، ج١، ص٧٩٤، حاشية ٣) ويقول علماء اللغة أن أستذ التى ذكرها القلقشندى هى من ستد الفارسية بكسر السين وفتح التاء المثناة من فوق ثم دال مهملة ساكنة، ومعنى ستد الأخذ كما ذكر القلقشندى (أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد في الجبرتى من الدخيل، ص١٣: ١٥.دار المعارف١٩٧٩م) ومن هذا يتضح أن الكلمة في الأرجح مأخوذة من ستد الفارسية، ويذكر المقريزى أن من مهام الاستادار (إله أمر البيوت السلطانية كلها، وهو الذى يمشى بطلب السلطان في السرحات والأسفار، وله الحكم في غلمان السلطان وباب داره، وإليه أمور الجاشنكارية، ويشير إلى أن هذه الوظيفة اتسعت اختصاصاتها في عهد الظاهر برقوق ثم عهد ابنه فرج عندما أصبح الاستادار هو المدبر لأمور السلطنة. المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٢٢؛ محمد عبد الستار عثمان (دكتور) وثيقة وقف جمال الدين الأستادار، ص٩، ١٠.دار المعارف ١٩٨٣م.

١٤٠ ابن الفرات، ناصر الدين محمد، تاريخ الدول والملوك، ج٨، ص٣٨.

١٤١ العسقلانى، الفضل المأثور، ص١٢٨.

١٤٢ Nasser, the citadel of cairo, p 111

١٤٣ ابن شداد، تاريخ الظاهر، ص٣٤١.

١٤٤ القلقشندى، الفضل المأثور، ج٣، ص٣٧٠؛ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٠٥.

١٤٥ ابن شداد، تاريخ الظاهر، ص٢٩٤.

١٤٦ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص٢٧٣، ٢٨٧.

١٤٧ ابن شداد، تاريخ الظاهر، ص٣٤٠؛ الكتبى، فوات الوفيات، ج١، ص٢٤٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص١٩٠.

١٤٨ المقريزى، الخطط المقريزية، ج١، ص٢١٦.

١٤٩ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص ١٠١ – ١٠٢؛ عبد الرحمن زكى (دكتور)، قلعة مصر، ص ١٥. Nasser, the citadel of cairo,p120

١٥٠ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص١٩٠.

١٥١ ابن شداد، تاريخ الظاهر، ص٣٤١.

١٥٢ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص١٠٢.

١٥٣ يبدو أن السباع انتشرت كرنك على عمائر الظاهر بيبرس في مصر، فمن أشهر الأمثلة التى حملت هذا الرنك، قناطر السباع على الخليج المصرى، والتى تقع أمام مسجد السيدة زينب، والتى حملت هذا الرنك، وكان الناصر محمد بن قلاوون أراد إزالتها فأوحى إلى والى القاهرة، بأن يجددها لارتفاعها، فلما جددها أشيع أن ذلك تم لإزالة شعار سلطان سابق، فأمر حينئذ الناصر بإعادة السباع مرة أخرى للقنطرة، ومع ذلك فلم تنج هذه السباع من التخريب، فإن الشيخ محمد المعروف بصائم الدهر، شوه صورها كما فعل بوجه أبو الهول ظنا منه أن في هذا الفعل تقربا لله تعالى. وبقى بقناطر ترعة أبو المنجا، اثنان وعشرون سبعا لتعبر عن إعمار بيبرس لهذه القناطر سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٦٦.١٢٦٧م على يد الأمير عز الدين أيبك الأفرم، وهذان الأثران يدلان على أن برج السباع بالقلعة من أعمال الظاهر بيبرس، ولما كان وجوده عند زاوية من زوايا النطاق الجنوبى ولوقوعه بالقرب من باب السر الكبير فمن المرجح أن البرج له اسمان، شاع منهما

الاسم الأخير، كما شاع على قناطر السباع بالسيدة زينب. انظر حول ما سبق: عبد الرحمن عبد التواب، منشآتنا المائية عبر التاريخ، ص٢١ – ٢٢، ٤٩ – ٥٢. سلسلة المكتبة الثقافية، العدد ٩٦ القاهرة ١٩٦٣م؛ زكى حسن (دكتور)، أطلس الفنون والتصاوير الإسلامية، ص٢٦٨، ٥٠، فنون الإسلام، ص ٦٣٨ – ٦٣٩.

١٥٤ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٨، ص١٤٩.

١٥٥ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص١١٥.

١٥٦ إبراهيم طرخان (دكتور)، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص٥١ – ٥٣، القاهرة ١٩٦٦م.

١٥٧ روشن: بمعنى الكوة أو النافذة أو الشرفة وهى من الفارسية روزن، ويقصد بها في العصر الملوكى الخرجات التى تستخدم للبروز بالعمارة وزيادة سطح الأدوار العليا، وتطل على الشارع وواجهة الدخول. محمد أمين وليلى على إبراهيم (دكتور)، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، ص٥٨. دار النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٩٠م.

١٥٨ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٣، ص١٢٠ .

١٥٩ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٠.

١٦٠ ابن شداد، تاريخ الظاهر، ص٢٤٠.

١٦١ الكتبى، فوات الوفيات، ج١، ص٢٤٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٠.

١٦٢ ابن الفرات، مصدر سابق، ج٨، ص٣٨؛ ابن عبد الظاهر، الروضة البهية، ص١٣٨؛ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢١٢.

١٦٣ ابن شداد، تاريخ الظاهر، ص٢٤١.

١٦٤ Nasser, the citadel of cairo ,p114

١٦٥ انظر عن المماليك البرجية: إبراهيم طرخان (دكتور)، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص٤: ١٢؛ حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص١١:٥٨؛ سعيد عاشور (دكتور)، تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٩٢:٣٠١.

١٦٦ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص٣٠٨.

١٦٧ المقريزى، السلوك، ج١، ص٧٥٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص٣٦٢.

١٦٨ جومار، وصف مصر.

١٦٩ Nasser, the citadel of cairo, p137

١٧٠ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ج٨، ص ٣٨. Nasser, the citadel of cairo,p 14

١٧١ ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص١٣٩. تحقيق مراد كامل، القاهرة١٩٦١.

١٧٢ فاروق خورشيد، أضواء على السير الشعبية، ص٨٧: ١٢٧. المكتبة الثقافية، العدد ١٠١، القاهرة ١٩٦٤م.

١٧٣ البندارى، الفتح بن على، سنا البرق الشامى، ص٢٣٢. تحقيق دكتورة فتحية النبراوي. مكتبة الخانجى ١٩٧٩م.

١٧٤ ابن واصل، مصدر سابق، ج٣، ص ١١٢.

١٧٥ القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص١٦ – ١٧.

١٧٦ لمجلس المشورة أهمية خاصة لكونه يعقد عند الأمور الخطيرة والمهمة. ابن شاهين الظاهرى، غرس الدين خليل، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١٠٦.باريس ١٨٩٤ م.

١٧٧ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٧٤.

١٧٨ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢١٥.

١٧٩ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢١٤.

١٨٠ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢.

١٨١ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢.

١٨٢ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢.

١٨٣ يرد ذكر دار العدل الأشرفية في المصادر الآتية: بيبرس المنصورى، التحفة المملوكية في الدولة التركية، ص٢٣٢، تحقيق عبد الحميد صالح حمدون. القاهرة ١٩٧٨. ابن الدوادارى، كنز الدرر جامع الغرر، ج٨، ص٣٤٥؛ المقريزى، الخطط المقرزية، ج٢، ص٢٠٦.

١٨٤ لم تنشر نتائج هذه الحفائر إلى الآن.

١٨٥ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢١١.

١٨٦ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٦؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص١٦٩.

١٨٧ المقريزى الخطط المقريزية، ج٢.

١٨٨ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٦؛ المقريزى، السلوك، ج٢، ص٩٢.

١٨٩ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢١.

١٩٠ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢١٤.

١٩١ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٤٢ – ٤٣؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص٣٦٩.

١٩٢ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٦٦ – ١٦٧.

١٩٣ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٣١٤؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص٣٩٨.

١٩٤ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص٣٩٩.

١٩٥ المقريزى، السلوك، ج٣، ٢١٠.

١٩٦ الخاصكية: مماليك من حاشية السلطان يأتون في ترتيب البرتوكول المملوكى بعد الأمراء المقدمين، كان عددهم في أول الأمر أربعة وعشرين ثم زادوا على الأربعمائة. تمتع الخاصكية بمكانة كبيرة فكانوا يدخلون على السلطان في أوقات فراغة وفى خلواته بغير إذن، وخصص لهم السلاطين الأرزاق الواسعة والعطايا الجزيلة، وامتازوا

بحسن المظهر وأناقة الركوب والملبس. ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٢١١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٧٩–١٨٠. Nasser, the citadel of cairo, p 151

١٩٧ الرفرف: رفرف الطائر إذا حرك جناحيه. ويطلق اللفظ في العمارة المملوكية على ما يثبت في البناء من الخارج، فيطلق أساسا على سقف خشبي مائل يحمل على كباش أو كوابيل خشبية مثبتة بالحائط فوق المقاعد أو المصاطب أو مكاتب الأيتام كما يوجد أحيانا خارج الحوانيت علو مصطبة الحانوت. محمد أمين، ليلى علي إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص ٥٥.

١٩٨ المقريزى، السلوك، ج١، ص٦٥٤؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ص١٠٩؛ كازانوفا، وصف قلعة الجبل، ص١٠٩.

٢٩٩ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢١٣.

٢٠٠ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢١٣.

٢٠١ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٧٩.

٢٠٢ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص١٠٩.

٢٠٣ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص ١٢٠ – ١٢١.

الفصل الثالث

مقومات القلعة كمقر للحكم

يعد عصر الناصر محمد بن قلاوون عصرا حاسما فى تاريخ القلعة إذ وصلت القلعة فى عهده إلى أوج ازدهارها واستكملت مقوماتها كمقر للحكم. ويعود ذلك لأسباب عديدة على رأسها الاستقرار السياسى الذى شهدته الفترة الثالثة من حكمه والتى استمرت من ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م إلى ٧٤١هـ/ ١٣٤١م. وهى الفترة التى شهدت العديد من التوسعات والتجديدات لمنشآت القلعة، وكذلك المنشآت الجديدة التى اكتسبت رمزية سلطوية لها مدلولاتها.

تولى الناصر محمد بن المنصور قلاوون حكم مصر لأول مرة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م وكان طفلا عمره تسع سنوات. والمرة الثانية فى سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م. والمرة الثالثة سنة٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩م. يعكس ذلك اضطراب أحوال السلطنة فى الفترة من وفاة الأشرف خليل إلى السلطنة الثالثة للناصر. وذلك بسبب طبيعة انتقال السلطة فى الدولة المملوكية. كان لذلك أثره على القلعة. فنجد الناصر فى السلطنة الثانية يجرى أعمالا عمرانية فى القلعة، ويعود مرة أخرى فى سلطنته الثالثة ليستكملها أو يجددها.

كانت انتصارات الأشرف خليل العسكرية فى بلاد الشام والتى انتهت بتحرير عكا ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م. آخر فصول المواجهة العسكرية بين الصليبيين والمسلمين ببلاد الشام، والتى انتصر فيها المسلمون ليتم تحرير بلاد الشام، لقد خلقت هذه الحقيقة مع انحسار خطر التتار فى الفترة الثالثة لحكم الناصر، وضعا جديدا. كان على المماليك أن يواجهوه، خاصة السلطان الناصر. لقد قامت دولة المماليك على أن الحرب حقيقة يومية واقعة، ولذا عبئت موارد الدولة كافة لمواجهة هذا الخطر، وأفرز ذلك استتباب نظام الإقطاع[٢] الذى يعبئ كافة الموارد لخدمة الجيش. وبعد زوال الخطر الخارجي كان على المماليك أن يواجهوا متطلبات الإدارة المدنية. أدت الدولة العسكرية دورها التاريخي. وكان عليها أداء دور جديد تحتاج إليه المجتمعات الإسلامية. وهو ما تدل القرائن التاريخية على أنه لم يؤد بصورة جيدة.

وأهم تطور أحدثه الناصر فى بنية الدولة المملوكية كان فى نظام الإقطاع العسكرى الذى تحول إلى إقطاع شخصى غير وراثي. وصار يتوزع بين عدة مناطق، بعد أن كان يتركز فى ناحية واحدة، كما كان الإقطاع يتغير بتغير وظيفة صاحبه[٣]، ونجح هذا التغيير فى تشديد قبضة السلاطين على الأمراء فى المدى القصير، بيد أنه أثبت أنه كارثة على وجود الدولة نفسها، فقد عزف الأمراء عن الاهتمام بإقطاعياتهم، وقلت إنتاجية الأرض الزراعية. وهو الأمر الذى ترك آثاره السلبية على النظام السياسى الذى قامت عليه دولة سلاطين المماليك. فبينما قل اعتماد المماليك على عائد الأرض الزراعية، زاد معدل اعتمادهم على الرواتب النقدية والرواتب العينية. ومع تزايد تدهور الإنتاج الزراعى يتزايد عجز الدولة عن سد حاجات فرسان المماليك الذين يوجهون طاقاتهم العسكرية نحو الناس فى الداخل، وتشهد الفترة الأخيرة من عصر سلاطين المماليك صورا عنيفة من الاستبداد والتسلط، تقابلها مقاومة متصاعدة من الناس، وتدهور اقتصادي، ثم مزيد من الخلل السياسي، وتصير السلطنة عبئا يتهرب الجميع من تبعاته[٤]. هكذا انهارت دولة سلاطين المماليك من الداخل قبل أن تدهمها جيوش العثمانيين سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م.

كانت حدود النطاق الجنوبى من القلعة ثابتة منذ العصر الأيوبي، وظلت قصور الإقامة الخاصة بالسلطان وحريمه بلا تغيير منذ عصر الكامل. وزود هذا النطاق فى ظل سلطنة بيبرس وقلاوون والأشرف خليل بالعديد من المبانى السلطانية التذكارية كما سبق أن ذكرنا. وإن كان هذا النطاق شهد حراكا نحو التوسع فى اتجاه الإسطبلات.

ويرى ناصر الرباط أن الأشرف ربما يكون هو الذى بدأ فى هذه التوسعات غير أن مقتله حال دون إكمالها فى حياته[٥]. وهو رأى يمكن أخذه فى الاعتبار. ولكن لا يوجد دليل قاطع عليه الآن. تعددت مقومات القلعة كمقر لحكم مصر وبلاد الشام والحجاز وسائر الأقاليم التى خضعت لدولة المماليك، ثم كمقر للحكم فى ظل السيطرة العثمانية

على مصر، وظل للقلعة اعتبارها فى عصر أسرة محمد على.

ومن هذه المقومات المساجد خاصة الجامعة منها، وبصفة خاصة المسجد الجامع للنطاق الجنوبى منذ العصر الأيوبى حتى تشييد جامع محمد على.

والمقوم الآخر هو دار العدل التى كانت مقرا للعرش المملوكي، ثم القصور السلطانية والتى كانت تدار منها أمور الحكم فى بعض أيام الأسبوع، والحوش السلطانى الذى اكتسب أهمية متزايدة فى العصر المملوكى الجركسى وخلال الحكم العثماني، والإسطبلات السلطانية التى مثلت مقوما مهما من مقومات القلعة كمقر للحكم، أما النطاق الشمالى فمثلت التغيرات به صدى لما يحدث من تغييرات فى النطاق الجنوبي.

وأعتبر الميدان أحد ملحقات القلعة ومحورا من محاور الصراع على السلطة، أو استقرار السلطة وانعكس ذلك فى التجديدات التى كانت تجرى به.

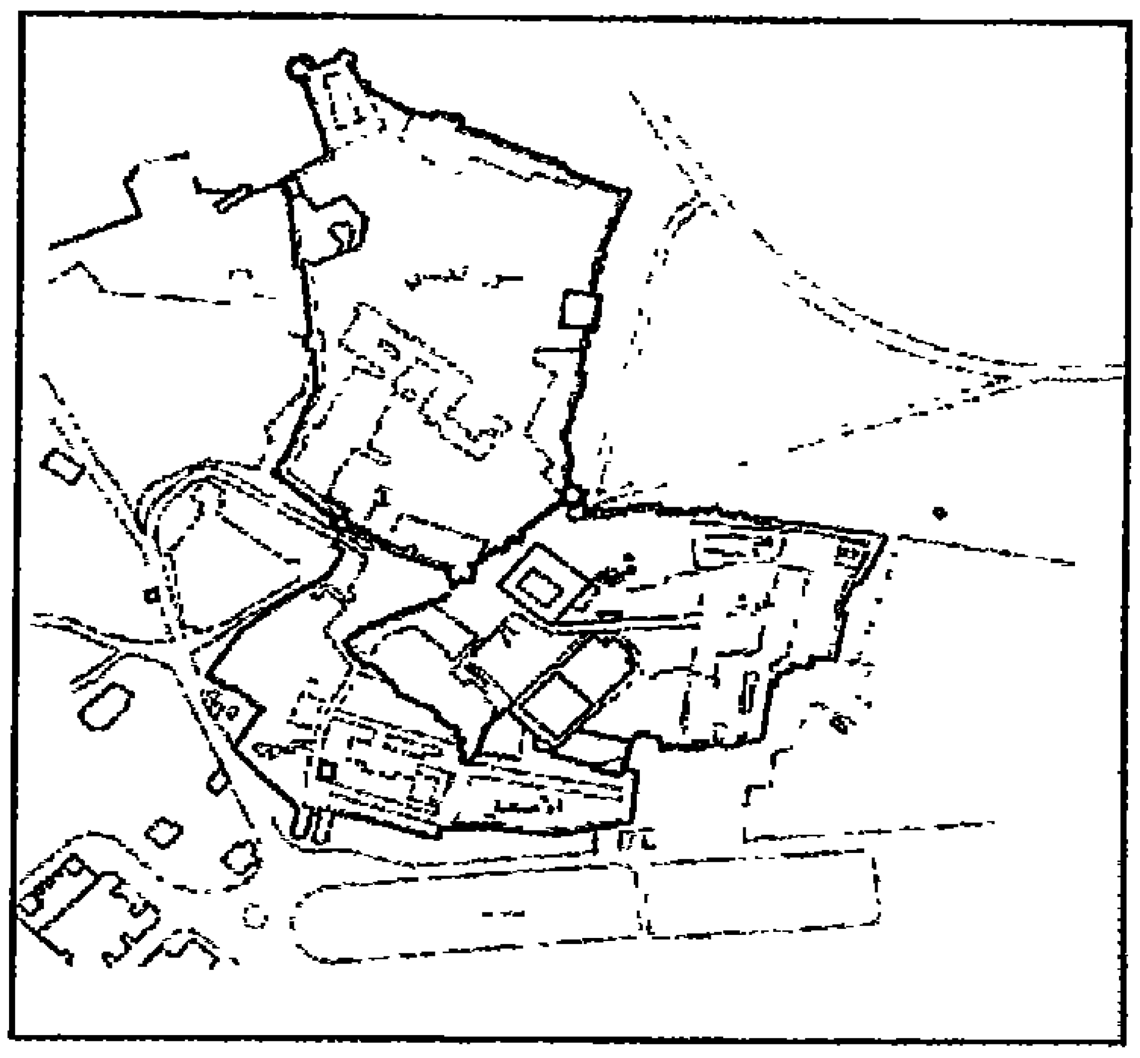

قلعة الجبل – المساجد

مساجد القلعة

عندما شرع بهاء الدين قراقوش فى بناء قلعة صلاح الدين وجد بها عددا من المساجد التى يرجح أنها تعود للعصر الفاطمي، وظلت بعض هذه المساجد قائمة لأداء الصلاة بها، واعتبر مسجد سعد الدولة هو المسجد الجامع بالقلعة. والذى جدده الملك الكامل الأيوبى وخطب فيه الخليفة العباسى بعد توليه الخلافة فى عهد الظاهر بيبرس، ولكن هناك جدلية يفرضها وجود المسجد الجامع بالقلعة وكذلك ترك قراقوش المساجد الفاطمية بها، وهى جدلية فقهية ذات طابع سياسى إذ إن المساجد تنقسم إلى عدد من الدرجات، يأتى على رأسها المساجد الجامعة، فمساجد الأحياء أو مساجد الصلوات الخمس، وعد البعض نوعا آخر من المساجد هو مساجد الطرق أو القوارع. وهى مرتبة من حيث أهميتها فى سلسلة هرمية ترتبط بتوزيعها فى المدينة ووظيفتها[٦] درجت القواعد على أن يكون بكل مدينة مسجد جامع واحد هو مركز المدينة تأسيا بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم فى مسجده بالمدينة المنورة، وتقام بهذا المسجد صلاة الجمعة التى كان الحاكم يلقى خلالها خطبة جامعة فى المسلمين، وحدثت تحولات سياسية منذ العصر الأموى أدت إلى تراجع الحاكم عن إلقاء خطبة الجمعة، وازداد هذا التراجع مع تولى غير العلماء مناصب سلطوية فى دول العالم الإسلامي. وبالرغم من وجود مساجد صلوات ومساجد طرق فى المدن الإسلامية، إلا أن الفقهاء لم يجيزوا صلاة الجمعة إلا فى المسجد الجامع للمدينة. كما هو الحال فى مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط[٧]. كان المسجد الجامع هو قلب المدينة. ولذا حرص أحمد بن طولون عند بنائه مسجده الجامع أن يكون على مرتفع منها لكى يكون معلم المدينة الرئيسي، وعلى إتساعه لكى يستطيع أهل المدينة الصلاة فيه يوم الجمعة، وعند تأسيس القاهرة احتل مسجدها الجامع الركن الجنوبى الشرقى وهو الجامع الأزهر، وصار المسجد جزءا من الحصن الفاطمى مقر الحكم الفاطمى فى مصر. وهو ما يعنى تفكك العلاقة الترابطية بين دار الإمارة والمساجد الجامعة. وتحول دار الأمارة أو الحصن السلطانى فيما بعد إلى الكل المهيمن على المدينة. وارتبط ذلك أيضا بتحول فى نمطية السلطة إذ إن المساجد الجامعة صارت وظيفتها وظيفة إعلامية، إذ من على المنبر يتم الدعاء لولى الأمر، وكان أول من دعا على المنبر ابن عباس عندما كان واليا على البصرة إذ دعا

لعلى بن أبى طالب، وتطور الدعاء من على المنابر بتحول الحياة السياسية من نفوذ الخلفاء والدعاء لهم، إلى الدعاء لهم وللمتغلبين على السلطة معا، ثم الدعاء للمتغلبين على السلطة فقط[٨]. إذ صارت وظيفة الخليفة وظيفة شرفية يكتسب من خلالها المتغلب شرعية الحكم.

وكان عدم الدعاء لسلطان من على المنابر يعنى إسقاطه من العرش بواسطة الخطيب، والدعاء لسلطان يعنى صعوده إلى العرش، وفى العصور الوسطى اكتسب ذلك أهمية متزايدة، نتيجة لأن المساجد الجامعة هى مكان تجمع أهل المدينة فى يوم الجمعة، وعد الفقهاء صلاة الجمعة من أركان إقامة الدين[٩].

عدت قلعة صلاح الدين مدينة حصينة مستقلة بذاتها تحتاج إلى مسجد جامع، كما كان الحال فى كل من الفسطاط التى كان مسجدها الجامع هو مسجد عمرو بن العاص، والقاهرة التى كان مسجدها الجامع هو الجامع الأزهر[١٠] ثم جامع الحاكم بأمر الله.

مسجد الناصر محمد

كان مسجد سعد الدولة هو أكبر مساجد القلعة ولوقوعه فى القسم السلطانى أو فى دار السلطنة بالقلعة، فقد تم اختياره مسجدا جامعا للقلعة. وقد جدده السلطان الكامل ابن العادل. بالإضافة إلى وجود عدد من مساجد الصلوات فى أنحاء متفرقة من القلعة.

ومع التوسعات المتلاحقة التى شهدتها القلعة بدءا من عصر الظاهر بيبرس إلى عصر الناصر محمد ابن قلاوون، والتزايد المستمر فى أعداد المماليك خاصة المماليك السلطانية، باتت الحاجة ملحة إلى إعادة إنشاء مسجد جامع بالقلعة يكون أكبر حجما من مسجدها القديم. وهذا ما اتجه إليه الناصر محمد بن قلاوون. حيث قام عام ٧١٨ هـ/١٣١٨م بهدم الجامع وإعادة إنشائه من جديد، حيث ضم إليه منشآت كانت بجواره، وهى الحوائجخاناه والطشتخاناه والفرشخاناه[١١]، وهى منشآت خدمية هدمت لكى تتم زيادة مساحة المسجد،

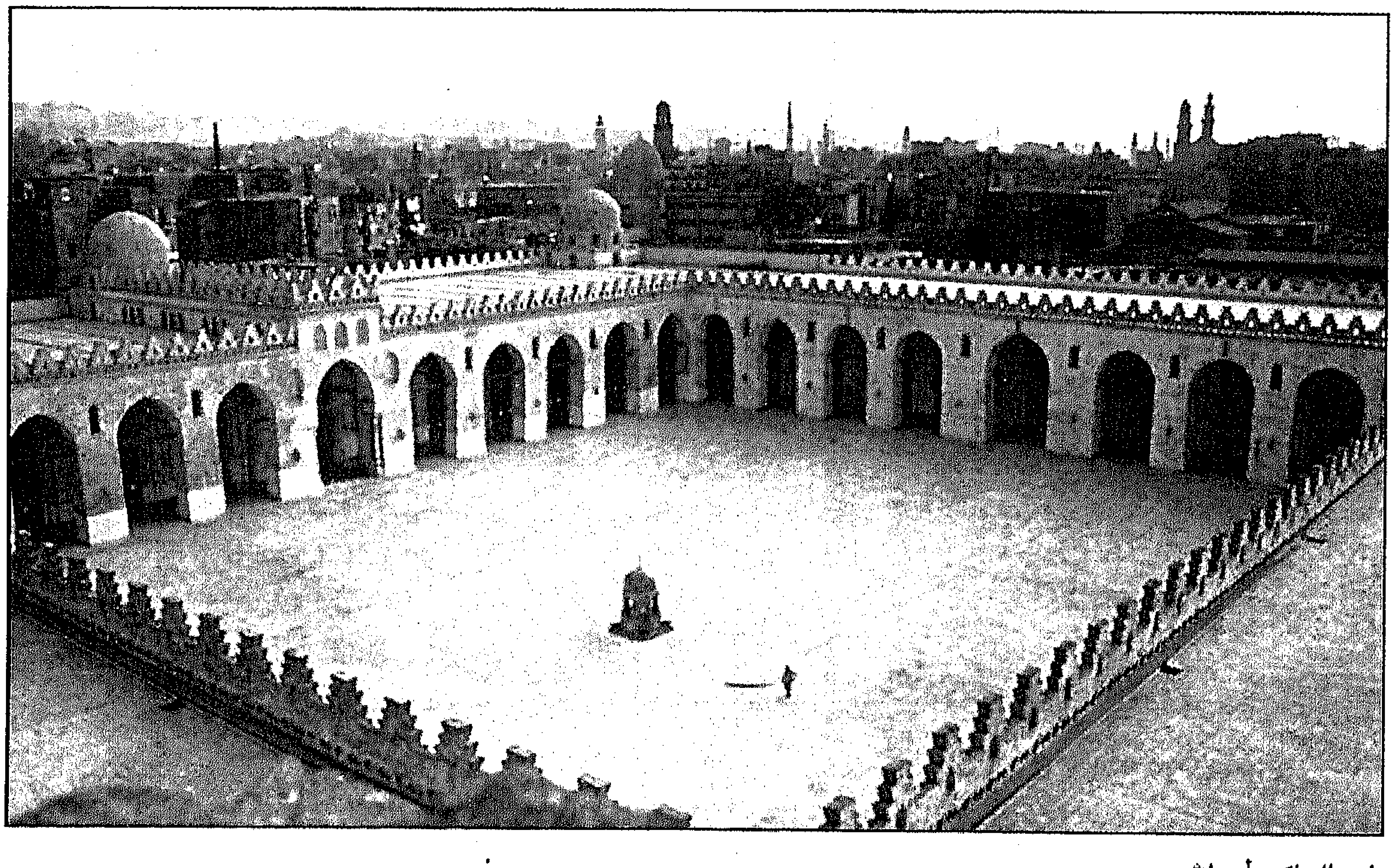

جامع الحاكم بأمر الله

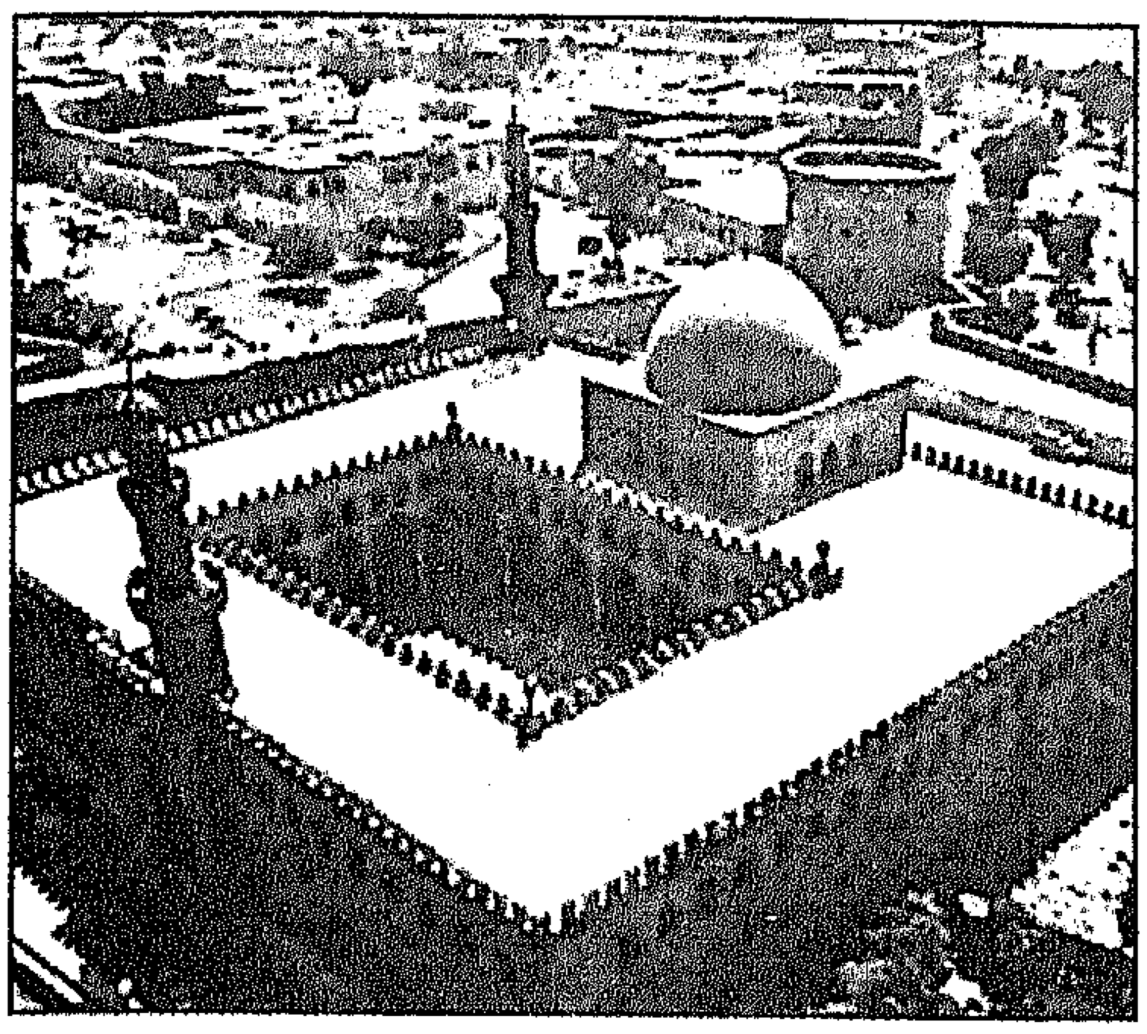

جامع الناصر محمد بن قلاوون – القلعة

وانتهت عمارة هذا المسجد فى أربعة شهور وخمسة وعشرين يوما.

وفى عام ٧٣٥هـ/١٣٣٥م شرع الناصر محمد ابن قلاوون فى تجديد عمارة مسجده بالقلعة، وجاء هذا القرار فى أعقاب الانتهاء من الإيوان الناصرى المواجه للمسجد، والذى يبدو من تتبع الربط بين المنشأتين، أن الناصر أراد أن يخلق توازنا معماريا بينهما، ذلك أن عمارة الإيوان جاءت أكثر ارتفاعا من المسجد، وتميز عنه بقبته الخضراء العالية.

ويحدد لنا الدوادارى ما أحدثه الناصر فى مسجده فيذكر "أنه برزت المراسم الشرفية بهدم الجامع الذى أنشأه مولانا السلطان عز نصره بالقلعة المحروسة، وأن يجدد بنايته فهدم ما كان داخله من الرواقات والمقصورة والمحراب، وجدد بنايته ما لم تر العين أحسن منه وأعلى قناطر الرواقات إعلاءً شاهقا، وكذلك القبة أعلاها حتى عادت فى ارتفاع، وأحضر لهذا الجامع أعمدة عظيمة كانت منسية بمدينة الأشمونين بالوجه القبلى من أعمال الديار المصرية، وكانت هذه الأعمدة فى البرايا التى بمدينة الأشمونين"[١٢]، هذه الخطة التى ذكرها الدوادارى توضح أن الهدم لم يشمل مداخل المسجد ولا المآذن ولا الجدران الخارجية، ويبدو أنه قد تم هدم السقف وبعض الأروقة. ويظهر رفع الجدران بوضوح فى المدخل الشمالى الشرقى الذى يعلوه صف من النوافذ حاليا، بينما كان المدخل قبل إجراء هذه الإضافات يصل ارتفاعه إلى الشرفات المسننة التى تعلوه حاليا وكذلك فى المئذنتين اللتين يتضح أن جدران المسجد ارتفعت عنهما، وهذا يبين لنا سبب وجود صفوف من العقود الحجرية تعلو البائكات المطلة على صحن المسجد والتى أضيفت فى التجديد الأخير للناصر. أما القبة الخضراء التى تتقدم المحراب فقصد بها أن تعادل قبة الإيوان الناصري.

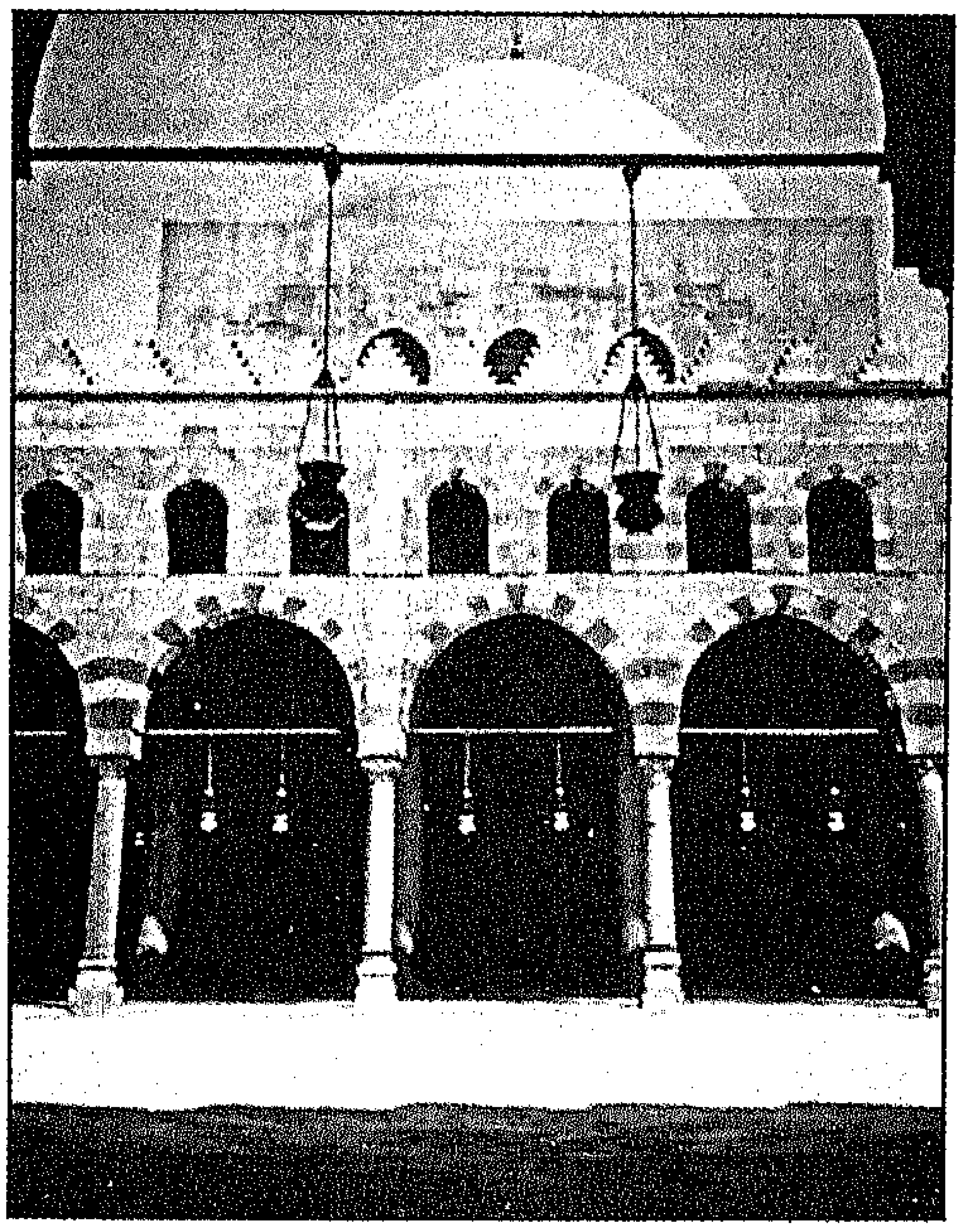

قبة جامع الناصر محمد بن قلاوون – القلعة

وهناك نقطتان مهمتان: الأولى هى موقع المئذنتين، ذلك أن مهندس المسجد اختاره بعناية، إذ تواجه إحداهما الإيوان أو قاعة العرش، وهى بذلك توجه نداء الصلاة إلى الموجودين فيه، والأخرى موجهة إلى طباق المماليك فى النطاق الشمالي، وبذلك يكون المسجد هو المهيمن على المكان، ومتتبع موقع

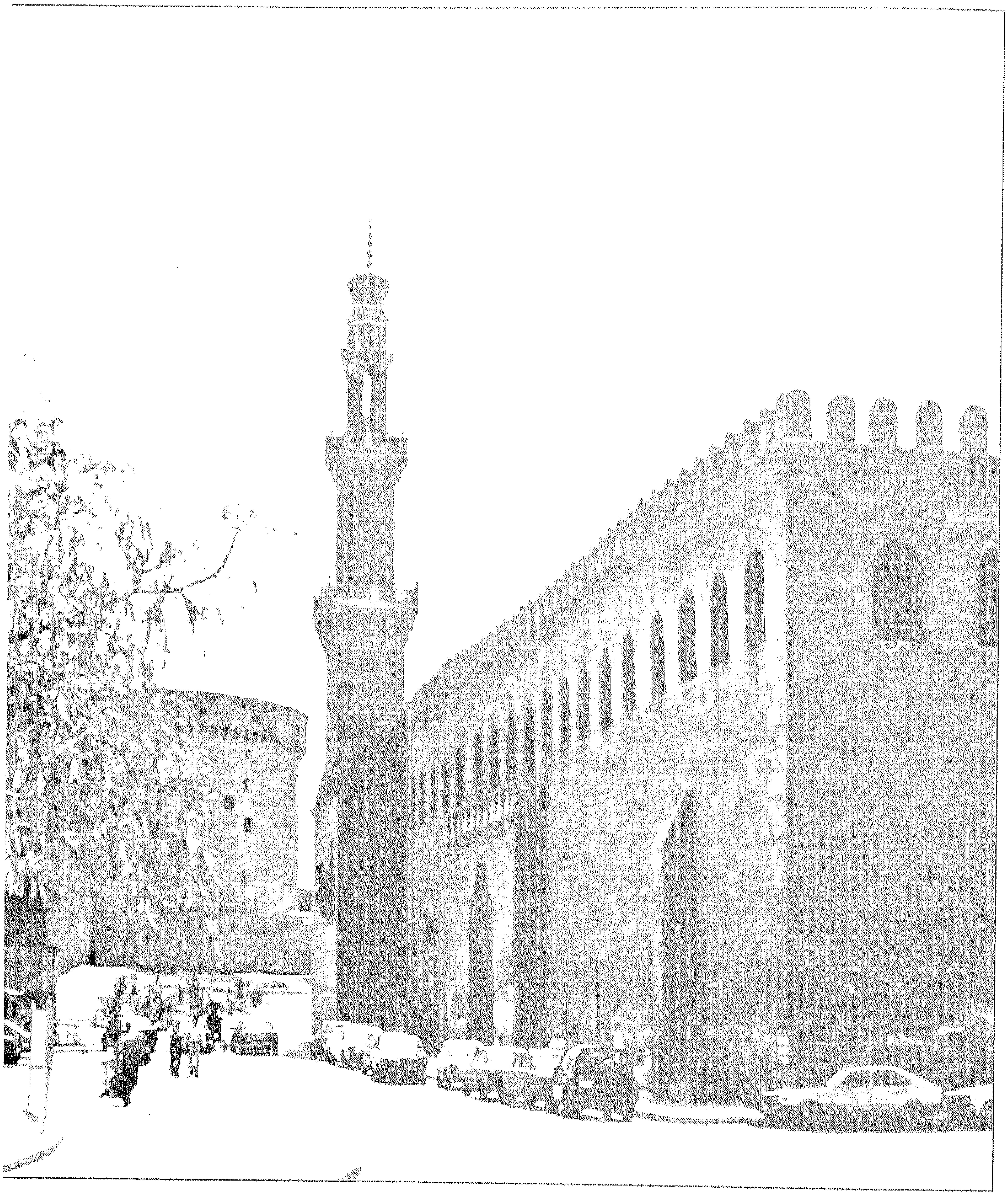

جامع الناصر محمد بن قلاوون – الشرفات والنوافذ

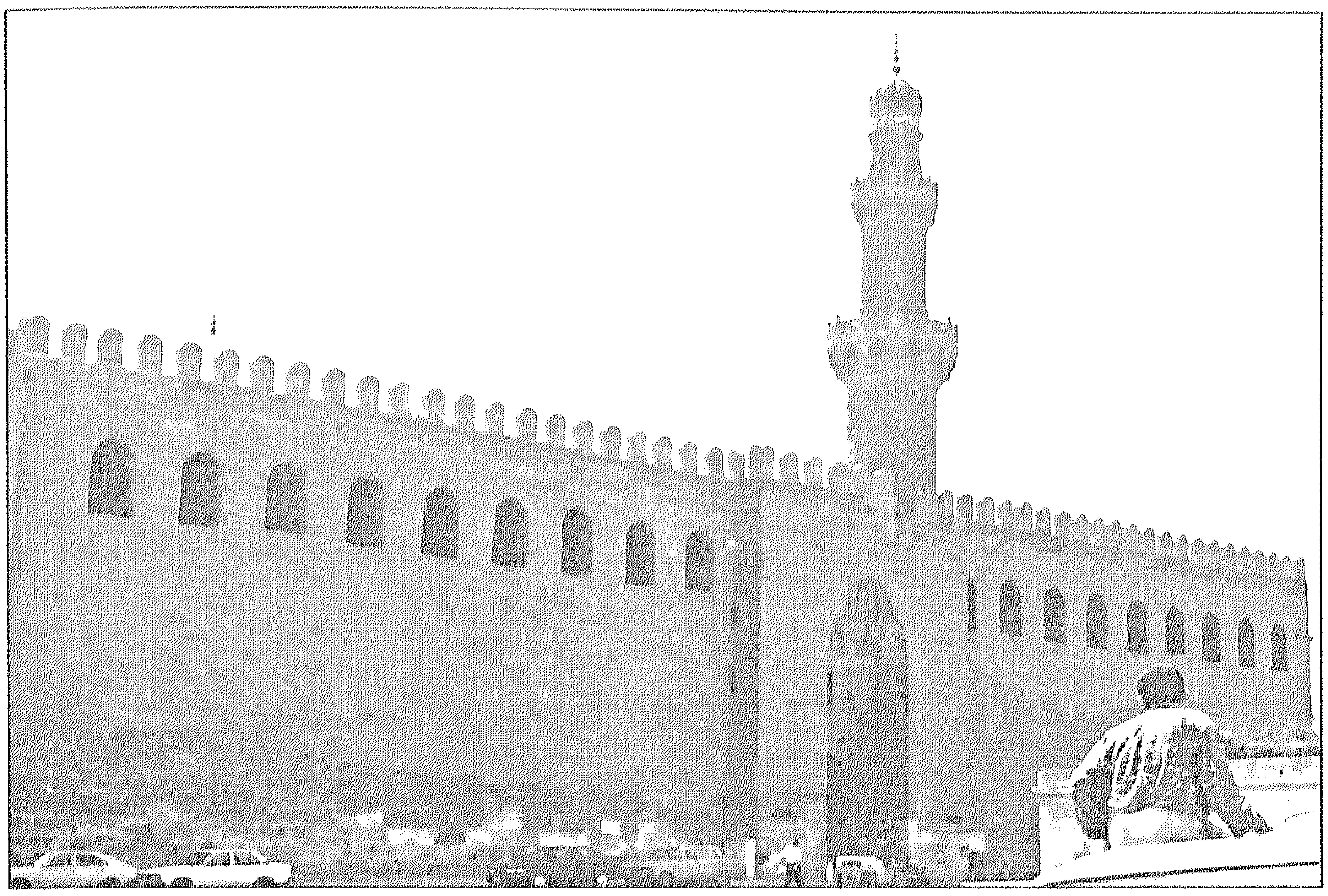

جامع الناصر محمد – المدخل

المئذنتين وقبة المحراب من جهة القرافة والمقطم سيجد أنهما من المنشآت المهيمنة بصريا على القلعة.

والمئذنتان بطرازهما الغريب لفتتا الانتباه إلى كونهما متأثرتين بطرز مآذن شرق العالم الإسلامي بخاصة مآذن تبريز. وتشبهان مئذنة على شاه بتبريز، ويبدو أن مئذنتى مسجد قوصون كلتاهما شيدت على هذا الطراز[١٣]، وأراد الناصر أن تكون مئذنتا مسجده على هذا الطراز، فكلف المعلم التبريزى الذى شيد مئذنة قوصون بتشييد مئذنتى مسجده، ويذكر أن الأمير أيتمش أرسله الناصر محمد إلى خان الأزبك وأحضر معه معلمًا تبريزيًا، شيد مئذنتى قوصون ومئذنة فى مسجد بإقطاعية أيتمش. يظهر التأثير التبريزى فى مئذنتى الناصر بشكل خاص فى الشريط الكتابى من القاشانى وفى قمتى المئذنتين ذواتى بلاطات القاشانى الخضراء[١٤].

– والنقطة الثانية هى المقصورة التى كانت بالمسجد، والتى أشار إليها المؤرخون، وكانت تقع بجوار المنبر، ويصلى فيها يوم الجمعة السلطان وخاصته[١٥]. كان ظهور المقاصير راجعا لأسباب أمنية تتعلق بأمن الخليفة أو السلطان، حيث قتل اثنان من خلفاء المسلمين أثناء الصلاة فى المسجد وهما عمر بن الخطاب وعلي بن أبى طالب، ومنذ ذلك الحين أصبح هاجس الأمن ملحًا، ولم تعد شخصية الحاكم فى صورتها البسيطة المتحدة فى شخصية الرسول وخلفائه الأربعة، تتناسب مع طبيعة دولة مركبة الإدارة ومتسعة الأرجاء ومتنوعة السكان والديانات. ولذا اتخذت المقاصير لحماية شخص الحاكم، وكان أول من اتخذها مروان بن الحكم، حين طعنه اليماني، ومعاوية بن أبى سفيان حين ضربه الخارجي، وهى هنا ضرورة أمنية، غير أن بعض الحكام اتخذها وسيلة من وسائل الترفع والتباهي، وهو ما دفع الفقهاء خاصة ابن الحاج إلى عقد فصل فى مفاسد المقاصير[١٦]. ورأى الفقهاء أنها بدعة محدثة تقطع صفوف الصلاة وتؤدى إلى تمايز بين المصلين وكرهوا

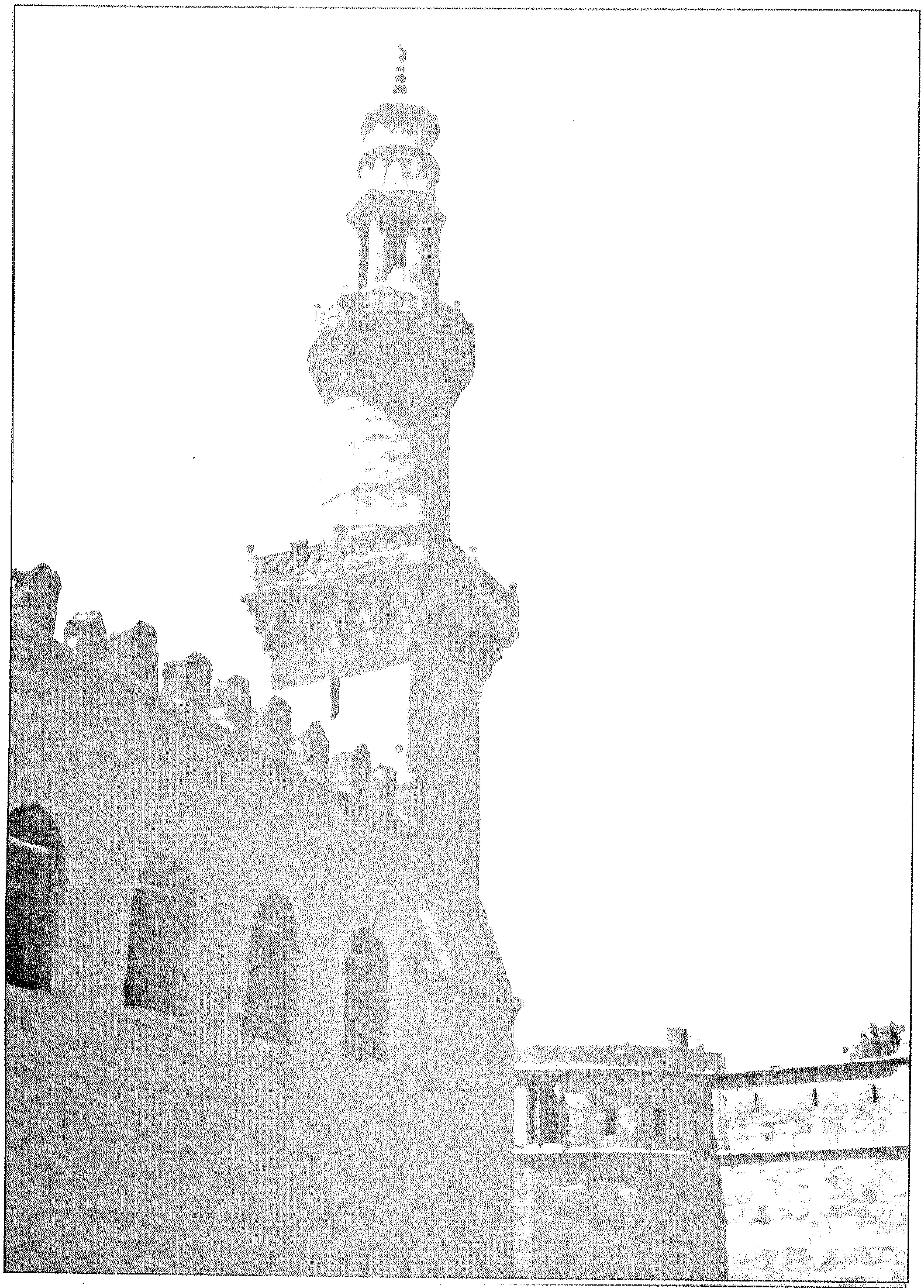

جامع الناصر محمد – المئذنة الواقعة عند التقاء الحائطين الشمالي الشرقي والجنوبي الشرقي

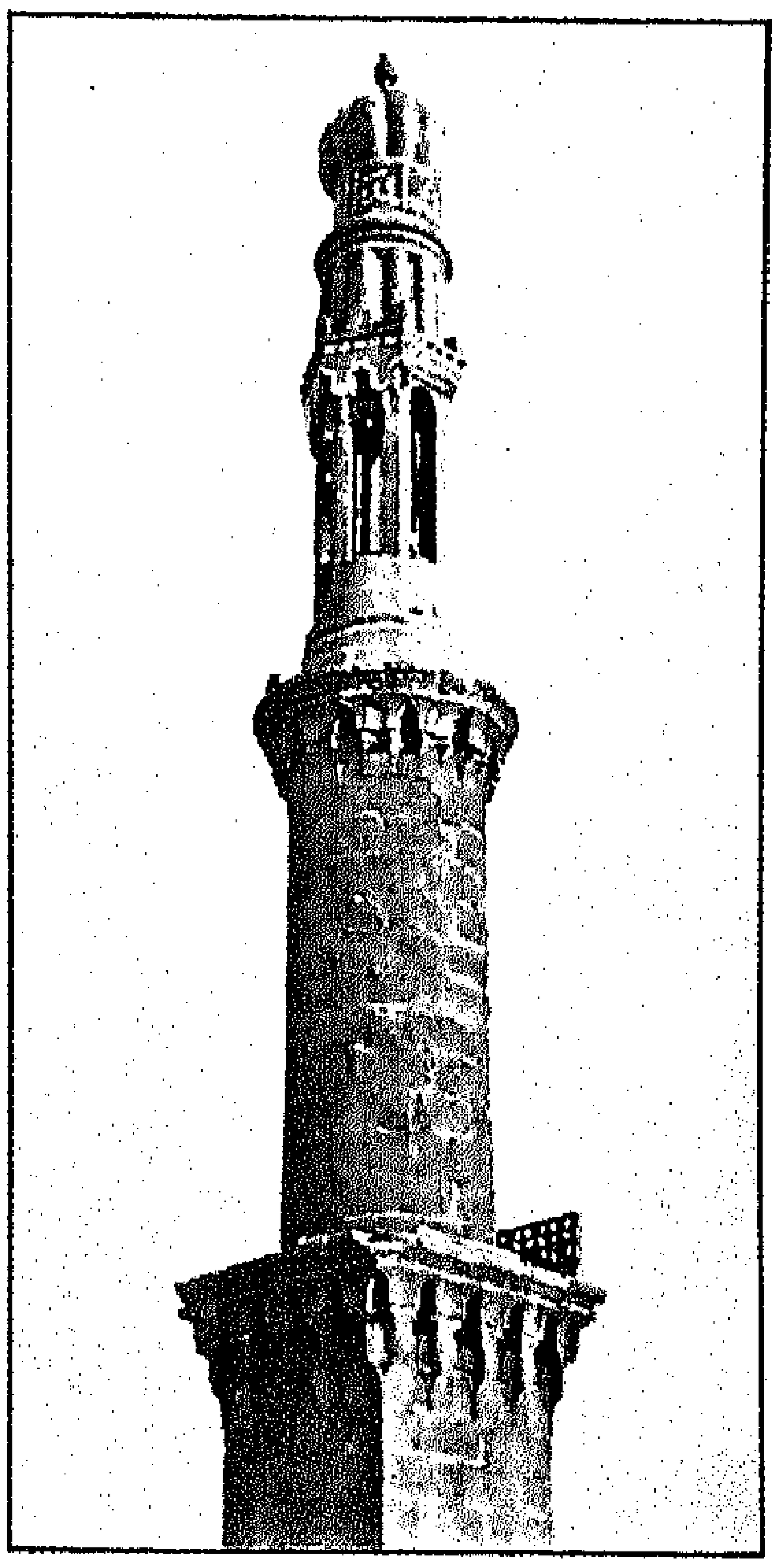

جامع الناصر محمد – المئذنة أعلى المدخل

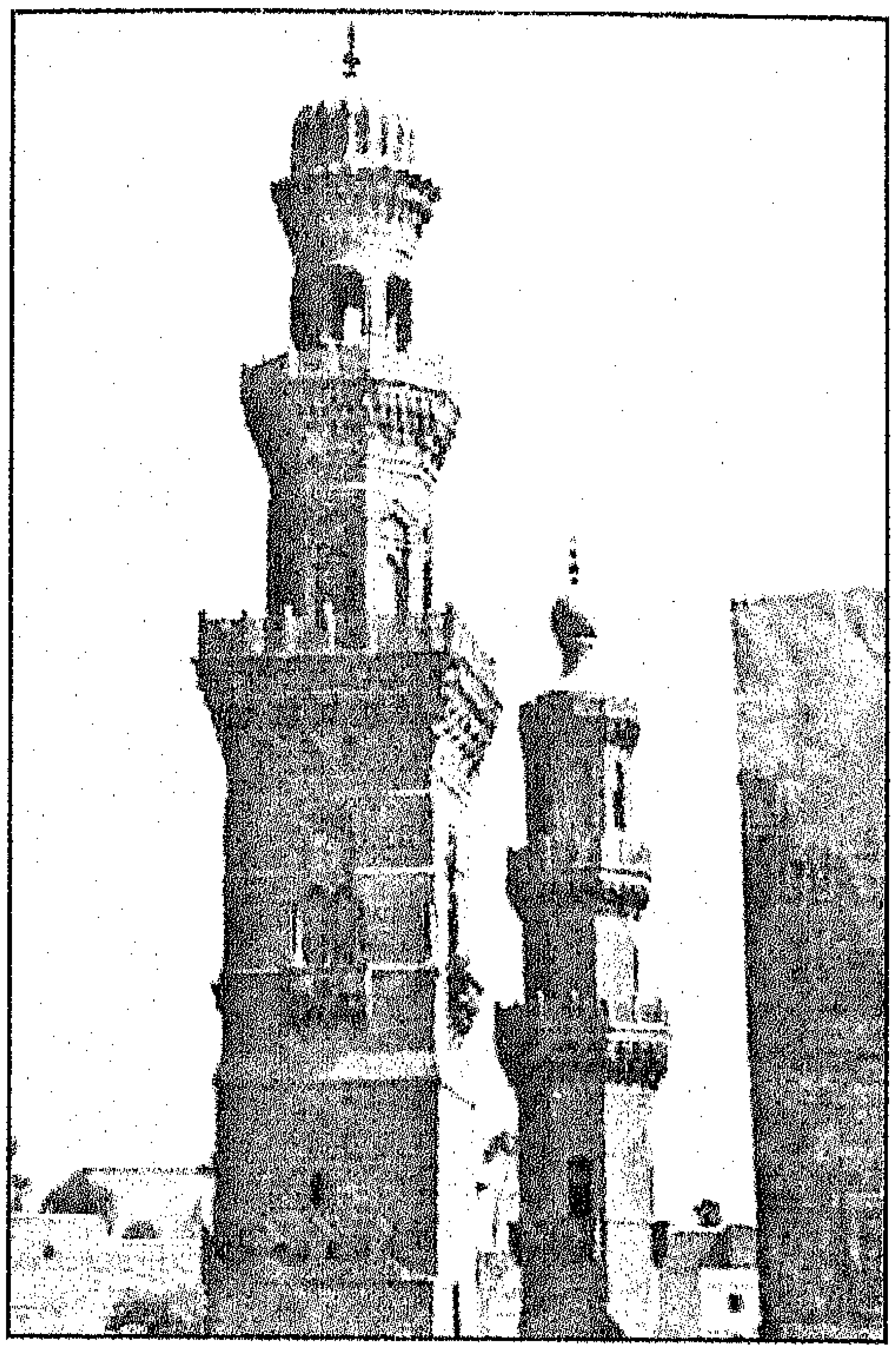

مئذنة قوصون

الصلاة فيها[١٧]. ويرى ابن الأزرق وهو فقيه ومتخصص فى السياسة الشرعية أنه يجوز اتخاذها بشرط ألا تقطع الصف الأول إلا لضرورة[١٨]. ورأى ابن الأزرق يمثل استيعاب الفقهاء للضرورات التى تتعلق بالحكم، وما قد يتعرض له فى حال تكرار اغتيال الحكام أثناء الصلاة، وكان الناصر محمد بن قلاوون يدخل إلى مقصورة مسجده من باب صغير يقع فى آخر الجدار الجنوبي، ويفتح مباشرة على ظلة القبلة، وبالتالى يؤدى إلى المقصورة هناك، وفى سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م وثب شخص أعجمى وفى يده سكين، وقصد المقصورة السلطانية فأمسك فى وقته[١٩]. وتوضح هذه الواقعة – وغيرها كثير– مدى أهمية عنصر المقصورة، الذى أصبح وجوده يرتبط بأمن الحاكم وإن اختلفت أشكاله[٢٠]. ويسترعى الانتباه فى هذا المسجد عدم إلحاق ضريح به، وهذا يعود إلى كونه المسجد الرسمى للدولة، وبالتالى لا يخص السلطان، فاتجه الناصر إلى إنشاء ضريح له خارج القلعة، ولعل ذلك من الأسباب التى كفلت استمرار المسجد فى أداء وظيفته دون تجديدات واسعة أو هدم حتى عصر محمد على.

يوجد أسفل مسجد الناصر محمد طابق واضح فى صور الحملة الفرنسية، حيث تظهر بها حواصل، وهذا الطابق ربما وجد لكى يحدث توازنا بين ارتفاع المسجد وارتفاع الإيوان الكاملي، ورأى الناصر حين جدد المسجد أن يحتفظ بهذا التوازن، وهو السبب أيضا الذى دفع الناصر إلى إيجاد هذا التوازن حين جدد الإيوان وجعله أعلى من المسجد، ولكن حين جدد المسجد للمرة الثانية جعله أكثر ارتفاعا أو موازيا فى ارتفاعه للإيوان الناصري، وهذا نستطيع استنتاجه إذا قارنا بين مستوى سطح المسجد، ومستوى الأسوار المواجهة للمسجد، ولكن يبدو أن قبة الإيوان بضخامتها، كانت هى الأكثر ارتفاعا فى محيط القلعة.

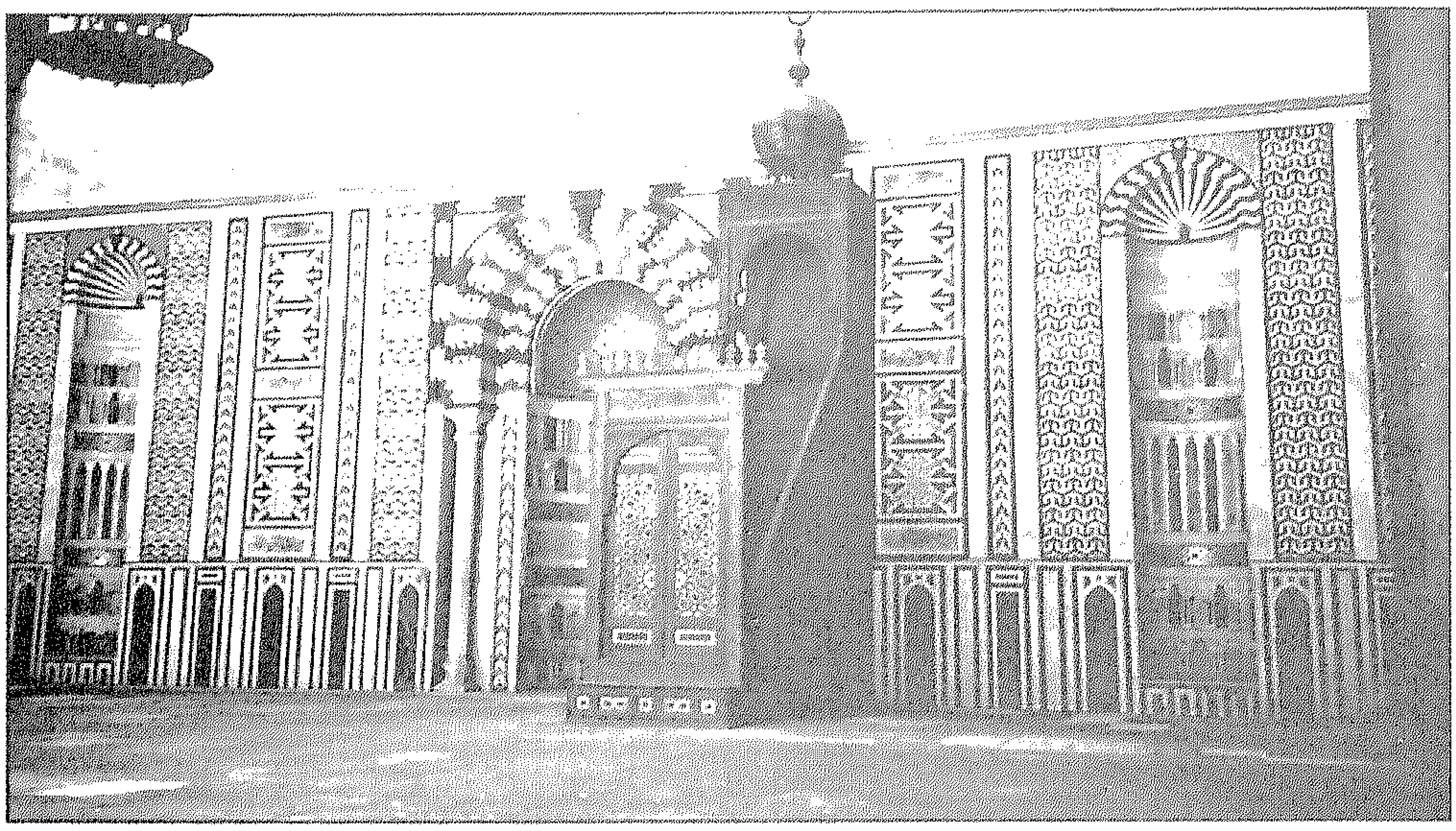

جامع الناصر محمد – المنبر والمحراب

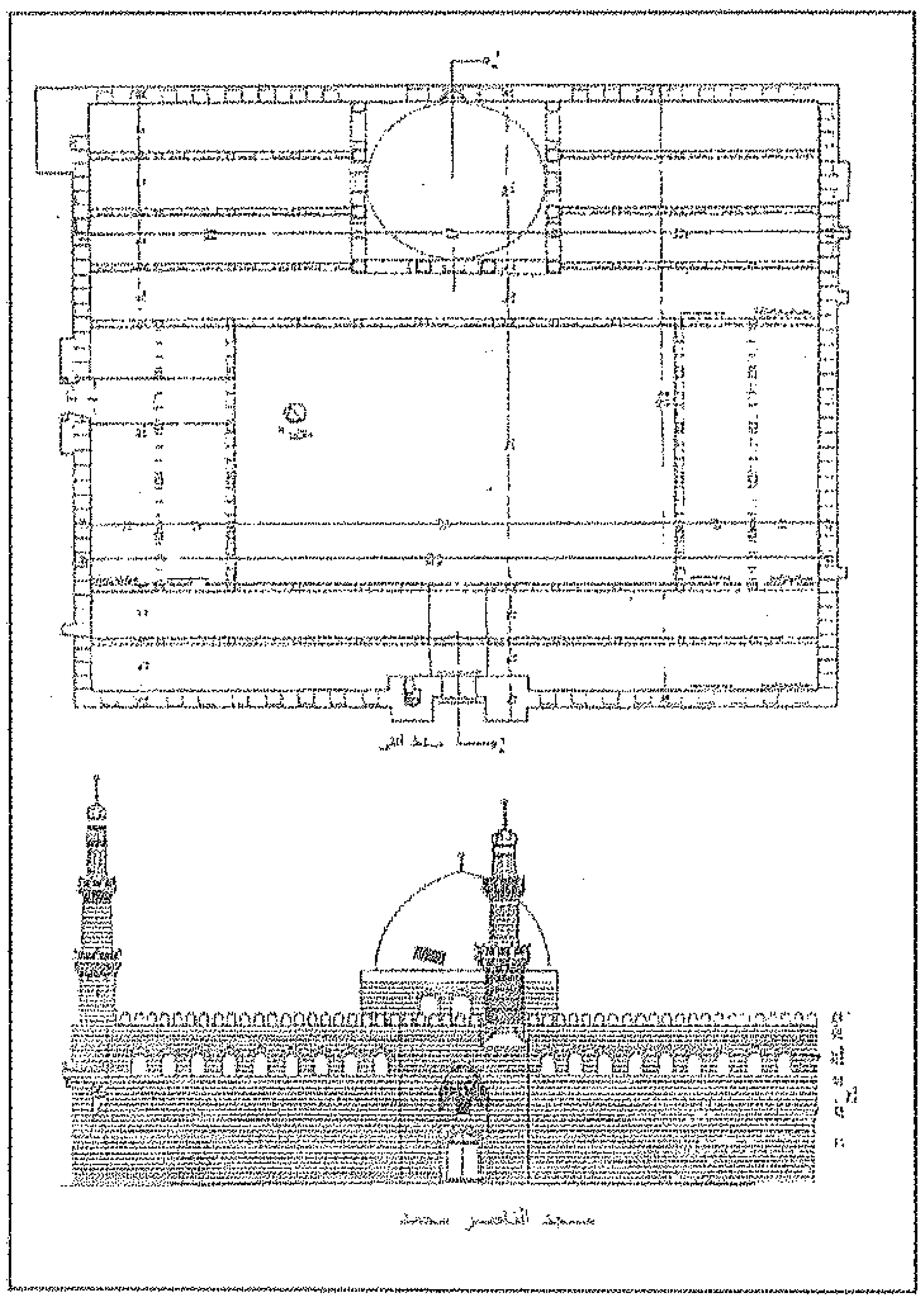

جامع الناصر محمد – مسقط أفقي وقطاع رأسي

ومسجد الناصر محمد فى صورته الحالية يتكون من مستطيل أبعاده ٥٧ X ٦٣م، ويتوسطه صحن مكشوف تحيط به أربع ظلات أكبرها ظلة القبلة، وتتكون من أربع بائكات تحصر فيما بينها أربعة أروقة موازية لجدار القبلة، وتتكون كل بائكة من عشرة أعمدة مستديرة ما بين رخامية وجرانيتية تحمل عقودا بشكل حدوة الفرس، وأُلغى عمودان من البائكة الثالثة والرابعة لإيجاد مساحة مربعة تتقدم المحراب تمت تغطيتها بقبة كبيرة، ويتوسط حائط القبلة المحراب المجدد حديثا يكتنفه محرابان جانبيان، وللجامع ثلاثة مداخل، أحدها فى الضلع الشمالى الغربي، وهو المدخل الرئيسى وكان يرتفع عن الواجهة، إلا أنه فى التجديد الثانى للناصر محمد صار بارتفاعها، والثانى فى الضلع الشمالى الشرقى وقد كان بارتفاع الواجهة وصار الآن أقل منها بعد التجديد الثانى للناصر[٢١]. والمدخل الثالث فى الضلع الجنوبى الشرقي، وهو الذى كان يؤدى إلى مقصورة المسجد، ومعظم من وصفوا المسجد ينسون هذا المدخل ولما كان لهذا المسجد صبغة رسمية، فقد ذكر لنا كل من العمرى والقلقشندى[٢٢] هيئة صلاة الجمعة به، فالعمرى يذكر "أن هذا السلطان – الناصر محمد – يخرج

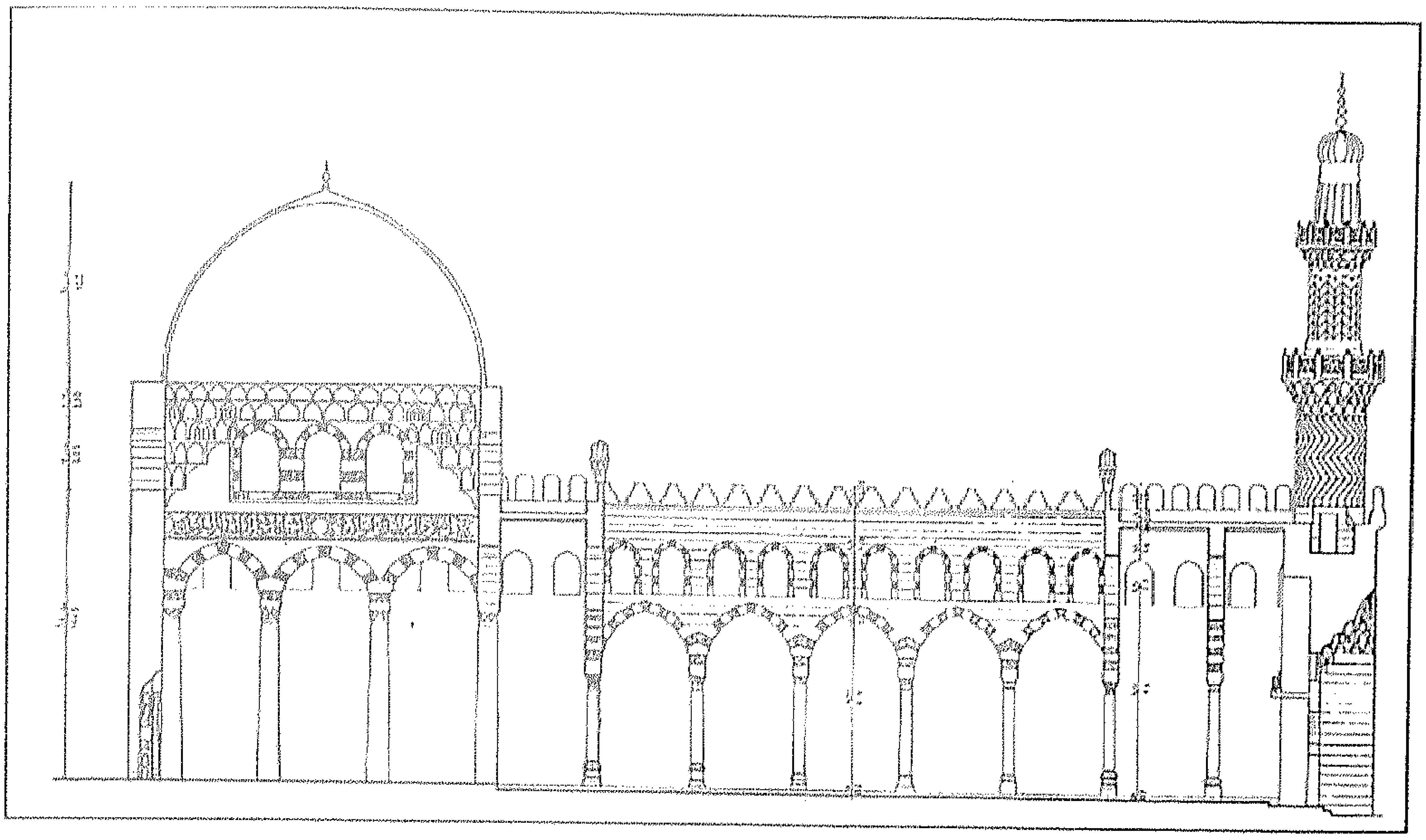

جامع الناصر محمد – قطاع رأسي

جامع الناصر محمد – المدخل الجنوبي الشرقي

أيام الجمع إلى الجامع المجاور لقصره فى القلعة، ومعه خاصة الأمراء، وتجيء بقية الأمراء من باب آخر للجامع. أما السلطان فيصلى على يمين المحراب فى مقصورة خاصة، ويجلس عنده أكابر خاصته، ويصلى معه الأمراء - خاصتهم وعامتهم - خارج المقصورة عن يمنتها ويسرتها على مراتبهم، فإذا سمع الخطبة وصلى صلاة الجمعة دخل إلى قصوره ... وتفرق كل واحد إلى مكانه".

وكان المسجد يستخدم أيضا فى صلاة العيدين فى بعض الأحيان نتيجة لاضطراب أحوال الدولة المملوكية، كما حدث حين نقل الظاهر برقوق الصلاة إلى مسجد القلعة[٢٣].

جامع المؤيد شيخ

ازدادت أهمية الإسطبلات السلطانية[٢٤] ومنطقتها منذ العصر المملوكي، وصاحب ذلك إنشاء العديد من المنشآت السلطانية بها، بخاصة مع إقامة كبار الأمراء بها.

وكان من الطبيعى إثر ذلك أن يشيَّد مسجد للصلوات الخمس بها، ويذكر المقريزى فى خططه وجود مسجدين بالإسطبل، أحدهما وهو مسجد الإسطبل لم يحدد لنا موقعه، ولا منشئه[٢٥] وربما كان هو المسجد الخاص بإقامة الصلوات فى الإسطبل.

والجامع الثانى شيده السلطان المؤيد شيخ ويعرف بجامع الصوة، ولم يرد ذكر هذا الجامع بوثيقة وقف المؤيد، ويصفه المقريزى بقوله "هذا الجامع فيما بين الطبلخانة السلطانية وباب القلعة المعروف بالباب المدرج، على رأس الصوة، أنشأه الأمير الكبير شيخ المحمودى، لما قدم من دمشق بعد مقتل الناصر فرج بن برقوق وإقامة الخليفة المستعين بالله سلطانا"[٢٦]. وجعل المؤيد شيخ أتابكا للعسكر ومدبرا للمملكة[٢٧]. أقام شيخ عندئذٍ فى منطقة الإسطبلات، حيث شيد دارا ليسكنها، ولكنه سرعان ما عزل الخليفة فى شعبان عام ٨١٥هـ/ ١٤١٢م.

وكانت داره هذه لم تستكمل بعد. فحولها إلى جامع وخانقاه، وأقيم به "صلاة الجمعة"[٢٨]. وعبارة المقريزى السابق ذكرها تفيد أنه لم يسبق أن أقيمت صلاة جمعة بالإسطبلات. واحتفظ هذا الجامع باسم منشئه إلى وقت الحملة الفرنسية[٢٩].

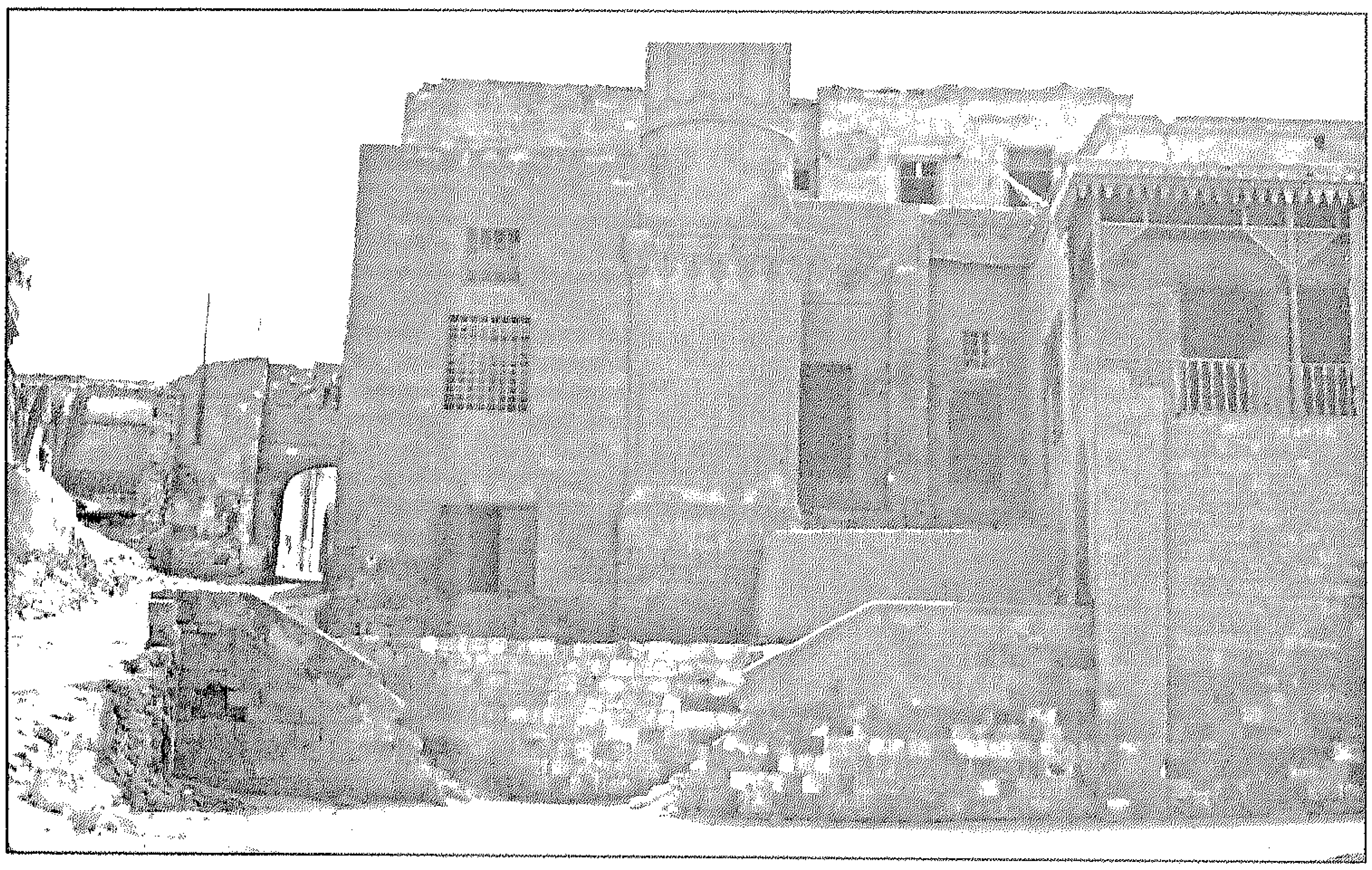

مسجد العزبان

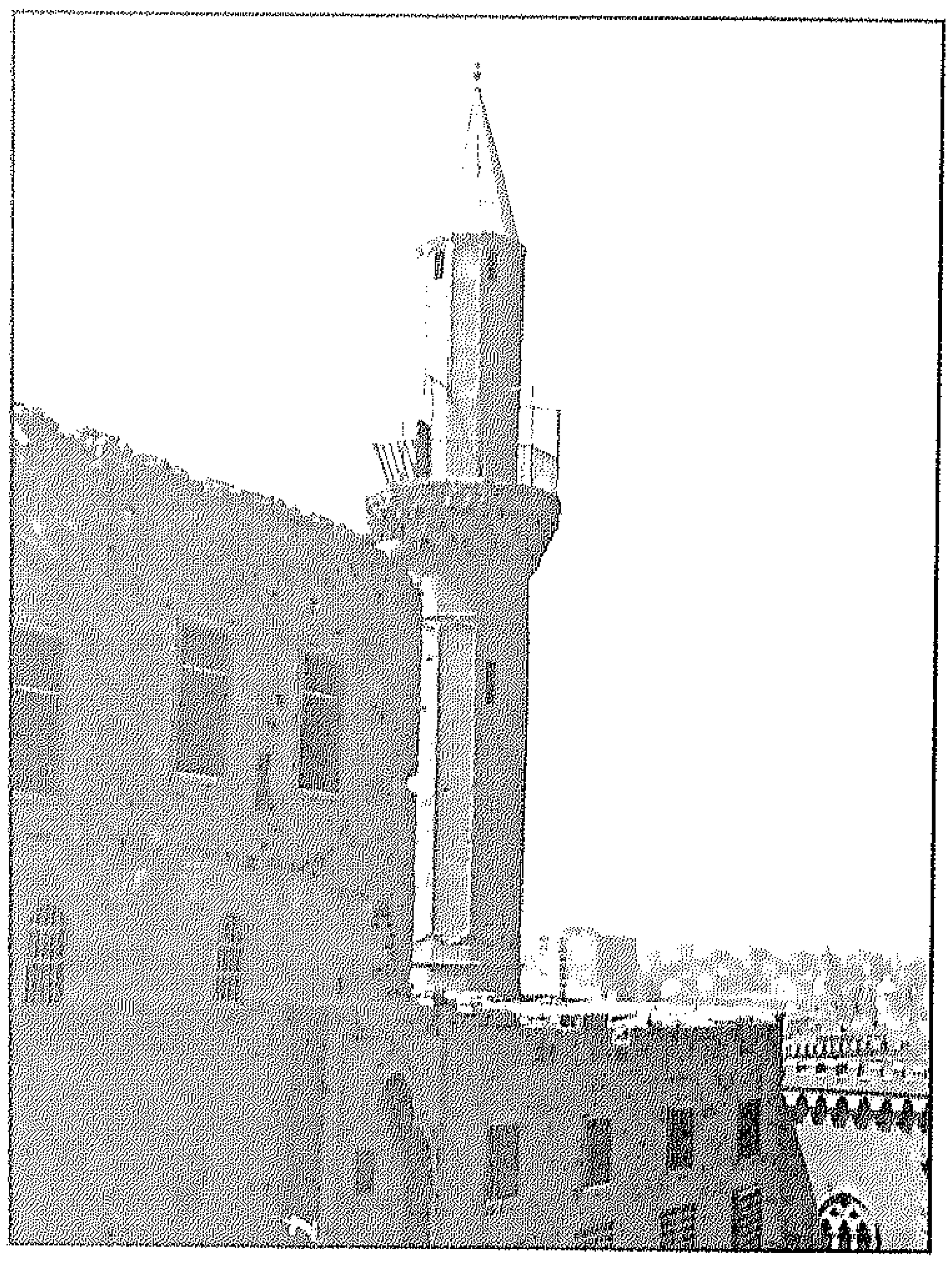

مسجد العزبان – المئذنة

ألحق المؤيد شيخ سبيلا وصهريجًا بهذا الجامع، وهو مغطى بقبة ضحلة، وتتقدمه سقيفة فى ضلعه الشمالى الغربى حيث المدخل، والأحجار المنحوتة به تفيد نسبة البناء إلى العصر المملوكى الجركسي[٣٠]. وقد قام أحمد كتخدا العزب بتجديدات به تمثلت فى تجديده للمدخل، وإضافة مئذنة له على الطراز العثماني. ويبدو أن مسجد المؤيد، قد صار فى حالة يرثى لها، حين جدده أحمد كتخدا إلى جامع تقام به صلاة الجمعة والصلوات لطائفة عزبان. كان ذلك عام ١١٠٩ هـ/١٦٩٨م[٣١].

جامع الحوش السلطانى (دارس)

أقام السلطان فرج بن برقوق، ثانى سلاطين العصر المملوكى الجركسى (٨٠٩-٨١٥هـ/١٤٠٦-١٤١٢م) مسجدا بالحوش السلطانى بالقلعة، أشار إليه المقريزى تحت اسم "جامع الحوش"، وأنه أقيم فى عام ٨١٢هـ/ ١٤٠٩-١٤١٠م وخصصه للخدام وأولاد الملوك من ذرية الملك الناصر محمد بن قلاوون[٣٢]، استمر هذا المسجد فى أداء هذه الوظيفة لحين مقتل السلطان فرج. كذلك أفاد ابن إياس[٣٣] أن السلطان فرج عمر الجامع داخل الحوش السلطانى بالقلعة، وهذا يدل على أن الجامع كان موجودا حتى بداية العصر العثمانى فى مصر. خصص هذا الجامع لأداء الصلوات الخمس وصلاة الجمعة لأسرة قلاوون خوفا من اتصالهم بأنصارهم فى المدينة، وإرجاع نفوذهم وسلطانهم مرة أخرى. وبالتالى كان للمسجد وظيفة سياسية. ولذا جعل المشرف على الجامع هو نفسه المشرف على القصور السلطانية، وتميزت عمارة هذا المسجد بالبساطة[٣٤].

جامع سارية الجبل

يقع هذا المسجد بالنطاق الشمالى للقلعة، فى الجهة الشمالية الشرقية، وهو أحد المساجد الفاطمية التى وجدها قراقوش عند تأسيس القلعة، ولم يهدمه وإنما أدخله ضمن نطاقها، ليكون أحد المساجد التى تؤدى بها الصلوات الخمس، شيد هذا المسجد أبو المنصور قسطة، وينزل إلى مدفن قسطة الذى لم يزل قائما بعدة درجات، ويوجد فوق مدخله نص تأسيس مؤرخ بسنة ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م[٣٥].

جاءت إعادة بناء هذا المسجد الذى يبدو أنه كان فى أول الأمر صغيرا فى المساحة ومتواضعا، على يد والي مصر العثمانى سليمان باشا، الذى ولى مصر سنة ٩٣١هـ/ ١٥٢٨م، واستمر واليا عليها لمدة تزيد على عشر سنوات، وكانت ولايته بعد فترة عدم الاستقرار فى مصر ومحاولات للاستقلال عن الدولة العثمانية من قبل المماليك الجراكسة. وكادت هذه المحاولات أن تنجح[٣٦]. وكان قد ترتب على الفتح العثمانى لمصر أن أسكن خاير بك إحدى فرق الجيش العثمانى النطاق الشمالى من القلعة لكى يمنع احتكاكها بالجند العزبان وهى طائفة من الجيش العثماني، وسكنت طائفة مستحفظان[٣٧] فى النطاق الشمالي، ولذا كان من الطبيعى أن يشيد مسجدهم على الطراز الذى اعتادوه فى الدولة العثمانية، وهناك دافعان لتأسيس هذا المسجد على طراز عثمانى صرف لم تعرفه مصر من قبل:

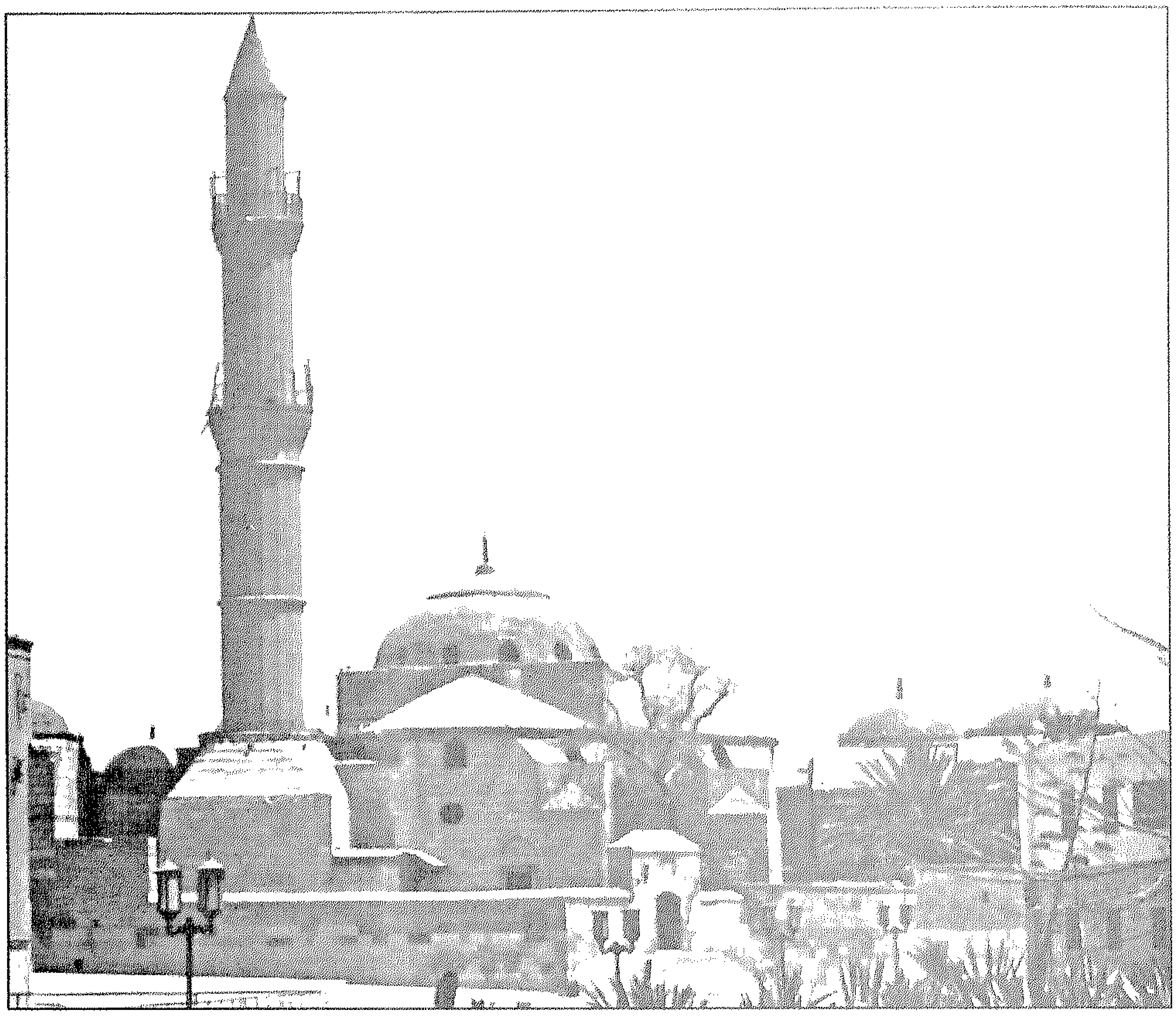

مسجد سارية الجبل – القلعة

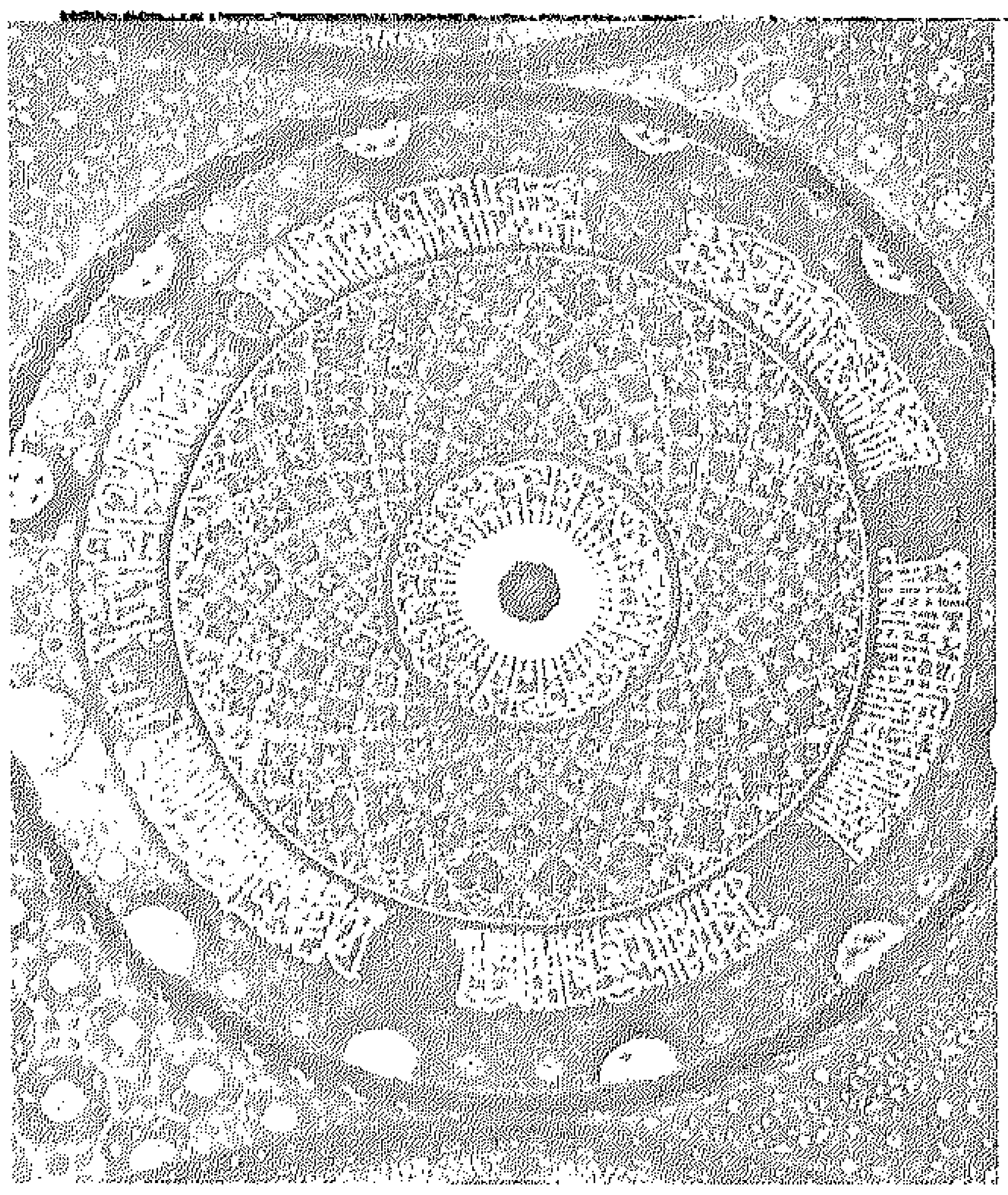

مسجد سارية الجبل – القبة من الداخل

أولهما: إثبات السيادة العثمانية على مصر والتى تعرضت لهزات عنيفة نتيجة للثورات المتتالية من قبل المصريين سواء كانوا جراكسة أو أهالى أو عزبان. ولعل ذلك هو السبب الذى من أجله حملت منشآت سليمان الخادم، الذى جاء واليا فى أعقاب هذه الفتن ألقاب السلطان سليمان القانوني[٣٨]. وفى المدرسة السليمانية بالقاهرة التى أنشأها الوالى نفسه حملت ألقاب السلطان سليمان صفات تدل على التبعية والخضوع المصرى والعربى للسلطان سليمان وهى "مولى ملوك العرب والعجم الأكاسرة قامع أعناق الفراعنة الغازى فى سبيل الله"[٣٩].

ثانيهما: رغبة سليمان باشا فى خلق بيئة عثمانية فى القلعة لطائفة مستحفظان، والتى أتى عدد منهم قبيل ولايته لتثبيت النفوذ العثمانى فى مصر[٤٠].

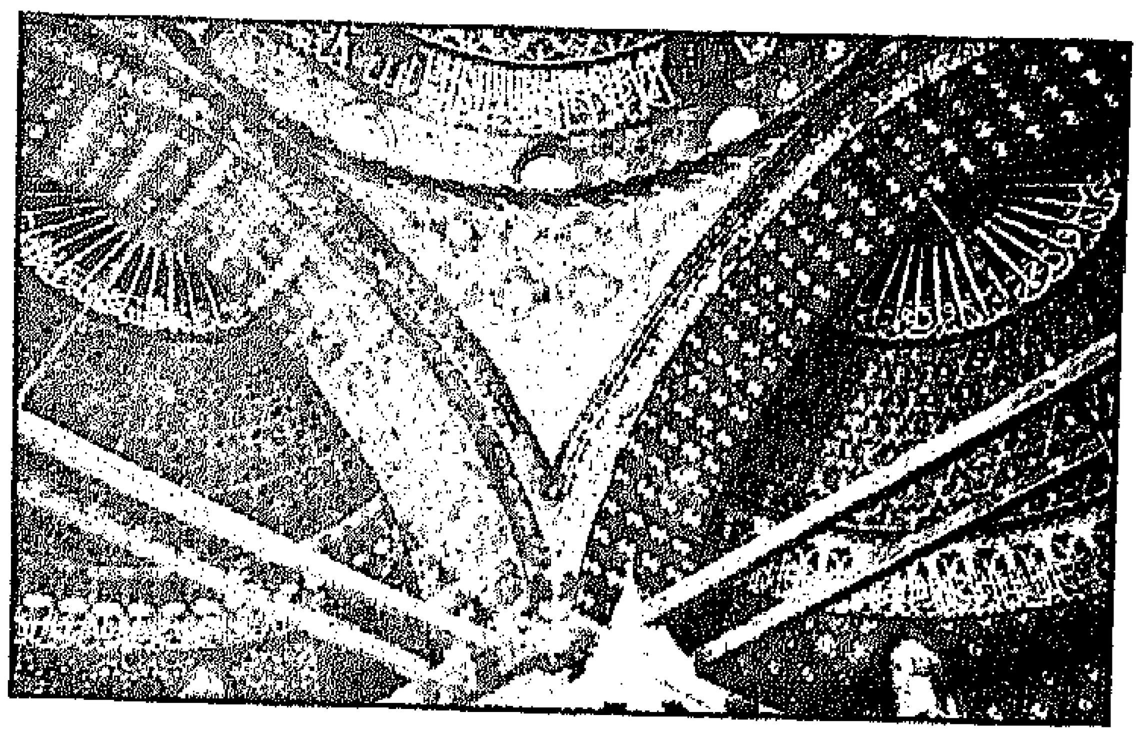

مسجد سارية الجبل – مثلث كروى حامل للقبة

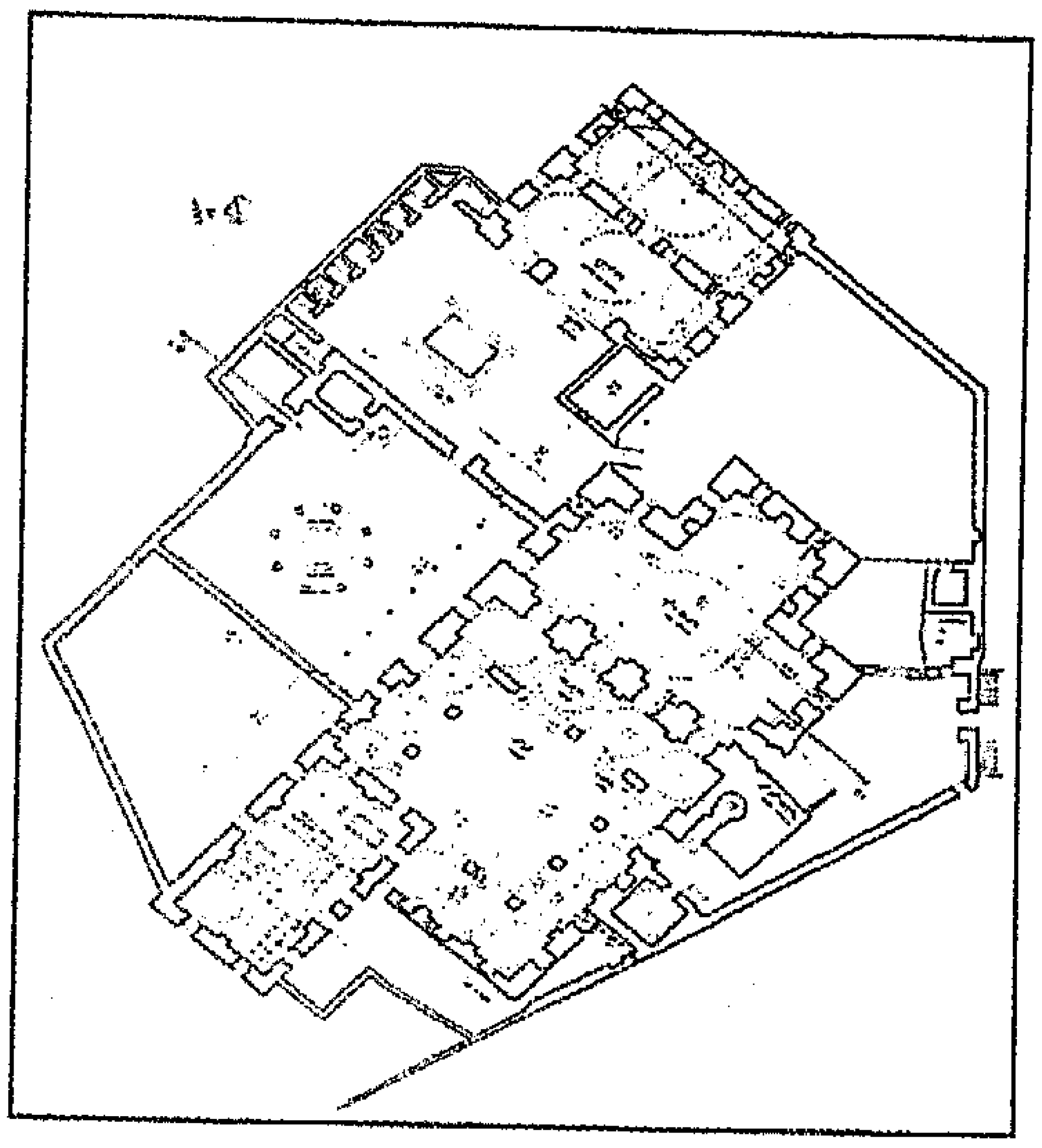

مسجد سارية الجبل – مسقط أفقي

وهناك جدلية لابد من طرحها؛ جدلية التصميم العثماني والتنفيذ الدقيق له، وهو ما لم تعهده مصر، ولذا نرجح أن المسجد صمم فى ديوان الأبنية فى إستانبول الذى يرأسه "معمار باشا "وتم تنفيذه فى مصر تحت إشراف أحد المعماريين العثمانيين[٤١]. ولوحظ تأثر الزخارف الرخامية فى المحراب وأرضية المسجد وجدرانه وبعض الزخارف الكتابية بالطراز الزخرفى المملوكي[٤٢]، وهو ما يعني مشاركة صناع مصريين فى عمارة هذا المسجد، وأنه ترك لهم مساحة من الحرية فى تنفيذ زخارفه. علما بأن سليمان باشا شيد أيضا مدرسة بالقرب من مسجد قوصون بالقاهرة على الطراز العثماني، وكذلك جامعًا ببولاق على

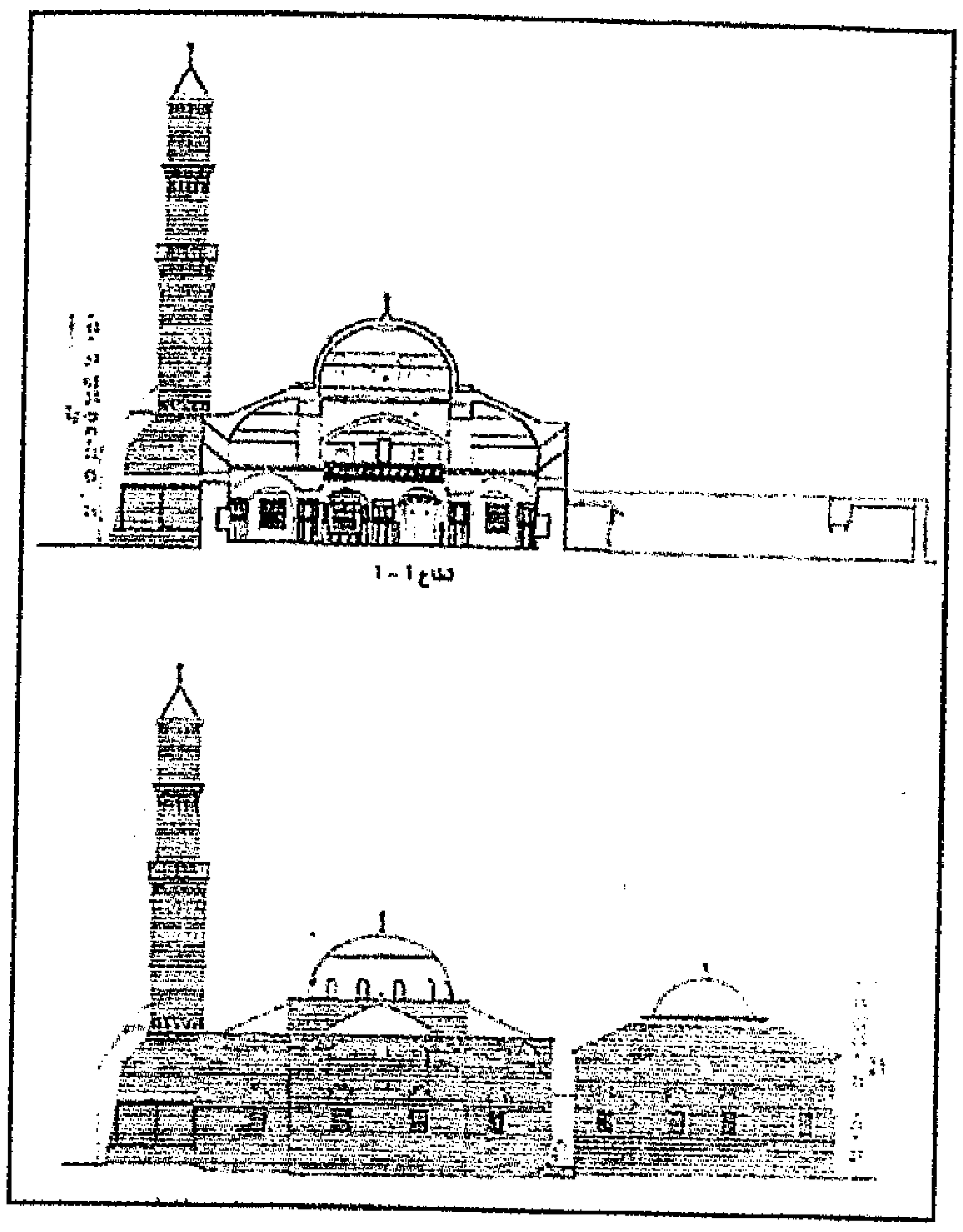

مسجد سارية الجبل – قطاعان رأسيان

الطراز نفسه[٤٣]. يتكون هذا المسجد من جزأين رئيسيين أحدهما مغطى وهو بيت الصلاة، والآخر رواق حول الصحن المكشوف ويسمى الحرم، ويتكون بيت الصلاة من مساحة مربعة تقريبا يحيط بها من ثلاث جهات – عدا الجهة الشمالية الغربية – ثلاثة إيوانات أعمقها إيوان القبلة، وهو ليس أوسعها، وتغطى المساحة المربعة الوسطى قبة مركزية محمولة على مثلثات كروية بالأركان. أما الإيوانات الثلاثة الأخرى، وهى الجنوبية الغربية والشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية فتغطيها ثلاثة أنصاف قباب محمولة هى الأخرى على مثلثات كروية حصرت فيما بينها هيئة عقد مدبب شكلت صدر الإيوان وجانبه. هذا وقد اختزل الإيوان الرابع ليكون عقدا وذلك ليكمل هيئة العقود الأربعة التى تحتوي على المثلثات الكروية التى ترتكز عليها القبة الوسطى المركزية.

والكتلة الثانية من المسجد عبارة عن صحن أوسط تحيط به أربع ظلل تتكون كل منها من بائكة واحدة تحوى رواقًا واحدًا يشرف على الصحن من خلال ثلاثة

عقود. وغطيت هذه الظلل الأربع بقباب ضحلة. ويضم المسجد مدفنا يقع فى الركن الشمالى من الحرم، ويعترض مسار البلاطة الملتفة بكل من الظلتين الشمالية الغربية والشمالية الشرقية، ويحوى هذا المدفن بداخله مجموعة من التراكيب وشواهد القبور العثمانية، كما أنه يحتوى على النص التأسيسى لمسجد أبى منصور قسطة.

جاءت مئذنة الجامع منفصلة عن كتلة المبنى ويبدأ سلمها من الطابق الأرضي، وهى ملاصقة للمدخل الرئيسي، وهى ذات قاعدة مربعة قليلة الارتفاع تتصل بالبدن المستدير الخالى من الزخارف، ومنطقة الانتقال عبارة عن مثلثات منزلقة لأسفل ويصعد هذا البدن لأعلى بدورتين ترتكز كل منهما على مجموعة من المقرنصات ذات الشكل الكأسي، ويتوج هذه المئذنة قمة مخروطية الشكل. وكان المنشئ قد ألحق بالمسجد حديقة خلف المحراب، وشاذروانًا لوضوء المصلين خارج الجامع من الجهة الغربية يماثل طراز المساجد العثمانية المبكرة فى بروسة[٤٤].

دار العدل

يمثل العدل جوهر الشريعة الإسلامية الذى من أجله كان مرجع أمر البشر إلى أحكام الله، لأن احتكام البشر إلى أحكام البشر قد يؤدى إلى ظلم حيث يصوغ الإنسان من الأحكام ما يتوافق مع هواه، وكان للظلم مسالكه فى المجتمعات الإسلامية، بخاصة من الولاة وذوى النفوذ، ولذا نشأ ديوان المظالم أو نظر المظالم فى الإسلام. يعرف نظر المظالم بأنه "قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة". وهى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين، وتزجر المعتدى، و كأنه يمضى ما عجز القضاة وغيرهم عن إمضائه[٤٥].

تختلف المصادر الإسلامية فى تحديد أول من جلس جلوسا عاما مخصصا للنظر فى المظالم من الخلفاء. فالبعض كمالك بن أنس اعتبر أنه كان معاوية ابن أبى سفيان، الخليفة الأموى الأول، والبعض الآخر كالماوردي، اعتبر أن عبد الملك بن مروان هو أول من (أفرد للظلامات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين)، أما البعض الآخر فقد نسب الجلوس إلى عمر بن عبد العزيز. وقد داوم بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين بعدهم، وحكامهم فى الولايات على الجلوس للنظر فى المظالم لكى يصبح واحدا من رموز السلطة السياسة والشرعية الخليفية، بخاصة بعد منتصف القرن الثالث الهجري/ الثلث الأخير من القرن التاسع الميلادي، بعد أن فقد الخليفة العباسى قوة السلطنة وشوكتها لحساب المتسلطين البويهيين والسلاجقة. ولاحظ رضوان السيد أن الأقوياء ومتسلطى الإرادة من الخلفاء العباسيين المتأخرين، كالمهتدى (٢٥٥ – ٢٥٦ هـ/٨٦٨ – ٨٦٩م). الذى حاول استعادة السلطة من الأمراء الأتراك ولكنه فشل، والمقتفى احمد (٥٣١ – ٥٥٥هـ/١١٣٦ –١١٦٠م). والناصر (٥٧٦ – ٦٢٢هـ/ ١١٨٠– ١٢٢٥م) اللذين استعادا للخلافة بعض هيبتها إثر تراجع السيطرة السلجوقية، قد اهتموا بمجالس المظالم كدليل على مشروعية خلافتهم الدينية والسياسية ولتأكيد فاعلية سيطرتهم على شئون الدنيا والدين معا، وكذلك بالنسبة لبعض الولاة الأقوياء، كأحمد بن طولون ٢٥٤ – ٢٧٠هـ/ ٨٦٨ – ٨٨٤م، وكافور الإخشيد ٣٥٥ – ٣٥٧هـ/ ٩٦٦ – ٩٦٨م فى مصر، اللذين جلسا بنفسيهما للنظر فى المظالم كرمز لاستقلالهما بالسلطة عن الخليفة فى بغداد من خلال استئثارهما بوظائفه ومهامه[٤٦]. وشهد القرن الخامس الهجري/ الحادى عشر الميلادى تبلور النقاش حول النظر فى المظالم وإقامة مجالس العدل كجزء من مهام السلطان السياسية[٤٧]. وعلى الرغم من ذلك لم يفرد أى من الخلفاء والسلاطين مبنى خاصا لجلسات النظر فى المظالم، إنما كانوا يجلسون فى أماكن مختلفة، تارة فى ردهات القصور وتارة فى قاعات العرش وتارة فى باحات الجوامع أو أواوين المدارس. ثم أتى نور الدين محمود بن زنكى (٥٤١ –٥٧٠هـ/ ١١٤٦ – ١١٧٤م) ليستن سنة جديدة فى إقامة مبنى خاص لدار عدله فى دمشق. وسار خلفاؤه من الأيوبيين والمماليك فى سورية

ومصر عليها حتى عهد الناصر محمد بن قلاوون. وبنوا ست دور عدل أخرى على الأقل، ثم عادت الحال إلى سابق عهدها، وعاد سلاطين المماليك إلى عقد جلسات دار العدل، إن هم فعلوا، فى قاعات مختلفة فى قصورهم، وكذلك فعل حكامهم فى بلاد الشام[٤٨].

يتفق ظهور وارتقاء دار العدل كمنشأة معمارية مستقلة مع حدثين تاريخيين جليلين فى العالم الإسلامي. أولهما هو الرد الإسلامى على الغزوة الصليبية الأولى التى ابتدأت قبل نصف قرن من الزمن ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م، ذلك الرد الذى بدأه زنكى بن أق سنقر ٥٢١ - ٥٦٠هـ/ ١١٢٧ - ١١٦٤م. ثم نظمه وأججه نور الدين واستلم لواءه منه صلاح الدين، وثانيهما هو النهضة الإسلامية بعد الصدمة المغولية التى قضت على الخلافة العباسية فى بغداد عام ٦٥٦هـ /١٢٥٨م. وهددت بقاء الإسلام نفسه، تلك النهضة التى قادها سلاطين المماليك بدءا بالمظفر قطز (٦٥٧- ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩- ١٢٦٠م). فالظاهر بيبرس (٦٥٨- ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠- ١٢٧٦م). مرورا بقلاوون الألفى (٦٧٨- ٦٨٩ هـ/ ١٢٨٠ - ١٢٩٠م). وابنه الأشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٣هـ/ ١٢٩٠ - ١٢٩٤م)، وانتهاءً بابنه الثانى الناصر محمد. أما المدن الثلاث التى شهدت إقامة دور العدل، دمشق وحلب والقاهرة فهى بذاتها عواصم الملوك الذين قادوا الجيوش الإسلامية فى مواجهة الصليبيين والمغول ابتداءً من نور الدين محمود، هذه المدن الثلاث أضحت بعد موت نور الدين عواصم أيوبية، بدءا بصلاح الدين الأيوبى الذى قسم ممتلكاته بين أبنائه وأبناء إخوته، ومرورا بالعادل أبى بكر وأبنائه. وفى القرن الثالث عشر تحولت هذه المدن إلى السلطة المملوكية، واتخذ سلاطين المماليك قلعة الجبل بالعاصمة المصرية مقرا لحكمهم، ودمشق وحلب عواصم إقليمية. وخلال الفترة كلها ما انفكت حركة الجهاد مستمرة فى العواصم الثلاث، ولم تهدأ حتى منتصف القرن الرابع عشر مع تراجع المد الإيلخاني، وتحول حكام الدولتين المغوليتين، فى فارس والقبيلة الذهبية فى جنوبى روسيا إلى الإسلام وجنوحهما إلى السلام. ولا يمكن التأكيد بأن علاقة مباشرة، أحادية، واضحة ومؤكدة بين ظهور دار العدل وتأجج حركة الجهاد وحروب الاستعادة وإيقاف المد المغولي، ولكن التوافق النظرى بين هاتين الظاهرتين، بالإضافة إلى عوامل اجتماعية وثقافية أخرى، يدفع للتأمل فى الربط بين التطور المعمارى والمؤسساتى لدار العدل وبين الأحداث التاريخية المتقدة حولها، والتى أحاطت بنشوئها، من عسكرية وسياسية وعقائدية وحضارية، واقتراح تفسير لهذا التوافق، ويبدو أن دار العدل قد فقدت مبرر وجودها كمؤسسة مستقلة وكنموذج معمارى من مفردات العمارة الإسلامية[٤٩]. كانت دارا العدل في دمشق وحلب[٥٠] خارج القلعة، وإن كانتا تقعان فى محيطهما. وهو يعزز العلاقة بين دارى العدل والسلطة العليا فى الدولة. أما دار العدل فى مصر فكانت دائما منذ عصر الكامل بن العادل جزءًا من مقومات قلعة الجبل كمقر للحكم.

دار العدل بمصر

كانت قلعة الجبل آخر الحواضر الأيوبية التى حازت على دار عدل خاصة بها، فقد بنى الكامل محمد بن العادل دار عدل داخل النطاق الجنوبي، ثم جاء الظاهر بيبرس ليبنى دار عدل ثانية عام ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٣م فى منطقة الإسطبلات السلطانية، وكانت دار العدل الظاهرية فيما يبدو ذات واجهة مفتوحة على الميدان المجاور للقلعة وسوق الخيل. ولم يستعمل الظاهر بيبرس دار عدله لجلسات نظر المظالم فقط، وإنما قعد بها أيضا أيام العروض العسكرية ليشهد فصائل فرسانه ومماليكه تمر أمامه من الميدان بمحاذاة أسوار القلعة[٥١]. ولما تولى قلاوون السلطة عام ٦٧٨هـ/ ١٢٨٠م انتقل مركز دار العدل إلى النطاق الجنوبي، حيث بنى دار عدل جديدة، ولكن قلاوون نفسه لم يجلس فى دار عدله تلك لأنه كان أغتم، أى لا يتقن العربية، لهذا فقد فوض نظر دار العدل لواحد من كبار أمرائه الذى يتقنون لغة البلاد ويعرفون عاداتها: "لاجين"، الذى أصبح سلطانا بدوره، واتخذ نفس لقب أستاذه، المنصور، وبعد قلاوون جاء ابنه الأشرف ليهدم قبة أبيه، أو إيوانه، حيث إن الكلمتين كانتا تستعملان

بالتبادل فى مصادرنا للدلالة على المبنى نفسه، ويبنى مكانه الإيوان الأشرفى الذى ما برح مستخدما كدار عدل حتى مجيء الناصر محمد الذى هدم إيوان أخيه بدوره وأعاد بناءه ثانية[٥٢]. هذه السلسلة من الهدم وإعادة البناء لمنشأة واحدة فى القلعة خلال نصف قرن فقط إن دلت على شيء، فهى تدل على طموح السلاطين لأن يكونوا أصحاب أكثر الأبنية أبهة وأهمها وظيفيا وأقربها إلى الرعية: دار العدل[٥٣]

ومن اللافت للنظر استخدام اصطلاحى قبة وإيوان لمنشأة واحدة، وهو ما يثير العديد من التساؤلات حول هذا التبادل الاصطلاحي:

لعل أول هذه التساؤلات وثانيها: هل الإيوان[٥٤]، هو الغالب فى عمارة دار العدل الأشرفية والناصرية، وما هى علاقة الإيوان بدار العدل كمنشأة ؟ وثالث هذه التساؤلات لماذا استخدمت القبة فى تغطية المساحة الرئيسية لدار العدل؟ وهل للقبة قيمة سلطوية رمزية ؟

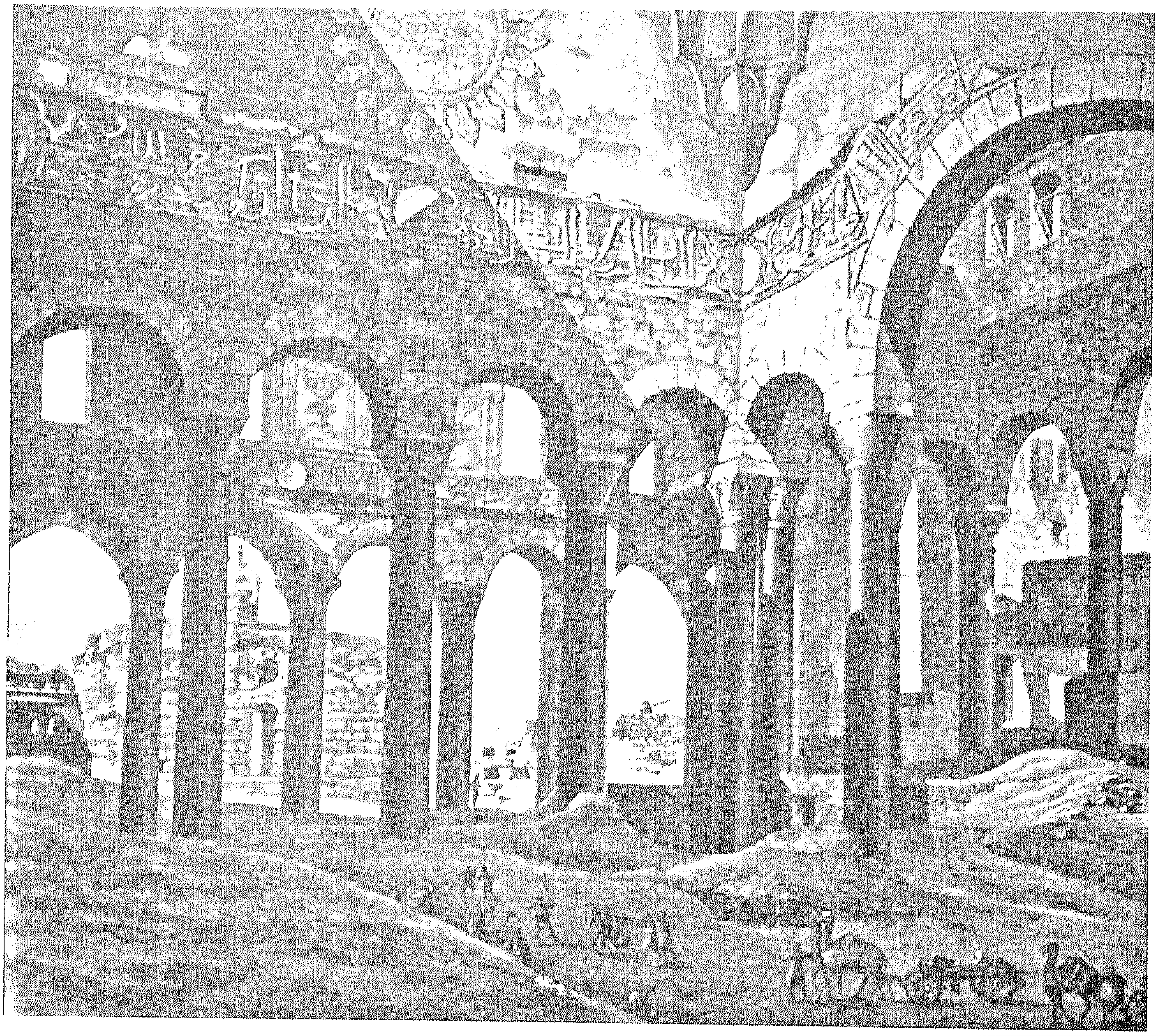

الإيوان الناصرى من الداخل (وصف مصر)

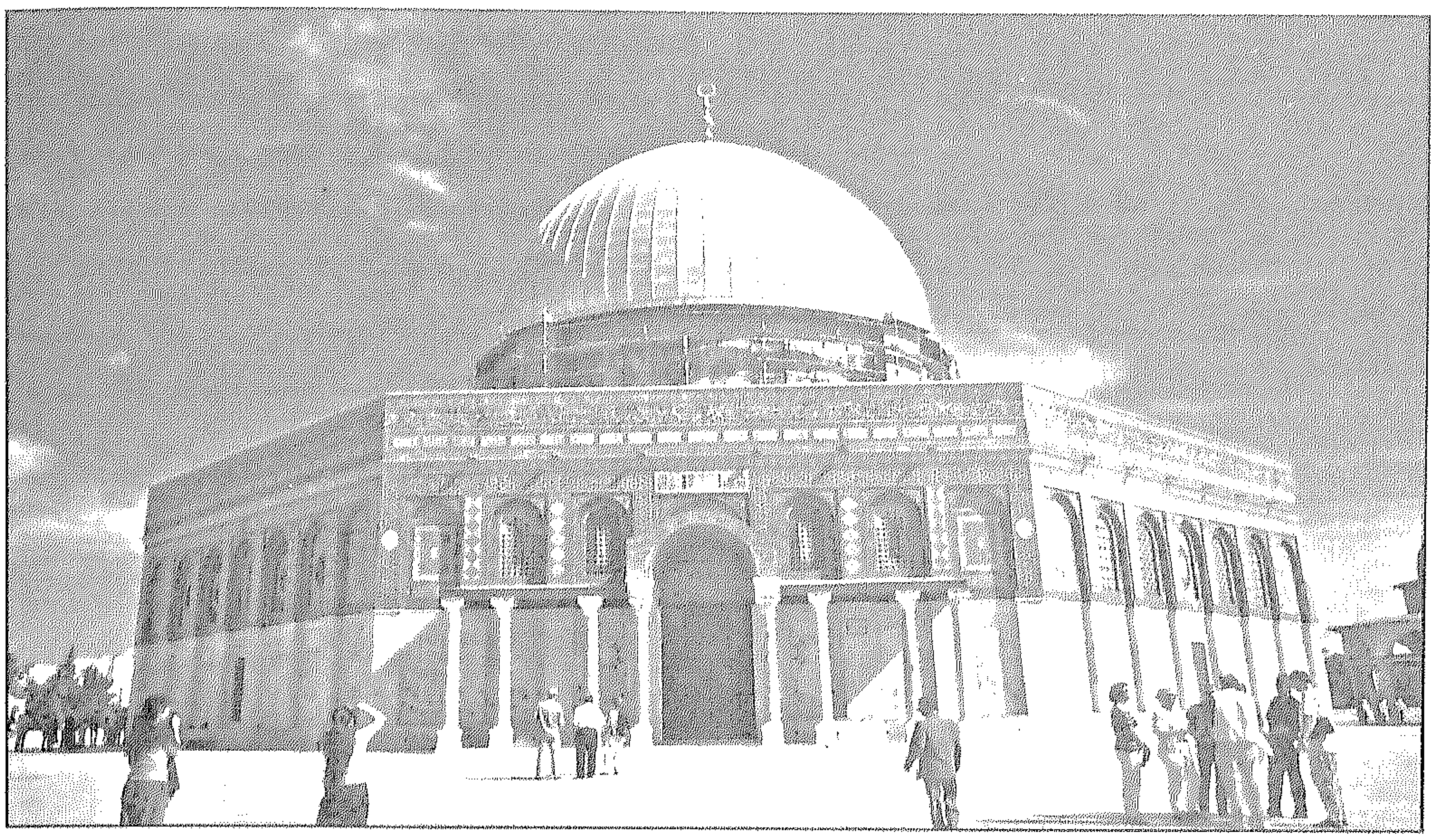

قبة الصخرة

لعل أول ما يمكن طرحه عند الإجابة عن هذه التساؤلات أن كلمة إيوان كلمة فارسية معربة من "إيفان" وتعنى لغويا قاعة العرش[٥٥]. ولما كانت دار العدل هى مقر العرش المملوكى فمن الممكن أنه أطلق عليها إيوانًا لهذا السبب بخاصة مع قوة التأثيرات اللغوية الفارسية والتركية فى ذلك العصر فى مصر. ولما كان لفظ الإيوان اصطلاحا مملوكيا يعنى وصفا معماريا لمنشأة ذات أوصاف محددة،

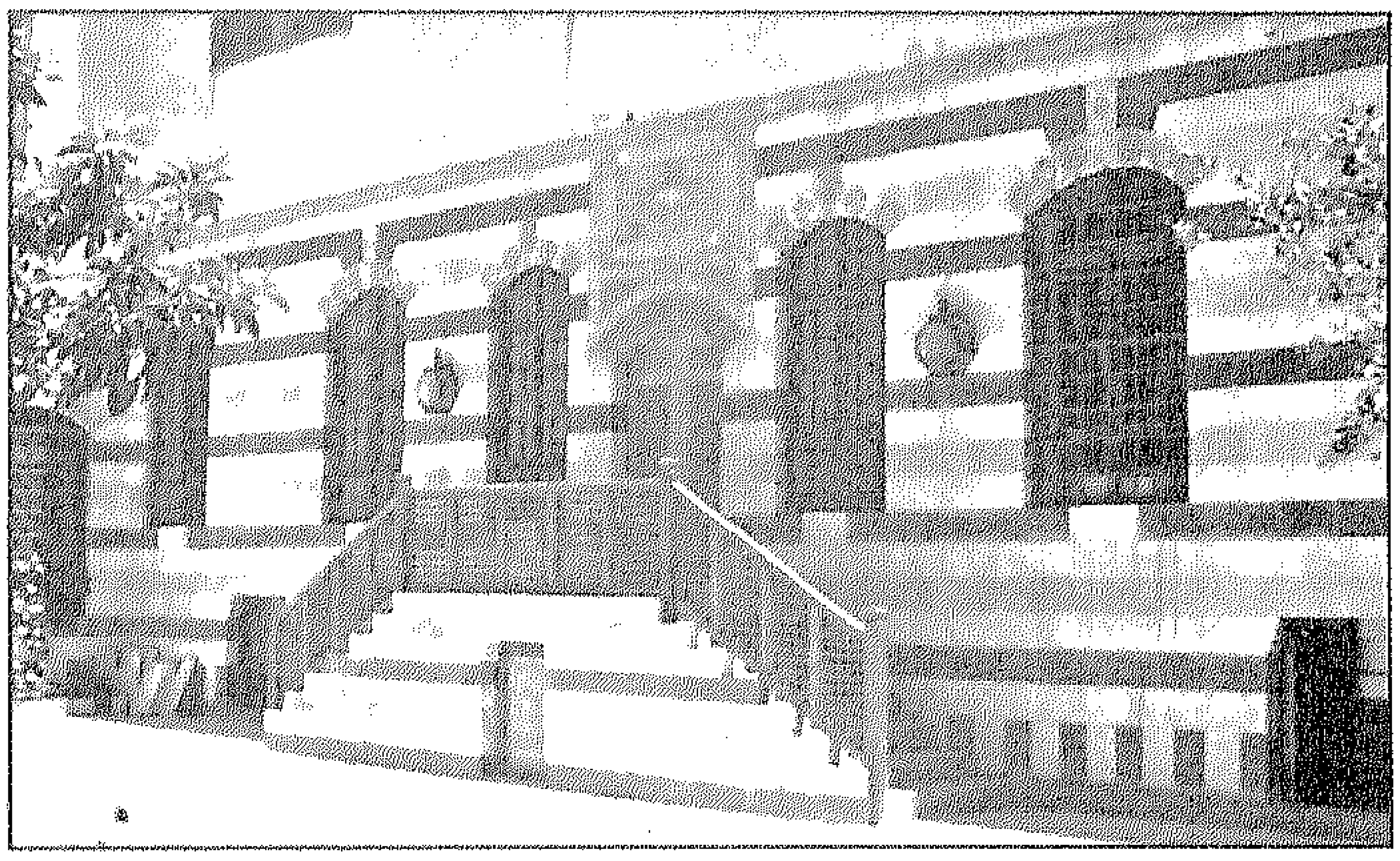

قصر العظم - دمشق

فذهب ناصر الرباط إلى أن التبادل الاصطلاحى فى إطلاق اصطلاحى قبة وإيوان فيما يخص دور العدل بدءا من الظاهر بيبرس فقلاوون، وبعدهما دار عدل الأشرف خليل لاحتواء كل منها على إيوان وقبة[٥٦]، ربما خلف الإيوان. وهو يرى أن ذلك يعطينا فكرة عن ترتيبها المعماري، ويجعلنا قادرين على الربط تاريخيا ونوعيا بينهما وبين الإيوان الكبير الذى حل محلهما. والذى بناه الناصر محمد على مرحلتين.

كان إيوان الناصر تتوسطه قبة مركزية يتقدمها مساحة ربما كانت مغطاة بقبو أو بسقف مسطح، وتفتح على القبة بثلاثة أبواب وهى ذات واجهة بها ثلاثة عقود أكبرها أوسطها، وهذه الواجهة تذكرنا بواجهة إيوان مدرسة المنصور قلاوون، وهذا يعنى أن المساحة التى تتقدم القبة يطلق عليها الإيوان، وغلب اسم الكل على الجزء. وهذا احتمال يمكن أخذه فى الاعتبار. وكان الإيوان له مدلول تاريخى على واحد من أكبر منشآت العروش السلطانية، وهو إيوان كسرى الذى يقع فى المدائن، شمالى بغداد، وأطلق اصطلاح الإيوان على قصر الحكم الساسانى فى

المدائن، وهو من باب إطلاق اسم الجزء على الكل ويبدو أن هذا طبق أيضا على دار العدل بالقلعة.

وكان للقباب مدلول سلطوى منذ فترة مبكرة فى العمارة الإسلامية، وأشهر هذه القباب قبة الصخرة التى أقيمت على مرتفع بالمدينة لتبرهن على إسلامية المكان والمدينة، ومنذ القبة الخضراء فى دمشق التى عمرها معاوية بن أبى سفيان كدار إمارة حوالى عام ٣٠هـ/ ٦٥٠م، والتى ربما كان بعض موقعها قصر العظم الحالي[٥٧]. والقباب الخضراء اللاحقة، أموية كانت أو عباسية فى الرصافة وواسط وبغداد فى قصر أبى جعفر المنصور فى وسط المدينة تعد رمزا لمقر الحكم، ومن هنا اكتسبت قبة الإيوان الناصرى رمزيتها السلطوية ولونها الأخضر. وبذلك كانت القباب فى العمارة الإسلامية رمزا للاستعلاء والسيادة السلطوية، كما كانت فى كثير من الأحيان دالة على العمارة الجنائزية لذوى السلطة والنفوذ. وشيئا فشيئا صار اصطلاح القبة دالّاً على الأضرحة السلطانية ولذا يبدو أنه على الرغم من هيمنة القبة على دار العدل الناصرية معماريا، فإن استخدام القباب على العمائر الجنائزية كان أحد الأسباب التى أدت إلى غلبة اصطلاح الإيوان على دار العدل[٥٨].

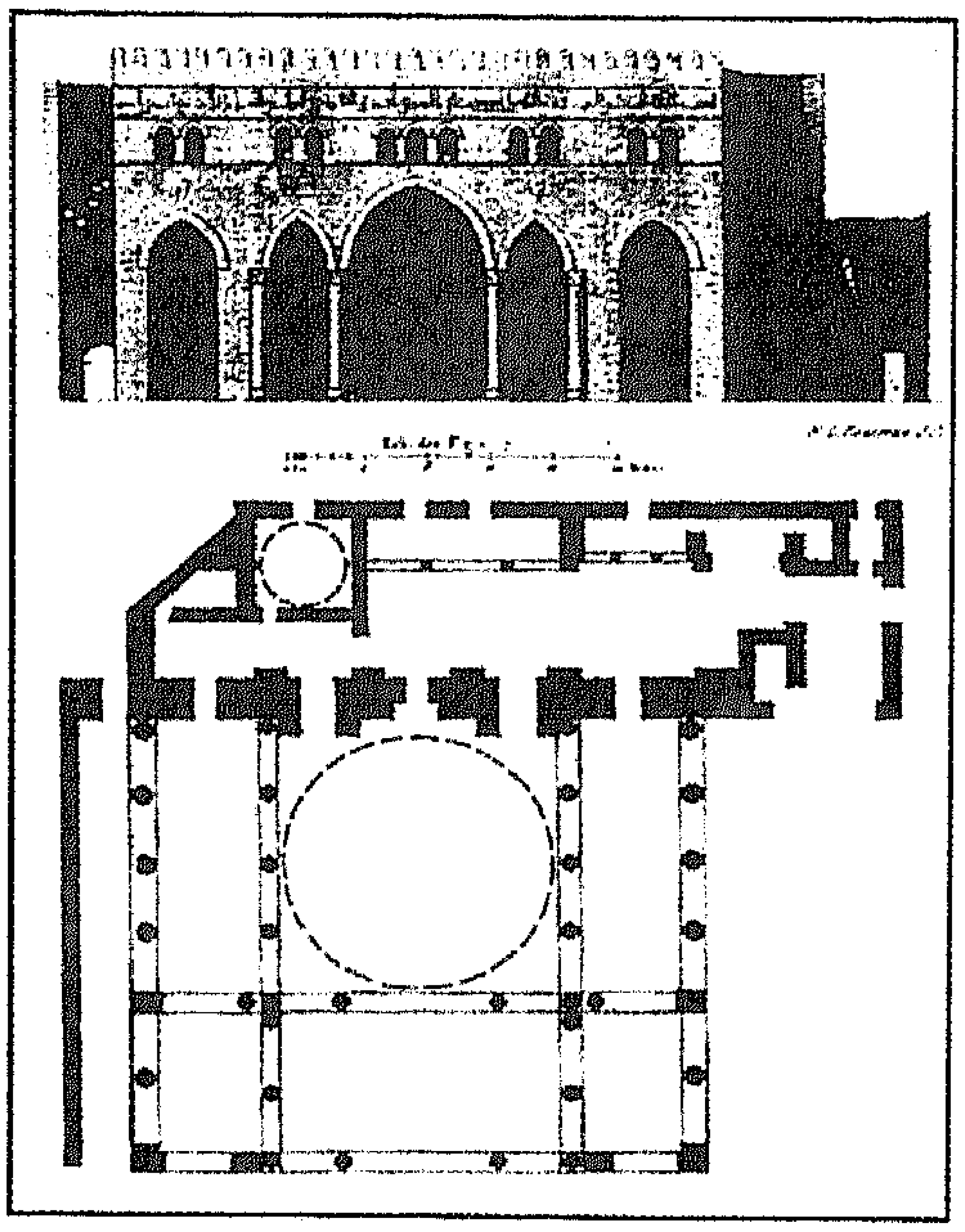

الإيوان الناصرى – التخطيط والوصف (وصف مصر)

الإيوان الكبير

أعاد الناصر محمد بن قلاوون بناء الإيوان مرتين، الأولى سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م، والثانية سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م.

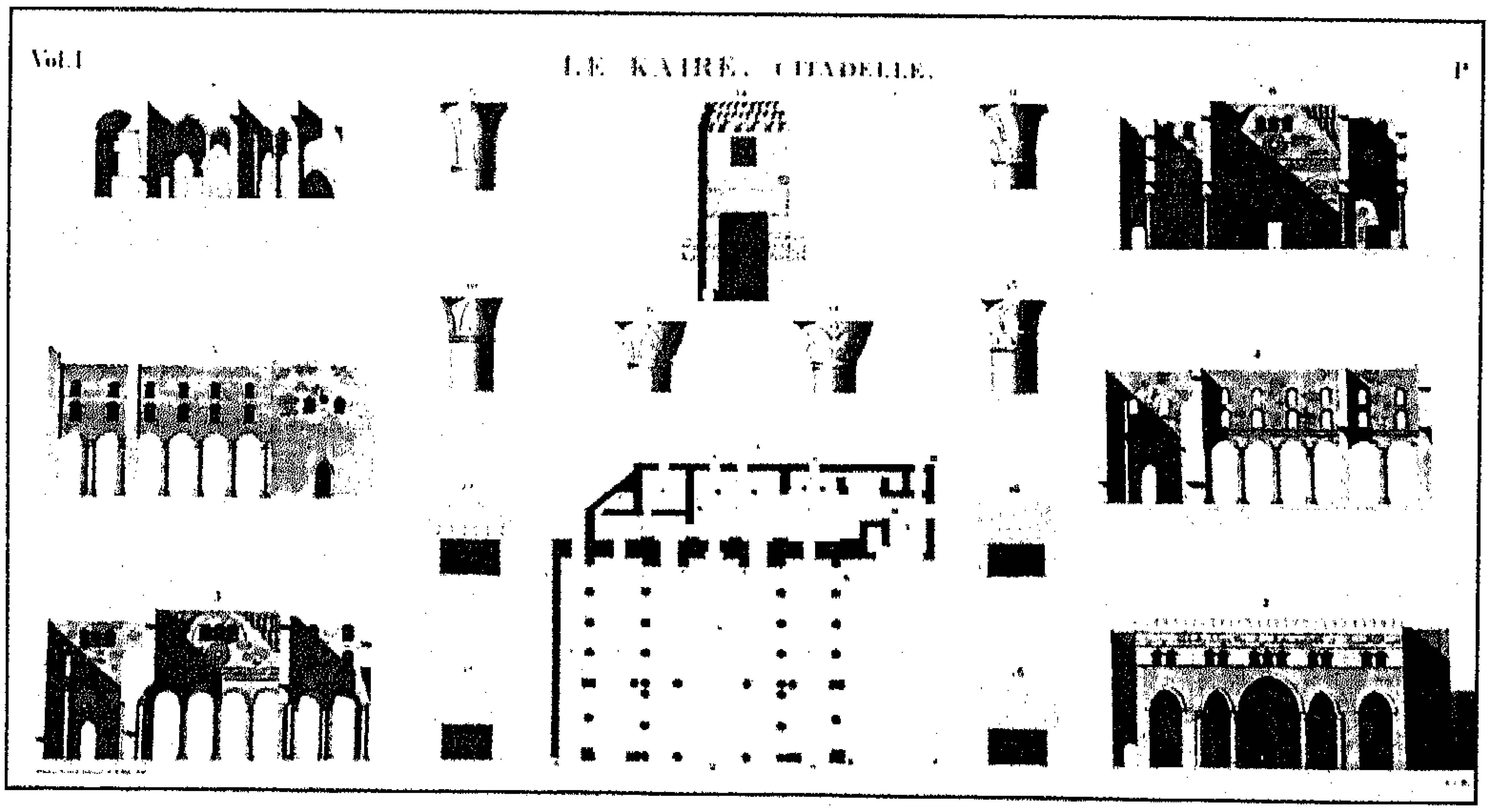

الإيوان الناصرى – تفاصيل (وصف مصر)

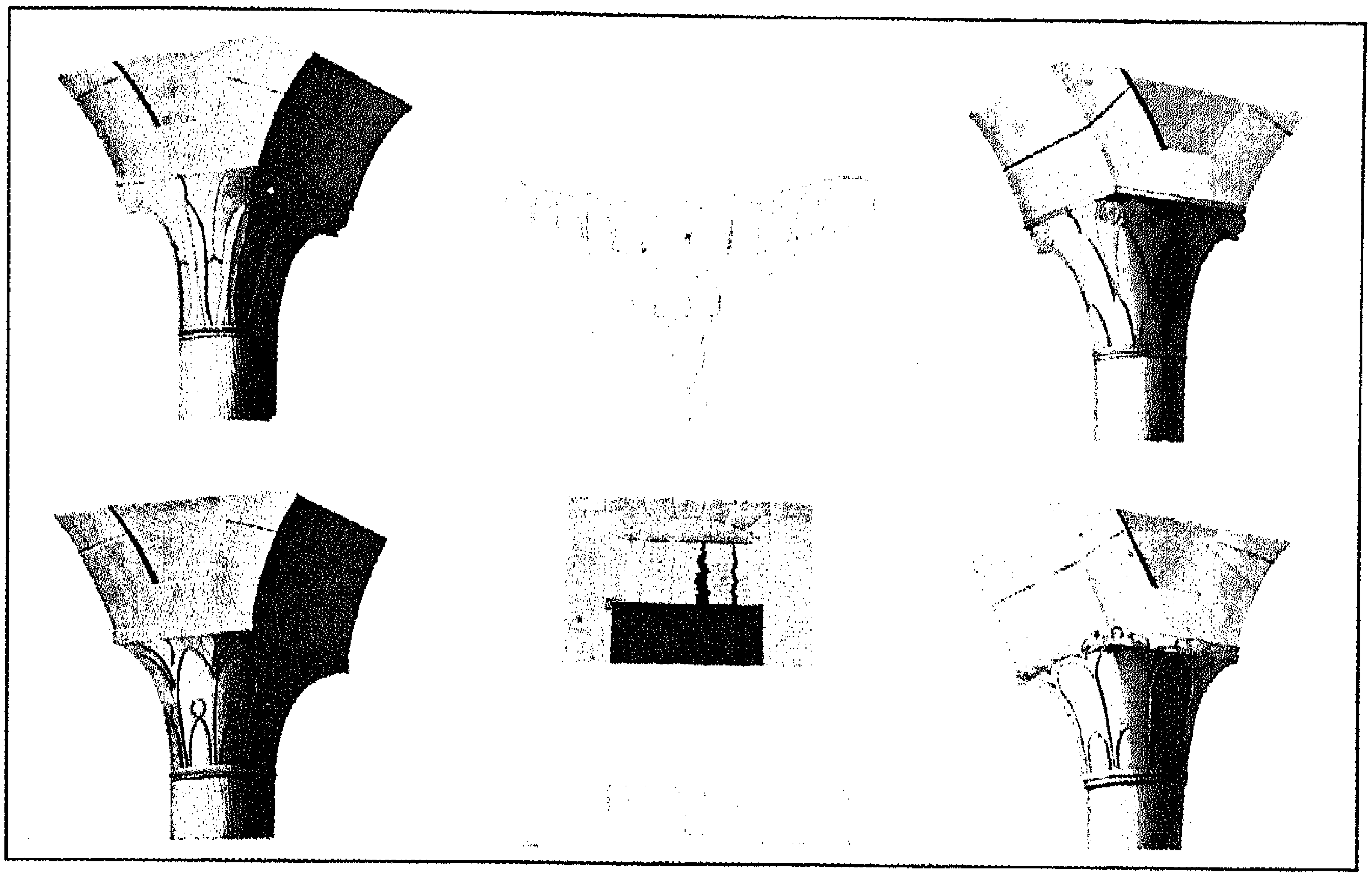

الإيوان الناصرى - تفاصيل الأعمدة (وصف مصر)

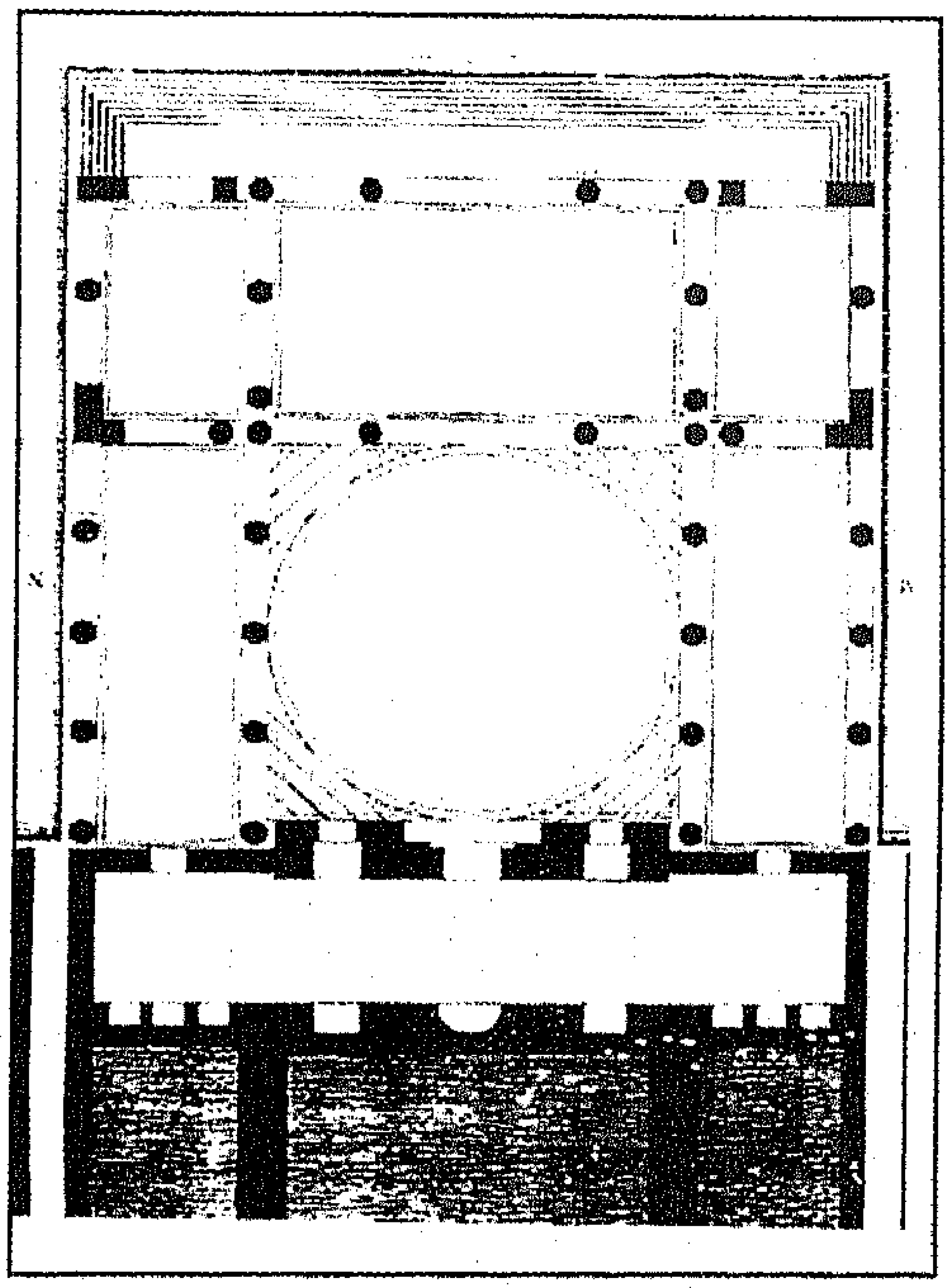

الإيوان الناصرى - تخطيط لكزيس

ولعل ذلك ارتبط بتطور حركة العمران فى عصر الناصر، وباستقرار حكمه، وبرغبته فى إعادة بناء المجمع الملكى بالقلعة على درجة تليق بسلطنته وسلطنة المماليك.

وهذا الإيوان الكبير الذى أسمته المصادر دار العدل أيضا، ثم تحول اسمه حوالى القرن السابع عشر ليصبح "ديوان يوسف" حفظت مخططاته فى كتاب وصف مصر، الذى أنتجه علماء الحملة الفرنسية، كما ساعدنا تخطيط رسم للإيوان سنة ١٧٩٩م بواسطة الرحالة لكزيس ونشرته دوريس أبو سيف على وضع تصور للإيوان ويبين المسقط الفرنسى أن الإيوان كان مفتوحا من ثلاث جهات هى الشمالية الشرقية التى شكلت واجهته الرئيسية والجنوبية الشرقية والشمالية الغربية. أما الجهة الرابعة، والتى قامت قبالة القصر الأبلق الذى بناه الناصر محمد أيضا ليكون صالة عرش خاصة فكانت عبارة عن حائط حجرى سميك به فتحات خمسة مداخل معقودة تؤدى إلى القصر، أكبرها أوسطها وهو معقود بعقد نصف دائرى غائر يشكل نصف قبة مقرنصة وعلى جانبيه مكسلتان وأحجار الواجهات كلها من الحجر المشهر.

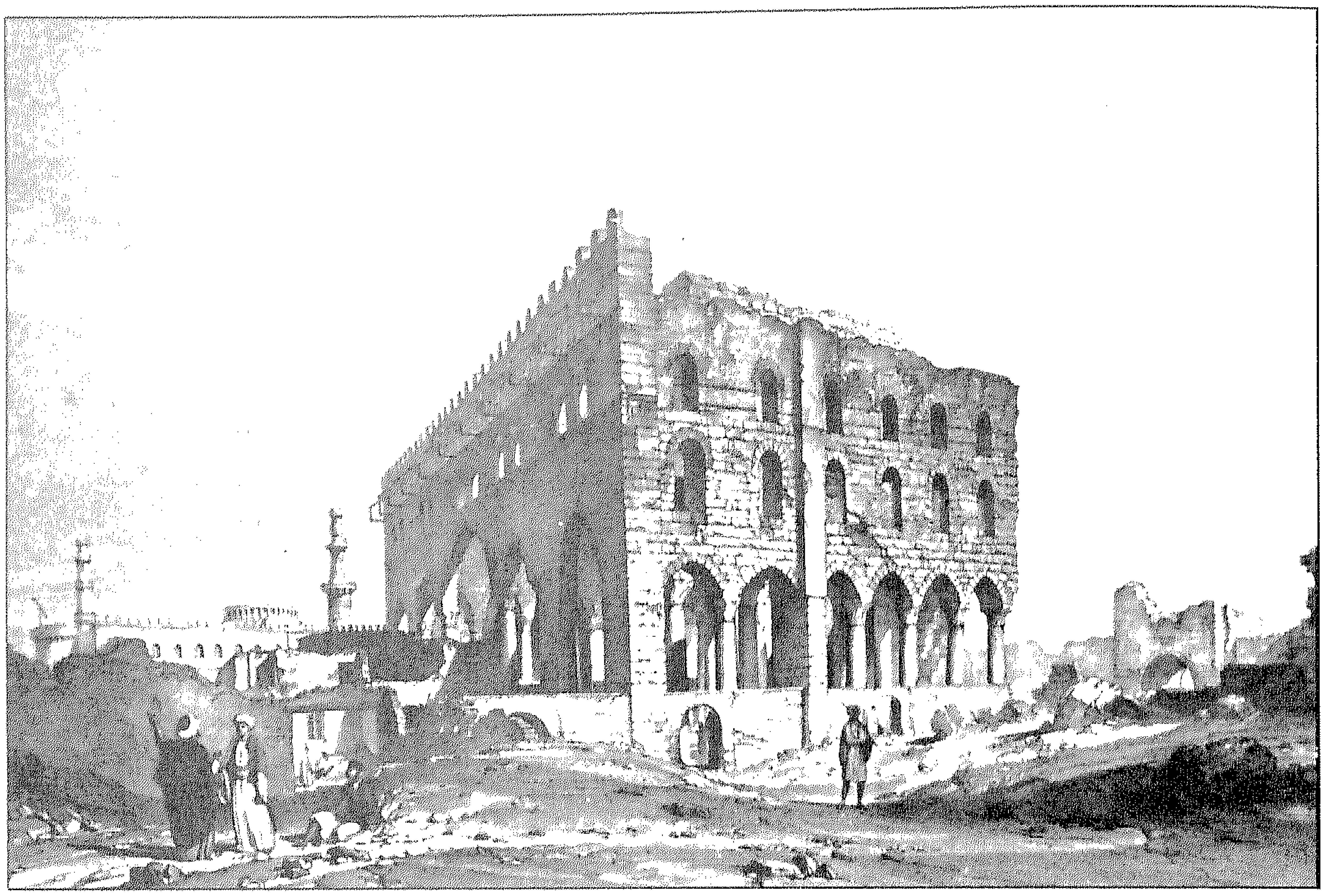

الإيوان الناصرى - أوين كارتر

تتكون واجهة الإيوان الرئيسية من خمسة عقود أكبرها أوسطها وهى عقود مدببة، تمثل خمسة مداخل إلى الإيوان، وتكون الثلاثة الوسطى عقود المدخل الرئيسى إلى قبة الإيوان، ويسمى المقريزى المساحة التى تليها بالدركاة[٥٩]. ويؤدى العقدان الجانبيان إلى جناحين متوازيين مع القبة، ويعلو هذه العقود صف من النوافذ التوأمية المعقودة، فوقها شريط كتابى بطول الواجهة، به الآية ٣٢ من سورة إبراهيم "الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم...." ولاحظ ناصر الرباط وجود تتمة الآية مثبتة على رسم الجدار الداخلى للإيوان فى كتاب وصف مصر، وهو أسلوب غير معهود فى العصر المملوكى، ولعل الرسام الفرنسى قرأ الكتابة على الواجهة الخارجية فقط، ولم يتمكن من إثباتها كلها على الواجهة التى رسمها فاضطر إلى استكمالها على الواجهة الداخلية مما سبب تساؤلا حول مدى دقة الرسام الفرنسى فى لوحاته؟[٦٠]. ويعلو هذه الواجهة صف من الشرفات. وترتفع الواجهة الرئيسية عن بقية واجهات المبنى. والواجهات الأخرى للإيوان تتكون حسب رسم أوين كارتر لإحداها فى لوحته من صف من ستة عقود مدببة محمولة على أعمدة، يعلوها تيجان، يفصل بينها بعد عقدين من نهاية جدار الواجهة دعامة ساندة بارزة بارتفاع المبنى، ويعلو هذه العقود صفان من النوافذ المعقودة.

يتوسط المبنى من الداخل مساحة مربعة يحيط بها من ثلاثة جوانب ثلاثة أجنحة، شكلت هذه الأجنحة صفوفا من الأعمدة الجرانيتية الهائلة نقلت من الآثار الفرعونية بالصعيد[٦١]، وحفر على هذه الأعمدة اسم السلطان الناصر

محمد كرمز على نسبة البناء إليه، وكان يعلو قاعة العرش قبة خشبية ضخمة غطيت من الخارج ببلاطات القاشانى الخضراء، وتم الانتقال من المساحة المربعة إلى الدائرة التى تحمل القبة عن طريق أربع حنيات مقرنصة خشبية ضخمة ورائعة، قدم كتاب وصف مصر رسما تفصيليا لها وكتبت ألقاب السلطان بأحرف هائلة الحجم ولونت بالذهب واللازورد على شريط دائر على كامل محيط القبة[٦٢]، وقد كشفت حفائر القلعة فى الثمانينيات[٦٣] عن بعض هذه الأعمدة. ويذكر المقريزى أن للإيوان بابا مسبوكا من الحديد بصناعة بديعة تمنع الداخل إليه، ولا يفتح هذا الباب إلا بعد جلوس السلطان على عرشه، ويسمح للجنود أن ينظروا من خلال تخاريم الحديد على ما يجرى بداخل الإيوان[٦٤]. وخلف مساحة القبة كان يوجد ممر يصل بين الإيوان والقصر السلطانى ينتهى بباب سر يدخل منه السلطان إلى الإيوان. ومن الواضح من تخطيط وصف مصر أن هذا الممر كان يشتمل على غرف على الجانب المقابل لجدار القبة، ومساحة مربعة صغيرة تعلوها قبة، هذه الغرف من المرجح أنها كانت تستخدم كغرف خدمية للإيوان. قدم ابن فضل الله العمرى الذى شغل وظيفة كاتب سر[٦٥] السلطان الناصر محمد وصفا مفصلا لجلوس دار العدل كما كان أيام الناصر، وهو كشاهد عيان تكون مشاهداته ذات قيمة كبيرة، ونقل المؤرخون اللاحقون ومنهم المقريزى والقلقشندى، وصفه وأضافوا إليه ملاحظاتهم التى أثبتوها عن عصرهم الذى يقارب الفرق الزمنى بينه وبين عصر العمرى من القرن.

وظيفة دار العدل

واظب الناصر محمد على الجلوس بدار العدل يومى الاثنين والخميس ما دام مقيما فى القلعة. كان الناصر محمد يخرج فى يوم دار العدل مبكرا من قصوره الجوانية والخدم أمامه، ويمر عبر الدهليز الواصل مابين القصر الأبلق والإيوان الكبير، ثم يدخل من تحت الباب الكبير المقرنص، وفى الأيام المخصصة لنظر المظالم يجلس السلطان على كرسى خاص منخفض إلى جانب منبر العرش المنصوب فى منتصف الجدار الخلفى للإيوان، والذى لم يكن يستعمل إلا فى مناسبات استقبال السفراء. وبمجلسه هذا يشكل الناصر محمد قمة دائرة تترتب حوله فيقعد قضاة المذاهب الأربعة الشافعى فالحنفى فالمالكى فالحنبلى الذين يمثلون السلطة التشريعية الشرعية يليهم وكيل بيت المال، وناظر الحسبة، ويجلس كاتب السر، أى فى عهد الناصر محمد بن فضل الله العمرى ذاته[٦٦]، وهو المختص بتلقى القرارات عن السلطان، وأمامه ناظر الجيش، أى المعادل لرئيس الأركان اليوم، وبعده جماعة موقعى الدست، أى كتاب الجلسات، وهم يكملون الحلقة حول السلطان. ومن المرجح أن هذه الدائرة فى الجلوس كان موضعها تحت القبة الخضراء كأنها كانت صدى وظيفيا لمهابة القبة أو أن القبة شكلت انعكاسا لعظمة السلطان فى جلوس دار العدل، ويكون السلطان قريبا من مسقط مركز القبة دلالة على كونه مركز الجلسة ومركز السلطة كلها[٦٧].

ويصطف حول السلطان عن اليمين واليسار فتيان المماليك الخاصكية والجمدارية الذين يشكلون حرسه الخاص، وعلى بعد خمسة عشر ذراعا عن يمنته ويسرته، يجلس أكابر ذوى السن من أمراء المئين، وهم أمراء المشورة، وهم فى المصطلح المملوكى أصحاب أعلى الرتب إذ يملك كل منهم مائة مملوك، وفى الحرب يقود ألفا، وهم فى مصطلحنا المعاصر ألوية الجيش وقد كان ثمة أربعة وعشرون أميرا منهم على عهد الناصر محمد، ولعل جلوسهم كان مرتبا على صفين على اليمين واليسار من السلطان، كل منهما مكون من اثنى عشر كرسيا، ويلى أمراء المشورة من أسفل منهم أكابر الأمراء وأرباب الوظائف وقوفا، ومن ورائهم بقية الأمراء من أمراء الطبلخانة[٦٨] وأمراء العشرات[٦٩] وقوفا أيضا. ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالمكان الحجاب والدوادارية لإحضار قصص أرباب الضرورات الذين قدموا للنظر فى مظالمهم وتقرأ القصص على السلطان، فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه. وما كان متعلقا بالعسكر تحدث مع الحجاب وناظر الجيش فيه ويأمر فى البقية بما يراه.

ويمكننا أن نتخيل أن صفوف أكابر الأمراء امتدت أمام صف الأعمدة الداخلى المواجه للقبة، فى حين وقف بقية الأمراء بين صفين من الأعمدة عن يمين ويسار القبة. أما الفراغ الواسع أمام القبة، التى جلست تحتها حلقة السلطان وقضاته وكتابه، ففيه يقف أرباب القصص والحجاب والدوادارية.

هذا التصور لهيكلية جلوس دار العدل كما نظمها الناصر محمد مهم وضرورى لتبيان وظيفية العمارة كما يمكن أن نستقرئها من خلال تخطيط دار العدل، فإذا ما أمعنا النظر فى ترتيب جلوس دار العدل وجدناه ينطبق تماما على ترتيب مخطط الإيوان الكبير المعمارى. والإيوان الناصرى الكبير يمثل بعمارته هذه النموذج المعمارى الأخير لدور العدل، والذى طور ليستوعب وظائف الجلوس السلطانى فى البلاط المملوكى.

يبرز ظهور دور العدل كمنشأة معمارية ذات وظيفة تتعلق بالرعية، فى رقعة محددة وفى زمن مؤطر بفترة حرب الاسترجاع من الغزوة الصليبية ورد الغزوة المغولية بعدها، وهما الغزوتان اللتان هددتا المنطقة وغيرتا منحنى تاريخها، وكادتا أن تزيلا هويتها الحضارية والثقافية والدينية. وليس ذلك فقط، بل إن دور العدل المعروفة قد أنشئت كلها فى العواصم الثلاث، دمشق وحلب والقاهرة، التى كانت فى الوقت نفسه المراكز الرئيسية للجهاد. وكان مؤسسو الدول الإسلامية التى أخذت على عاتقها رأب الصدع ولم الشمل وتوحيد الأراضى الإسلامية كلهم أمراء محاربين من أصول تركية أو كردية اعتمدوا بشكل شبه مطلق على الجيوش من الفرسان القادمين أو المجلوبين إلى البلاد من الأصول نفسها. وقد كان بناة دور العدل السبع قوادا فعالين من المحيط نفسه، برزوا فى ميدان الجهاد كما برزوا فى ميدان الإصلاحات الداخلية. ولعلها ليست مصادفة تاريخية أن أول بان لدار عدل كان السلطان نور الدين محمود بن زنكي، أول موحد للجبهة الإسلامية فى وجه الصليبيين. ولعلها ليست مصادفة أن آخر بان لدار عدل كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون، الذى تمكن بفضل حنكته من إيقاف المد المغولى الإيلخاني، وساهم فى تحول حكام الدولتين المغوليتين، الإيلخانية فى إيران والقبيلة الذهبية فى جنوبى روسيا إلى الإسلام وجنوحهما إلى السلام[٧٠]. ولذا كانت العلاقة بين قيادة الجهاد، والاهتمام به والاستعداد من أجله وبين بناء دور العدل نابعة من الظروف التاريخية العصيبة والصعبة التى فرضت على حكام المسلمين فى خلال ثلاثة قرون، ابتداءً من نهاية القرن الحادى عشر وحتى منتصف القرن الرابع عشر، مما دفعهم إلى أن يركزوا على إبراز المواصفات المقبولة والمحبذة إسلاميا.

وحاول كل الأمراء الحاكمين من سلاجقة وأراتقة وزنكيين وأيوبيين ومماليك وغيرهم، أن يعززوا صورتهم القائمة على تمثيلهم لأنفسهم كحماة للدين الحنيف من خلال تركيزهم على دورهم العسكرى فى الجهاد. ومع حلول القرن الرابع عشر، وخلال فترة الحكم الطويلة للناصر محمد، استقرت الخريطة السياسية للمنطقة وتوطدت سلطة السلطنة المملوكية، وزال الخطر الخارجي، واستكان المماليك لدعة العيش ورغده واستمرأوا حياة الرخاء والبذخ وفقدوا اهتمامهم بالجهاد. وبدأ تركيزهم على إبراز المواصفات المرغوبة إسلاميا فى حكمهم يذوى ويخف. ومع أن أبناء الناصر محمد الذين حكموا بعده واظبوا على جلوس دار العدل عملا بسنة أبيهم، فقد أهملوا القواعد الدقيقة المتعلقة بمراسم الجلوس فى الإيوان[٧١]. ومع مجيء العصر البرجى (٧٨٤ - ٩٢٣هـ/ ١٣٨٣ - ١٥١٧م)، بدأ السلطان برقوق يعقد جلسات دار العدل بالإيوان، فى محاولة منه للسير على مراسم أسرة قلاوون السلطانية، وسرعان ما نقل جلسات نظر المظالم إلى المقعد السلطانى بالإسطبل[٧٢]، وغير أيام الجلوس للنظر فى المظالم من الاثنين والخميس إلى الأحد والأربعاء، وفيما بعد غيرها مرة أخرى إلى السبت والثلاثاء. وكان يفضل عقد الجلسات فى الصباح بينما وضع الناصر محمد عادة الجلسات الليلية، وبعد عصر برقوق أهمل الإيوان فى عهد كل من الناصر فرج والمؤيد شيخ[٧٣]. رمم الأشرف برسباى الإيوان، وأحيا مراسمه السلطانية من استقبال السفراء به وكذلك نظر المظالم[٧٤]. ولكن ذلك لم يدم طويلا إذ سرعان ما طوى النسيان مراسم الإيوان

والجلوس به، واقتصرت وظيفة الإيوان على استقبال السفراء ويبدو أن ذلك جاء لمهابته المعمارية التى تناسب دولة عظمى، ويذكر ابن تغرى بردى أن هذا ألغى أيضا بواسطة السلطان جقمق، الذى قضى على أشكال المراسم والمواكب[٧٥]. ومع ذلك حاول الظاهر خشقدم إعادة بعض المراسم السلطانية، وجاءت أبرز محاولات إعادة الحياة للإيوان فى عهد السلطان الأشرف قايتباى وذلك بمناسبة احتفال كبير أقيم بمناسبة أسر شاه سوار على يد الأمير يشبك، وكان شاه سوار أمير دلغادر التركمانى قد خرج على الدولة المملوكية بمساعدة العثمانيين، وألحق أضرارا بالغة بالدولة، ولما كان لهذا الانتصار وزنه، أقيم احتفال به فى الإيوان الناصري، الذى كان إلى قبل ذلك ترمى به مخلفات القلعة فجدده قايتباي، وأقيم فيه احتفال يذكرنا برسوم الإيوان على عهد الناصر محمد[٧٦]. ولم تذكر حوادث وقعت بالإيوان بعد ذلك إلا فى عهد السلطان قنصوة أبى سعيد الذى تناول طعام إفطار رمضان فى الإيوان واعتبر ذلك حدثا خاصا[٧٧].

مثل الإيوان الناصرى رمز القوة السلطة المملوكية، عكس هذه المراسم التى تعقد به سواء الاحتفال بتولى سلاطين جدد، أو الاحتفال بالانتصارات الحربية، أو استقبال سفراء الدول الأخرى أو استعراض الجند أو النظر فى المظالم.

يذكر كازانوفا قصة نقلها عن مييه القنصل الفرنسى فى مصر فى الفترة من ١٦٩٢/١٧٠٨م. مفادها أن السلطان سليم جلس فى الإيوان ومعه جنده، فرأى عظمته وأبهته التى لا يوجد مثيل لها فى إستانبول، فأمر ولاة مصر ألا يجلسوا فيه حتى لا يخالطهم وهم الاستقلال عن الدولة العثمانية[٧٨]. والحقيقة أنه بدخول سليم الأول مصر كانت وظائف الإيوان تقلصت إلى حد كبير، وانتقلت إلى الحوش السلطانى الذى لعب دورا سياسيا محوريا فى العصر الجركسي. وهذا لا يعنى أن قصة مييه القنصل الفرنسى لا وجه لها من الصحة، ولكن ربما يكون سليم الأول منع الولاة من تجديد الإيوان أو استخدامه، والذى كان فى حالة معمارية سيئة، ويحتاج إلى صيانة. وخوف سليم ضرورى بخاصة مع المقاومة التى شهدها من طومان باى ومماليكه. ولم تمض سنوات قليلة حتى سجل لنا ابن إياس سقوط قبة الإيوان سنة ٩٢٨هـ/١٥٢١م، وعدها فألا بزوال خاير بك أول ولاة سليم الأول على مصر، والذى كان متلقبا بملك الأمراء، ويصفها بأنها لم تعمر فى مصر أكبر منها، وكانت من نوادر الزمان[٧٩]. ظلت بقايا الإيوان قائمة إلى عام ١٨٢٥م. حين شرع محمد على فى بناء مسجده، حيث ردمت أجزاء كبيرة من بقايا القلعة فى النطاق الجنوبي، وكشف فى عام ١٩٨٨م عن بقايا للإيوان فى المنطقة المحصورة بين متحف الشرطة حاليا الذى يعلو برج الظاهر بيبرس، والقاعة الأشرفية. ولكن ردم جزء كبير منها لمبررات واهية. وجرت محاولات لاستكمال هذا الكشف، ولكن خطة حركة السياحة ومتحف الشرطة حالا دون ذلك.

القصر الأبلق[٨٠]

كان بالقصر الأبلق العرش المملوكى الذى يجلس به السلطان بصفة مستمرة عدا يومى الإيوان الناصري، ومن هنا اكتسب هذا القصر أهميته السياسية، وكانت واجهته تشكل مع الجامع الناصري، والإيوان أبرز معالم الرحبة بالقلعة، والناظر إلى هذه المعالم الثلاث يستطيع أن يتبين أبرز معالم القلعة كمقر للحكم فى عصر الناصر محمد وخلفائه. وواجهة هذا القصر مكانها اليوم الصحن الذى يتقدم جامع محمد على وامتداده من المسجد.

شيد الناصر محمد هذا القصر متأثرا بالقصر الأبلق بدمشق الذى شيده الظاهر بيبرس عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦ – ١٢٦٧[٨١]. والذى أقام الناصر فيه حين جرد جيوشه لرد غزوة للمغول، وذلك فى سنة ٧١٣هـ/١٣١٢ – ١٣١٣م، وعند وصول الناصر لدمشق انسحب المغول وأقام الناصر شهرا فى دمشق، ثم ذهب ليحج وعاد بعدها ليأمر ببناء القصر الأبلق بالقلعة، وذلك سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م. وكان القصر الأبلق بالقلعة يزيد عن قصر دمشق بشاذروان[٨٢]. بأحد إيوانات القصر، والذى أقيم على جدار سميك سمكه ثلاثة أذرع ويتناسب هذا السمك مع الحاجة إلى وضع أنابيب المياه التى تغذى الشاذروان. وهذا يعنى أن هناك اختلافا بين القصرين.

الإيوان الناصرى – حفائر

قدم لنا ابن فضل الله العمرى وصفا دقيقا لهذا القصر اعتمد عليه بقية المؤرخين ونقلوا عنه، يقول "ويمشى من باب القصر فى دهاليز إلى قصر عظيم البناء شاهق فى الهواء بإيوانين أعظمهما الشمالى الغربى يطل منه على الإسطبلات السلطانية، ويمتد النظر منه إلى سوق الخيل والقاهرة وحواضرها إلى بحر النيل وما يليها من بلاد الجيزة وقراها. وفى الإيوان الثانى القبلى باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه إلى الإيوان الكبير أيام المواكب. ويدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوانية منها واحد مسامت لأرض هذا القصر الكبير واثنان مرفوعان يصعد إليهما بدرج فى جميعها شبابيك حديد تخترق إلى مثل منظر القصر"[٨٣].

هكذا حدد لنا العمرى طبيعة عمارة القصر الأبلق وحدده بقاعتين مرفوعتين عن أرض الإسطبل السلطاني، وهما كذلك فعلا، فقد كان الناصر محمد أول وآخر سلاطين المماليك الذى فكر فى توسعة النطاق السلطانى من القلعة، لكى يستوعب طموحاته المعمارية التى كانت تعكس ما وصلت إليه القلعة كمقر لحكم الدولة المملوكية، فقام برفع أرضية الإسطبل السلطاني، بأقبية أقام فوقها القصر الأبلق، وكذلك القصور الجوانية. وإقامة القاعات فوق الأقبية أمر شاع فى العصر المملوكى البحري، وما زال باقيا لدينا عدد من القاعات الكبيرة مثل قاعات قصور الأمير يشبك وقوصون وألين أق وطاز، وكلها قصور حول القلعة تعود إلى العصر المملوكى البحرى حملت قاعاتها على قاعات سفلية، هذا يعنى أن هذا الأسلوب المعمارى اتبع فى ذلك العصر بالقاهرة، وأن الناصر حينما شيد القصر الأبلق أراد أن يرتفع فوق هذه القصور ليكشف كل ما يدور فى المدينة من أحداث من خلال نوافذ قصره. ويرجح ناصر الرباط أن جامع محمد على بنى فوق القبوات السفلية للقصر الأبلق[٨٤]. وهو رأى صائب إذ ثبتت صحته بفحص الموقع أسفل المسجد.

وحدد لنا العمرى أيضا وظيفة القصر الأبلق، إذ يذكر عن هذه الوظيفة ما يلي: "أما بقية الأيام – وهى عدا الاثنين والخميس اللذين يجلس فيهما السلطان فى الإيوان – فإنه – أى السلطان – يخرج من قصوره الجوانية إلى قصره الكبير البرانى – الأبلق – وهو شبابيك مطلة على إسطبلاته وفى صدره تخت الملك المختص فيقعد تارة علية وتارة يقعد دونه على الأرض والأمراء وقوف على ما تقدم، خلا أمراء المشورة والقرباء منه فإنه ليس لهم عادة بحضور هذا المجلس، ولا يحضر هذا المجلس من الكبار إلا من دعت الحاجة إلى حضوره، ثم يقوم فى الثالثة من النهار يدخل إلى قصوره الجوانية ثم إلى دار حريمه، ثم يخرج فى أخريات النهار إلى قصوره الجوانية لمصالح ملكه، ويعبر عليه إليها خاصته من أرباب الوظائف فى الأشغال المتعلقة به على ما تدعو الحاجة إليه"[٨٥].

وبعد سقوط الدولة المملوكية استخدم القصر الأبلق كسجن لكبار الشخصيات العثمانية فى مصر، وكان يحتجز به الولاة بعد عزلهم لحين تسوية حساباتهم، على نحو ما حدث حين حبس حسين باشا الدالى فى سنة ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م[٨٦]. وكذلك غازى باشا بن شاه سوار فى سنة ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨[٨٧]. وعلى باشا الأميرلى فى حوادث سنة ١١١٩هـ/ ١٧٠٧م[٨٨]. وولى باشا سنة ١١٢٧هـ/ ١٧١٥م[٨٩].

وعرف القصر الأبلق بقصر يوسف أو كشك[٩٠] يوسف فى المصادر العثمانية، ثم استخدمت أجزاء منه فى مرحلة لاحقة كدار لصناعة كسوة الكعبة [٩١].

صاحب إنشاء القصر الأبلق إنشاء الناصر محمد عددًا من المنشآت الموازية له، منها دور الحريم التى هدمها الناصر وأعاد بناءها مرة أخرى، وربط هذه الدور بالإسطبلات بسلم ينزل منه إلى الإسطبل والميدان[٩٢].

كما عمَّر الناصر القاعات السبع وهذه القاعات تشرف على الميدان وباب القرافة، أسكنها سراريه[٩٣]، ويعتقد كازانوفا أن اسم هذه القاعات لا يزال باقيا ولكن بصورة أخرى مشابهة له إلى حد كبير وهو الحدرات السبع [٩٤].

قاعة الأعمدة

يرد ذكر قاعة العواميد فى العديد من المصادر التاريخية، وكان أبرز حدث وقع بها فى بداية العصر المملوكى هو قتل الفارس أقطاى[٩٥]، وهذه القاعة شيدتها شجر الدر لتكون

مقرا لها كملكة على مصر، وكان بها مرتبة أو كرسي عرش تجلس عليه، ومنذ ذلك الحين صارت هذه القاعة جزءا من الآدر الشريفة، الخاصة بالحريم السلطاني، احتوت هذه الآدر على عدد من القاعات تحيط بها البساتين والأشجار ومختلف الطيور والحيوانات الجميلة[٩٦] كانت هذه القاعات مخصصة للحريم وتعرف باسم القياع وهي جانب من الآدر الشريفة[٩٧]. وخصصت لكل واحدة من زوجات السلطان الأربع قاعة خاصة بها، فقاعة العواميد تقيم بها خوند الكبرى ولها المكانة المفضلة، ومن جملة أثاثها أوان من ذهب وفضة وتخوت مفضضة من بينها تخت مرصع بالذهب، ومنارة من ذهب عليها جوهرة تضيء بالليل[٩٨]، وقاعة رمضان بها خوند الثانية، والقاعة المظفرية بها خوند الثالثة، وأخيرا تقيم خوند الرابعة بالقاعة المعلقة، هذا عدا قاعات أخرى برسم السراري والجواري[٩٩]. شهدت قاعة العواميد في عهد الظاهر بيبرس إقامة الخليفة العباسي بها، وعقدت بها اجتماعات لمبايعة الخليفة[١٠٠]، وكان الناصر قد أعاد بناء الآدر الشريفة بما فيها قاعة العواميد، على الوضع السابق وصفه، وظلت قاعة العواميد هي مقر خوند الكبرى في ترتيبات الناصر، شهدت هذه القاعة حادثا دمويا حين قتل الناصر فرج زوجته بها[١٠١]. كما شهدت العديد من المناسبات السارة خاصة زواج السلاطين[١٠٢]، كما استقبلت بها زوجة السلطان جقمق عند عودتها من الحج في احتفال رسمي[١٠٣]. كما اكتسبت هذه القاعة رونقا خاصا في عهد الغوري الذي كان مغرما بالاحتفالات الرسمية[١٠٤]. وآخر احتفال جركسي شهدته القاعة كان جلوس زوجة السلطان طومان باي، فيذكر ابن إياس في حوادث سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م (أنه في الأحد رابع عشر من شوال طلعت خوند زوجة السلطان... فطلعت وقت صلاة الصبح على الفوانيس والمشاعل، ومعها الجم الغفير من الخوندات والستات وأعيان نساء الأمراء والمباشرين، فاستمرت في موكبها حتى طلعت إلى القلعة، ودخلت إلى قاعة العواميد، فحمل الأمير بشير الطواشي رأس نوبة السقاة على رأسها القبة والطير حتى جلست على مرتبتها، وكان لها يوم مشهود بالقلعة)[١٠٥].

كان يشرف على الآدر الشريفة طواشي بدرجة أمير طبلخانة يعرف باسم "زمام" الآدر الشريفة، وتحت يده عدة خدام وعمال من الطواشية بلغ عددهم في وقت ما نحو ٦٠٠ طواشي لكل منهم عمل خاص[١٠٦].

الحوش السلطاني

يثير إنشاء هذا الحوش الذي يمثل امتدادا للنطاق الجنوبي من القلعة العديد من التساؤلات لعل أولها هو موضع باب الجبل قبل إنشائه، وهو أحد الأبواب الرئيسية للقلعة، والراجح أن هذا الباب كان يقع بين المسجد الجامع والآدر الشريفة السلطانية المخصصة للحريم. خلف بئر يوسف، وكان يطل على القرافة مباشرة، ولكن بعد توسعة جامع الناصر ودور الحريم، وقيام الناصر محمد بإنشاء الحوش السلطاني تحول موضع الباب إلى مكانه الحالي، الذي يعتبر اليوم المدخل الرئيسي للقلعة من طريق صلاح سالم. وهذا كله على وجه التقريب، إذ لا توجد أدلة تحدد الباب القديم بالضبط، ولكنه على أغلب الظن كان حيث حاولنا تحديده.

أراد الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م، إنشاء حوش للخراف بلغ عددها ٨ آلاف رأس على حد قول ابن تغري بردي[١٠٧] فوقع اختياره على غور يقع بجوار دور الحريم، استخدمت أحجاره في

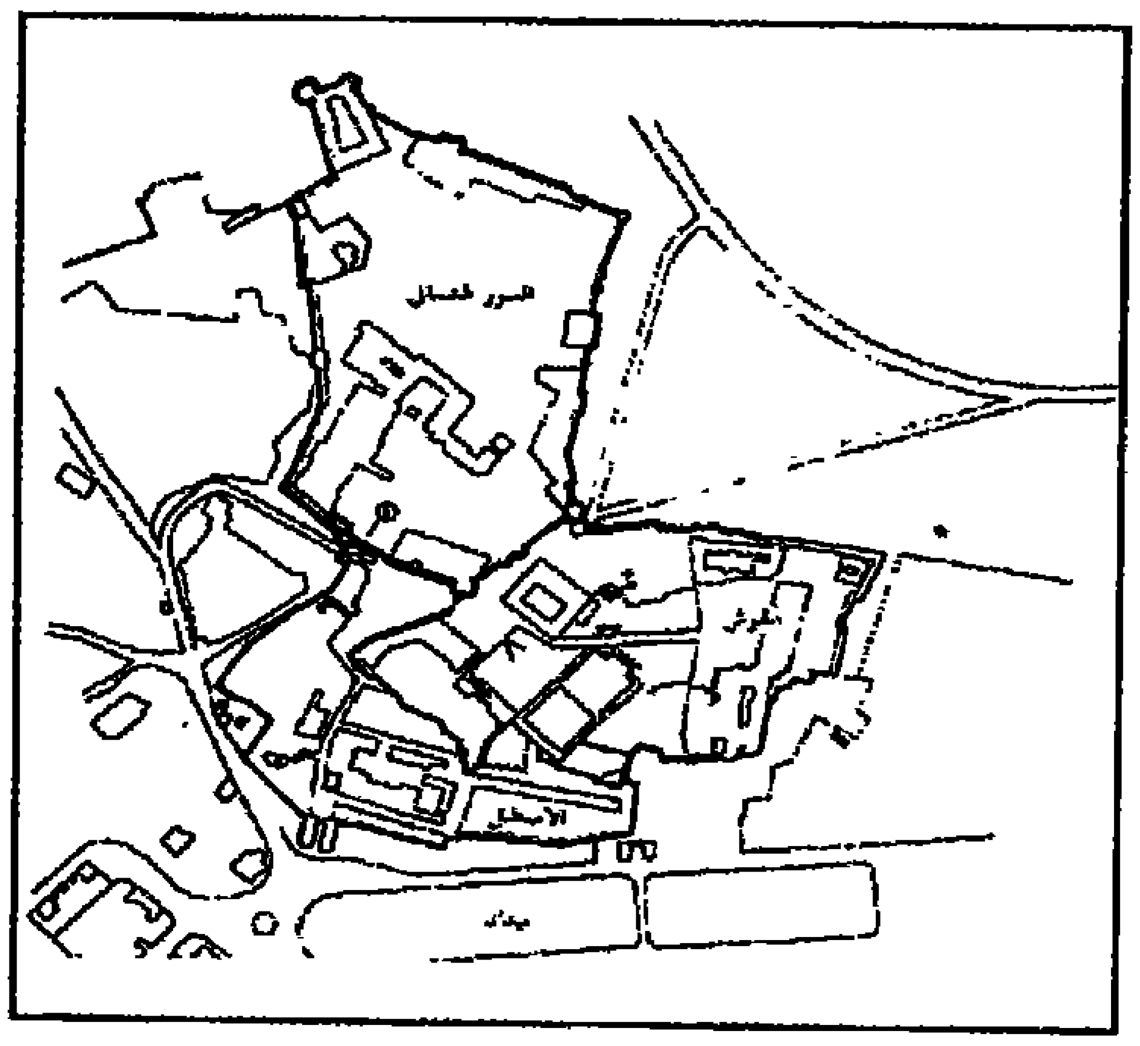

الحوش السلطاني – منشآت

بناء العديد من قاعات القلعة، وبلغت مساحة هذا الحوش أربعة أفدنة. أشرف على ردم هذا الغور الأمير عبد الواحد أقبغا، وعمل فيه الأسرى والجنود، كما سخرت العامة للعمل فيه، إلى أن خلصهم الأمير الطنبغا الماردانى بواسطته لدى السلطان الناصر محمد من هذه السخرة. وانتهى العمل فى هذا الحوش فى ٣٦ يوما، ويذكر ابن تغرى بردى أنه كان به أبقار بلق وأغنام وبيوت للأوز وأجريت إليه المياه. وبعد الفراغ من هذا أقام السلطان سماطًا بهذه المناسبة، وخلع على بعض من أشرفوا على العمل بالحوش[١٠٨]. ولا يذكر المؤرخون إن كان الحوش قد أحيط بسور أو لم يحط بسور، غير أن الغالب على الظن أنه أحيط بسور. تم تجديده على مراحل كان آخرها فى عصر محمد على وخلفائه، وقد تبقت ثلاثة أبراج مستديرة من هذا السور تعود إلى عصر الناصر محمد.

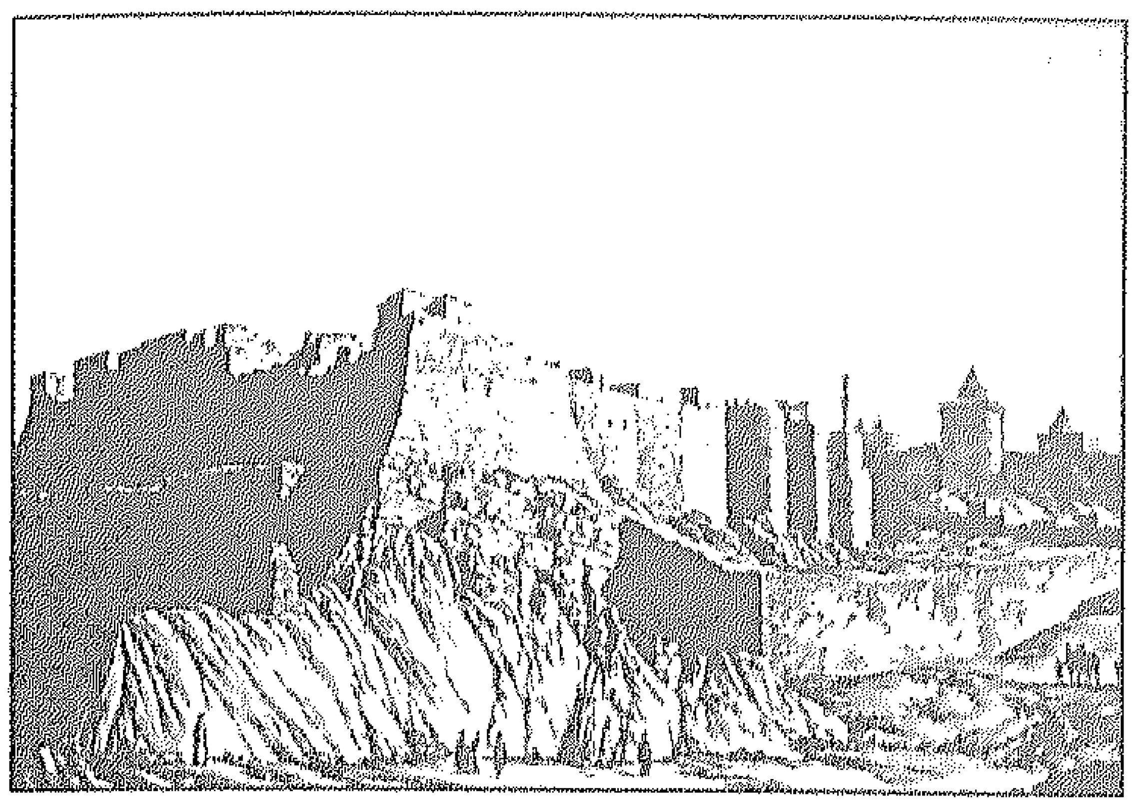

أبراج الناصر محمد بالحوش السلطانى – وصف مصر

تعود أهمية هذا الحوش بالنسبة للسلطان إلى الأسمطة التى تمد خمس مرات يوميا فى القلعة، فضلا عن حاجته إلى إطعام مماليكه سواء السلطانية أو التى تسكن فى النطاق الشمالي. وهى تسمى الجراية، فضلا عما يذبح

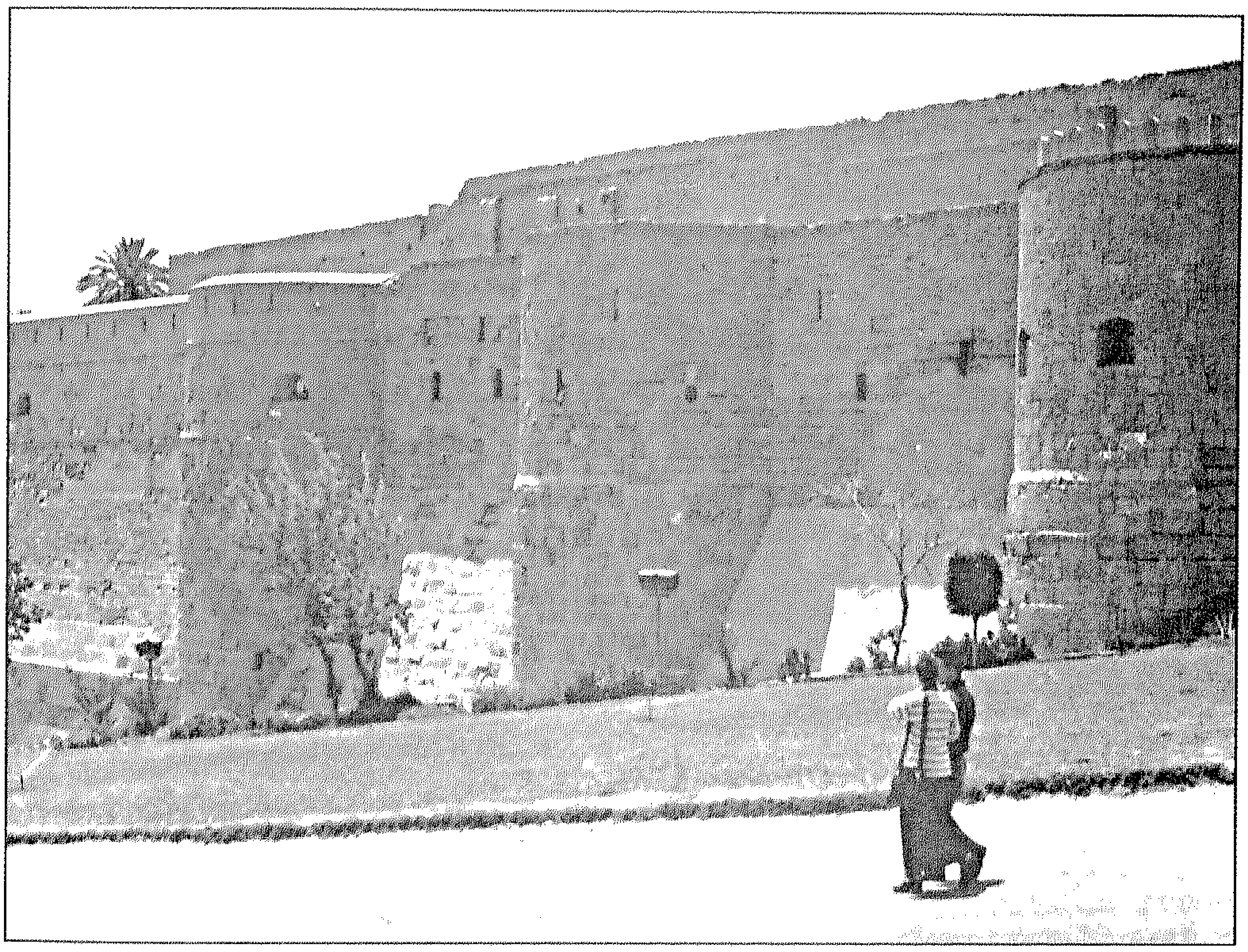

أبراج الناصر محمد – تجديدات محمد علي

من الحيوانات فى الأعياد والمناسبات[١٠٩]، وحاجة السلطان إلى توفير اللحوم للقلعة فى حالة حصارها، فالهدف من تشييد الحوش هدف إستراتيجى يرتبط بالرسوم السلطانية، وبحاجة السلطان إلى توفير الطعام لجنده[١١٠]. وبعد عصر الناصر أهملت الحيوانات بالحوش.

أول من فكر فى استغلال الحوش السلطانى كان الصالح إسماعيل حيث شيد به الدهيشة لكى ينافس بها دهيشة[١١١] الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماة. وكان ذلك سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٤٥م وحول جزء من الحوش إلى بستان به نافورة وشانروان[١١٢]. وكانت على الجانب الشمالى من الحوش، ملاصقة للدور السلطانية، وبذلك يمكن تحديد موقعها بين مسجد محمد على حاليا إلى قصر الجوهرة وربما كان جانب منها جزءا من القصر.

وهى مذكورة فى وصف مصر تحت اسم (جامع الدهيشة)، ويبدو أن الصالح إسماعيل استخدمها كقاعة خاصة، وكان يبت فى أمور السلطنة بها. لكثرة جلوسه فيها فقد فرشها بالبسط والمقاعد الزركش[١١٣]. ويذكر ابن تغرى بردى أنها فى أيامه صارت مجازا لأوباش الرعية لمن له حاجه عند السلطان من التركمان والأعراب والأوغاد والأتباع[١١٤]، وكان خلفاء الصالح إسماعيل قد استخدموها كقاعة خاصة، وزوج بها السلطان جقمق ابنته للأمير أزبك[١١٥]. واتخذت الدهيشة نقطة البداية لمواكب التولية للسلاطين الجدد[١١٦]، وتوالت بعد الدهيشة المنشآت فى الحوش السلطاني.

البيسرية

كانت هذه القاعة ملحقة بالحريم، شيدها السلطان حسن فى سنة ٧٦١هـ / ١٣٦٣م. ولاشك أن عمارتها كانت تعكس ضخامة العمارة فى ذلك العصر وثراءها، وهذا نراه فى مدرسة السلطان حسن، يقول المقريزى "فجاءت من الحسن فى غاية لم ير مثلها – يقصد البيسرية – وعمل لهذه القاعة من الفرش والبسط ما لا تدخل قيمته تحت حصر، فمن ذلك تسعة وأربعون ثريا برسم وقود القناديل ... وجاء ارتفاع هذه القاعة طولا فى السماء ثمانية وثمانين ذراعا، وعمل السلطان فيها برجا يبيت فيه من العاج والأبنوس مطعمًا، وأكتافًا وبابًا يدخل منه إلى أرض كذلك وفيه مقرنص قطعة واحدة يكاد يذهل الناظر إليه بشبابيك ذهب خالص وطرازات ذهب مصوغ وقبة مصوغة من ذهب ..... وبصدر إيوان هذه القاعة شباك حديد يقارب باب زويلة يطل على جنينة بديعة الشكل"[١١٧].

وهذه القاعة من الواضح أنها تتكون من دور قاعة يعلوها قبة، وإيوانان، وأحد الإيوانين، وهو أكبرهما كان يستخدم فى جلسات السلطان، لذا جعل فيه شباكا من حديد لكى يشاهد منه الحديقة المجاورة للإيوان. ويبدو أنه كان بالقاعة أشرطة مذهبة ومناطق انتقال القبة من مقرنصات مذهبة. استخدمت هذه القاعة فى طهارة ابن السلطان قايتباى حيث ركب من قاعة البحرة إلى باب الستارة الذى يفصل بين دور الحريم والحوش، حيث نزل ودخل إلى قاعة البيسرية، وهذا الاحتفال الرسمى حضره الأمير جم العثمانى الذى هرب إلى مصر، وكان يرى أنه أحق بالعرش العثمانى[١١٨].

اهتم السلطان الغورى بهذه القاعة فجددها، ونقل إليها رخام قاعة ناظر الخاص يوسف والتى كانت تسمى نصف الدنيا[١١٩] واستخدمها مرات عديدة.

قاعة البحرة[١٢٠]

ليس لدينا وصف دقيق لقاعة البحرة اليوم، ولكن من المرجح أنها كانت تقع بين ديوان الكتخدا وقصر الجوهرة، وتشير المصادر التاريخية إلى أن السلطان المؤيد شيخ جدد قبتها، وبعد ذلك أنشأ السلطان جنبلاط سنة ٩٠٦ هـ/ ١٥٠٠م[١٢١] قاعة ذات قبة عرفت بالأشرفية بين الدهيشة والبحرة، وكان إلى جوار البحرة حمام، ومنطقة خدمات تضم الطشتخاناه وحجرة لخزن الخيم السلطانية فى عهد السلطان قايتباى ٨٧٢ – ٩٠١هـ/ ١٤٧٢ – ١٤٩٦م. وقد تعرضت هذه الخيم لحريق قيل إنه جاء من مطبخ الخليفة[١٢٢]، ونستشف من هذه الحادثة أن الخليفة كان مقيما فى الحوش فى عصر

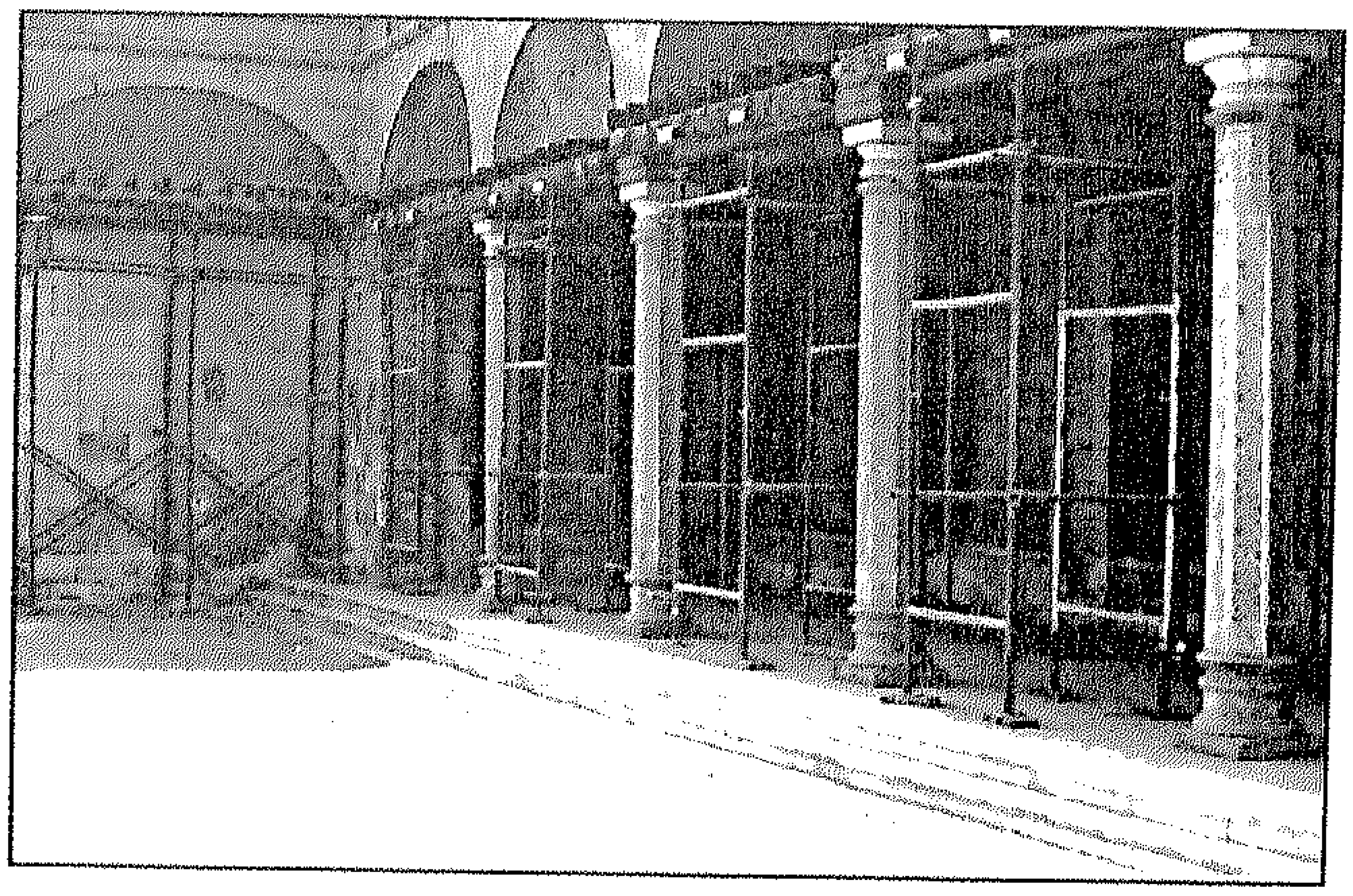

مقعد قايتباى – الأعمدة

السلطان قايتباي، فى بيت يبدو أنه بنى خصيصا لإقامة الخلفاء[١٢٣]. وجدد السلطان قايتباى قاعة البحرة وأضاف لها مقعدا أو غرفا خاصة وحجرات للمخازن[١٢٤]. ومازالت بقايا الأعمدة التى تحمل عقود المقعد باقية بالحوش بالطابق الأول من قصر الجوهرة. وهى تحمل رنك السلطان قايتباى ومن المرجح أن يكون موضعها اليوم هو موضعها الأصلي.

مقعد الغوري

يعد مقعد الغورى آخر المنشآت السلطانية بالحوش، وكان الانتهاء من عمارته فى عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م. وحدد ابن إياس موقعه (بأنه خلف جنينة البحرة المطلة على الحوش السلطاني) وحدد أبعاده بأنها ٦٠ ذراعا طولا و٢٠ ذراعا عرضا، وجعل له السلطان شبابيك على جنينة البحرة والحوش[١٢٥] وهو مقعد قبطي[١٢٦]. كانت جوانبه مؤزرة بالرخام. وكان السلطان الغورى افتتحه فى أول ليلة من رمضان حيث أفطر فيه مع أمراء دولته[١٢٧]. وهذا المقعد عرف فيما بعد فى العصر العثمانى بديوان الغوري، حيث كان له دور بارز فى الحياة السياسية فى ذلك العصر كمقر للديوان العالي[١٢٨]. ورمم ديوان الغورى قرة محمد باشا سنة ١١١١– ١١١٦ هـ / ١٦٠٢– ١٦٠٧م[١٢٩].

وظيفة الحوش

كان لقيام دولة المماليك الجراكسة أثر فى تغيير مراسم الدولة التى ارتبطت بأسرة قلاوون التى حكمت معظم العصر المملوكى البحري، وارتبطت بمراسم الدولة البحرية منشأتين هما إيوان العدل الناصرى والقصر الأبلق.

أدى تزايد المنشآت فى الحوش منذ العصر البحرى وحتى العصر الجركسي، إلى ازدياد أهمية الحوش. وانتقال العديد من المراسم إليه. وهو ما أدى بالتبعية إلى تحوله مقرًا لولاة مصر فى العصر العثماني، ومن هذه المراسم استقبال السفراء[١٣٠]. واستعراض المهزومين فيما يدخل تحت الاحتفال بالانتصارات العسكرية. فقد استقبل الأشرف برسباى رسول شاه رخ الذى حضر إلى مصر طالبا من الأشرف برسباى ٨٢٥ – ٨٤١هـ/ ١٤٢٢ – ١٤٣٨م إعلان خضوعه للدولة التيمورية[١٣١]. وبالرغم من تجديدات الأشرف قايتباى للإيوان الناصرى والقصر الأبلق[١٣٢]. فإن استقباله للسفراء واستعراضه للجند، كان عند قاعة البحرة بالحوش التى أضاف لها مقعدا[١٣٣]. ويبدو أن الحوش كان المحور الرئيسى لإدارة السلطنة فى عهده. وكانت مواكب النصر مظهرا آخر من المظاهر الدالة على أهمية الحوش السياسية، وتحول إدارة السلطنة إليه، من ذلك الاحتفال الذى صاحب الانتصار على ملك قبرص وضمها لسلطنة المماليك، وكان برسباى قد استقبل ملكها جانوس مكبلا بالحديد فى الحوش، وحضر هذا الاحتفال سفراء عثمانيون، وبعض أمراء التركمان وشريف مكة وسلطان تونس الحفصى، وقنصل البندقية وتجار أوروبيون. وكان هذا الحدث فريدا إذ لم تشهد القلعة مثله فى عهد الجراكسة سوى مرات قليلة. وقبل جانوس ملك قبرص الأرض للسلطان برسباى وتشفع فيه الأوروبيون[١٣٤].

وفى عهد السلطان قايتباى شهد الحوش السلطانى حادثا مماثلا، حين انتصرت دولة المماليك على شاه سوار حيث جلس السلطان على الدكة تحت المقعد السلطاني، ووقف الأمراء فى مراتبهم، وأحضر شاه

سوار وقبل الأرض للسلطان. هذه الحادثة تدل على استقرار مراسم السلطنة فى الحوش، وأنه قد أصبح لها ترتيب، ودكة السلطان تذكرنا بتلك التى كانت إلى جوار منبر العرش بالإيوان الناصرى ومثيلتها فى القصر الأبلق.

تبادل الحوش فى العصر الجركسى مع الإسطبلات وظيفة دار العدل، وترى دوريس أبو سيف أن هذا التبادل موسمى خلال العام، وارتبط ذلك بالموكب السلطانى الذى كان يحدث أسبوعيا فى القلعة، فقد كان الموكب يقام فى الحوش أسبوعيا فى أيام الخميس والاثنين، وكان يعقد فى الإسطبلات فى أواخر الشتاء وأوائل الربيع فى أيام السبت والاثنين[١٣٥]. وكان السلطان برقوق أول من عقد جلسات القضاء فى الإسطبلات، ثم تم التخلى عن عقد الجلسات فى الإسطبل حتى عهد السلطان خشقدم الذى جدد هذه العادة[١٣٦].

وكان السلطان الغورى يجرى الموكب السلطانى يومى الاثنين والخميس بالحوش السلطاني، ويومى السبت والثلاثاء بالميدان[١٣٧]. وهذا يدل على انتقال بعض الوظائف للميدان الذى بدأت أهميته تتزايد منذ عصر الكامل الأيوبى والظاهر بيبرس، وتترسخ فى عصر الناصر محمد، وتتضاءل فى العصر العثمانى.

ومن اللافت للنظر أنه فى عهد السلطان أينال ٨٥٧- ٨٦٥هـ/ ١٤٥٣ - ١٤٦١م. تزايدت أهمية الحوش ونقلت إليه كل وظائف القصر الأبلق والإيوان. وسبب هذا النقل النهائى لبقية الوظائف على بساطتها يعود إلى الاضطرابات بين السلطان أينال ومماليكه[١٣٨]. ويقر أمرا واقعا بالفعل وهو انتقال معظم آليات الحكم إلى منشآت الحوش.

وشهد الحوش فى عهد السلطان خشقدم عودة إلى الرسوم الملكية البحرية حيث كان يجلس على الدكة فى الحوش، ليستعرض الجند، ويشهد الاحتفالات، ولكنه فى أواخر حياته اشتد عليه المرض، وأدار السلطنة من فراش مرضه بقاعة البيسرية، وكانت الخدمة السلطانية بالقاعة آنذاك قاتمة الظلال[١٣٩]. حيث لم يصاحبها ذلك الوهج الذى كان يصاحب الاحتفالات السلطانية. وفى عهد السلطان قايتباى وعلى الرغم من تجديده للإيوان الناصرى وللقصر الأبلق، فقد ظل الحوش هو المقر الرسمى لمراسم السلطنة، حيث تجرى استعراضات الجند وتوزيع جامكياتهم، وفى الصيف كان السلطان ينام على الدكة السلطانية فى الهواء الطلق، حيث بنى سورا أمامها ليحميه من الفضوليين، بخاصة بعد أن حاول أحد المماليك قتله أثناء نومه[١٤٠]. وقام السلطان قنصوة أبو سعيد الذى كان مغرما بالرسوم السلطانية وما يصاحبها من أبهة الملك، بزخرفة الدكة فزينها بنسيج حريرى مطرز ومقصب بخيوط ذهبية[١٤١]. وفى عهد السلطان الغورى بنيت مصطبة بدلا من الدكة، وشهد الحوش حوادث سياسية عديدة ارتبطت برسوم البلاط، منها استقبال سفراء من الحبشة[١٤٢]. حيث إن سفارات الحبشة كانت نادرة فى العصر الجركسي، وتوجد لوحة رسمها جنتيلى بللينى تمثل استقبال الغورى للبنادقة فى القلعة، ويرى فيها السلطان جالسا على المصطبة التى بناها فى الحوش[١٤٣]. وقام السلطان بهدم مصطبة الغورى وأعاد الجلوس على الدكة بالحوش السلطانى مرة أخرى، وكانت الدكة قد تكسرت فأصلحها، وجعل لها غشاء - غطاء - من الجوخ الأصفر، وجلس عليها طومان باى للمحاكمات كما كان يجلس قايتباي، وقال ابن إياس فى ذلك شعرا يعكس نظرته لعصور هؤلاء السلاطين (قايتباي، الغوري، طومان باي) حيث يقول:

قد عـــادت التكـــة للحكم   وانهدمت مصطبة الظلم
وصار طومان باى بين الورى   يمشى الشاة مع الضغم
فيا لـه مــن ملك عدلتـــه   قد شاع بين العرب والعجم[١٤٤]

الحوش فى العصر العثمانى

كان لانتقال السلطة فى مصر إلى العثمانيين أثر سلبى على القلعة، ومن أبرز هذه السلبيات نزع رخام القلعة، وتخريب سائر أماكنها[١٤٥]. بل إن السلطان سليم وجنوده فى رأى

ابن إياس لم يكن لديهم مراعاة للمراسم السلطانية، ونتج عن ذلك أنه عند صعود السلطان سليم للقلعة احتجب عن الناس ولم يجلس للنظر فى المظالم بالحوش[١٤٦].

بعد أن تولى خاير بك ولاية مصر ظل يدير أمر الولاية من الحوش السلطاني[١٤٧]. وتحول اسم الحوش إلى الديوان نسبة إلى الديوان الذى نظم أمره للنظر فى أحوال مصر. كان الديوان يعقد أربعة أيام فى الأسبوع[١٤٨]. ويعرف بالديوان الكبير، وكان يعقد فى مقعد الغوري، واكتسب بناءً على ذلك المقعد اسم ديوان الغوري. هذا الديوان كان يبحث فى الشئون العامة للبلاد، والأوامر التى يتلقاها الباشا من السلطنة[١٤٩]. كما كان يعقد ديوان يومى فى مقعد قايتباى الملحق بقاعة البحرة، ويعرف هذا الديوان بالديوان الصغير، ويقوم هذا الديوان بتسيير الشئون اليومية[١٥٠]. ومن هنا اكتسب مقعد قايتباى اسما جديدا، هو ديوان قايتباي، ويبدو أن هذا الديوان كان يعقد أيضا فى قاعة البحرة الواقعة خلف المقعد.

وكان يربط بين الديوانين سلم[١٥١]. وهذا يدل على مدى العلاقة بينهما، وهى العلاقة التى يماثلها فى العصر المملوكى البحرى العلاقة بين الإيوان الناصرى الذى يقابله هنا ديوان الغورى فى العصر العثمانى والقصر الأبلق الذى يقابله هنا ديوان قايتباي، وهذا يعنى أن رسوم القلعة السلطوية فى العصر العثمانى كان بها تأثير نسبى من العصر المملوكى. ومن المعروف أن السلطان المملوكى كان يتوجه من القصر إلى الإيوان عن طريق باب للسر، يقابله هنا السلم بين مقعد الغورى ومقعد قايتباى من النوع التركى المفتوح[١٥٢] يوجد أسفله حواصل. وارتبط بعدد من المنشآت خلفه وإلى جواره، لعل أبرزها قاعة البحرة التى مورست من خلالها عدة وظائف، وارتبط بهذا كله قاعة الدهيشة والبيسرية، والقاعات السبع وقاعة العواميد، وأدر الحريم وغيرها، وشكل كل هذا فى مجمله ما يسمى بسراية الباشا أو بحوش الباشا[١٥٣]. ومن الملاحظ أنه خلال العصر العثمانى بدأ مصطلح السراى الذى يعنى القصر بالفارسية، يدل على مكان إقامة الحاكم[١٥٤]، حتى صار منذ انتقال مقر الحكم إلى قصر عابدين دالا على مقر إقامة الحاكم، وتحول إلى مصطلح له مدلول سياسى أكثر منه معمارى فى النصف الأول من القرن العشرين. وجاء إطلاق هذا المصطلح فى أول الأمر تأثرا بالمصطلحات العثمانية، فمقر إقامة السلاطين بإستانبول، يعرف بطوب قابى سراى. وربما انسحب هذا على مقر إقامة باشاوات مصر.

شهدت سراى الباشا بالحوش السلطانى أو الديوان كما صار يعرف فى العصر العثمانى إضافات وتجديدات متعددة فى العصر العثمانى، لعل أبرزها، بناء بيرم باشا ١٠٣٥-١٠٣٨هـ/ ١٦٢٥-١٦٢٨م. كشكا[١٥٥] عرف بكشك بيرم باشا[١٥٦]، كما شيد إسماعيل باشا الوزير ١١٠٧-١١٠٩هـ/ ١٦٩٥-١٦٩٧م كشكا مطلا على عرب اليسار[١٥٧]. وهو الكشك الذى جدده محمد على وصار يعرف بكشك الجوهرة، وهذا الكشك ربما يكون فى موقع قاعة البحرة أو يعلوها.

شهد الحوش السلطانى منذ بداية العصر العثمانى وحتى نهايته العديد من الاضطرابات السياسية اختلفت أطرافها بين الجنود العثمانيين والمماليك والعامة[١٥٨].

كان من نتيجة الاضطرابات التى سادت فى هذا

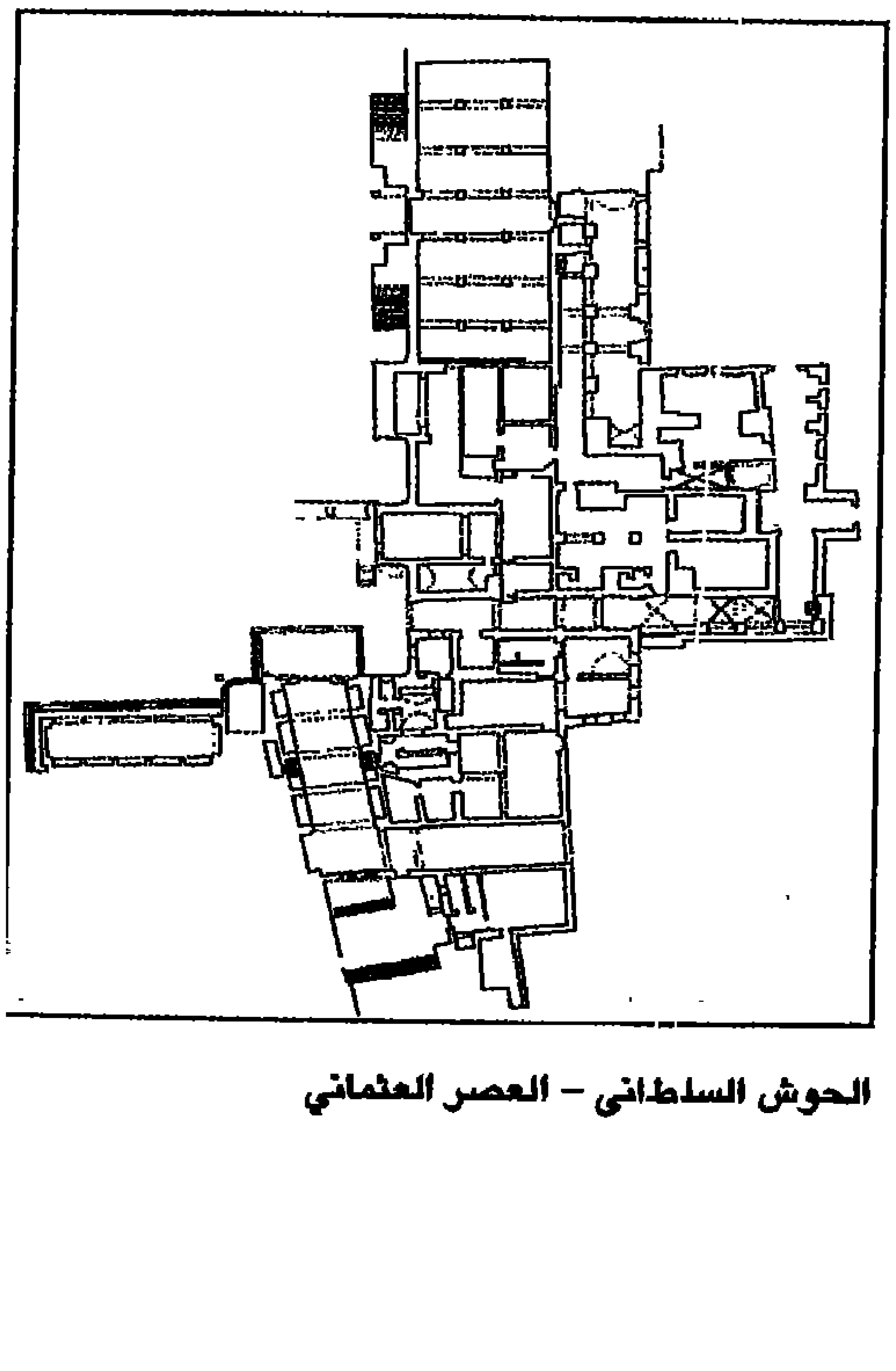

الحوش السلطاني – العصر العثماني

العصر أن تأثر موقع دار الضرب داخل القلعة. كانت دار الضرب تقع فى خط القشاشين بالقاهرة، وهذا الموضع اختير لها فى العصر الفاطمي، وظلت تؤدى هذا الدور إلى عصر المقريزى، الذى يذكر فى خططه (هذا المكان الذى هو الآن دار الضرب من بعض القصر)[١٥٩] – أى القصر الفاطمى – ونقلت هذه الدار بعد عصر المقريزى إلى الحوش السلطانى بالقلعة فى وقت غير محدد[١٦٠]. ومن المرجح أن هذا النقل كان لسببين أحدهما هو الاضطرابات التى سادت عصر المماليك الجراكسة، بخاصة من المماليك الجلبان، فمن الممكن أن السلطات المملوكية أرادت بنقلها دار الضرب تأمينها من هذه الاضطرابات التى تؤثر سلبا على حركة النقد والاقتصاد بالمدينة، وثانيهما يرجع إلى اضطراب النقد فى العصر الجركسي، وربما أرادت السلطات المموكية مزيدا من السيطرة على دار الضرب من خلال هذا الإجراء[١٦١]. وربما كان موقع دار الضرب فى ذلك العصر هو موقعها الحالي، حيث إن الحوش كان قد ازدحم بالمبانى آنذاك، ولقرب هذا الموقع من باب الجبل، وهو ما يسهل دخول وخروج المتعاملين مع دار الضرب.

تأثرت دار الضرب بالتغييرات التى أدخلها العثمانيون على نظام الحكم فى مصر، حيث صارت دار الضرب من جملة ما تسيطر علية طائفة مستحفظان[١٦٢]. فنقلت إلى النطاق الشمالى من القلعة، ولعل موقعها كان فى موقع قصور الحريم الآن بهذا النطاق، ويرجع دخول دار الضرب تحت نفوذ الانكشارية إلى عام ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م. عندما حضر إبراهيم باشا الصدر الأعظم لإخماد ثورة أحمد باشا الخائن، فأدخل دار الضرب تحت سيطرة هذه الطائفة، وصارت بباب الانكشارية[١٦٣]. وظلت دار الضرب فى النطاق الشمالى إلى عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م. حتى ثار نزاع بين فرقة مستحفظان وبقية فرق البلوكات الست الأخرى وعلى رأسها طائفة عزبان[١٦٤]. وتعود جذور هذا النزاع إلى عام ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م. عندما أدى مقتل كجك محمد إلى ازدياد أسعار القمح، وإعادة ما كان قد أبطله من المظالم والحمايات التى كان الانكشارية يستفيدون منها[١٦٥] فأوغر ذلك صدور بقية فرق العسكر، وأجمعوا أمرهم فى المحرم من عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م. على مطالبة الباشا بنقل دار الضرب إلى السراية وإخراج من له وظيفة فى دار الضرب من العسكريين. وعللوا طلبهم هذا بأن ذهب دار الضرب منخفض العيار وفضتها نحاس، وهذا كله بسبب الإنكشارية يأمرون القائمين على الدار بشغل الذهب الخارج والفضة الزيوف ويستولون على الفارق لصالحهم[١٦٦]. وطالبت الأوجاقات[١٦٧] الست أيضا بإبطال الحمايات التى يفرضها أوجاق مستحفظان على الحرفيين والتجار، وكان رد الانكشارية هو المطالبة بإبطال مظالم السباهية[١٦٨]. فى الأقاليم مع رفضهم لنقل دار الضرب لما فى ذلك من مساس بكرامتهم[١٦٩].

ولما رأى الانكشارية المستحفظان إصرار بقية الفرق على نقل دار الضرب من بابهم إلى الديوان، وافقوا على ذلك بشرط أن يكتب الجميع حجة بأن ذلك لم يكن لخيانة صدرت منهم ولا تخوفا عليها فامتنع خصومهم واتفقوا هم ونقيب الأشراف ومشايخ السجاجيد على كتابة عرض[١٧٠] ليرسل إلى الباب العالي، وبالطبع رفض الانكشارية التوقيع على العرض. وأرسل إلى إستانبول فى ٢٦ محرم سنة ١١٢١هـ، ومن جانبهم اجتمع الانكشارية فى بابهم وكتبوا عرضا من أنفسهم لأرباب الحل والعقد من الانكشارية فى إستانبول وسافر به شخصان منهم بعد العرض الأول بيومين. وكان مضمون عرض البلوكات الست أن الانكشارية يحمون تجار البن والخضار والفاكهة والخبز رغم مغالاتهم فى أثمان السلع، وأن دار الضرب داخل بابهم ويضربون عيار السكة على مرادهم.

وجاء الرد سريعا من الآستانة ففي ١٩ ربيع الأول جاء الرد مع أمير أخور[١٧١]. من الديار الرومية وقرأ مرسوما بنقل دار الضرب من قلعة الينكجرية إلى حوش الديوان[١٧٢]. ومعه أمر شريف آخر بإزالة المظالم والحمايات[١٧٣]. وأرسلت الآستانة أمينا جديدا لدار الضرب وسكة زان وكاتبا[١٧٤]. تم بناء دار الضرب الجديدة فى منتصف جمادى الثانى من عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م. وضربت بها السكة، ويذكر الجبرتى أنها شيدت مكان معمل البارود الذى نقل إلى محل بجوارها[١٧٥]. بينما جاء

فى الدرة المصانة أن دار الضرب بنيت مكان مدق البارود الذى نقل أمامها. وأن الذى أكمل بناء الدار هو مسلم إبراهيم باشا[١٧٦].

بقيت دار الضرب فى مكانها حتى مقدم الحملة الفرنسية، ويذكر جومار أنها تقع فى الركن الشرقى من حوش الباشا، وهى أكثر مبانى القلعة بساطة. وهى فى ذلك تشبه عملية سك النقود نفسها[١٧٧]. ومهما يكن من أمر خروج دار الضرب من باب مستحفظان إلى حوش الديوان فإن ذلك لم يحل دون سيطرة جهة جديدة على دار الضرب، وهى الباشا[١٧٨]. وجرت العادة عند تولى سلطان جديد للحكم أن يُرسل خط شريف بالسكة والخطبة والشنك[١٧٩]. باسم السلطان الجديد[١٨٠]. وكان حرص العثمانيين شديدا على توحيد طراز سك العملات الذهبية فى أنحاء السلطنة العثمانية، ولذا فقد كان الخط الشريف يرد عادة مصحوبا بالسكة أى القوالب التى ستضرب على غرارها العملة. ونظم قانون نامه مصر، الذى وضع فى أعقاب الاضطرابات المملوكية والأهلية فى مصر، العمل فى دار الضرب طبقا لطراز السكة العثمانية[١٨١]. وأول ذكر جاء لقوالب السك هذه والمعروفة باسم "السكة" يعود إلى عام ١١٠٩هـ/١٦٩٧م. عندما وردت فى شهر صفر "سكة دينار عليها طرة" فجمع الباشا الصناجق والأغوات بالديوان وأحضر أمين دار الضرب وأسلمه السكة الجديدة وأمره أن يطبع بها[١٨٢]. وحلت هذه السكة المسماة بالذهب الطرلى محل سكة الذهب الأشرفي[١٨٣]. ويعد سك النقود على الطراز العثمانى واحدا من أقوى مظاهر التبعية المصرية للدولة العثمانية.

السجن

ارتبط بالحوش السلطانى سجن العرقانه، والذى يبدو أنه أنشئ فى عهد السلطان قايتباي[١٨٤]. إذ يرد لدى ابن إياس، عند القبض على الأمير قاسم العثمانى، وهو أحد منافسى السلطان سليم على السلطة وقد هرب وتم القبض عليه، وأدخل سجن العرقانة، إلى أن جاء الأمر بإعدامه، كان ذلك سنة ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م[١٨٥]. ظل هذا السجن مستخدما فى العصر العثمانى ونقبه المساجين فى حوادث سنة ١١٠٠ هـ/ ١٦٩٨م، وهربوا منه[١٨٦]. وهذا السجن خاص بالعسكر ورجال الدولة، ومن يرى الباشا حبسه به. ظل هذا السجن مستخدما إلى عام ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م[١٨٧].

قصر يكن باشا[١٨٨]

كان آخر المنشآت العثمانية بالحوش السلطانى قصر يكن باشا، الذى بناه بالقرب من مدخل الحوش، وما زالت بعض أساساته باقية، وقد نشر كازانوفا نص تأسيسه[١٨٩]كالتالي:

– الوزير هو عظيم (الفلك) الدوار واصف الثانى وهو من صدور العصر، جليل القدر والشأن
– سمى النبى ﷺ أعنى السيد يكن باشا أفخم ولاة مصر، وأعظم ناظم لديوانها.
– فى زمن حكمه بنيت استحكامات المدينة ومقره هو ركن العمران .
– فليكتب تاريخ أثره (يا حافظ)
– لقد بنى باب التفرج جديرا بالسراي ١٢٠٠[١٩٠] هـ

على الرغم من عدم ذكر المؤرخين لعمارة يكن باشا لديوان القلعة فإنه ينسب إليه سراى بناها بجوار باب الجبل وكذلك تجديده لهذا الباب، ومن المرجح أنه جدد برج المقطم ومن المحتمل أن أعماله قد تكون شملت باب مستحفظان.

النطاق العسكرى

اكتسب هذا النطاق طابعا عسكريا أكثر منه سلطويا، إذ كانت به طباق المماليك واختص قسم منه بالعديد من المنشآت السلطوية، وهو القسم المحصور بين الباب المدرج وباب القلة، والذى يمتد الآن من قصور الحريم إلى باب القلة حاليا.

كان الباب المدرج يؤدى إلى ساحة مستطيلة ينتهى منها إلى دركاة جليلة يجلس بها الأمراء قبل الإذن لهم بالدخول إلى النطاق السلطاني، وفى جنوب الدركاة كانت تقع دار النيابة، والتى كان يجلس بها نائب السلطنة فى

العصر المملوكي البحري، وقاعة الصاحب، وهى التى كان يجلس بها الوزير وكتاب الدولة، وديوان الإنشاء، وهو الذى كان يجلس فيه كاتب السر وكتاب ديوانه، وديوان الجيش وباقى دواوين السلطنة[١٩١].

والحد الفاصل بين هذا النطاق والنطاق السلطانى هو سور باب القلة. وهذا النطاق صار يعرف فى العصر العثمانى بقلعة مستحفظان نسبة إلى طائفة مستحفظان التى سكنته[١٩٢]. كما عرف باب القلة بباب مستحفظان[١٩٣]، وعرف أيضا بباب المدافع[١٩٤]. وهذا الباب نال رعاية خاصة فى العصر العثمانى نتيجة للصراع الذى شهدته القلعة بين طائفة مستحفظان وطائفة عزبان بصفة خاصة، ومن ذلك ما قام به الوالى العثمانى إبراهيم باشا الشهير بالإسكندرلى من تعميره قلتى باب مستحفظان سنة ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م[١٩٥].

كان فى قلعة مستحفظان ديوان لهم يعقدون به اجتماعاتهم ويتشاورون فيه فيما يخص مواقفهم من الأحداث الجارية. هذا الديوان ظل قائما حتى مجيء الحملة الفرنسية على مصر، فوصفه جومار بأنه أكثر دواوين القلعة أهمية، إذ كانت تتوسطه قبة محمولة على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض، ويحيط به من جوانبه الأربعة مصطبة، يجلس عليها الحاضرون، وزخرفت جدران الديوان ببلاطات القاشانى ذات الطابع العثمانى، الشهير بألوانه الزرقاء والخضراء، كما زخرفت بالآيات القرآنية. وزخرف سقف الديوان وقبته بزخارف الأرابيسك[١٩٦].

سكن الجند منذ العصر الأيوبى فى النطاق الشمالى من القلعة، واستمر ذلك إلى نهاية العصر المملوكى، وكان نزول طائفة من التتار فى هذا النطاق حادثا ذا شأن اهتم به المؤرخون، وظل هؤلاء التتار بالقلعة إلى أن أنزلهم منها الأشرف برسباى سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م. وعرفت منطقة سكناهم بخرائب التتار[١٩٧].

ومن الملاحظ أن إقامة الجند بهذا النطاق خلال العصر المملوكى، ارتبطت بأدائهم وظائفهم العسكرية، وشهدت القلعة أمرا من الظاهر برقوق، عد بداية لانتكاسة للنظم الحربية المملوكية الصارمة، حين سمح للجند بالسكن فى المدينة والزواج من أهل القاهرة فأخلدوا إلى الراحة[١٩٨]. فضلا عن اتجاه السلاطين لجلب المماليك كبار السن وهو ما أدى إلى العديد من المشكلات والنزاعات لعدم تربيتهم وفق الأصول الحربية، وتلاشى بذلك دور طباق القلعة تدريجيا.

سكن الجند الانكشارية أو طائفة مستحفظان فى العصر العثمانى هذا النطاق من القلعة. وصارت به أسواق ومنازل، وذلك لأن سكنهم به صار متوارثا من الأب إلى الابن. وهو عكس ما كان يحدث فى العصر المملوكى حيث لم يكن الابن يرث الأب فى رتبته، بل يتحول إلى طائفة أخرى من طوائف المماليك عرفت بأولاد الناس، ويسكن المملوك الذى ينتهى دوره الوظيفى بالقلعة المدينة هو وأولاده.

أدى التوارث السكنى بالقلعة فى العصر العثمانى إلى انتشار ظاهرة تأجير وبيع المساكن بها، وهى ظاهرة لم تكن معروفة فى العصر المملوكى، بل صارت بعض مساكن هذا النطاق وقفا، من ذلك منزل وقف أجره الزينى عابدين بن أبى النصر، كان يقع بالقرب من مسجد سارية الجبل، وهذا المنزل خرب مهول بالأتربة، سيعيد المستأجر بناءه، بناء على عقد إيجار مدته تسعين عاما، ومن الملاحظ أن هذه الظاهرة بدأت تنتشر فى هذا النطاق، غير أنها اقتصرت على طائفة الجند العثمانيين. وبصفة خاصة طائفة مستحفظان وأرباب الوظائف بالقلعة[١٩٩].

كما أدى ذلك إلى تحول النطاق الشمالى إلى منطقة بها أسواق وأسبلة فقد شيد بها إبراهيم آغا مستحفظان سبيلا مجاورا لمقعد بيت آغا طائفة الانكشارية[٢٠٠]. ومنزلا تجاه المنزل السابق، والذى يقع بخرائب التتار[٢٠١] كشفت حفائر أجريت بالقلعة عند برجى الطرفة وكركيليان عن بعض القاعات والأساسات الخاصة بهذه المنازل، كما جاء فى وصف مصر أسماء بعض العطفات والأزقة والمنشآت الخدمية بهذا النطاق[٢٠٢]. وكان بعض أعضاء طائفة مستحفظان قد فضلوا السكنى بالمدينة، خاصة فى القرن ١٢هـ/ ١٨م. ومنهم عبد الله جاويش[٢٠٣]، جاويش باب مستحفظان[٢٠٤]. ومن اللافت للنظر أن قانون نامة مصر

صرح لأفراد هذه الطائفة بالحضور بزوجاتهم إلى القلعة، وأن يرثهم أبناؤهم فى وظائفهم، وألا يسكنوا بالمدينة، ولكن مع ضعف السلطة العثمانية سكنوا بالقاهرة، بل وصار منهم تجار واشتغل بعضهم بحرف متعددة[٢٠٥]، مما يدل على الانحلال الذى ساد طوائف الجند العثمانية.

مثل الاحتلال الفرنسى للقلعة تغيرا جذريا فى بقاء هذه الفرقة وعائلاتها بالقلعة، إذ أصدر الفرنسيون أمرا إلى سكان القلعة فى شهر ربيع الثانى ١٣١٢هـ/١٧٩٨م، بالنزول من القلعة ونصبوا المدافع فى جهات مختلفة، وراحوا يهدمون أحياءها[٢٠٦]، وتولى ذلك ضباط فرقة الهندسة بالحملة[٢٠٧].

الإسطبل

مثلت الخيول مقوما أساسيا من مقومات الجيوش فى العصور القديمة، لذا اعتنى بها القدماء، فقد كانت الفروسية هى مقياس المقاتل خلال العصرين الأيوبى والمملوكي[٢٠٨]. وقد اهتم الأيوبيون والمماليك بتربية الخيل، وجعلوا القسم المخصص للخيول من القلعة جزءا لا يتجزأ منها، ونال هذا القسم رعاية متزايدة فى العصر المملوكى حيث أقيمت به العديد من المنشآت السلطانية، كما دارت به أحداث سياسية مهمة.

كان موقع الإسطبلات أسفل القصر السلطاني حافزا لكى يقوم السلطان بمراقبة هذه الإسطبلات وما يجرى بها، واكتسبت الإسطبلات أهمية متزايدة منذ أن نقل السلطان الكامل مقر الحكم إلى القلعة، واهتم بالميدان المجاور لها. ويذكر ابن إياس أن السلطان الناصر بدأت مراسم توليته للمرة الثالثة كسلطان بالمقعد السلطانى بالإسطبل[٢٠٩]. وتدل هذه الحادثة على أن هذا المقعد يعود إلى فترة سابقة، وربما إلى العصر الأيوبي، حيث كان يجلس به السلطان لاستعراض الخيل عماد جيشه، عرف هذا المقعد فى مرحلة لاحقة بالحراقة[٢١٠]. ولعب دورا فى الحياة السياسية المملوكية بخاصة فى العصر الجركسي، وكان أول من جلس به من السلاطين للقضاء هو الظاهر برقوق[٢١١]. واكتسب هذا المقعد أهمية أيضا فى عصر الأشرف برسباى إذ أدار منه شئون السلطنة وعقد به مجالس القضاء ومن ذلك استقباله سفير شاه رخ[٢١٢]. وكذلك عقدت به اجتماعات للبحث فى شئون السلطنة، منها اجتماع استدعى له القضاة وكبار الصيارفة فى شهر صفر ٨١٨ هـ/مايو ١٤١٥م. حيث طلب منهم إبطال التعامل بالدنانير الناصرية. ولكن اعترض عليه جلال الدين البلقينى قاضى القضاة، ولم ينته الاجتماع إلى قرار بشأن منع الناس من التعامل بالناصري[٢١٣].

شهد المقعد أيضا تولية السلطان تمر بغا الظاهرى السلطنة فى حوادث سنة ٨٧٢ هـ حيث اجتمع أكابر الأمراء والخليفة العباسى والقضاة وبايعوه بالسلطنة وهو جالس بصدر المقعد، ودخل بعدها مبيت الحراقة ليلبس خلعة السلطنة، ثم خرج ليبدأ الموكب السلطاني[٢١٤]. وتدل هذه الحادثة على أنه كان للمقعد مبيت وملحقات، وهو ما يعنى أنه منشأة كبيرة. وشهد مقعد الحراقة تولية آخر سلطان مملوكي، وذلك فى رمضان سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م. وقدم لنا ابن إياس تفاصيل هذا الحدث حيث يذكر أنه (فى يوم الجمعة رابع عشر رمضان صلى الأمير الدوادار صلاة الفجر وركب ومعه الأمراء المقدمون وقدامه الفوانيس والمشاعل، فطلع إلى باب السلسلة وجلس به. فلما استقر بباب السلسلة أرسل خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله فحضر ... وحضر قاضى القضاة الحنفى .... وجماعة من نواب القضاة الذين بالقاهرة. فلما تكامل المجلس واجتمع سائر الأمراء المقدمين وغيرهم من الأكابر والأصاغر والعسكر، فأظهر أمير المؤمنين يعقوب وكالة مطلقة عن ولده محمد المتوكل على الله، بأنه وكله فى جميع أمور الخلافة وغيرها، وكالة مفوضة .... فبايع السلطان أمير المؤمنين يعقوب نيابة عن ولده محمد المتوكل وشهد بذلك الشرفى يحيى بن البرديني، فلما تمت له البيعة – أى السلطان – أحضروا له خلعة السلطنة، وهى الجبة السوداء والعمامة السوداء والسيف البداوى، فأفيض عليه شعار الملك وتلقب بالملك الأشرف مثل قرابته الملك الغوري، ثم قدموا له فرس النوبة بغير كنبوش ولا سرج ذهب، ولا وجدوا له فى الزردخاناه لا قبة ولا طير ولا الفواشى

الذهب، فركب من على سلم الحراقة التى بباب السلسلة، والخليفة قدامه، فطلع من باب سر القصر الكبير، وجلس على كرسى المملكة، وقبلوا له الأمراء الأرض، ودقت له البشائر فى القلعة، ونودى فى القاهرة)"[٢١٥].

ومقعد الإسطبل هذا من المرجح أنه جدد فى عصر الناصر محمد بن قلاوون، حيث قام الناصر ببناء قصوره فوق أرض الإسطبل ورفعها حتى صارت فى مستوى أرضية النطاق الجنوبي، وربط الإسطبل بالقصر بباب سر، من القصر ومن القاعات السبع. ومن اللافت للنظر أن مصطلح الحراقة لم يظهر فى الإسطبل إلا بعد عصر الناصر، وهو ما قد يعنى أن مواد النيران التى كانت الحراقات ترميها كان تصنع فى هذا الموضع.

ارتبط بالإسطبل وأغلب الظن بالمقعد موكب الإسطبل الذى كان يجرى مرتين فى الأسبوع بخاصة فى العصر الجركسى والغرض من هذا الموكب النظر فى شئون الأمراء والمماليك والإقطاعيات. وفى هذا الموكب يجلس السلطان فى صدر المقعد وحوله الأمراء مقدمو الألوف يمينا ويسارا على مقاعد من الحرير، ولا يحضر القضاة هذا المجلس، وبعد أن يقرأ ناظر الجيش ما يتعلق بالإقطاعيات يوقّع السلطان منها على ما يشاء. ثم يدخل كاتب السر ويقدم العلامة فيعلم السلطان ما وقّع عليه. وأخيرا يدخل الجيش طائفة بعد طائفة لتقديم واجب الولاء وإظهار الطاعة للسلطان، ثم يمد سماط كبير عند انتهاء هذا الموكب[٢١٦].

ومن منشآت الإسطبل ذات الطبيعة السلطانية:

الطبلخاناه

وكان للطبلخاناه وظيفة مهمة توازى ما نعرفه اليوم بموسيقى الحرس الجمهورى أو فرق الموسيقى العسكرية، فقد كانت تدق فى أوقات معلومة فى اليوم وفى مناسبات محددة. ومن هنا جاءت أهميتها كرمز من رموز السلطة المملوكية وبطل أمر دق الطبلخاناه منذ دخول السلطان سليم مصر ٩٢٣هـ/١٥١٧م. فلم تدق لخاير بك الذى تولى أمر مصر نيابة عن العثمانيين، واندثر أمرها منذ ذلك الحين[٢١٧]. وما زال موقع الطبلخاناه باقيا إلى اليوم، غير أن العديد من التجديدات والإصلاحات طرأت على هذه المنشأة، وهى تقع على يسار الصاعد من باب العزب بالقلعة إلى الممر أو الطريق المنحوت فى الصخر وحدد المقريزى موقعها بدقة إذ يذكر أنها تقع "تحت قلعة الجبل فيما بين باب السلسلة وباب المدرج حيث كانت دار العدل القديمة التى شيدها الظاهر بيبرس سنة ٧٢٢هـ/١٣٣١م. وكانت الطبلخاناه فى بادئ الأمر ساحة دون سقف، فلما ولى الأمير سودون طاز أمير أخور وسكن الإسطبل. جعل الطبلخاناه طابقين، وذلك بسبب وقوع المدرسة الأشرفية تجاهها، وهو ما جعل منها فى زمن الفتن مكانا لمهاجمة القلعة، وأراد سودون بتعلية الطبلخاناه ألا يقدر أحد على رمى القلعة من المدرسة الأشرفية. غير أن الناصر فرج بن برقوق هدم المدرسة الأشرفية فيما بعد"[٢١٨].

وحدث تحول مهم لوظيفة الإسطبل فى العصر العثمانى إذ سكنته طائفة العزب[٢١٩]. وصار هذا القسم من القلعة يعرف بباب العزب[٢٢٠]. وعرف باب السلسلة أو باب الإسطبل منذ ذلك الحين بباب العزب ، جدد هذا الباب رضوان كتخدا الجلفى عام ١١٦٨هـ/ ١٧٥٤م، وجعل له بدنتين وزلاقة[٢٢١] ظلتا موجودتين حتى عصر محمد علي، وجاءت عمارة هذا الباب مشابهة لعمارة باب الفتوح وباب زويلة.

حدث تغيير فى عمارة هذا النطاق من القلعة لكى يتواءم مع إقامة جند العزب به، والذين كان لا يسمح لهم فى بادئ الأمر بالمبيت خارج القلعة[٢٢٢]. كان لطائفة العزب ديوان لاجتماعاتهم حدد على خارطة الحملة الفرنسية للقلعة بالقرب من باب العزب[٢٢٣]. لكنه لم يبق منه شيء، وربما تغيرت عمارته فى ظل التجديدات وإعادة التوظيف التى أحدثها محمد على فى منطقة باب العزب. وقدم جومار وصفا لهذا الديوان بصورة تجعلنا نعتقد أن عمارته كانت قريبة من عمارة ديوان طائفة مستحفظان، وإن كان الاختلاف بينهما جاء فى الزخارف، حيث كسيت جدرانه بفسيفساء مكونة من المينا البيضاء المتقنة

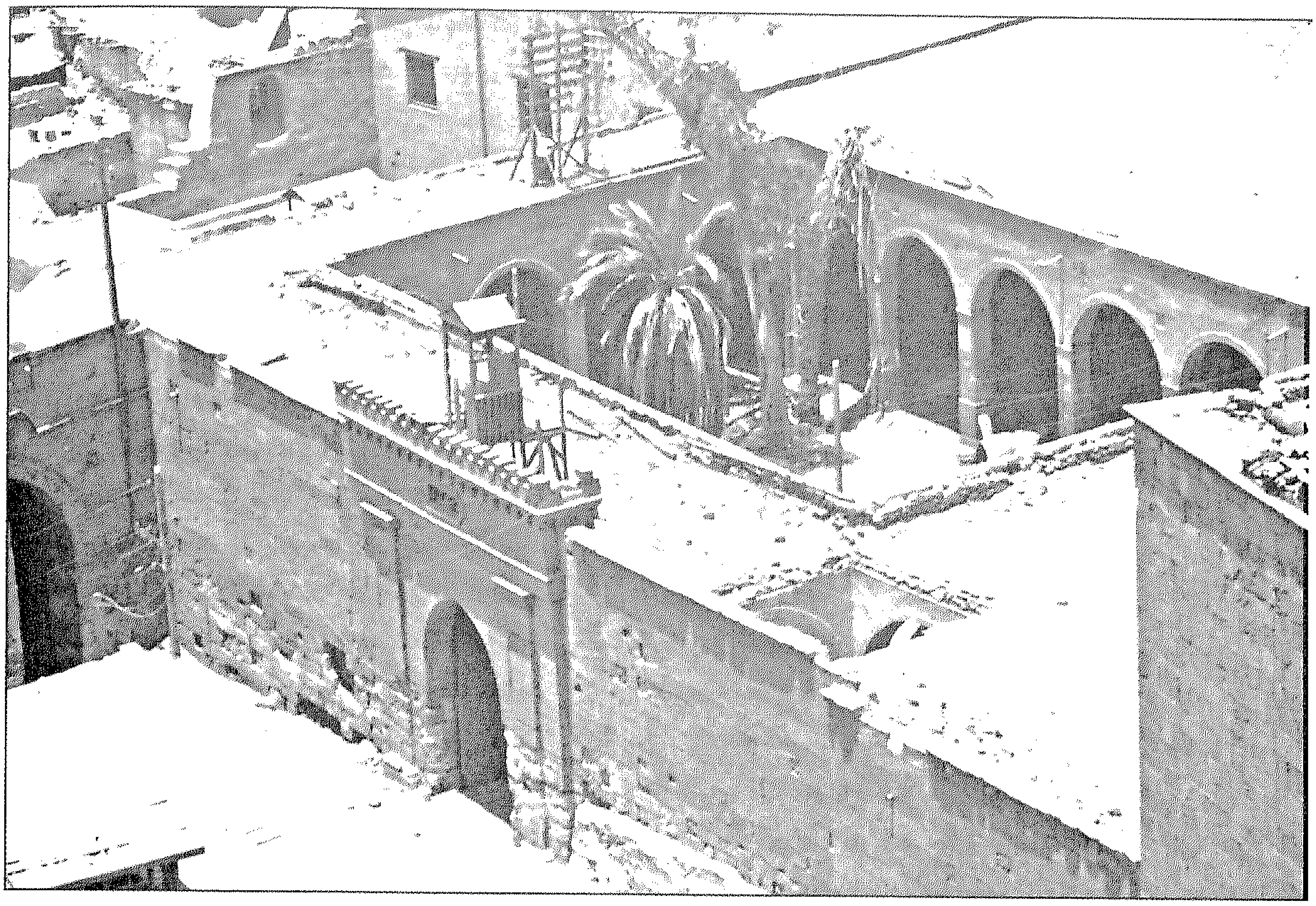

الطبلخاناه

الصنع والمزينة بالتصاوير المرسومة باللونين الأزرق والأخضر، نرى عليها مآذن ذات استطالة شديدة، حسب الاستخدام القديم. ووضع هذه المآذن يخلب اللب حتى ليظن أنها صورة من الفريسكو. وعلى مسافة منها نلمح تصاوير جدارية ذات مربعات مثبتة بمهارة على الحائط فوق طبقة من الجبس يبلغ سمكها بوصتين[٢٢٤].

ولعل هذه التصاوير تمثل تقليدا لفسيفساء القاعة الأشرفية بالقلعة، وربما كانت فى موضوعاتها متأثرة بالزخارف العثمانية، وبخاصة أن العزب طائفة من الجند العثمانيين[٢٢٥].

إننا هنا أمام قسم من القلعة أو نطاق ظن أنه غير رئيسي. وبالتالى لم يحظ بدراسات وافية غير أن الدور الأساسى لهذا النطاق منذ تشييد القلعة وحتى العصر العثمانى، على الرغم من اختلاف طبيعته كدور خدمى سياسى متصاعد بدءًا من إقامة الظاهر بيبرس دار عدله به، يجعلنا نعيد النظر فى المقولات السائدة عن هذا النطاق لدى الباحثين. ولعل هذا الدور يمثل تصاعده تغير موقع مدخل القلعة من الميدان، من باب الأربعين الذى ما زال باقيا إلى اليوم خلف باب العزب، إلى باب العزب الذى شيد على الأرجح فى عصر الظاهر بيبرس الذى شيد العديد من المنشآت فى القلعة. وتبرز أهمية هذا النطاق بصفة خاصة من سكنى كبار الأمراء به قبل توليتهم السلطنة فى المرحلة الانتقالية التى تسبق عزل السلطان الضعيف أو السلطان الطفل الذى يخلف والده، حدث هذا عندما أقام الظاهر برقوق بالإسطبل قبل أن يعزل الصالح حاجى بن الأشرف[٢٢٦]، وعندما أقام المؤيد شيخ بالإسطبل وشرع فى بناء دار له به، عندما قتل الناصر فرج وتولى

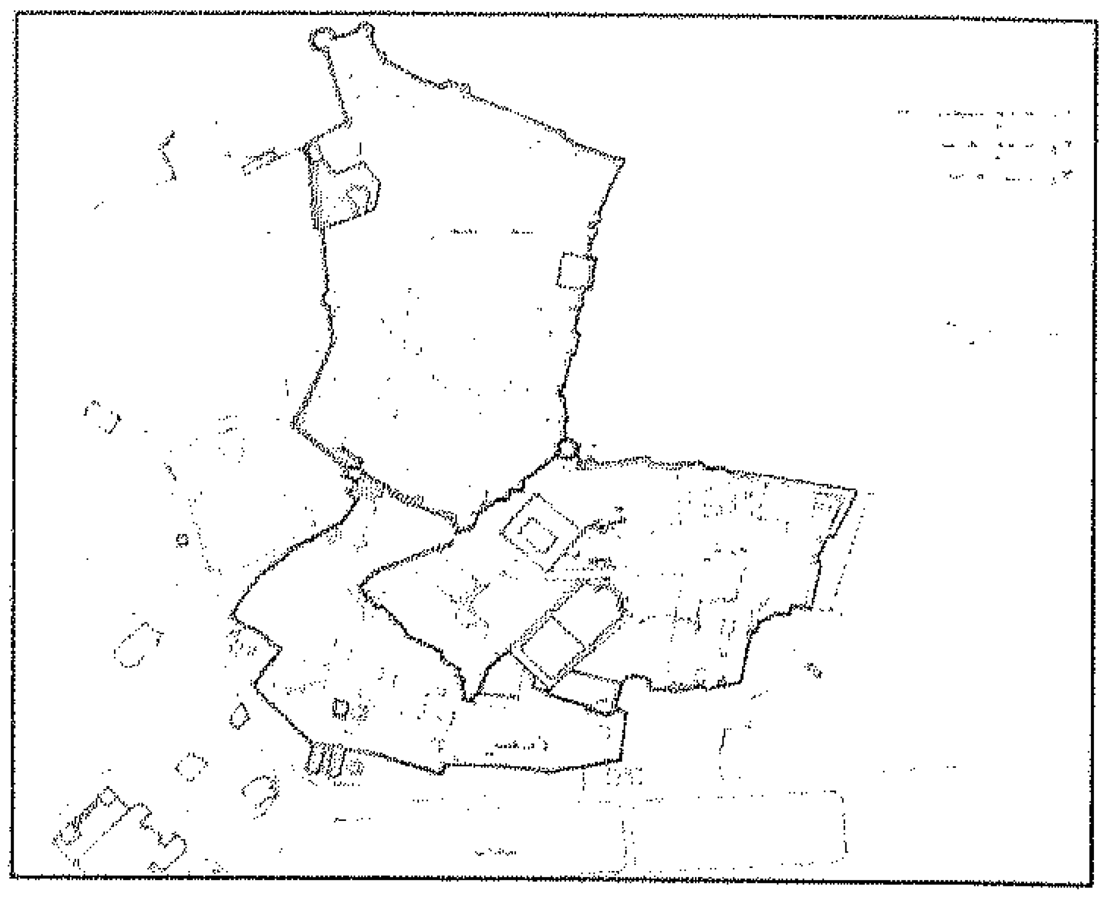

نطاق باب العزب

الخليفة المستعين الملك، وظل المؤيد شيخ بالإسطبل إلى أن عزل الخليفة وتولى هو الملك[٢٢٧].

الميدان[٢٢٨]

يمثل ميدانا الرميلة وتحت القلعة الحد الفاصل بين القلعة والمدينة، وعدهما المؤرخون من حقوق القلعة أى أنهما جزء لا يتجزأ منها[٢٢٩]. وشهد هذان الميدانان أحداثا سياسية واجتماعية مهمة، وهو ما جعلهما محورا من محاور الحكم فى مصر منذ العصر الأيوبي. كانت أرض الميدانين[٢٣٠]. مجرد أرض فضاء حتى شيد أحمد ابن طولون ميدانه بهذه البقعة، وفى العصر الفاطمى صارت سوقا يباع فيه الخيل والدواب، وفى العصر الأيوبى اهتم به السلطان الكامل سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م. واستمر هذا الاهتمام بالميدان من قبل ملوك بنى أيوب حتى عهد الصالح نجم الدين أيوب الذى جدد له ساقية وغرس حوله الأشجار[٢٣١]. وفى العصر المملوكى خرب المعز أيبك سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م ميدان الرميلة وظل كذلك حتى اعتنى به الناصر محمد بن قلاوون، فأعاد تشييده وزراعته وتسويره، ورتب فيه الناصر لعب الكرة هو وأمراؤه يومى السبت والثلاثاء من كل أسبوع[٢٣٢]. وظل الاهتمام متواصلا بالميدانين طوال العصرين المملوكى البحرى والجركسى. وكانت العمارة الكبرى للميدان فى عصر السلطان الأشرف قنصوة الغوري. ففى شهر صفر ٩٠٩ هـ/١٥٠٣م.

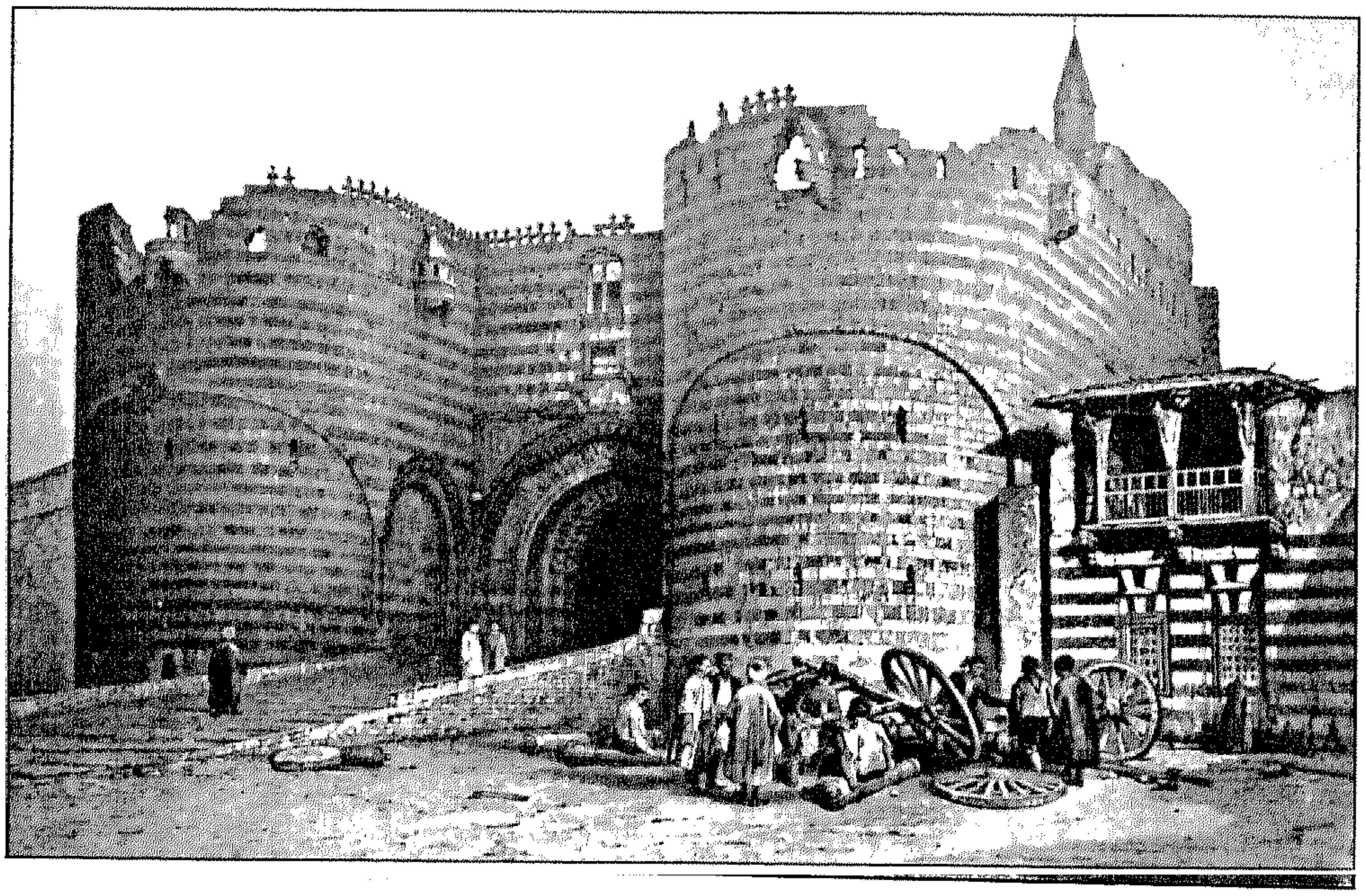

باب العزب– أوين كارتر

كان ابتداء العمل بالميدان تحت القلعة فى عهده، فتمت تعلية الأسوار، ثم شرع فى بناء مقعد ومبيت برسم المحاكمات وأنشأ فى الجهة الغربية من الميدان قصرا حافلا ومنظرة وبحرة، وغير ذلك من المبانى الفاخرة، ثم شرع فى نقل أشجار من سائر الفواكه وأصناف الأزهار والرياحين وغير ذلك فغرست بالميدان من الجهة الغربية، ثم أنشأ قصرا على باب الميدان مطلا على الرميلة، وعمل ممشاة من القلعة إلى الميدان بسلالم متصلة إلى ذلك القصر، وجعل للميدان بابا كبيرا وعليه سلسلة حديد وإلى جانبه باب صغير عليه سلسلة حديد مثل الباب الكبير[٢٣٢].

استمر الاهتمام بميدان الرميلة وميدان تحت القلعة قائما فى العصر العثمانى بحكم أهميته الاستراتيجية، ومن ولاة مصر الذين كان لهم دور في ذلك مصطفى باشا

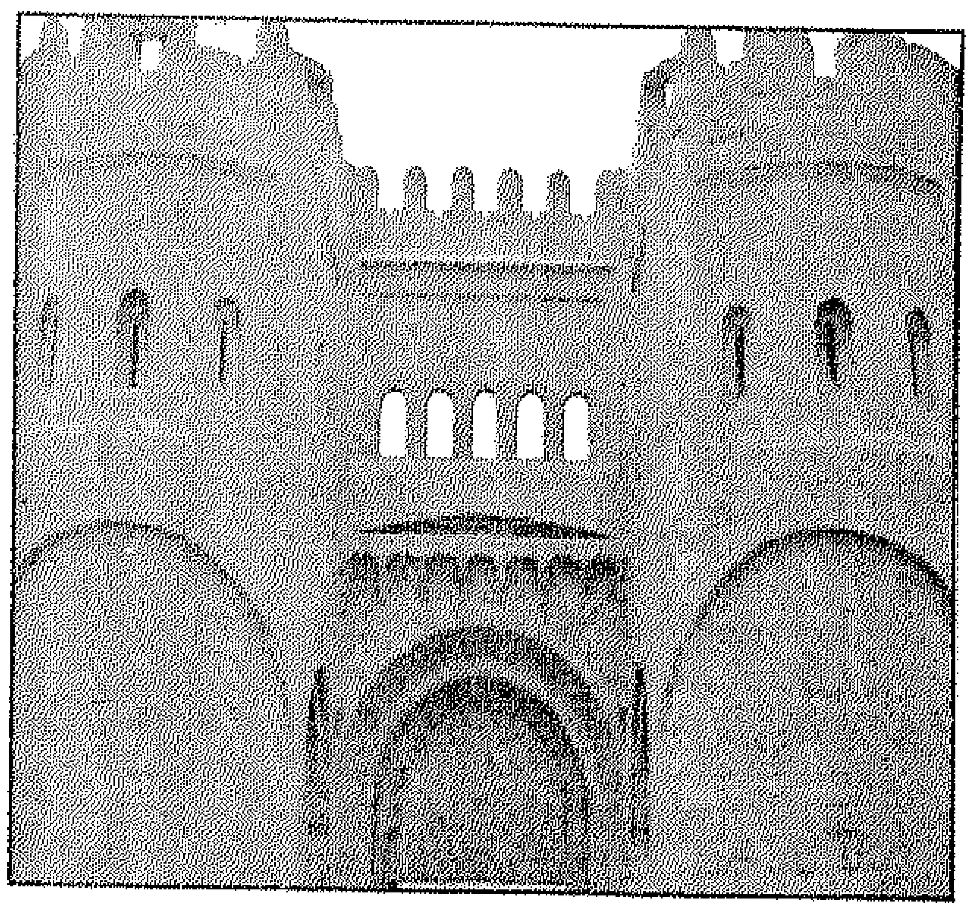

باب الفتوح

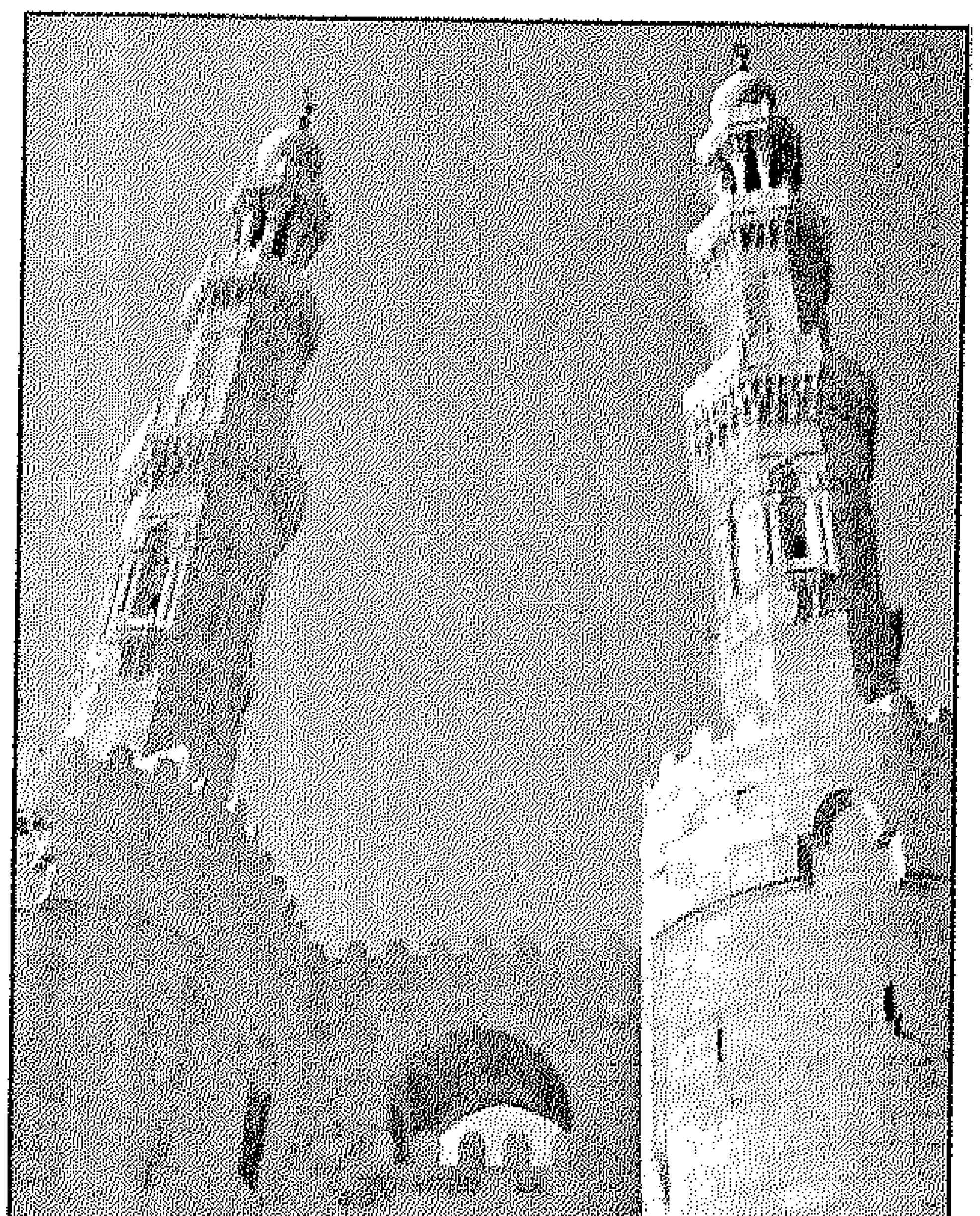

باب زويلة

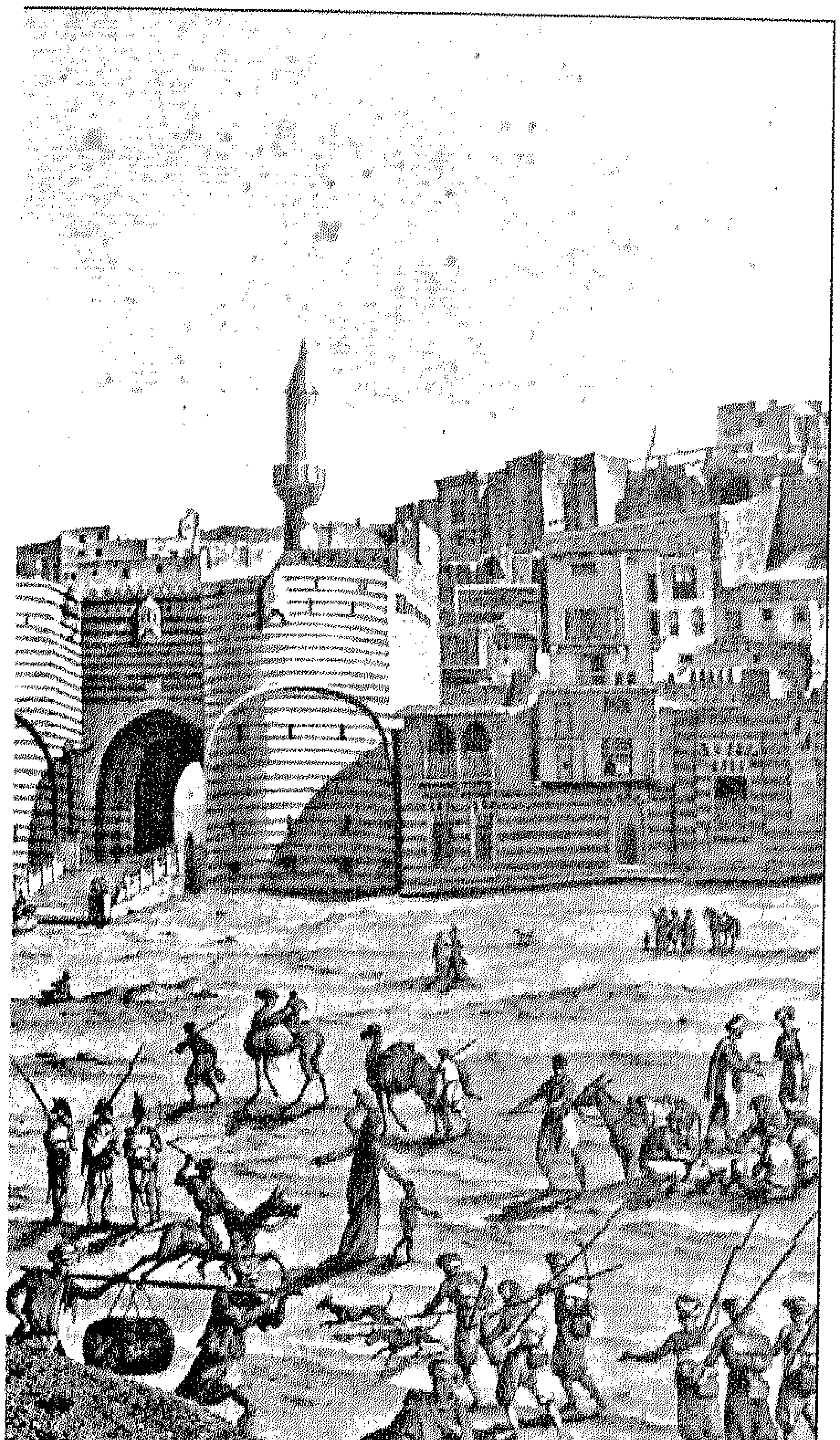

الذى تولى سنة ١٠٣٢هـ/١٦٢٣م. فقد عمر غيط الميدان فزرعه بعد أن كان قد اندثر وجعل فيه بئرا معينا، ومن العمائر التى أقامها أيضا زاوية غربى الميدان، كذلك أنشأ حوضا وسبيلا اندثر الآن، كما استن بالميدان سنة جديدة، وهى عمل موسم ثلاثة أيام العيد به[٢٣٤].

وممن كان له اهتمام بالميدان الوالى قرة محمد باشا ١١١١ - ١١١٦هـ/١٦٩٩ - ١٧٠٤م الذى جدد البستان بالميدان تحت القلعة سنة ١١١٣هـ/١٧٠١م، وعمره وغرس به الأشجار المثمرة، كما رمم قاعة الغورى التى بالبستان، وبنى مصطبة برسم إلباس القفاطين وتسليم المحمل لأمير الحج وأرباب المناصب، وعمر أيضا مصطبة لرمى النشاب، وأنشأ حماما بالميدان، ومن مآثره العظيمة أيضا إنشاؤه جامع بخطبة لا يزال موجودا إلى الآن[٢٣٥] ومنشآت أخرى اندثرت الآن[٢٣٦].

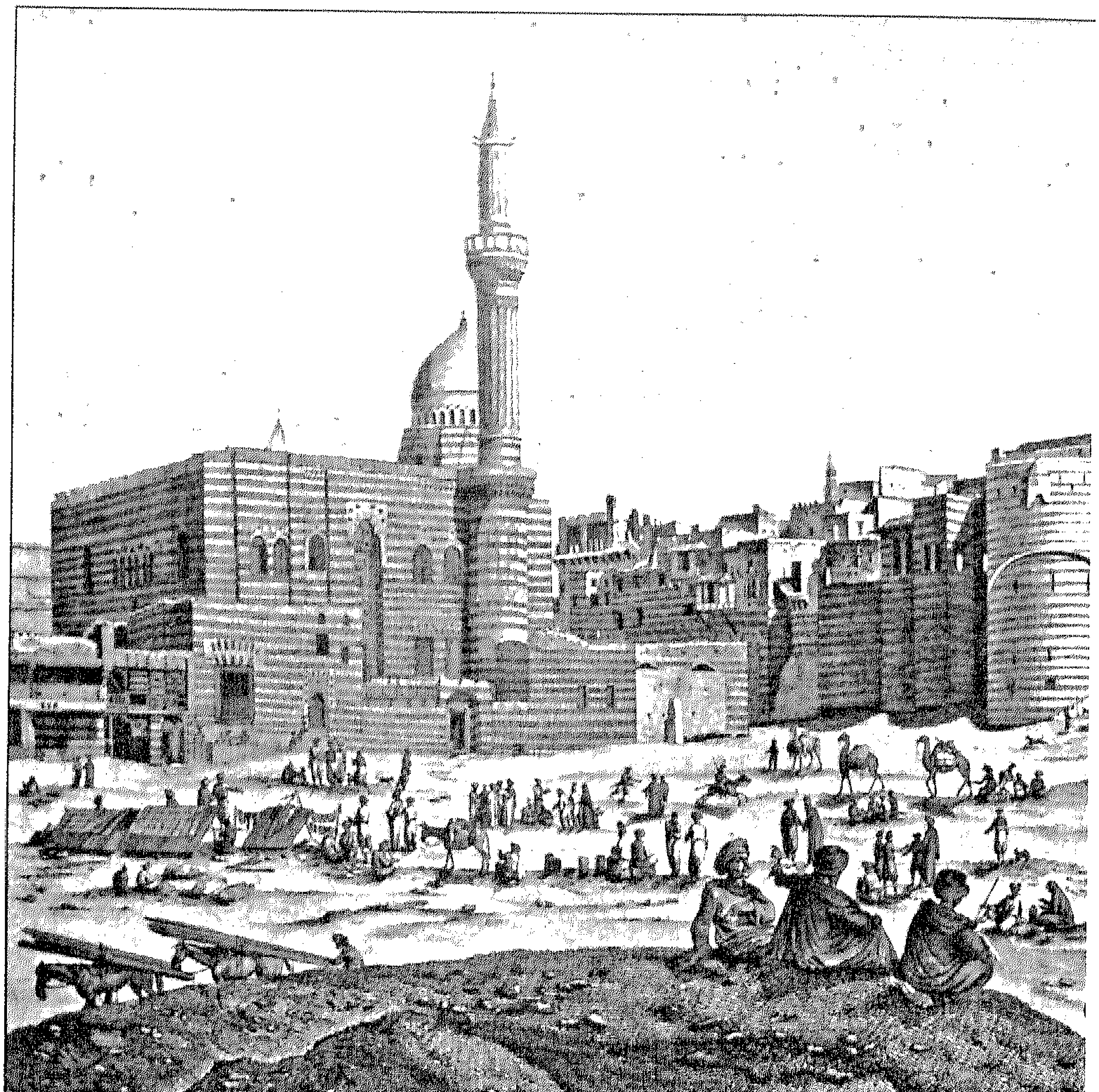

ميدان القلعة

وقد تم الكشف مؤخرا عن بقايا من سور الميدان تعود إلى العصر المملوكى خلف سنترال القلعة، وربما كان هذا السور من ضمن تجديدات الغورى فى الميدان.

وظائف ميدانى القلعة

كان لميدانى القلعة وظائف عديدة، طغى عليها رسوم الدولة الحاكمة سواء كانت المملوكية أو العثمانية، فقد استخدم كمصلى للعيدين، وفيه كان يجلس الملوك والولاة للنظر فى المظالم، وكانت تقام به حفلات زواج خاصة بالسلاطين والأمراء، وعمل المواكب السلطانية، إلى جانب استخدام الميدان فى ألعاب الفروسية وبخاصة لعب الكرة، وكذلك استخدم فى النشاط الدبلوماسى حيث كان السلاطين يستقبلون فيه السفراء والرسل والضيوف، وارتبط ميدان تحت القلعة باحتفال سنوي، وهو احتفال الدوران وخروج المحمل.

صلاة العيدين

كان لسنة الرسول ﷺ، أثرها الواضح فى اشتمال المدينة على ساحة فضاء، تقام عليها صلاة العيد فى الخلاء، عرفت بمصلى العيد يخرج إليها أهل المدينة لصلاة العيد[٢٣٧]. ومن المرجح أن الميدان اتخذ لصلاة العيد منذ عصر الكامل حين نقل مقر الحكم من القاهرة إلى القلعة، وظل الأمر ساريا إلى العصر المملوكى البحري[٢٣٨]. وفى العصر الجركسى الذى بدأ مع تولى الظاهر برقوق السلطنة أقام صلاة العيد بجامع القلعة لأسباب أمنية[٢٣٩].

ومن اللافت للنظر أن ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنه يكون الذهاب إلى صلاة العيد من طريق والعودة من طريق آخر [٢٤٠]. وهو ما ترك أثره على المدن الإسلامية منذ فترة مبكرة، ففى مدينة عنجر[٢٤١] التى شيدها الوليد بن عبد الملك لسكن القبائل العربية المهاجرة إلى بلاد الشام، تم تخطيط طريقين من أمام سور المدينة أحدهما للذهاب للمصلى والآخر للعودة منه[٢٤٢]. وهذا ما ترك أثره على مدينة القاهرة إذ كان الخليفة الفاطمى يخرج من باب الفتوح إلى مصلى العيد شمال المدينة ويدخل من باب النصر. وفى القلعة كان للسلطان عند خروجه لصلاة العيد بالميدان طريقان أيضا، حددهما المقريزى حيث يذكر "فيكون نزول السلطان فى يوم العيد وصعوده من باب خاص من دهليز القصر غير المعتاد النزول منه فإذا ركب من باب قصره ونزل إلى منفذه من الإسطبل إلى هذا الميدان ينزل فى دهليز سلطانى قد ضرب له على أكمل ما يكون من الأبهة فيصلى ويسمع الخطبة ثم يركب ويعود إلى الإيوان الكبير ويمد به السماط ..."[٢٤٣]. ومن الملاحظ أن السلطان نزل من قصره من دهليز القصر، ولم يعد إلى القصر بل ذهب إلى الإيوان وهو ما يعنى مخالفته فى طريق العودة لطريق الذهاب، وقد يكون صعوده للقلعة من الممر السلطانى المنحوت فى الصخر والذى يؤدى إلى ساحة تتقدم الإيوان.

نظر المظالم والمناسبات السياسية

جلس السلطان الظاهر برقوق للنظر فى أحوال الرعية والحكم بين الناس فى الميدان بدءًا من يوم ٢٩ صفر سنة ٧٩٢ هـ/ ١٣٨٩م، واستمر على ذلك فى كل يوم أحد وأربعاء[٢٤٤]. كما قام السلطان الغورى ببناء مقعد للنظر فى المظالم فى الميدان[٢٤٥]. كما كان الميدان موضعا للاحتفالات بزواج السلاطين والأمراء مثل زواج ابن بيبرس على بنت الأمير سيف الدين كسرويه التترى سنة ٦٦٤ هـ/ ١٢٤٦م[٢٤٦]. وكذلك شهد الميدان عرس ابن بيبرس على بنت المقر السيفى قلاوون سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م، وكان احتفالا عظيما[٢٤٧].

استخدم الميدان فى استقبال الرسل والسفراء والقصاد من جميع أنحاء العالم فى العصر المملوكى، بل إن الميدان كان مقر الإقامة الدائم لبعضهم أثناء مهامهم فى مصر، وكانوا يقيمون بمناظره أو فى مخيمات كبيرة مجهزة بما يلزمهم، وقد استقبل هؤلاء الرسل والسفراء استقبالات رسمية. على رأسها السلطان ومعه أمراء وأعيان الدولة الكبار، وكان يتم

تبادل الهدايا والمكاتبات بالميدان أحيانا. ويعتبر عصر السلطان الغورى ذروة نشاط الميدان فى هذا المجال، ونظرًا للتنافس الذى اشتد فى ذلك العصر بين المماليك والصفويين والعثمانيين، فقد حرص السلطان الغورى على أن يظهر لسفراء ورسل الصفويين عظمة السلطنة المملوكية وعظمة جنودها وقوتهم وشدة بأسهم، فكان يستضيفهم كلهم بالميدان ويستعرض العسكر بكامل عدتهم، ويتعمد أن يلعب الكرة والصولجان مع مماليكه بالميدان، وكان يأمر بسوق الرماحة وأن يرموا النشاب من على ظهور الخيل وهم بآلة السلاح، وأن يلعبوا القبق وبالقسى كفريقين متخاصمين ويتبارون بالرماح ويظهرون الفنون الغريبة التى تدهش الرسل[٢٤٨]، وتجعلهم يتعجبون من ذلك غاية التعجب[٢٤٩]. ويذكر بن إياس أيضا أن الغورى قصد سوق الرماحة أمام قاصد بن عثمان أو قاصد الصوفى عمدا (حتى يريه فروسية عسكر مصر فكان ذلك عين الصواب). وكان الغورى يخلع على الرسل الخلع السنية ويهديهم الهدايا الغالية، وكان يحضر الاحتفالات الجم الغفير من الناس. فعل الغورى ذلك بالميدان مع رسل الشاه إسماعيل الصفوى فى يوم ٢٧ شعبان ٩١٣هـ، وفى يوم ٢٨ ربيع الأول سنة ٩١٧ هـ، ويوم ١٩ ربيع الآخر سنة ٩١٧هـ، ويوم ٢٧ ربيع الآخر سنة ٩١٨هـ[٢٥٠]. وفعل ذلك أيضا مع رسل العثمانيين فى جمادى الآخر سنة ٩٠٨ هـ، ويوم ٩ جمادى الأولى سنة ٩١٥هـ، ويوم ٢٥ ربيع الأول سنة ٩٢٠هـ، ويوم ٦ رجب سنة ٩٢٠هـ[٢٥١]. ومن ضيوف مصر أيضا آنذاك ملك الكرج[٢٥٢] الذى استضافه السلطان بالميدان، وكان ذلك يوم ٢٦ ربيع الآخر سنة ٩١٨ هـ[٢٥٣].

الميدان والاضطرابات السياسية

انعكست الاضطرابات السياسية فى مصر على ميدانى القلعة، خاصة ميدان الرميلة، وذلك لكونهما واجهة القلعة تجاه المدينة، فشهدت هذه المنطقة ثورات وفتنا وانقلابات ومؤامرات. ومنها تلك الأحداث التى جرت بالميدان فى سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م عقب اغتيال الأشرف خليل بين طوائف المماليك بقيادة الأمير كتبغا والأمير سنجر الشجاعى[٢٥٤]. ومن الأحداث السياسية المهمة التى شهدها الميدان الفتنة والمعارك التى قادها الأتابكى قوصون ضد السلطان المنصور أبى بكر بن الناصر محمد سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م والتى انتهت بقتل السلطان المنصور أبى بكر، الذى لم يستمر حكمه سوى ثلاثة أشهر[٢٥٥]. واستمرت الفتن والإضطرابات فى الميدان تتصاعد خاصة فى العصر المملوكى الجركسي، ومنها تزعم الأمير أيتمش البجاسى فتنة كبيرة فى شهر ربيع الأول سنة ٨٠٢ هـ/ ١٤٠٠م، وحدثت معارك فى الرميلة فانهزم وفر بمن بقى معه[٢٥٦]. ومن أهم الأحداث التى دارت بالميدان الصراع الذى نشب بين السلطان المنصور عثمان بن جقمق وبين الأتابكى إينال العلائى الذى دارت رحاه بالميدان من أول شهر ربيع الأول سنة ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م، واستمر القتال أسبوعا كاملا، وكان القتال بالرمى والنفوط والمدافع، وقام أنصار إينال برمى القلعة من مدرسة السلطان حسن، وهدموا جزءا من سور الميدان. ودخلوا منه إلى الميدان واستطاعوا الاستيلاء على باب السلسلة، وتمكن إينال حينئذ من الاستيلاء على القلعة. وتسلطن يوم ٨ ربيع الأول سنة ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م، وأرسل الملك المنصور عثمان إلى سجن الإسكندرية، ولم يكن قد تسلطن إلا ثلاثة وأربعين يوما فقط، وقتل كثير من المماليك والزعر والمتفرجين فى هذه الأحداث[٢٥٧].

كما كان الميدان فى العصرين المملوكى والعثمانى مسرحا للصراع بين المماليك أو بين طوائف الجند العثمانيين[٢٥٨]. وشهد الميدان فى العصرين المملوكى والعثمانى ثورات شعبية، كان الدافع إليها الأزمات الاقتصادية المرتبطة بانخفاض منسوب مياه النيل، التى تؤدى إلى المجاعات، أو تعسف بعض أفراد السلطة كالمحتسبين[٢٥٩]. وازدادت حدة هذه الثورات فى العصر العثمانى، وتركزت هذه الثورات فى الرميلة أسفل القلعة، لعدة أسباب منها مجاورتها لمركز السلطة السياسية، حيث كان الناس يحملون شكاواهم، ومن جهة أخرى لوجود

مخازن الغلال بها، فضلا عن تحول هذا الحى إلى حى للفقراء فى العصر العثمانى[٦٠]. وكان الأهالى إثر اختفاء الحبوب من الأسواق وارتفاع أسعارها يتجمعون هناك، للاحتجاج والمطالبة باتخاذ الإجراءات اللازمة لمعالجة الأزمة، كانت الإدارة العثمانية تتلكأ فى إبداء أى نوع من الاستجابة السريعة لمطالبهم على الفور، مما يترتب عليه قيام الأهالى بنهب وحرق مخازن وحوانيت تجار الحبوب فى حى الرميلة[٦١]. وتثير حوادث العنف هذه ردود فعل أشد قسوة من جانب السلطات، ففى أحداث ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م، أرسل عبد الرحمن باشا مجموعة من الجند لتفرقة المتظاهرين وإعادة الهدوء والنظام، غير أن هذا التدخل أدى إلى سقوط ثلاثة عشر قتيلا[٦٢]، وفى حوادث ١٦٨٧م قام المتظاهرون بحرق مخازن الغلال بالرميلة وقرا ميدان. بعد أن نهبوا ما كان بها من الغلال[٦٣].

كان حصار القلعة فى عام ١٨٠٥ من قبل الأهالى والعلماء لإنزال أحمد باشا خورشيد من القلعة وتولية محمد على حكم مصر من قبلهم آخر أهم الأحداث السياسية التى شهدها الميدان فى العصر العثمانى[٦٤]. وشارك محمد على بجنده فى هذا الحصار، إلا أن وقوف المصريين إلى جانبه كان هو العامل الحاسم للحصار.

الحواشي

١ عن حياة الناصر محمد وأعماله وعصره انظر: محمد عبد العزيز مرزوق (دكتور)، الناصر محمد بن قلاوون، سلسة أعلام العرب، العدد (٢٨)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤٦م.

٢ حول نظام الإقطاع فى العالم الإسلامى وطبيعته وأسباب نشأته وانتشاره والفرق بينه وبين النظم الإقطاعية الغربية. انظر: إبراهيم طرخان (دكتور)، النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط في العصور الوسطي، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٨٠م؛ محمود إسماعيل (دكتور)، الإقطاع فى العالم الإسلامى بين الجدل النظرى والواقع التاريخي، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الحادية والعشرين، الرسالة التاسعة والستون، ١٩٨٩ / ١٩٩٠م.

٣ المقريزى، الخطط المقريزية، ج١، ص٨٧: ٩١.

قاسم عبده قاسم (دكتور)، ماهية الحروب الصليبية، ص١٩٥، عالم المعرفة العدد (١٤٩)، الكويت، ١٩٩٠ م.

٤ قاسم عبده قاسم (دكتور)، ماهية الحروب الصليبية، ص١٩٨.

٥ Nasser, the citadel of cairo, p 180

٦ Olg garber, the case of the mosqe, p 35 – 36 the formation of islamic art. london, 1973, 112–114

٧ المقريزى، الخطط المقريزية، ج ٢، ص٢٤٦، ٢٥٦.

٨ ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، ص١٨٩، دار ابن خلدون، الإسكندرية، ١٩٩٦.

٩ السرخسى، محمد بن أبى سهل، المبسوط، ج٢، ص١٢٠، القاهرة، ١٣٢٤هـ / ١٩٠٧ م.

١٠ أغلق صلاح الدين الأيوبى الجامع الأزهر بعد إسقاط الخلافة الفاطمية، لكونه مسجدها الجامع، وتحولت صلاة الجمعة إلى جامع الحاكم بأمر الله، إلى أن أعاد الظاهر بيبرس فتح الأزهر مرة أخرى. المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٧٥.

١١ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٢٥: المقريزى، السلوك، ج٢، ص١٨٤.

١٢ الدواداري، كنز الدرر، (الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر)، ج٩، ص٢٨٢ – ٢٨٣.

١٣ Lila ibrahim and j.m.rogers "the hangah of the emir qawsun "p55-56. mitteilungen des deutschen archaologischen instituts, abtelung kairo 30,1 (1974).

١٤ Michael meinecke "die mamlukischen faience dekorationen: eine werkstatte aus tabrizin kairo (1330 – 1335) p85. kunst des orients 11 (1976 – 77). dor is behrens abousief , the minarets of cairo "p78. cairo 1985.

١٥ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢١٢: القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٧.

١٦ ابن الحاج، أبو عبد الله بن محمد بن محمد العبدرى الفاسى المالكى، المدخل، ج٢، ص٢١٠.

١٧ الزركشى، إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ٢٧٥.

١٨ ابن الأزرق، محمد بن على أبو عبد الله الأصبحى الغرناطى، بدائع السلك فى طبائع الملك، ج٢، تحقيق على سامى النشار (دكتور)، وزارة الثقافة العراقية، ١٩٧٨ م.

١٩ الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٢٧٨.

٢٠ فريد شافعى(دكتور) العمارة العربية فى مصر الإسلامية، ص٦٩٩، ٦٥٠: حسين مؤنس (دكتور)، المساجد، ص١٤٨ – ١٤٩. سلسلة عالم المعرفة (٢٧). الكويت، ١٩٨١م.

٢١ للمزيد من وصف هذا المسجد وعناصره انظر: على المليجى (دكتور)، عمائر الناصر محمد الدينية، ص٢٢٠ : ٢٤٣ رسالة ماجستير، كلية الآثار، ١٩٧٥.

٢٢ العمري، مسالك الأبصار، ص٤١: القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤.

٢٢ Doris behrens Abousief , the citadel of cairo , stage for mamiluk ceremonial , p33. Annules islamologiques.

٢٤ تقع الإسطبلات السلطانية أسفل النطاق الجنوبى من القلعة وهى منطقة صخرية ترتفع عن ميدان القلعة.

٢٥ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٢٧.

٢٦ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٢٧.

٢٧ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص٣٥٥.

٢٨المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٢٧.

٢٩ فهمى عبد الطيم (دكتور)، العمارة الإسلامية فى عصر المؤيد شيخ، ص٢٨ – ٢٩. رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٨ م

٣٠ فهمى عبد العليم (دكتور)، العمارة الإسلامية، ص٨٠ – ٨١.

٢١ عبد الرحمن زكي (دكتور)، قلعة مصر، ص٩٧؛ حسن عبد الوهاب (دكتور)، جامع السلطان حسن وما حوله، ص ٧٤ – ٧٥، سلسلة المكتبة الثقافية عدد (٥٦) دار القلم ١٩٦٢ م.

٢٢ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٢٧.

٢٢ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص٢٥٧.

٣٤ أحدث الدكتور صالح لمعى خلطا بين مسجد المؤيد ومسجد فرج بن برقوق، فحدد موقع جامع فرج فى الإسطبلات السلطانية بينما حددت الوثيقة التى نشرها للمسجد، وكذلك أقوال المؤرخين موقع المسجد فى الحوش السلطاني، ويؤكد ذلك ويدعمه أن فرجا حدد إقامة أسرة قلاوون فى القصور الجوانية وهى قصور الحريم المواجهة للحوش، وجعل المشرف عليها هو المشرف على المسجد لكى تزيد سيطرته على أسرة قلاوون. صالح لمعى (دكتور)، الجامع الأبيض بالحوش السلطانى بقلعة القاهرة، ص٥، جامعة بيروت العربية، ١٩٨٠ م.

٣٥ على باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج٥، ص١٤: كازانوفا، وصف قلعة الجبل، ص٦٤ – ٦٥.

٣٦أحمد فؤاد متولى (دكتور)، قانون نامة مصر، ص٢: ٧. مكتبة الأنجلو- ١٩٨٦م.

٣٧ طائفة مستحفظان: كان أفراد هذه الفرقة يكلفون بحراسة القلاع والحصون والبلاد. أتت هذه الفرقة إلى مصر مع السلطان سليم الأول، وأقامت بالقلعة وعرفت بطائفة السلطان لأنها كانت تمثل بصورة خاصة السلطة العثمانية فى الولاية، ومن هنا أتت قوتها فى القاهرة، وسيطر أفرادها على الالتزامات المربحة وعلى دار ضرب النقود ومراكز المكوس مما زاد من نفوذها، وأفراد هذه الطائفة انكشارية مشاة، وهو جيش عثمانى أنشئ فى عهد السلطان أورلخان (٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦ م) كانت نواته من أهل الفتوة فى الأناضول، ثم اعتمد على أبناء النصارى فى البلقان بعد عثمنتهم وإسلامهم. انظر: أحمد فؤاد متولى (دكتور)، قانون نامه مصر، ص١٨: ٢٠: أحمد السعيد سليمان (دكتور)، تأصيل ما ورد من الدخيل فى الجبرتى، ص٢١، ٢٢ دار المعارف، ١٩٧٩ م؛ مصطفى بركات (دكتور)، دراسة للخط والألقاب والوظائف من خلال النصوص التأسيسية الباقية للعمائر العثمانية بمدينة القاهرة، ص ٤٧٤: ٤٨١. رسالة ماجستير، كلية الآثار، ١٩٨٨.

٣٨مصطفى بركات (دكتور)، دراسة للخط والألقاب والوظائف، ص٥ – ٦.

٣٩ حسن قاسم، المزارات الإسلامية، ج٦، ص٢١: مصطفى بركات (دكتور) دراسة للخط والألقاب والوظائف، ص٩.

٤٠ أحمد فؤاد متولى (دكتور)، قانون نامه مصر، ص١٠.

٤١ Ulkuubates, two ottoman decoments architects in egypt, p123, muqarnas vol 3, leiden – e. j. brill – 1985.

٤٢ هدايت تيمور، جامع الملكة صفية، ص٢٠٥. رسالة ماجستير، كلية الآثار.

٤٣ البكري، محمد أبو السرور الصديقى، المنح الربانية فى الدولة العثمانية، ص١٥٧. تحقيق ليلى الصباغ (دكتور)، مركز جمعة الماجد، دار البشائر، دمشق ١٩٩٦ م: المصرى، أحمد بن عبد الغنى الحنفى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشات، ص١٠٧. مكتبة الخانجى ١٩٧٨ م.

٤٤ للمزيد عن وصف هذا الجامع وعناصره انظر: وثيقة وقف مسجد سليمان باشا بالقلعة محررة فى سنة ٩٣٦ هـ/ ١٥٢٩ م. أرشيف وزارة الأوقاف، رقم ١٠٧٤: هدايت تيمور، جامع الملكة صفية، ص٢٠٢: ٢٠٥؛ أسس التخطيط الحضرى والعمرانى لمدينة القاهرة فى العصور الإسلامية، جدة، ١٩٩٠.

٤٥ العبارة الأولى للماوردى فى الأحكام السلطانية والثانية لابن خلدون فى المقدمة، وأثبتهما بهذه الصيغة رضوان السيد (دكتور) فى مقاله "قضاء المظالم: نظرة فى وجه من وجوه علاقة الدين بالدولة فى التاريخ الإسلامى "مجلة دراسات، المجلد ١٤، العدد (١٠)، ص١٥٩، ١٦٠، ١٩٨٧ م.

٤٦ رضوان السيد (دكتور)، قضاء المظالم، ص١٧٠ – ١٧٢.

٤٧ أهم من كتب فى هذا الموضوع، أبو الحسن الماوردى الذى خصص بابا كاملا لبحث ترتيب الكتاب للنظر فى المظالم فى كتابه "الأحكام السلطانية والولايات الدينية" الذى ألفه لدعم الخليفة العباسى فى صراعه مع البويهيين مباشرة قبل تغلب طغرل بك السلجوقى على بغداد واستيلائه على السلطة بالقوة من البويهيين، ثم تبعه الوزير نظام الملك الطوسى فى كتابه "سياست نامه" الذى وضعه لسلطانه ملكشاه السلجوقى، وخصص ابن رضوان المالقى فصلا فى كتابه لنظر المظالم، اعتمد فيه على الماوردى. وانتشر الحديث عن نظر المظالم فى كتب نصائح الملوك. والسياسة الشرعية، وحثت هذه الكتب على وجوب جلوس السلاطين للنظر فى المظالم جلوسا عاما. ومن هذه الكتب "آثار الأول فى ترتيب الدول" الذى ألفه الحسن ابن عبد الله العباسى للسلطان المملوكى بيبرس الجاشنكير، عام ١٣٠٨م؛ وعن ما ورد فى هذه الكتب حول المظالم والجلوس لها انظر: الماوردى، أبو الحسن على بن حبيب المصرى الشافعى، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩٦م؛ تسهيل النظر وتعجيل الظفر فى أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق محى هلال سرحان، ومراجعة حسن الساعاتى (دكتور)، دار الكتب بيروت. بدون تاريخ؛ الفراء، أبو يعلى محمد بن حسن، الأحكام السلطانية، القاهرة ١٩٦٦ م؛ نظام الملك الطوسى، سياست نامه، ترجمة وتعليق السيد محمد العزاوى، القاهرة ١٩٧٦؛ ابن رضوان، أبو القاسم المالكى، الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، تحقيق على النشار (دكتور)، دار الثقافة، المغرب، ١٩٨٤ م؛ العباسى، الحسن بن عبد الله، آثار الأول فى ترتيب الدول، بولاق، ١٨٨٧م.

٤٨ناصر الرباط ناصر (دكتور)، دار العدل: قصة منشأة إسلامية قروسطية، ص٦٢، مجلة الاجتهاد، العدد (٢٢)، السنة السادسة، ١٩٩٤.

٤٩ ناصر الرباط (دكتور)، دار العدل: قصة منشأة إسلامية قروسطية، ص٦٢ – ٦٣.

٥٠ أنشأها الظاهر غازى بن صلاح الدين سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٨٩م عندما كان حاكما للمدينة فى حياة والده بإيعاز منه. عن دار العدل فى حلب أنظر: ابن شداد. الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، مملكة حلب، م١، ق١، ص١٧، تحقيق دومنيك سورديل، دمشق، ١٩٥٣ م، ابن الشحنة، محب الدين محمد، الدر المنتخب فى تاريخ مملكية حلب، ص٢٣، ٢٤ تحقيق جوزيف إليان سركيس، بيروت ١٩٠٩ م.

٥١ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، ص٢١٠.

٥٢ بيبرس، المنصورى، التحفة الملوكية فى الدولة التركية، ص٢٢٢، الداودرى، كنز الدرر، ج٨، ص٣١٤، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص٢٧٨.

٥٣ ناصر الرباط (دكتور) دار العدل، ص٦٨.

و حول دور العدل ونشأتها وتطورها انظر: Jorgen Nielson: "mazalimand dar al adel under the early mamluks "p114: 112 The muslim world. vol 66 , n2. (april 1976).

٥٤ الإيوان فى العمارة المملوكية يمثل وحدة معمارية مربعة أو مستطيلة الشكل لها ثلاثة حوائط أى من ثلاث جهات فقط والجهة الرابعة مفتوحة، وإذا سد الإيوان من الجهة الرابعة لا يقال له إيوان بل مجلس، والإيوان يعلو دائما بمقدار درجة أو سلمة أو أكثر عن بقية مسطحات المكان، وسقف الإيوان إما معقود وإما مسطح، وعلى واجهة الإيوان عقد أو قوصرة أو كريدى عدا فى الوحدات السكنية الصغيرة فتعلوه فتحة عادية. محمد أمين وليلى إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص١٧. وعن تطور استعمال الإيوان فى العمارة الإسلامية: the encyclopedia of islam 2 (e 12) ,art. "Iwan "by olg graber, vol 1v, 289.

٥٥ محمد أمين وليلى إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص ١٧.

٥٦ اشتملت بعض المنشآت الجنائزية بجبانة المماليك على قبة وإيوان، منها منشأة طشتمر حمص أخضر وخوند.

٥٧ عبد القادر الريحاوى (دكتور) قصور الحكام فى دمشق، ص٢٤:٣٦، الحوليات الأثرية السورية، المجلد ٢٢، ١٩٧٢:١٩٧٣م.

٥٨ Nasser rabbt, the citadel of cairo, p145,146

٥٩ المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٠٦.

٦٠ ناصر الرباط، دار العدل، ص٧٠.

٦١ المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢٠٦.

٦٢ قدم أوليا شلبى وصفا دقيقا للإيوان ساعد مع ما جاء فى وصف مصر على وضع تصور شامل للإيوان، ويسمى أوليا الإيوان بديوان الغوري، كما يفعل أغلب مؤرخي العصر العثماني، وكان أوليا أقام فى القلعة سنة ١٦٧٠م. Evliya celebi, seyahat namesi mumin cevik ,p9,1o .Istanbul 1984. قام بهذه الحفائر تفتيش آثار القلعة تحت إشراف كل من عبد الخالق مختار وآمال فرغلي، إلا أن نتائج هذه الحفائر لم تنشر إلى الآن للأسف الشديد.

٦٤ المقريزى، الخطط .ج٢، ص٢٠٦ .

٦٥ كاتب السر: هو أحد الموظفين من الكتبة وهو اسم آخر لصاحب ديوان وقد ظهر هذا المصطلح فى الدولة العباسية، وهو يدل على أن هذا الكاتب كان بحكم عمله على علم بأسرار الدولة. حسن الباشا (دكتور)، الفنون والوظائف، ج٢، ص ٩٢٢: ٩٢٥.

٦٦ قدمت دورو تباكرافولسكى تحليلا لهذه الجلسة فى مقدمتها لتحقيق مسالك الأبصار لابن العمرى، انظر ص ١٠، بيروت ١٩٨٦م.

٦٧ ناصر الرباط، دار العدل، ص٧٢.

٦٨ أمير الطبلخانة: مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف فى مصر المملوكية، صاحبها يلى أمير مائة مقدم ألف فى الدرجة وسمى أمير طبلخانة لأحقيته فى دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين وأمراء المئين، وهو بذلك فى ثانى الرتب المملوكية، ويطلق على أمير طبلخانة أيضا أمير أربعين بمعنى أن يكون فى خدمته أربعون مملوكا وقد يزيد هذا العدد إلى سبعين أو ثمانين. المقريزى، السلوك، ج١، ص٢٣٩، حاشية ١؛ حسن الباشا (دكتور)، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج١، ص٢٣١: ٢٣٦. دار النهضة العربية ١٩٦٥ م.

٦٩ أمير عشرة مرتبة حربية يكون فى خدمته عشرة مماليك. ويكون صغار الولاة من طبقة أمراء العشرات.

٧٠ ناصر الرباط (دكتور)، دار العدل، ص٧٥.

٧١ ناصر الرباط (دكتور)، دار العدل، ص٧٨.

٧٢ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٠٧.

٧٣ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٠٧.

٧٤ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٢١٨.

٧٥ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٢، ص ٢٠٧.

٧٦ الحلبي، شمس الدين محمد بن محمود بن خليل، تاريخ الأمير يشبك الظاهري، ص١٥٨. تحقيق دكتور عبد القادر طليمات. دار الفكر العربى، ١٩٧٣م.

٧٧ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٤٣٢.

٧٨ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص١٨٠ – ١٨١.

٧٩ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٤٤١.

٨٠ الأبلق من (البلق) بفتح الباء واللام وضم القاف وهو السواد والبياض فى اللون، وأيضا (البلقة) بالضم سواد وبياض (وبلق، وأبلق، وأبلوق: كان فى لونه سواد وبياض فهو أبلق. والأبلق حلية معمارية استخدمت فى العمائر فى العصر المملوكي بكثرة تنتج عن استخدام حجرين مختلفي اللون وقصد بهما فى حالة الحجر الأبلق اللونين الأسود والأبيض بصفة خاصة وينتج ذلك عن استخدام الحجر والرخام مثلا. ابن منظور، جمال الدين محمد بن جلال الدين الخزرجي الإفريقى، لسان العرب، المجلد الأول، ص٢٥٩، إعداد يوسف خياط، ونديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت؛ سامى عبد الحليم (دكتور)، الحجر المشهر حلية معمارية بمنشآت المماليك فى القاهرة، ص ١٨ – ١٩، القاهرة ١٩٨٤م.

٨١ المقريزى، السلوك، ج٢، ص ١٢٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٦ – ٢٧.

٨٢ شاذروان: لفظ فارسى معرب وهو ستر عظيم يسدل على سرادق السلاطين وعلى الشرفة من القصر والدار، والشاذروان من جدار الكعبة هو الذى ترك من عرض الأساس خارجا وأصبح عبارة عن مدماك مائل ويسمى تأزيرا لأنه كالإزار للبيت. ورد اللفظ فى الوثائق فى العصر المملوكى بالدال والذال، وأصبح يجمع بين المعنيين من

حيث كونه ستارة منقوشة وحاجزًا مائلاً للماء، فيتكون الشاذروان من صدر خشب مزخرف وفتحة يصب منها الماء فى حوض صغير تحت الصدر يسمى "قرقل"، ثم يسيل الماء من القرقل إلى السلسبيل وهو لوح من الرخام أو الحجر المنقوش مركب فى وضع مائل ينحدر من عليه الماء إلى حوض أو صحن يسمى "طشتية" أسفله، وغالبا ما يخرج من هذا الصحن قناة صغيرة تسمى "سلسال" توصل الماء إلى فسقية وسط المكان أو إلى أحواض أخرى والجميع مزخرف. وغالبا ما يقصد بالشاذروان السلسبيل فقط وهو لوح من الرخام المائل. محمد أمين وليلى إبراهيم، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية، ص٦٨ – ٦٩.

٨٣ العمري، مسالك الأبصار، ص ٨١.

٨٤ Nasser, The Citadel Of Cairo ,p110 : 118

٨٥ العمري، مسالك الأبصار، ص٣٨؛ المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص ٢١٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٥.

٨٦ المصري، أحمد شلبي بن عبد الغنى الحنفى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، ص١٤٦ – ١٤٧. تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٨م.

٨٧ المصري، أوضح الإشارات، ص١٥٧.

٨٨ المصري، أوضح الإشارات، ص ٢١٣.

٨٩ المصري، أوضح الإشارات، ص ٢٦٧.

٩٠ كشك: بيت صغير الحجم بسيط التأثيث يقام للاستجمام وسط المزارع أو على الشواطئ كما قد يستخدم لإقامة الحرس. أحمد عيسى، مصطلحات الفن الإسلامي، ص١٠١. أرسيكا، إستانبول ١٩٩٤. ويبدو أن مصطلح الكشك استخدم فى القلعة كاصطلاح معماري يطلق على أماكن إقامة الباشاوات.

٩١ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص ١٣٠.

٩٢ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص١٧٣.

٩٣ المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص ٢١٢.

٩٤ كازانوفا، وصف قلعة الجبل، ص ١٣٢ – ١٣٤.

٩٥ المقريزي، السلوك، ج١، ص ٢٩٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص٢٩١.

٩٦ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٢٧١ – ٢٧٢.

٩٧ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢١.

٩٨ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢١.

٩٩ بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٢٦ – ٢٧.

١٠٠ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٠٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢١٣، ٢١٥.

١٠١ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٣١.

١٠٢ Nasser, The Citadel Of Cairo , P53.

١٠٣ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٤٣.

١٠٤ Doris, the citadel of cairo, stage for mamiluk ceremonial,P 53.

١٠٥ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١١٤.

١٠٦ من هؤلاء القاعون والزنان دارية وهم البوابون عند عرف الحريم السلطاني، والجمدارية لإلباس السلطان، والبشمقدارية لحمل نعل السلطان. ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٥٧، ٤٥٩، ٤٦٩؛ إبراهيم طرخان (دكتور)، النظم الإقطاعية، ص ٣٦٤.

١٠٧ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١١٩؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٣٣، ٤٣٤؛ الخطط، ج٢، ص٢٢٩.

١٠٨ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٢١.

١٠٩ العمري، مسالك الأبصار، ص ٤٠.

١١٠ يذكر ابن دقماق أن راتب الأمير يلبغا اليحياوى وهو أحد أمراء الناصر من اللحم فى اليوم الواحد له ولمماليكه ستة وثلاثون ألف رطل. ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص٣٦٤. وأحصى المقريزي ما يستهلك من اللحوم فى الأسمطة السلطانية والقلعة. المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص ٢١٠ – ٢١١.

١١١ الدهيشة: دهش تحير فهو مدهوش، أطلقت كلمة الدهيشة على بعض المبانى المملوكية، ربما لما لها من شكل جميل يدهش الناظر إليها. منها قاعة الصالح إسماعيل بالقلعة. وأطلق المقريزي أيضا لفظ الدهيشة على القاعة التى عمرها رئيس الأطباء فتح الله ابن معتصم بن نفيس ٨١٦هـ/ ١٤٨١ بداره بخط سويقة المسعودى فقال "وأنشأ دهيشة كيسة للغاية، بوسطها فسقية للماء ... وتشرف هذه الدهيشة على الجنينة التى أبدع فيها كل الإبداع وركب علو هذه القاعة الأروقة العظيمة بجوارها عدة مساكن لمماليكه". المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص٦٢؛ محمد أمين، المصطلحات المعمارية، ص٤٩.

١١٢ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٣٢.

١١٣ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٩٠.

١١٤ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٩٠.

١١٥ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٧٧.

١١٦ DORIS, the citadel of cairo, stage for mamiluk ceremonial,P 55.

١١٧ المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢١٢.

١١٨ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٧١.

١١٩ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٩١.

١٢٠ البحرة المنخفض من الأرض ومستنقع الماء، وفى كلام العرب البحرة بمعنى الشق مع التوسعة، وفى العمارة المملوكية يطلق مصطلح البحرة أحيانا على وسط المكان ولكن غالبا على: فسقية كبيرة للشرب فى وسط صحن الجامع أو القاعة. محمد أمين وليلى إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص ٢٠.

١٢١ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٠١.

١٢٢ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٣٠٠.

١٢٣ إبراهيم طرخان (دكتور)، دولة المماليك الجراكسة، ص٣٢٩.

١٢٤ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٣٢٩؛ عبد الرحمن عبد التواب، قايتباى المحمودى، ص ٢٠٤، سلسلة أعلام العرب (٢٠)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م.

١٢٥ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٦٥.

١٢٦ المقعد القبطي: هو أكثر أنواع المقاعد شهرة فى العمارة السكنية فى مصر، ولم يكن عند الكثير منذ البداية لبس فى تسميته. ومن المرجح أن هذا المقعد قد نال تسميته نسبة للقبط أو الأقباط، وهم أهل مصر وأصلها، والمقعد مقعد مغلق، أى لا يفتح تصميمه الفراغى على الفناء الذى أمامه مباشرة مثل أنواع عديدة من المقاعد، ولذلك أطلقت عليه بعض الوثائق مقعدًا قبطيًا حبيسًا، ويطل هذا المقعد على الفناء الذى أمامه بواجهة من الحجر الفص النحيت، بها غالبا عدد من الشبابيك الكبيرة، كما كان مقعد السلطان الغورى بالحوش السلطاني. محمد أمين، وليلى إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص١٧٤؛ غزوان ياغى، المقاعد فى عمائر القاهرة السكنية فى العصر المملوكى والعثمانى، ص١٩٠: ١٩٥، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٩٩.

١٢٧ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٦٥.

١٢٨ ليلى عبد اللطيف (دكتورة)، المجتمع المصرى فى العصر العثمانى، ص٨٣، دار الكتاب العربي، ١٩٨٧م.

١٢٩ عبد الرحمن زكى (دكتور) قلعة صلاح الدين وما حولها من آثار، ص٨٠ القاهرة ١٩٧١.

١٣٠ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٧.

١٣١ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٦٧.

١٣٢ الحلبي، تاريخ الأمير يشبك، ص٢٢.

١٣٣ Doris, the citadel of cairo, stage for mamiluk ceremonial, P 59 , 60.

١٣٤ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص٣٠٠:٣٠٧؛ ابراهيم طرخان (دكتور) دولة المماليك الجراكسة، ص١٠١.

١٣٥ Doris, the citadel of cairo, stage for mamiluk ceremonial,P 57.

١٣٦ Doris, the citadel of cairo, stage for mamiluk ceremonial, p 57.

١٣٧ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ٨٨.

١٣٨ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ٩٤.

١٣٩ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ٣٠٢.

١٤٠ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٢٢ – ٢٢٣.

١٤١ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٤٢٩.

١٤٢ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٠ – ١١.

١٤٣ عبد الرحمن زكى (دكتور)، قلعة صلاح الدين، ص ٥٥ – ٥٦.

١٤٤ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٠٧– ١٠٨.

١٤٥ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٧٩.

١٤٦ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٠٧.

١٤٧ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٧٠، ٢٩٥.

١٤٨ أحمد فؤاد متولى (دكتور) قانون نامة مصر، ص ٧٣.

١٤٩ ضم هذا الديوان فى عضويته وظائف وليس أشخاصا. فقد كانت عضويته ترتبط بتولى الشخص منصبًا من مناصب الديوان، ككتخدا الباشا عضو فى الديوان بحكم منصبه، وكذلك قاضى عسكر أفندى أو قاضى القضاة، والدفتردار والرزنامجى والأمراء الصناجق وأغاوات واختيارية الأوجاقات السبع وعضوية هؤلاء الأشخاص ثابتة وتابعة لوظائفهم لذا كان لابد من حضورهم جلسات إرسال الخزينة الإرسالية، وإعلان وفاء النيل، واستلام أمير الحج لأموال الحرمين، ومحاسبة الباشا وغير ذلك. أما فى الجلسات التى يعقدها الديوان لمناقشة بعض القضايا المهمة، فلم يكن يشترط حضور كل هؤلاء الأعضاء وإنما كان يحضرها أساسا قاضى القضاة أو نائبه وبعض الأعضاء الآخرين وفى هذه الجلسات ذات الطابع الخاص كان يحضرها أشخاص ليسوا من أعضاء الديوان وإنما يحضرون بوصفهم أطرافًا فى النزاع أو شهودًا فى صف أحد المتقاضين وهؤلاء كانوا من التجار أو العلماء أو النساء على سبيل المثال. لمزيد من التفاصيل عن الديوان وآليات عمله وتكوينه انظر: ليلى عبد اللطيف (دكتورة)، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص١٣١: ١٥٦، جامعة عين شمس ١٩٧٨م.

١٥٠ الديوان الصغير: يضم فى عضويته كتخدا الباشا، والدفتردار والرزنامجى، ومندوب عن كل أوجاق – أى فرقة عسكرية – والأغا والضباط الرئيسيين فى فرقة المتفرقة والجاويشية. وهو فى الغالب مجلس تنفيذى إدارى للشئون الادارية العادية. ومايتعلق بالشئون اليومية للحكم. البكرى، المنح الربانية، ص١٤٣. ليلى عبد اللطيف (دكتورة) الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص ١٣٢ – ١٣٣.

١٥١ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص١٧٩.

١٥٢ المقعد التركي: هو المقعد ذو العقود المفتوح على فناء. غزوان ياغى، المقاعد فى عمائر القاهرة السكنية، ص١٩٠: ١٩٥. محمد أمين، المصطلحات المعمارية، ص ١١٤.

١٥٣ المصرى، التاريخ العينى، ص٣١٠: ٣١٢.

١٥٤ برنارد لويس، إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، ص ٩٥ – ٩٦. ترجمة الدكتور سيد رضوان على، الدار السعودية للنشر والتوزيع جدة ١٩٨٢ م.

١٥٥ عرف أحمد عيسى الكشك بأنه بيت صغير الحجم بسيط التأثيث يقام للاستجمام وسط المزارع أو على الشواطئ كما قد يستخدم لإقامة الحراس. أحمد عيسى، مصطلحات الفن الإسلامي، ص ١٠١، أرسيكا، إستانبول ١٩٩٤.

١٥٦ أحمد عيسى، مصطلحات الفن الإسلامي، ص ١٤٢.

١٥٧ أحمد عيسى، مصطلحات الفن الإسلامي، ص ١٩٨.

١٥٨ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٢١٢، ٢٧٠، ٢٩٨؛ المصرى، التاريخ العينى، ص١٢٢، ١٢٦، ١٧٤، ١٩٣؛ الفرا، على بن محمد الشاذلى، ذكر ما وقع بين عسكر المحروسة القاهرة، تحقيق د.عبد القادر طليمات، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع عشر ١٩٦٨ م؛ عفاف مسعد العبد (دكتورة) دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر، ص ١٩٩ :٢٣٢. سلسلة تاريخ المصريين(١٧٩) الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ م.

١٥٩ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص ٤٠٦.

١٦٠ رأفت النبراوى (دكتور)، مسكوكات دولة المماليك الجراكسة فى مصر، ص ٨، رسالة دكتوراه، كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٩١م؛ أحمد الصاوى (دكتور) النقود المتداولة فى مصر العثمانية، ص٢٠٥. رسالة دكتوراه، كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٩١م.

١٦١ حول هذا الاضطراب النقدي انظر: رأفت النبراوى (دكتور)، النقود الإسلامية فى مصر، عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ٢٣١، ٢٦٣. مركز الحضارة العربية. القاهرة ١٩٩٦م.

١٦٢ ليلى عبد اللطيف (دكتورة)، الإدارة فى مصر، ص ١٨٢، ١٩٠.

١٦٣ باب الإنكشارية هو باب القلة وعرف أيضا فى العصر العثمانى بباب مستحفظان.

١٦٤ عراقى يوسف (دكتور)، الوجود العثمانى المملوكى فى مصر، ص ١٠٣.

١٦٥ ليلى عبد اللطيف (دكتورة)، الإدارة فى مصر، ص١٩٣.

١٦٦ المصري، التاريخ العينى، ص٢٢٢.

١٦٧ مفردها أوجاق، وهى كلمة تركية بضم الهمزة ضمة مبسوطة مفخمة ومعناها الأول فى التركية الموقد والمدخنة، وهى هنا بمعنى فرق الجند العثمانية، وكان عددها فى مصر بعد عودة سليم الأول أربعة أوجاقات ثم زادها سليمان القانونى عام ١٥٢٤م وجاقين فصارت ستة وجاقات ثم صارت سنة ١٥٥٤م سبعة وجاقات. أحمد السعيد سليمان (دكتور)، تأصيل الدخيل، ص ١٩٤ – ١٩٥.

١٦٨ السباهية: هم أوجاق الفرسان ويعمل فى خدمة حكام الأقاليم، وكان هؤلاء الفرسان فى الأصل من فرسان الباب العالي.

١٦٩ أحمد الصاوى (دكتور)، النقود المتداولة فى مصر العثمانية، ص ٢٥٢؛ عراقى يوسف (دكتور)، الوجود العثمانى، ص ١٠٣.

١٧٠ مشايخ السجاجيد هم شيوخ الطرق الصوفية وكان عددهم عند مقدم الحملة الفرنسية أربعة هم الشيخ البكرى وجده أبو بكر الصديق، والشيخ السادات وجده الإمام على بن أبى طالب والشيخ العنانى وجده عمر بن الخطاب، والشيخ الخضيرى وجده الزبير بن العوام. وكان لهم دور بارز فى الحياة السياسية خلال هذا العصر. توفيق الطويل (دكتور)، التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، ج١، ص ١٠٣. سلسلة تاريخ المصريين (٢١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

١٧١ أمير آخور: اسم مركب من لفظ (أمير العربي) و (آخور) الفارسى ومعناها المعلف، وكان هذا الاسم يطلق على القائم على أمر الدواب السلطانية فى الإسطبلات فى دولة المماليك. حسن الباشا (دكتور)، الفنون الإسلامية، ج١، ص١٧٦، ١٨٣.

١٧٢ الجبرتى، عبد الرحمن بن حسن الحنفى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، ج١، ص ٥٠، طبعة الأنوار المحمدية، دون تاريخ.

١٧٣ المصري، التاريخ العيني، ص٢٢٤.

١٧٤ عزبان، أحمد كتخدا، الدرة المصانة فى أخبار الكنانة، ص ٧٩.

١٧٥ الجبرتي، عجائب الآثار، ص٥٠.

١٧٦ عزبان، الدرة المصانة، ص ٧٩.

١٧٧ جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ص ٢٤٠.

١٧٨ أحمد الصاوى، النقود المتداولة فى مصر العثمانية، ص٢٥٥.

١٧٩ الشنك: فى التركية يمعنى يهيج وشنلك البهجة والطرب، والشنك العربية من الشنلك التركية قلبت لامهنونا، وأدغمت فى النون الأصلية، وتطلق كلمة الشنك على الاحتفال الذى تطلق فيه النيران الملونة والمدافع فى الأوقات الخمسة. أحمد السعيد سليمان، تأصيل الدخيل، ص١٣٧.

١٨٠ ليلى عبد اللطيف (دكتورة)، الإدارة فى مصر، ص ١٤١.

١٨١ أحمد متولى، قانون نامه مصر، ص ٩٢ – ٩٣.

١٨٢ الجبرتى، عجائب الآثار، ج١، ص٤٠.

١٨٣ المصرى، التاريخ العينى، ص ٢٠١؛ أحمد الصاوى، النقود المتداولة فى مصر العثمانية، ص٢٥٧.

١٨٤ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص ١٨٦.

١٨٥ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٣٦.

١٨٦ المصري، التاريخ العيني، ص ١٨٤.

١٨٧ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص ١٨٦.

١٨٨ الجبرتي، عجائب الآثار، ج٢، ص ١٢١.

١٨٩ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص١٨٦ – ١٨٧.

١٩٠ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص١٨٧.

١٩١ القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص٣٧٠.

١٩٢ المصرى، التاريخ العينى، ص١٩٢.

١٩٣ المصرى، التاريخ العيني، ص ١٩٢، ٢٧٦، ٥٦٤، ٦٢١.

١٩٤ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٢٣١.

١٩٥ المصرى، التاريخ العينى، ص ١٠٥.

١٩٦ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٢٣٩.

١٩٧ عبد العزيز عبد الدائم (دكتور)، تأثيرات المغول الحضارية على دولة سلاطين المماليك، ص ١١٨، مجلة المؤرخ المصرى، العدد (٣)

يناير ١٩٨٩م؛ على السيد (دكتور)، الهجرات المغولية إلى مصر، ص١٠٠، مجلة المؤرخ المصرى، العدد (١٥) يوليو ١٩٩٥ م. .

١٩٨ عبد الرحمن زكى (دكتور)، قلعة صلاح الدين، ص ٣٦.

١٩٩ سجلات محكمة الصالح، سجل ٣٢٢، مادة ١١٨٤، ص ٣٥٩.

٢٠٠ وثيقة وقف إبراهيم آغا مستحفظان، رقم ١٤٩٩، أوقاف، ص ٥٧.

٢٠١ ورد وصف هذا المنزل فى وثيقة وقف إبراهيم آغا، وهو يشتمل على قاعة أرضية وإسطبل وفسحة كشف سماوى، ومطبخ سفلى وقاعة برسم الكيلار ورواق مستجد علو ذلك ومطبخ علوى وكرسى راحة. وتفيد وثيقة الوقف السابقة فى معرفة معالم النطاق الشمالى من القلعة، فموقع المنزل المذكور، له أربعة حدود، الحد القبلى ينتهى للطريق الموصل لدار الضرب، والبحرى يفصل بين المنزل وزاوية الطبالين، وفيه الواجهة، والشرقى ينتهى إلى مكان يوسف جاويش وبيت مال طائفة الينكجرية، والغربى إلى الطريق الفاصل بين سكن الأمير حسن جاويش سابقا. وثيقة وقف إبراهيم آغا مستحفظان، أوقاف ١٤٩٩ ص ٧٨٩ – ٧٩٠.

٢٠٢ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ١٥٢: ١٥٤.

٢٠٣ المصري،التاريخ العيني، ص٢٧٢.

٢٠٤ جاويش: كلمة تركية تعنى الصياح أو النداء، والجاويش هو الشخصية الثالثة فى الجيش الانكشارى بعد الآغا والكتخدا وكان يقوم بتنظيم عرض مطالب الفرقة على الكتخدا، ويأذن فى الدخول على الآغا. ويراقب تدريبات الانكشارية. أحمد السعيد سليمان، تأصيل الدخيل، ص ٦٣.

٢٠٥ أحمد فؤاد (دكتور)، قانون نامه، ص ٢٠، ٢٢.

٢٠٦ الجبرتى، عجائب الآثار، ج ٣، ص٢٧.

٢٠٧ عبد الرحمن الرافعى، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم، ص٢٧٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨

٢٠٨ وضعت العديد من المؤلفات فى الخيل والفروسية منها على سبيل المثال: مؤلف مجهول "الفروسية والطعن والضرب والتبطيلات"، مكتبة الفاتح إستانبول مخطوط رقم ٣٥٠٩؛ مؤلف مجهول: مجموع فى الفروسية والجهاد والصيد والقنص. مكتبة البلدية بالإسكندرية مخطوط رقم ١٢٠١؛ مؤلف مجهول: كتاب فى معرفة الخيل والجهاد وما يتعلق من آلات الفرسان. مكتبة أحمد الثالث إستانبول رقم ٢٠٦٦.

٢٠٩ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٤٢١.

٢١٠ الحراقة: نوع من السفن الحربية التى ترمى بالنيران، استعملها المسلمون فى العصور الوسطى. درويش النخيلى (دكتور)، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص٣٢، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤.

٢١١ المقريزى، الخطط المقرزية، ج٢، ص ٢٠٨.

٢١٢ Doris, the citadel of cairo, P 64

٢١٣ رافت النبراوى (دكتور)، النقود الإسلامية فى مصر، ص ٢٤٨.

٢١٤ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص ٢٩١.

٢١٥ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٠٤ – ١٠٥.

٢١٦ سعيد عاشور (دكتور)، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص٧٩. دار النهضة العربية ١٩٦٢.

٢١٧ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٧٥.

٢١٨ المقريزى، الخطط المقريزية، ج ٢، ص٢١٣.

٢١٩ أحمد فؤاد متولى (دكتور)، قانون نامه، ص ٢١ – ٢٣.

٢٢٠ المصرى، التاريخ العينى، ص ٣٠٠.

٢٢١ الجبرتى، عجائب الآثار، ج١، ص ٢٥١.

٢٢٢ أحمد فؤاد متولى (دكتور) قانون نامة، ص٢٢. غير أن هذا لم يستمر طويلا إذ سرعان ما تذكر المصادر التاريخية مبيت بعض أفراد هذه الطوائف بالمدينة. انظر على سبيل المثال، المصرى، التاريخ العينى، ص٢٧٢.

٢٢٣ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ١٥٤.

٢٢٤ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٢٣٩.

٢٢٥ أحمد متولى (دكتور)، قانون نامه، ص ٢٢.

٢٢٦ السخاوى، محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٢، ص ١٠.

٢٢٧ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص ٣٢٧.

٢٢٨ الميادين: هى تلك الأماكن الواسعة التى تتوسط المدن أو تكون بضواحيها، وقد استخدمت تلك الميادين استخدامات عديدة؛ فهى أماكن لتدريب الجيوش واستعراضها، وهى كذلك متنزهات عامة فهى ملتقى أهل المدينة فى الاحتفالات والمواسم والأعياد، وكذلك الفرجة على الألعاب الرياضية والفروسية من سباق الخيل والمران على الطعن بالرماح والقتال بالسيوف، والألعاب الشيقة مثل لعب الكرة (البولو) ولعبة القبق وغيرها. محمد الششتاوى، ميادين القاهرة فى العصر المملوكى، ص ٥، دار الآفاق العربية ١٩٩٩ م.

٢٢٩ المقريزى، الخطط المقريزية، ج ٢، ص ٢٠٥.

٢٣٠ قام محمد الششتاوى بتحديد أبعاد الميدانين معا فى العصر المملوكى حيث يذكر أن طولهما ٧٥٠ مترا فى المتوسط وعرضهما ١٠٠ متر، أما حدودهما فهى: الحد الشرقى من أول سكة المحجر قبالة العزب فسور القلعة حتى مسجد الغورى بعرب اليسار، والحد الجنوبى من مسجد الغورى حتى جامع السيدة عائشة حتى جامع الرفاعى، والحد الشمالى من جامع الرفاعى إلى أول سكة المحجر. محمد الششتاوى، ميادين القاهرة، ص١٠.

٢٣١ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٢٨.

٢٣٢ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٢٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٧٩.

٢٣٣ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ٥٦، ٦٠، ١٠٣.

٢٣٤ محمد الششتاوى، ميادين القاهرة، ص ١٨ .

٢٣٥ مسجل أثر تحت رقم ٢٧٧.

٢٣٦ المصرى، التاريخ العينى، ص ٢٠٦.

٢٣٧ ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد الدمشقى، زاد المعاد فى هدى خير العباد، ج ١، ص ٤٢٥: ٤٣٠ تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٧م.

٢٣٨ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٢٩.

٢٣٩ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص٢٢٩.

٢٤٠ ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج ١، ص ٤٢٥.

٢٤١ عثر على هذه المدينة عام ١٩٤٩ فى لبنان، ولكن هذا الاكتشاف لم تلق نتائجه الدراسات الكافية من قبل الآثاريين العرب. عبد الرحمن زكى (دكتور)، الفن الإسلامى، ص١٦، دار المعارف ١٩٨٤ م.

٢٤٢ عبد الرحمن زكى (دكتور)، الفن الإسلامى، ص ١٦.

٢٤٣ المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، ص ٢٢٩.

٢٤٤ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٨، ١٢.

٢٤٥ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ٩٤.

٢٤٦ بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص٥٦.

٢٤٧ ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ١٩٧؛ محمد الششتاوى، ميادين القاهرة، ص ٢٣.

٢٤٨ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٦٨.

٢٤٩ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٣٠.

٢٥٠ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٢٤، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٦٨؛ محمد الششتاوى، ميادين القاهرة، ص ٤١.

٢٥١ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٦، ١٦٠، ٣٧٣، ٣٩١؛ محمد الششتاوى، ميادين القاهرة، ص ٤١.

٢٥٢ جمهورية جورجيا حاليا.

٢٥٣ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٦٨.

٢٥٤ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٤٣ – ٤٤.

٢٥٥ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٤٨ – ٤٤٩.

٢٥٦ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٥٨ – ٥٦٠.

٢٥٧ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٢، ص٤٥٤.

٢٥٨ انظر على سبيل المثال: الفرا، الأحكام السلطانية: المصرى، التاريخ العينى، ص ٢٦٩: ٢٧٤.

٢٥٩ إير لابدوس، مدن إسلامية فى عهد المماليك، ص ٢٤، ترجمة دكتور على ماضى. الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٧م.

٢٦٠ أندريه ريمون، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ص ٢٨٨ – ٢٨٩. ترجمة زهير الشايب، نشر مؤسسة روزاليوسف، القاهرة ١٩٧٤.

٢٦١ مجهول، تاريخ ملوك آل عثمان، ورقة ٦٦، دار الكتب، تاريخ تيمور٢٤٠٨؛ المصرى، التاريخ العينى، ص ١٧٦، ١٩٧؛ ناصر إبراهيم، الأزمات الاجتماعية فى مصر فى القرن السابع عشر، ص ١٧٤. دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٨.

٢٦٢ أندريه ريمون، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ص ٢٩ – ٣٠، ٣٢٨؛ القاهرة تاريخ حاضرة، ص٢٠٤، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والبحوث، القاهرة.

٢٦٣ مجهول، زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة، مكتبة المتحف البريطانى رقم ٩٩٧٢؛ ناصر إبراهيم، الأزمات الاجتماعية فى مصر، ص ١٧٥.

٢٦٤ الجبرتى، عجائب الآثار، ج ٣، ص ٤٨٠.

الفصـــل الرابـــع

القلعة فى عصر محمد على وخلفائه

محمد علي باشا

تسلم محمد على حكم مصر، ومقر حكمها فى حالة يرثى لها، نتيجة لأسباب عدة، يأتى على رأسها التدمير الذى أحدثه الفرنسيون بها، والذى ذكره الجبرتي، وشمل نصب المدافع فى عدة مواضع بالقلعة، لتدمير العديد من منشآتها، وشمل هذا التدمير العديد من المنشآت السلطانية كالقصر الأبلق وأبواب القلعة، كما هدموا سور الميدان وأبوابه، بل واستغلوا جامع سارية الجبل كسكن ومخزن[١].

كان نابليون بونابرت قد أمر فى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨م بأن ينشأ فى القلعة فرنان للخبز ومخزن للطعام ومستشفى لاستعمالها فى حالة الحصار[٢]. وهو بذلك يعد القلعة آخر مكان يمكن الاحتماء به. لذا كان الفرنسيون حريصين على ترميم بعض أجزائها وإزالة ما يرونه عائقا فى سبيل ذلك. وأخلى الفرنسيون القلعة وباقى حصون القاهرة عقب اتفاقهم مع العثمانيين والإنجليز على الانسحاب من مصر، وانتقلوا إلى قلعة الروضة ثم تركوا مصر نهائيا. ودخل العثمانيون القاهرة فى ١٤ يوليو ١٨٠١م[٣].

أدى تتابع الأحداث إلى تولية محمد على حكم مصر فى عام ١٨٠٥م، وكان عليه أن يصفى القوى المعارضة له، أو أن يكسبها إلى جانبه، فكسب بعض مشايخ الأزهر ونفى عمر مكرم الذى كان السبب فى توليته حكم مصر، وصفى المماليك أشد معارضيه وأكبر خطر يتهدده، وكان ذروة هذه التصفية فى مذبحة المماليك، التى أدت إلى استقرار الأوضاع لمحمد على، بدأت هذه المذبحة بدعوة الأمراء المماليك وجنودهم للمشاركة فى موكب طوسون باشا بن محمد على المتوجه إلى الجزيرة العربية، فطلع الأمراء إلى ديوان الباشا ومع نزول الموكب من الممر الصخرى إلى باب العزب رتب محمد على مع أتباعه إغلاق باب العزب عند اقتراب المماليك منه وتصفيتهم، ومن نجا تم إعدامه فى حوش الديوان، وتمت تصفية من تبقى منهم بالمدينة[٤]. وبذلك يعد هذا الممر الصخرى شاهدا سياسيا على نهاية عصر وبداية عصر، ذلك أن العصر العثمانى لم يشهد تغيرا كبيرا فى طبيعة سيطرة المماليك على مصر، إلا فى خضوعهم للسيطرة العثمانية القوية فى بداية العصر، الضعيفة فى نهايته، وكانت تلك المذبحة عاملا مساعدا

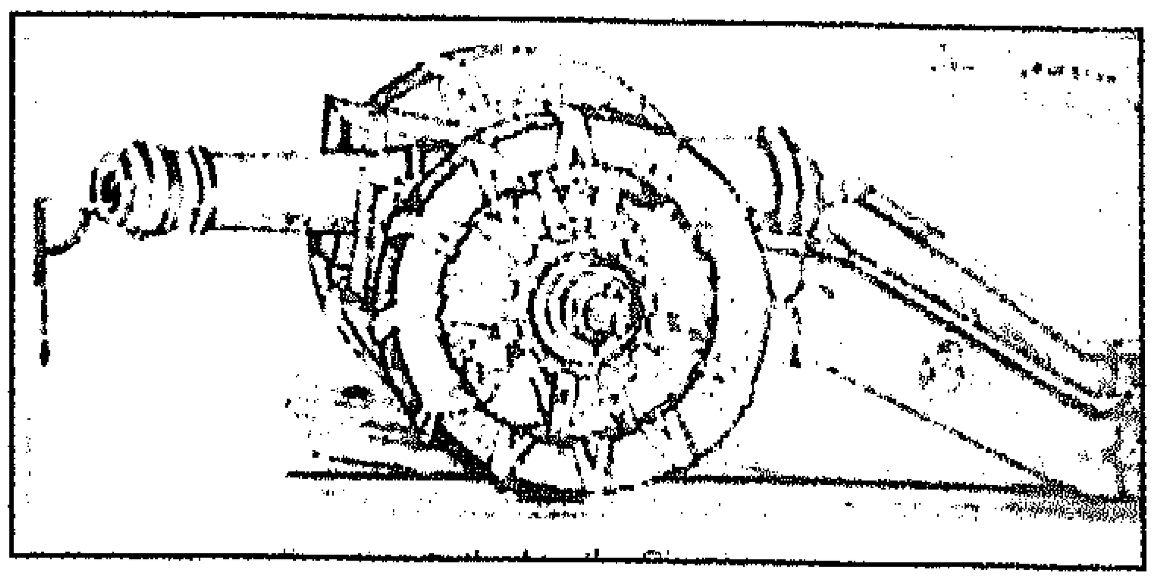

إحدى قطع المدفعية

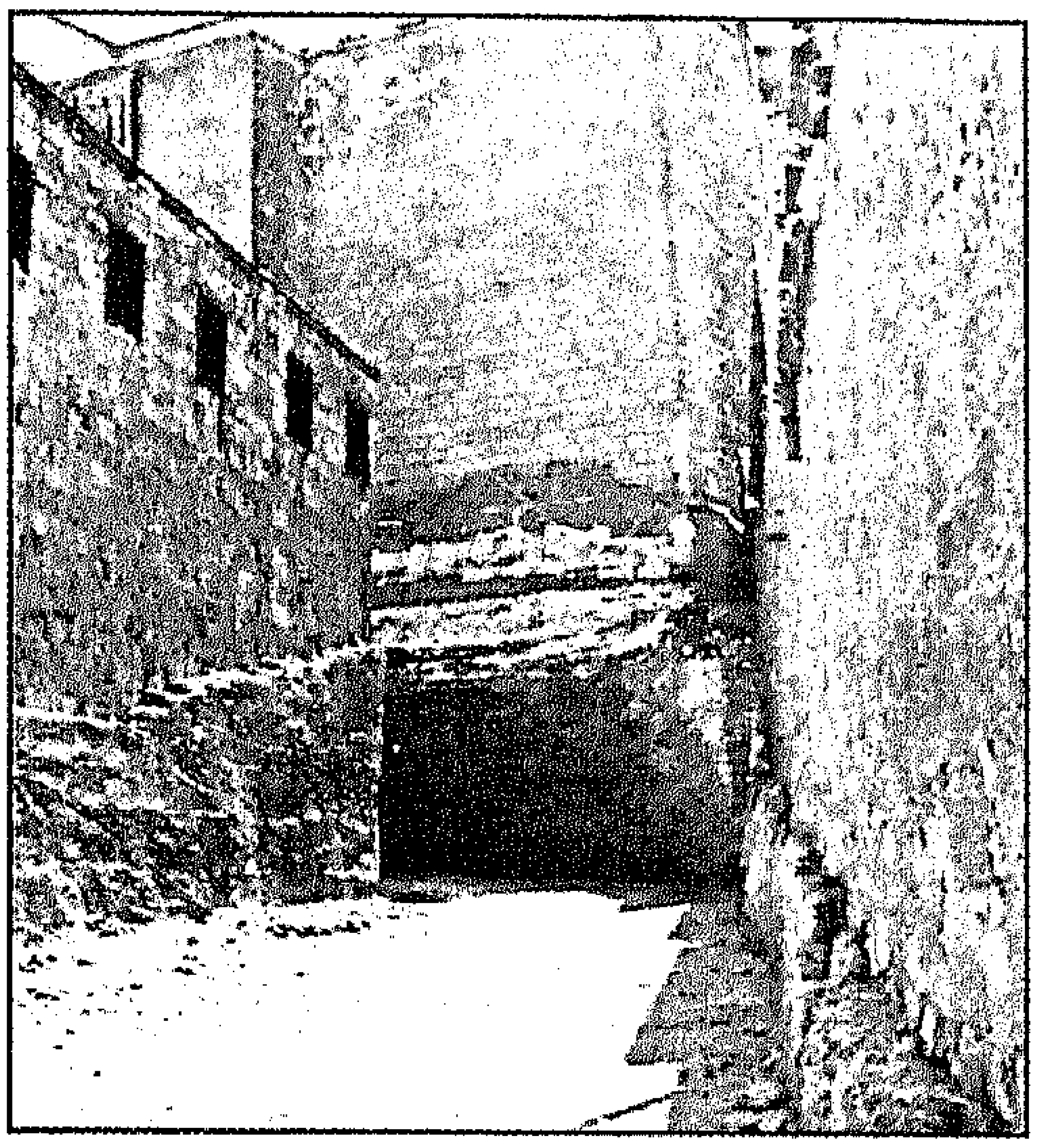

الممر الصخرى حيث وقعت مذبحة المماليك

بدرجة كبيرة على تحديث الجيش المصري، وبداية إدماج الأهالى (المصريين) فى مؤسسات السلطة. والقضاء على النظم التقليدية لصالح بناء الدولة الحديثة. ساعد هذا الإجراء على سرعة تحديث مصر، وهو ما ترك أثره على القلعة حيث انتهى دور فرق الجيش العثمانى بها فلم نعد نرى وجودا للانكشارية ولا للعزب، بل أصبحت سلطة الباشا محمد على هى السلطة العليا والوحيدة فى القلعة. بينما تأخر الأمر فى تركيا إلى حين نجاح السلطان محمود فى القضاء على الجند الانكشارية فيما عرف بالواقعة الخيرية فى عام ١٨٢٦م، حيث دمرت ثكنات الانكشارية بالمدفعية واقتحمت فى مذبحة تشبه مذبحة المماليك، قتل فيها ٤٠٠٠ جندى وشرد ما يزيد على ٢٠٠٠٠، وتحالف

الشعب والعلماء مع السلطان فى هذه المذبحة[٤] وتم حل فرق الانكشارية، وشُكِّل جيش على النمط الحديث عرف باسم (العساكر المحمدية المنصورة) وهو ما أدى إلى إقامة وتنشيط مؤسسات حديثة بالدولة[٥].

واجه محمد على منذ توليه حكم مصر العديد من الصعوبات والعوائق، على رأسها عدم رغبة الدولة العثمانية فى توليه أمر مصر، فسعت فى عام ١٨٠٦م إلى عزله، وتوليته سلانيك عوضا عن مصر، وهو ما قابله محمد على بالرفض ودفعه إلى الاهتمام بالقلعة، وزيادة تحصينها، وساعده على ذلك استقرار جنده فى مصر وزواجهم فيها. وهو ما أدى فى نهاية الأمر إلى تراجع الدولة العثمانية عن عزله[٦].

فى عام ١٨٠٧م واجه محمد على الخطر الإنجليزي، والذى تمثل فى هجومهم على الإسكندرية، ساند القنصل الفرنسى محمد على، وساعده فى زيادة قوة تحصينات القلعة، وانتهت الأحداث بهزيمة الإنجليز فى رشيد وانسحابهم[٧].

أثبت محمد على تجديداته بالقلعة فى ثلاثة نصوص تذكارية بالقلعة. النص الأول[٨] نقش على لوحة رخامية تعلو باب الشرك الذى قام محمد على بسده، وهو مكتوب باللغة التركية، يوجد هذا النص فى إطارين مستطيلين، مساحة كل منهما ٥٠ X ٦٠ سم داخل كل إطار أربعة أسطر، كل سطر من بحرين من الشعر كتب بالخط الفارسى يفصل بين كل خط والآخر خطوط بارزة وترجمة هذا النص كما يلي[٩]:

"خديو[١٠] الخطة المعمورة أم الدنيا الذى
أشعة نجمه تنير أقطار العالم كالشمس
فلن يصيب صفوف الإسلام غم، لأن
لسان خنجره يرد الجواب لأعداء الدين
فأى أثر كهذا من آثار نقوم بتبيانه
إن بقاع خيره فى الدنيا لا حصر لها
لقد أنشى باب مزين مثل الطاق المعلى
حيث "دارا" فى عهده لم ير مثل سواد رسمه
لاشك أبدا فى دوام دولته وإقباله
لأن اسمه اشتهر باسم محمد على

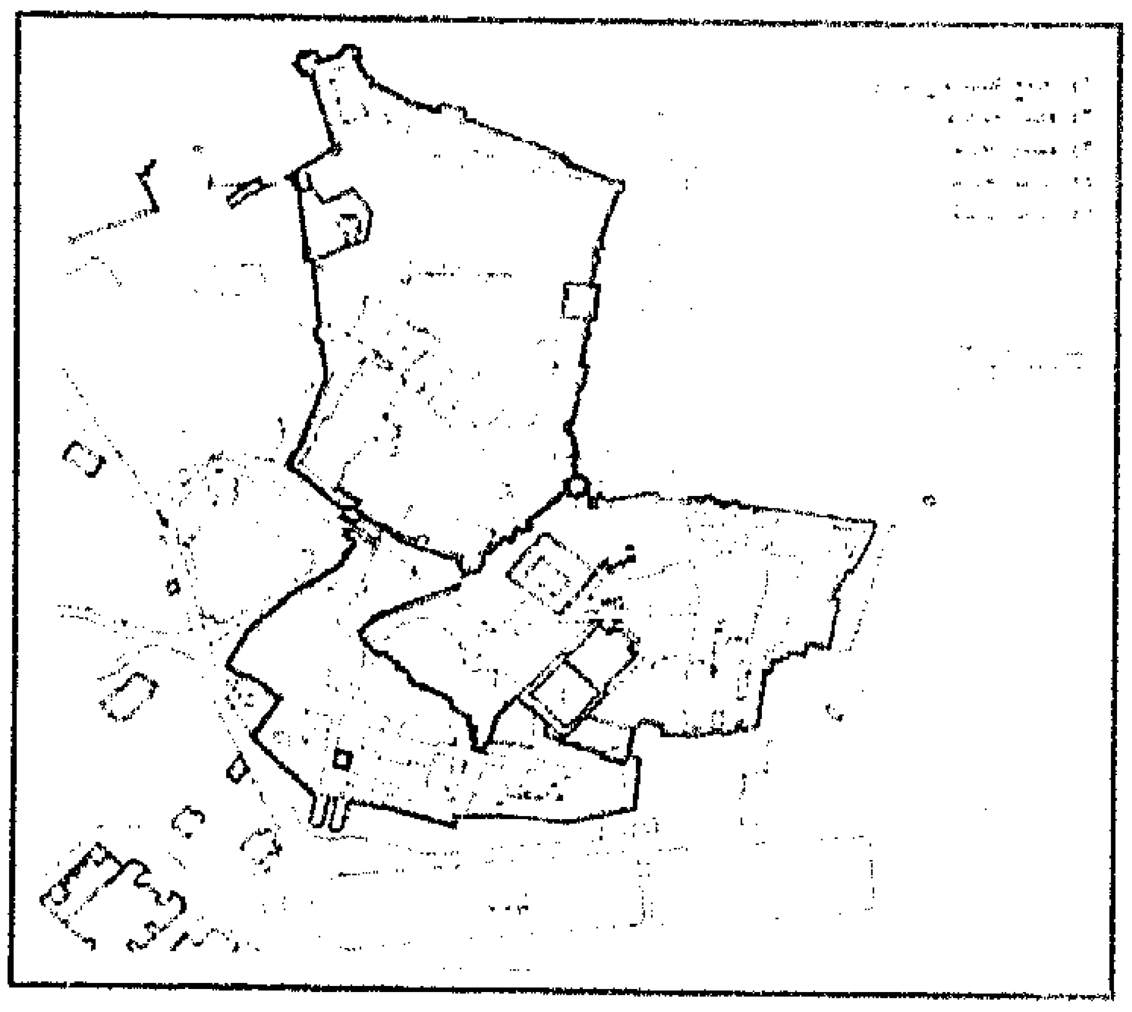
القلعة فى عصر محمد علي

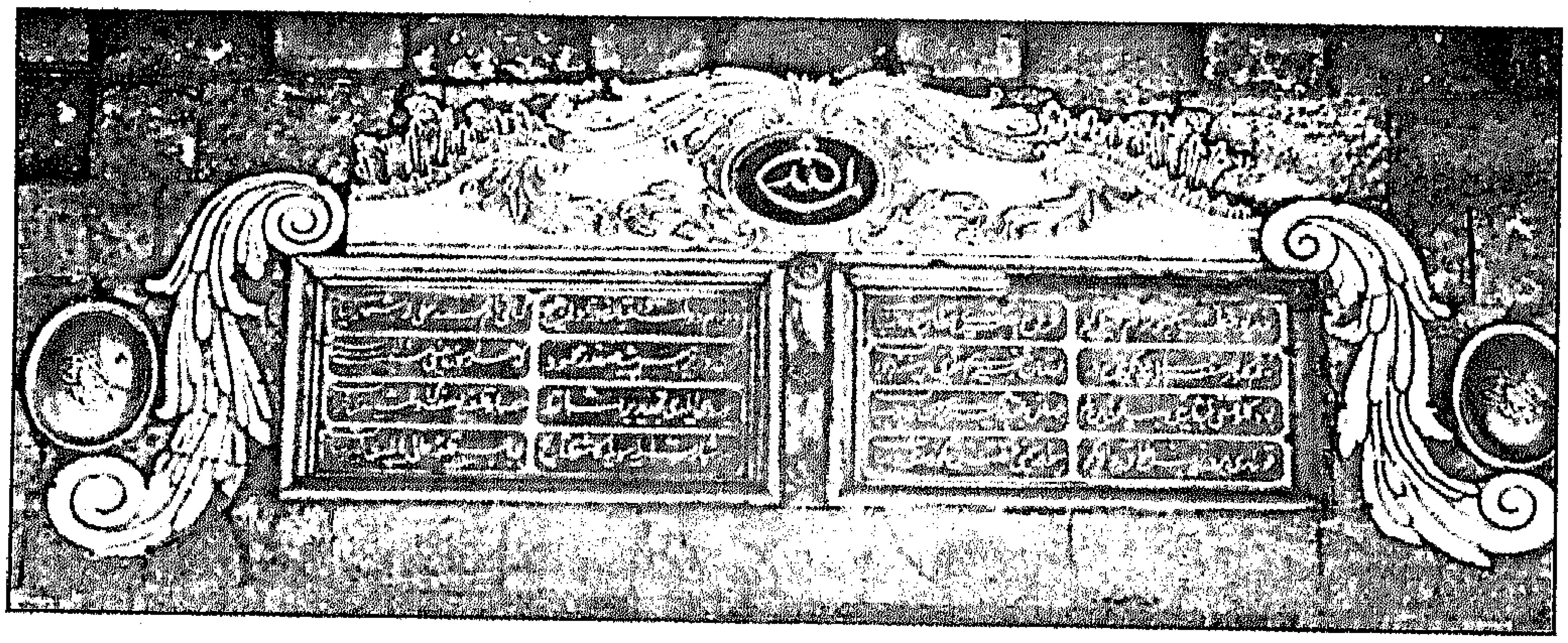
نص تجديد القلعة أعلى باب الشرك – عصر محمد على باشا

يا له من وزير" سابق الهمة شجاع محمود
والله سبب الأسباب معين له فى كل أموره
أمر، وبإشارة منه تجددت
قلعة يوسف بعد أن كانت خرابا
فقل يا كاشف" تاريخا بضم رأس إشارة
بنى باب القلعة هذا فكان خير مآب
١٢٤٠هـ"

والنص الثانى وضع على الحائط المواجه لدفتر خانه محمد على وقد كتب باللغة التركية أيضا وترجمته[١٣]:

"والى مصر" محمد على باشا الكريم
خديو أعظم لم يأت فى الدنيا مثله
ومن جملة أعماله أن كانت قلعة مصر خرابا
كالعظم الرميم فجعلها كبستان إرم
فليحقق الله آماله بالليل والنهار
وليشرح الله صدره فى كل آن
وضع "عزيز" تاريخا فى شطره بعون الله
جدد بناء قلعة مصر من أساسها وجعلها قوية
١٢٤٢هـ"

والنص الثالث الذى يتضمن إشارة إلى تجديدات محمد على بالقلعة يوجد على الباب الفرعى المؤدى إلى الفناء الأمامى للجناح الغربى لقصر الحرم وهو عبارة عن نص تذكارى كتب باللغة التركية وترجمته[١٥]:

"والى مصر محمد على باشا الكريم
ذو الكلمة العالية وهو الخديو الأعظم
قد أراد له الحق سلوك هذا الطريق
ليشيد على خاطره (على عاتقه) ما تهدم من قبله فى هذا الركن
وعلى الجملة (كذلك) فقد كانت قلعة مصر
كالعظام الرميم فشيدها ببناء محكم
وخرج بعون الله تاريخ هذا الباب العزيز
الذى شيد بقلعة مصر على أساس جديد محكم
١٢٤٢".

تدل الألقاب الواردة فى النصوص السابقة على طبيعة حكم محمد على لمصر، ففى لقب والى مصر فى النصين الثانى والثالث تعبير عن تبعية مصر للدولة العثمانية. وعلى استمداد محمد على جانبا من شرعية

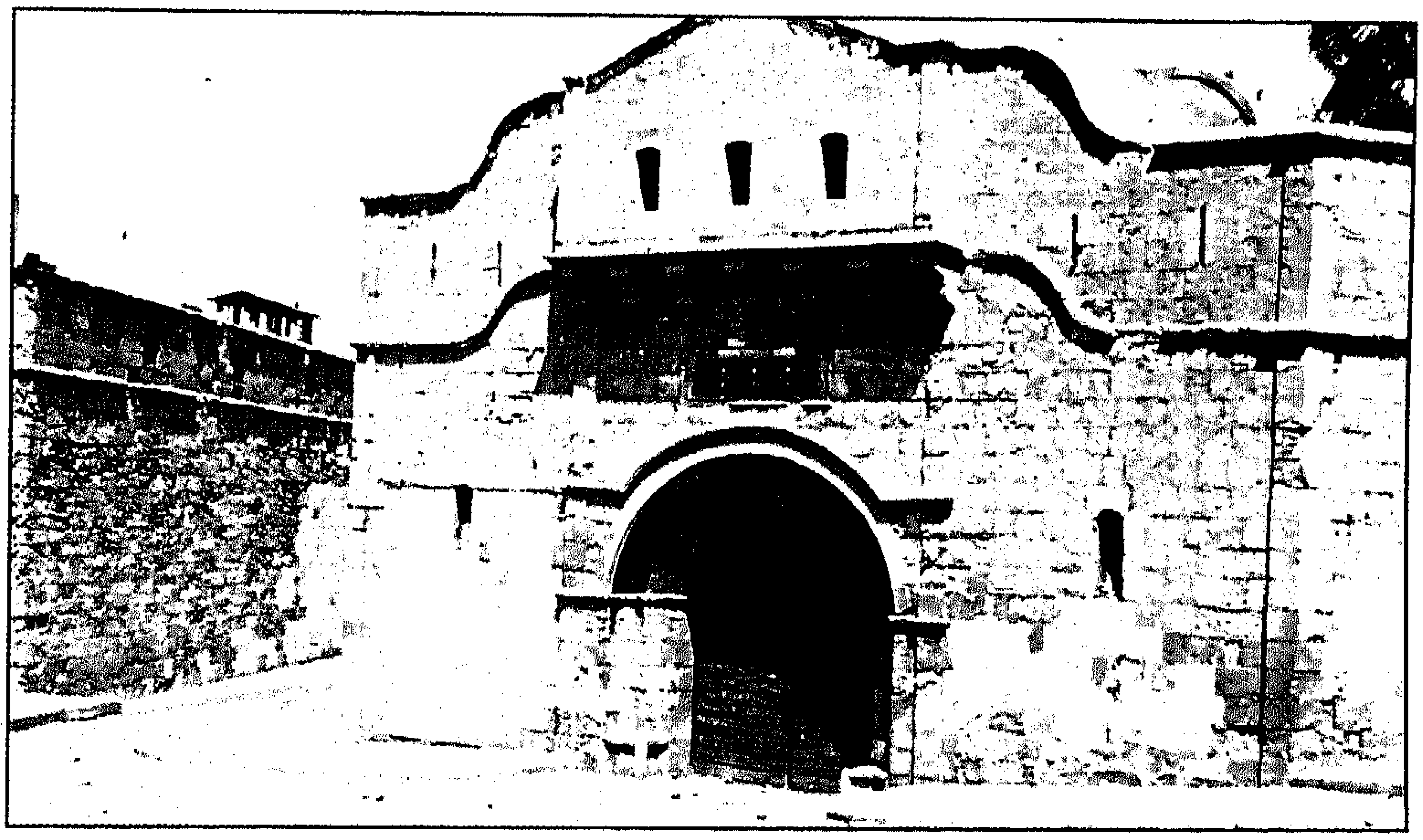

نص تجديد القلعة أعلى الدفترخانة – عصر محمد على باشا

حكمه من فرمان عثمانى بتوليته حكم مصر. فى حين دل لقب خديو على رغبة محمد على فى الاستقلال عن الدولة العثمانية. فهذا اللقب كان يعطى سابقا فى فارس وتركيا إلى بعض حكام الأقاليم المستقلة[16]. وكان محمد على يستمد جانبا من قوته من كونه ولى أمر مصر بناءً على رغبة المصريين، وعلى حربه للوهابيين فى شبه الجزيرة العربية نيابة عن الدولة العثمانية وعلى مشاركته فى حرب المورة[17]. ومن هذا المنطلق منح محمد على هذا اللقب لنفسه دون انتظار أن يمنحه له السلطان العثمانى. وأقدم نص وصلنا إلى الآن يحمل هذا اللقب نص تأسيس مدفن شريف بك الذى يعود إلى عام ١٢٣١هـ/ ١٨١٥م. وبنص سبيل محمد على بالعقادين ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م. ثم توالت النصوص بعد ذلك. وهذا يدل على شيوع هذا اللقب فى المكاتبات الرسمية بمصر[18].

حصل الخديوى إسماعيل على هذا اللقب بناء على فرمان من السلطان العثمانى فى ٥ ربيع الأول ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م. وقد تأكد هذا اللقب بفرمان آخر صدر من السلطان فى ١٣ ربيع الآخر ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م. ويعنى كل ما سبق أن السلطان بمنحه هذا اللقب للخديوى إسماعيل إنما كان يعترف بأمر كان قائما بالفعل[19].

تدل أعمال محمد على على استيعابه لتقنيات العصر ومستجداته، ولنا فى ذلك الأمر ثلاثة إجراءات اتخذها: الأول هو إنشاؤه قلعة المقطم أعلى قلعة الجبل، والثانى إقامة أبواب جديدة للقلعة تسمح بمرور العربات، وهى وسيلة الانتقال التى بدأت تشيع بمصر منذ أن دخلها الفرنسيون. والثالث هو تشييده دارا للصناعات الحربية فى القلعة فى المكان الذى شغله جند العزب بالقلعة فى العصر العثمانى.

قلعة محمد على بالمقطم[20]

أنشئت هذه القلعة لحماية قلعة الجبل، حيث أدت التطورات التى طرأت على الأسلحة بخاصة المدافع إلى سهولة قصف القلعة وتدميرها من جبل المقطم المواجه، حدث ذلك فى العصر العثمانى حينما احتلت طائفة العزب جبل الجيوشى (المقطم) فى إثر نزاع دار بينها وبين الوالى العثمانى وطائفة الانكشارية عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م، وأطلقوا من جبل المقطم المدافع على ديوان الباشا وعلى باب الانكشارية[21]. وحدثت تطورات إضافية منذ ذلك الحين فى المدفعية وقوة قذائفها ومداها[22] كان محمد على نفسه قد استخدم هذا الموقع فى محاصرة قلعة الجبل سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م حيث تم تصعيد مدافع إلى جبل المقطم لإحكام الحصار على الوالى المعزول أحمد باشا خورشيد[23].

بدأ محمد على هذا العمل فى عام ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م. حيث أمر بإنشاء زلاقة أى طريق صاعد ممتد من باب القلعة المعروف بباب الجبل إلى أعلى جبل المقطم وهو طريق واسع منحدر من أعلى إلى أسفل سهل فى الصعود والنزول، كان الهدف من إنشاء هذه الزلاقة هو تسهيل الصعود إلى المقطم من قلعة الجبل، وقد وصف الرجبي[24] بناء هذه الزلاقة فى كتابه قائلا "فأمر (محمد علي) بإحضار العملة والصناع وجمعهم فى هذه المحال والبقاع، فحضروا حسب أمره، وشرع فيما يثنى عليه به طول دهره، فأمرهم بنحت الأحجار وإتقان الصخور المهندمة الكبار، وبإحضار كل ما يحتاجونه من جص وغيره، وكل عامل منهم فى شأنه وسيره فابتدءوا من حذا باب الجبل تجاهه وأحكموا عملهم متانة ... وبالغوا فى قوة البناء المحكم حتى التصق بالجبل واستقام واستحكم، ومن رفقه بالمارة هناك جعل فيه قناطر للاستدراك يمر السائر فى ذلك الطريق الراكب على الجواد إذا خرج من باب القلعة مارا فى الطراد لا يزال يكر فى طلق واحد حتى يصير فى أعلى الجبل والعيون له تشاهد بحيث يصير الواحد والجمع العديد بلا تعب فى ذلك المسلك السديد، فحبذا هذا الاختراع والتجديد ... وقد كان قبل ذلك يصير الصاعد فى تعب شديد وقلق بحال جهد جهيد"[25] هذه الزلاقة كان الهدف منها ربط قلعة الجبل بالقلعة الجديدة بطريق مباشر. يصل طول هذه الزلاقة ألف ذراع[26] أى ما يقرب من ٦٤٠ مترا[27]. لم يتبق من هذه الزلاقة سوى جزء طوله ١٥٦م. وهو شديد الانحدار حيث تصل درجة انحداره من ١ إلى ٧ درجة. وعرض هذا الجزء متغير إذ

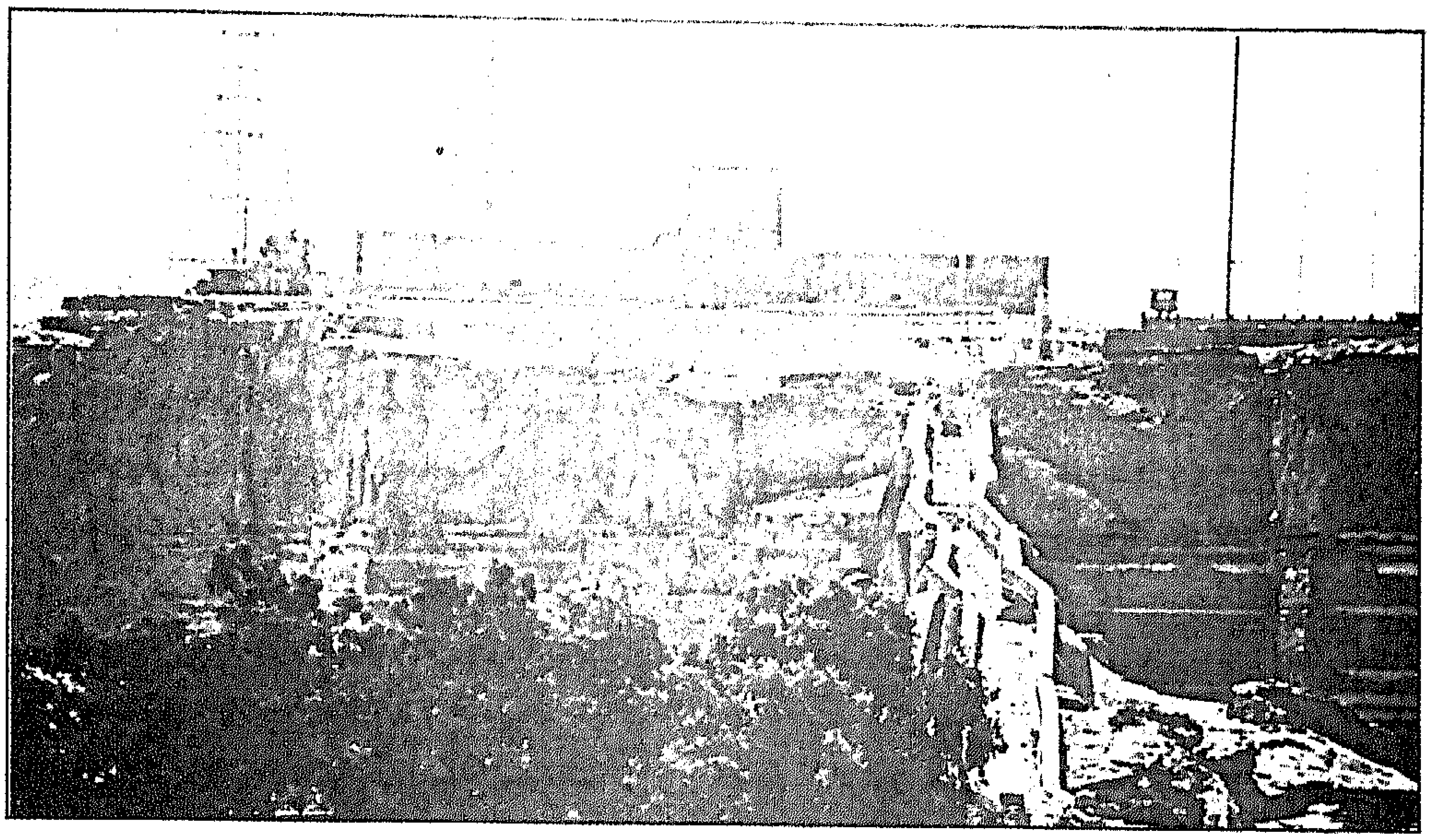

الزلاقة الموصلة إلى قلعة محمد علي

يتراوح بين ٤ و٥ أمتار. تبدأ الزلاقة من أسفل بدعامتين حجريتين مربعتين يعلو كلا منهما شكل هرمى وتتقدم كل دعامة جلستان حجريتان تأخذان شكلا نصف دائرى، وقد خصصت هاتان الجلستان لجلوس جنود الحراسة. والزلاقة تصميمها غير مستقيم إذ إنها متعرجة بخاصة من أعلى إلى أسفل. وهو ما يزيد من قوتها من الناحية الإنشائية، علما بأن جبل المقطم دائم الحركة وذلك لأسباب جيولوجية وبيئية[٢٨]، وهذا ما جعل المهندس حريصا على متانة وقوة الزلاقة. فدعم واجهتيها الجنوبية الغربية والشمالية الشرقية بعدة دعامات حجرية تختلف فى أشكالها وأحجامها. يصل ارتفاع الزلاقة عند جبل المقطم إلى ٤١م، وبذلك ضمن محمد على سرعة الاتصال بين قلعة الجبل والمقطم حيث القلعة الجديدة.

شيد محمد على قلعته بعد الانتهاء من تشيد الطريق الصاعد إليها، وجاء هذا التخطيط وفق معطيات العصر، إذ روعى فيه استخدام المدافع والبنادق للدفاع عن القلعة من جميع الزوايا. عرف هذا التخطيط بالمبستن أو البستيون Bastion[٢٩]. وهو اصطلاح أوروبى يشير إلى حصن له زوايا فى أركانه الأربعة، هذه الزوايا منفرجة وغير منتظمة الأضلاع بهدف التحكم فى مرامى النيران من كل الجهات[٣٠]. وتتيح زوايا الأبراج فرصة قوية للدفاع عن القلعة، حيث يوجد بها أجزاء داخلة وخارجة، وكانت المدافع توضع فوق الأجزاء الخارجة أعلى البرج، وبذلك تتوجه فتحات المدافع من الدروة التى تعلو البرج وليس من خلال فتحات مزاغل. وهو ما يتيح لها تتبع حركة العدو إذا ما هاجم القلعة.

كان يحيط بالقلعة خندق كبير يشكل خط دفاع عنها معظمه مردوم حاليا. ويتراوح عرض الخندق حاليا ما بين ٥ و٦م وعمقه حاليا ٢م. يتكون تخطيط قلعة محمد على من مساحة شبه مربعة حدودها الخارجية ٧٠م، أما مساحتها الإجمالية فهى ٢٩٠٠ متر مربع، ويخرج من أركانها أربعة أبراج رئيسية غير منتظمة الشكل، يتكون تخطيط البرجين الموجودين فى الواجهة الشمالية الغربية من شكل مخمس غير منتظم الأضلاع، أما البرجان الموجودان فى الواجهة الجنوبية الشرقية فتخطيطهما غير منتظم الأضلاع.

تعد الواجهة الشمالية الغربية هى الواجهة الرئيسية للقلعة حيث تواجه قلعة الجبل وتلتقى مع الزلاقة الصاعدة من قلعة الجبل للمقطم وطول هذه الواجهة ٧٣م. وفى

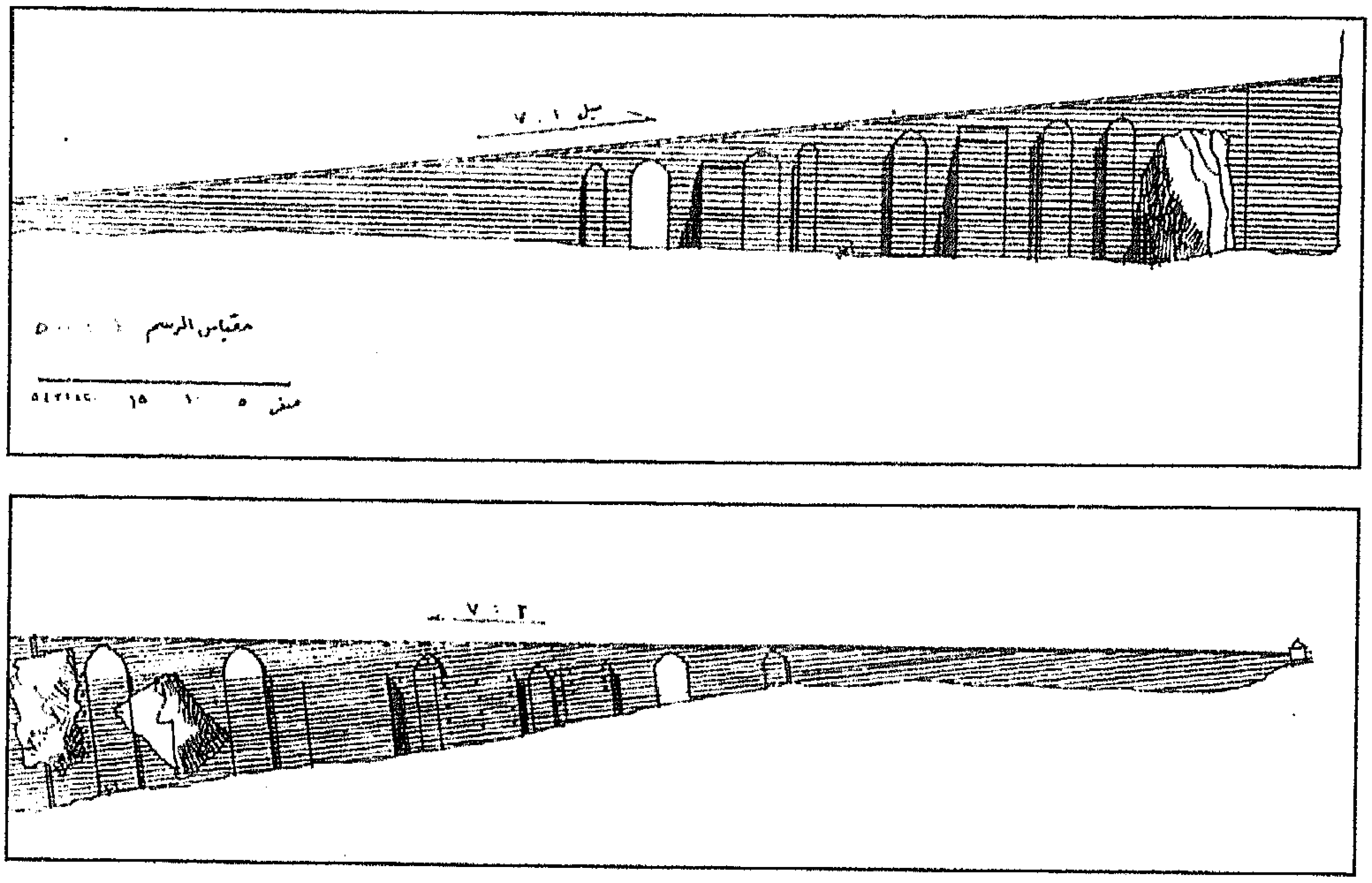

الزلاقة الموصلة إلى قلعة محمد على – رسوم توضيحية

ركنيها برجان يميلان عن الواجهة بميل قدره ٧ : ١ درجة. ويتوسط هذه الواجهة كتلة المدخل الرئيسي، وهو مسدود حاليا. وللمدخل باب بقنطرة عبارة عن باب متحرك يصعد ويهبط بسلاسل ملفوفة على بكر. وكان يعلو كتلة المدخل نص تأسيسى مازال مكانه باقيا إلى اليوم. ويحيط بالمدخل من أعلى كرنيشان على هيئة منحنى عرف باسم Frinsh Carve. يعلو المدخل غرفة المراقبة الرئيسية، وهى محمولة على ستة كوابيل حجرية، ويوجد بها ثلاث فتحات مستطيلة تستخدم كفتحات للمراقبة وفى الوقت نفسه كفتحات مزاغل لإطلاق نيران البنادق عند الهجوم على القلعة، وسقف غرفة المراقبة جمالونى الشكل زخرف بستارة مثلثة على الطراز الرومي.

تنقسم الواجهة الشمالية الغربية إلى مستويين، المستوى الأول به ٢٦ فتحة مزغل من المزاغل التى كانت تفتح لإطلاق السهام غير أنها هنا تستخدم لإطلاق رصاص البنادق. كما توجد بهذه الواجهة فتحتان مستطيلتان معدتان لتستخدما للمدافع. أما المستوى العلوى فبه ٢٦ فتحة مزغل إلى جانب أربع فتحات كبيرة مستطيلة الشكل.

أما الواجهة الجنوبية الشرقية فيوجد بها ميل قدره

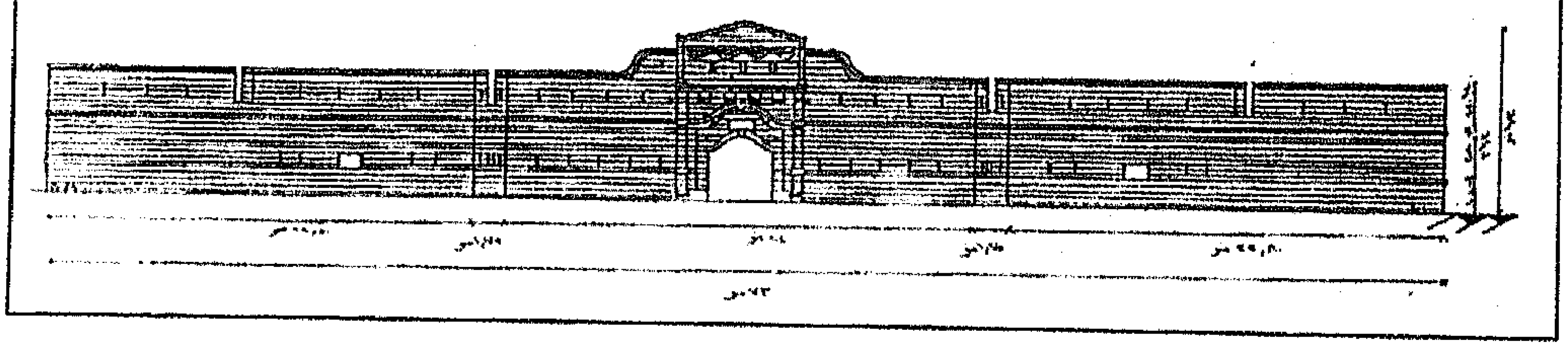

قلعة محمد على بالمقطم – الواجهة الشمالية الغربية

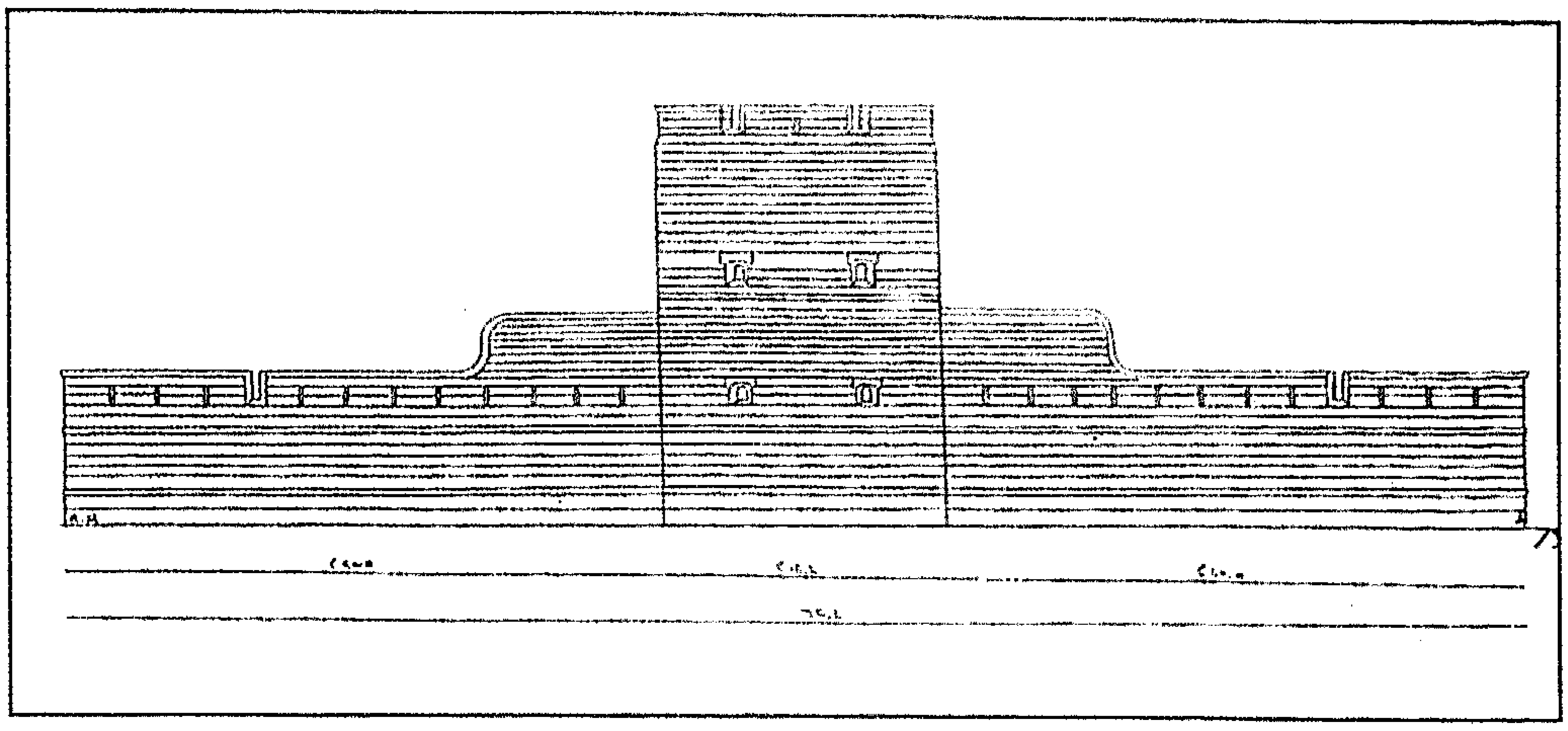

قلعة محمد على بالمقطم – الواجهة الجنوبية الشرقية

٥: ١. ويوجد بها فى المستوى العلوى ٢٢ فتحة مزغل. يتوسط هذه الواجهة برج مراقبة دائرى الشكل ارتفاعه ٢٠م، يتكون من ثلاثة طوابق. بكل من الطابق الأول والثانى فتحتان مستطيلتان معقودتان بعقد نصف دائرى يعلوهما عتب حجري، وهى فتحات تضيق من الداخل (٥٠ سم) وتتسع للخارج (١٤٠سم) وكانت تستخدم للمدافع. أما سطح البرج فيرتد إلى الداخل قليلا وقد فتحت بدورته فتحتا مدفع كبيرتان مائلتان تتوسطهما فتحة مزغل، ويؤطر البرج من أعلى كرنيشان من الحجر.

وتتماثل كل من الواجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية حيث يبلغ طول كل منهما ٧٠ م تقريبا، وميولهما على خط الواجهة ٥: ١، وفتح بالمستوى العلوى لكلتا الواجهتين ٣٢ فتحة مزغل إلى جانب أربع فتحات مدافع كبيرة ذات ميلين. وقد فتح فى منتصف الواجهة الشمالية الشرقية فتحة باب مستطيلة مستحدثة تستخدم حاليا كمدخل للقلعة حيث إن المدخل الرئيسى مسدود.

والقلعة مكونة من طابقين يشتمل الطابق الأرضى على غرف للمراقبة والحراسة وحجرات كانت تستخدم كمخازن للعتاد الحربى إلى جانب ممرات وسراديب داخلية بكل من الضلع الشمالى الغربى والضلع الجنوبى الغربى للقلعة. أما الطابق الأول فيعتبر سطح القلعة أو دروة القلعة حسب المصطلح العسكرى وقت إنشائها، ويصعد إليه عن طريق زلاقات من فناء القلعة، وقد استخدمت هذه الزلاقات لسهولة الصعود والهبوط عليها، بخاصة فى حالة إصعاد المدافع أو إنزالها من سطح القلعة. أما فناء القلعة فيتوسطه مبنى مكون من طابقين كان يستخدم لمبيت الجنود. كما يوجد به صهريج مياه كبير لخزن المياه

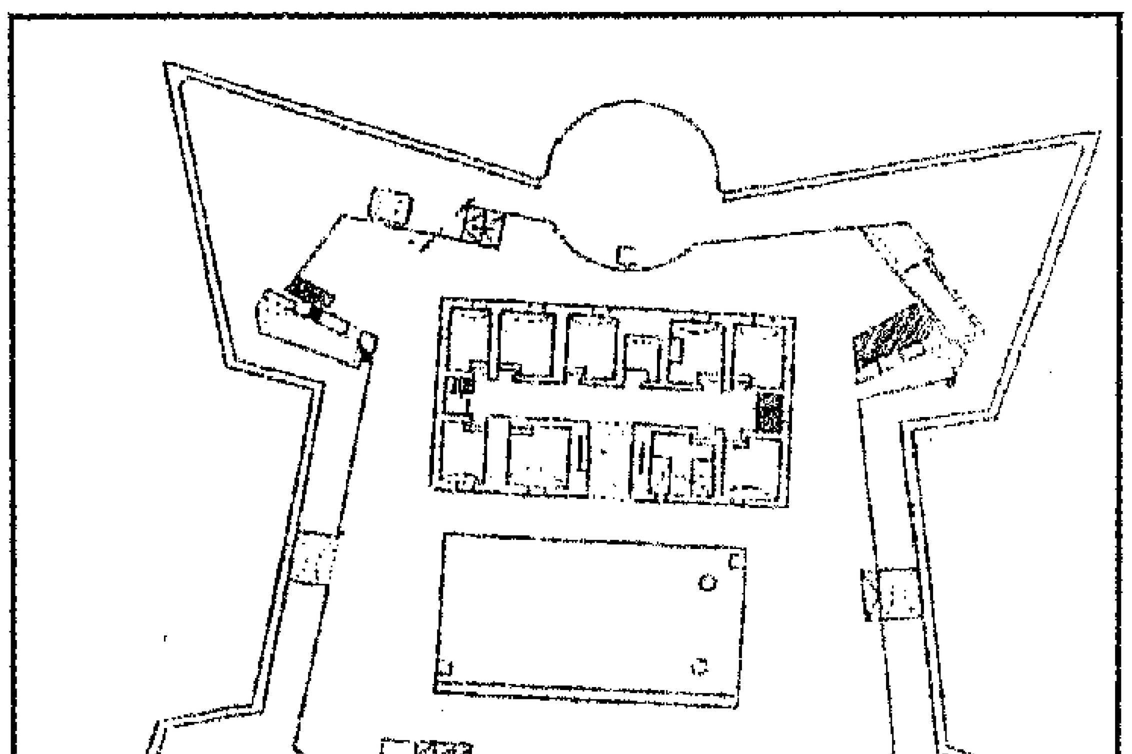

قلعة محمد على بالمقطم – مسقط أفقي

العذبة، وهو محفور فى تخوم صخر المقطم. ذكر الرجبى هذا الصهريج فى كتابه بقوله "وأن يُتخَّذ به سبيل جليل لخزن الماء العذب ليكون ثَم كالسبيل"[٣١] وهذا الصهريج ردمت أجزاء منه حاليا[٣٢].

يرى البعض أن من أسباب تشييد هذه القلعة، أن يجد محمد على منفذا إلى خارجها عند حدوث أية مؤامرة ضده سواء بحصار القلعة أو بقيام ثورة عارمة بالقاهرة[٣٣]. غير أن السبب الرئيسى فى بنائها هو حماية قلعة الجبل من أى هجوم محتمل بالمدافع من جبل المقطم، وكذلك مراقبة العاصمة المصرية من هذا المكان المرتفع وإحكام سيطرة الباشا على جبل المقطم.

الطريق الجديد للقلعة

يعد إنشاء طريق جديد صاعد إلى القلعة الإجراء الثانى الذى اتخذه محمد على وهو إجراء يعكس استخدام محمد على العربة كوسيلة انتقال رئيسية وكذلك ظهور المدافع ذات العجل، هذا التطور ترك أثره على أبواب القلعة، وهذا يتضح فى عمارة كل من الباب الجديد والباب الوسطانى اللذين شيدهما مع الطريق الصاعد الجديد للقلعة. شُيِّد هذان البابان فى الفترة (١٨٢٤: ١٨٢٦م). بعد أن تم ردم أجزاء من الباب المدرج[٣٤] وهو الباب القديم للقلعة. وجزء من الممر المنحوت فى الصخر، وكذلك ردم البوابة الواقعة أسفل الباب الوسطانى والتى كانت تعرف بباب السر الكبير. ومن الملاحظ فى هذين البابين اختفاء عناصر الدفاع التقليدية التى كانت تستخدم فى أبواب القلاع كالزلاقات مثل التى كانت توجد فى باب العزب فى القلعة أو باب زويلة فى أسوار القاهرة الفاطمية أو المداخل المنكسرة على نحو ما كان موجودا فى مدخل الباب المدرج بالقلعة.

الباب الجديد

بنى هذا الباب على رديم رفع أرض القلعة أسفله إلى مستوى يوازى الطريق الجديد الصاعد إلى القلعة، يبلغ طول الواجهة الشمالية للباب الجديد ١٥,٥٠م، أما

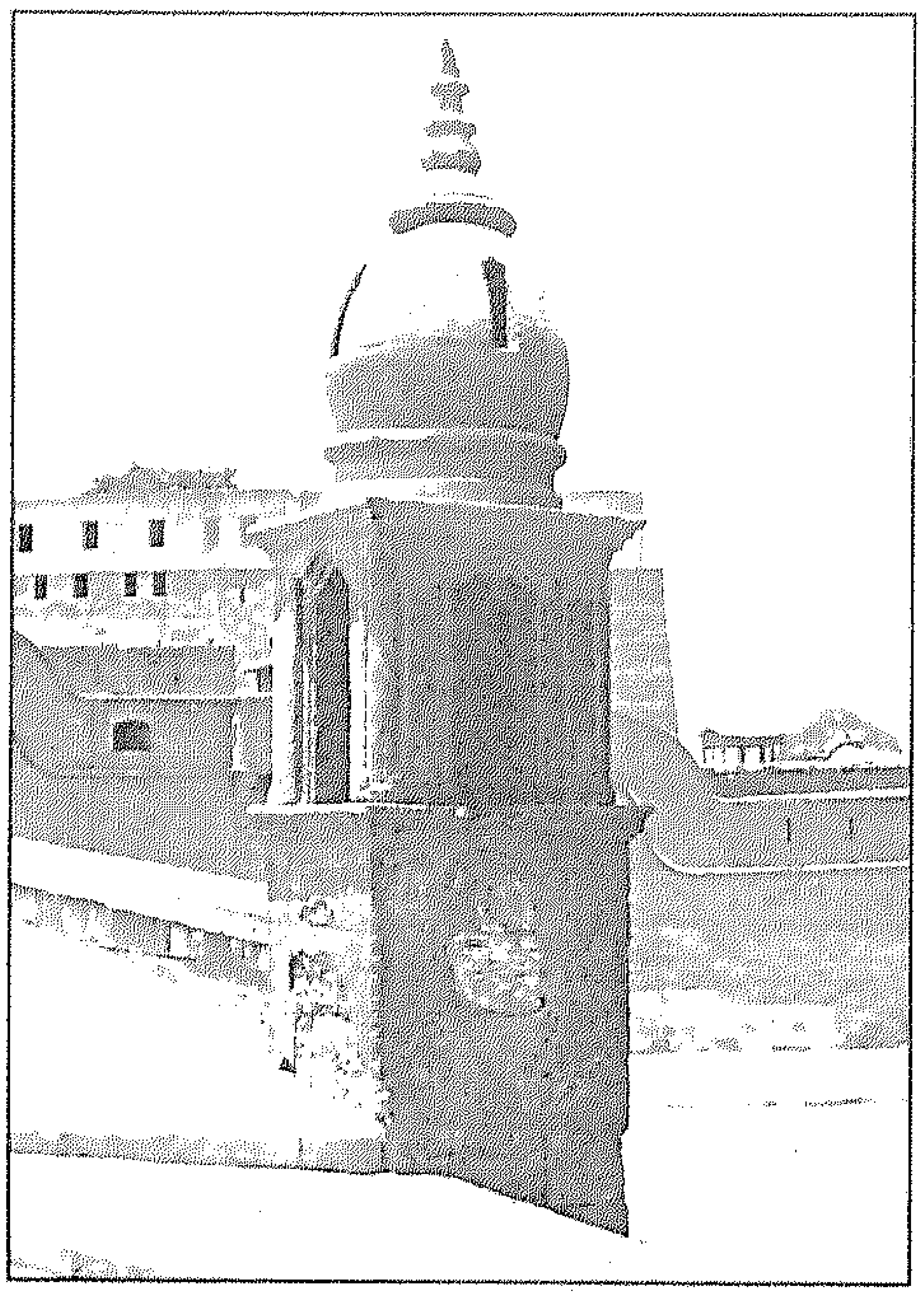

أحد محاريس الطريق الصاعد

ارتفاعها فيبلغ ١٦م. ويزيد قليلا فى الركن الأيمن لواجهة الباب الشمالية لوجود محراس أعلاها. تتوسط فتحة الباب الواجهة حيث يعلوها عقد نصف دائرى. وقد زخرفت فتحة الباب والعقد بوسائد حجرية. ويحيط بعقد الفتحة من أعلى جفت لاعب بميمات ينتهى بميمة كبيرة أعلى مفتاح العقد. ويكتنف دخلة الباب مكسلتان، ويغلق على هذا الباب باب من الخشب المصفح بألواح حديدية مثبتة بمسامير مكوبجة. والباب من فردتى باب فُتحت فى اليمنى خوخة صغيرة. تستخدم للدخول إلى القلعة، وكان الباب لا يفتح بكامله إلا عند مرور عربة أو مدفع. يعلو المدخل السابق لوحة تذكارية كتب بداخلها بخط الرقعة البارز على أرضية من فروع نباتية "يا مفتح الأبواب". ويوجد أسفل الكتابة السابقة باللوحة إطار زخرفى كتب بداخله "راقمه عبد الغفار"[٣٥] ويؤطر اللوحة إطار زخرفى من فروع نباتية تتخللها زهور الرمان. ويعلو هذه اللوحة غرفة مراقبة تبرز عن واجهة فتحة الباب على حرامدنين حجريين، وسقفها

والأعلام والبيارق، والبنادق والسيوف والدروع والبلط والرماح إلى جانب الهلال والنجمة. وكلها تلتف حول ما يشبه الزهرة فى المنتصف.

يحدد كتلة المدخل إطار على الجانبين على هيئة دعامتين حجريتين ومن أعلى كوابيل حجرية تبرز عليها حجرة المراقبة الرئيسية التى يسقفها سقف جمالوني، ويوجد بها ثلاثة شبابيك، وعلى يمين ويسار الغرفة يوجد شباكان. يفتحان على حجرتين لهما سقف مسطح، وفى أعلى الركن الشمالى الغربى للواجهة يوجد محراس عبارة عن بناء مثمن تعلوه قبة حجرية وهو يرتكز على مربع شطفت زواياه. وكان هذا المحراس يستخدم فى مراقبة القادمين إلى القلعة.

أما الواجهة الجنوبية للباب الجديد فيتوسطها الباب وهو عبارة عن فتحة معقودة بعقد نصف دائرى، يعلوه عقد ذو طيات مزخرفة بوسائد رأسية وزخارف هندسية. ويعلو فتحة المدخل لوحة تذكارية كتب بداخلها بخط الرقعة البارز على أرضية من فروع نباتية "افتح لنا خير باب"، أسفل هذه الكتابة إطار زخرفى بداخل اللوحة كتب بداخله "راقمه عبد الغفار". ويؤطر اللوحة إطار زخرفى بارز من الزخارف النباتية تتخللها زهور الرمان. ويحدد كتلة المدخل إطار على الجانبين على هيئة دعامتين. ويعلو ذلك حجرة مراقبة بارزة عن الواجهة بكوابيل حجرية لها سقف جمالوني. وعلى يمين ويسار فتحة الباب حنيتان عرض كل واحدة منهما ٢,٧٠ وعمقها ٤٠ سم. وقد عقدت كل منهما بعقد نصف دائرى زخرف بوسائد رأسية، وفى الطرف الأيسر من الواجهة فتحة باب يعلوها عقد موتور تؤدى إلى بقايا درج الباب المدرج حيث يوجد فى نهايتها فتحتا باب، الأولى فى المواجهة وتؤدى إلى دركاة الباب المدرج والثانية على اليسار وتؤدى إلى الطابق العلوى للباب الجديد. والذى يوجد به مجموعة من الحجرات المختلفة المساحة.

يوجد بين فتحتى الباب ردهة، وهى ردهة طويلة، تنقسم إلى خمس مساحات تبدأ من فتحة الواجهة الشمالية بمساحة مربعة الشكل سقفها على هيئة قبو

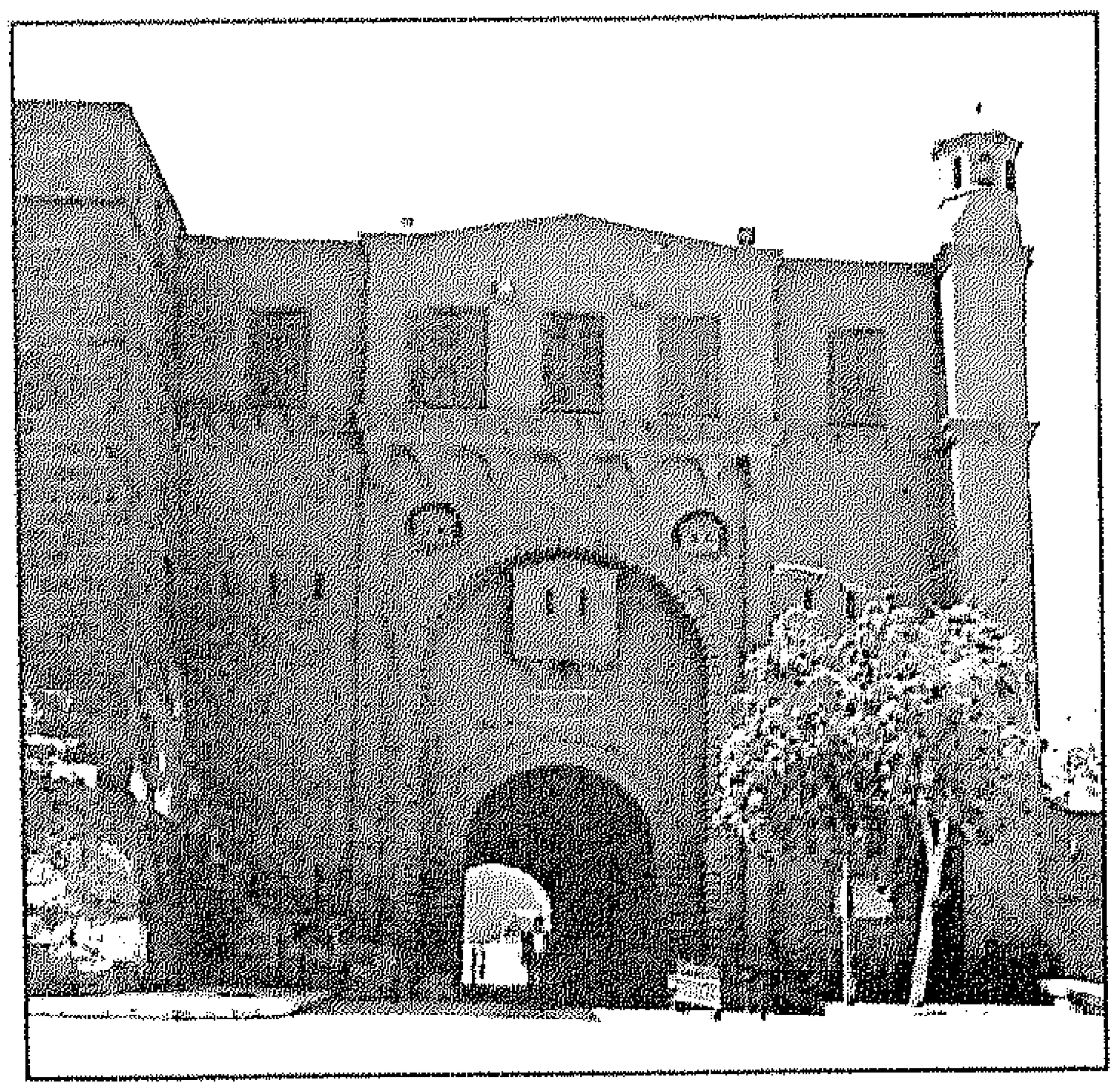

الباب الجديد – الواجهة الشمالية

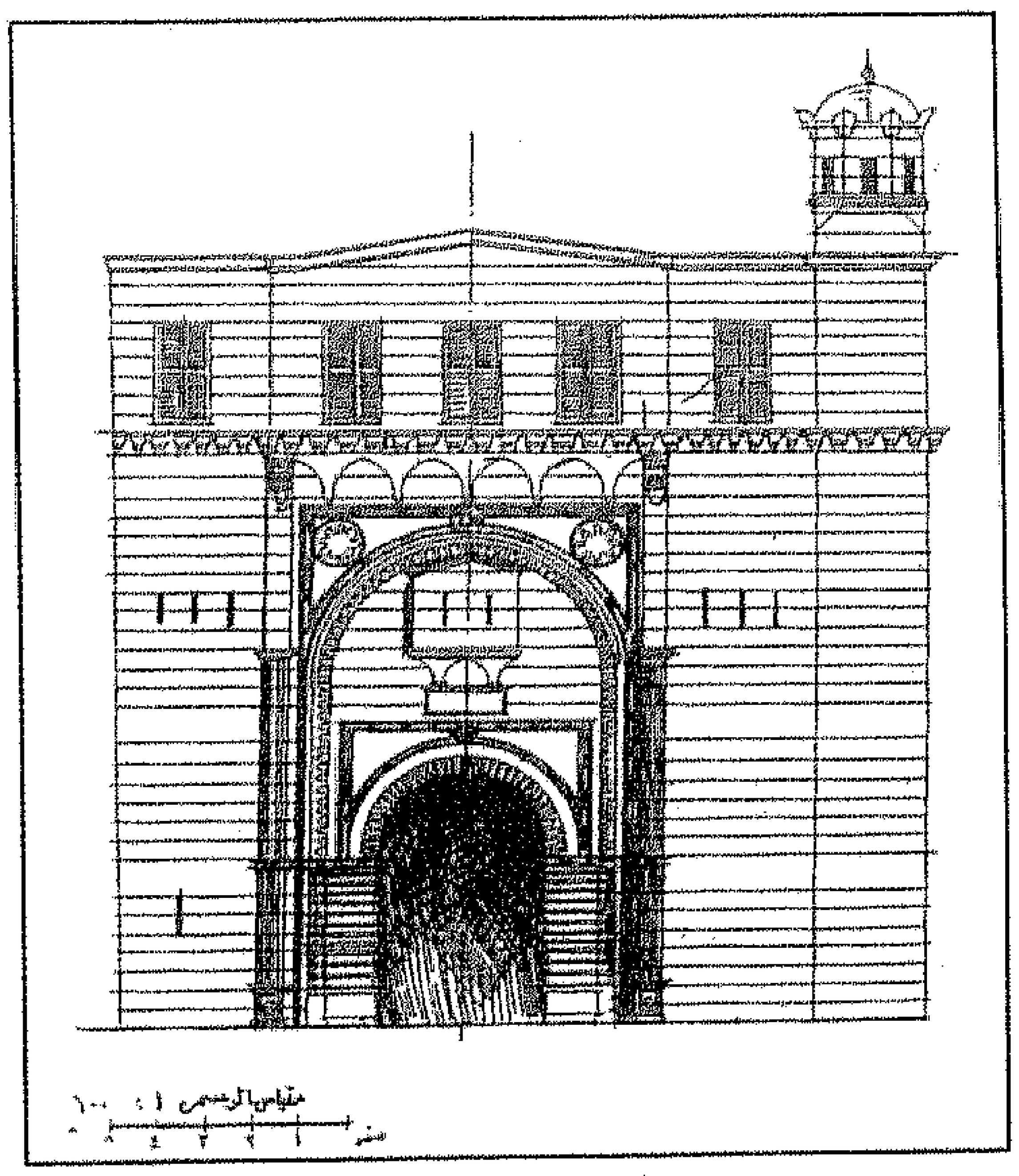

الباب الجديد – الواجهة الشمالية

من النوع الجمالونى. وتوجد بها فتحتا مزغل. وكل هذه العناصر توجد داخل العقد نصف الدائرى المزخرف بوسائد حجرية. يؤطر هذا العقد جفت لاعب بميمات ويعلو مفتاح العقد ميمة كبيرة وبكوشتى العقد جامتان دائريتان بهما رموز الجيش المصري، وهى المدافع رمزا للمدفعية، والطبلة والبوق رمزا للموسيقى العسكرية،

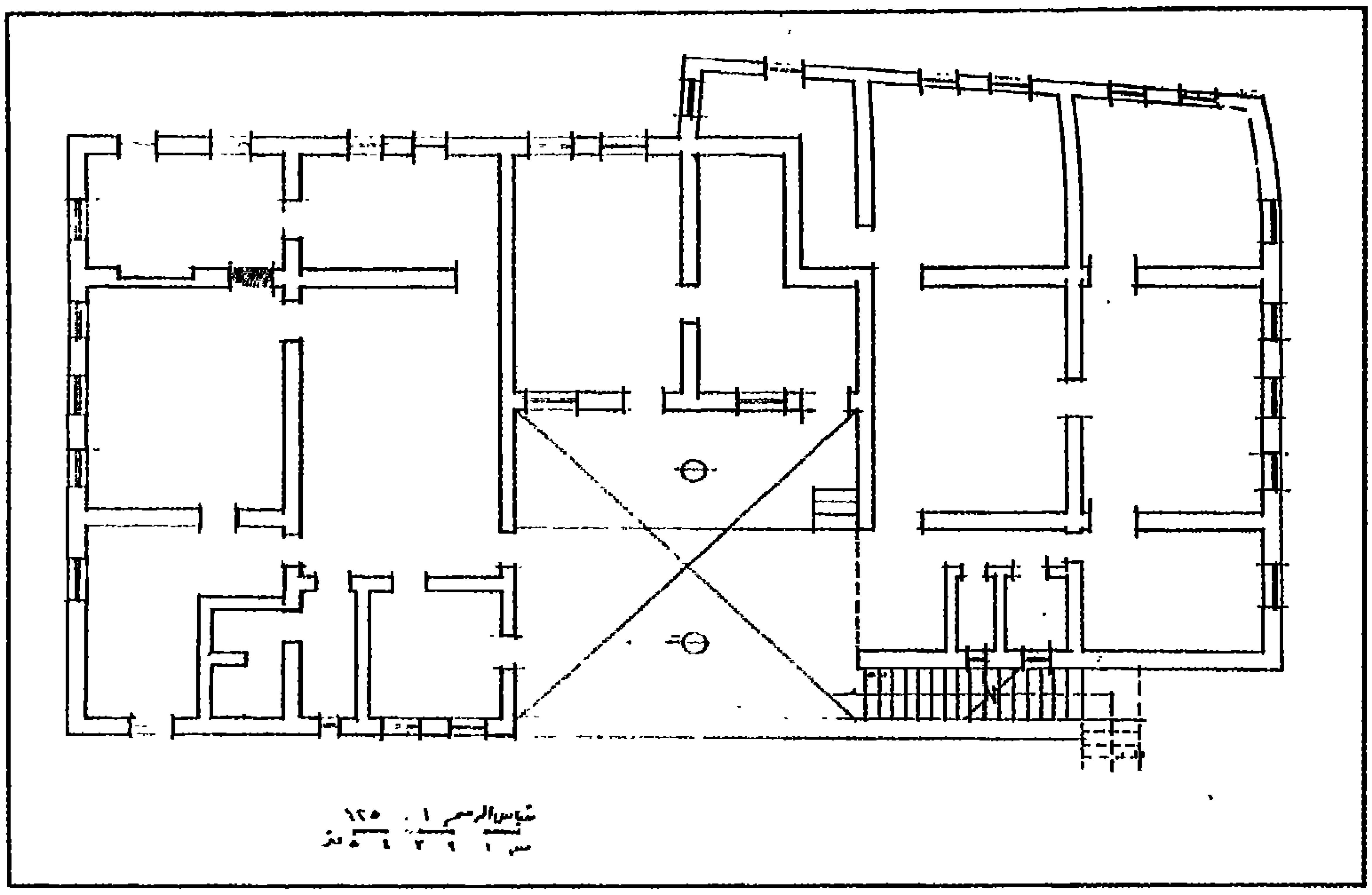

الباب الجديد – مسقط أفقى للدور الأول

متقاطع، وعلى الجانبين توجد فتحة باب معقودة بعقد نصف دائرى، تؤدى إلى سلم صاعد يفضى إلى حجرة رماية فى كل جانب، ويوجد بكل حجرة ثلاث فتحات مزاغل تفتح على الواجهة الشمالية. والمساحة الثانية بالردهة مستطيلة الشكل يتوسطها قبة ضحلة ويفتح عليها أربعة عقود نصف دائرية ويفتح بالناحتين الشرقية والغربية منها إيوانان تقع خلف كل منهما فتحة باب مستطيلة على يمينها ويسارها دخلتان تفتح بداخل كل منهما فتحة شباك مستطيلة يغلق عليها مصبعات حديدية ويعلو فتحة كل باب والشباكين إفريز حجرى يعلوه نفيس. ويؤدى كل مدخل إلى حجرة مستطيلة مسقفة بقبو نصف دائرى. والمساحة الثالثة بالردهة أكبرها مساحة وهى دائرية تسقفها قبة ضحلة، ويفتح على هذه المساحة أربعة عقود نصف دائرية، ويوجد بالجانبين الشرقى والغربى إيوانان ترتفع أرضيتهما عن أرضية الردهة. وفتحت بكل من الإيوانيين فتحة باب مستطيلة على يمينها ويسارها فتحة شباك مستطيلة يغشيها مصبعات خشبية. تؤدى كل فتحة

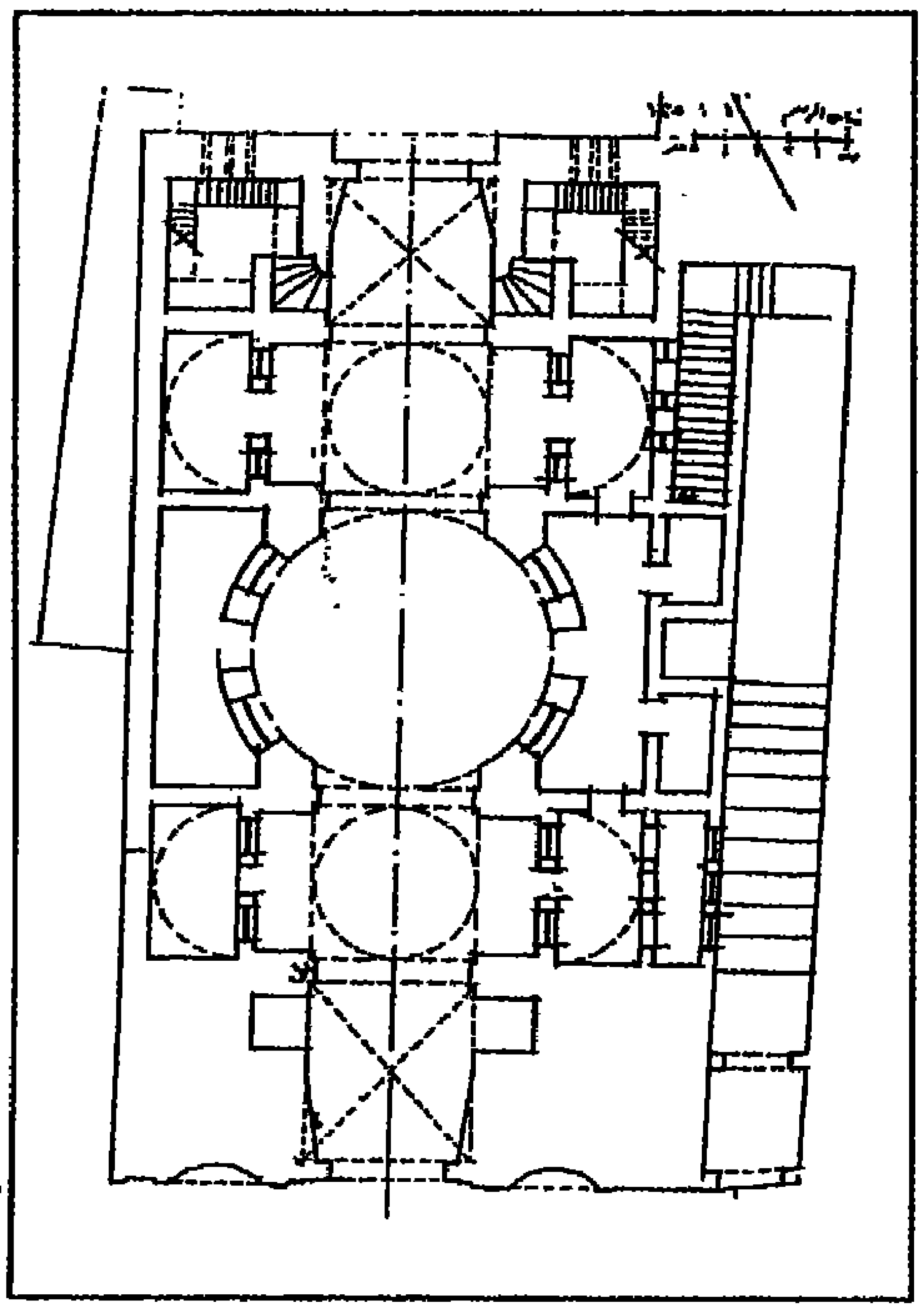

الباب الجديد – مسقط أفقى للدور الأرضى

باب إلى حجرة مستطيلة، والمساحتان الرابعة والخامسة تماثلان المساحتين الأولى والثانية بالردهة على التتابع.

الباب الوسطانى

يقع هذا الباب أعلى باب السر الكبير الذى كان مخصصا فى العصر المملوكى لدخول كبار أمراء المماليك إلى النطاق السلطانى فى القلعة، وكان هذا الباب يفتح أيضا فى المناسبات الرسمية. ردم محمد على هذا الباب فى إطار استكمال منسوب الطريق الصاعد إلى القلعة وردم كل المنشآت المهدمة بها لإقامة منشآت جديدة مكانها. ويرتبط هذا الباب بسور النطاق الجنوبى الذى يمتد من برج السباع إلى باب القلة.

وللباب واجهتان أولاهما الشمالية، وهى تطل على امتداد الطريق الصاعد بعد الباب الجديد، يتوسط هذه الواجهة كتلة المدخل وهى تبرز قليلا عن سمت الجدار، وتوجد بها فتحة الباب وهى معقودة بعقد نصف دائرى ذى طيات، ويؤطر المدخل على جانبيه إطار على شكل عمودين منحوتين فى الحجر، وكان يعلو المدخل نص تذكارى نزعت لوحته. ويعلو ذلك حجرة مراقبة بارزة على كوابيل حجرية ولها سقف جمالونى يوجد بها ثلاثة شبابيك.

أما الواجهة الجنوبية فهى تماثل الشمالية ولكن يحدد حجرة المراقبة من أعلى كورنيش حجرى من النوع المعروف باسم Frinsh Carve كما فتحت على يسار الواجهة فتحة باب معقودة بعقد نصف دائرى تؤدى إلى الطابق الأول.

وردهة الباب مستطيلة وقد فتحت على يسار وعلى يمين الردهة فتحتا باب معقودتان بعقد نصف دائرى، يغلق عليهما مصراع باب خشبي، يؤدى كلا البابين إلى حجرتين مستطيلتين سقفتا بسقف عبارة عن قبو نصف دائرى.

ويؤدى الباب الصاعد إلى الطابق الأول إلى ممشى يعرف حربيا باسم قدم بيادة، فتحت بسوره أربع فتحات مزاغل للبنادق. وفى نهاية الممشى فتحة باب مستطيلة تؤدى إلى حجرة المراقبة الرئيسية السابق ذكرها.

باب القلة

ارتبط تجديد باب القلة بإنشاء محمد على الباب الوسطانى الذى يرتبط مع باب القلة بسور واحد، وفى إطار ما قام

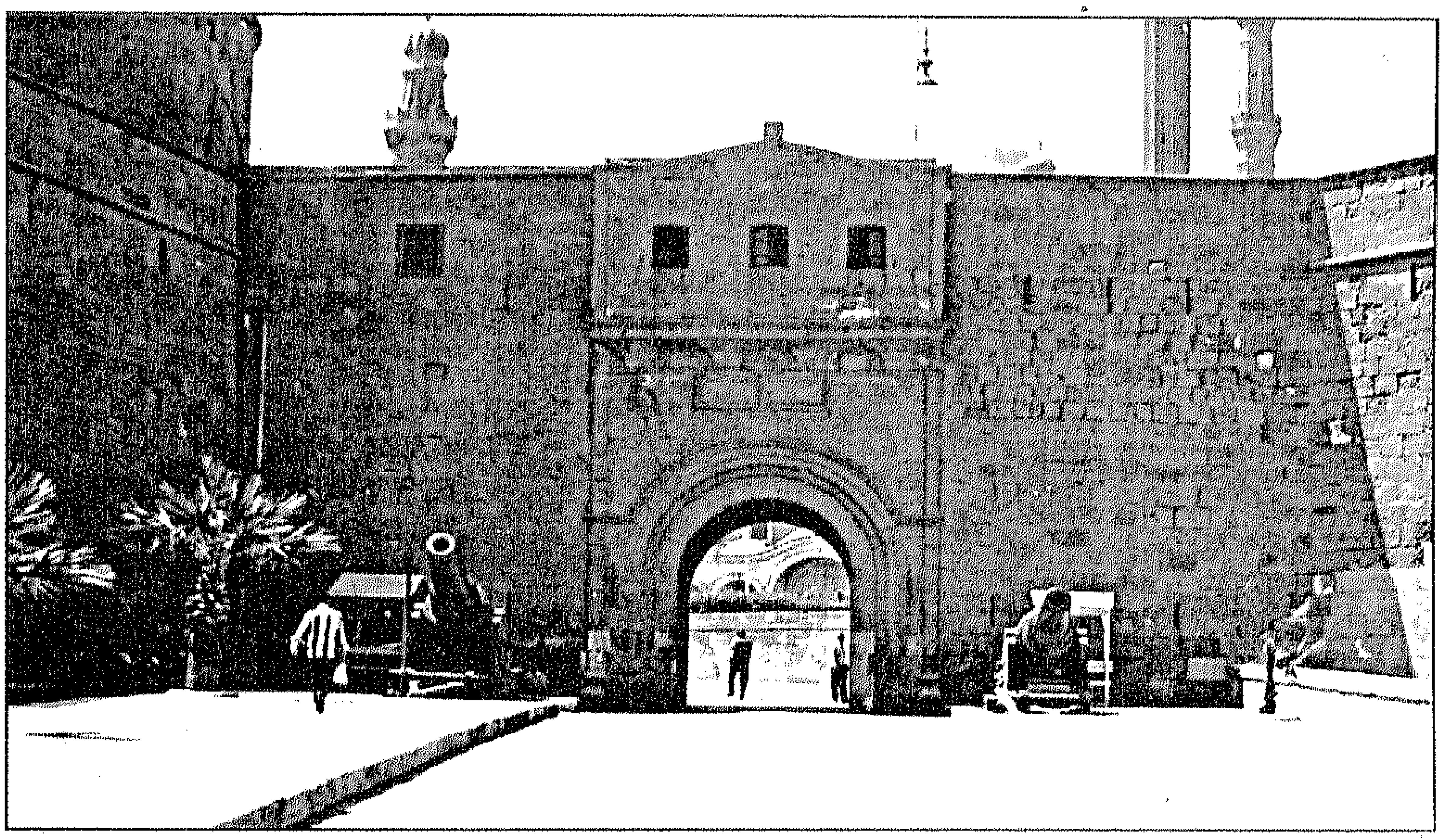

الباب الوسطاني

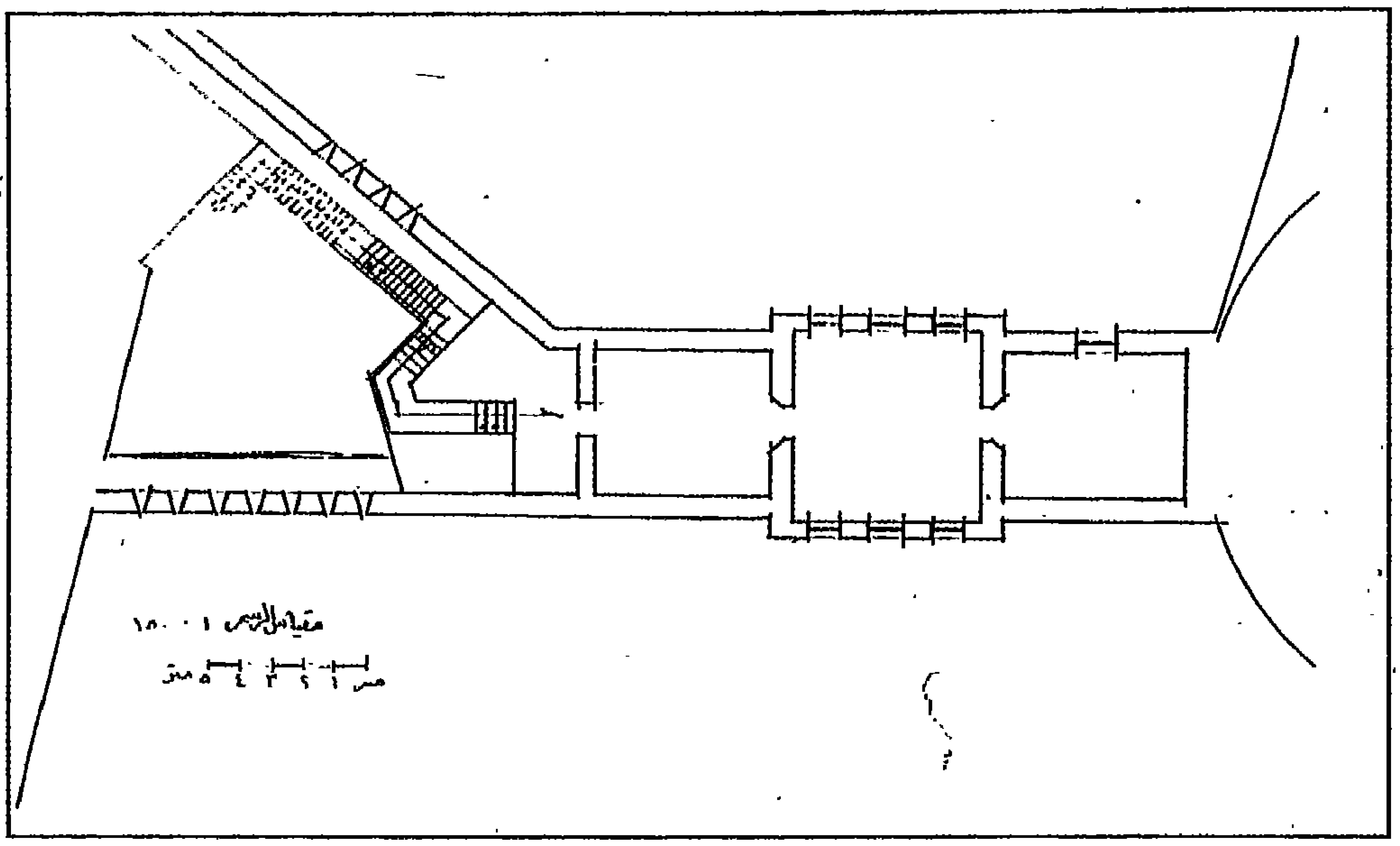

الباب الوسطانى – مسقط أفقى للدور الأول

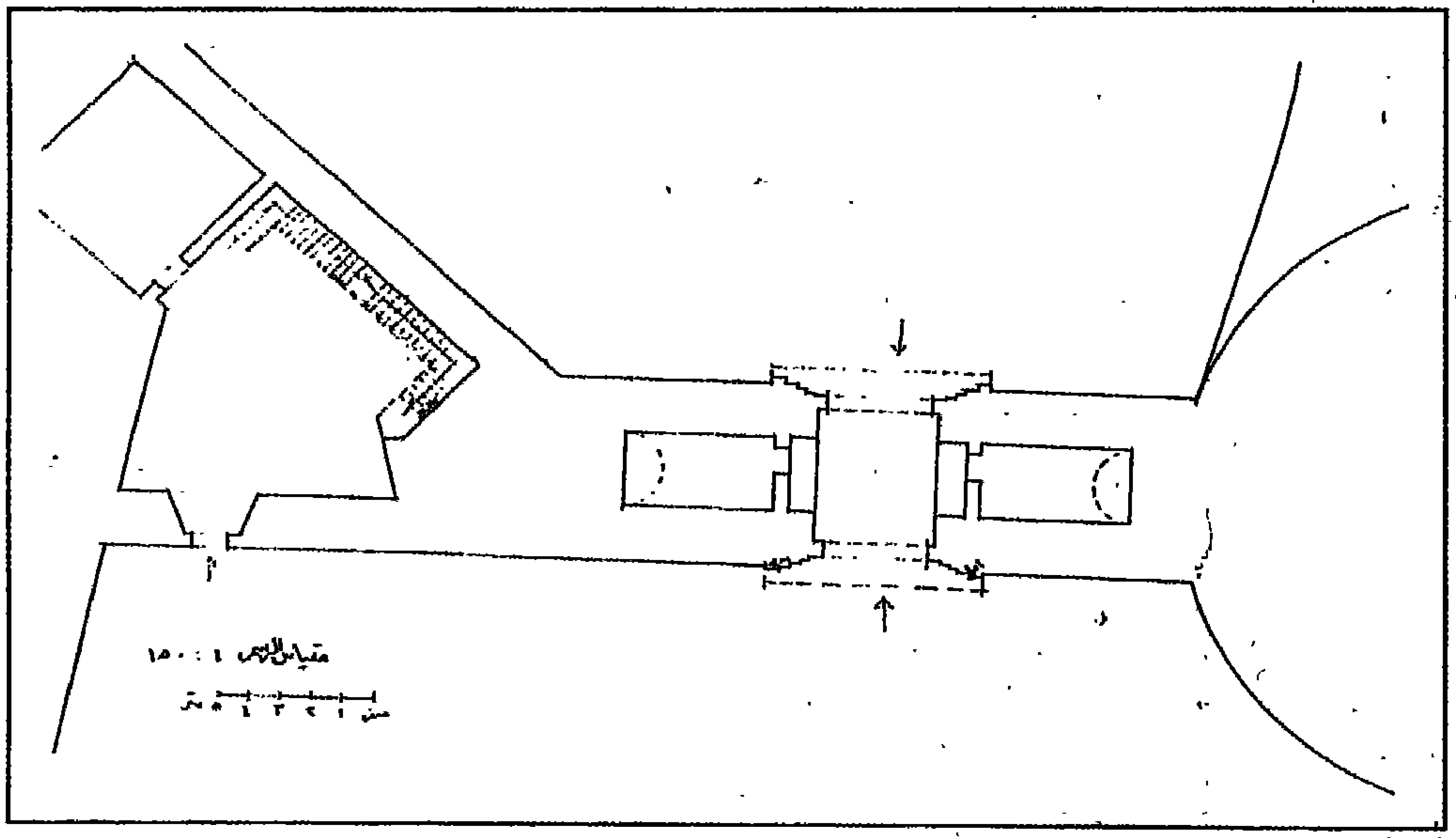

الباب الوسطانى – مسقط أفقى للردهة

به من تجديد لأبواب القلعة جدد باب القلة الذى يعد فى عصره المدخل الرئيسى للنطاق الشمالى للقلعة بعدما ألغى الباب المدرج بإنشائه الباب الجديد فوقه وسد هذا الباب دركاة الباب المدرج، فضلا عن أن المنشآت التى تعود لعصر محمد على وخلفائه بالنطاق الشمالى ألغت نهائيا استخدام الباب المدرج. ذلك أنها سدت مدخله من داخل النطاق وكذلك السور المكمل له. ومنها قصور الحريم والمبنى القديم لدار الوثائق[٣٦].

تتوسط الواجهة الجنوبية لباب القلة السور الممتد من البرج المنصورى الكبير الذى عرف على خريطة الحملة الفرنسية ببرج الطبالين أو برج الطبلخاناه إلى برج المقطم الذى يرجح أنه برج القلة، هذا البرج جدد فى العصر العثماني، وهذه الواجهة من باب القلة عبارة عن فتحة باب معقودة بعقد نصف دائرى ذى طيات يعلوه نص تجديد الباب وهو باللغة التركية وترجمته كما يلي:

– فلتغلق عين العدو السيئ النية كلما فتح باب الزغرة[٣٧]

– وليبارك الله بانبيه بحق سورة طه ویاسین.

١٢٤٢هـ.

ومن الملاحظ أن تاريخ تجديد هذا الباب يوازى تاريخ إنشاء الباب الجديد والباب الوسطاني، ويبرز فوق النص السابق حجرة مراقبة على سبعة كوابيل حجرية، وسقف هذه الحجرية جمالوني، ويكتنف المدخل برجان مضلعان بهما فتحات مزاغل، تعلوهما دروة أضافها محمد على، فتح بها فتحات مستطيلة يعلوها عقد موتور، ويعود هذان البرجان إلى العصر العثماني. أما ردهة المدخل فهى مقسمة إلى ثلاث

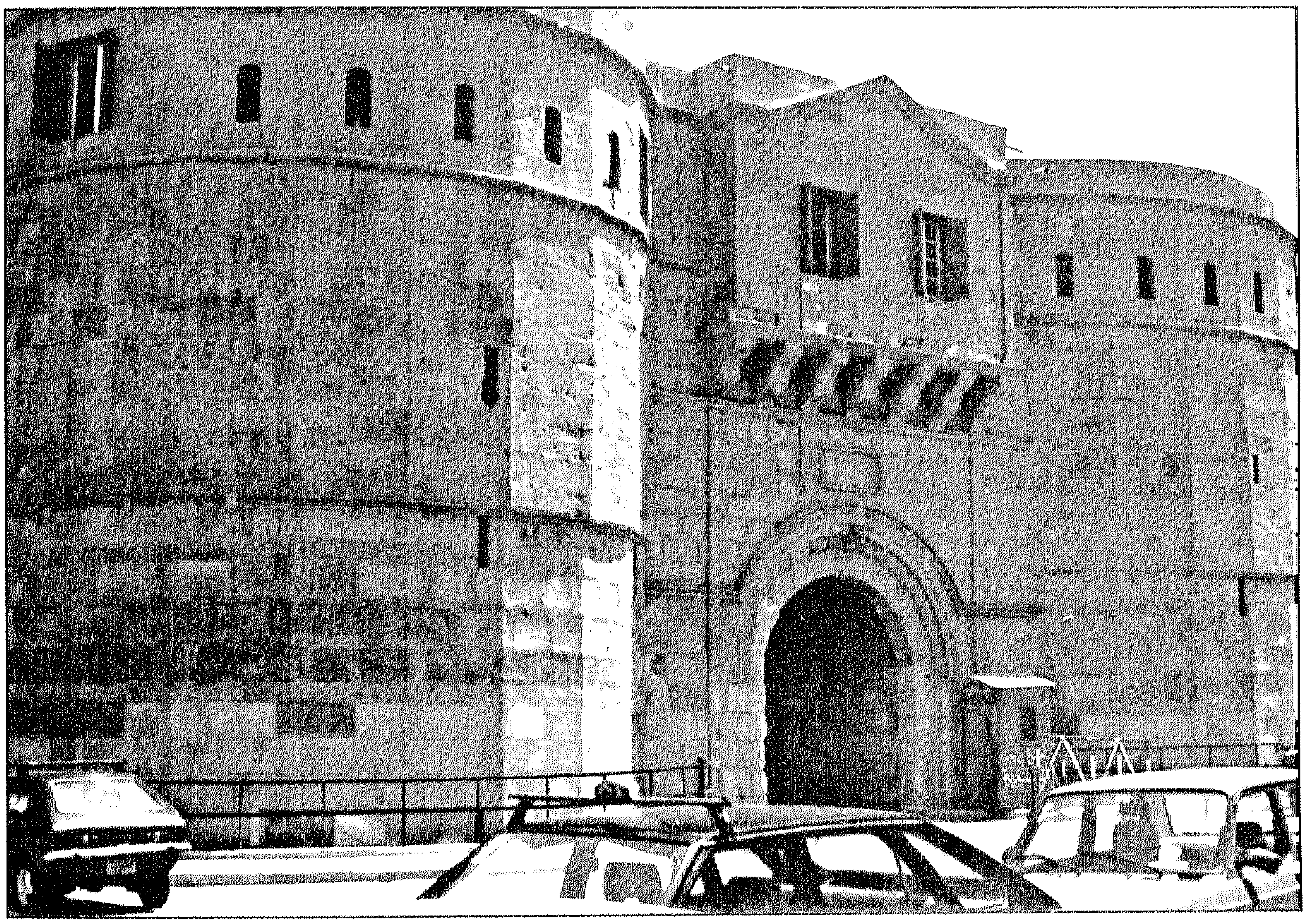

باب القلة

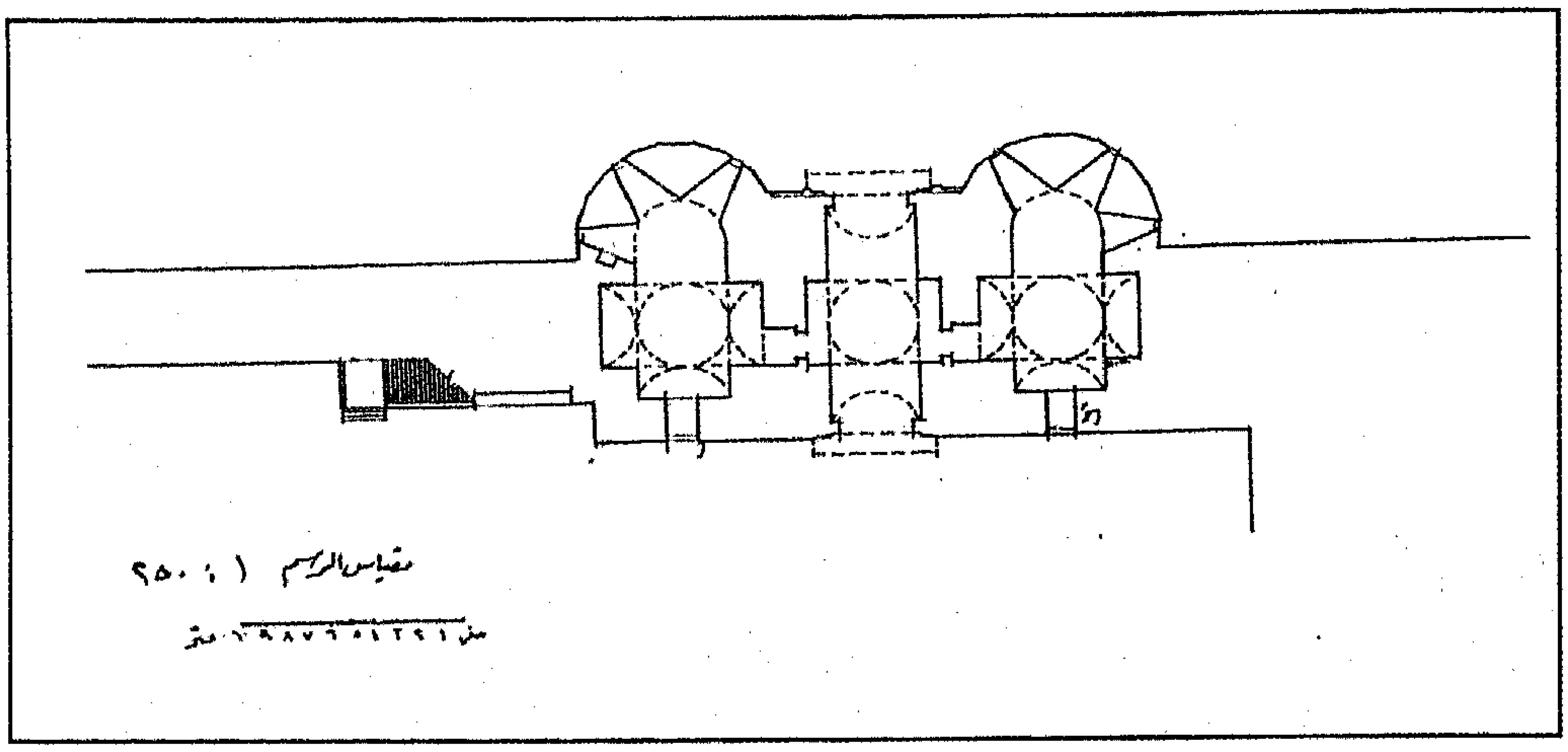

باب القلة – مسقط أفقى للدور الأرضى

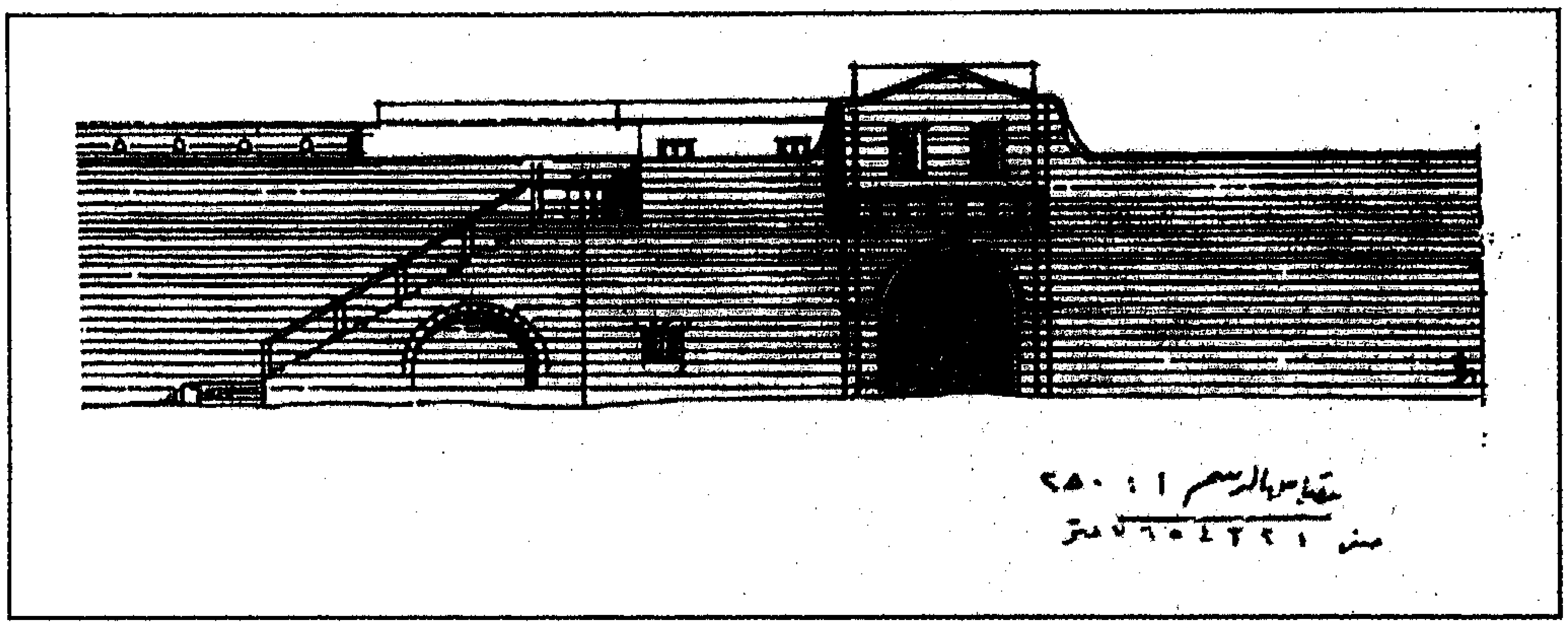

باب القلة – الواجهة الشمالية

مساحات، الأولى والثالثة مسقفتان بقبو نصف دائرى. أما الوسطى فمسقفة بقبة ضحلة، وتؤدى فتحتا باب كل منهما معقودتين بعقد نصف دائرى إلى البرجين داخل البرجين اللذين يكتنفان الواجهة الجنوبية وهما من الداخل، كل منهما مسقف فى الوسط بقبة ضحلة يكتنفها من ثلاث جهات ثلاث سدلات مسقفة بأقبية نصف دائرية، والجانب الرابع يفتح على الواجهة الجنوبية للبرج بثلاث فتحات مزغلية.

أما الواجهة الشمالية للباب فتتوسطها كتلة مدخل وهى ذات عقد نصف دائرى ذى طيات. تكتنفه على الجانبين دعامتان بارزتان فى الحجر، وتعلوه حجرة مراقبة تبرز على ثمانية كوابيل حجرية، وهى ذات سقف جمالوني. ويصعد إلى حجرة المراقبة بالطابق الذى يعلو البرج بواسطة سلم يوجد على يسار الواجهة الشمالية .

الديوان

حظى الديوان باهتمام محمد على لكونه مقر الحكم فى القلعة، وهو فى ذلك يتبع ما سارت عليه الأمور فى إدارة دفة الحكم من الحوش السلطانى بدءا من العصر

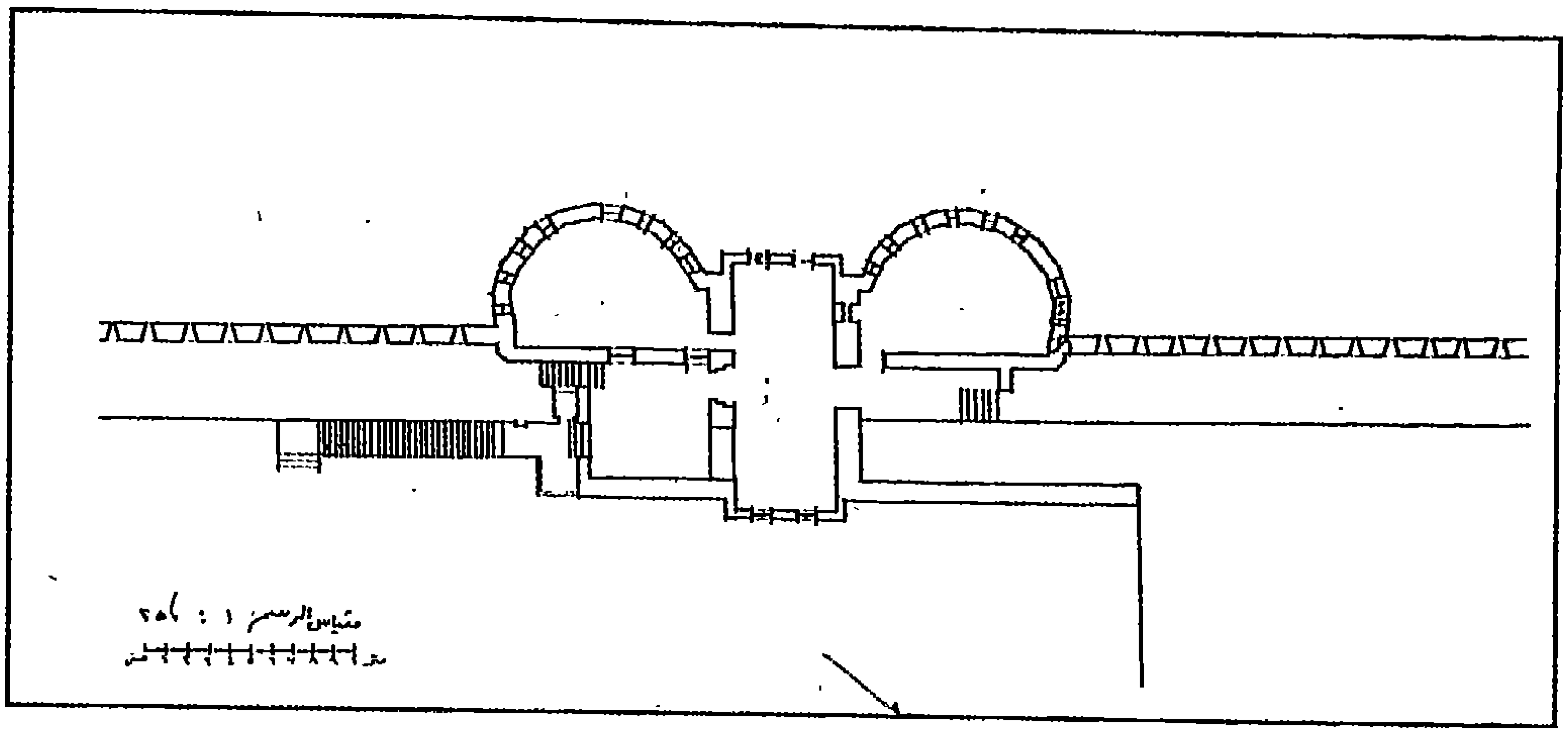

باب القلة – مسقط أفقي لحجرة الرماية والسلم الصاعد

المملوكي الجركسي مرورا بالعصر العثماني، وتعددت تجديدات محمد على بهذه المنطقة من القلعة، وهذا يعكس مدى أهميتها.

بدأت أعمال محمد على فى هذا النطاق فى العام ١٢٢٧هـ / ١٨١٢ م. وذكر الجبرتى هذه الحادثة قائلا "هدم سراية القلعة وما اشتملت عليه من الأماكن، فهدم قاعة البحرة والمجالس التى كانت بها الدواوين وديوان قايتباي، وهو المقعد المواجه للداخل إلى الحوش على الكيلار الذى به الأعمدة وديوان الغورى الكبير وما اشتمل عليه من المجالس التى كانت تجلس بها الأفندية والقلفاوات أيام الدواوين، وشرع فى بنائها على وضع آخر واصطلاح رومى وأقاموا أكثر الأبنية من الأخشاب ويبنون الأعالي قبل السفل، وأشيع أنهم وجدوا مخبآت بها ذخائر لملوك مصر الأقدمين"[٣٨].

وتسلسل هذه المنشآت المجددة بدءا من الدخول من باب الجبل هي:

دار الضرب

جددها محمد على سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م[٣٩]. وأثبت هذا التجديد على لوح رخامى ما زال موجودا على بابها الأوسط نصه "جدد هذا المكان المبارك الوزير الأعظم محمد على باشا حالا". وتم عمل إضافات جديدة لهذه الدار تم الفراغ منها سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م. وتشمل هذه الإضافات "محلات للموازين ومعرفة الذهب والشيشنى ومكتبًا ومسجدًا صغيرًا" وبلغت تكلفة هذه الإضافات ١٢ ألف قرش[٤٠]. وبناء دار الضرب شبه مستطيل، إذ إن أضلاعه غير مستقيمة، يتوسطه فناء به استطالة، تحيط به حجرات متنوعة المساحة والتسقيف، وبعض الحجرات تعلوها قبتان ضحلتان أو ست قباب ضحلة ترتكز فى وسط الحجرة على أكتاف، وبعض الحجرات مربعة الشكل يغطيها أربع قباب ترتكز فى منتصف الحجرة على كتف مبنى بالحجر. وبنيت القباب بالطوب وفتح بها مناور سماوية للتهوية والإضاءة،

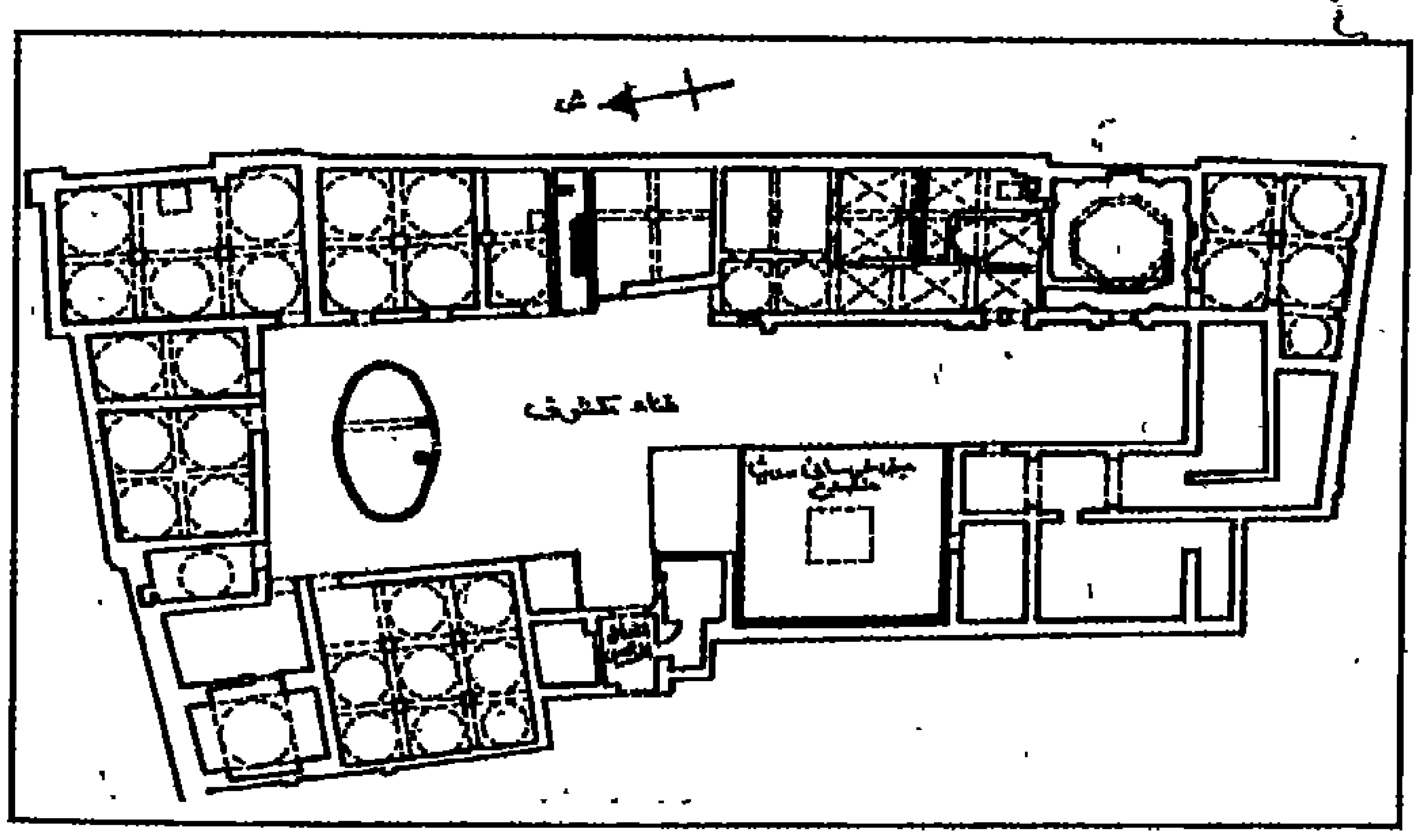

دار الضرب – مسقط أفقي

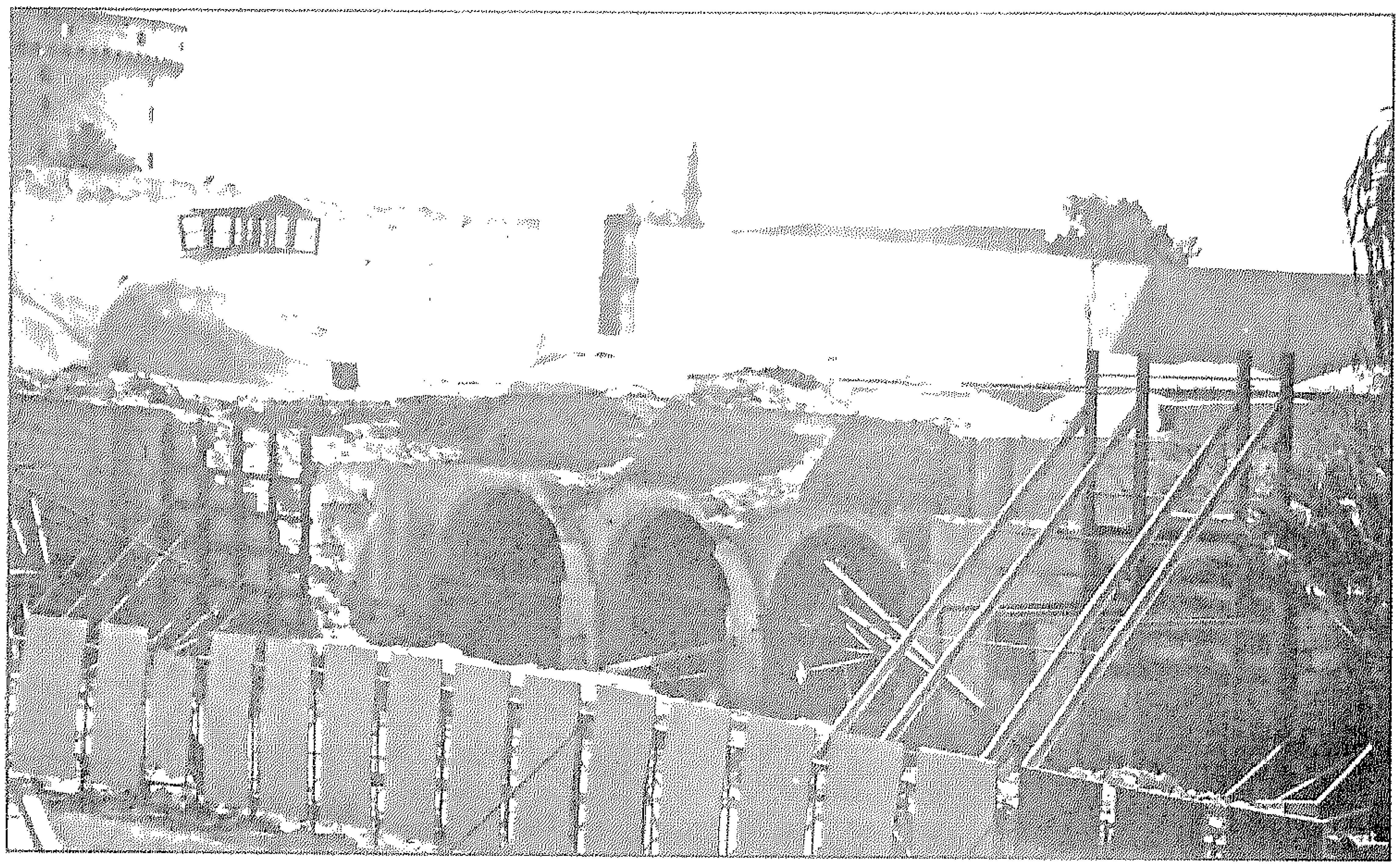

دار الضرب

وهذا الطراز لم يكن له شيوع بمصر، ويتوسط الصحن غرفة بيضاوية الشكل مبنية بالحجر.

سراى العدل

ما زالت هذه السراى باقية إلى اليوم بجوار دار الضرب، وفى جنوب حوش الديوان، وشهدت هذه السراى اجتماعات الدواوين التى كانت تدير حكم مصر، إلى أن نقلت منها فى عام ١٢٣٥هـ/١٨١٩م إثر حريق وقع فى القلعة[١]. ومن الأحداث المهمة التى شهدتها هذه السراى، تولية إبراهيم باشا حكم مصر خلفا لمحمد على[٢]، الذى كان يعانى مرض الموت. كان محمد على قد أعلى أرضية الديوان، وهو ما أدى إلى اختفاء أجزاء من منشآت سابقيه، ومنها ديوان الغورى الشهير الذى شيدت فوقه سراى العدل، والتى يبدو أنه قد انتهى منها عام ١٢٢٩هـ/١٨١٣م، طبقا لنص مسجل عليها يقول "من آمن بالقدر آمن الكدر سنة ١٢٢٩هـ".

تطل السراى على الحوش بواجهتها الشمالية وهى واجهتها الرئيسية، تتكون هذه الواجهة من مستويين، المستوى الأول هو واجهة الطابق الأرضى منها، وهو عبارة عن سلم مزدوج أسفله ثلاثة عقود نصف دائرية ترتكز على دعامتين حجريتين مربعتين، أكبر هذه العقود أوسطها. تؤدى العقود الثلاثة إلى دخلة تفضى إلى باب يؤدى إلى الطابق الأرضى من السراى. أما المستوى العلوى من الواجهة فهو يمثل الطابق الأول، ويتم الوصول إليه بسلم مزدوج يتكون من ٣١ درجة فى كل جانب وبسطة كبيرة ترتفع عن أرضية الحوش بحوالى ٦ أمتار، ويعلو البسطة جوسق له ثلاثة عقود نصف دائرية، الأمامى منها يطل على الحوش ويعلوه كورنيش معقود، والجانبيان يطلان على السلم المزدوج. وعلى يمين ويسار الواجهة ثلاث نوافذ فى كل جانب معقودة ومغشاة بالحديد وعلى جانبى كل نافذة دعامة بارزة من فى الحجر، يعلوها كورنيش حجرى بارز من عقود متتالية. ويعلو هذه الواجهة كورنيش من الحجر بارز منحنٍ من جانبيه، ويعلوه بناء من الطوب المغشى بالملاط. والطابق الأرضى للسراى عبارة عن صالة مستطيلة قسمت إلى سبع مساحات غير متساوية.

إبراهيم باشا ابن محمد علي

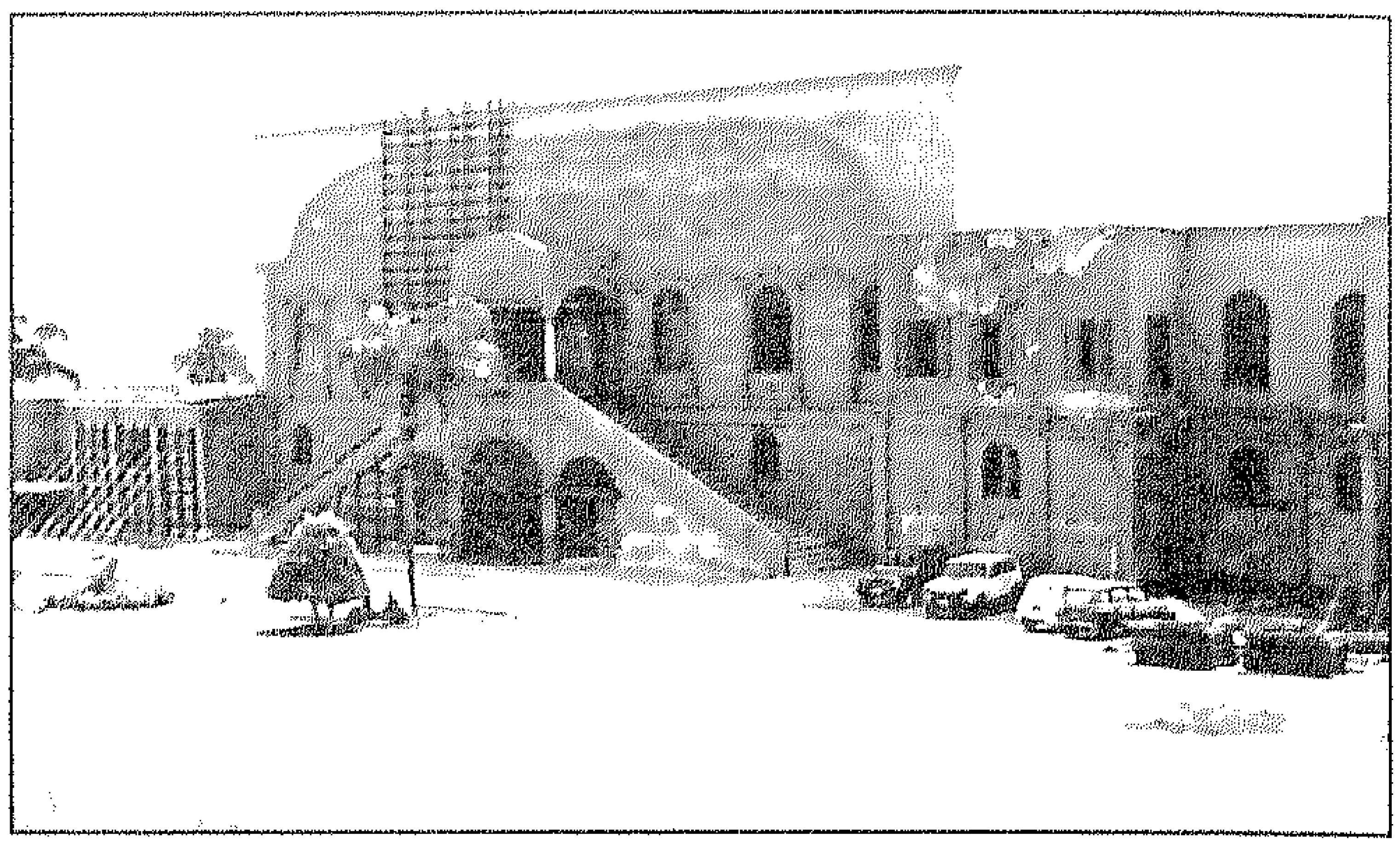

سراى العدل

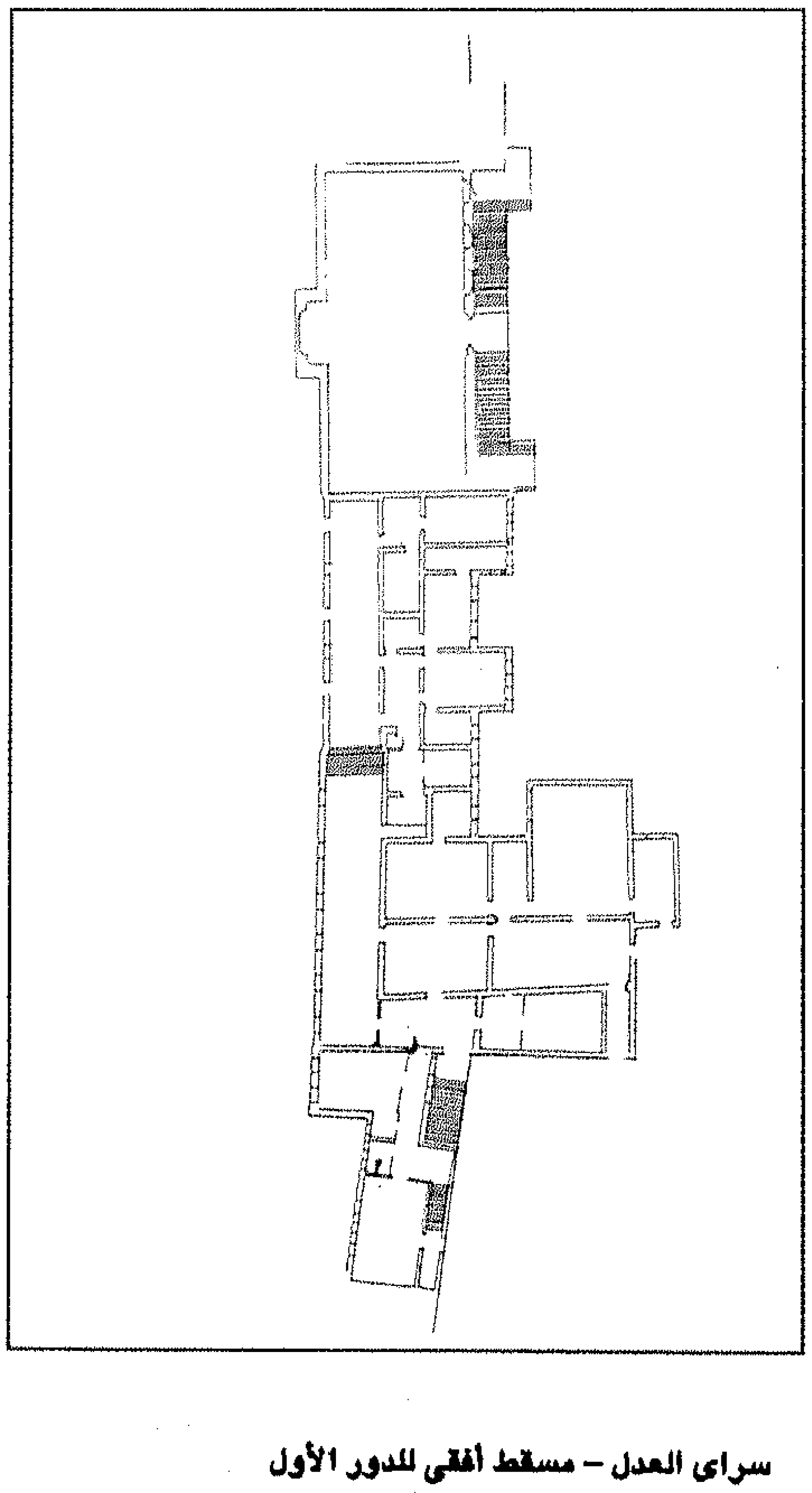

سراى العدل – مسقط أفقى للدور الأول

أما الطابق الأول فيدخل إليه من فتحة باب كبيرة، تؤدى إلى صالة مستطيلة بصدرها حنية عميقة لها جلسة ترتفع عن أرضية الصالة وهى ذات سقف مقبى.

سراى الجوهرة

أنشأها محمد على سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م[٣]. وذكرها الجبرتى تحت اسم "ديوان السراية" و "سراية الديوان" وكانت هذه السراى مخصصة للاستقبالات الرسمية. وتبين النصوص الكتابية بها أن مبانيها انتهت سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م، ووقع حريق بها فى سنة ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م[٤]. وذكر الجبرتى سبب هذا الحريق ويعزوه إلى المواد المستخدمة فى البناء حيث يقول "إن أبنية القلعة كانت من بناء الملوك المصرية بالأحجار والصخور والعقود وليس بها إلا القليل من الأخشاب، فهدموا ذلك جميعه وبنوا مكانه الأبنية الرقيقة وأكثرها من الحجنة والأخشاب على طريق بناء إسلامبول والإفرنج، وزخرفوها وطلوها بالبياض الرقيق والأدهان والنقوش، وكله سريع الاشتعال، حتى إن الباشا لما بلغه هذا الحريق وكان مقيما بشبرا تذكر بناء القلعة القديم، وما كان فيه من المتانة ويلوم على تغيير الوضع السابق ويقول: أنا كنت غائبا بالحجاز والمهندسون وضعوا هذا البناء، وبعد هذا الحريق انتقلت إلى بيت طاهر باشا بالأزبكية"[٥].

والمدخل الرئيسى لهذه السراية عبارة عن مظلة محمولة على أعمدة رخامية، ومكتوب أعلى الباب "يا مفتح الأبواب افتح لنا خير الباب" (سنة ١٢٢٨). وهذا الباب يؤدى إلى طرقة كبيرة بها عقود حجرية تنتهى إلى سلم فباب كبير مكتوب علية "الله ولى التوفيق"[٦] وتتكون هذه السراية من قسمين رئيسيين حاليا هما:

سراى الاستقبال

يدخل إلى سراى الاستقبال من المدخل السابق ذكره، وتتكون من قسمين: الأول بهو الاستقبال الرئيسي، ويعلوه الطابق الثانى المتمثل فى سراى الضيافة، والثانى هو جناح الاستقبال البحرى بشقيه الشرقى

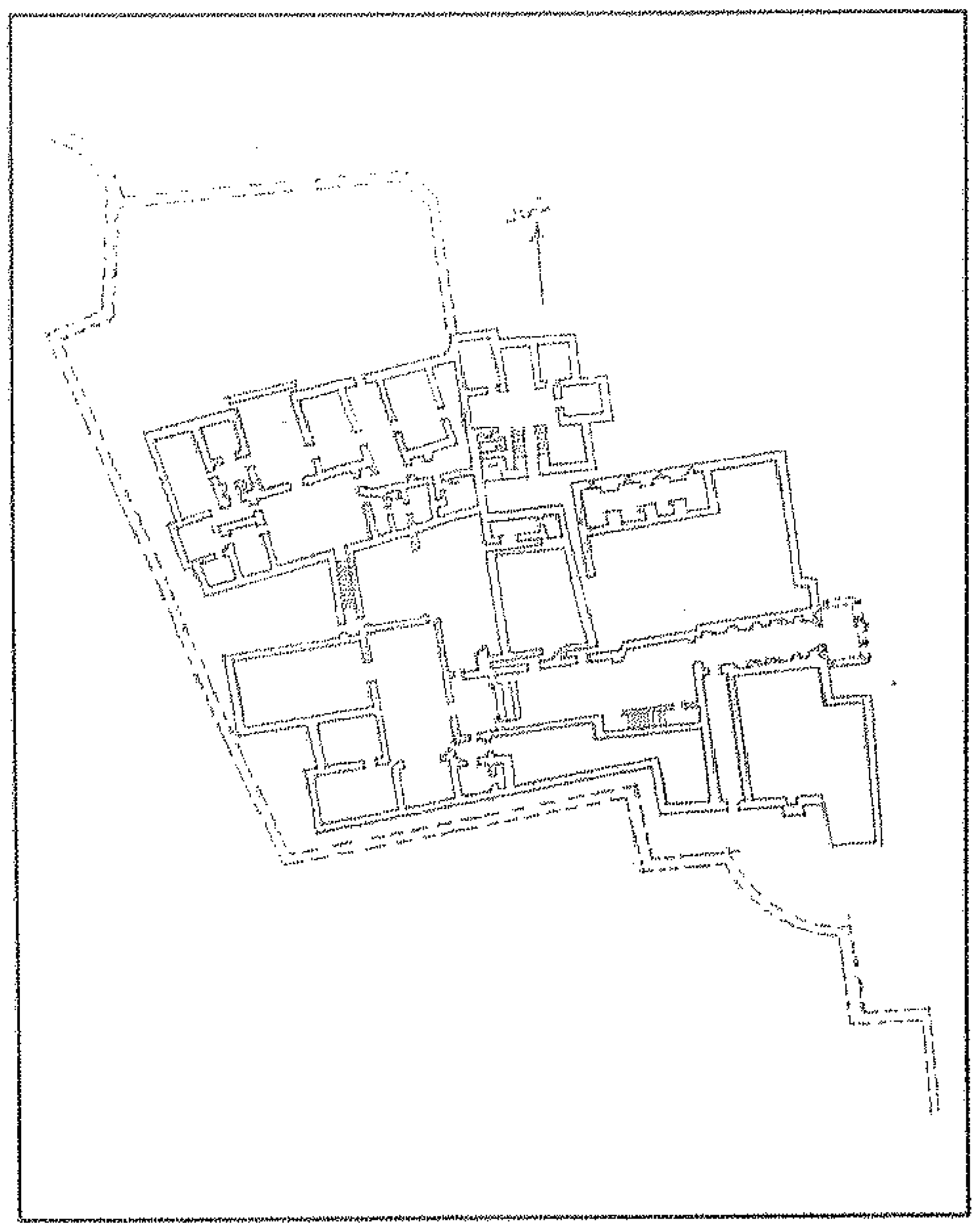

سراى الجوهرة – مسقط أفقى

والغربي. استخدم المعمار فى القسم الأول وحدة تصميم تعتمد على صالة كبيرة (بهو) تتوزع منها وحدات صغيرة عبارة عن حجرات متداخلة (قاعة الكوشة وقاعة الكسوة) وأخرى أكبر حجما، وتمثل قاعة رئيسية فى هذا البهو (قاعة العرش السفلية)، بالإضافة إلى إيوان يفتح على هذه الصالة، فضلا عن أبواب تؤدى إلى ملحقات، تمتاز جدران هذا البهو بوجود حنايا (دخلات) كانت تستخدم فى وضع المصابيح والتحف. ووحدة التصميم هذه كانت شائعة فى المنازل العثمانية بتركيا فى القرنين ١٧، ١٨م. فى فترة عرفت باسم فترة الباروك التركي. ويرى البعض أن هذا التصميم استمد مباشرة من تصميم بيوت إستانبول، والذى استمر حتى عصر متأخر، وهو يعتمد على صالة مستعرضة يفتح عليها إيوان وتجاوره حجرتان، بالإضافة إلى ملاحق تخدم هذه الوحدة السكنية[٤٧]. وتفصل بين كشك الجوهرة وجامع محمد على حديقة يتوسطها فسقية[٤٨].

سراى الإقامة (قصر الضيافة)

هذه السراى تتكون من وحدة رئيسية تتمثل فيما يعرف بقاعة العرش العلوية، حيث تتكون هذه

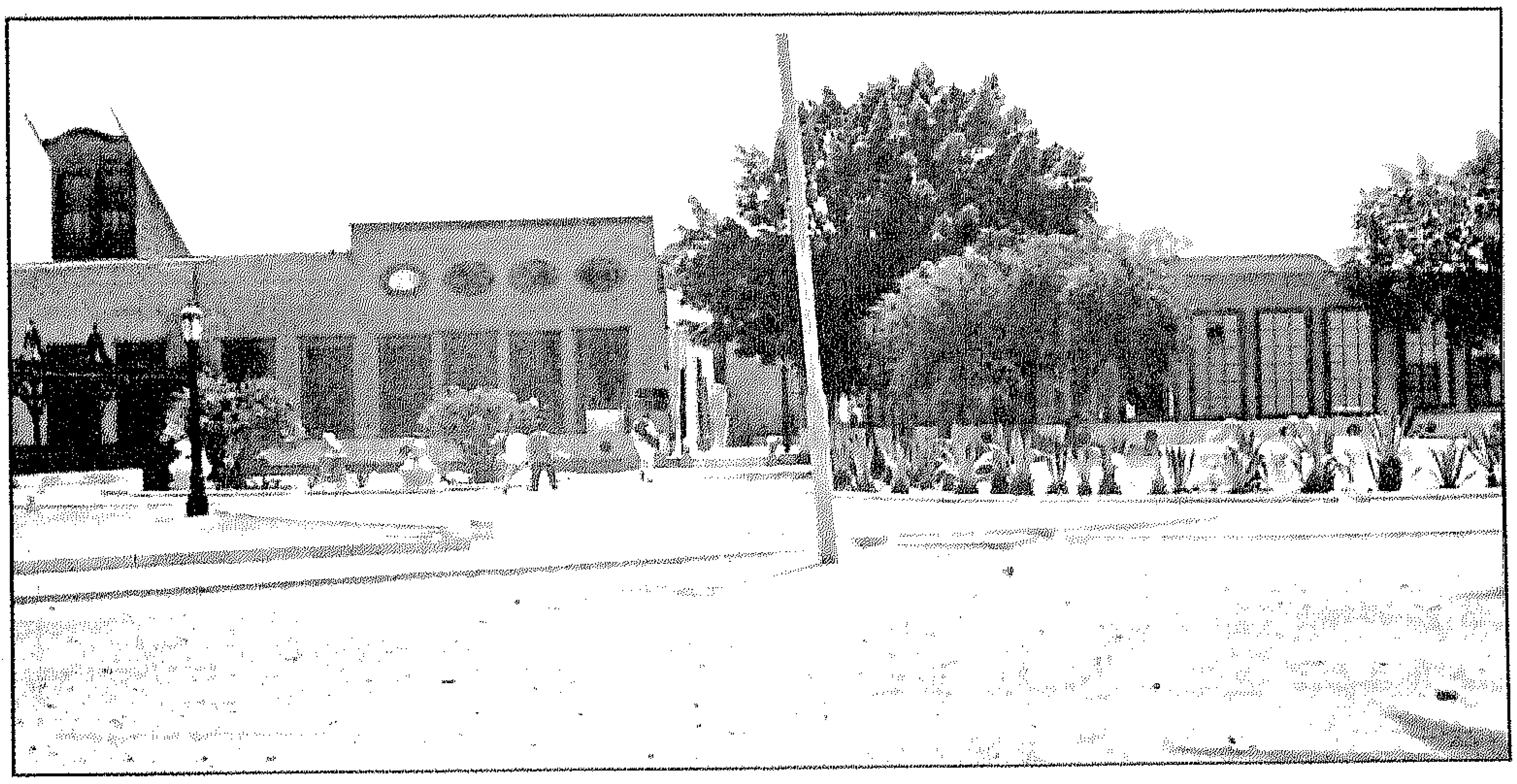

المدخل المؤدى إلى سراى الاستقبال – سراى الجوهرة

القاعة من صالة يفتح عليها إيوانان فى الجهة الشمالية والجهة الجنوبية، بالإضافة إلى هذه الوحدة الرئيسية هناك وحدات أخرى بعضها مستقل عنها مثل (غرفة النوم) وبعضها يتفرع من الإيوان الجنوبى للوحدة الرئيسية: مثل قاعة الاستقبال العلوية وجناح الهدايا[٤٩]. وعرفت سراى الاستقبال بالكشك أو كشك الجوهرة. وتبقى من ملحقات الكشك حمام مفروش بالرخام وبه حوض من قطعة واحدة مجلوب من محاجر بنى سويف[٥٠].

تعتبر عمارة سراى الجوهرة مشتقة من الأسلوب العثمانى لتقسيم المساكن وخاصة الراقية منها، إلى سلاملك وحرملك، مع محاولة تطويع ذلك المخطط لنظام القصور الأوروبية فى القرن ١٨م. والذى نتج عنه عناصر معمارية مثل باحة الشرف[٥١]. وبهو للاستقبالات وأجنحة خاصة بالباشا وحريمه. وفيما عدا ذلك فإن القصر قليل الأهمية على الصعيد المعماري، لكن زخرفة أسطحه المنقولة عن النماذج الأوروبية تدل دلالة مباشرة على دور تلك الطرز فى صياغة أذواق الطبقة الحاكمة فى مصر آنذاك.

استقبل محمد على فى هذه السراى كبار زائريه من الأجانب، منهم الأديب الفرنسى شاتوبريان والكونت دي فوربان الذى وصف فى كتابه مدينة القاهرة حفلة استقبال فى السراى (١٨١٧ - ١٨١٨م)[٥٢]. كانت هذه السراى هى المكان المفضل لسعيد باشا لإدارة حكم مصر لذا أعيد فرشها على يد الأسطى يعقوب وابنه كلش[٥٣]. كما زودت سراى الاستقبال بمرايات كبيرة[٥٤]. ولما زار السلطان العثمانى عبد العزيز مصر عام ١٨٦٢م أقام بهذه السراي، واستقبل فيها المرحبين به من كبار رجال الدولة والعلماء[٥٥].

سراى الحرم

كانت أصلا بيتا لإسماعيل أفندى أمين عيار الضربخانة، ثم أخذها محمد على لحريمه عند انتقاله للسكن فى القلعة لأنها كانت دارا عظيمة، ويبدو أن هذا القرار جاء نتيجة لتهدم قاعات الحريم بالقلعة والتى كانت تقع بجوار سراى الباشا أو ما يعرف حاليا بسراى الجوهرة، واستخدم محمد على هذه الدار فى يوم مذبحة المماليك، وذلك بعد بدء موكب ابنه طوسون، إذ انتقل إليها حيث كان حريمه يقيمون[٥٦]، وأسقط محمد على ثمنها من الغرامة التى قررها على إسماعيل أفندي، الذى سكن فى دار أخرى بحارة الروم[٥٧]. وجعل إلى الغرب منها ديوان المالية وديوان

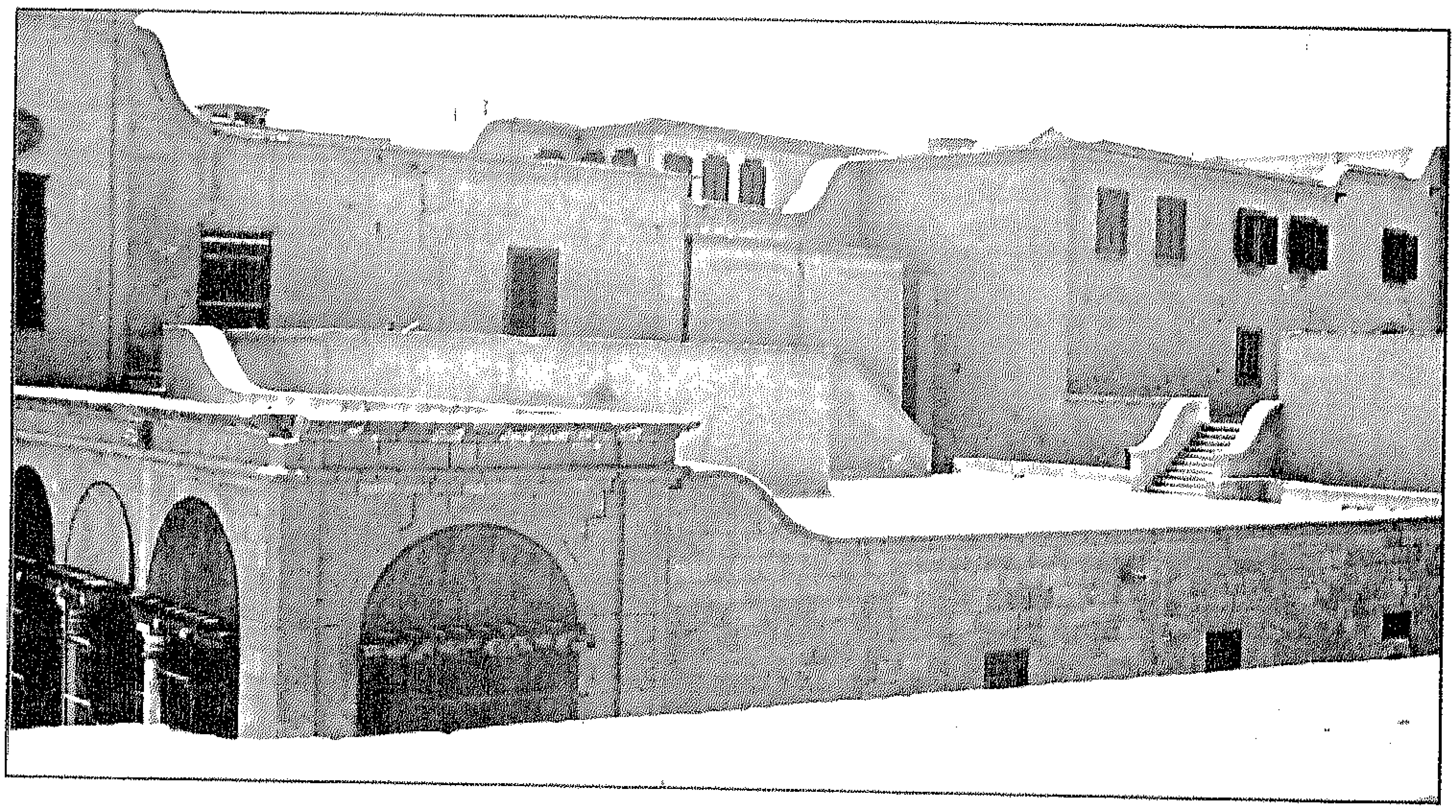

سراى الإقامة

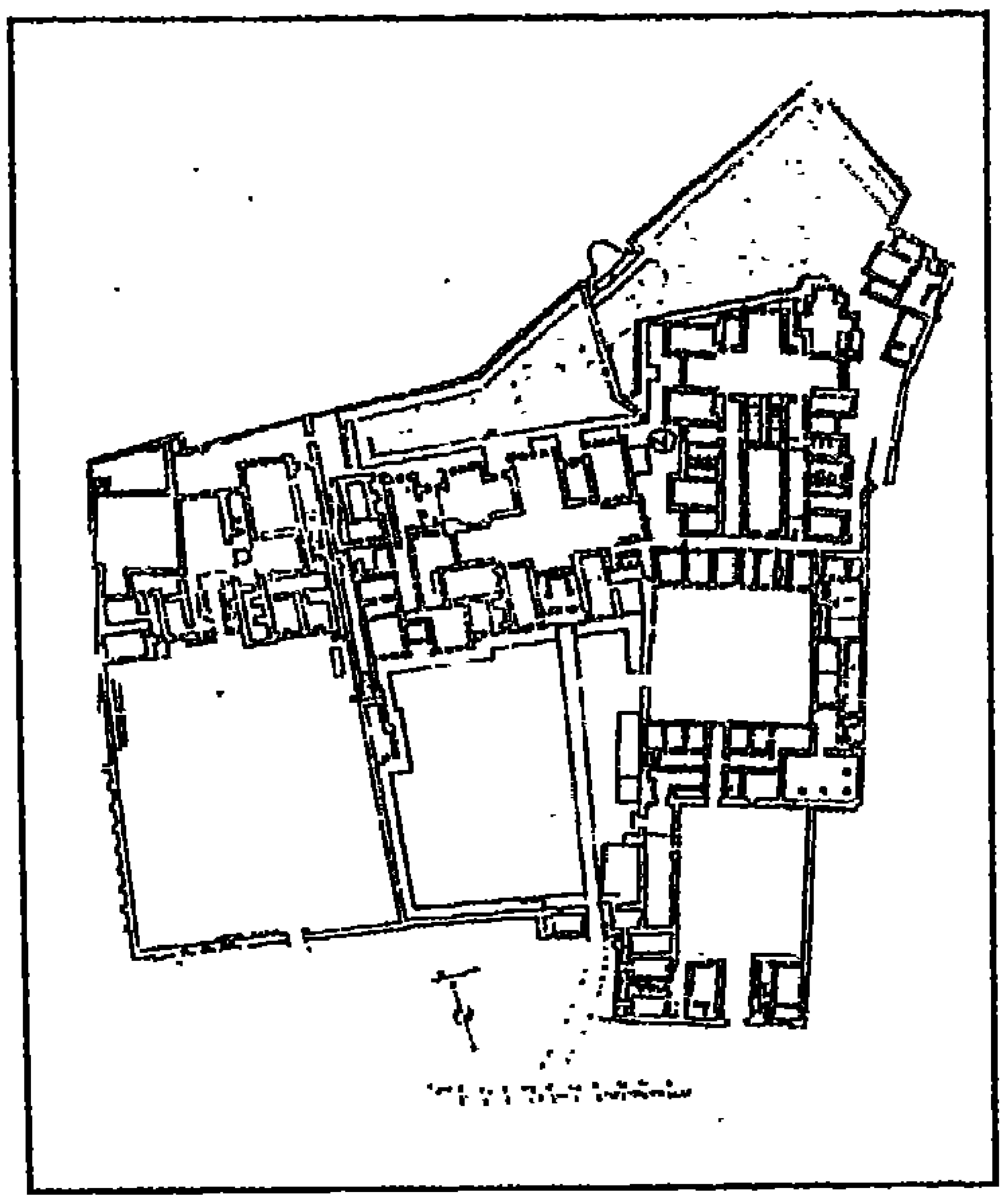

قصور الحريم – مسقط أفقي للدور الأرضي

الجهادية وديوان المدارس^(٨).

تتكون سراى الحريم من ثلاثة قصور بشكل منفصل عن بعضها البعض، وإن كانت صممت لتكون متصلة على مستوى الطابق الأرضي، وكانت مخططاتها متشابهة، والقصر الوسطانى هو الأقدم بناءً، وتلاه القصر الشرقي، ثم القصر الغربي. ومن الخطأ تسمية هذه القصور باسم الحرم أو الحريم، وهو الاسم الشائع لها الآن – لأنها لم تعمر أساسا لإسكان الحريم فقط. وكانت هذه القصور محاطة فى الماضى بجدار، مما فصلها عن بقية النطاق الشمالي للقلعة ولكنه أزيل لاحقا.

القصر الشرقى

هو أكبر هذه القصور، وقد أقيم أصلا لسكن أيتام عائلة محمد على وأيتام العوائل المملوكية الذين كانوا يهيأون لكى يصبحوا ضباطا فى الجيش المصرى الجديد، ويمكن تحديد تاريخ بنائه فى عام ١٨٢٦م. من اللوحة التأسيسية المكتوبة باللغة التركية والمثبتة فوق المدخل ونصها:

إن محمد على باشا حاكم مصر الذائع الصيت

الذى يجد العالم فى باب لطفه وكرمه الزخرف التام.

هو خديو أعظم يطاول السماء فى علاها ويحاكيها فى ظله

وصاحب السيف والقلم وهو آصف غلامه بمنزل بهرام.

سيفه يشتت شمل زمرة الطغاة

وقلمه كسحاب الربيع وورد حديقته الكرام.

قد أنشأ ذلك الحاكم العالى الشأن قصرا جديدا كتحفة يجد ربه إذا كان بهرام بوابه.

هو قصر كالجنة يا له من قصر بديع مزخرف

لم ينطبع مثله فى أديم السماء الصافى كالمرآة .

(إذا شاهدته) شعرت فى داخله بانشراح

يفوح من صوره ونقوشه أريج الجنان.

وقد فتن رسمه بهزاد

بخ بخ هكذا يجب أن يكون الرسام فى العالم.

لقد كتب التاريخ (عزيز) بيت مجوهر

جعل العلام منشئه سعيدا.

إن هذا الباب الجميل لمحمد على باشا العادل

ظل مفتوحا بالسعادة إلى يوم القيامة ^(٩)١٢٤٤.

يؤدى مدخل هذا القصر إلى دركاة تقود إلى فناء بجداره البحرى باب يؤدى إلى قاعة كبيرة، فى حين يوجد باب آخر بدركاة تشبه السابقة يوصل إلى فناء آخر تطل عليه واجهة القصر على امتداد القصرين الآخرين. وتحيط بهذا الفناء أبنية مكونة من دورين. وواجهة هذا القصر يتوسطها باب صغير يؤدى إلى سلم مزدوج يوصل من الطابق الأرضى للعلوى وأهم ما يسترعى النظر فى الدور الأرضى قاعة الفسقية، وبها أربعة إيوانات يتصدرها سلسبيل رخامى تكتنفه عمد رشيقة من الرخام نقشت به زخارف على هيئة طيور من أفواهها مياه تصب فى أحواض متدرجة تنساب فى قناة الفسقية التى تقع وسط القاعة. ويوصل السلم المزدوج إلى قاعة علوية كبيرة بها إيوانات تتفرع منها حجرات وطرقات توصل إلى باقى القصر. وتلى هذه القاعة قاعة أخرى مستطيلة على جانبها حجرات جدرانها وأسقفها مزخرفة بنقوش ما زالت باقية حتى الآن.

القصر الشرقى – المدخل يعلوه اللوحة التأسيسية

القصر الوسطانى

يوجد بالحائط القبلى لهذا القصر باب يؤدى إلى حديقة هذا القصر حيث توجد فسقية يعلوها جوسق، ويتوسط واجهة هذا القصر باب له مصراعان حليت حشواتهما بزخارف نباتية. والدور الأرضى عبارة عن قاعة كبيرة بكل ركن من أركانها حجرتان، احتفظت جميعها بنقوش أسقفها التى تتنوع بين مسدسات ومربعات وجدائل انتشرت بها الزهور. ويوجد بهذا الدور الأرضى حمام يتكون من طرقة مستطيلة مغطاة بسقف محلى بزجاج ملون، يليها باب يؤدى إلى قاعة مقسمة إلى إيوانين بينهما درقاعة، وواجهة كل من الإيوانين محمولة على عمد رخامية رشيقة قواعدها مربعة ومطعمة برخام أحمر. والقسم الداخلى من هذا الحمام هو بيت الحرارة، وهو مقسم إلى أقسام أكبرها هو أوسطها. والحمام مسقوف بسقف مغشى بالجص بداخله تقاسيم زخرفية على هيئة زهرة ذات أربع أوراق.

القصر الغربى

يمتد الحائط الخارجى لهذا القصر مع القصر الوسطانى، ويماثل تصميم هذا القصر القصرين السابقين، ولكن طرأت تغييرات كثيرة وجسيمة منذ مدة على هذا القصر أفقدته جميع زخارفه، واستبدلت أسقفه بأسقف حديدية[٦٠].

ومن الملاحظ أن فى كل من القصور الثلاثة، فى الطابق الأول والثانى توجد قاعات مكونة من أربعة إيوانات حول فراغ مركزي، وكلها كانت تستعمل للاستقبال، وقد تكون مخططاتها نابعة من مخطط القاعات المملوكية، أو أنها مقتبسة من مخطط البهو التركى المتأثر بالعمارة الأوروبية. وهو الأرجح[٦١]. فالأسلوب الغالب فى القصور هو التشكيلات النباتية الملونة المرسومة على الأسقف أو على لوحات فى زوايا جدران الغرف والأبهاء. وهذه المواضيع الزخرفية إستانبولية الطراز، أما التنفيذ فهو يخضع لطراز الباروك. وهذه القصور مهيبة باتساعها وليس بعمارتها، ولافتة للنظر بالتكرار فى مواضيع وأشكال زخارف غرفها وليس بالجدة فى أسلوبها أو البذخ فى تنفيذها. وتعتبر هذه القصور أكبر منشآت محمد

على فى النطاق الشمالي، والذى تبقى به أيضا من عصره فى النطاق الشمالي:

القصر الأحمر

تقع هذه المنشأة على يمين الداخل من باب القلة، وهى فى الأصل من تشييد محمد على حيث استكمل مبانى قديمة كانت فى هذا الموقع، يرى الدكتور محمود الألفى أن هذه المنشأة استغلت كمقر للمهندسخانة التى أمر بأن يلحق بها التلاميذ لتعلم فنون الهندسة، وذكر الجبرتى هذه الواقعة فى تاريخه فى عام ١٢١٣هـ/ ١٨١٦م حيث يذكر "فأمر - أى محمد على - ببناء مكتب بحوش السراية ويرتب فيه جملة من أولاد البلد ومماليك الباشا وجعل معلمهم حسن أفندى المعروف بالدرويش الموصلى يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير والقياسات والارتفاعات واستخرج المجهولات مع مشاركة شخص رومى يقال له روح الدين أفندي، بل وأشخاص من الإفرنج. وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من أشغال الإنجليز ..."[٦٢]. ولم تستمر الدراسة بهذا المبنى فى رأيه لفترة طويلة إذ شيد محمد على مدرسة للمهندسخانة فى بولاق سنة ١٨٣٤م، حيث تتركز حركة الصناعة بالبلاد[٦٣]. غير أن نص الجبرتى صريح فهو حدد موقع المهندسخانة فى حوش السراية، ومن المرجح أن موقعها اليوم هو المبانى المحصورة بين سراى العدل وسراى الجوهرة. وترى أمل محفوظ أن هذا المبنى كان مدرسة حربية فى عصر محمد على، وهى التى نقلها إلى أسوان فيما بعد[٦٤]، غير أنه من المؤكد أن هذا المبنى يعود إلى عصر محمد على، والمحتمل أنه كان أحد المبانى الإدارية ولذا ربما استغل كأحد مقار الدواوين فى عهد محمد على كديوان الجهادية. واستغل هذا المبنى كمدرسة للحربية فى عهد سعيد باشا الذى أضاف إليه قسما جديدا، وهو الجناح الشمالى الغربي، وذلك فى عام ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م. وكان عدد طلبة هذه المدرسة ٢٥٠ يقيمون بها، وهو ما استدعى توسعتها، إلا أن سعيدا نقل المدرسة من القلعة فى سنة ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م[٦٥].

والمسقط الأفقى لهذا المبنى غير منتظم، هذا المبنى شيد على جزء من سور القلعة. وهو يتكون من طابقين أرضى وأول، وله مدخلان الأول يطل على الساحة التى بينه وبين قصر الحرم، والثانى يتوصل إليه من حوش يتقدم المبنى، يدخل إليه من باب فى الطريق المحصور بين المدرسة وقصر الحرم[٦٦].

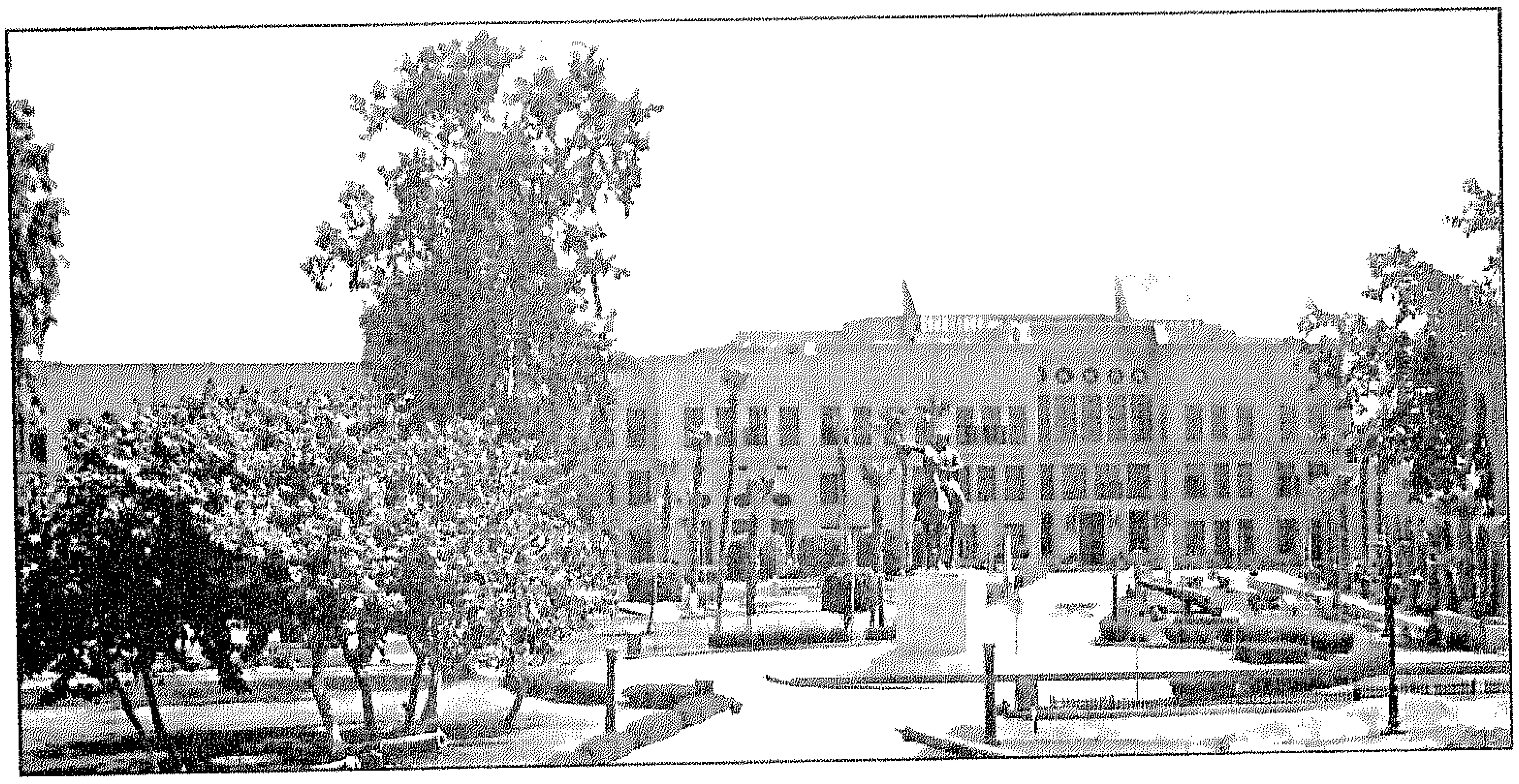

قصور الحريم

محمد سعيد باشا

مسجد محمد على

أجبرت الاضطرابات المستمرة منذ أن تولى محمد على حكم مصر على الاهتمام بالقلعة وتحصينها، وذلك بدءا من الخطر المملوكى الذى كان يتهدده، والذى انتهى بإبادة المماليك فى مذبحة القلعة الشهيرة، ثم الخطر العثمانى المتمثل فى محاولات عزله من قبل الدولة لإدراكها أنه خطر عليها. ثم انتهاؤها بالتحالف الإنجليزى المملوكى والذى انتهى بالفشل أيضا. إلى محاولات اغتياله والتى دبرت على يد الجنود الألبان. كل هذا كان كفيلا بأن يجعل محمد على يولى اهتمامه إلى زيادة تحصين القلعة وتهيئتها لتكون مقرا له فى حالات الاضطرابات، بخاصة أنه قد نجح فى إضعاف الزعامة الوطنية بعد نفيه عمر مكرم.

ولذا بعد انتهاء محمد على من ترميم أسوار وأبراج القلعة، وكذلك ردم الأجزاء المتخربة منها، خاصة بقايا دار العدل أو الإيوان الناصرى وقاعات الحريم، وإعادة تشييد مقر الباشاوات، وهو حوش الباشا، وإقامة قصر لحريمه. اتجه ليشيد عمارة ترمز لعظمة سلطانه فى مصر، معبرا عن استقرار الأوضاع له، هو مسجد محمد على. ذلك المسجد لم تكن له ضرورة ملحة بالقلعة لوجود مسجد جامع بها، هو جامع الناصر محمد بن قلاوون الذى يجاور الموقع الذى اختاره محمد على لمسجده، ولعل لهذا العمل منحى سياسيا بحتا يرتبط بتوجهات محمد على.

سجلت الوقائع المصرية فى حوادث سنة ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م، وقائع وضع حجر أساس المسجد، وجاء التقرير المنشور ليحمل العديد من المعانى السياسية، ومنها أن المسجد لم يشيد إلا بعد إصلاح أسوار القلعة وقصورها، وذكر التقرير أن محمد على (قدم بناء القلعة على بناء الجامع وأخره حتى حين اقتداء بمن قال الأمور مرهونة بأوقاتها) وحضر وضع حجر الأساس محمد على ونجله سعيد ووالى جدة إبراهيم باشا، وملا أفندى قاضى مصر، وأعيان مصر وعلماؤها. وقرأ الجميع الفاتحة، وذبحت القرابين ونثرت الدنانير والدراهم، وذكر التقرير أن المهندسين وعمال البناء عملوا تحت إشراف أمين أفندى ناظر الأبنية. وأن المسجد سيشيد ليكون من الآثار المعمارية[١٧].

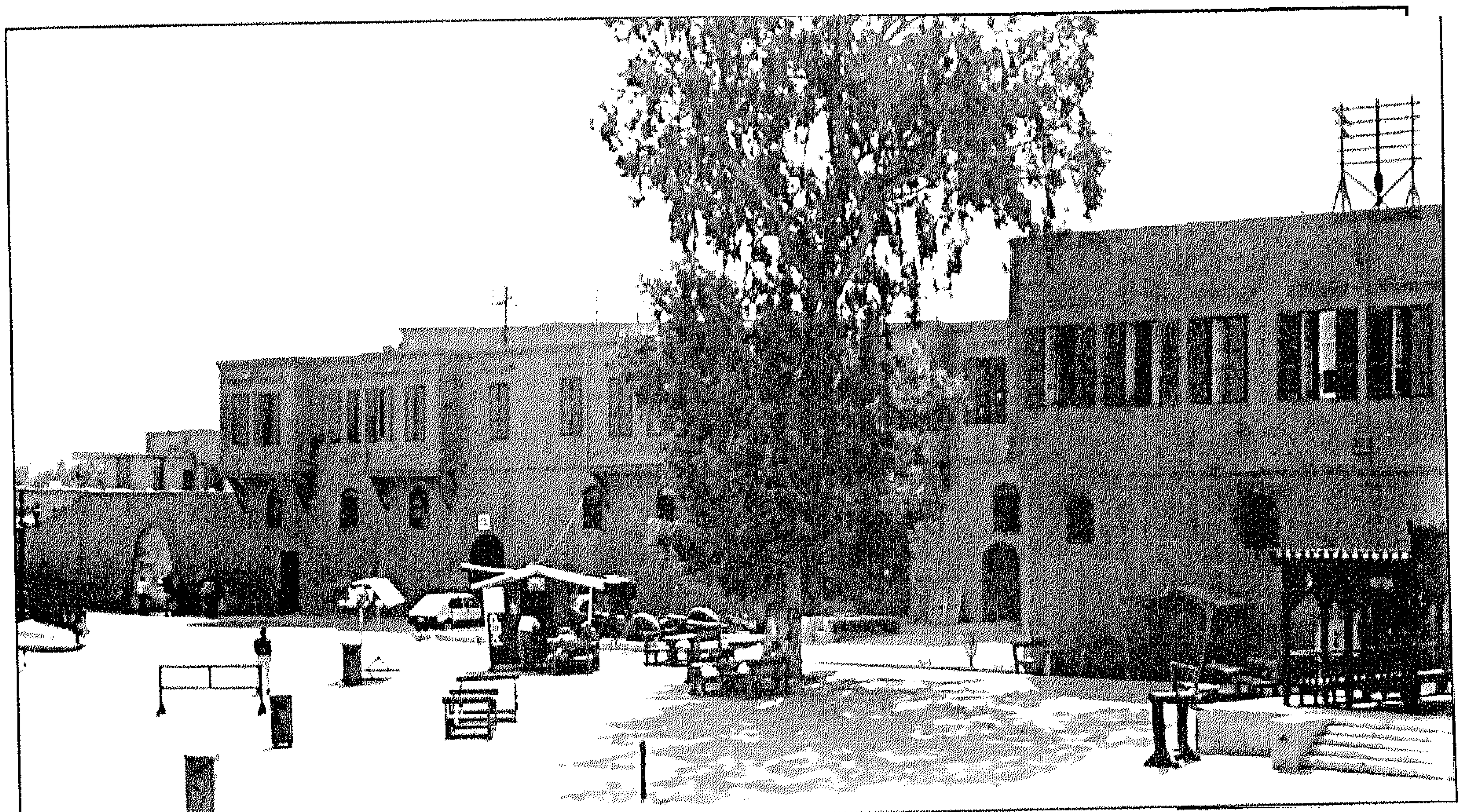

القصر الأحمر

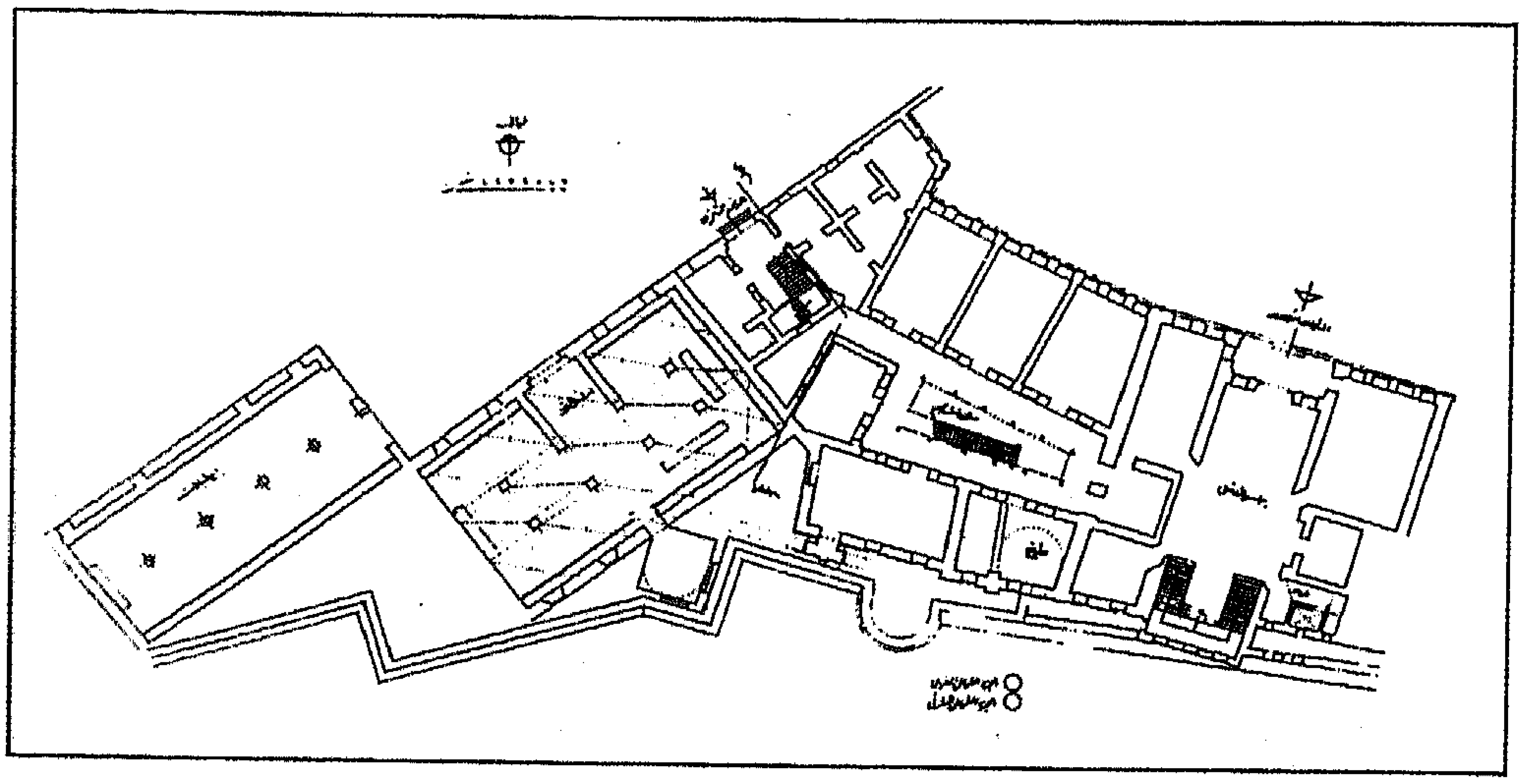

القصر الأحمر - مسقط أفقى للدور الأرضي

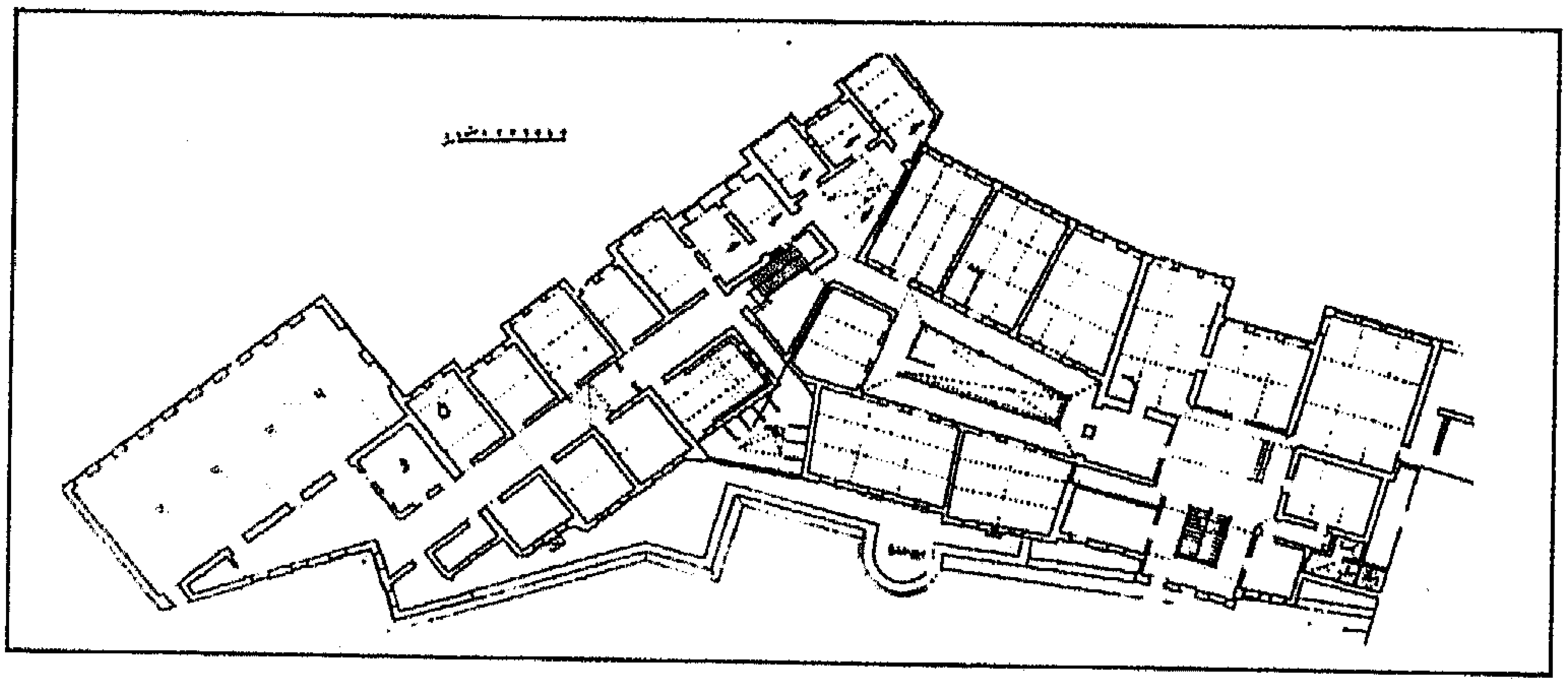

القصر الأحمر - مسقط أفقى للدور الأول

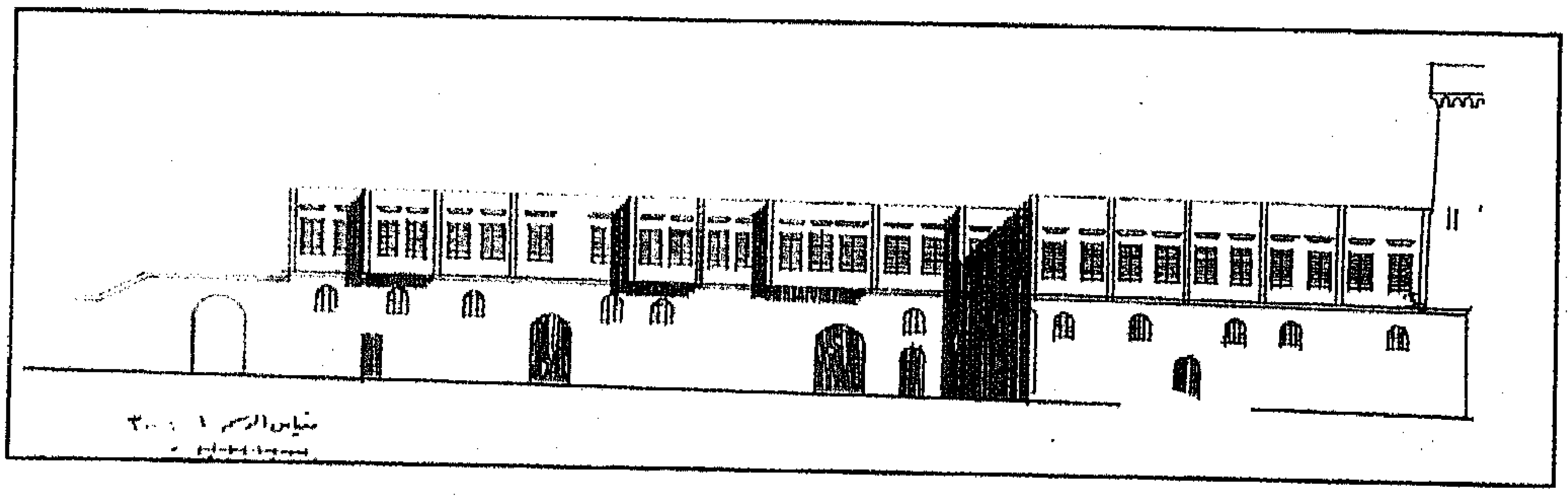

القصر الأحمر - الواجهة الرئيسية

يتربع جامع محمد على على قمة القلعة فى الزاوية الشمالية الغربية من السور فى موقع لابد وأنه اختير بعناية بحيث يشرف على المدينة كلها. وهو الآن المعلم الأكثر شهرة من معالم القلعة، حتى أنه أعطى اسمه لها فى اللغة الدارجة المصرية اليوم، بحيث إن عامة الناس تنسب القلعة إلى محمد على، مع أنه آخر من بنى فيها. فهل كان ذلك مقصودا من محمد على ومهندس جامعه؟.

أكثر ما يلفت النظر فى جامع محمد على هو اختلافه الجذرى شكليا ومعماريا عن غالبية جوامع القاهرة الكبيرة، فهو ينتمى للطراز المعمارى العثمانى الكلاسيكى بقبته وبمئذنتيه المدببتين الشاهقتى الارتفاع اللتين تؤطران القبة، على حين أن صورة جوامع القاهرة عموما بما فيها جامع القلعة الرسمي، فيما عدا بعض الجوامع، تنتمى للنموذج المملوكى الذى يمتاز بقبابه الصغيرة نسبيا والمنحوتة بالنقوش الهندسية والنباتية الرائعة، وبتشكيلاته الفراغية المعقدة، وبمآذنته ذات الجواسق.

ومما يزيد فى غرابة جامع محمد على بالنسبة لمحيطه وزمنه هو أنه لا يشبه الجوامع العثمانية المعاصرة له، أى تلك التى بنيت فى عاصمة الخلافة إستانبول فى بدايات القرن التاسع عشر، وإنما يعود بأسلوبه إلى الجوامع التقليدية الإستانبولية. وهى جوامع القرنين السادس عشر والسابع عشر، وبشكل خاص جامعا بيتى فاليده (جامع الوالدة صفية والدة السلطان محمد الثالث، بنى ١٥٩٥ / ١٦٠٣م)، وجامع السلطان أحمد الأول الشهير بالجامع الأزرق، وإن كان معظم المتخصصين فى العمارة العثمانية يعيبون عليه أنه لا يتسم بالدقة والرشاقة التى تتسم بها الجوامع الكلاسيكية العثمانية.

بالإضافة إلى ذلك يتباين وضوح وصراحة إنشاء وعمارة جامع محمد على مع زخرفته بغزارتها وانتقائية طرزها، فقبته التى ترتفع إلى علو ٥٢ مترا، مكسوة من الخارج بصفائح الرصاص، فى حين غطيت سطوحها الداخلية بالنقوش النافرة الملونة والمذهبة والتى نفذت بأسلوب باروكى محدث ويحيط بالصحن الملاصق للمصلى من جهة القبلة، ثلاثة أروقة، وقد كسيت أعمدة وعقود وجدران الأروقة بالمرمر المصرى الشاحب، وكذلك كسيت القبة وفسقية الوضوء التركية الباروكية

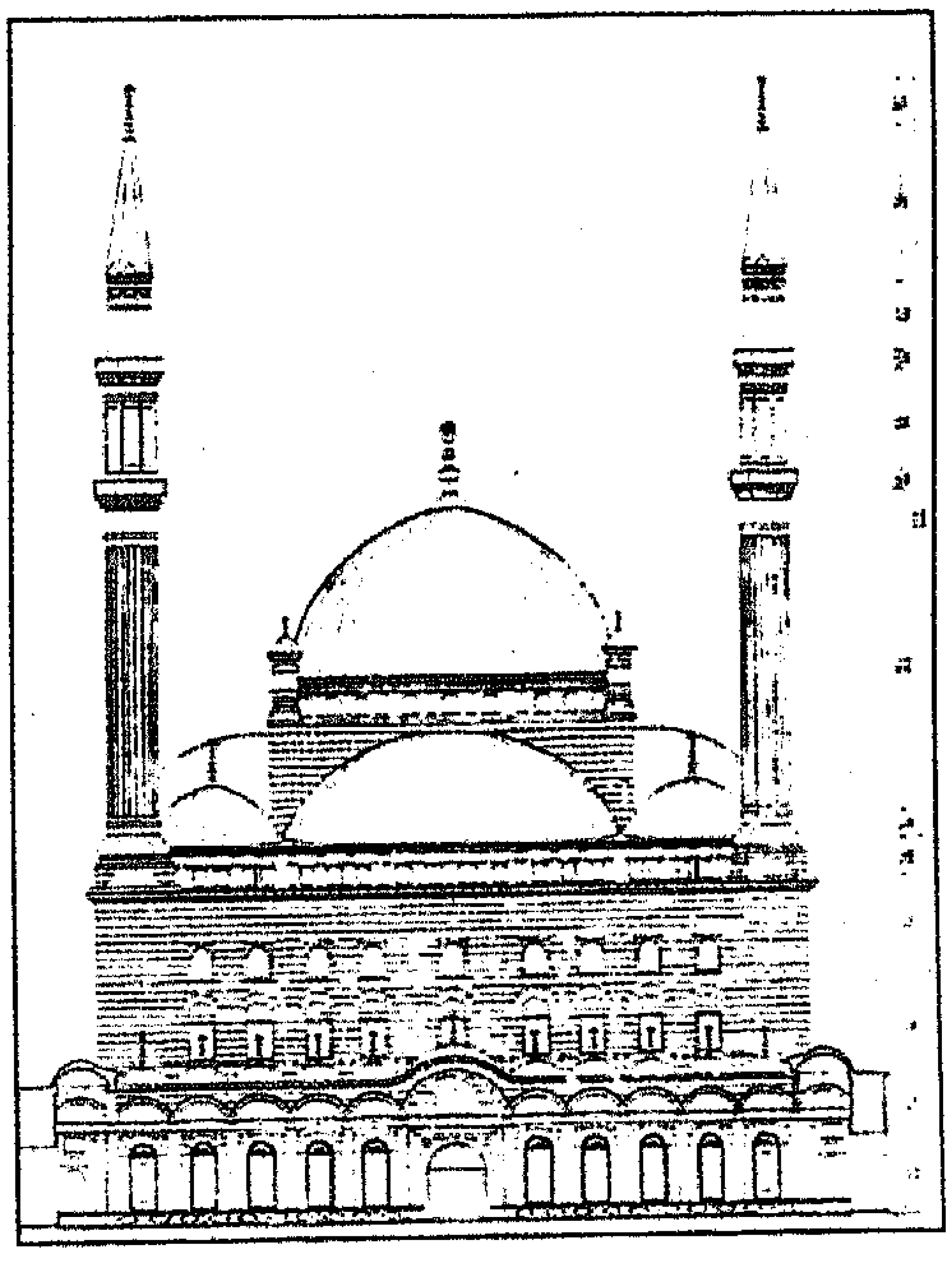

مسجد محمد على – الواجهة

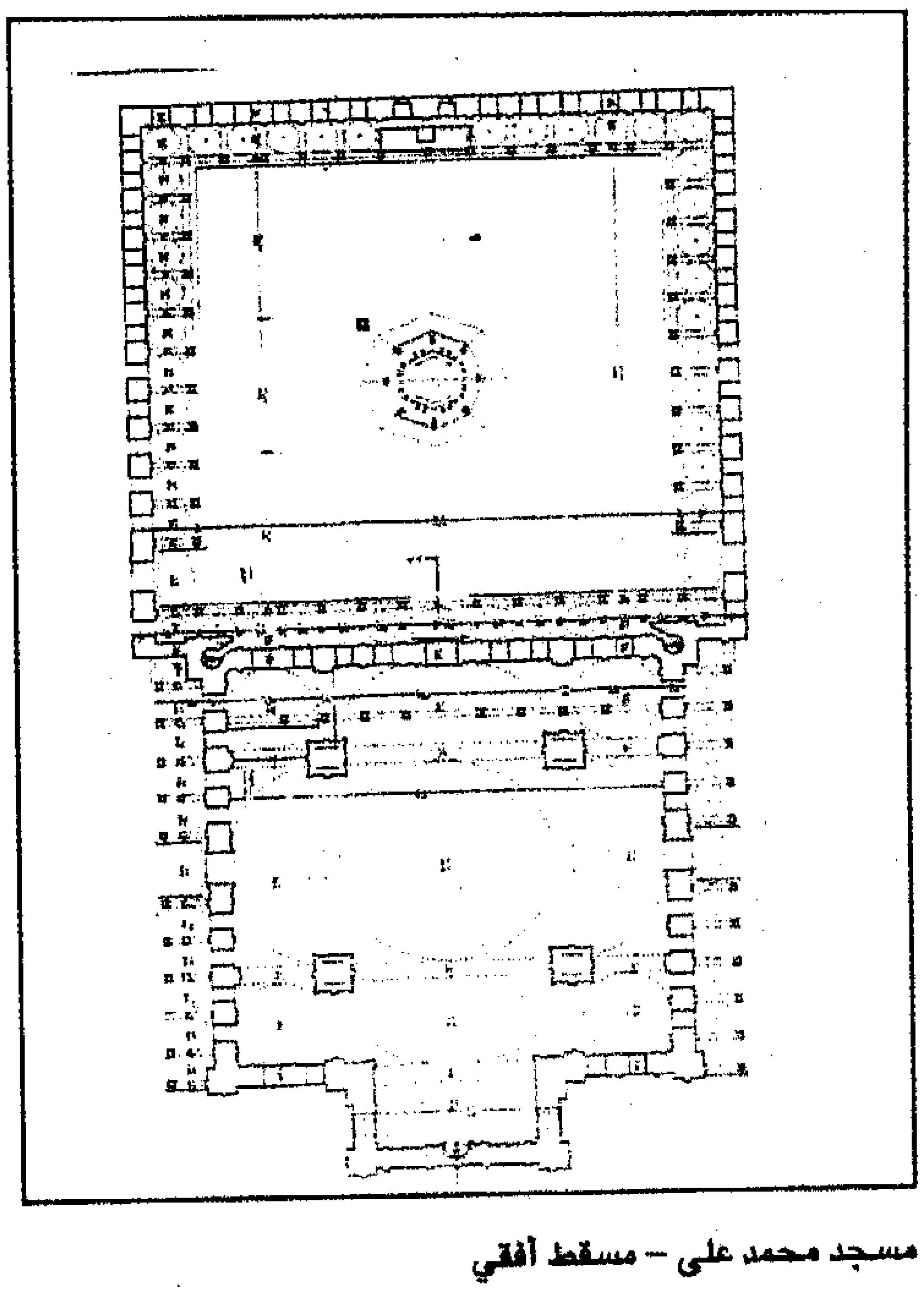

مسجد محمد على – مسقط أفقي

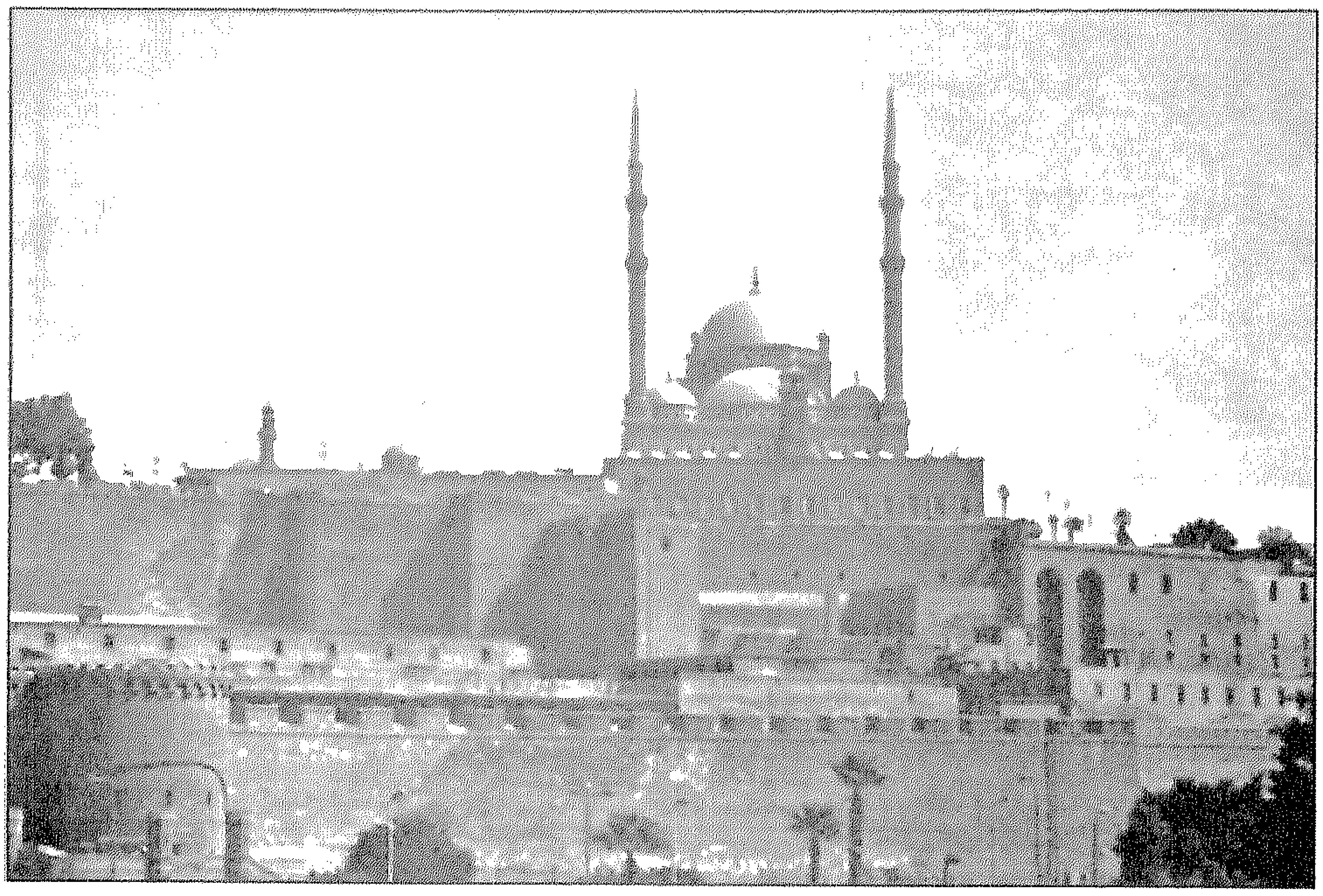

مسجد محمد علي

الطراز بنفس المادة، وقد رفعت فوقها ظلة خشبية على ثمانية أعمدة رشيقة، وتتشامخ مئذنتا الجامع المبنيتان على زاويتى الجدار الغربى للمصلى إلى ارتفاع ٨٢ مترا، على حين يبرز فى منتصف الضلع الغربى للصحن،

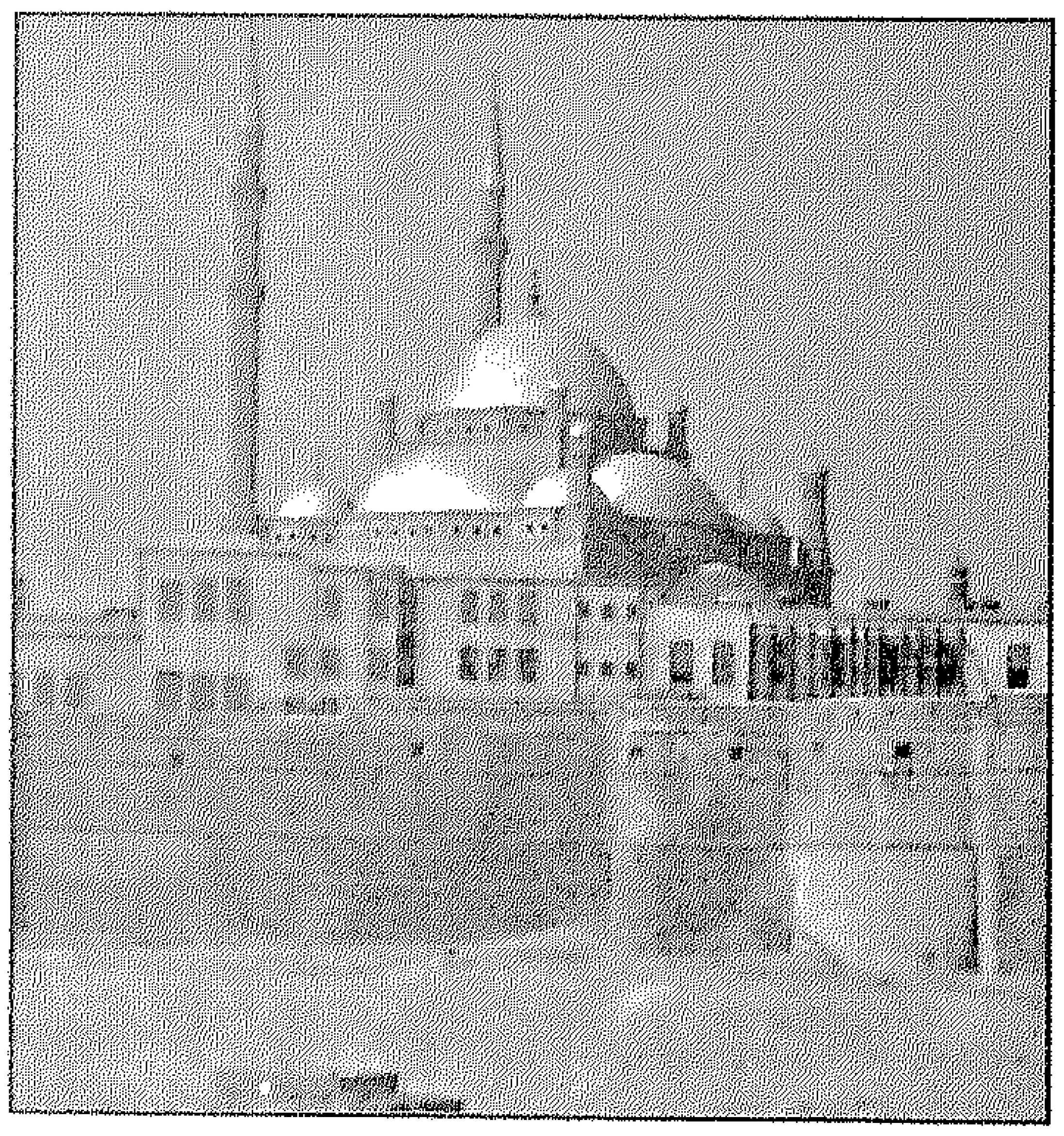

مسجد محمد علي

والمطل على ميدان الرميلة برج الساعات النحاسى المزخرف الذى أهداه لويس فيليب ملك فرنسا لمحمد على سنة ١٨٤٥م، مقابل المسلة الفرعونية فى ميدان الكونكورد فى باريس[٦٨]، ومن اللافت للنظر أن هذا البرج لا يتعارض مع الشكل العام للجامع، على الرغم من أنه منطقيا وأسلوبيا يجب أن يكون نقيضه تماما.

يزخر جامع محمد على بكم هائل من الكتابات تتناسب وحجم المسجد وإمكانيات المنشئ الهائلة، بعضها أبيات شعر من نظم الشيخ محمد شهاب الدين[٦٩]. علمنا من هذا الشاعر أن سلامة أفندى المهندس صنع مزولة للجامع، وأن الأبواب انتهت سنة ١٢٦١هـ/١٨٤٥م، وأن القبة الكبيرة انتهت سنة ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م. ويستوقفنا فى كتابات المسجد استخدام ثلاث لغات فيها. فالأبيات الشعرية كتبت باللغة العربية، والنصوص الكتابية على الميضأة كتبت باللغة الفارسية[٧٠]، وشاهد قبر محمد على بالتركية. وهذه التعددية اللغوية تعكس طبيعة العصر الذى شيدت فيه المنشأة. فقد كان محمد على وبطانته لا يجيدون إلا

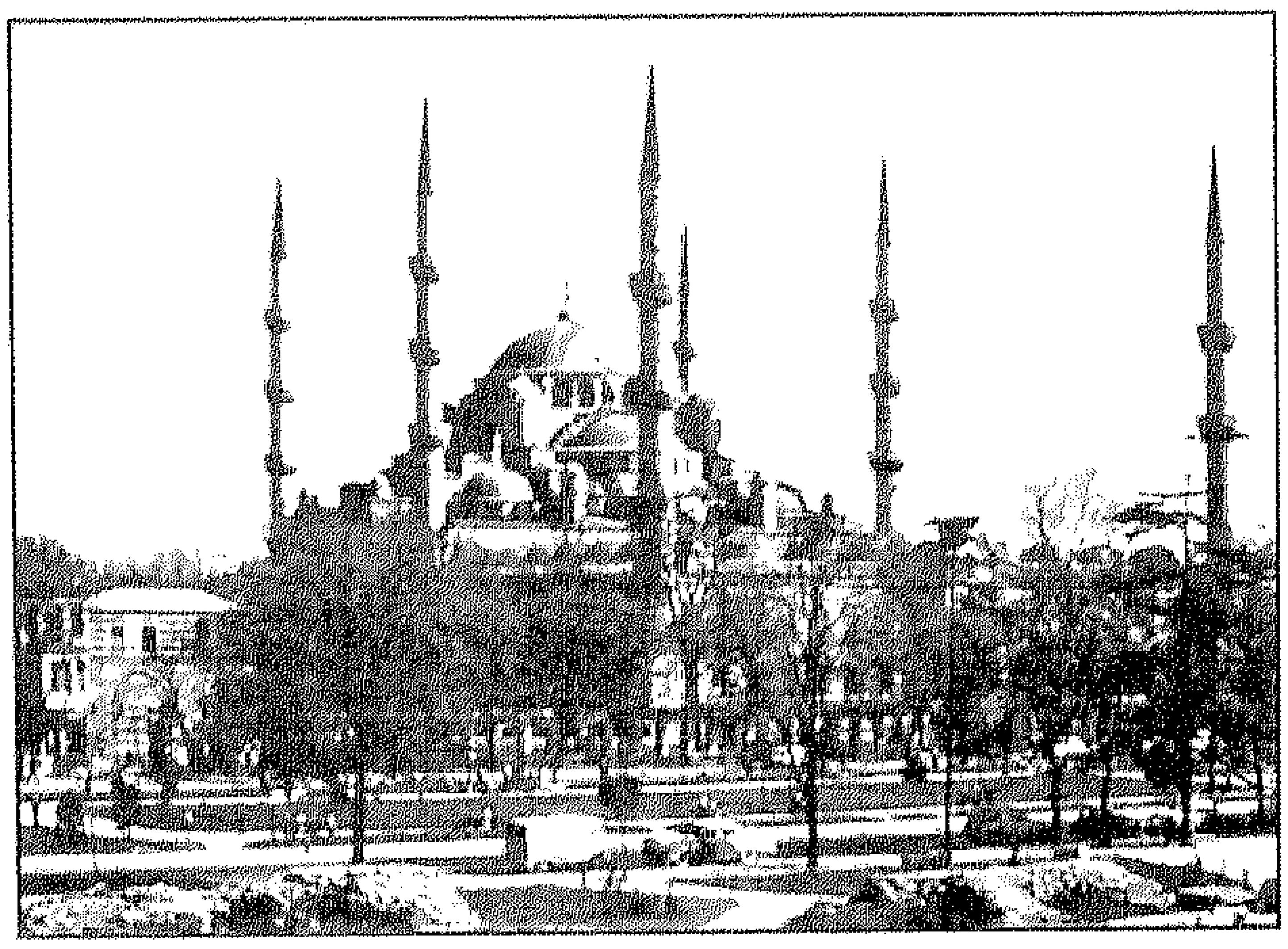

مسجد السلطان أحمد - إستانبول

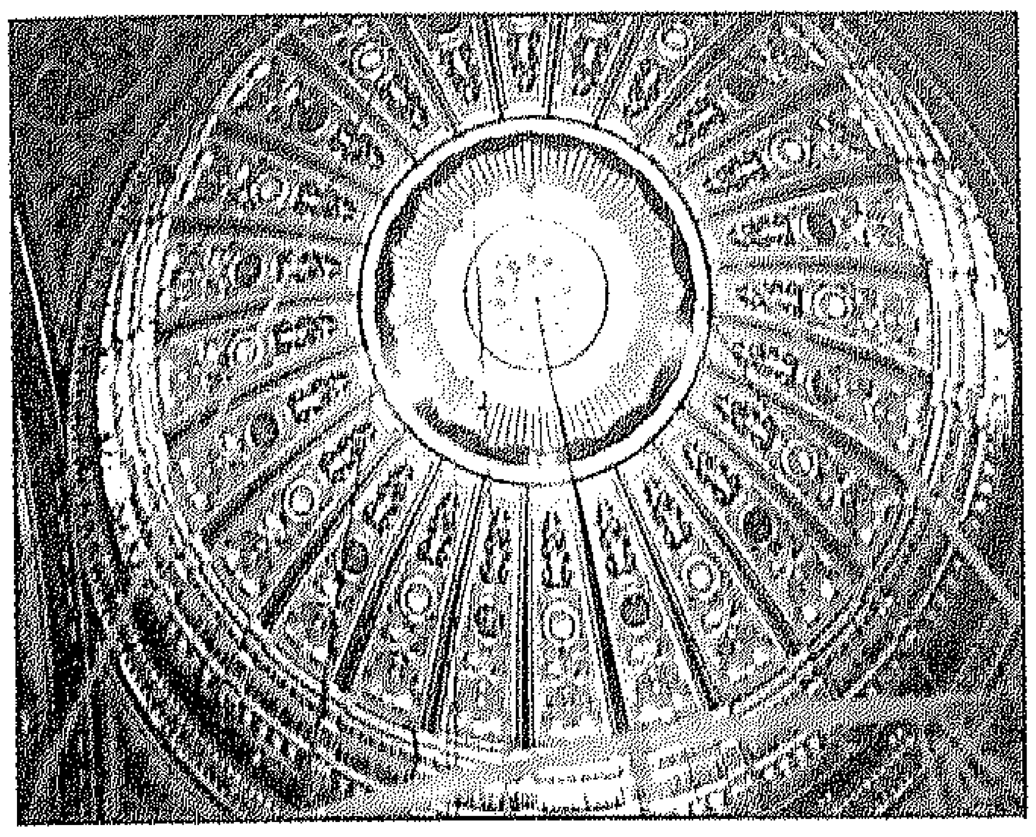

مسجد محمد على - زخارف القبة من الداخل

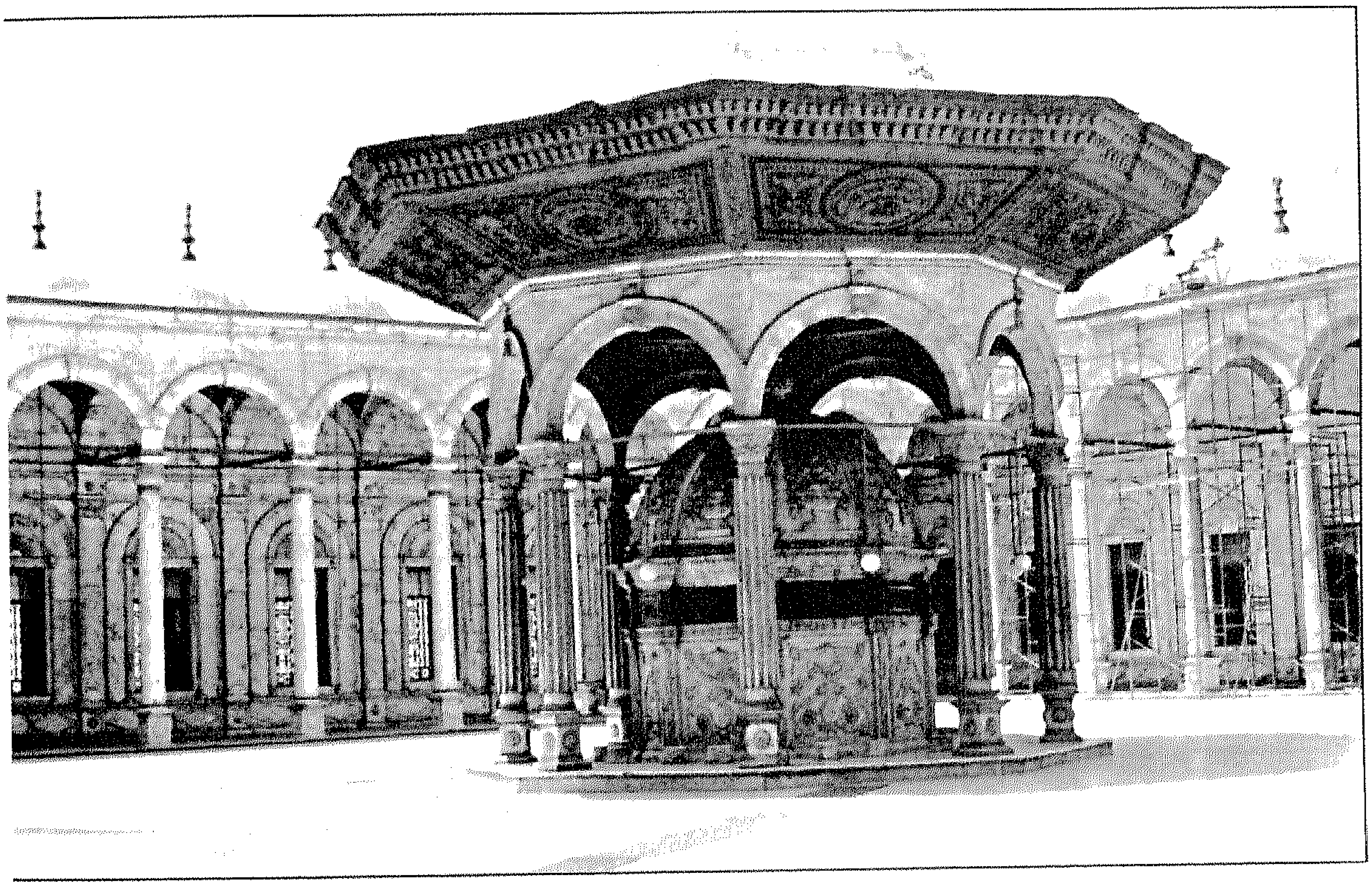

مسجد محمد على - الميضأة

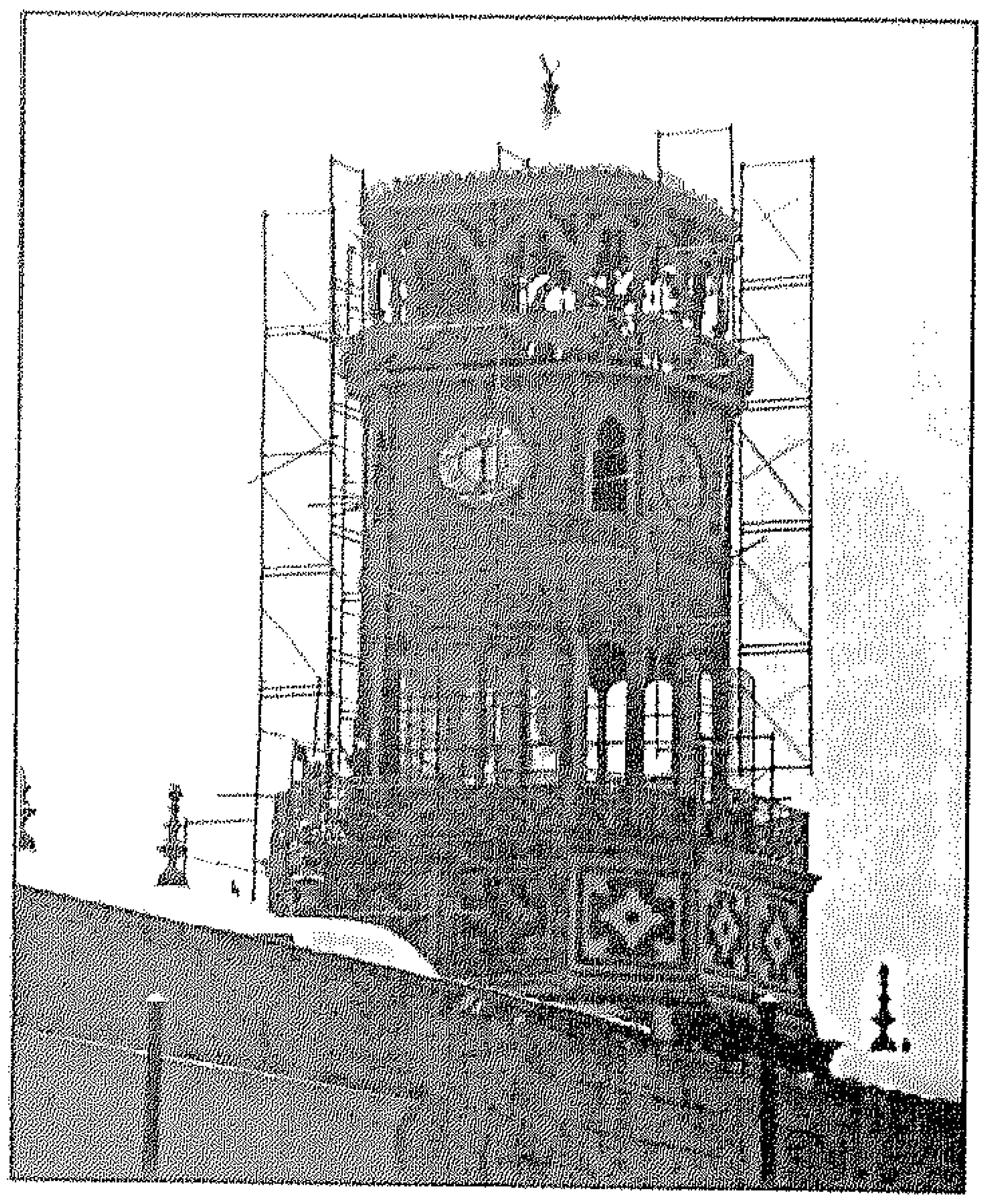

مسجد محمد على – برج الساعة

التركية. وبالتالى شاعت التركية فى النصوص التأسيسية بالقلعة وبالمنشآت الكبيرة فى هذا العصر[٧١] وفى المكاتبات الرسمية لكونها اللغة المشتركة بين الإدارة فى مصر ومقر السلطنة فى إستانبول. وهذا هو السبب الذى جعل اللغة التركية تستمر فى مصر إلى عام ١٩١٦م[٧٢]. ويعود ظهور اللغة الفارسية إلى اهتمام محمد على بها وبتدريسها فى المدارس المصرية، إلا أنها لم تستخدم كلغة للإدارة، وإنما كانت معينا تقوم به الأصول الفارسية فى اللغة التركية. وجاءت الفارسية فى مسجد محمد على على يد خطاط فارسى هو ميرزا سنكلاخ[٧٣].

بنى الجامع فى تاريخ متأخر نسبيا فى عهد محمد على، الذى رغب فى إنشاء مدفن لنفسه فيه[٧٤]، وتدل وقائع الأحداث الخاصة ببناء الجامع على دلائل مهمة لمعناه ولدوره الأساسى كمعبر عن نفسية الباشا وسياسته تجاه السلطنة العثمانية وعن طموحاته للحلول محلها أو بالأحرى لإحياء مجدها الغابر.

يخبرنا باسكال كوست المعمارى الفرنسى الذى عمل فى مصر تسع سنوات (١٨١٩ – ١٨٢٨م) فى مذكراته بأن محمد على باشا طلب منه تصميم جامع فى القلعة وجامع آخر فى الإسكندرية بين عامى (١٨٢١ –١٨٢٢م) فامتثل كوست للطلب بعد أن قضى سنتين (١٨٢٢–١٨٢٤م) يدرس جوامع القاهرة[٧٥]. ومن خلال دراسته توصل إلى أن بناء الجوامع فى مصر يجب أن يعتمد على الطراز المملوكى، لكونه الطراز المميز للعمارة المصرية فى العصور الإسلامية.

وضع كوست مشروعين، مازالت رسوماتهما فى المكتبة البلدية فى مارسيليا[٧٦]، يبدو التأثير المملوكى فيهما واضحا فى مساقطهما وواجهاتهما ومآذنهما مع بعض التفاصيل الباروكية فى العناصر الملحقة بالجامع كالسبيل، ولكن التنفيذ تعثر على ما يبدو، ووجد الباشا نفسه مضطرا لإلغاء مشروع جامع الإسكندرية بسبب نقص السيولة الناتج عن اشتراك مصر فى الحرب اليونانية كجزء من قوات الدولة العثمانية، ولم يشرع فى بناء جامع القلعة إلا بعد نهاية حملة المورة الفاشلة، وبعد مغادرة كوست لمصر مغادرة نهائية، وإن كانت فى الأصل غير مخطط لها. ولكن يذكر كوست فى مذكراته أن المشروع اتبع مخططه مع أنه كان بعيدا فى فرنسا. ويؤكد كلام كوست تقرير للقنصل الروسى فى القاهرة عام ١٨٣١م يذكر فيه أن تجميع الرخام لجامع القلعة الذى صممه كوست قائم على قدم وساق[٧٧]. ولكن اسم كوست يختفى من الوثائق القنصلية والرسمية بعد ذلك، واعتبارا من عام ١٨٣٣م تطالعنا تقارير من مسافرين زائرين للقلعة مثل الإنجليزى كوروزون، تتحدث عن الطراز البربرى أو الطراز الأرمنى[٧٨]، واعتبارا من تلك السنة نجد أن أكثر المعلقين على جامع الباشا فى القلعة الذى ما زال فى طور البناء يعيبون عليه غرابته عن محيطه القاهرى وبشاعته وعدم انتظام نسبه بالنسبة لجوامع إستانبول العثمانية. وبعضهم يذكر معماريين مغمورين من عاصمة الخلافة، أرمن أو أتراكا أو يونان أو حتى بوسنيين، على أنهم هم المسئولون عن عمارة هذا الجامع، ولكننا لا نملك وثيقة رسمية واحدة توضح لنا من هم حقا هؤلاء المعماريون؟ وكيف تحول تصميم كوست المملوكى

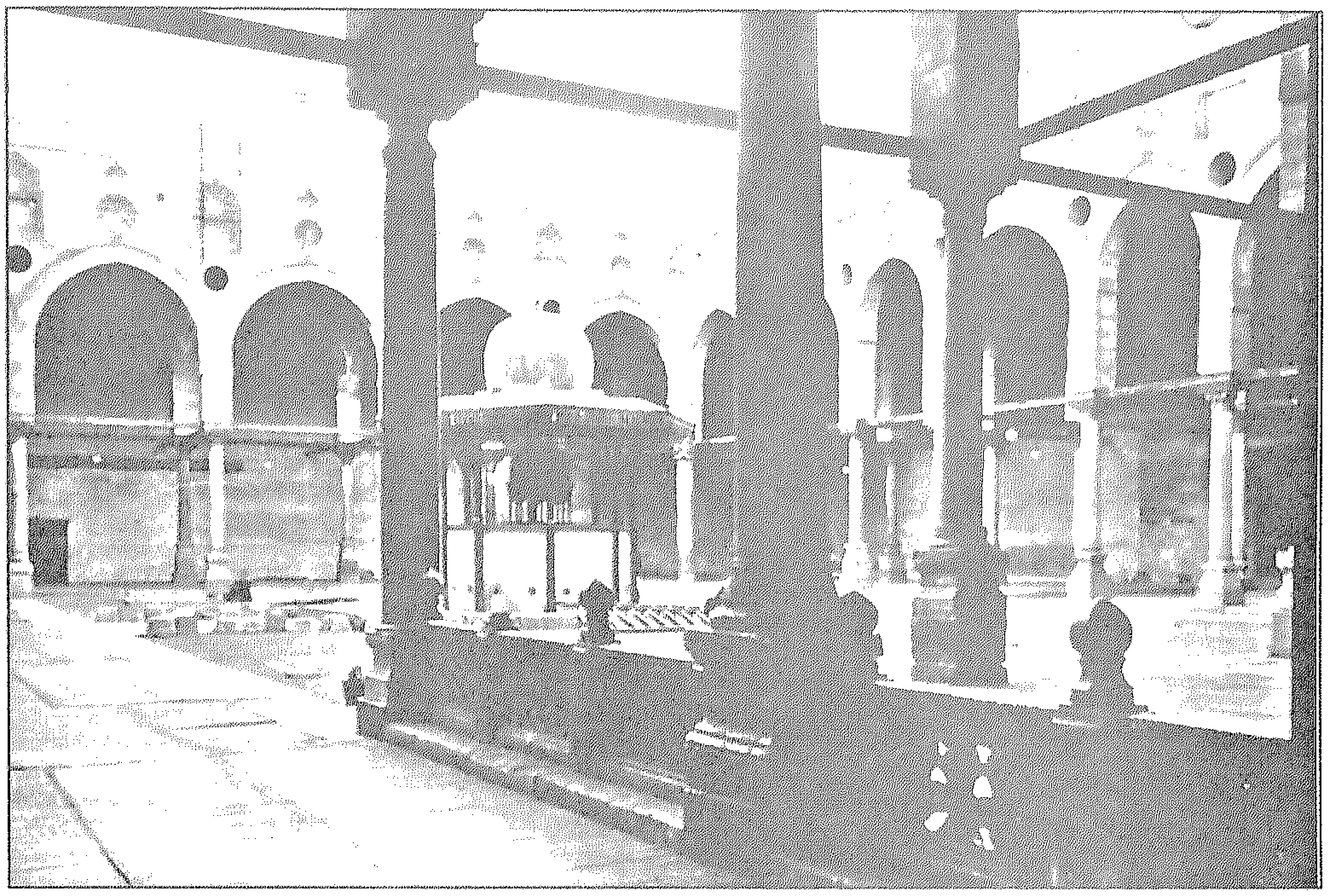

مسجد الطنبغا الماردنى – العصر المملوكي

إلى الجامع القائم اليوم العثمانى الكلاسيكي، ومن هو صاحب قرار التحول، وما دلالة هذا التحول؟، بادئ ذى بدء أخطأ كوست حين اقترح على الباشا بتصميمه جامعا، على أن يتخذ طرازه الطراز المملوكى، فى أعقاب مذبحة المماليك أعداء الباشا، ثم بنى قصوره على أنقاض قصور المماليك التى ردمها ودمر بعضها، فمما لاشك فيه أن الباشا ما كان ليرضى لنفسه أن يتبع أسلوب المماليك معماريا بعد أن حطمهم سياسيا وأفناهم فعليا. ولكن اختياره لطراز الجوامع التقليدية الإستانبولية يفصح عن جوانب مثيرة من شخصيته وطموحه وقوة عزمه وتصميمه وذوقه العثمانى المحافظ بخاصة إذا تذكرنا أن بناء الجامع توافق زمنيا مع محاولة الباشا إقامة دولة إسلامية قوية على أنقاض الدولة العثمانية. ذلك المشروع الذى أشعل حربا مع الباب العالى دامت عشر سنوات (١٨٣٠ – ١٨٤١م) وكادت أن تودى بكل طموحات محمد على، عندما تدخلت الدول الكبرى لحماية رجل أوروبا المريض (الباب العالي)، وأجبرت محمد على بعد معاهدة لندن على الاكتفاء بمصر. ولكن محمد على لم يعتبر نفسه ثائرا على الدولة العثمانية هادفا لإزالتها من الوجود كدولة، بل مجددا لها: فمشروعه كان قائما على فكرة أن الدولة منهكة ومهلهلة وأنها بحاجة لدفقة دم جديدة تعيد لها مجدها الغارب، وأنه هو من سيقدم هذه الدفقة عن طريق برنامجه التطويرى الإصلاحى الذى بدأه فى مصر فى العشرينيات من القرن التاسع عشر، والذى بلغ ذروة نشاطه فى الثلاثينيات. وقد اعتمد محمد على على الأنظمة الأوروبية فى الجيش والزراعة والرى والتعليم والصناعة، بيد أن محمد على وبطانته من أرناؤوط وشركس وأتراك وقليل من المصريين لم يتخلوا عن أساليب حياتهم وعاداتهم وأذواقهم ورؤاهم لصالح الجديد الأوروبى الذى استقدموه لانتشال البلاد من تخلفها، فهم على الرغم من قيادتهم للمشاريع التحديثية، تعسفا وبالكرباج أحيانا، حافظوا على توجههم العثمانى

الطابع، والتقليدى الاتجاه وحتى الجامد التفكير فى بعض الشئون الاجتماعية والشخصية. فمحمد على الذى ترعرع فى جو عثمانى محافظ فى كافالا باليونان[٧٦]. أظهر ميلا واضحا منذ استلامه الحكم فى مصر لتثقيف نفسه ثقافة عثمانية أرستقراطية قوية. ويمكننا أن نلاحظ ذلك فى مطبوعات مطبعة بولاق باللغة التركية. من هذا المنطلق نفسه، يمكننا أن نفهم لماذا أختار محمد على والمحيطون به لجامعه طرازا تقليديا إستانبوليا، فبالنسبة لعقلية محمد على والمحيطين به كانت تلك علامات السيادة والعظمة والأصالة التى فهموها وتذوقوها ورغبوا فى التمسك بأهدابها. وهى نفس الأسباب التى دفعت أحمد بن طولون إلى اختيار طراز مسجده الجامع تقليدا لمسجد سامراء خاصة فى الزخارف والمئذنة.

ولاشك كذلك فى أن قرار محمد على باشا بالعودة إلى الماضى العثمانى فى عمارة جامعه فى نفس الفترة التى كانت فيها جيوشه تدك معاقل الحاضر العثمانى، كان الهدف من هذا الاختيار هو إثبات الولاء لذلك الأمر العثمانى العظيم، الذى كان محمد على يحاول إحياءه فعلا

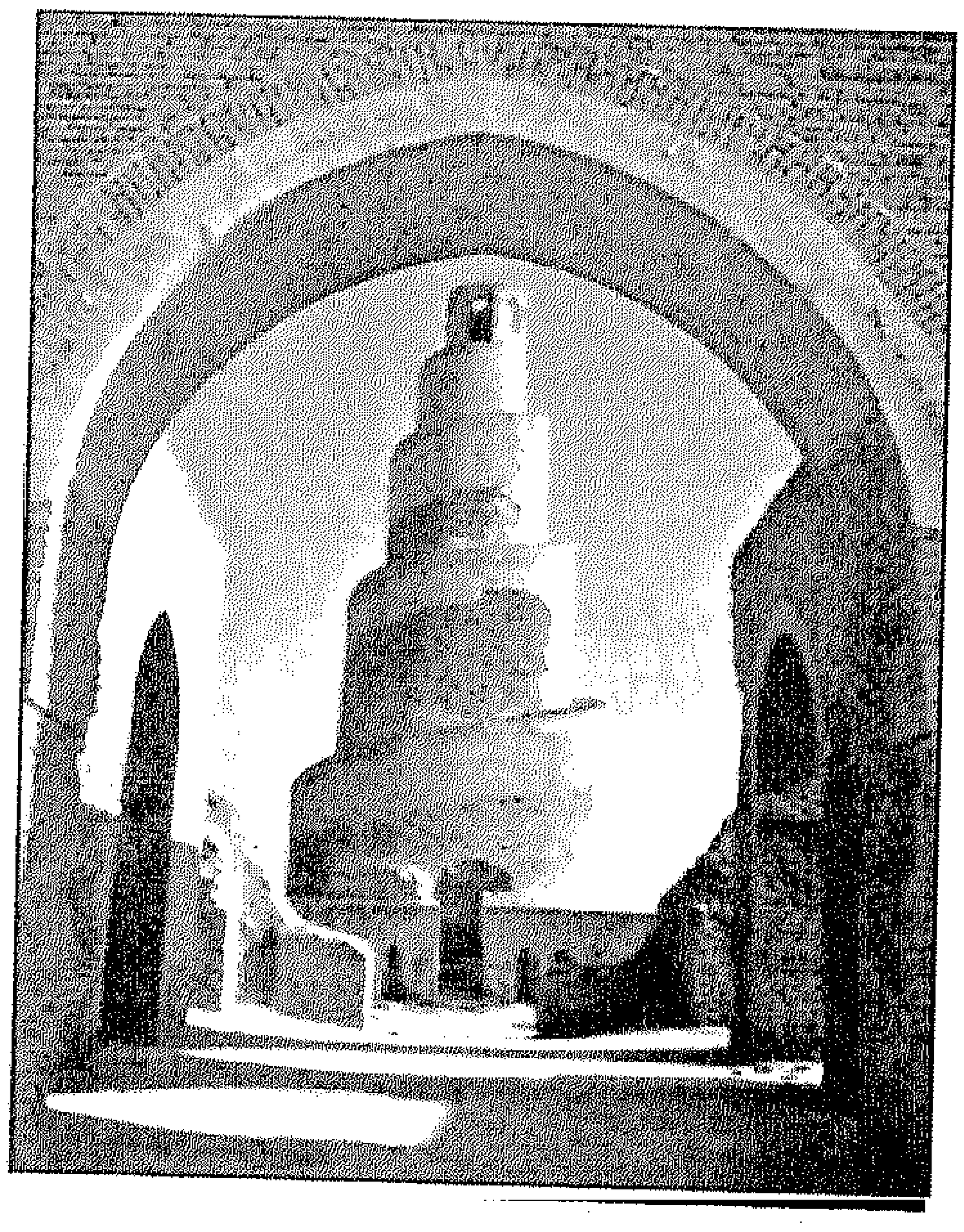

مسجد سامراء

من خلال حكمه وشخصه وطموحه، والتأكيد على فك الارتباط مع الحاضر الضعيف، الذى كان يحاول الحلول محله. وهذا المعنى هو ما عبر عنه الجامع، بالإضافة إلى كل مشاريع محمد على فى القلعة من سرايات وثكنات ومستودعات من خلال ضخامة المعمار، وموقع البناء، وأسلوبه المرجعى الملىء بالإشارات التى فهمها معاونو الباشا تماما، وإن كانت غامضة بالنسبة لعامة الناس، الذين لم يهتم الباشا برأيهم أصلاً. فجامع محمد على إذن

وين بلاغى تشكيلى صمم عن سابق إصرار

الأسلوب الإستانبولى المبكر فى عمارة

لطانية، ولكى يقتبس من مدلولاته مسوغات لتصرفات بالية خلال تلك الفترة المثيرة التى شهدت محاولة محمد على إنشاء دولة جديدة. لقد كان محمد على مدركا ما يفعله بالضبط فهو يريد دولة قوية ذات استقلال عن الدولة العثمانية أو دولة تقام على أنقاض هذه الدولة، لذا فليس من المستغرب أن يمنح محمد على نفسه ألقابا كانت لا تطلق إلا على السلاطين مثل لقب خان[٨٠]، ولقب خديو ولقب عزيز[٨١] ويتبقى أنه ليس من المعقول أن يختار الباشا طرازا لمسجد يماثل طراز مسجد الناصر محمد مسجد القلعة الجامع. فلابد أن يكون الطراز مختلفا لكى يلفت انتباه الناس إليه.

نطاق باب العزب

حدث تحول مهم فى وظيفية هذا النطاق من القلعة، إذ تحول من مكان لإقامة جند طائفة العزب، إلى منطقة صناعية حديثة تعكس رغبة محمد على فى إقامة جيش قوى حديث كان محمد على بدأ فى عام ١٨٠٦م فى تصنيع الأسلحة بالقلعة، وظلت هذه الصناعة تنمو، حيث شهدت فى عام ١٨٢٠م تشييد مصنع جديد لصناعة وسبك المدافع والقنابل والسيوف والرماح وغير ذلك وسمى "الطوبخانه" وعمل تحت إشراف أدهم بك قائد المدفعية، كان بهذا المصنع ٩٠٠ عامل ومعهم عدد من الأجانب للاستفادة بخبراتهم. تراوح إنتاج هذه الطوبخانه من المدافع ما بين ثلاثة وأربعة مدافع فى الشهر. وكان

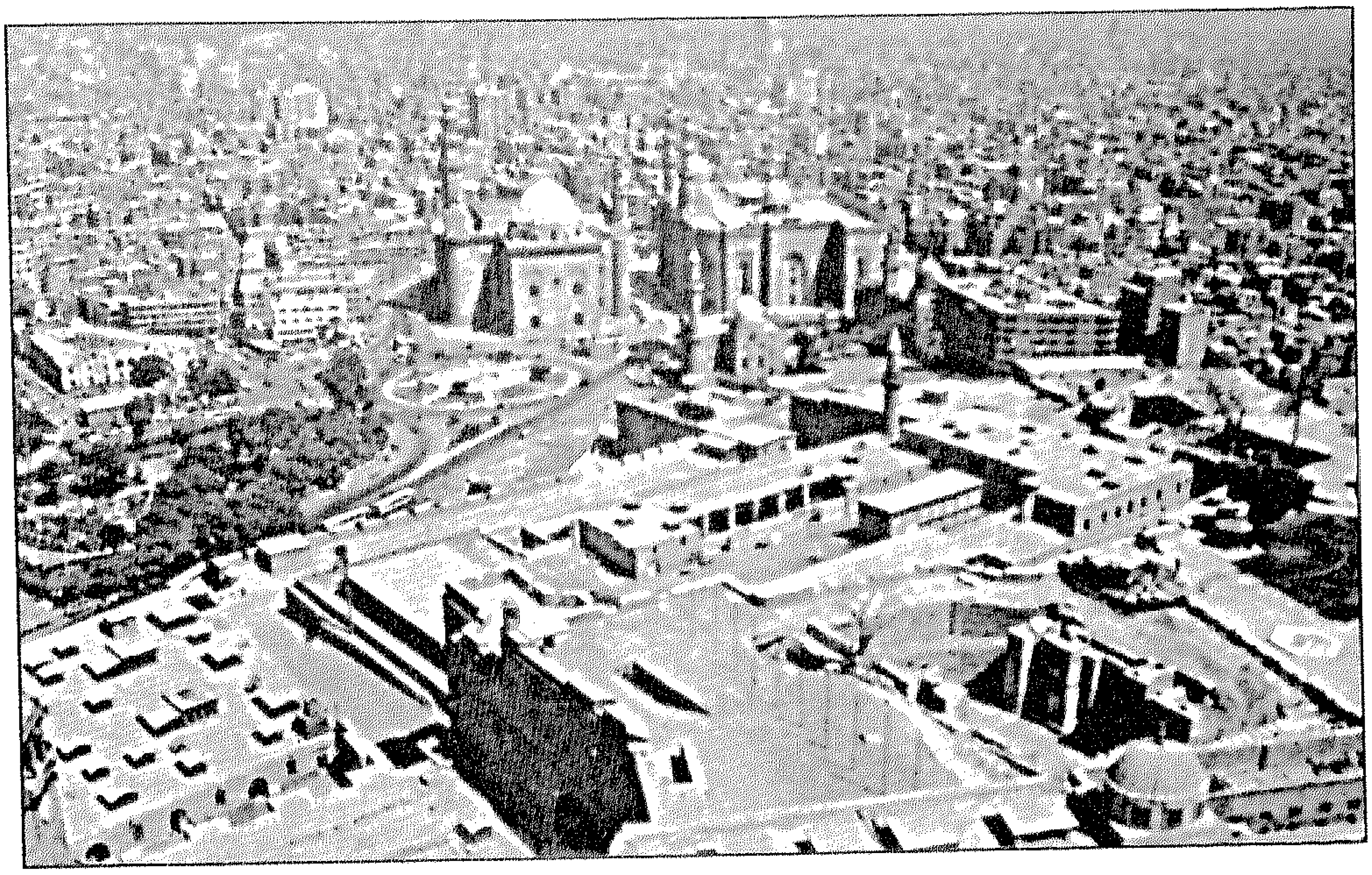

نطاق باب العزب

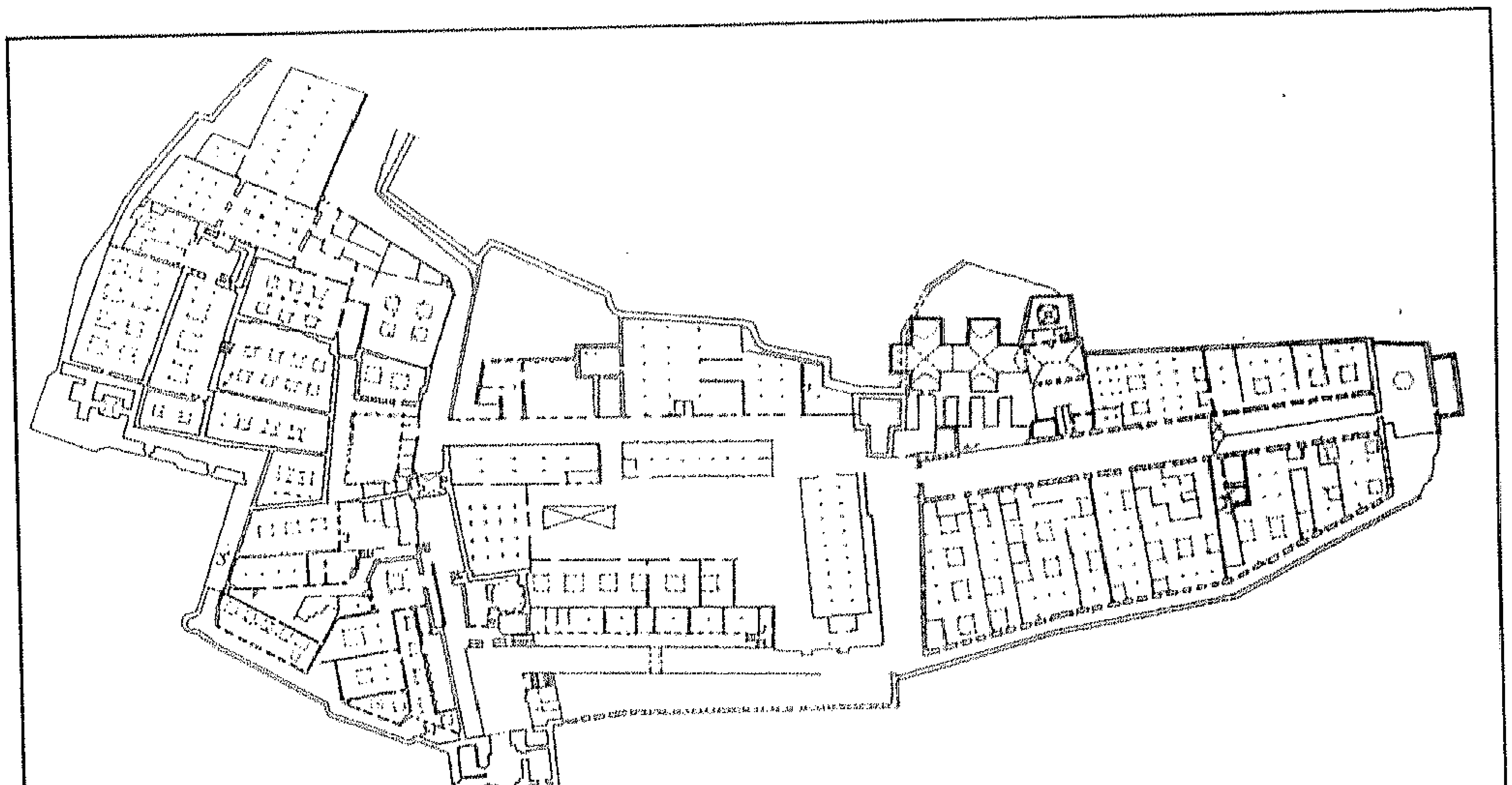

نطاق باب العزب - مخطط

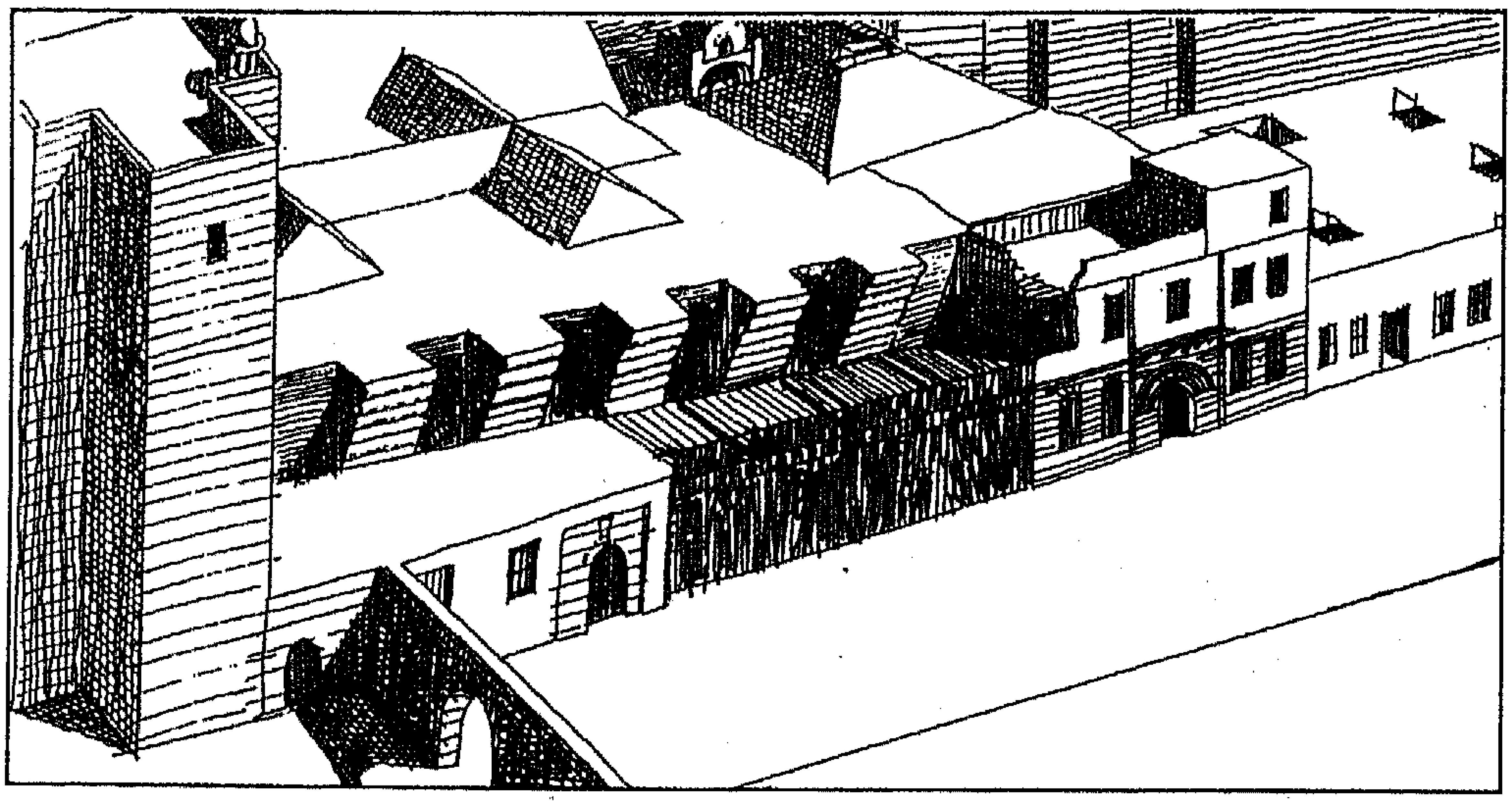

مصنع المدابغ والمسبك

يصنع بها كل شهر من ٦٠٠ إلى ٦٥٠ بندقية على الطراز الفرنسي. شُيد أيضا بهذه المنطقة مصنع لألواح النحاس التى تبطن بها السفن وكان ينتج فى اليوم من سبعين إلى مائة لوح من النحاس مختلفة المقاس والسمك وضع هذا المصنع تحت إدارة توماس جالوى الإنجليزي. وجددت هذه المنطقة وشهدت توسعات فى عام ١٨٢٠م[٨٢]. وما زالت أجزاء كبيرة باقية منها إلى اليوم، غير أننا لا نستطيع أن نحدد وظيفة كل المنشآت الباقية نظرا للتغييرات التى طرأت على وظائفها، بخاصة فى ظل سيطرة الجيش الإنجليزى عليها فى الفترة من ١٨٨٢ إلى ١٩٤٦م، ثم سيطرة الجيش المصرى عليها من ١٩٤٦ إلى ١٩٨٤م. فى هاتين الفترتين استغلت منشآت النطاق فى وظائف متعددة استلزم بعضها تغيير معالم الأبنية من الداخل. تتكون حاليا دار صناعة القلعة من عدة مبان متجاورة عبارة عن أبنية مستطيلة غطيت أسقفها بأسطح متوازية فتح بها إما ملاقف وإما مناور خشبية للإضاءة والتهوية وإما مناور حجرية تستخدم كمداخن لإخراج الدخان الناتج عن عمليات التصنيع المختلفة.

يعد مصنع المدافع والمسبك الملحق به المنشأة الوحيدة ذات المعالم الواضحة التى يمكن من خلالها تحديد وظيفتها وكان يعلو مدخل هذا المسبك لوحة رخامية يشير نصها الذى كتب بالتركية إلى تاريخ تشييد محمد على له ترجمته بالعربية[٨٣]:

شيد محمد على باشا والى مصر الشهير
بناء عاليا هنا لصب المدافع
فنظمت أنا خيرت تاريخه الجوهري
صار هذا البناء المتين العالى طوبخانه[٨٤]

يقع هذا المصنع أسفل القصر الأبلق ويمتد إلى برج الرفرف. والمصنع غير منتظم الأضلاع. به فناء مكشوف مستطيل غطى حديثا بسقف جمالونى من ألواح الأسبستوس. يقع مسبك المدافع فى الناحية الغربية من الفناء وقد قسم المسبك إلى ثلاث مساحات غير متساوية يؤدى كل منها للآخر، يتصدر القسم الثالث منها جدار حجرى يتوسطه فتحة معقودة بعقد نصف دائرى كان يوضع فيها الوقود الذى يستخدم فى صهر الحديد المستخدم فى سبك المدافع. وهذه الفتحة مسدودة حاليا تعلوها مدخنة تستدق كلما ارتفعت لأعلى. وتخترق المدخنة قبة محمولة على أربعة عقود نصف دائرية يربط بينها عوارض خشبية تزيد من قوتها من الناحية الإنشائية.

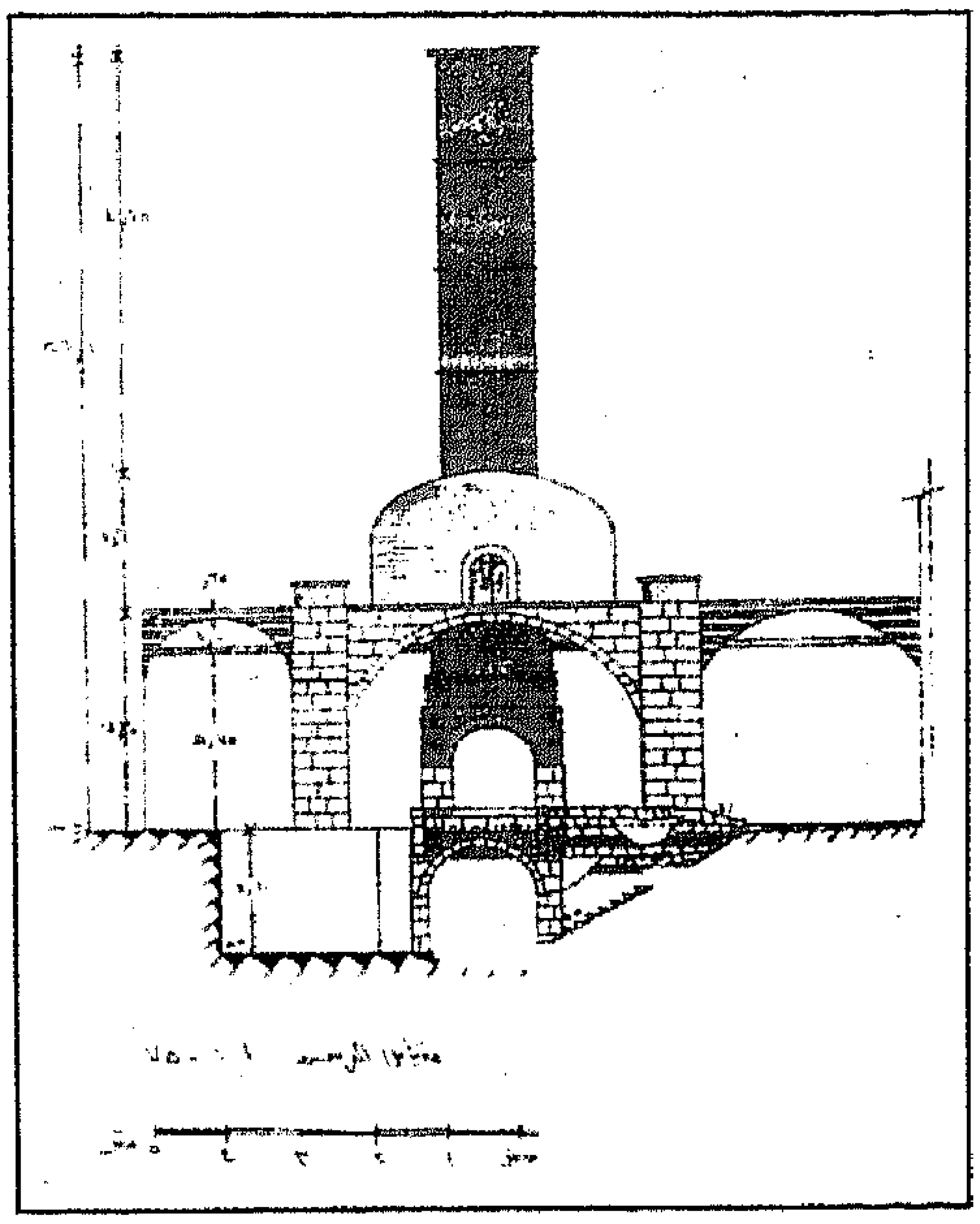

مصنع المدافع والمدخنة

يقع مصنع صهر المعادن إلى الشرق من مصنع سبك المدافع، ومن الواضح أن المبنى أحدثت به تجديدات فى عصر الخديوى إسماعيل وفى فترة الاحتلال الإنجليزي. وواجهة المصنع تعود إلى عصر محمد على، يوجد بها مدخلان بارزان بكل منهما فتحة باب معقودة بعقد نصف دائرى. والمصنع من الداخل غير منتظم الأضلاع. وهو مقسم إلى أقسام بواسطة دعامات حجرية تحمل سقفا من الخشب عبارة عن عروق يعلوها ألواح خشبية يتوسط هذا السقف مناور وملاقف للهواء. ومازال باقيا فى أرضية المصنع مجار كان يصب بها الحديد المصهور.

خلفاء محمد على والقلعة

بدأ محمد على فى اتخاذ القصور كمقار لإقامته وإدارة دفة الأمور فى مصر بالإضافة إلى القلعة، وصار هذا الأمر فى تزايد مستمر فى عهد خلفائه، إلا أن القلعة كان لها سطوتها عليهم، إلى أن نقل إسماعيل إدارة الحكم منها نهائيا إلى قصر عابدين. وعلى الرغم من ذلك شهدت القلعة بعض الاهتمام فى عهد خلفائه لأهميتها الإستراتيجية. ونرى فى القلعة العديد من ثكنات الجند مثل القشلة[٨٥] الكبيرة التى أجريت بها العديد من الإصلاحات فى عهد سعيد باشا، وعندما تولى الخديوى إسماعيل وجه عنايته لبناء قشلاقات جديدة بالقلعة، فبنى أربعة قشلاقات لإقامة الفرق العسكرية المختلفة[٨٦]. وهذه القشلاقات كانت تقع فى النطاق الشمالى من القلعة. ويكشف أمر أصدره الخديوى إسماعيل للواء على سرى باشا ليتولى مأمورية محافظة القلعة عن القوة الموجودة بالقلعة فى عصره والتى كانت تتكون من لواءين للمشاة ألحق بهما ثالث، وهى لاشك قوة كبيرة لها أهميتها[٨٧].

رمم سعيد باشا أسوار القلعة، حيث قام ديوان الأشغال بتكليف على حمدى المقاول لترميم الأجزاء المتهدمة من الأسوار خلال أربعين يوما، وكلف الديوان أحد مهندسيه للإشراف على أعمال الترميم[٨٨]. كما قام الخديوى إسماعيل بترميم أسوار القلعة، بخاصة الجزء الذى يتقدم نطاق باب العزب[٨٩]، فقد وردت إلى الخديوى إسماعيل إفادة عن نتيجة التفتيش على متانة أسوار القلعة فوجد أن السور بجهة ميدان الرميلة بالجهة البحرية من باب العزب، وكذلك السور بجهة ديوان الخديوى المطل على قرة ميدان كلاهما مهدم، ويمكن لأى شخص أن يمر خلاله، وأمر الخديوى إسماعيل بتوفير الاعتمادات المالية الكافية لترميمهما[٩٠]. استغرق العمل فى إعادة بناء وترميم أسوار القلعة ست سنوات حيث يشير إلى ذلك نص تذكارى وضع بداخل سور القلعة بالقرب من باب العزب يعود إلى عصر الخديوى إسماعيل نصه:

إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم

أمر بإنشاء وتجديد هذا السور المبارك خديو مصر حالا إسماعيل ابن الحاج

إبراهيم ابن الحاج محمد على فى تاريخ شهر رجب سنة خمسة وثمانين ومايتين وألف[٩١]

وقام إسماعيل بتحويل جبخانة القلعة إلى دفترخانة لحفظ أوراق ودفاتر المديريات سواء فى الوجه القبلى أو البحرى لأن دفترخاناتهم قد ألغيت ونقلت أوراقها إلى الدفترخانة المصرية[٩٢].

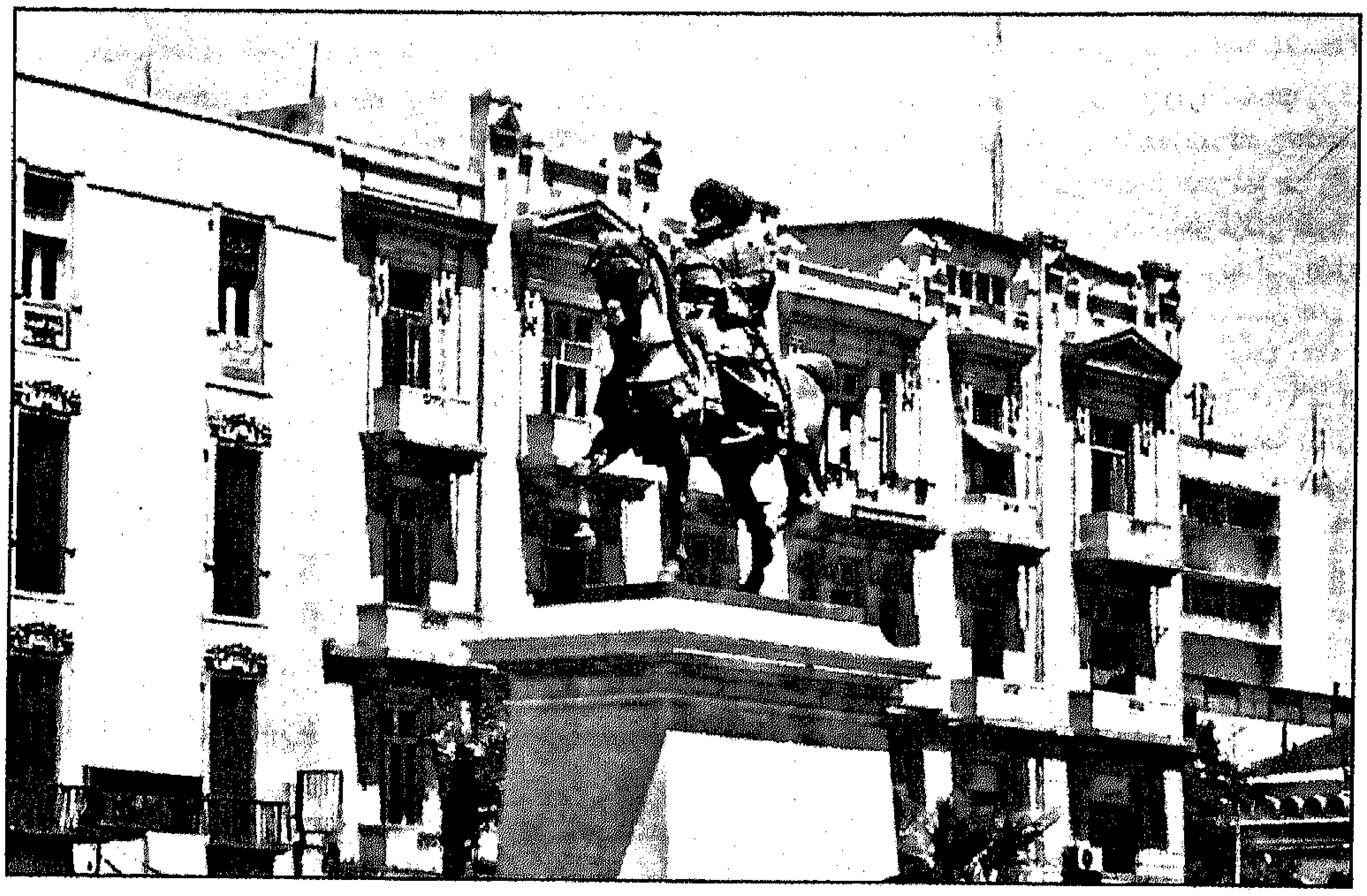

تمثال محمد على – ميدان المنشية في الإسكندرية

أمر الخديوى إسماعيل على باشا مبارك أن يعد تخطيطا لميدانى القلعة (الروميلى) الرميلة (وقرة ميدان) المنشية. ونشرت الوقائع المصرية هذا الحادث فى عام ١٨٦٨م، حيث ذكرت أنه كان (ميدانا الروميلى وقرة ميدان الفسيحان مشحونين بالتراب وخاليين من العمران ولذا فإن أوباش الناس يجتمعون فيهما مثل السحرة والمشعوذين، وكان هذا عملا لا يليق لاسيما وأن الميدان يقع فى سفح القلعة، ولذا فمنذ عام ١٨٦٧م بدأت أعمال التنظيف لهذين الميدانين وإزالة السور بينهما، وجعله ميدانا واحدا، كما هدمت جميع المبانى التى أنشئت على غير القواعد الهندسية التى كانت تحجب مدرسة السلطان حسن، وغرست الأشجار فى جميع طرقات الميدان، وكذلك كثير من الزهور والرياحين. وقد تقرر أن يوضع فى هذا الميدان تمثال من البرونز لمحمد على راكبا حصانه. وصمم الميدان على أن تكون الجهة الجنوبية منه منتزها مما يساعد على عمران المناطق المجاورة لهذا الميدان، والتى كانت خربة[٩٣]. ولم يوضع تمثال محمد على بهذا الميدان، بل وضع فى ميدان المنشية بالإسكندرية .

شاب تخطيط هذا الميدان عيب فنى حيث إن الجزء المستدير تجاه باب العزب عند حوض المياه تتبع الميدان فى انحداره، وبذلك يكون حوض المياه على ارتفاع ٦٠ سم من ناحية ومترين من ناحية أخرى[٩٤]. اكتسب هذا الميدان اسما جديدا هو ميدان محمد على، وارتبط بشق شارع محمد على منه إلى ميدان العتبة، وكذلك بإصلاح أسوار القلعة تجاه الميدان، وهو ما يجعل من أعمال إسماعيل بهذه المنطقة مشروعا عمرانيا متكاملا[٩٥].

الحواشي

١ الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٧، عبد الرحمن زكي (دكتور)، قلعة مصر، ص ٧٥.

٢ ج. كريستوفر هيرولد، بونابرت في مصر، ص ١٦٢، ترجمة فؤاد أندراوس، مراجعة محمد أحمد أنيس، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م.

٣ عبد الرحمن زكي (دكتور)، قلعة مصر، ص ٨٠ – ٨١.

٤ الجبرتي، عجائب الآثار، ج٤، ص ١٢٧ : ١٢٩.

٥ يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٦٧٦ — ٦٧٨، منشورات فيصل إستانبول ١٩٨٨ م؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) فى أصول التاريخ العثماني، ص ١٩٠ — ١٩١، دار الشروق ١٩٩٣.

٦ الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٤، ص ١١.

٧ الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٤، ص ٥٢، ٥٤ — ٥٥.

٨ أول من نشر هذا النص الدكتور عبد الرحمن زكى فى كتابه قلعة مصر، ص ١١٢.

٩ محافظ المعية السنية، محفظة رقم ١٣٢، ترجمة النص التركى بالقلعة، دار الوثائق القومية. نشر كازانوفا هذا النص فى كتابه عن القلعة ولكن لم ينشره كاملا: انظر كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص ١٩٨ – ١٩٩. وكان الدكتور عبد الرحمن زكى نشر ترجمة لهذا النص أيضا: انظر كتابه، قلعة مصر، ص ١١٣؛ مصطفى بركات (دكتور) النقوش الكتابية على عمائر مدينة القاهرة فى القرن التاسع عشر، ص ١٣٦، رسالة دكتوراه، كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٩١ م.

١٠ خديو: بفتح الخاء وكسرها، كلمة فارسية معناها السيد. عبد النعيم حسنين، قاموس الفارسية، ص ٢٣٦. القاهرة ١٩٤٦ م؛ مصطفى بركات (دكتور)، الألقاب والوظائف العثمانية، ص ٣٠٧. دار غريب ٢٠٠٠.

١١ الوزير: اسم وظيفة اختلف فى أصلها فقيل كلمة فارسية الأصل. وقيل عربية الأصل اختلف فى اشتقاقها فقيل إنها مشتقة من الوزر بفتح الواو والزاى وهو الملجأ سمى بذلك لأن الرعية يلجأون إليه فى حوائجهم. وقيل مشتقة من الأوزار بمعنى الأمتعة لأنه متقلد بخزائن الملك وأمتعته وقيل مشتقة من الوزر بكسر الواو وسكون الزاى وهو الثقل لأنه يتحمل أثقال الملك وقيل من الأزر وهو الظهر سمى بذلك لأنه يقوى الحاكم كما يقوى الظهر البدن. وقد عرفت وظيفة الوزير بصفة غير رسمية عند العرب قبل الإسلام وفى صدر الإسلام إذ كان العرب قد خالطوا الروم والفرس قبل الإسلام. يسمون أبا بكر وزير النبى وكذلك شأن عمر مع أبى بكر وشأن على وعثمان مع عمر ويبدو أن صاحب هذه الرتبة فى العصر الأموى لم يكن يسمى وزيرا إذ إن اختصاصات الوزير لم تتحدد إلا فى العصر العباسي. وعرفت هذه الوظيفة فى مصر منذ عهد الإخشيديين واستمرت تظهر تارة وتختفى تارة وتقوى تارة وتضمحل تارة أخرى حتى نهاية العصر المملوكى الجركسى بمصر. وقد كانت هذه الوظيفة فى عصر المقريزى تطلق على موظف يشترى حاجيات السلطان. ظهرت هذه الوظيفة فى الدولة العثمانية وعرف صاحبها بالصدر الأعظم أو الوزير الأعظم. وحدد قانون نامه محمد الفاتح اختصاصاته. وفى القرن الخامس عشر منح لقب وزير إلى عدد من حكام الولايات الكبرى وإلى بعض موظفى الدولة الكبار فى إستانبول. وبعد أن كان والى مصر برتبة أمير الأمراء صار لا يلى مصر إلا رتبة وزير. ورد هذا اللقب ضمن ألقاب محمد على باشا بشاهد قبر طوسون باشا بحوش الباشا ١٢٣١ هـ، وبنص الدفترخانه ١٢٤٠ هـ، وبنص مطبعة بولاق ١٢٤٥ هـ. القلقشندى، صبح الأعشي، ج ٥، ص ٤٨٨؛ حسن الباشا (دكتور) الفنون الإسلامية والوظائف، ج٣، ص ١٢٣٠، ١٢٣٦؛ مصطفى بركات (دكتور) الألقاب والوظائف العثمانية، ص ٧٢: ٧٩، ٢١٨.

١٢ المقصود هنا هو كاشف أفندى باشكاتب جريدة الوقائع المصرية آنذاك وعضو مجلس المشورة العالى. كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص ١٩٩؛ عبد الرحمن زكى (دكتور)، قلعة مصر، ص ١١٣.

١٣ وردت الترجمة الكاملة فى محفظة رقم ١٣٢ تركى، دار الوثائق القومية. كما نشر الدكتور عبد الرحمن زكى ترجمة له، انظر كتابه قلعة مصر، ص ١١٣ — ١١٤.

١٤ والى: تطلق هذه اللفظة عادة على أمير القطر وحاكمة والمصدر منها ولاية بمعنى الإمارة، وقد عرفت هذه الوظيفة منذ صدر الإسلام إذ جرت العادة أن ينيب الخلفاء عنهم فى حكم الأقطار الإسلامية أو الولايات التابعة لهم ولاة كانوا يعرفون بالأمراء والعمال. وقد ورد اللقب الوظيفى "والى مصر" بالنصوص التأسيسية العثمانية لقبا لإبراهيم باشا والى مصر بنص رابط الآثار ١٠٧٧ هـ للإشارة إلى حاكم مصر أو أعلى سلطة بها فيرد فى الفرمانات مثلا إلى عزت باشا والى مصر وأحيانا كان السلطان يكتفى بمخاطبة الباشا فى فرماناته بلقب الباشا والى مصر دون ذكر اسم الباشا بالتحديد. حسن الباشا (دكتور)، الفنون الإسلامية والوظائف، ج٣، ص ١٣٠٩؛ ليلى عبد اللطيف (دكتورة) المجتمع المصرى فى العصر العثماني، ص ٢١٨. دار الكتاب الجامعى ١٩٨٧ م؛ مصطفى بركات (دكتور) الألقاب والوظائف، ص ٧١ – ٧٢.

١٥ مختار الكسباني (دكتور) تطور نظم العمارة فى أعمال محمد على الباقية بمدينة القاهرة، ص١٥٠ – ١٥١. رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة ١٩٩٣ م.

١٦ رزق الله منقريوس، تاريخ دول الإسلام، ج٢، ص ٢٢٣. مصر ١٩٠٧م.

١٧ أحمد فهيم بيومي، حرب كريت والمورة، ص ٢١١: ٢٨٠. بحث ضمن كتاب إبراهيم باشا، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية ١٩٤٨ م.

١٨ مصطفى بركات (دكتور)، الألقاب والوظائف، ص ٢٠٧ – ٢٠٨.

١٩ إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار فى تاريخ دول البحار، ج٢، ص ٢٤٠ – ٢٤١. بولاق ١٣١٢ هـ؛ مصطفى بركات (دكتور)، الألقاب والوظائف، ص ٢٠٧ — ٢٠٨.

٢٠ كانت هذه القلعة تعرف بطريق الخطأ باسم قلعة نابليون بونابرت أو قلعة الجبل إلى أن قام محمد عبد الجواد الأصمعي بإعادة نسبتها إلى محمد علي وذلك بعد أن قام بدراستها دراسة وافية سنة ١٩١٩ م. وقد قام بنشر دراسته في كتاب. محمد عبد الجواد الأصمعي، قلعة محمد علي لا قلعة نابليون، دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م.

٢١ المصرى، التاريخ العينى، ص ٢٤٩.

٢٢ عن تطور المدفعية وأساليب القتال انظر، جورج كاستلان، تاريخ الجيوش، ص ٨٨ وما بعدها، ترجمة كمال دسوقي، الألف كتاب (٧٤) ١٩٥٦ م.

٢٣ عزل عمر مكرم نقيب الأشراف فى مصر وعلماء الأزهر الوالى العثمانى أحمد باشا لمظالمه وولوا مكانه محمد علي. وحاصر محمد علي وجنده والمصريون القلعة إلى أن أجبروا الوالى على النزول منها ومغادرة مصر. انظر: الجبرتى، عجائب الآثار، ج٣، ص ٤٨٠: ٤٨٣.

٢٤ هو خليل بن أحمد الرجبى الشافعى، لم تحدد المصادر التاريخية تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته، غير أنه عاش فى القرن التاسع عشر، كان مدرسا للتوحيد فى الجامع الأزهر، ولذا طلب منه الشيخ العروسى شيخ الجامع الأزهر تأليف كتاب عن محمد علي وأعماله فى مصر وكان العروسى من مؤيدى سياسات محمد علي. حول حياة الرجبي، انظر: مقدمة تحقيق كتابه، ص ١٦: ١٩؛ الرجبى، خليل بن أحمد، تاريخ الوزير محمد علي، تحقيق دانيال كريسيليوس (دكتور)، حمزة بدر (دكتور)، حسام إسماعيل (دكتور)، دار الآفاق العربية ١٩٩٧ م.

٢٥ الرجبى، تاريخ الوزير محمد علي، ص ١٨٤ – ١٨٥.

٢٦ الرجبى، تاريخ الوزير محمد علي، ص ١٨٤.

٢٧ هدمت أجزاء عديدة من هذه الزلاقة نتيجة لمشاريع التوسع العمرانى للعاصمة المصرية، فقد أدى إنشاء خط سكك حديد مهمات المحاجر القديمة وكذلك شق طريق صلاح سالم من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥٥م بمحاذاة قلعة الجبل، ثم طريق أوتوستراد مصر الجديدة حلوان سنة ١٩٦٤م بمحاذاة خط سكك حديد المحاجر إلى جوار جبل المقطم. أدت هذه المشاريع إلى هدم أجزاء من الزلاقة حتى وصل طولها الآن ١٥٦م. انظر: فتحى الحديدى، دراسات فى مدينة القاهرة منطقتى الجمالية ومنشأة ناصر، ص١٦٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢.

٢٨ فتحى الحديدى، دراسات فى مدينة القاهرة، ص ٥٧ – ٥٨.

٢٩ A. M. Mantell , Dictionary of military technical terms , part 1 , p 14. Cairo National Prainting 1886، أمل محفوظ جمعة، الاستحكامات الحربية فى عصر محمد علي بمدينة القاهرة، ص ٣٢٩. رسالة ماجستير، كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٩٩م.

٣٠ صالح مجدى، المطالب المنيفة فى الاستحكامات الضخفيفة، ص ٧١. القاهرة ١٨٦٢ م. محمود فهمى، البذور السافرات فى فن الاستحكامات، ص ٤١. القاهرة ١٨٦٧.

٣١ الرجبى، تاريخ الوزير محمد علي، ص ١٨٥.

٣٢ حول هذه القلعة انظر: الجبرتى، عجائب الآثار، ج٤، ص٩٩، ١٠٤، ١٠٨؛ الرجبى، خليل بن أحمد، تاريخ الوزير محمد علي، ص ١٨٤–١٨٥؛ عبد الرحمن زكي (دكتور)، الحصون والقلاع، ص ٩٠: ٩٥، مجلة العمارة، العدد (٣، ٤)، ١٩٤١؛ حسن عبد الوهاب، جامع السلطان حسن وما حوله، ص ١١٢–١١٣؛ أسس التخطيط الحضرى والعمرانى لمدينة القاهرة، ص ٤٠٣. منظمة العواصم والمدن الإسلامية، ١٩٩٠ م؛ أمل محفوظ، الاستحكامات الحربية فى عصر محمد علي، ص ١٤: ٦١.

٣٣ الرجبى، تاريخ الوزير محمد علي، ص ١٨٤.

٣٤ حسن عبد الوهاب، جامع السلطان حسن، ص ٧٦؛ عبد الرحمن زكى (دكتور)، قلعة مصر، ص ٩٣.

٣٥ هو الفنان عبد الغفار بيضاوى، وهو خطاط إيراني، قدم إلى مصر فى عهد محمد علي وعمل فى خدمة الحكومة فى الفترة من ١٨٢٤ / ١٨٢٥ م إلى ١٨٦٢ وهو تاريخ إحالته على المعاش. وكان يعهد إليه بكتابة نصوص النياشين وتذهيبها. وشارك فى كتابة نصوص مسجد محمد علي. محمد عبد الحفيظ، دور الجاليات الأجنبية والعربية فى الحياة الفنية فى مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ص ٢٩٦، رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة ٢٠٠٠ م .

٣٦ كريزويل، وصف قلعة الجبل، ص ٨٩ – ٩٠، ٩٣.

٣٧ الزغرة عرفها كازانوفا بأنها مأخوذة من الزغار وهو كلب الصيد وكان فى الانكشارية ضباط لرعاية كلاب الصيد وكان كبيرهم يعرف بزغارجى باشي. كازانوفا، وصف قلعة الجبل، ص ١٩٨.

٣٨ الجبرتى، عجائب الآثار، ج٤، ص ١٨٠.

٣٩ على مبارك، الخطط التوفيقية، ج١٢، ص٨٥؛ عبد الحميد نافع، ذيل المقريزى، ص ٤٧، ٤٨. مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر، رقم ٦٧٠٢؛ عبد الرحمن زكى (دكتور)، قلعة مصر، ص ٨٠ – ٨١، ١١٤.

٤٠ حسن عبد الوهاب، دار الضرب، ص ٥١. مجلة العمارة، العدد ٣ – ٤ المجلد ٣، القاهرة ١٩٤١.

٤١ الجبرتى، عجائب الآثار، ج٤، ص ٣٠٩.

٤٢ أمين سامى، تقويم النيل، ج٢، ص ٦١٨.

٤٣ حسن عبد الوهاب، قصر الجوهرة، ص٢٨، مجلة العمارة العدد (٣–٤). المجلد الثالث ١٩٤١ م.

٤٤ حسن عبد الوهاب، قصر الجوهرة، ص ٣٠.

٤٥ الجبرتى، عجائب الآثار، ج٤، ص ٣٠٩.

٤٦ حسن عبد الوهاب، سراى الجوهرة، ص ٣٠، مجلة العمارة، العدد (٣– ٤)، ١٩٤١ م.

٤٧ مختار الكسبانى (دكتور) تطور نظم العمارة فى أعمال محمد علي الباقية بمدينة القاهرة، ص٢٤٦: ٢٤٨. رسالة دكتوراه. كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٩٢.

٤٨ انظر الوصف التفصيلى لهذه السراى في: مختار الكسبانى، تطور نظم العمارة فى أعمال محمد علي، ص ١٠٨: ١٤٥.

٤٩ مختار الكسبانى (دكتور)، تطور نظم العمارة فى أعمال محمد علي، ص ٢٤٨ – ٢٤٩.

٥٠ محمد حسام الدين إسماعيل، مدينة القاهرة من ولاية محمد على إلى إسماعيل، ص ٧٦ – ٧٧، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٩٩ م.

٥١ احترقت منشآت الباحة التى كانت تشكل جزءا من السلاملك عام ١٩٧٤، ناصر الرباط (دكتور)، تاريخ قلعة القاهرة، ص ٢٩.

٥٢عبد الرحمن زكى (دكتور)، قلعة مصر، ص ٨٢ .

٥٣ ديوان الأشغال عربى، م/١/١، صادر قلم الهندسة، ص ١٠، صفر ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م.

٥٤ ديوان الأشغال عربى، م/١ / ١، صادر قلم الهندسة، ص ٦٥، صفر ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م.

٥٥ إلياس الأيوبي، تاريخ مصر فى عهد الخديو إسماعيل باشا، ج١، ص ٤٠: ٤٣، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٨ م.

٥٦ الجبرتي، عجائب الآثار، ج٤، ص ١٢٨.

٥٧ الجبرتي، عجائب الآثار، ج٤، ص ١٥١.

٥٨ عبد الحميد نافع، ذيل المقريزى، ص ٥٢ – ٥٣.

٥٩ حسن عبد الوهاب، سراى الجوهرة، ص ٣٤ – ٣٥؛ مختار الكسباني (دكتور)، تطور نظم العمارة فى أعمال محمد علي، ص ١٤٩ – ١٥٠.

٦٠ انظر الوصف التفصيلى لهذه القصور في: مختار الكسباني، تطور نظم العمارة فى أعمال محمد علي، ص ١٤٦: ٢٠٤.

٦١ ناصر الرباط (دكتور)، تاريخ قلعة القاهرة، ص ٣١.

٦٢ الجبرتي، عجائب الآثار، ج٤، ص ٣٥٥.

٦٣ عبد الرحمن الرافعى، عصر محمد على، ص ٤٠٠، مكتبة نهضة مصر ١٩٥١؛ محمود الألفى (دكتور) العمارة فى مصر فى القرن التاسع عشر، ٢١٤، رسالة دكتوراه، كلية الهندسة جامعة القاهرة١٩٨٦ م.

٦٤ أمل محفوظ، الاستحكامات الحربية فى عصر محمد، ص ١٣٨ – ١٣٩.

٦٥ عبد الحميد نافع، ذيل المقريزى، ص ٤٤.

٦٦ انظر الوصف التفصيلى والتحليل المعمارى لهذا المبنى في: محمود الألفي، العمارة فى مصر خلال القرن التاسع عشر، ص ٣١٣: ٣٥٤.

٦٧ الوقائع المصرية، مجلد ١/٥ حوادث ١٢٢٤ هـ، دار الكتب المصرية.

٦٨ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ص ٣٨٦. القاهرة ١٩.

٦٩ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ص ٣٨٧.

٧٠ قام بنشر هذا النص وترجمته الدكتور مصطفى بركات فى رسالته للدكتوراه لأول مرة: انظر مصطفى بركات (دكتور)، النقوش الكتابية، ص٢٢: ٢٤.

٧١ لم يتجاوز عدد النقوش التركية فى مصر خلال العصر العثمانى أصابع اليد، ولكن فى عصر محمد على تجاوز عددها ثلث عدد النقوش، مصطفى بركات (دكتور)، النقوش الكتابية، ص ٢٤٨.

٧٢ مصطفى بركات (دكتور)، النقوش الكتابية، ص ٢٤٨.

٧٣مصطفى بركات (دكتور)، النقوش الكتابية، ص ٢٥٠.

٧٤ كان باشاوات مصر لقصر مدة حكمهم يغادرون مصر حال انتهاء هذه الفترة، وعندما يموت أحدهم يدفن فى مدافن الباشاوات بالإمام الشافعى والتى استخدمت كمدفن لأسرة محمد على إلى حين تأسيس جامع الرفاعى ليكون مدفنا للأسرة المالكة فى مصر على يد خوشيار هانم والدة الخديو إسماعيل. انظر: المصرى، التاريخ العينى، ص ١١١: ١٢١؛ حسام إسماعيل (دكتور)، مدينة القاهرة، ص ٧٩ – ٨٠.

٧٥ نشرت هذه الدراسات فى باريس عام ١٨٣٦ pascal coast, la architacture arabe ou monuments cairre. Pairs؛ ناصر الرباط (دكتور)، قلعة الجبل، ص ٢٦، ٢٨؛ حسام إسماعيل (دكتور)، مدينة القاهرة، ص ٨٠.

٧٦ ناصر الرباط (دكتور)، جامع محمد على الكبير فى قلعة القاهرة، دراسة تحت النشر.

٧٧ ناصر الرباط (دكتور)، جامع محمد على الكبير فى قلعة القاهرة.

٧٨ ناصر الرباط (دكتور)، جامع محمد على الكبير فى قلعة القاهرة.

٧٩ ناصر الرباط (دكتور)، جامع محمد على الكبير فى قلعة القاهرة.

٨٠ ورد هذا اللقب بطغراء محمد على بمعسكر القصر العينى بتاريخ ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣م. مصطفى بركات (دكتور)، النقوش الكتابية، ص ٢٩٩.

٨١ ورد هذا اللقب بنص، عزيز مصر القاهرة، وذلك بجامع البنات بالقاهرة بتاريخ١٢٦٨هـ/ ١٨٥١م. مصطفى بركات (دكتور)، النقوش الكتابية، ص ٣١٣.

٨٢ عبد الرحمن الرافعى، عصر محمد على، ص ٥٩٩ – ٦٠٠؛ عمر طوسون، الصنائع والمدارس الحربية، ص ٢١، ٣٤، ٣٥. الإسكندرية ١٩٣٥؛ عبد الرحمن زكى (دكتور) قلعة مصر، ص ١١١؛ أحمد أحمد الحتة (دكتور)، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر، ص ١٥٨. مطبعة المصرى ١٩٦٧ م؛ حسام إسماعيل، مدينة القاهرة، ص٩٧.

٨٣ قام بنشر هذا النص لأول مرة الدكتور عبد الرحمن زكى فى كتابه قلعة مصر حيث نشر النص التركى وترجمته إلى العربية ص ١١١.

٨٤ تاريخ النص بحساب الجمل ١٢٣٦هـ وهو يعادل ١٨٢٠م. عبد الرحمن زكى (دكتور) قلعة مصر، ص ١١١.

٨٥ القشلة: كلمة تركية من كلمة قيش بمعنى الشتاء والقشلة هى المعسكر الشتوى. وكان محمد على أمر ببناء القشلات فى ريف مصر، لسكن الجنود لتضررهم من الإقامة الطويلة فى الخيام. أحمد السعيد سليمان (دكتور)، تأصيل الدخيل، ص ١٦٩.

٨٦ ثناء عميرة، تحديث مدينة القاهرة، ص ٢٠٨. رسالة دكتوراه، كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر ١٩٩٥ م.

٨٧ أمين سامي، تقويم النيل، المجلد ٢، ص٤٤٤.

٨٨ ديوان الأشغال، سجل ١٩، وارد ٢٠٨، ٢٠٩، ص١٤، ٢٩ ذى الحجة ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٢ م.

٨٩ عبد الرحمن زكى (دكتور)، قلعة مصر، ص ٩٢.

٩٠ بلغت تكاليف ترميم هذين السورين ١٠٢٥٠ قرشا و٢٠ فضة. سجلات المعية السنية: سجل ١ / ١ / ٢٢، صادر الأوامر، أمر كريم، رقم ٢٤، الصادر فى ٢٤ ذى القعدة ١٢٧٩ هـ / ١٣ مايو ١٨٦٣ م، ص ٤٧.

٩١ كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ص ٢٠٠.

٩٢ محافظ المجلس الخصوصى م١٤، قرارات، صورة قرار رقم ٣، فى ٢٦ جماد أول ١٢٨٥ هـ / ٤سبتمبر ١٨٦٨م .

٩٣ الوقائع المصرية، ص١، عدد ٢٤٤ الصادر فى ١٣ رجب ١٢٨٥ هـ / ٢٩ أكتوبر ١٨٦٨ م .

٩٤ ليناب دى بلفون، مذكرات عن أعمال المنافع العامة الكبرى التى تمت فى مصر منذ أقدم العصور حتى عام ١٨٧٢ م. ص٣٨٤. القاهرة ١٩٤٩ م.

٩٥ على باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج٢، ص ٩٦ – ٩٧؛ حسام إسماعيل (دكتور)، مدينة القاهرة، ص ٢٨٥؛ ثناء عميرة، تحديث مدينة القاهرة، ص ٢٠٨.

الفصل الخامس

التحول السياسى واتخاذ القصور كمقار للحكم

كان التحول الذى حدث فى مقر الحكم فى مصر فى القرن التاسع عشر استجابة طبيعية ومتوقعة للتغير الذى حدث فى نمط الحكم، إلا أن هذا التحول، وهو الانتقال من نمط القلعة الذى ساد فى العصور الوسطى إلى القصر لم يحدث دفعة واحدة، بل كانت له دلالات كثيرة سبقت هذا الحدث وهذا التغيير.

لقد بدأ مقر الحكم فى المدينة المنورة فى عصر الرسول بسيطا إذ انحصر فى مسجده وداره، وصار الأمر على هذا المنوال فى عهد الخلفاء الراشدين، وصارت الدار تعرف بدار الإمارة ورويدا رويدا صار لها محل ثابت لا يتغير بتغير الحاكم، غير أن اتساع رقعة الدولة وحوادث اغتيال الخلفاء والملوك والنزاعات السياسية داخل الدولة، جعل من المهم أن يتم تأمين مقر إقامة الحاكم، فأحيط بالأسوار وضم مسجدا جامعا ودواوين الدولة. وهذا هو سبب نشأة نموذج المدينة الحصن كمقر للحكم، وأبرز أمثلته بغداد والقاهرة. غير أن هذا النموذج سرعان ما فشل نتيجة لقابليته للتحول إلى نمط المدينة الطبيعية بمرور الوقت لأسباب عديدة على رأسها ضعف الدولة، أو تغير نظام الحكم، واتجه بعد ذلك إلى نموذج القلعة المنعزلة على تبة جبلية، وهو نموذج انتشر فى معظم مدن العالم الإسلامي، وأبرز أمثلته فى القاهرة وحلب.

ظل هذا النموذج له دوره فى القاهرة، غير أن سقوط دولة المماليك، كان بداية لمؤشر ضعف هيمنة القلعة على السلطة فى مصر. فعندما دخل السلطان سليم القاهرة تعددت أماكن إقامته بها وذلك لاضطراب الأوضاع. وعدم استقرار الأمر بها وعدم استقرار الأمر له فى بادئ الأمر. ثم لرغبته فى عدم إكساب القلعة أهمية سياسية وهى رمز لقوة وعظمة دولة المماليك.

أقام سليم فى أول الأمر فى بركة الحاج ثم انتقل إلى الريدانية، ثم نقل خيمته إلى بولاق، وهناك حملت إليه مفاتيح قلعة الجبل ليصعد إليها فلم يلتفت إلى ذلك، واختار الإقامة على شاطئ النيل[1]، وقد يعود ذلك إلى سببين ذكرنا أولهما سابقا، وثانيهما أن قصره أو مقر حكمه بإستانبول على شاطئ البوسفور، فأراد مكانا شبيها به.

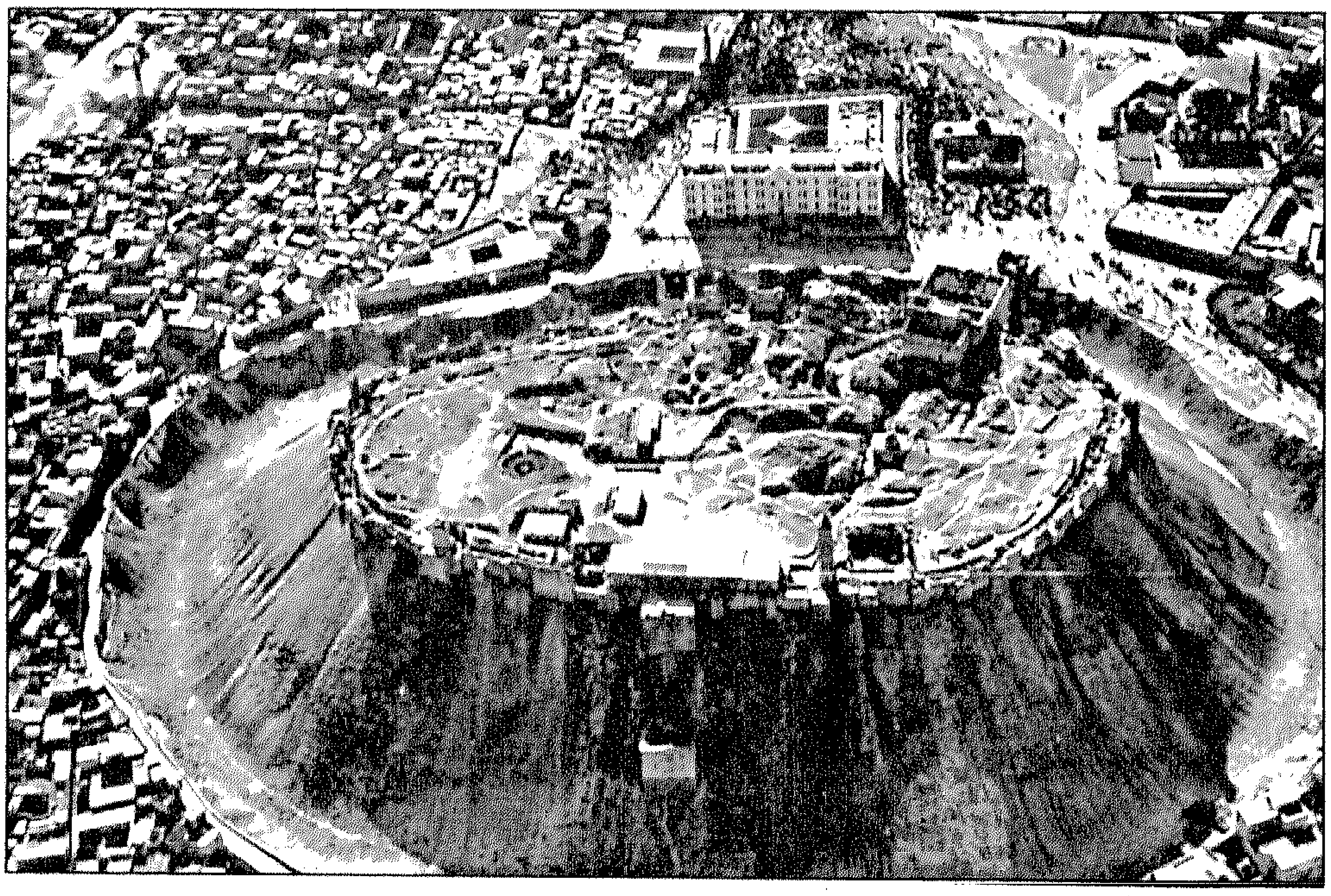

قلعة حلب

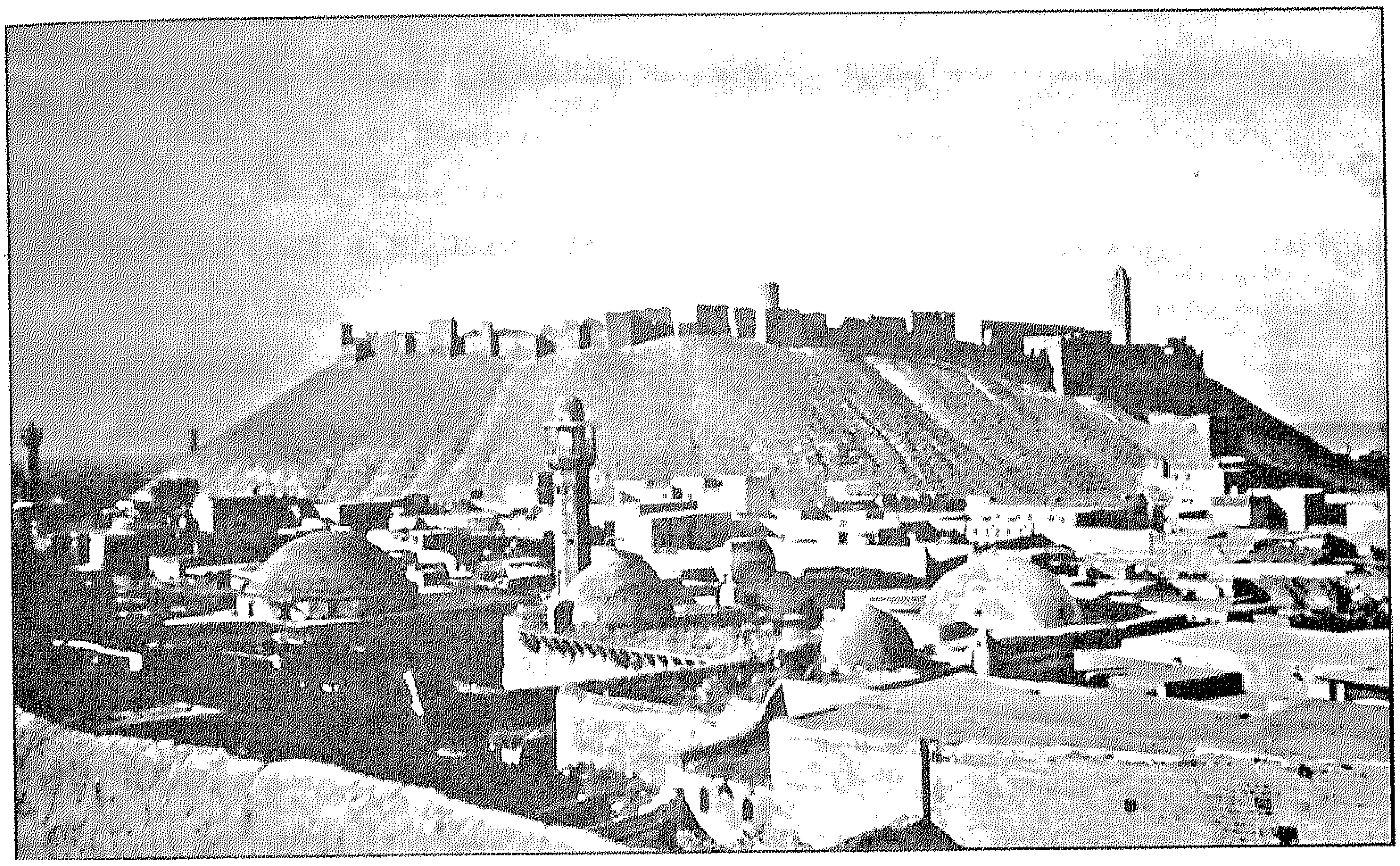
قلعة حلب

وفى ٢٠ محرم سنة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧م صعد السلطان سليم إلى القلعة[٢]. وسرعان ما نزل منها فى ٢٠ من صفر حيث أقام ببركة الحبش[٣]، ومنها رحل إلى الجيزة[٤]. ومنها أقام السلطان سليم فى قصر شيده الغورى بجوار مقياس الروضة[٥]. وهناك شيد فوق القصر كشكا من الخشب ليجلس فيه، وكان هذا الكشك أول منشأة عثمانية فى مصر[٦]، ثم انتقل إلى دار السلطان قايتباى على بركة الفيل[٧]، هكذا تنقل سليم بين العديد من الأماكن فى مصر فى فترة إقامته فيها.

عندما ترك السلطان سليم مصر قسمت القلعة إلى ثلاثة نطاقات مستقلة عن بعضها، وهى نطاق الانكشارية ونطاق العزب والديوان. هذا ما ترك أثره السلبى على القلعة، وبقى بينها المنطقة السلطانية المملوكية مهملة بما تضمه من قصور ومنشآت.

لم تعد مصر مع نهاية القرن السابع عشر الميلادى منطلقًا للقوات العسكرية العثمانية لخوض معارك فى البحر الأحمر أو البحر المتوسط، بخاصة بعد استيلاء العثمانيين على كريت من البنادقة فى سنة ١٦٦٩م، وفشل

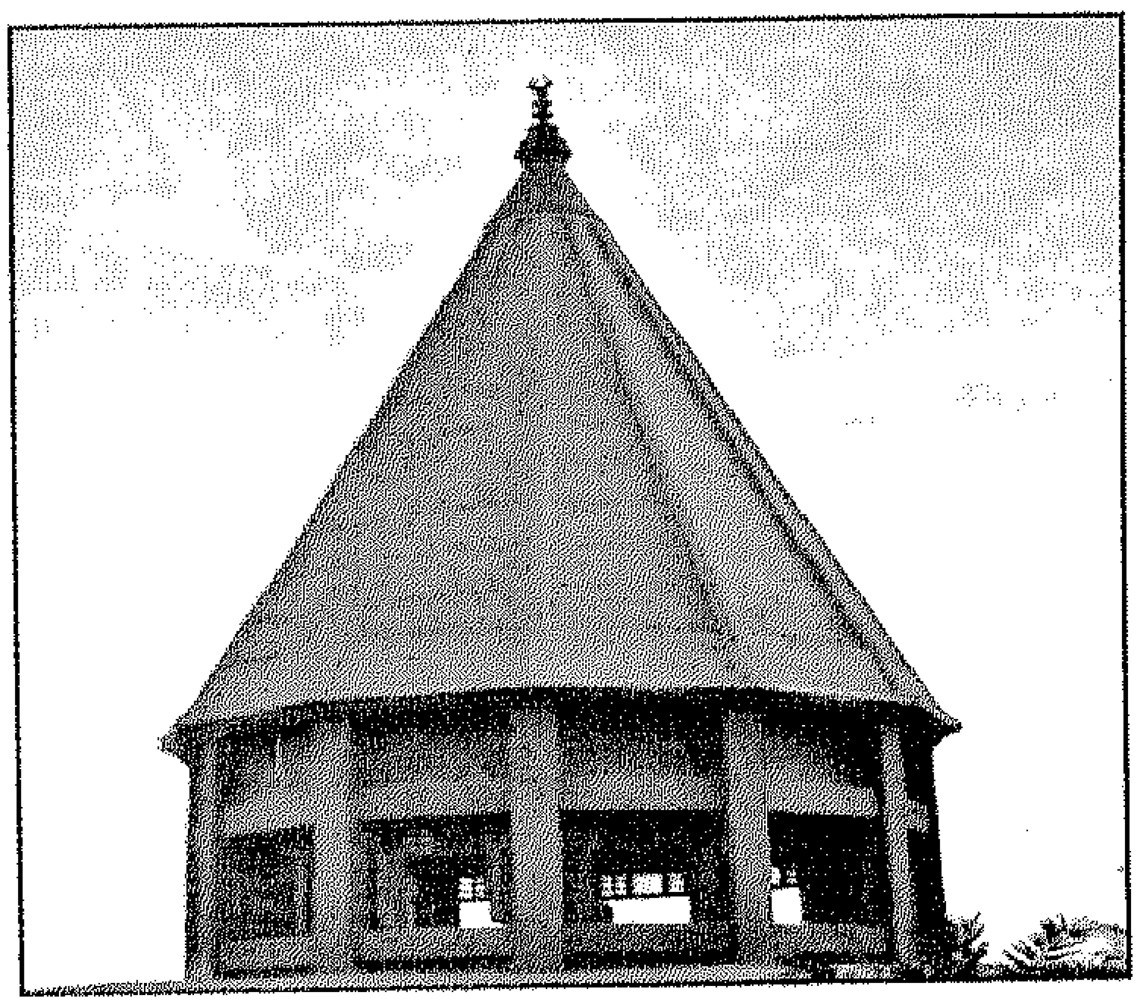
مقياس النيل

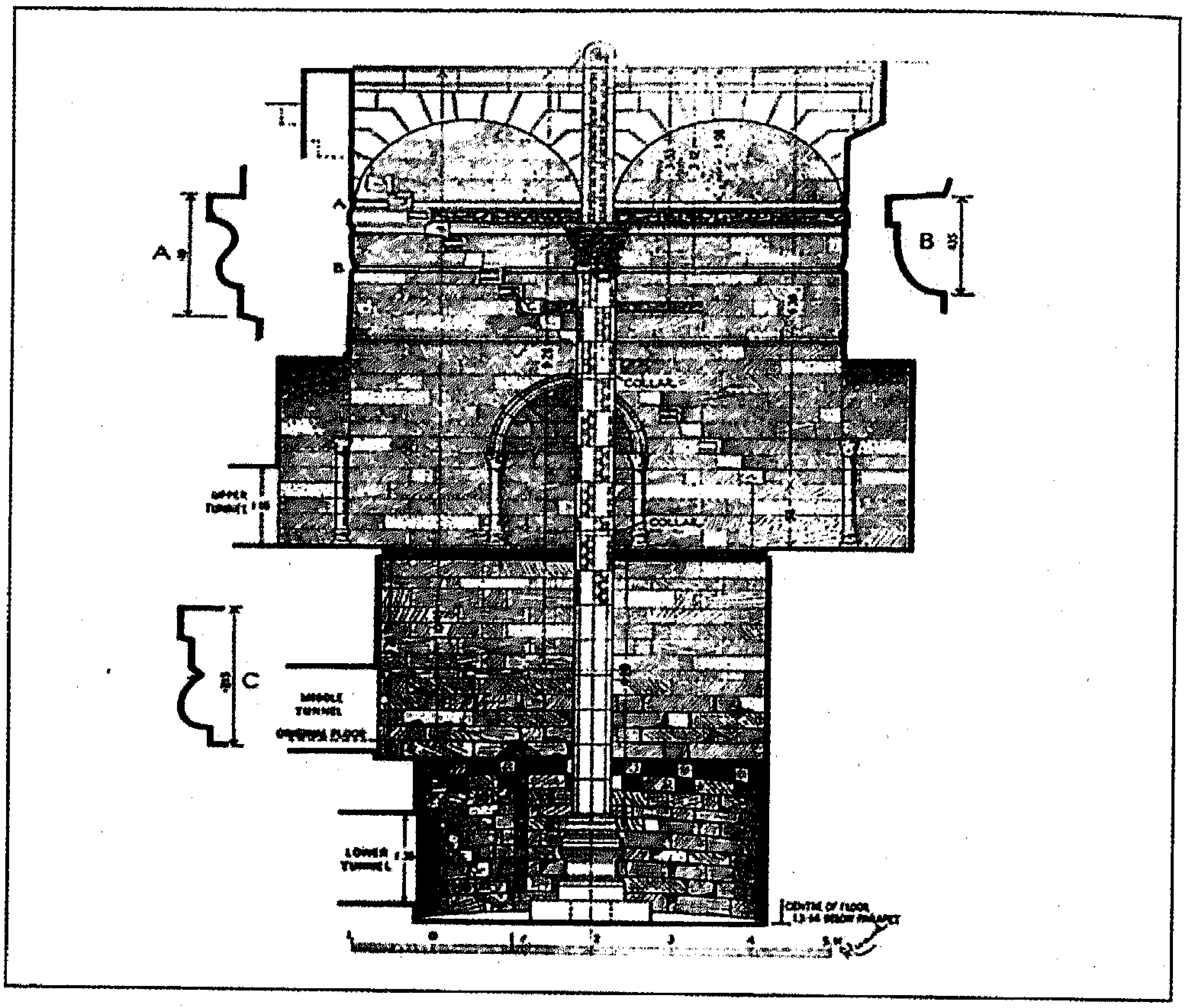

مقياس النيل - قطاع رأسي

الحصار العثمانى للقسطنطينية عام ١٦٨٣م، وإطاحة الزيديين بالحكم العثمانى فى اليمن ١٦٣٦م، ومع نهاية هذا القرن فصاعدًا أصبحت أهمية مصر مقتصرة على إرسال الإرسالية المالية والحبوب، وبدأ ازدياد نفوذ العسكريين المحليين وتحولت الحامية العسكرية إلى موظفين بيروقراطيين، همهم جباة الأموال[8].

أدى تفتت السلطة العثمانية إلى نمو نفوذ المماليك تدريجيا على حساب الباشا العثمانى الذى فقد سيطرته على الحكم فى البلاد، وسيطر الأمراء على تحصيل الضرائب والجمارك واستولوا عليها لحسابهم الخاص بدلا من خزينة الدولة، مما أدى إلى تضخم ثرواتهم الخاصة وازدياد نفوذهم السياسى ومع زيادة هذا النفوذ تطلب الأمر تطور مساكن الأمراء من حيث الفخامة التى عكست ثرواتهم، أو من حيث الوظائف التى تؤديها هذه المساكن. ولم يصلنا من هذه المساكن سوى أجزاء أبرزها منزل الرزاز بباب الوزير، ومنزل على كتخدا بالسيدة زينب، ولم تصلنا آثار لمساكن كبار الأمراء فى هذا العصر مثل الأمير عبد الرحمن كتخدا والأمير محمد أبو الدهب. وهناك مؤشرات فى الوثائق تدل عل الرفاهية والبذخ فى هذه القصور بخاصة فى قصور القرن الثامن عشر مقارنة بقصور القرن السابع عشر، فكان من العادة أن تشمل القصور قبل القرن الثامن عشر على منافع متنوعة كالإسطبلات والحواصل والمخازن لخزن الأطعمة والأشربة والأوانى النحاسية والخيم، ومثل الآبار التى

منزل الرزاز

توفر المياه لسكان البيت وتشمل مساكن للخدم. وأما فى القرن الثامن عشر فنجد زيادة عدد القصور التى بها حمام أو أكثر. والمعروف أن الحمام يحتوى على مساحة كبيرة تضم مستوقدًا وغرف الاستحمام. ووجوده فى أحد منازل هذه الفترة يعد علامة من علامات الثراء. فقد كانت معظم المنازل بالقاهرة لا تحتوى على حمام ولذا انتشرت الحمامات العامة فى المدينة. وأما بيوت الأمراء فى القرن الثامن عشر فقد احتوى الواحد منها على حمام أو حمامين، فقد ضم قصر الألفى حمامين[٩]. وأكدت الوثائق ذلك حتى إنها تشير إلى القصر الذى اشتراه الأمير مصطفى آغا الجراكسة سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٣م بأنه كان يضم خمسة حمامات[١٠]. ويوجد فى منزل الرزاز حمامان أحدهما فى الطابق السفلى بجوار القاعة السفلية الكبرى والآخر فى الطابق العلوى فى القسم الخاص بالحريم.

ينطبق الشيء نفسه على الطواحين التى ألحقت بالقصور، ومنها طاحون كان ملحقا بمنزل الرزاز، وعادة إلحاق الطواحين بالقصور والمنشآت السكنية عرفت فى العصر المملوكى البحري، فعلى سبيل المثال كان ملحقا بقصر ألين آق الحسامى طاحونة، فى حين كان سكان القاهرة يكتفون بالطحن فى المطاحن العامة التى كانت منتشرة فى المدينة نظير أجر[١١]. وأخذت ظاهرة الاكتفاء الذاتى داخل هذه المساكن والقصور شكلاً آخر بوجود المساجد بداخلها. ويروى لنا الجبرتى عن الشيخ محمد أبو الأنوار السادات شيخ الطريقة الساداتية الوفائية أنه قام ببناء مسجد داخل قصره بجوار بركة الفيل. وقد بقيت من منزله أجزاء صغيرة حاليا، وعندما سئل عن سبب ذلك أجاب أنه لا يريد الاختلاط مع العامة[١٢]. على الرغم من أنه بنى مسجدا لهم فى منطقة الأزهر.

يدل كل هذا على نوع من الانغلاق والاكتفاء الذاتى فيما يخص جميع متطلبات سكان هذه البيوت من مأكل ومشرب وأماكن عبادة بحيث إنه لا حاجة لديهم لاستعمال المرافق العامة فى العاصمة، ولكن ظاهرة الاكتفاء الذاتى

وانغلاق القصور على نفسها لا تنطبق إلا على جانب محدود من حياة الأمراء. وفى الوقت نفسه اكتسبت هذه القصور وظائف سياسية واجتماعية وثقافية جديدة وفتحت أبوابها لشرائح مختلفة من المجتمع.

إن اضمحلال سلطة الباشا وانتقال السلطة الحقيقية من الباشا المقيم فى القلعة إلى طبقة الأمراء والبكوات القاطنين فى القصور، قد أدى بطبيعة الحال إلى أن تصبح قصورهم مراكز لحكم البلاد. فمن بيوت الأمراء تنبع القرارات السياسية ويجتمع الأمير مع أتباعه لمناقشة أمور الحكم، ويسجل الجبرتى العديد من الحوادث التى اجتمع فيها الأمراء لمناقشة مواضيع سياسية فى منزل أحدهم، ويسمى هذه الاجتماعات بالجمعية، ومنها عدة اجتماعات فى منزل حسن آغا بلفية أخذ أثناءه قرارا بإبطال المقاصيص أى العملة النحاسية وضرب عملة فضية جديدة لتوزيعها على الصيارفة، واتفق الأمراء على سعر العملة، وكل ذلك من أمور الحكم التى وقعت على عاتق هؤلاء الأمراء[١٣]. وكان يتم بهذه المجالس تحديد المسئوليات والمشورة بخصوص أية مشكلة يواجهونها. وتتم هذه المجالس فى أفخم قاعات القصر أو البيت، وكثيرا ما كانت الاجتماعات تطول النهار بأكمله، ويستضيف الأمير من معه ليأكلوا ويشربواويناموا عنده. وكثيرا ما أدى ذلك إلى نزاعات عديدة بين الأمراء، وتتم هذه الصراعات بداخل بيوتهم التى يقع فيها أحيانا مشاهد عنف دموية[١٤].

قام الأمراء بدور سياسى تجاه المجتمع، فالتجأ الناس إليهم لأهداف متعددة ولحل مشاكلهم التى يصعب حلها دون سند من أحد أصحاب السلطة، ويذكر الدمرداشى أن الأمير إسماعيل بك عوض فتح بيته لجميع القاصدين للنظر فى شكواهم[١٥]. ويقول الجبرتى فى ترجمة الأمير رضوان كتخدا الجلفى "إن فى كل بيت من بيوت جميع الأعيان مطبخين أحدهما أسفل رجالى والثانى فى الحريم فيوضع فى بيوت الأعيان السماط فى وقتى العشاء والغذاء مستطيلا فى الخارج ويجلس فى صدره أمير المجلس، ولا يمنع فى وقت الطعام من يريد الدخول أصلا حتى إن بعض ذوى الحاجات عند الأمراء إذا حجبهم الخدم انتظروا وقت الطعام دخلوا فلا يمنعهم أحد فى ذلك الوقت فيدخل صاحب الحاجة ويأكل وينال غرضه من مخاطبة الأمير فيقضى له حاجته[١٦]. وأخذت هذه الظاهرة شكلا خاصا فى بيت عثمان بك ذو الفقار حيث إنه أقام محكمة فى بيته كان يرأسها شخصيا ويستقبل فيها الأفراد من نساء ورجال. ولقد حظى باحترام الجميع لدرجة أن قراراته كانت نافذة لدى الجميع[١٧]. ومثل هذا التخصيص لجزء من المنزل يتطلب فصلا كاملا لحركة الضيوف عن مناطق حركة أهل المنزل.

تقدم حجج الوقف التى تصف هذه القصور الدليل على تعدد الأنشطة بها، ويتضح ذلك من خلال المصطلحات المستعملة فى وصف أجزاء القصر فقد أظهرت أنواعا جديدة من الحجرات والقاعات نتيجة لتزايد الدور السياسى لقصور ومنازل أمراء المماليك فى القرن الثامن عشر. ففى وصف البيوت فى القرن السابع عشر كانت قاعات الاستقبال تقتصر على قاعات الاستقبال والمقعد ونادرا على المنظرة[١٨]. أما فى القرن الثامن عشر فقد زادت غرف الاستقبال التى تختلف فى استعمالها طبقا لنوعيتها من حيث الفخامة أو الموقع فقد كان هناك عدة أنواع من الوحدات المعمارية يطلق على كل منها الديوان فهناك البرانى ويقع بابه بالقرب من الباب الرئيسى لسهولة الوصول إليه. ويتمثل فى المقعد الديوانى ووصفت وثيقة وقف رضوان بك أحد هذه المقاعد بمكة المكرمة حيث تذكر "وعلى اليمين درج يصعد من عليه إلى الديوان الكبير وهو مقعد به خزانة"[١٩]. وذكرت الوثيقة وجود مقعد ديوانى فى منزل رضوان بك فى القاهرة[٢٠]. والمقعد الديوانى لا يختلف فى تصميمه عن المقعد التركي[٢١]. إلا فى عناصر قليلة جاءت هنا بشكل إضافات بسيطة تتناسب مع طبيعة الاستخدام والوظيفة. فهو مقعد يقوم بين مستوى الدور الأرضى والأول، واجهته تقوم على ثلاثة أعمدة، فيرد فى احدى الوثائق "مقعد ديوانى ذو أعمدة ثلاث بقناطر مركبة على الأعمدة المذكورة"[٢٢]. أو تكون مكونة من ثلاثة عقود تقوم على عمودين، فيرد فى إحدى الوثائق "مقعد

ديوانى يشتمل على مجاز وإيوان به عمودان من الرخام الأبيض معقود عليها بوائك بالحجر الأحمر"[٢٣]. وقد تكون الواجهة عبارة عن بائكة ذات عقدين يستندان فى الوسط على عامود [٢٤]. وقد كان يتوصل للمقعد عبر مدخل خاص تتقدمه بسطة وعدة درجات توصل إليها، وقد عنى بهذه المقاعد من الداخل فزودت بعدد من الكتبيات والخزائن الجدارية، ويظهر بها عدم التركيز على الملحقات التى عنى بها فى المقعد التركى مثل المبيتات المتعددة والخزائن النومية، رغم أنه ألحق بها أحيانا عنصر المبيت. ويلحق بها أحيانا ممرات أغان[٢٥]. أما الديوان الجوانى فهو قاعة ضخمة مزخرفة بالرخام الملون وبالأسقف العالية المسقوفة بالأخشاب النقية المدهونة وقد يوجد بها فسقية. وتعتبر القاعة التى يعقد بها الأمير مجلسه مع أتباعه عند التشاور فى أمور الحكم. وهناك غرف بالدور الأرضى تطل على الحوش مزخرفة بالرخام الملون، وقد تكون أصغر حجما من الديوان يطلق عليها المنظرة. وقد انتشرت فى بيوت الأمراء فى ذلك العصر. ويوجد بالقصر أيضا قاعة متوسطة الفخامة واجهتها مفتوحة على الحوش يطلق عليها اسم التختبوش. وهذا التطور تم فى جزء القصر المخصص للاستقبال[٢٦]. ولعل أبرز الأمثلة الباقية التى يمكن أن نطبق عليها ما سبق ذكره، هى منزل الرزاز[٢٧] الذى نستطيع أن نميز فيه الديوان البرانى متمثلا فى المقعد، والديوان الجوانى والتختبوش. ولكننا لا نرى بقايا المنظرة، وربما يعود هذا لاندثارها مع ما اندثر من أجزاء المنزل. وقدم لنا باسكال كوست لوحتين لقصر مراد بك أحد أبرز زعماء المماليك فى نهاية القرن ١٨م، وكان يقع على بركة الأزبكية ويتميز هذا القصر بالفخامة والضخامة، وهناك ملاحظتان أساسيتان على هاتين اللوحتين، أولاهما احتواؤهما على مسجد ليؤكد ذلك رغبة منشئه فى العزلة عن المجتمع المحيط به، فضلا عن الرهبة التى توحى بها عمارة هذا القصر، والتى تنم عن طبيعته كثكنة عسكرية يتركز بها أتباع ومماليك مراد بك، وهذا ما تظهره اللوحة الثانية إذ نرى بها عددا ضخما من المماليك فى حوش القصر، وشرفة تطل على الحوش، ربما أنشئت لكى يراقب منها مراد بك حركة مماليكه. ومن المؤكد أنه ألحق بالقصر حجرات لإقامة مماليك مراد بك. ومن اللافت للنظر أيضا أن قصر مراد بك شيد بالأزبكية، وهو ما يجعلنا نتوقف قليلا عند هذا الحي، الذى نشأ فى العصر المملوكي، وصار له دور محورى فى إدارة حكم مصر فى العصر العثماني، وأصبح مركز السلطة فى

منزل مراد بك بالأزبكية ونظهر به مئذنة المسجد الملحق – بسكال كوست

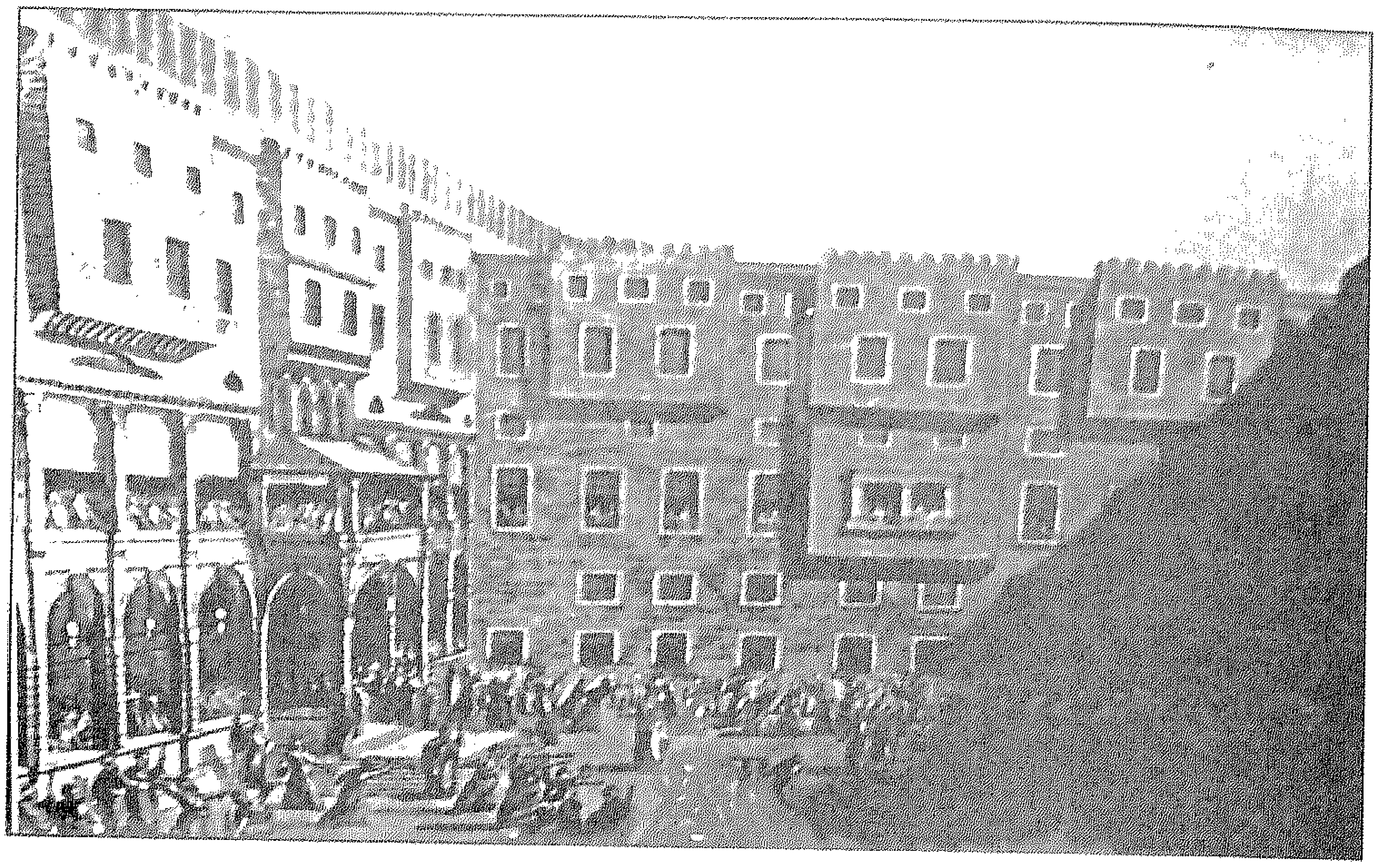

تدريبات المماليك فى منزل مراد بك – باسكال كوست

عهد الحملة الفرنسية، وأحد مراكز السلطة فى عهد محمد على.

الأزبكية

كانت الأزبكية من المناطق السكنية المهمشة بالقرب من القاهرة، وكان مولد هذه الضاحية سياسيا وعمرانيا على يد الأمير أزبك من ططخ[٢٨]، وإليه نسبت. كان عصر أزبك عصر الأمراء الأقوياء الذين يطمح كل منهم فى أن يكون سلطانا، وبهذا ملك كل منهم قدرات اقتصادية كبيرة.

سجل لنا ابن إياس ما قام به أزبك من عمارة لهذه المنطقة فهو يقول "إنه حسن ببال أزبك أن يعمر مناخا لجماله فى تلك البقعة وكان ساكنا بالقرب منها فلما عمر المناخ حلاله هناك العمارة فبنى القاعات الجليلة ثم الدوار والمقعد والمبيتات والحواصل وغير ذلك، ثم إنه أحضر أبقارا ومحاريث وجرف الكيمان التى كانت هناك ثم حفر بها هذه البركة الموجودة الآن"[٢٩] ويضيف ابن إياس أن الناس شرعت فى عمارة القصور والدور حول بركة الأزبكية. وصارت مدينة متكاملة، مما جعل أزبك ينشئ بها جامعا. شيد حوله الربوع والحمامات والقياسر والطواحين والأفران وغير ذلك من المنافع، أى أننا أمام مشروع عمرانى لإنشاء ضاحية لمدينة القاهرة متكاملة المرافق. ولما كملت عمارة الأزبكية ودخل الماء إلى بركتها أنعم السلطان قايتباى على الأتابكى أزبك بأرضها وكتب بذلك ربعة شريفة[٣٠]. وتدلنا وثيقة وقف الأمير أزبك على طبيعة الحركة العمرانية التى قام بها فى هذه المنطقة، فبالإضافة إلى الدوار الذى كان يشتمل على ثلاثة قصور سكنية للأمير أزبك، شيد مسجدا جامعا لأداء الصلوات وقيسارية[٣١] تعد سوقا صغيرا يوفر متطلبات هذه الضاحية الجديدة، فضلا عن الحمامات والأسبلة وأحواض سقى الدواب[٣٢].

تعرضت مجموعة الأمير أزبك المعمارية للاضطرابات التى سادت القاهرة فى العصر المملوكى الجركسي. فعندما كسر السلطان قنصوة خمسمائة صهر الأمير أزبك – الذى كان يقيم فى مكة حينئذ – هجم المماليك الجلبان على طبلخانة الأمير أزبك وباب داره وربوع الأزبكية ونهبوا قناديل جامعه وحواصله ودور سكان الأزبكية[٣٣]. بعد

وفاة أزبك مؤسس الأزبكية قل الاهتمام بعمارتها، بل إن منشآتها تعرضت للنهب والتخريب أيام السلطان الغوري[٣٤]. وتعرضت للدمار أكثر أثناء الغزو العثمانى لمصر[٣٥].

بدأ الاهتمام يعود للأزبكية بشكل واضح فى القرن ١١هـ/١٧م فقد بدأت بعض الأسر الثرية من الشيوخ والتجار فى البناء حول البركة وتبعهم كبار الأمراء[٣٦]. وكان أكبر عمران شهدته فى القرن الثامن عشر إذ شيدت بها بيوت للأمراء من أصحاب الوظائف الكبرى فى الدولة، وكذلك كبار التجار. كانت الأزبكية موضع عناية الولاة فى العصر العثمانى فكانوا يحرصون دائما على تعميرها، فعلى سبيل المثال وقع حريق فى سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م. فى حى الساكت على البركة كان سببا فى تلف كثير من الدور الكبيرة، غير أن ولاة الأمور وقتئذ حسموا سرعة تعميرها لدرجة أنهم ألزموا غير القادرين على التعمير ببيع ما يملكون لمن يستطيع التعمير، وهكذا تم تعميرها فى أقرب وقت فلم يحل ميعاد الفيضان الثانى حتى كانت الأزبكية أبهج وأحسن مما كانت علية[٣٧]. هناك العديد من العوامل التى جعلت الأزبكية تكتسب أهمية فى إدارة دفة الأمور فى مصر لعل أبرزها:

عوامل سلبية

أدى عدد من العوامل إلى توجه حركة العمران خارج مدينة القاهرة، ولعل أبرز هذه العوامل، ضيق المساحات وتطور الفعاليات الاقتصادية داخل المدينة بشكل يصعب إنشاء مساكن واسعة، ويعود ذلك إلى اكتظاظ القاهرة بالمنشآت السلطانية المملوكية من مساجد ومدارس وخانقاوات، وكذلك سابقتها الفاطمية والأيوبية، فضلا عن الاتجاه المتزايد فى العصر العثمانى نحو إقامة المزيد من المنشآت التجارية بالمدينة، فقد أمكن تحديد ٣٦٠ وكالة فى العصر العثمانى بالقاهرة مقابل ٥٨ وكالة فى العصر المملوكى ذكرها المقريزي[٣٨]، فضلا عن مشكلة الأمن فالسكن فى مدينة مكتظة له عواقب وخيمة فى حالة حدوث اضطرابات، وهو ما عزز فكرة السكن فى ضاحية مجاورة للمدينة القديمة[٣٩].

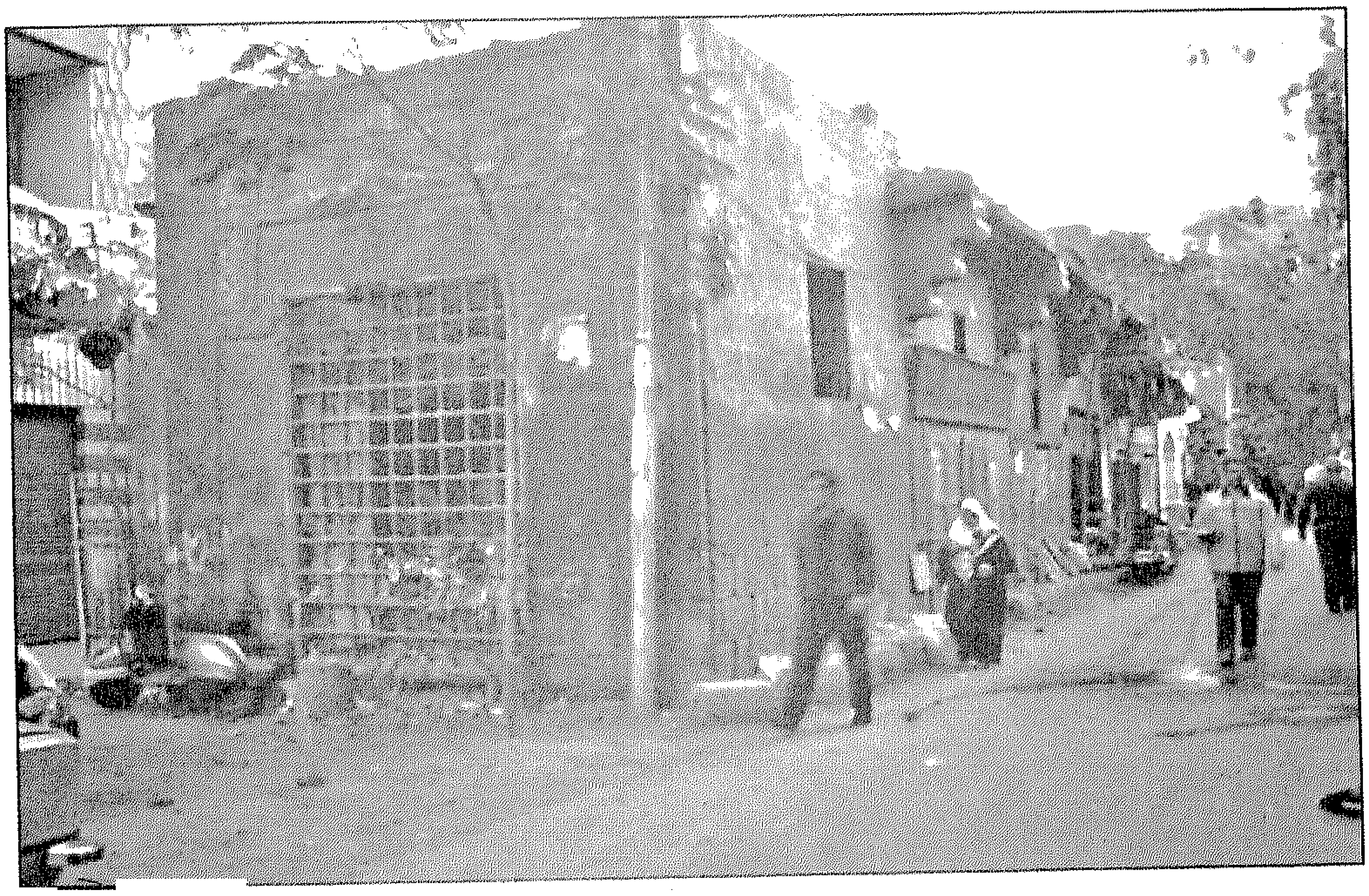

وكالة مصطفى بك طبطباوى – العصر العثماني

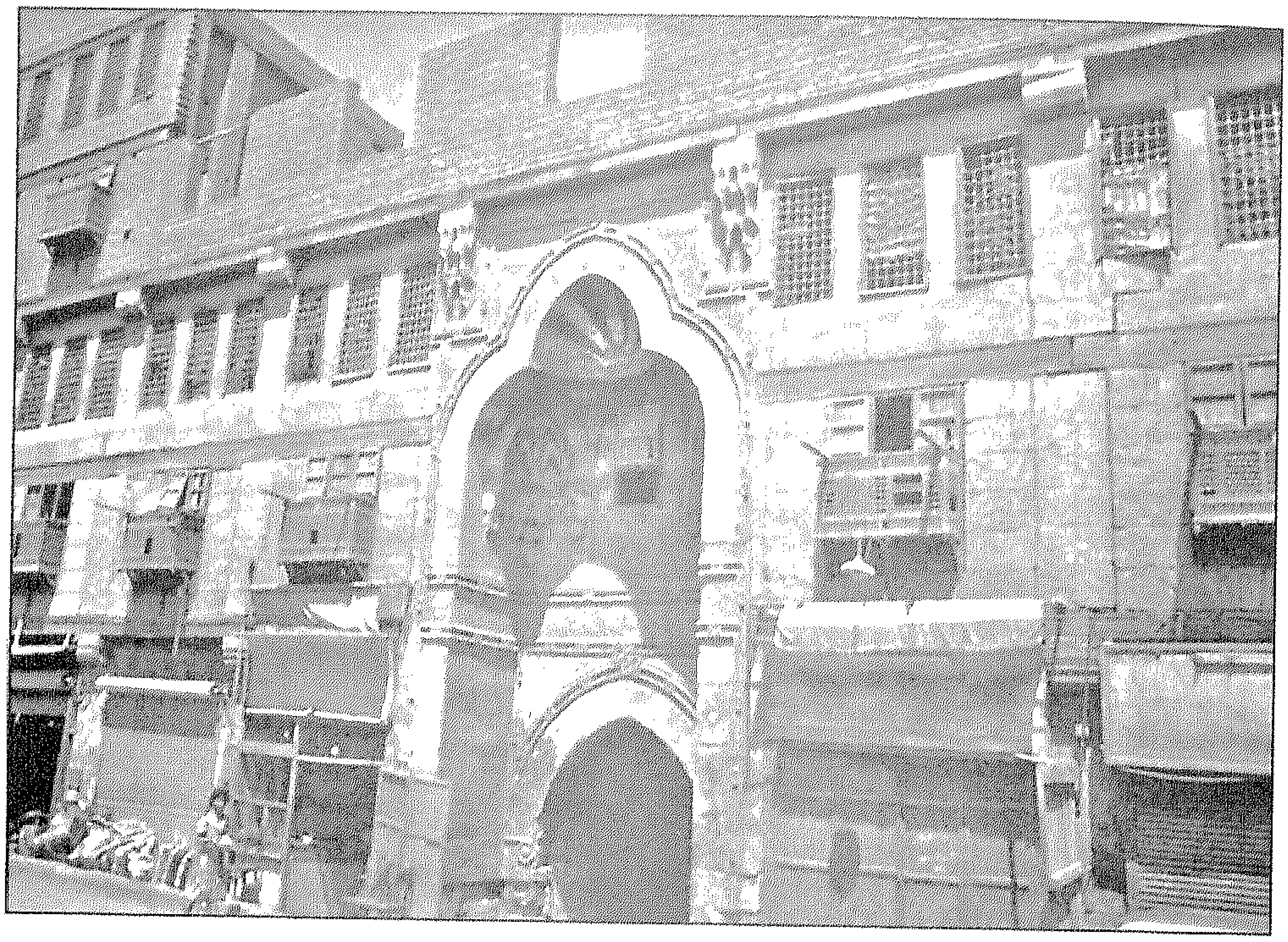

وكالة السلطان قايتباى - العصر المملوكي

عوامل إيجابية

يمكن أن نسمى هذه العوامل بعوامل الجذب، فقد كان للمساحات الكبيرة التى أتاحتها الأزبكية أثر كبير فى إقبال الأمراء والأثرياء على اتخاذ مساكن لهم بها، تسمح باتخاذ حاشية وحرس[٤٠]. وأدى تقلص الدور السياسى للقلعة بخاصة فى القرن الثامن عشر إلى أن أصبحت السلطة الحقيقية فى قصور الأمراء المسيطرين، ومع سكن هؤلاء فى بركة الفيل والأزبكية خاصة الأخيرة، أصبح لهذه المنطقة أهمية سياسية متزايدة ساعد عليها أيضا سكن كبار التجار والمشايخ بها. ولكى نستطيع أن نستقرئ الدور السياسى فى إدارة حكم مصر من خلال هذه الضاحية فسنستعرض بعض دورها التى كان لها تأثير واضح.

دار الشرايبى

كانت هذه الدار تقع على الشاطئ الجنوبى لبركة الأزبكية، وتوارث سكناها شخصيات كان لها تأثيرها فى مصر، وكانت أسرة الشرايبى[٤١] أكبر تجار مصر فى القرن ١٨م، يصفها الجبرتى بأنها "إحدى دور المجد والفخر والعز"، وكانت تتكون من اثنى عشر مسكنا متجاورا، كل مسكن كان بيتا متسعا على حدة، وكانت هذه الدار ملتقى أمراء مصر وأدبائها وضيوفها، وكانت تقع مقابل جامع أزبك، ثم انتقلت ملكية الدار إلى الأمير رضوان كتخدا الجلفى (ت١١٦٨هـ/ ١٧٥٥م)[٤٢] الذى كان يتقاسم السلطة والنفوذ مع إبراهيم كتخدا القازدوغلى، فأدخل عليها تعديلات ووسع حدائقها وأباحها للنزهة لجميع الناس وبخاصة أيام الفيضان، وعقد على مجالسها العالية قبابا عجيبة منقوشة بالذهب واللازورد والألوان والزخارف الدقيقة،

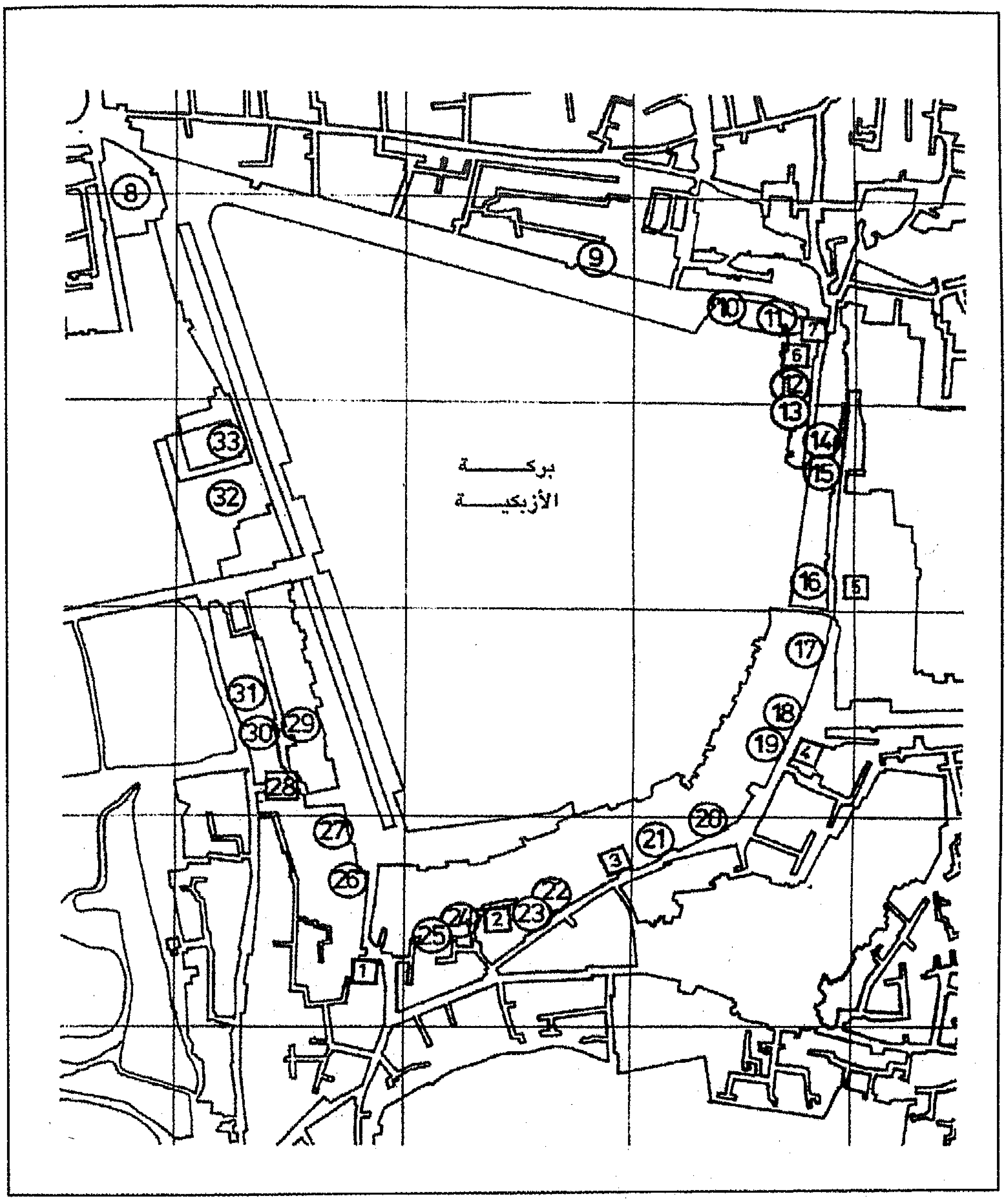

بركة الأزبكية، عن دوريس أبو سيف

وعمل بوائك على البركة مباشرة، كانت بمثابة سوق عامرة وقت الفيضان، كانت هذه الدار بفخامتها وبذخ أثاثها محل وصف الشعراء[٤٣]، ثم انتقلت ملكية الدار بعد ذلك للأمير محمد بك أبو الذهب[٤٤]، الذى حكم مصر فى أعقاب انقلابه على سيده على بيك الكبير، كان أبو الذهب قد تزوج من محظية رضوان كتخدا المذكور، ثم انتقلت الدار بعد ذلك

إلى طاهر باشا الكبير[٤٥]، ثم انتقلت إلى أحمد باشا طاهر[٤٦]. فهدمها ووسعها بدور بجوارها وشيدها مرة أخرى، وأحكم بناءها واستمرت بيد الورثة إلى أن اشتراها عباس باشا الأول فهدمها ووسعها وبناها بناء فخما لوالدته[٤٧].

دار إبراهيم كتخدا

كما كان إبراهيم كتخدا الانكشاري[٤٨] شريكا لرضوان كتخدا فى ممارسة السلطة فقد جاوره فى الإقامة فى الأزبكية أيضا، فكان بيته مجاورا لبيت رضوان، وبيت إبراهيم كان فى الأصل ملك محمد شلبى بن إبراهيم الصابونجي[٤٩]. وقد أعطى وجود هذين الأميرين الشريكين لضاحية الأزبكية فى منتصف القرن ١٢هـ/ ١٨م، مكانة سياسية واجتماعية كبيرة استمرت بعد ذلك[٥٠].

دار على بك الكبير

تعد الدار التى أنشأها على بك الكبير[٥١] من أهم الدور التى شيدت على بركة الأزبكية، وكان يعقد بها الديوان حتى كادت أن تكون مقر الحكم الرئيسى فى مصر[٥٢]. وقد أنشأها على بك لمحظيته نفيسة خاتون[٥٣]، وألحق بها حوضا وساقية وطاحون. توفى على بك بها عام ١١٨٧هـ/ ١٧٨٣م.

ولما مات على بك الكبير تزوج الأمير مراد بك من نفيسة خاتون وأقام معها على الرغم من أنه كان يملك بيتين آخرين بالمنطقة نفسها.

قصر الألفي[٥٤]

يعتبر تاريخ هذا القصر تجسيدا للتحولات السياسية وأثرها على العمارة، يعود هذا القصر إلى القرن ١٢هـ/ ١٨م، شيده إبراهيم بن السيد سعودى إسكندر أحد فقهاء الحنفية، وقد أباحه للجمهور، ذكر الجبرتى فى هذا الأمر "أنه جعل فى أسفل القصر قناطر وبوائك ناحية البركة وجعلها برسم فرجة لعامة الناس فكان يجتمع به عالم من أجناس الناس أولاد البلد شيء كثير وبها قهاوى وبياعون وفكهانية ومغانٍ وغير ذلك، ويقف عندها مراكب وقوارب بها من تلك الأجناس فكان يقع بها وبالجسر المقابل لها من عصر النهار إلى آخر الليل من الحظ والنزاهة ما لا يوصف"[٥٥]. ثم انتقل القصر إلى ملكية الأمير أحمد آغا شويكار فباعه إلى الأمير محمد بك الألفى فى سنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٦م فهدمه وأضاف إلى مساحته دارين آخريين كانتا إلى جواره، وأنشأ مكانه قصرا كبيرا وضع تصميمه بنفسه لأنه كان مغرما بالهندسة.

شيد الألفى قصره دون خارجات ولا حرمدانات ولا رواشن بارزة عن أصل البناء، حرصا على متانته وطول البقاء، وجعل به قاعات واسعة بها عدة نافورات وجعل له شبابيك من الخشب الخرط والزجاج، وجعل به حمامين أحدهما علوى والآخر سفلى، وألحق به طباقا للمماليك، وجعل به بستانا وأنشأ به جملونا مستطيلا متسعا به دكك وأعمدة[٥٦].

ومنزله هذا يقارب طراز الروملى من حيث الشكل الخارجى ويبدو فى إحدى اللوحات التى تصور فناءه الداخلى مدى تأثره بعمارة إستانبول فى تلك الفترة من حيث استخدام الأسقف المسطحة التى تبرز منها ملاقف الهواء والنوافذ المسطحة ولكن من المرجح أن تصميمه الداخلى كان خليطا من الطرز المعمارية المحلية ومن الطرز الوافدة. أنجز العمل فى هذا القصر فى آخر شعبان ١٢١٢هـ/١٧٩٨م. ولم يمكث به الألفى سوى عشرين يوما حتى أتت الحملة الفرنسية فاتخذ مقرا لقيادة الحملة الفرنسية فى مصر، حيث أقام به قوادها على التوالى نابليون بونابرت وكليبر ومينو[٥٧]، الذين عدلوا فى القصر وجددوا به طبقا لعمارتهم . بعد مغادرة الفرنسيين مصر دخل الجيش العثمانى والإنجليزى القلعة[٥٨] إلا أن الصدر الأعظم ضيا باشا لم يسكن القلعة، بل سكن خلال فترة تواجده فى منزل أحد أمراء المماليك بالقاهرة، لأن الفرنسيين كانوا قد دمروا مقر باشاوات مصر بالقلعة[٥٩]. وهذا يفسر لنا سبب إعادة محمد على إنشاءه مرة أخرى.

عندما تولى خسرو باشا ولاية مصر سكن فى قصر الألفى بك بالأزبكية[٦٠]. وبدأ فى ترميم القصر وما تهدم منه أثناء المعارك مع الفرنسيين، فبنى بوابة جديدة لقصر

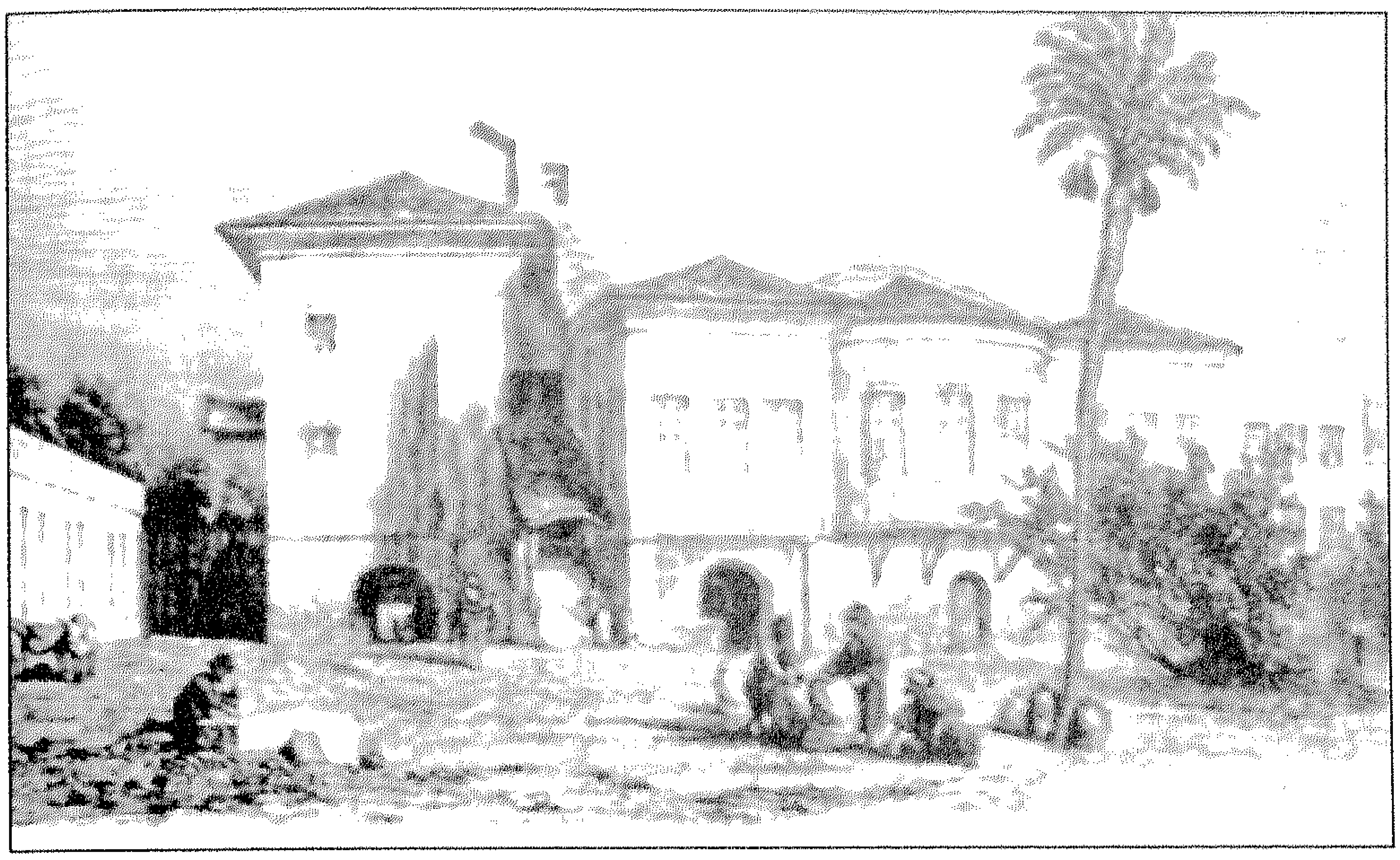

قصر محمد بك الألفي - طابع أوروبي

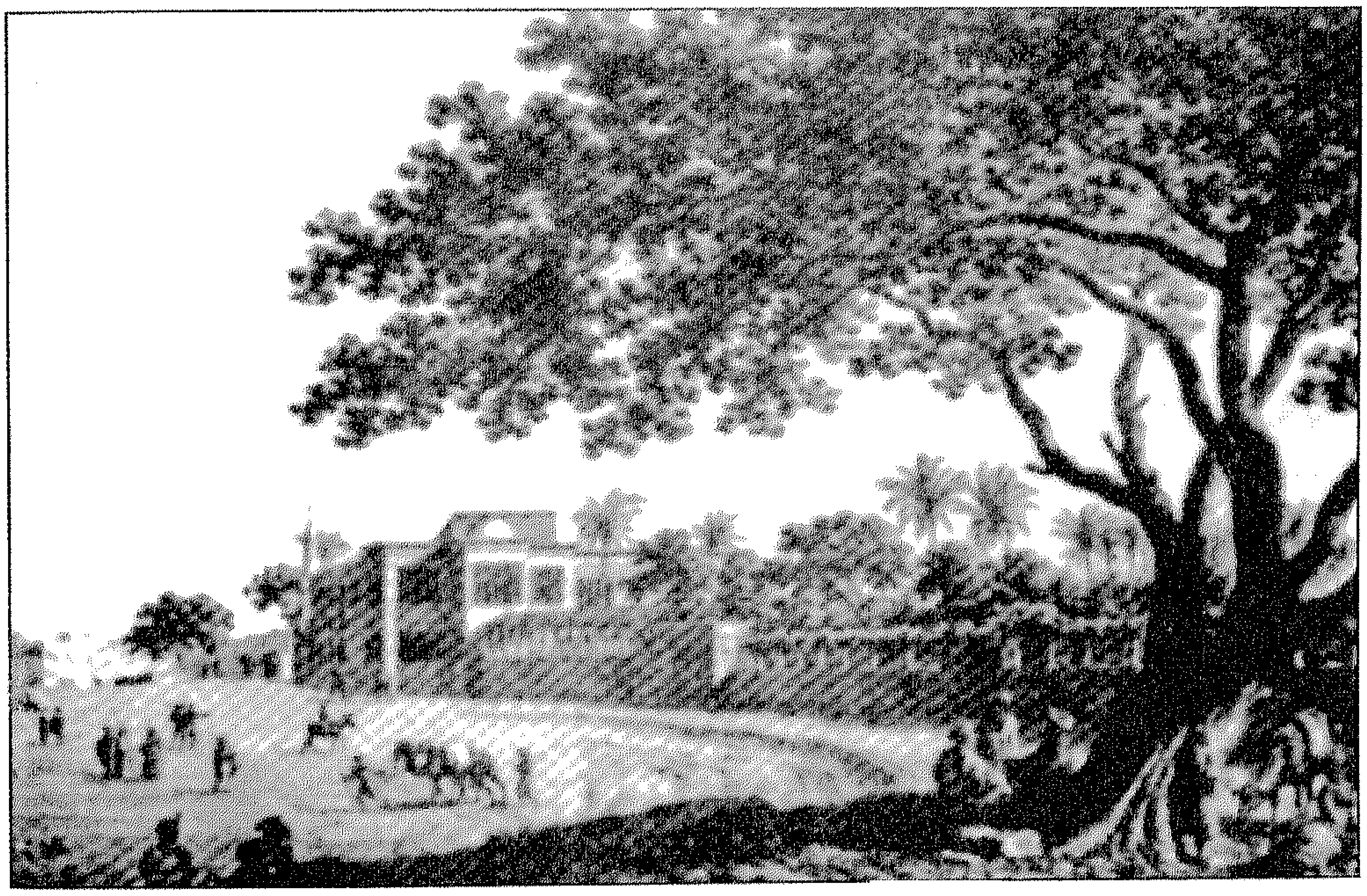

قصر محمد بك الألفي - وصف مصر

الألفى وطباقا لجنده فى القصر، وشيد هذه الطباق فوق الإسطبل، وهى تلتف حول صحن أوسط. وسكن حريم الباشا في قصر البكري[٦١]، على الشاطئ الجنوبى من بركة الأزبكية، وهذا يعنى أن قصر الألفى لم يستخدم إلا لإدارة دفة أمور الحكم، إذ سرعان ما ثار الجند الأرناؤوط ضد خسرو باشا سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م. وهو ما أدى إلى تدمير القصر وتعرضه للاحتراق[٦٢].

الأزبكية ومحمد على

سكن محمد على باشا فى قصر عائلة البكري، والذى كان يقيم به حريم خسرو باشا، شهد هذا القصر حدثا تاريخيا، عندما تلقى به محمد على فرمان السلطان العثمانى بإقراره على حكم مصر، وكان من شهود هذا الحدث كبار العلماء وأبنا محمد على إبراهيم وطوسون[٦٣]. لم يستخدم هذا القصر من قبل محمد على لفترة طويلة، بل حتى إقامته به بعد فترة أصبحت نادرة. ويعود ذلك لوقوع بيت الباشا بالقرب من قلب المدينة، وهو ما يسهل الهجوم عليه فى أى وقت فى حالة حدوث أى اضطراب، وهو ما حدث فعلا فى عامى ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م[٦٤]. و١٢٣٠هـ/١٨١٤م[٦٥].

ولعل ذلك كان دافعا لمحمد على لنقل إقامته إلى القلعة[٦٦]، واختياره إقامة قصر له فى شبرا خارج المدينة. سكن إلى جوار محمد على فى الأزبكية أقاربه وابنه إبراهيم. ولكن اكتسبت الأزبكية منذ ذلك الحين أهمية سياسية، لعدة أسباب لعل أولها نقل عدد من الدواوين من القلعة إليها، حيث اتخذ قصر طاهر باشا مقرا لها[٦٧]. وكان ذلك فى سنة ١٢٣٥هـ/١٨١٩م. لقد كان محمد على – كما وصفه كلوت بك– أول عثمانى أدرك الأفكار النافعة فى نظام الحكومة والإدارة لإحكام قبضته على البلاد، وكلوت بك يتحدث عن سطوة الدولة على المجتمع فى المفهوم الغربي، قسم محمد على إدارته إلى أقسام، فشكل مجلسا من كبار رجال دولته للمشاورة فى مختلف الأمور، وأنشأ مجلسا من المتخصصين لكل فرع من فروع الإدارة، كما أنشأ مجلسا للنظر فى أمور المجالس السابقة (الديوان العالي) ويرأسه كتخدا بك، ثم تطور الأمر إلى إنشاء الدواوين كالداخلية والحربية والبحرية والأشغال العمومية والمعارف "ديوان المدارس"– عرف إلى سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م بمجلس شورى المدارس – وكان يشرف فى البداية على المصانع والمالية والخارجية والتجارة، كما أنشأ ديوانا للإشراف

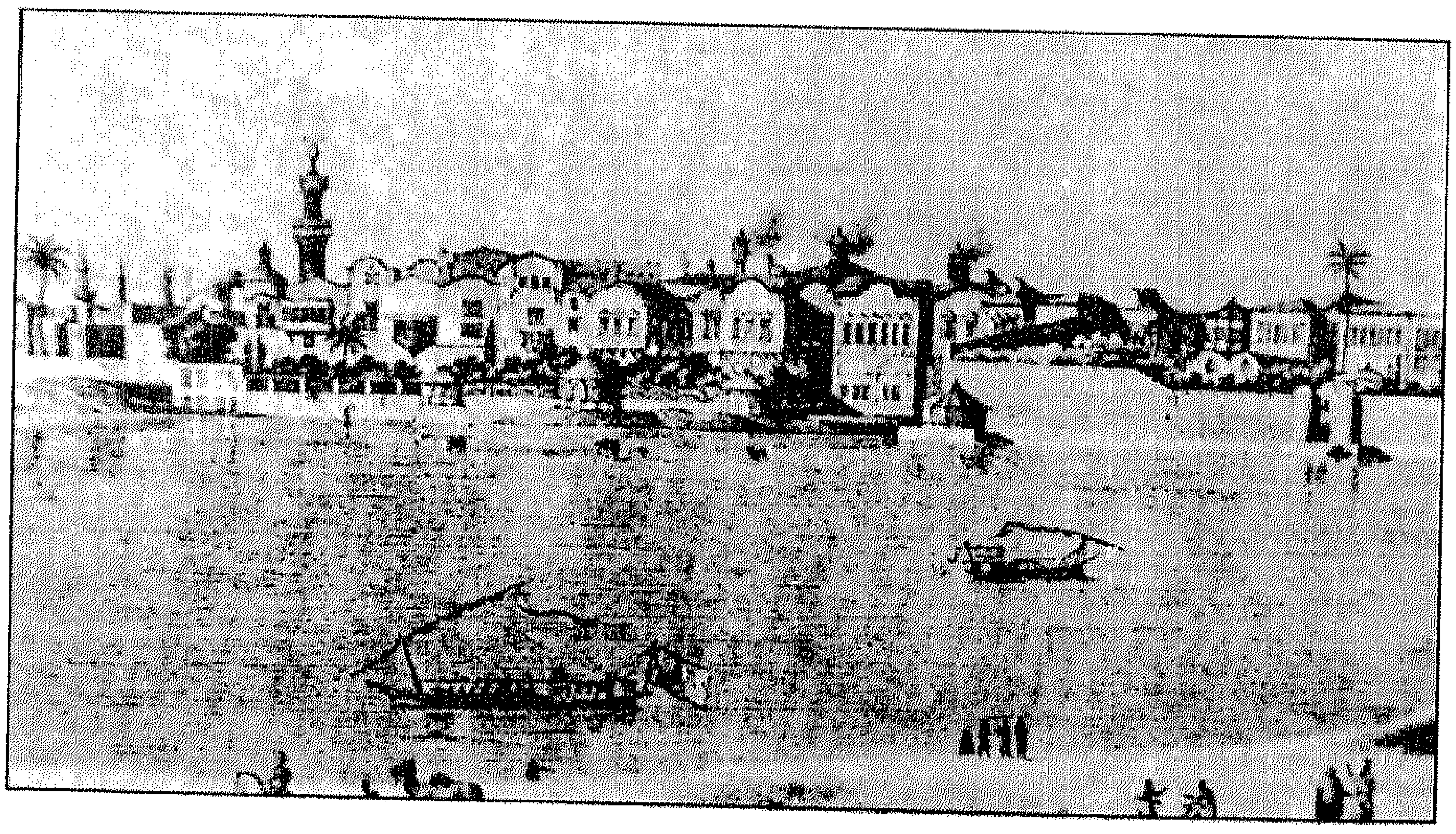

منزل محمد على – الأزبكية

إبراهيم باشا

على صناعة النسيج وديوانا للصحة وديوانا للموازين[٦٨]. وأنشأ سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤ - ١٨٢٥م مجلس الحقانية، ثم أنشأ المجلس العالى سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م، وكان يضم نظار الدواوين بالإضافة إلى اثنين من العلماء واثنين من التجار واثنين عن كل مديرية ينتخبهما الأهالي. ووضع سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م ما سمى القانون الأساسى أو "السياست نامه" وقسم فيه فروع الإدارة المصرية إلى:

الديوان الخديوي، ديوان الإيرادات، ديوان الجهادية، ديوان البحر، ديوان المدارس، ديوان الأمور الإفرنكية والتجارة المصرية، وديوان الفبريقات[٦٩].

مست إذن منذ ذلك الوقت المركزية المطلقة لمقر الحكم فى مصر، وهى القلعة، وبالتالى مركزية السلطات المطلقة فى يد الحاكم، وأصبح للأوتوقراط، أى الموظفين المتخصصين دور أوسع فى إدارة شئون إدارتهم والتخطيط لها. وقد كان أول ديوان ينشئه محمد على فى الأزبكية هو ديوان المحاسبة فى عام ١٨١٢م. وتوالى بعد ذلك نقل الدواوين إليها، غير أن حادث حريق القلعة أسرع بنقل الدواوين إلى خارج القلعة وإنشاء دواوين جديدة. ولا يعنى هذا أن القلعة فقدت جاذبيتها أو أهميتها كمقر للحكم، بل كان محمد على يستخدمها فى أوقات عديدة لإدارة دفة الأمور، وصار يتردد بين القلعة وبيت الأزبكية وقصرى شبرا والجيزة[٧٠]. كما أن مجلس شورى النواب اتخذ إلى نهاية عصر إسماعيل القلعة كمقر له فى ديوان الكتخدا أو الغوري[٧١].

علما بأن القلعة فى العصر المملوكي كانت تضم عددا من الدواوين مثل ديوان الإنشاء وديوان النظر وديوان الأوقاف والديوان الخاص وديوان المفرد وديوان المظالم. غير أن هذه الدواوين كانت علاقاتها بالمجتمع محدودة، بل بالحركة العمرانية كانت فى إطار ما يخدم السلطة. من ناحية زيادة الإيرادات، ولكن بدءا من عصر محمد على بدأت الدولة تلعب دورا من خلال الدواوين متزايدا داخل المجتمع، على حساب المجتمع المدنى الذى كان يشكل التجار والعلماء بعامته الأساسية، والذى كانت فيه الأوقاف الفاعل الأول.

أدى تفتيت مقر الحكم منذ عهد محمد على إلى ظهور أشمل لفكرة العاصمة الكبيرة التى تضم ضواحى مترامية الأطراف، على عكس ما كان سابقا من وجود إطار محدود لمقر الحكم داخل الأسوار، عد خلاله مقر الحكم مدينة مستقلة بذاتها لها مرافقها.

أنشأ محمد على إلى جانب منزل الأزبكية والقلعة عددا من القصور لإقامته وللتنقل بينها، من بينها قصر أثر النبي، ذكر هذا القصر فى حوادث سنة ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦م. وحينما تولى محمد على حكم مصر عين الخواجا محمود حسن بزرجان باشا فى رجب سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م لتجديد القصر والمسجد المعروف بالآثار النبوية الذى كان فى حالة معمارية سيئة، فجددهما على ما كانا عليه، ثم هدم محمد على القصر وبناه على الطراز الأوروبى على الهيئة الرومية التى انتشرت فى عهده، وكان ذلك سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٧م، حيث إنه بات هناك ليلتين فأعجبه الطقس، فأمر بإعادة بناء هذا القصر، وأخذ يتردد عليه كباقى قصوره[٧٢]. وجدد محمد على أيضا

الخديوى إسماعيل

قصرا فى الجزيرة الوسطى شيده عبد الرحمن كتخدا للقادمين إلى مصر من الولاة والأغاوات ورجال الدولة العثمانية[٧٣].

سراى شبرا

كان هذا المكان كشكا فى العصر العثمانى يقيم به الولاة عند رغبتهم فى التنزه[٧٤]، ولما تولى محمد على حكم مصر شرع فى إقامة العديد من الأبنية بهذا المكان سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م[٧٥]، حتى صار مقر إقامته المفضل فى أخريات عصره بخاصة بعد أن احترقت سراى الأزبكية عام ١٨٤٠م[٧٦]. وهناك العديد من الأسباب التى دفعت محمد على إلى اختيار هذا المكان ليكون مقر إقامته المفضل، لعل أبرزها، القلاقل التى أثيرت داخل المدينة فى بداية حكمه، ورغبته فى الانعزال عنها بمقر حكمه، وأخيرا تأثره بقصر

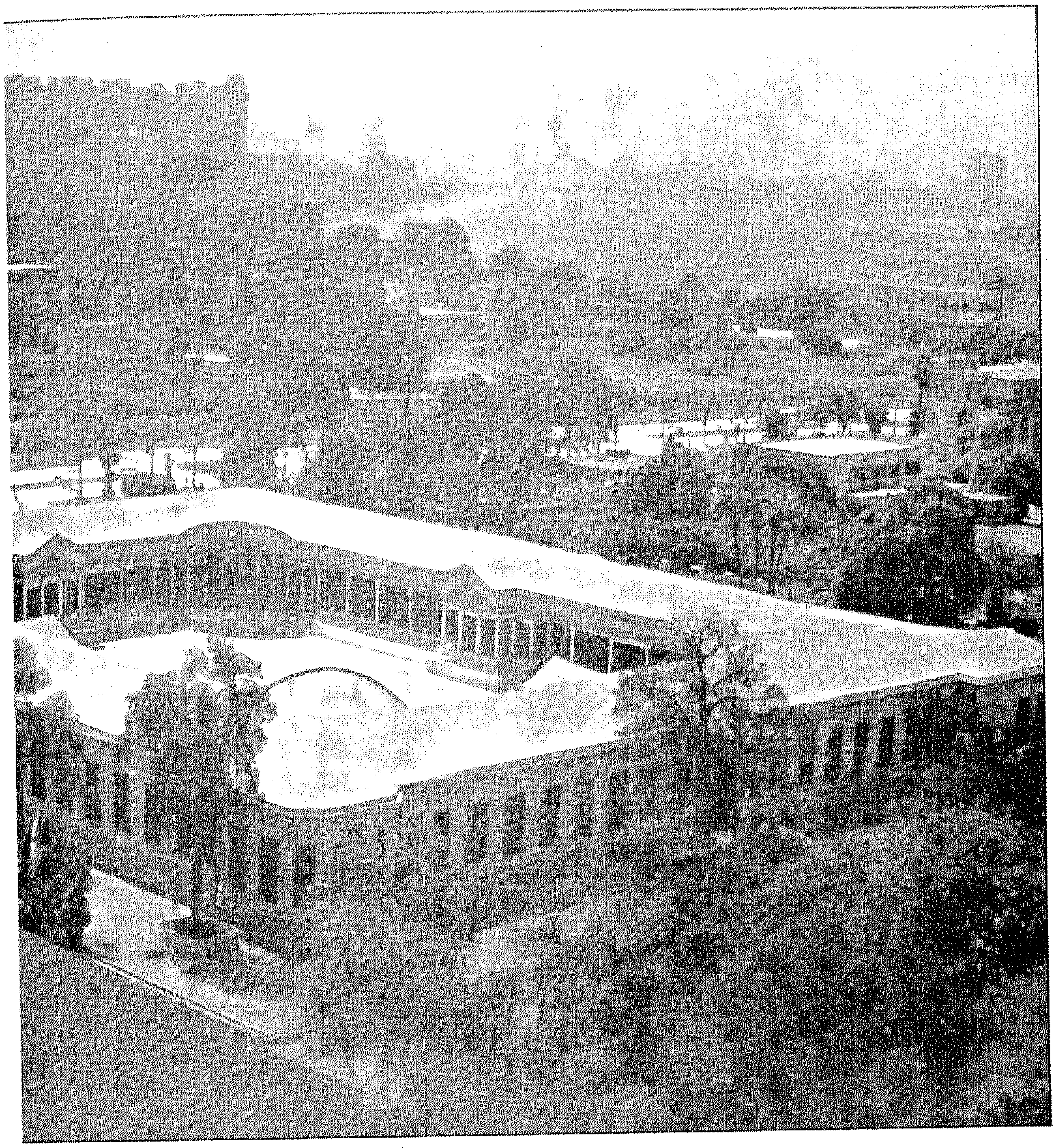

سراى شبرا

طوب قابو سراى وغيره من القصور التى شيدت فى شرق أوربا على شواطئ الأنهار.

ذكر حسن عبد الوهاب أن مسيو دورفتى[٧٧] قنصل فرنسا فى مصر فى عهد محمد على هو الذى صمم هذه السراى[٧٨]، غير أن المعمارى الفرنسى باسكال كوست روى فى مذكراته أن محمد على قد طلب منه تصميم قصر فى شبرا. وضع باسكال تصميما يتضمن أربعة جواسق وممرات محاطة بالأشجار وبركة مياه كبيرة ومسجد صغير وساحة لسباق الخيل[٧٩]. ومن المرجح أن دور دورفتى لم يتعد الاستشارة فى بعض الأمور الخاصة بالسراى. وقد

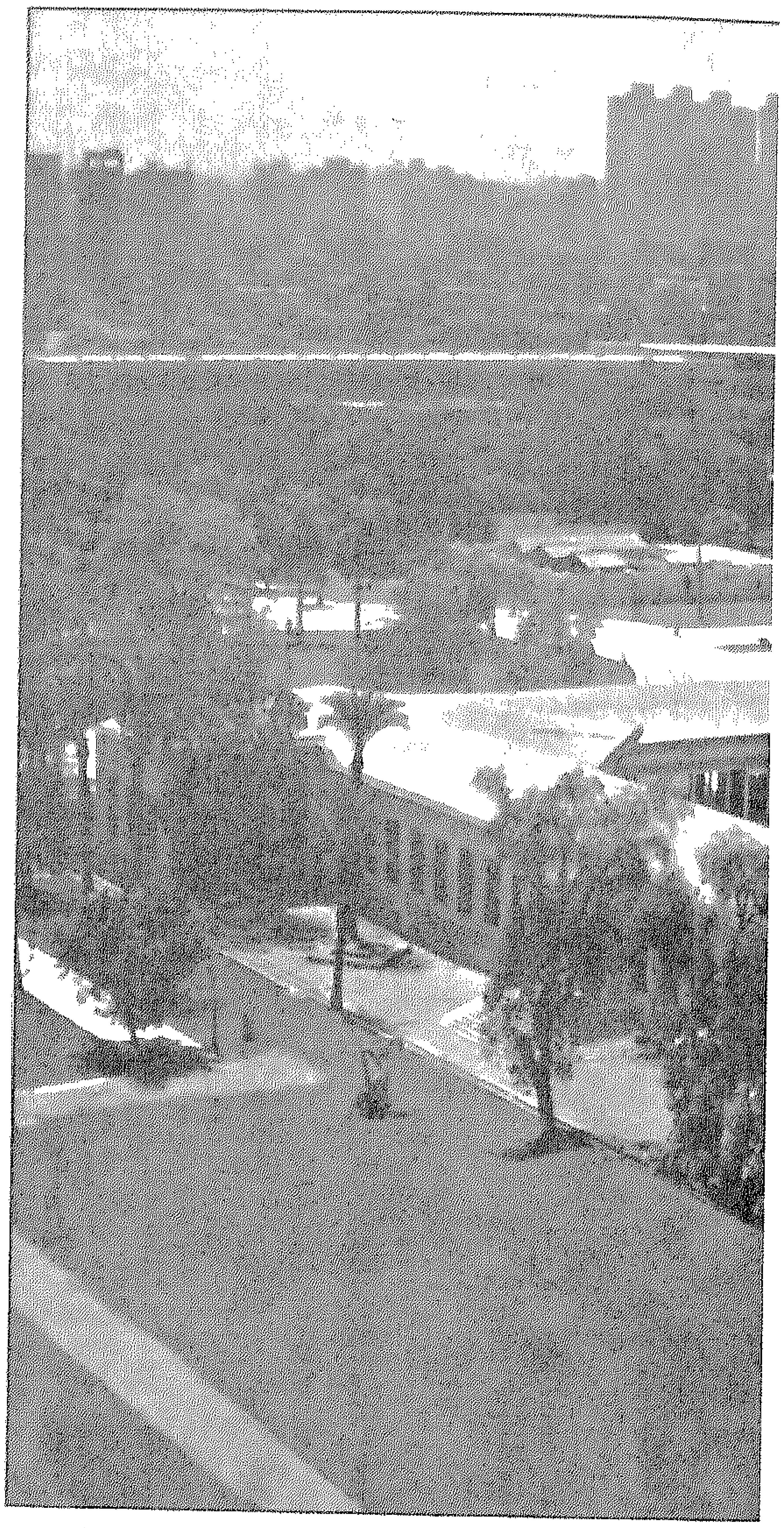

أوردت الوثائق أسماء بعض المهندسين الذين قاموا بالإشراف على بناء السراى، بخاصة سراى الفسقية، ومن المرجح أنهم أدخلوا تعديلات على التصميم الأصلى الذى لم ينفذ كله، ومن هؤلاء أمين أفندى المعمار، عمر آغا ناظر المبانى بسراى شبرا وعبد الله آغا المهندسباشي[٨٠].

تتكون هذه المجموعة من:

قصر الوالي، ملحقات القصر، مسكن البواب (مبنى الحرس)، نافورة، شرفة عليها جوسق الجبلاية، بركة الفسقية وحمام شرقى (سراى الفسقية)، معمل لتحضير غاز الاستصباح، البهو الأخضر من غاب البامبو (غابة البامبو)، طريق مزروع من الصنوبر الحلبى (غابة الصنوبر)، تكعيبة كرم، مجموعة الموالح (حديقة الموالح)، أشجار فاكهة ذات أوراق متساقطة، مدخل من شارع شبرا، روضة الزهور، حديقة الخضر[٨١].

يصف لينان دى بلفون قصر شبرا بأنه لم يكن سوى منزل عادى جدا لا يبدو عليه أى مظهر من مظاهر الفخامة والترف لا فى البناء ولا فى الأثاث أو حتى فى الخدمة، وكانت غرفة الاستقبال تتكون من بهو يفصله عن قاعة الانتظار وشرفة مكشوفة نثرت فى جنباتها بعض أرائك قليلة الفخامة لتزين البهو، وكانت كل نافذة مغطاة بستار من قماش هندى وطولها يبلغ ارتفاع النافذة تقريبا ومثبتة فيها بمسامير عادية، فإذا أقبل المساء كانت وسيلة الإضاءة الوحيدة شمعتين كبيرتين داخل شمعدانين من الفضة موضوعين على الأرض، وكان يضئ قاعة الانتظار حيث يجتمع الرؤساء وكبار الموظفين عند حضورهم للسراى مصباح زيت معلق داخل إطار من جريد النخيل[٨٢]. إذا كانت هذه رؤية أحد رجال دولة محمد على لقصر شبرا، فإن جيرار دى نرفال الرحالة الفرنسى له رأى آخر فى قصر شبرا حيث يقدم صورة فاتنة للحياة فيه حيث يقول "توجد مقصورة زجاجية تشرف على سلسلة من الشرفات المتدرجة على شكل الهرم، وتبرز فى الأفق فى مشهد أخاذ ..... ثم نعود للنزول بعد أن أعجبنا بترف القاعة الداخلية والستائر الحريرية المتطايرة فى الهواء الطلق بين أكاليل الزهور والورود فى الحدائق الغناء. ونسير فى ممرات طويلة من أشجار الليمون المشذبة على هيئة المردن، ونعبر غابات أشجار الموز ذات الأوراق الشفافة واللامعة كالزمرد، وعند الطرف الآخر من الحديقة نصل إلى غرفة حمام فى غاية الروعة والتى لا يمكن وصفها هنا ..... وخلال ليالى الصيف يتنزه الباشا ببركة المياه مستقلا قاربا"[٨٣].

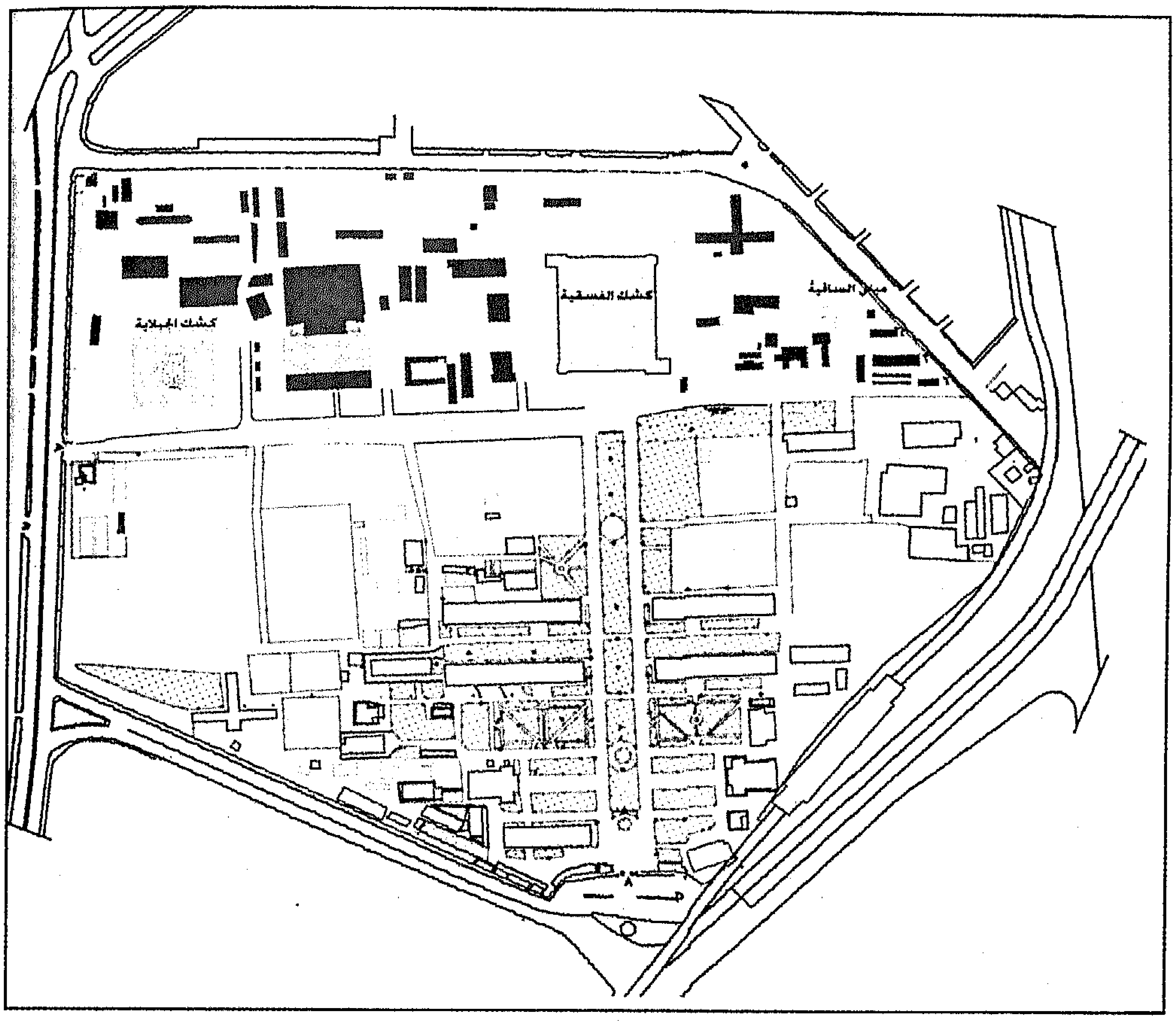

سراى شبرا – الموقع العام

أما أقسام هذا القصر فى عصر ازدهاره فهي:

– سراى الوالى

كانت تطل بواجهتها على النيل وبها قسم للحريم. اتخذت هذه السراى عدة أسماء منها، سراى الوالي، القصر العالي، قصر الوالى الخاص[٨٤]. وتشير الوثائق إلى أن هذا القصر كان يتكون من طابقين، خصص الطابق الثانى منهما لإقامة محمد على حيث خصصت أكبر حجراته لنومه، رمم هذا القصر فى عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م[٨٥]. وقام عباس باشا بإهداء سراى شبرا الكبيرة لعمه عبد الحليم بك فى عام ١٨٥١م[٨٦]. وتشير وثائق الديوان الخديوى إلى أسماء بعض حجرات هذا القصر يمكن من خلالها تخيل الطابق الأول الذى كان يتكون من السلاملك والفناء أو الفسحة، والثانى الذى كان يضم حجرتين واحده بحرية تطل على النيل وأخرى قبلية بينهما مساحة مسقفة بقبة، وملحق بهذا الطابق حمام[٨٧].

– سراى الفسقية

تذكر الوثائق هذه السراى باسم الكشك، وقد بدأ العمل فيه عام ١٨٢١م. وكان العمل مستمرا بها عام ١٨٢٣م[٨٨]. وهو مستطيل المساحة ٧٦,٥٠ X ٨٨,٥٠م،

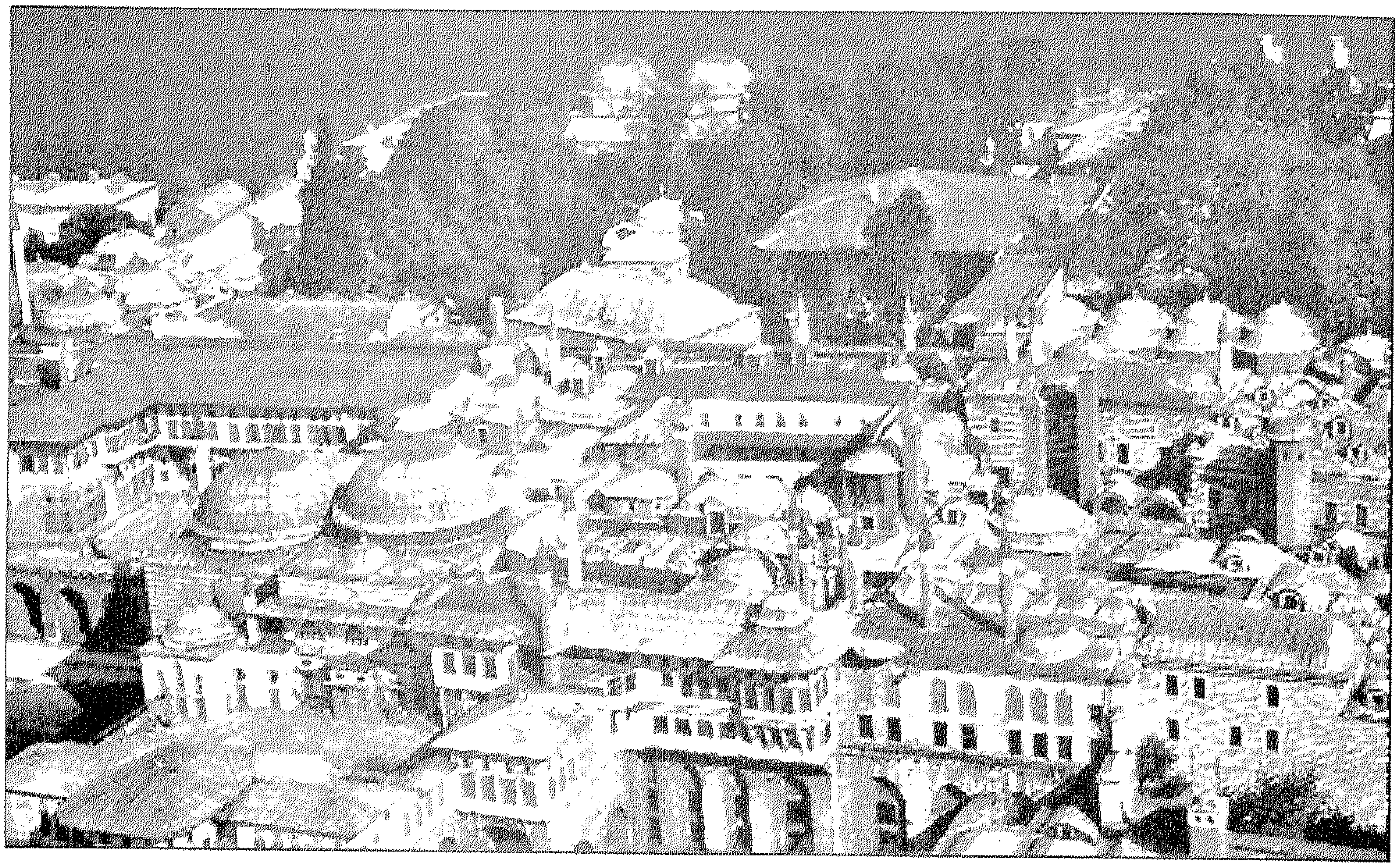

طوب قابو سراى - إستانبول

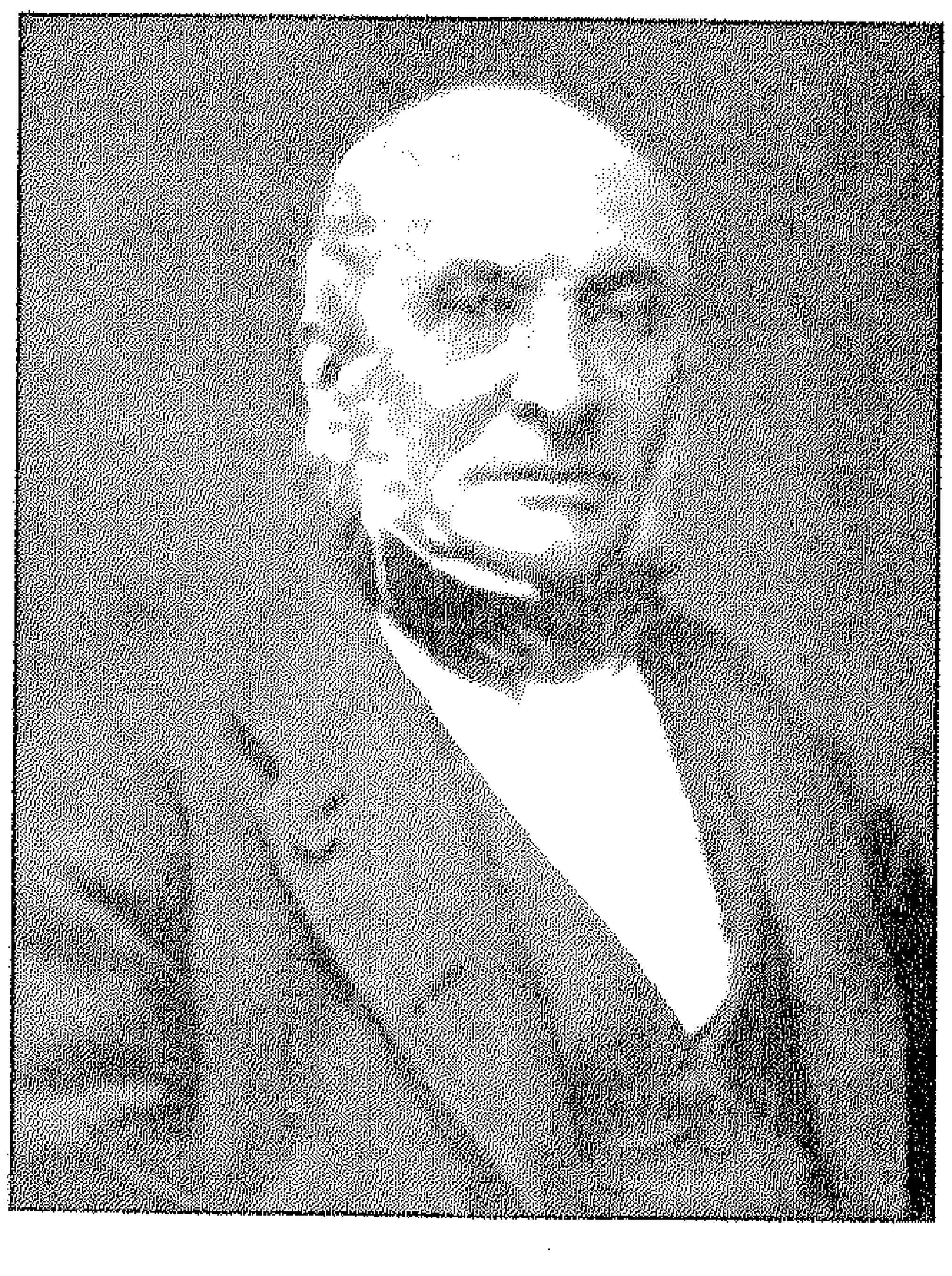

باسكال كوست

وهو ذو طابق واحد. تفتح بأواسط أضلاعه أربعة أبواب محورية، يتقدم كل باب منها سقيفة محمولة على أعمدة ويغطيها سقف جمالوني، ويتقدم كل سقيفة درج من ثمانى قلبات ، ويشغل كل ركن من أركان البناء حجرة تبرز واجهتها عن جدرانه، على هيئة مضلع فى الركنين الشمالى الشرقي، والجنوبى الغربي، ومستطيل فى الركنين الشمالى الغربى والجنوبى الشرقي.

يتوسط البناء حوض أو بركة تنخفض أرضيتها عن أرضية البناء من الداخل، بمقدار ١,٥م. وبهذه البركة فسقية أو نافورة تستمد ماءها من النيل بواسطة آلة بخارية[٨٩] وفى حافتها تماثيل تماسيح استوردت من الخارج[٩٠]. وأسندت بعض أعمال هذه البركة إلى المهندس الإنجليزى "جالواى" ويبدو أن

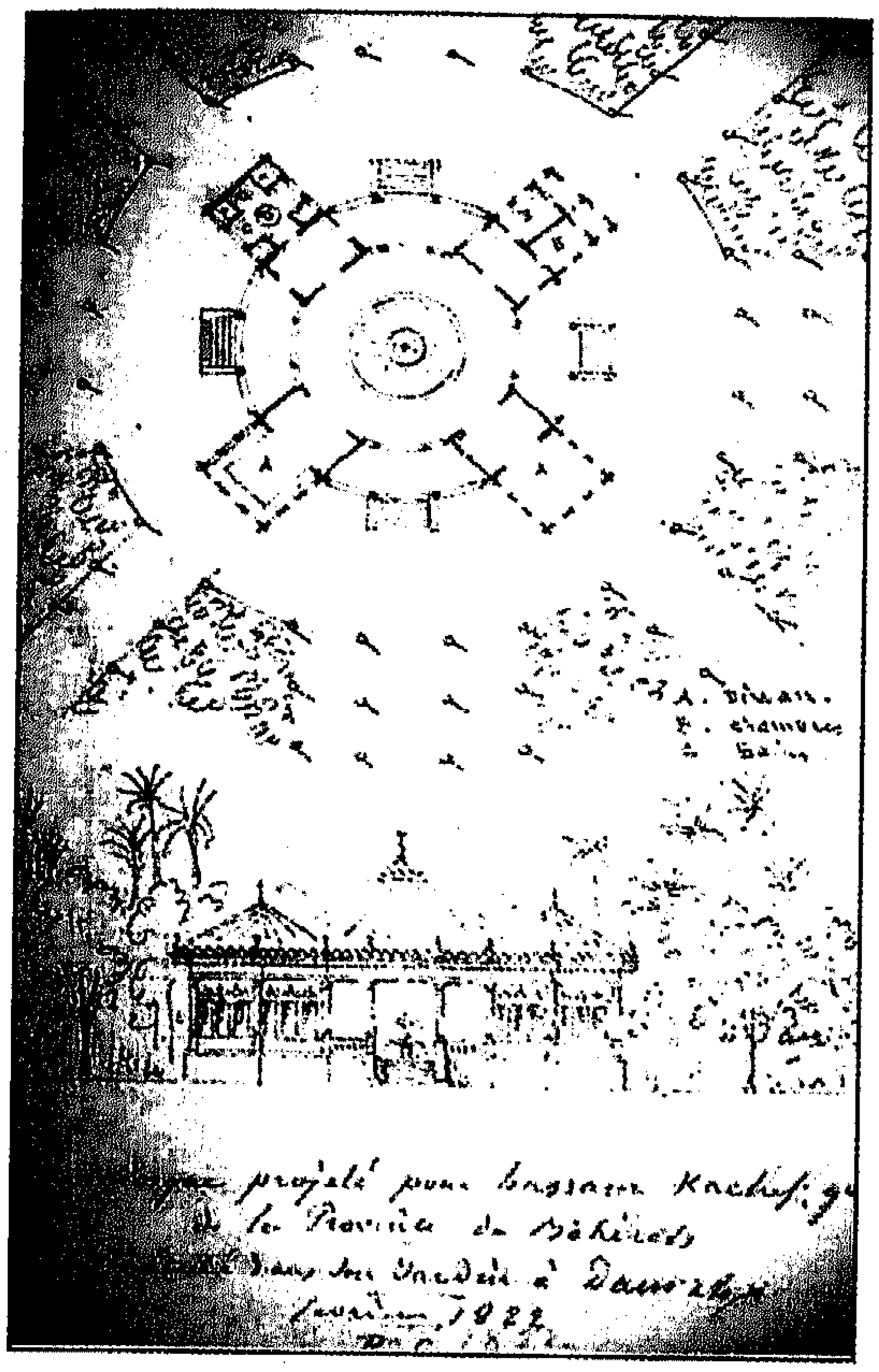

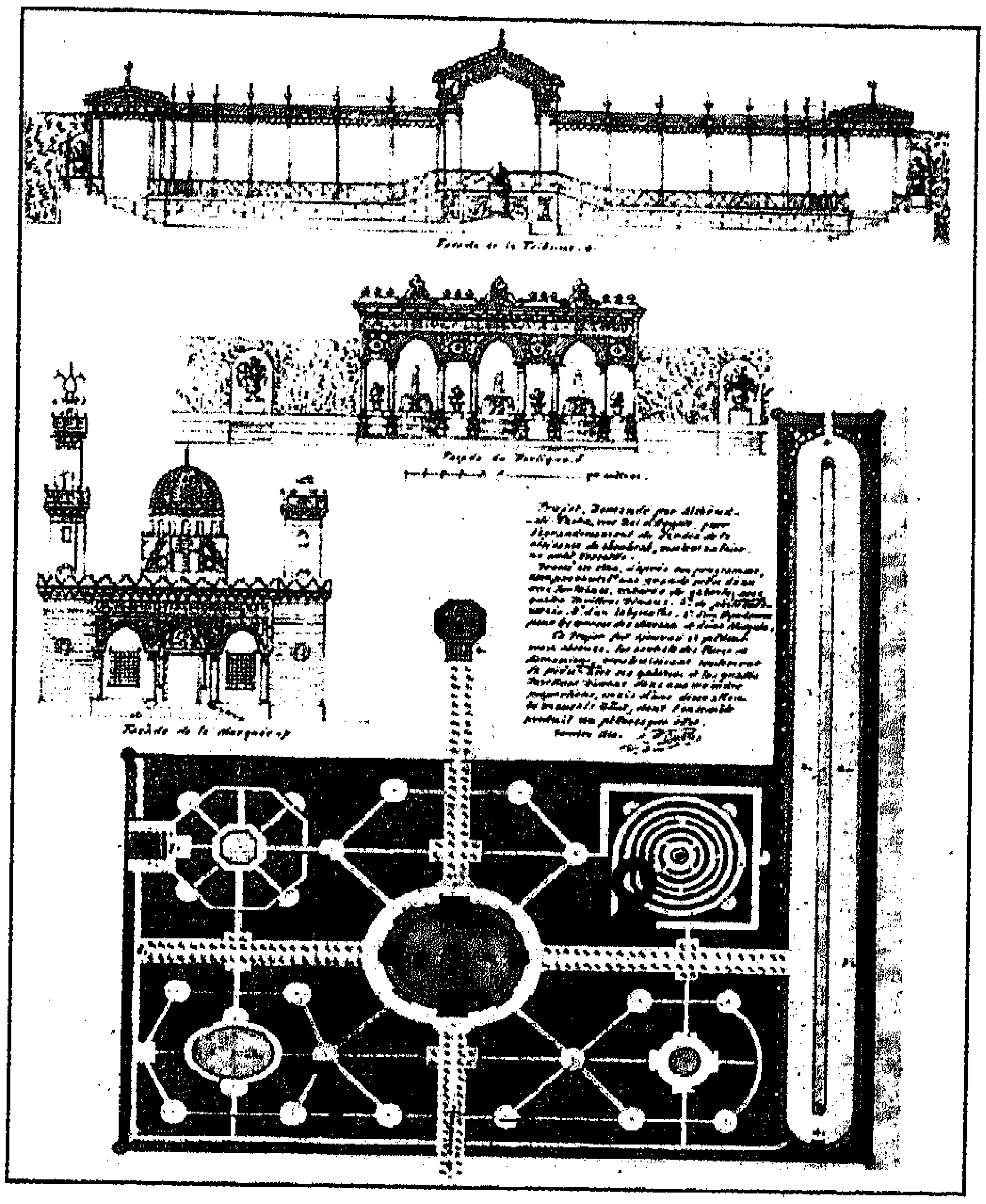

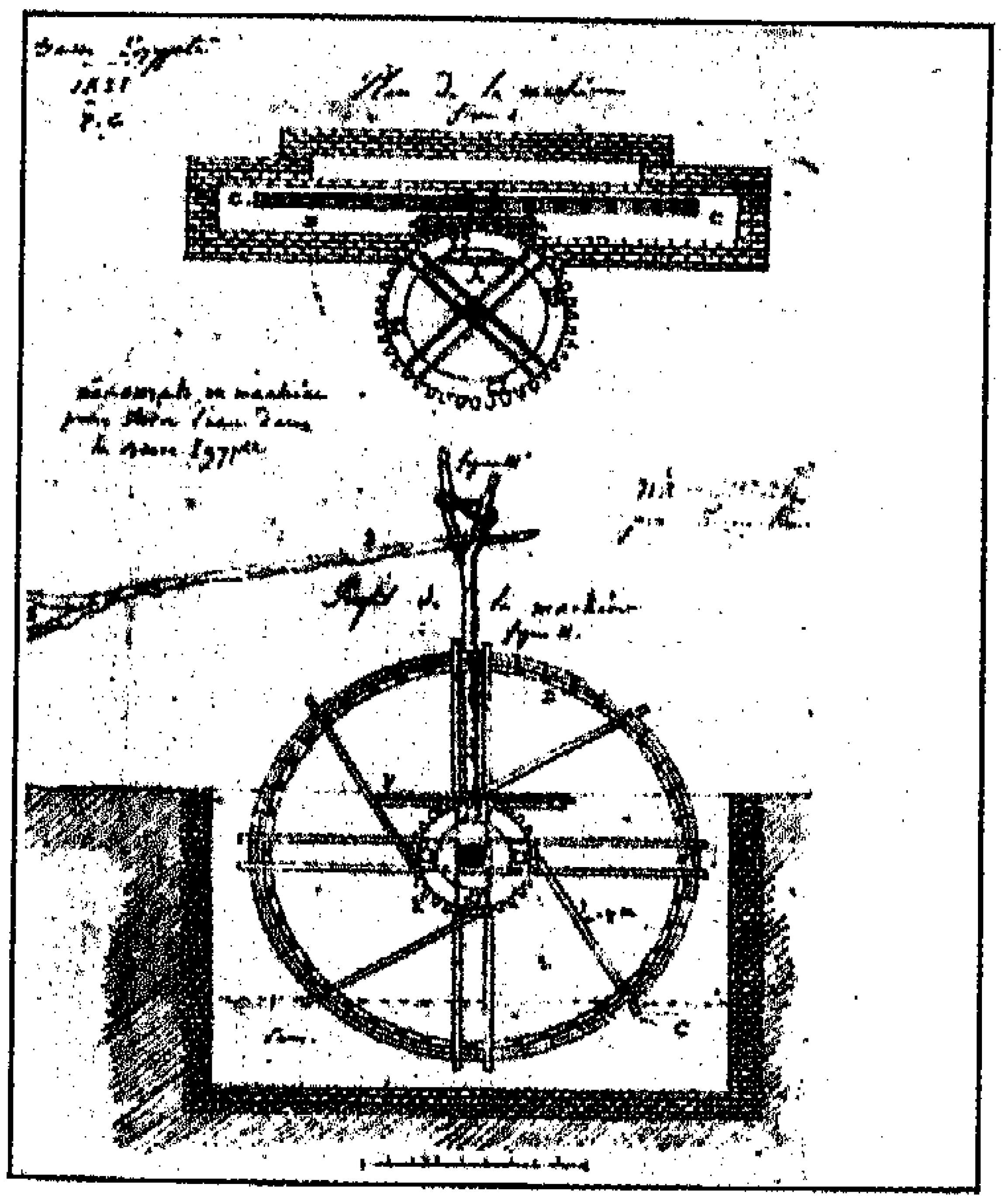

تصميمات سراى شبرا – باسكال كوست

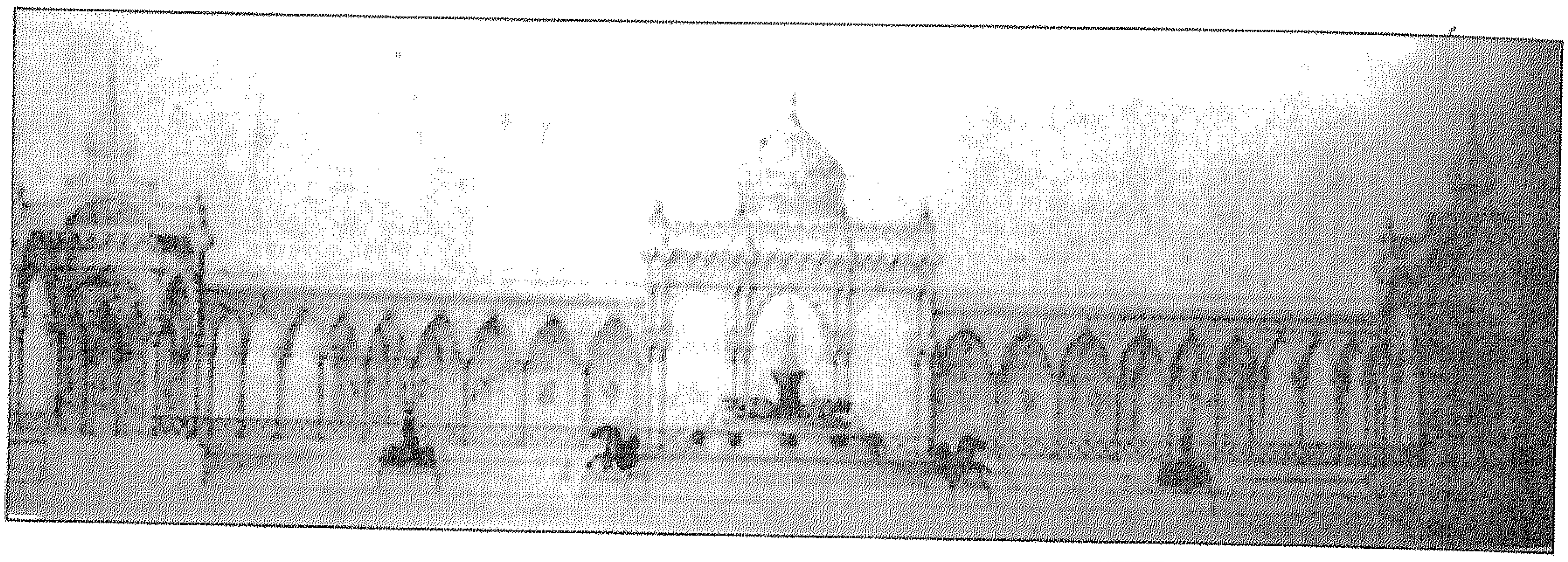

سراي شبرا – باسكال كوست

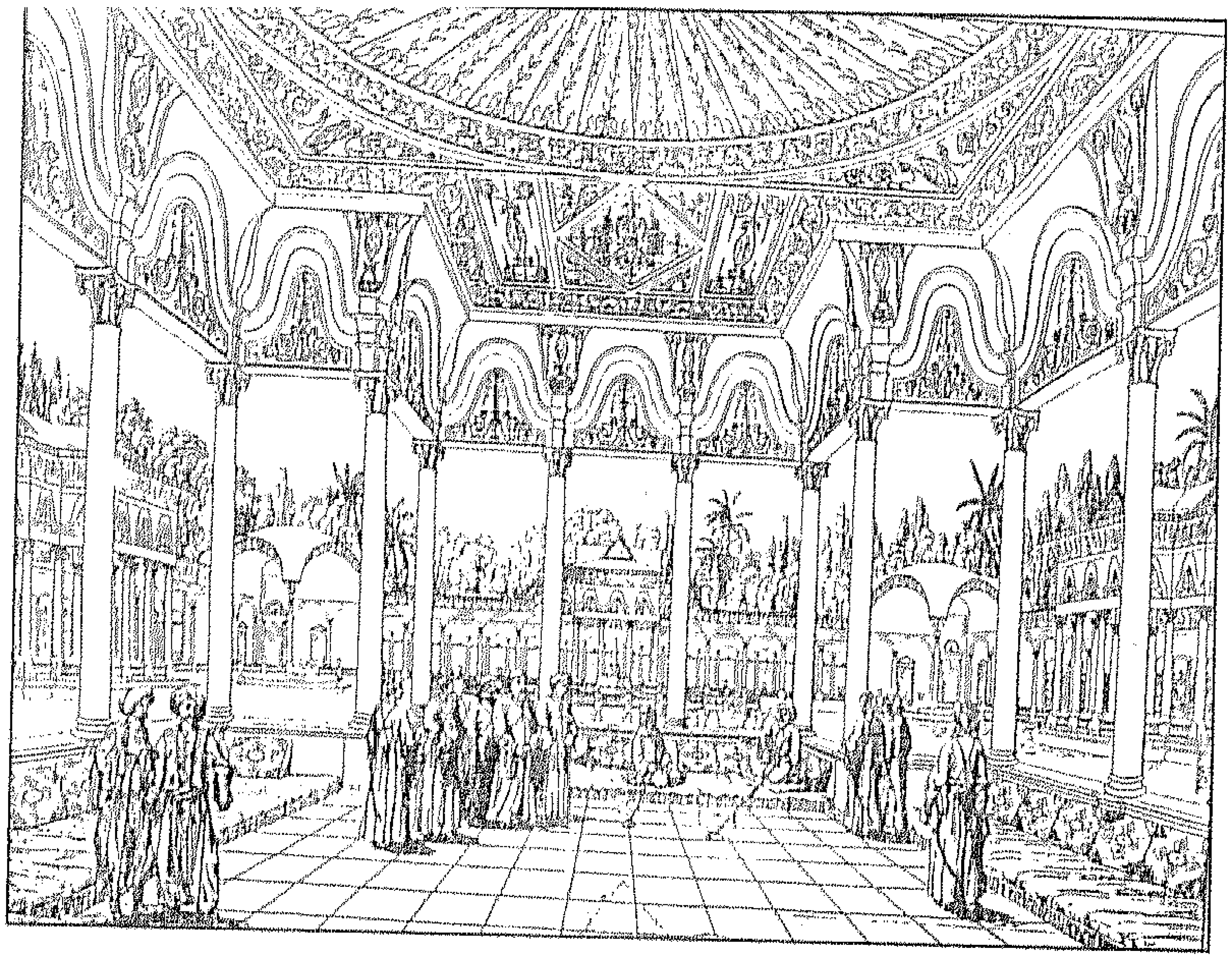

سراي شبرا من الداخل

هذه الأعمال تتعلق بالماكينة البخارية التى تضخ المياه إلى البركة[11]، كما شارك مهندس إنجليزى فى أعمال البركة هو "كلدي" ولعله كان مختصا بشبكة الصرف وتصميم البركة[12]. وفى الأركان الأربعة للبركة أربعة أسود رابضة تخرج المياه من أفواهها. وفى أرضية هذه المثلثات التى ربضت عليها هذه الأسود حفرت أنواع الأسماك بحركاتها المختلفة وهى تسبح فى الماء، ويحيط بالبركة أربعة أروقة محمولة على مائة عمود أسطواني، وفى وسط كل ضلع من أضلاع البركة يبرز جوسق. أما أركانها فيوجد بها عقد موتور فى كل ركن يبرز عن سقف الأروقة. تضم سراي الفسقية فى أركانها أربعة قاعات هي:

قاعة الجوز: استمدت هذه القاعة اسمها من استخدام خشب الجوز بها فى تجليد الأسقف

والأرضيات. وفى الدواليب الحائطية بها وعددها ثلاثة دواليب. ويوجد بالقاعة فى طرف الضلعين الشمالى والجنوبى مرآة ضخمة داخل إطار خشبى مزخرف بالحفر بوحدات عبارة عن أوانى زهور. ويتوج الإطار ثلاثة عقود نصف دائرية، وقد طلى هذا الإطار بماء الذهب، وفوق النوافذ والدواليب يلتف إطاران من الزخارف المنحوتة نحتا بارزا فى الخشب وهى مذهبة وزخارفها عبارة عن فرع نباتى تخرج منه الزهور، ويعلو ذلك شريط عريض من الزخارف النباتية داخل مناطق مستطيلة ذات أرضية زرقاء، لونت زخارفها بالذهب. وتعرف هذه القاعة أيضا بقاعة الجلسات[٩٣].

قاعة الطعام: تقع هذه القاعة فى مواجهة قاعة الجوز على الطرف الغربى من الرواق الجنوبى، ومسقطها مثمن غير منتظم من الداخل، وقد شطفت أركانه وفتحت بكل ركن نافذة تطل على الحديقة والجداران الشرقى والجنوبى فتحت بكل منهما نافذتان، أما الجداران الآخران فيفتح بكل منهما باب يؤدى إلى حجرة من الحجرات الملحقة. وزين السقف بأشكال زخرفية هندسية مذهبة بها رسوم طيور وحيوانات ونساء وتتوسطه صرة خشبية ذات زخارف محفورة تتدلى منها سلسلة الثريا، وإزار السقف مقسم إلى حشوات زخرفية[٩٤].

قاعة البلياردو: تقع هذه القاعة بالركن الشمالى الغربى لمبنى سراى الفسقية، وهى قاعة مستطيلة، يقع مدخلها فى الركن الجنوبى الشرقى منها، أما الركن الشمالى الشرقى فتشغله حنية نصف دائرية استغلت كدولاب حائطي. وبالجدار الشرقى حنية متسعة يتوجها عقد نصف دائري، رسم بها معبد مصرى قديم[٩٥]. ويتوج قمة المدخل والحنيتين الشرقية والطرفية عقد ثلاثى مرتد الواجهة، رسمت عليها مناظر لنساء عاريات ورسوم مناظر طبيعية. وبالحائط الشمالى أربعة نوافذ وفى كل من الحائطين الغربى والجنوبى ثلاث نوافذ. والسقف مزخرف بأشكال هندسية ونباتية ورسوم نساء وبوسطه صرة من الخشب المذهب المزخرف بالحفر الغائر. وتأخذ واجهة قاعة البلياردو وملحقاتها ربع الدائرة.

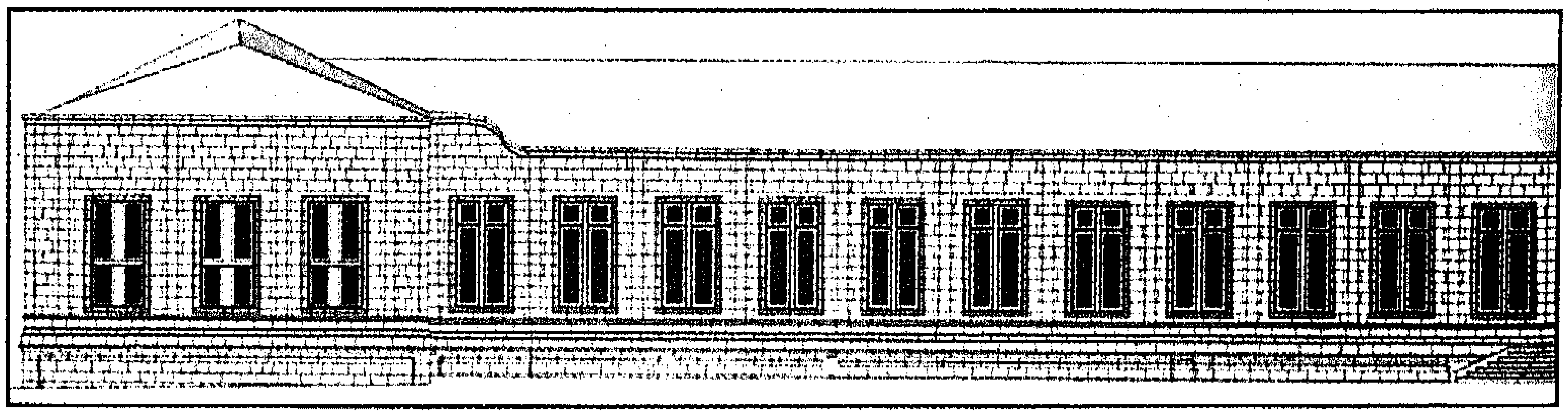

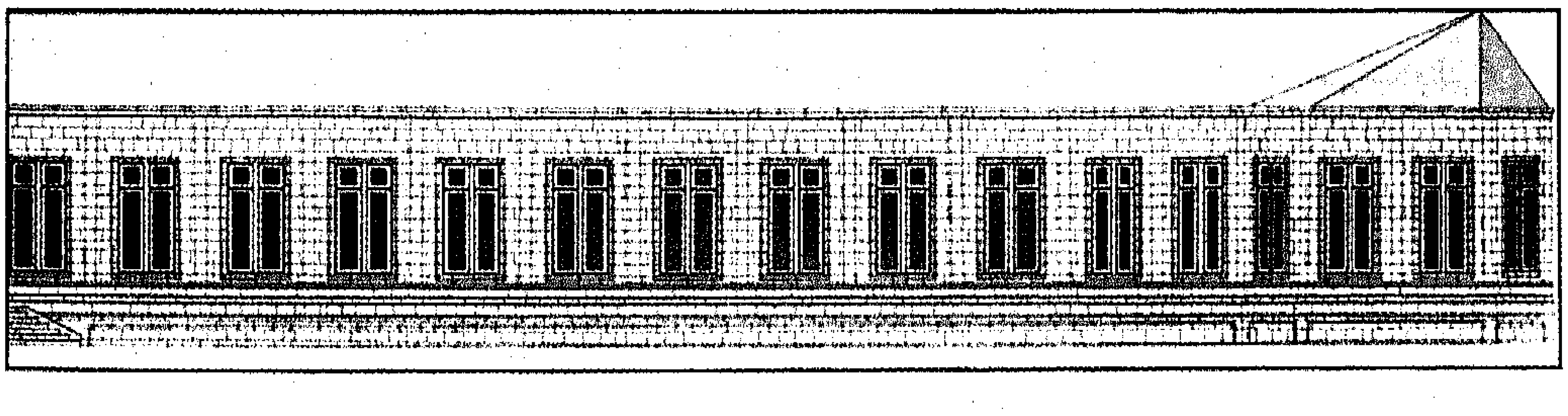

سراى الفسقية – الواجهة الغربية

سراى الفسقية

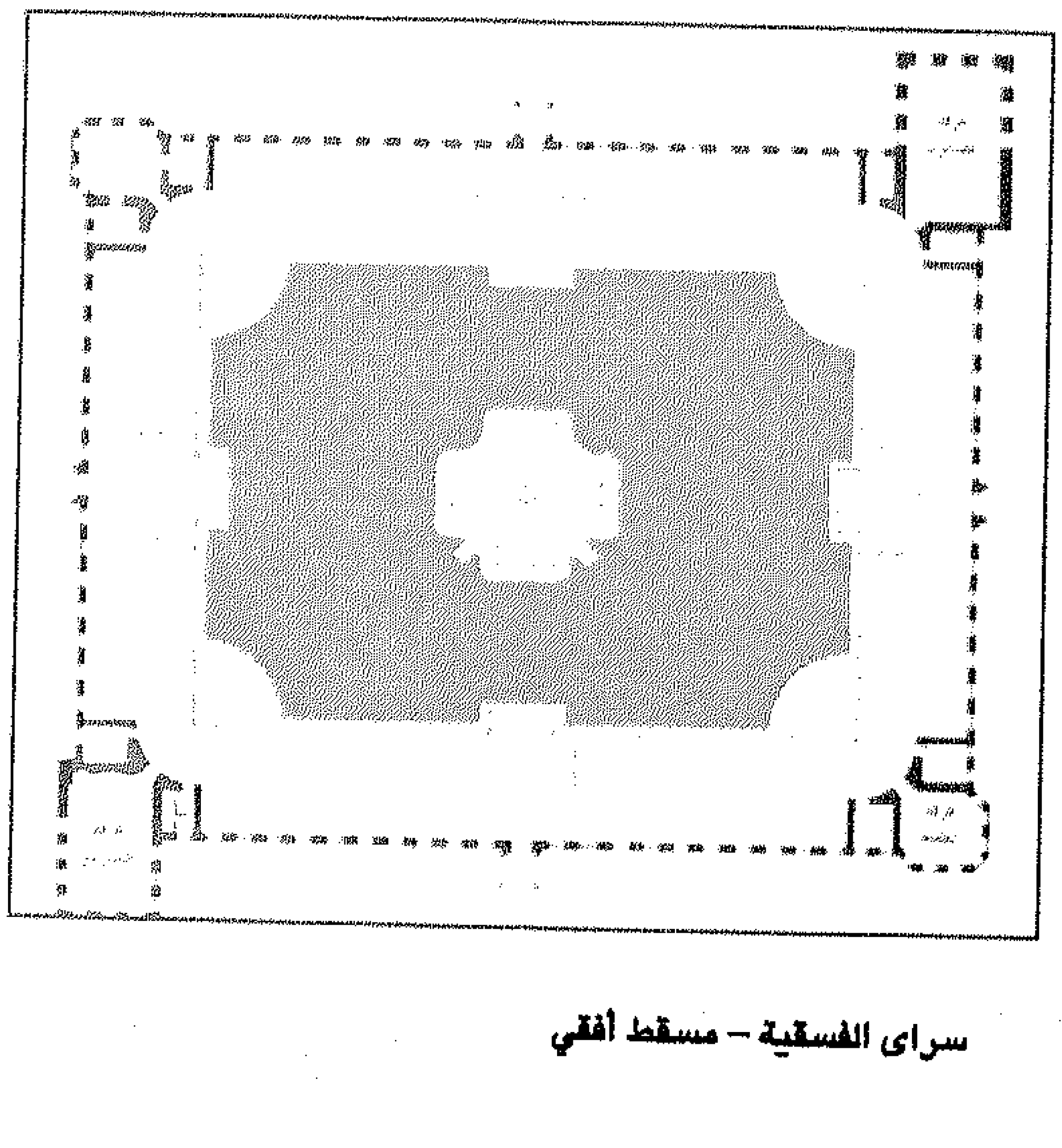

سراى الفسقية – مسقط أفقي

القاعة العربية: تقع هذه القاعة بالركن الشمالى الشرقي، سميت بالقاعة العربية لغلبة الزخارف العربية عليها، ومسقطها مثمن، وهى ذات أركان مشطوفة، بكل شطف نافذة، وبكل من الحائطين الشمالى والشرقى نافذتان، وأما الحائطان الجنوبى والغربى ففتح بكل منهما باب يؤدى إلى حجرتين ملحقتين بالقاعة. وسقف القاعة به زخارف نباتية مذهبة وملونة بعدة ألوان، به زخارف كتابية بها اسم محمد على باشا وإبراهيم باشا وتحوى تاريخ ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣ م.

سراى شبرا الصغيرة

بدأ التفكير فى إقامة هذه السراى فى ١٩ محرم ١٢٥٠هـ/ ٢٩ مايو ١٨٣٤م حينما ورد أمر عال إلى ناظر شبرا بانتخاب مساحة من الأرض قدرها ٨ أفدنة داخل حديقة شبرا، وأن يُبنى داخلها كشك أرضى أى من طابق واحد، يحتوى على خمس أو عشر حجرات، وكلف

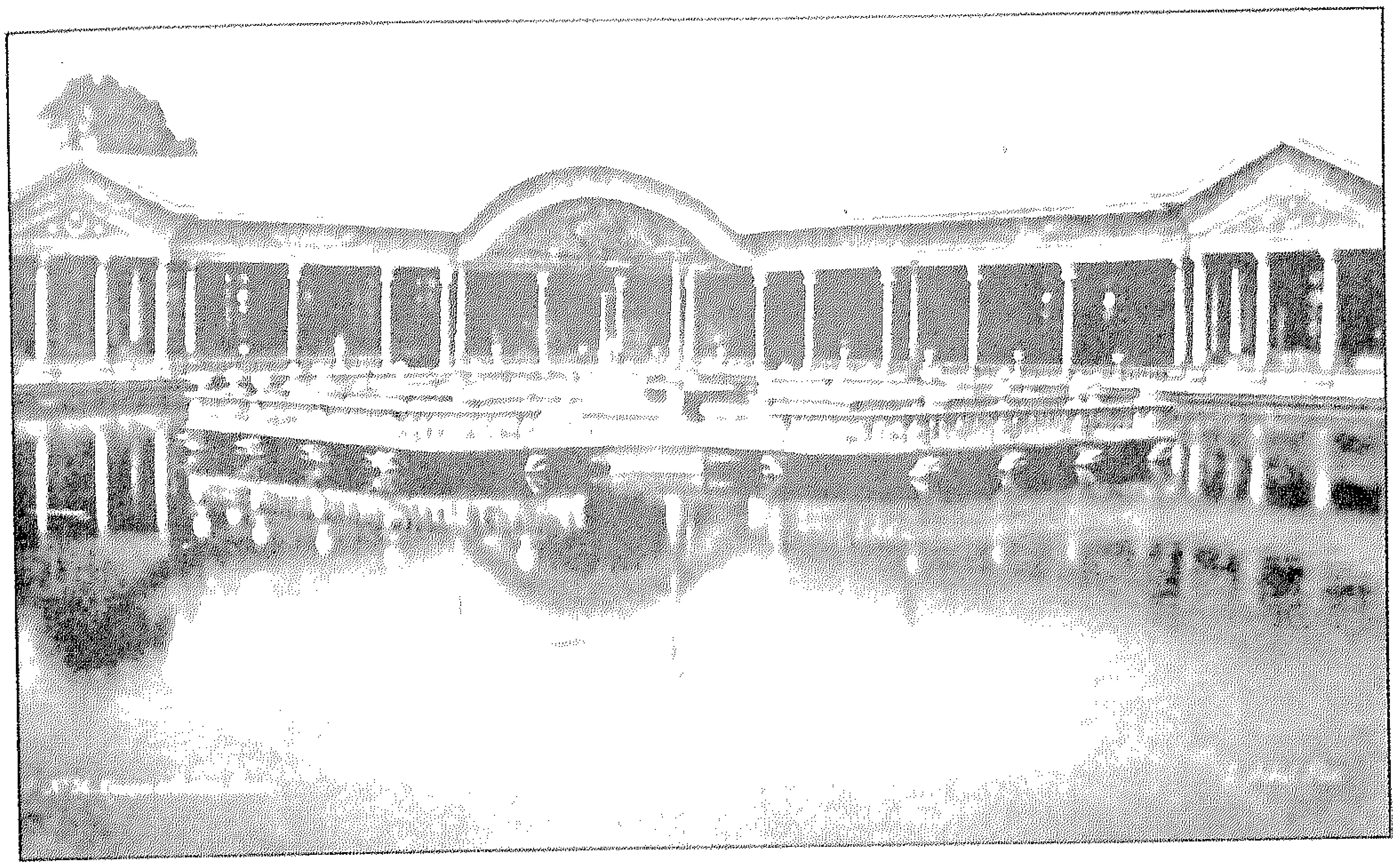

سراى الفسقية - تفاصيل

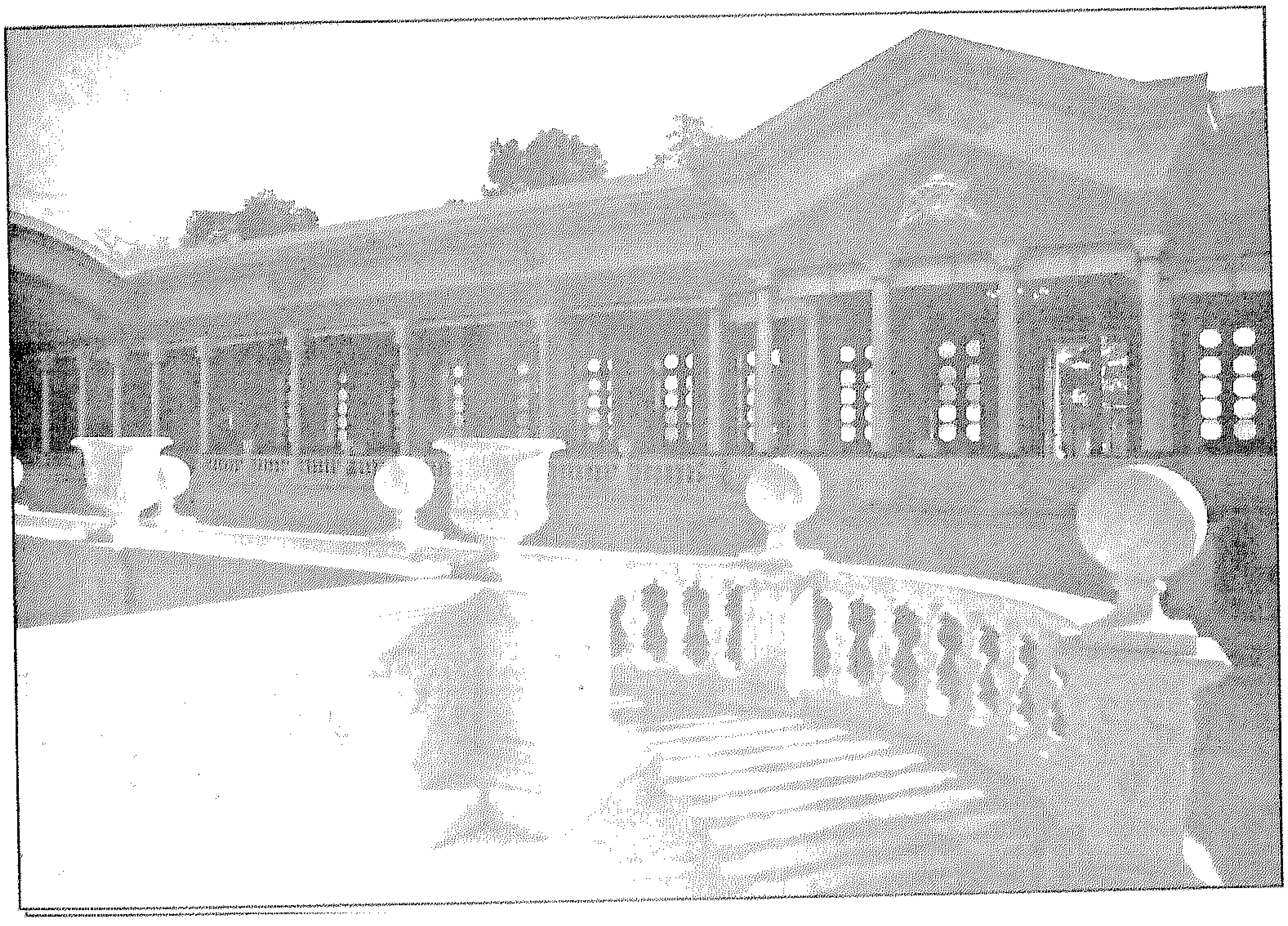

سراى الفسقية - تفاصيل

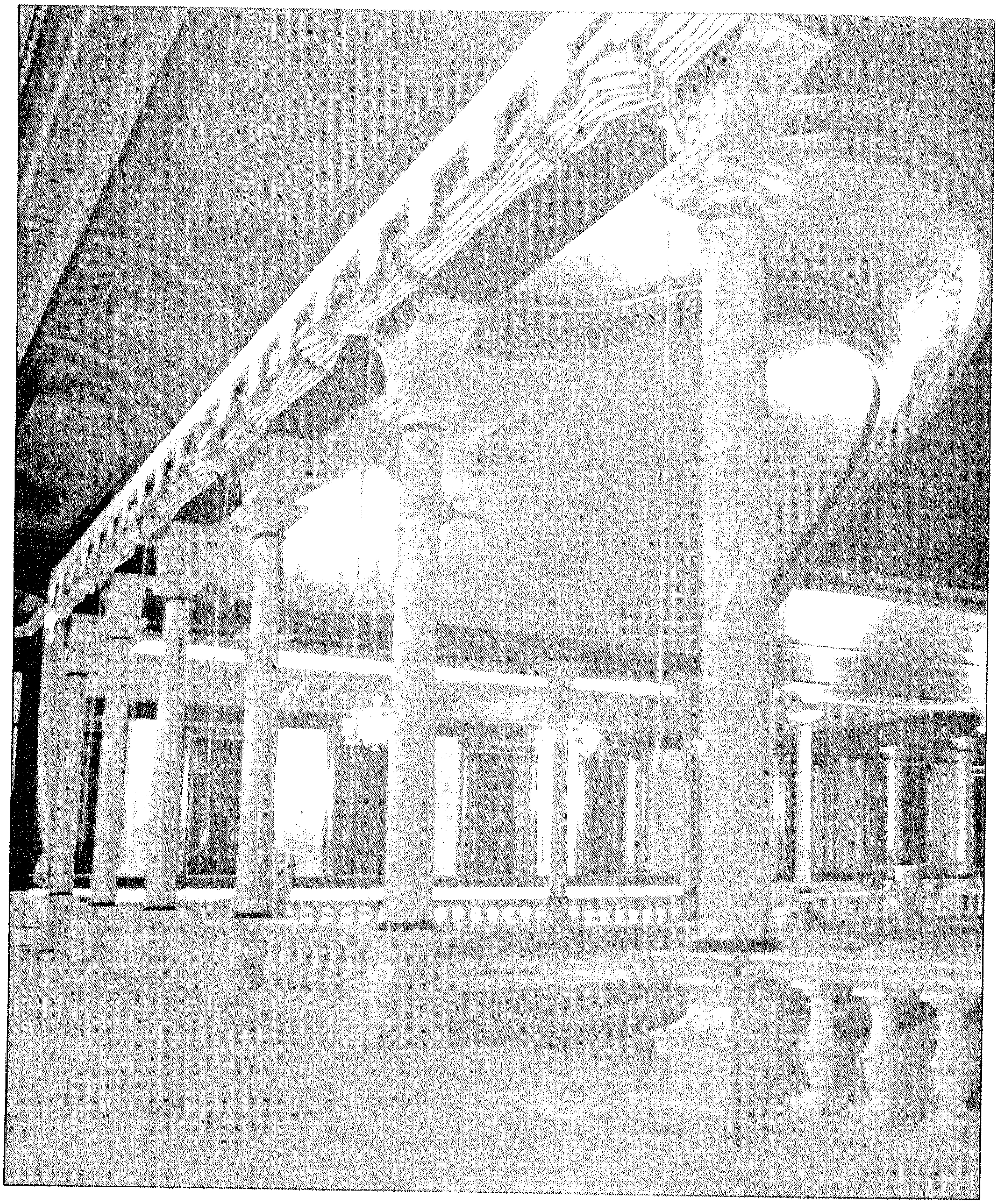

سراي الفسقية - تفاصيل

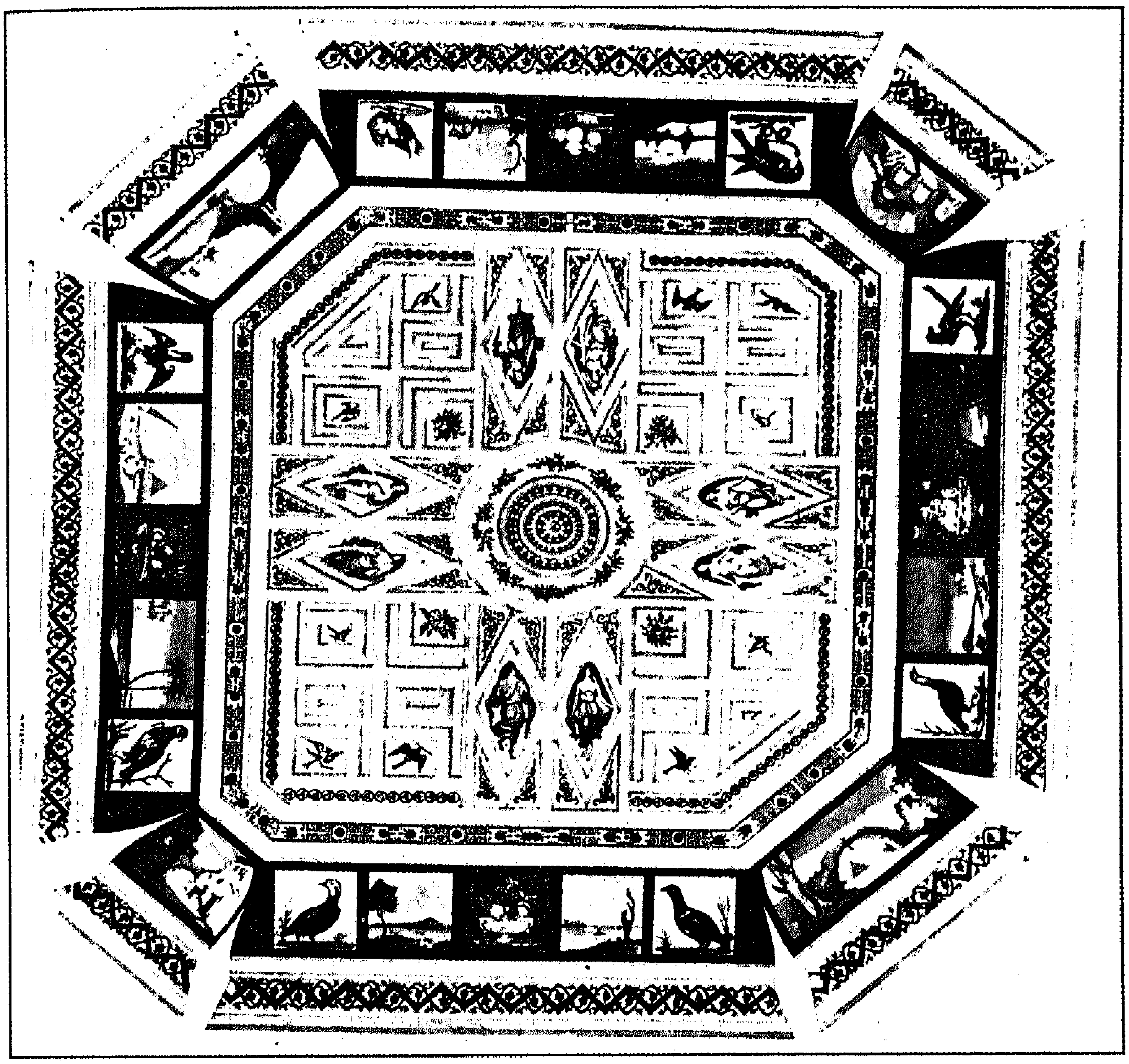

قاعة الطعام – زخارف السقف

حكيكيان وهو مهندس أرمني[٩٦] بعمل عدة تصميمات للكشك المذكور[٩٧]. وطلب محمد على أن يراعى فى ذلك الكشك أن تكون جميع نوافذه مطلة على الحديقة من جميع جهاتها الأربع[٩٨]. وأن تصنع الأعمدة الخشب اللازمة لهذا الكشك فى ورشة بولاق[٩٩]. وضع محمد على حجر أساس هذا الكشك بنفسه فى رجب ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م[١٠٠]. وذلك بعد أن توافرت مواد البناء المحلية والمستوردة بالموقع ومنها الرخام[١٠١] والطوب، هذا عدا الجير والخشب والأحجار من جبل طرة[١٠٢]. ويبدو أن هذه السراى حدثت بها تجديدات فى عصر عباس الأول[١٠٣]. ومن المرجح أنه كان يتوسطها بركتان للمياه، تم تخصيص طلمبة مياه لهما حتى لا يدخل السقاءون إليهما. وربما خصصت هذه السراى للحريم[١٠٤].

سراى الجبلاية

أقيمت هذه السراى على جبلاية أو تل صناعي، بدأت أولى خطوات إقامته فى ٣ شعبان ١٢٥٢هـ / ١٤ نوفمبر ١٨٣٦ م. عندما عرض أحمد بك مفتش الأبنية على محمد

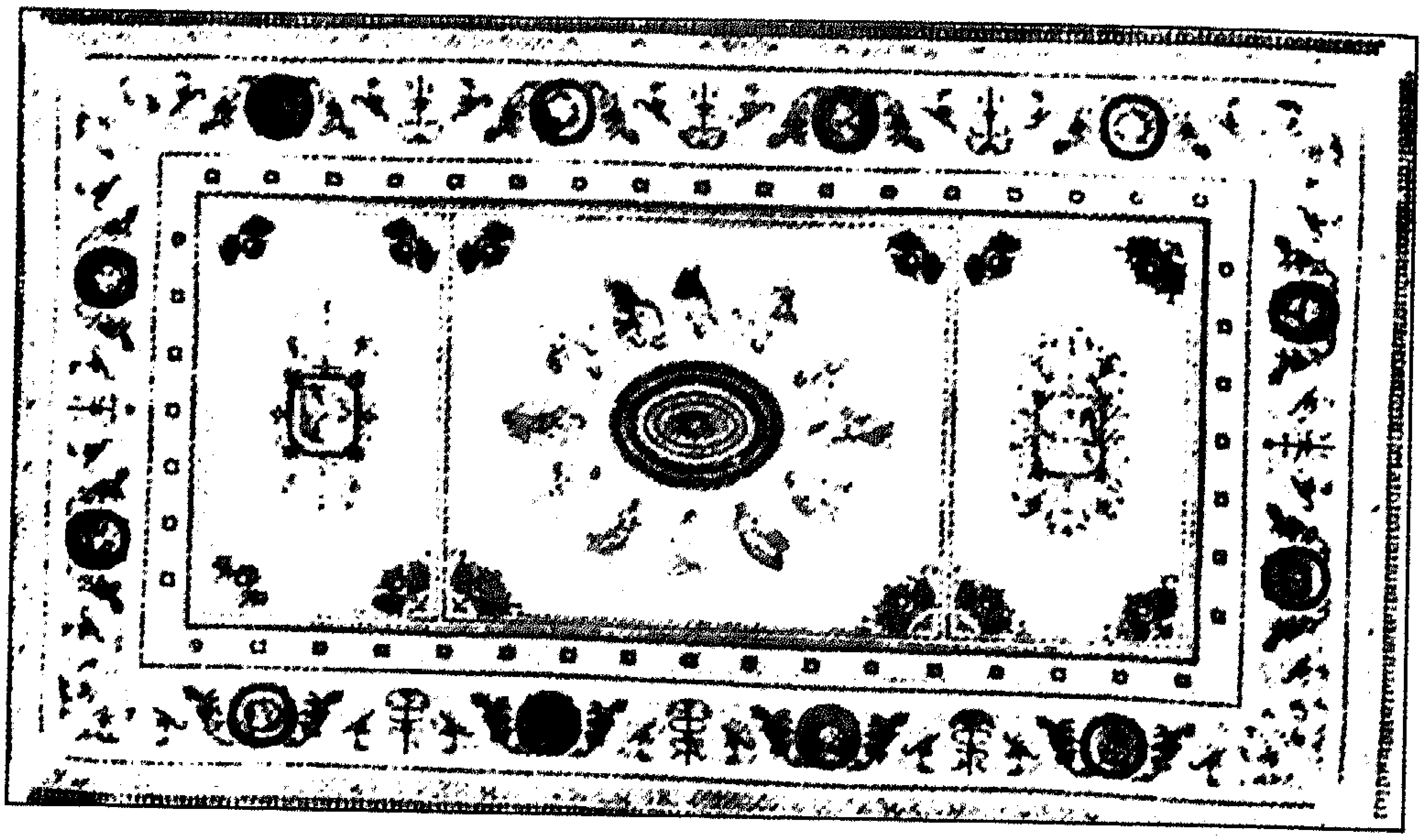

قاعة البلياردو - زخارف السقف

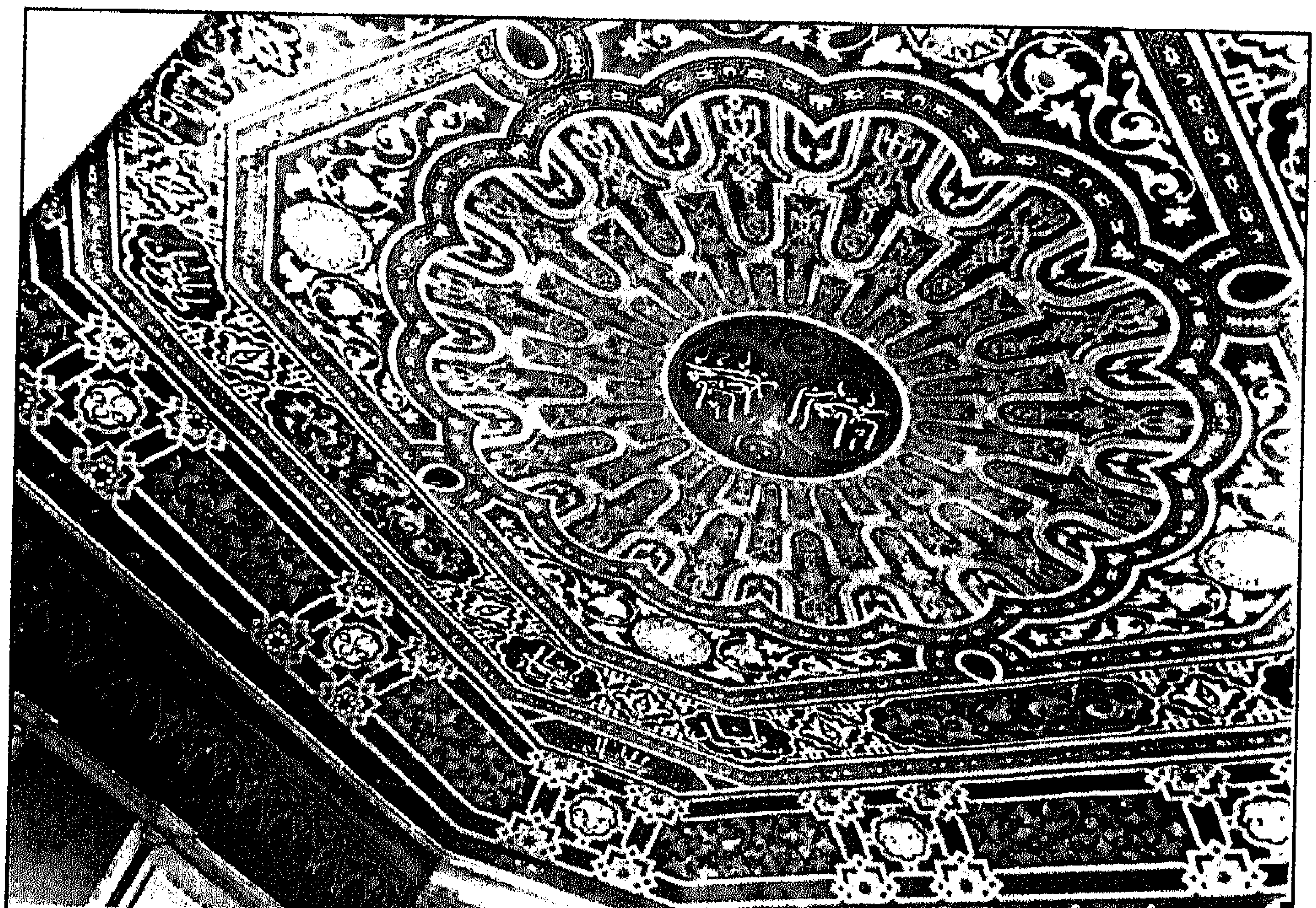

القاعة الغربية - زخارف السقف

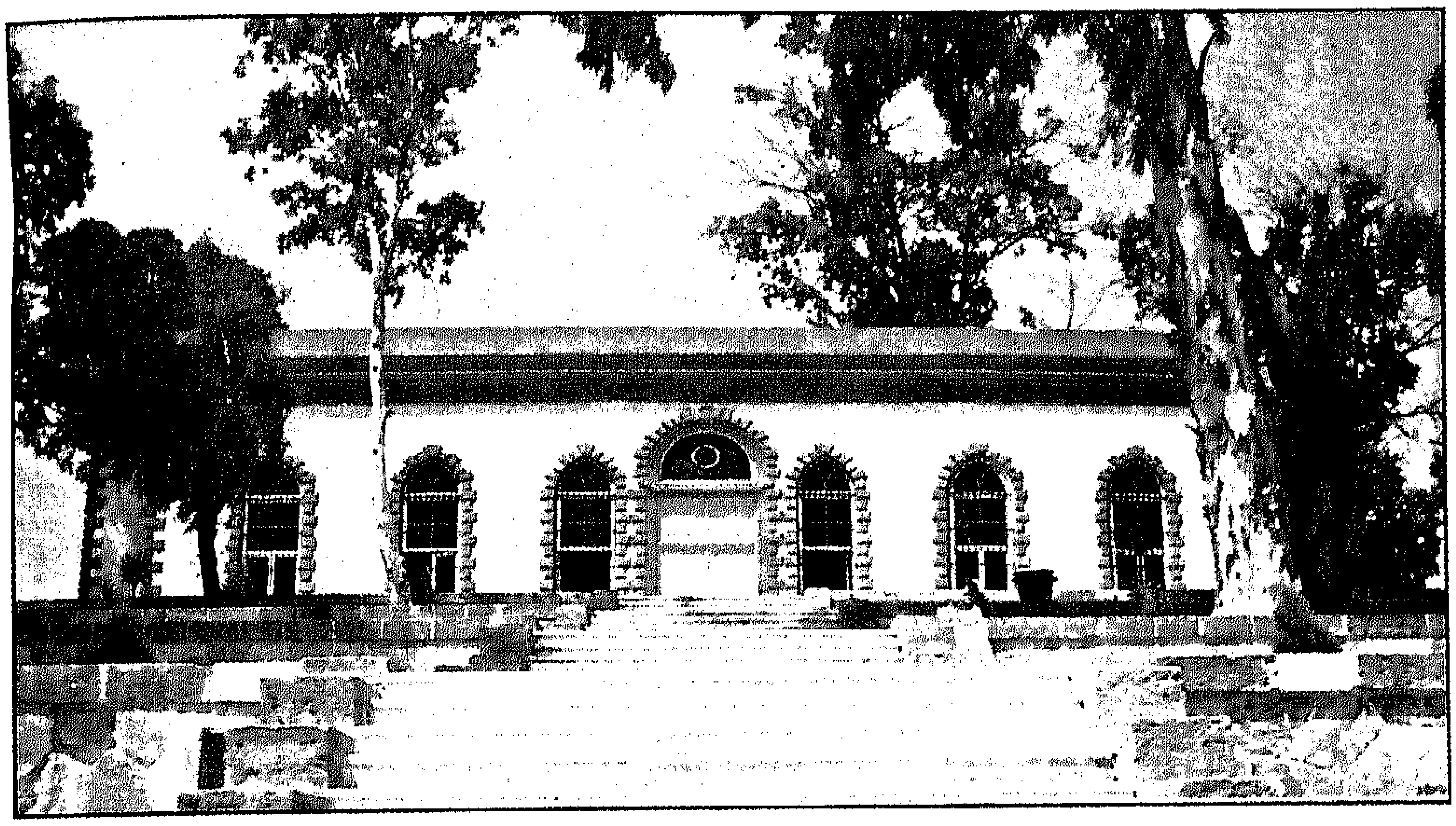

سراى الجبلاية

على تصميما لإنشاء جبل صناعى على شكل هرم مدرج فى محل الكرم القديم أمام سراى شبرا، وبمقتضى الرسم يحتاج التنفيذ إلى ١٠٠٠ ذراع من البناء، ونال هذا التصميم موافقة محمد على[١٠٥]. وفى ٤ سبتمبر تم إخبار محمد على بانتهاء العمل فى هذه الجبلاية، وسألت الوثيقة عن رأى الباشا فى ألوان القماش الذى يراد تأثيث كشك الجبلاية به[١٠٦]. ويذكر دليشفالرى أن سلم الجبلاية يبلغ عدد درجاته ١٥٠ درجة مصنوعة من الحصى المرصوف على شكل فسيفساء وجانباه من المرمر الأبيض وغطيت السلالم بأشجار دورانية فأصبح هذا السلم أشبه بالنفق[١٠٧]. وتم تزويد كشك الجبلاية بفسقية. توقف العمل بها بوفاة محمد على، وأكمل فى صورته النهائية فى عصر الخديوى عباس حلمى الأول[١٠٨].

يقع بناء السراى على سطح مستوى أعلى الجبلاية، ويعتبر السلم الغربى هو الرئيسى لمواجهته سراى محمد على، وتبلغ المساحة الكلية للسراى ٤٠,٣٤٥ م وهو مبنى مستطيل ولاستقلاله عن أية أبنية مجاورة له. فقد أولى المعمار لواجهاته عناية خاصة، فحدد المعمار أطراف الواجهات، وكذلك فتحات النوافذ والأبواب بمداميك حجرية غائرة وبارزة على هيئة الجنزير.

يعتمد التصميم الداخلى للسراى على كتل محورية تلتف حولها وحدات التصميم المكونة للسراى، وهذه الكتلة عبارة عن صالة مستطيلة تمتد من الشرق إلى الغرب، ويتخذ منتصف هذه الصالة مسقطا دائريا تتوسطه فوارة مستديرة من الرخام تسقفها قبة ضحلة مزخرفة بتفريعات نباتية قسمتها ثمانى مناطق، وفى مركز القبة أشكال تيجان يحيط بها زخارف نباتية وزهور مذهبة. وبقية سقف الصالة خال من الزخارف غير أن السقف يبدأ بطى زخرفى يعتمد على زخرفة البيضة والسهم. والقطاع الجنوبى من السراى يمتد بطول الصالة ويفتح عليها بثلاثة أبواب، تؤدى إلى ثلاث حجرات تفتح الجانبيتان منها على الوسطى ببابين، ويشبه القطاع الشمالى سابقه، وتعد الحجرة الوسطى بمثابة قاعة كبيرة[١٠٩]. وألحق بهذه السراى مطبخ وكلار، وذلك أسفل بروز الواجهة الجنوبية.

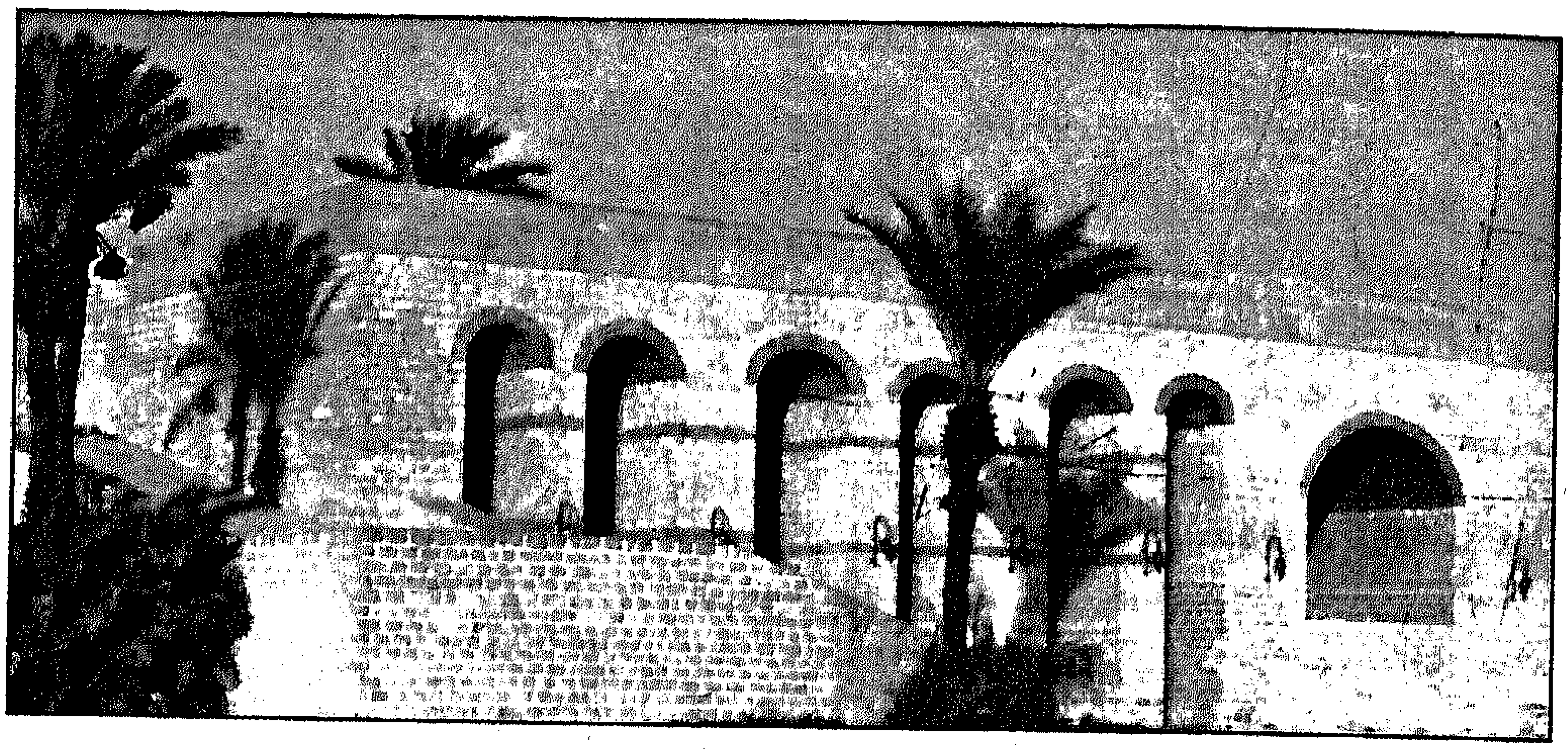

سراية شبرا – الساقية

القصر المستجد

أنشئ هذا القصر فى عهد عباس حلمى الأول. وورد الأمر ببنائه فى شوال ١٢٦٦ هـ / أغسطس ١٨٥٠م، ونص أمر البناء على تشييد قصرين أحدهما فى المنيل وآخر فى شبرا. ومن المرجح أنه شيد عوضا عن قصر آخر احترق فى محرم ١٢٦١هـ / ١٨٤٥م. وكان محمد على وافق على تشييد القصر الجديد، ولكن حالت وفاته دون البدء فى هذا المشروع. ولكن عندما تولى عباس الحكم أمر بإتمام البناء[١١٠].

السواقى والصهاريج

ألحق بقصر شبرا عدد من السواقى والصهاريج إحداها كانت من صنع المهندس الإنجليزى برسيد، كان معظمها يقع على خط مستقيم مع قصر شبرا الكبير. وقد تبقى برج إحدى هذه السواقى إلى الآن، وهو يعود لسنة ١٢٢٧هـ / ١٨١١م.

برج الطيور

تذكر الوثائق اسم هذا البرج لأول مرة فى ١١ شوال ١٢٥٠هـ / ١٨٣٥م، حينما طلب المهندس حكيكيان تصنيع ١١٦ عامودًا[١١١]. فى ورشة الحديد ببولاق خاصة بأبنية تبنى فى شبرا من ضمنها هذا البرج.

معمل لتحضير الغاز

كان أول استعمال للإنارة بغاز الاستصباح فى مصر فى قصر شبرا، وتبقى بعض أعمدة الإنارة به فى الجبلاية، حيث وضعت على المدرجات[١١٢]. كان إدخال هذه الوسيلة للإنارة على يد المهندس جالوى سنة ١٨٢٤م فى احتفال رسمى أقيم فى الرابع والعشرين من مارس من هذه السنة[١١٣]، وذلك بعد الانتهاء من إنشاء معمل لتحضير هذا الغاز بالقصر.

إذا كانت هذه المنشآت هى أبرز معالم قصر شبرا، فإنه تجدر الإشارة إلى أن حديقة القصر كانت تضم بعض الأبنية المتناثرة مثل مسرح السمر المبنى على الطراز البيزنطي. فضلا عن العديد من الوحدات المعمارية الخدمية.

حديقة شبرا

تكشف حديقة شبرا السبب الظاهر لاتجاه محمد على نحو هذه المنطقة، إذ بين دلشالفرى أنه أراد أن يتخذها مصيفا، ويبدو أن هذا كان جزءا من وظيفتها فى عصر الولاة العثمانيين، تم تأسيس هذه الحديقة عام ١٨٠٦م. أى قبل شروع محمد على فى إقامة العديد من المنشآت لإقامته هناك بدءا من عام ١٨٠٩م. بلغت مساحة حديقة شبرا سبعين فدانا وكانت تقع شرق قصر شبرا[١١٤]. وهى منشأة على النمط المصرى المنتظم، تتخللها

طرقات مستقيمة ممتدة فى جميع الاتجاهات، والأقسام المحصورة بين الطرقات زرعت بأشجار الفاكهة ونباتات الزينة. وجلبت لها النباتات من كل مكان لأنها استغلت فى التجارب. وشاب هذه الحديقة عيب كبير، حيث لم يكن ردمها كافيا، وهو ما أدى إلى غرقها فى مواسم فيضان النيل[١١٥]. وحال ارتفاع تكلفة إصلاحها دون ذلك أحيانا. واقتطع جزء من هذه الحديقة قدره ٨ أفدنة لتقام به حديقة خصوصية بُنى بداخلها كشك للحريم[١١٦]. وأهملت هذه الحديقة فيما بعد، بخاصة بعد أن آلت بالوراثة إلى الأميرة هانم ابنة الخديوى إسماعيل، بعد أن ورثتها عن أمها، فأمر إسماعيل نظارة المالية بشرائها لصالح الدولة[١١٧].

ولا نستطيع أن نتخيل شبرا كمنطقة مختارة كأحد مقار الحكم فى عصر محمد على، دون أن يكون لها اتصال بالمدينة الرئيسية القاهرة، فكان هناك طريقان: الأول، طريق النيل، وقد استخدم مرات عديدة من قبل محمد على. والثانى طريق برى فتحه محمد على فى سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م. عرف بشارع شبرا، امتد من ميدان رمسيس حاليا وحتى قصر شبرا، وغرس الأشجار على جانبيه. وبنى على جانبه الغربى عدة قصور. وهو ما ساعد على نمو شبرا عمرانيا[١١٨].

لقد كان محمد على متأثرا فى قصره بسلاطين العثمانيين، حين قام ببناء القصور المحاطة بالحدائق والجواسق[١١٩]. وإذا كان التأثير العثمانى محدودا فيما سبق، وكان أبرز وضوح له فى المنشآت الرسمية من قبل الولاة فى عصر قوتهم بمصر والمنشآت المشيدة من قبل السلاطين، إلا أن استدعاء محمد على لصناع من الدولة العثمانية وأوروبا[١٢٠] ساعد على قوة انتشار ما يعرف بالطراز الرومى المنسوب لبلاد الروم أى إستانبول والقسم الأوربى من الدولة العثمانية، وهو يعتمد على الأخشاب كعنصر إنشائى أساسى، ورغم اعتراف محمد على بفشل هذا الطراز وضعفه إلا أنه استمر فى استخدامه فى العديد من منشآته[١٢١] علما بأن العديد من العناصر المعمارية والزخرفية الأوروبية تغلغلت فى هذا الطراز.

مقر الحكم فى عهد عباس حلمى الأول[١٢٢]

تعددت القصور التى أقام بها عباس حلمى الأول خلال فترة حكمه لمصر والتى امتدت من ١٨٤٨ إلى ١٨٥٤م. ويمثل عباس حلمى صورة لحاكم أغلق بلده فى وجه الأجانب خوفا عليها منهم، وحاول فى ظل الصراعات الدولية آنذاك أن يحفظ كيانها، وكال له الأجانب وتبعهم المؤرخون اتهامات لا حصر لها. بينما تدل أعماله العمرانية على بعد نظره، والذى أثبته التوسع العمرانى للقاهرة فى العصور التالية لعصره.

تركزت قصور عباس حلمى فى عدة محاور، لعل أولها المحور الداخلى بالمدينة القديمة وتمثل فى سراى الخرنفش وسراى الحلمية. والمحور الخارجى وتمثل فى سراى العباسية وسراى الدار البيضاء وسراى بنها.

المحور الداخلى

تعد سراى الخرنفش التى شيدها داخل المدينة القديمة أكثر تأثرا بطرز العمارة الإسلامية فى مصر عن باقى سراياته، إذ كانت ذات إيوانات وفناءين وبستان صغير. وعرفت بالإلهامية نسبة لابنه إبراهيم إلهامى باشا[١٢٣]. أما سراى الحلمية فتعود أهميتها لقربها من القلعة، ولأنها كانت محل إقامة العديد من الأمراء بدءا من العصر المملوكى، وزادت فى العصر العثمانى رغبة كبار الأمراء والتجار فى السكن فى هذه المنطقة الواقعة على ضفة بركة الفيل[١٢٤].

أمر عباس ببناء هذه السراى عام ١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م. وبالغ فى تشييدها وسعتها، أنشأها فى مكان بيت إبراهيم بك شيخ البلد وبيت مراد بك وبيت محمود بك كتخدا محمد على وبيوت أخرى لأمراء سابقين. وكلف عباس على باشا مبارك – بعد عودته من فرنسا – بعمل تصميم لميدان وإسطبل وعربخانة وجبخانة وسجن ملحقة بالقصر وميدان يجدد هواء المنطقة[١٢٥]. وهذه السراى جمعت فى عمارتها بين الطراز الرومى والعمارة الأوروبية الوافدة وبعض التأثيرات المحلية. وقام بتأثيث هذه السراى الخواجة بتراكى بمفروشات استوردت من أوروبا[١٢٦].

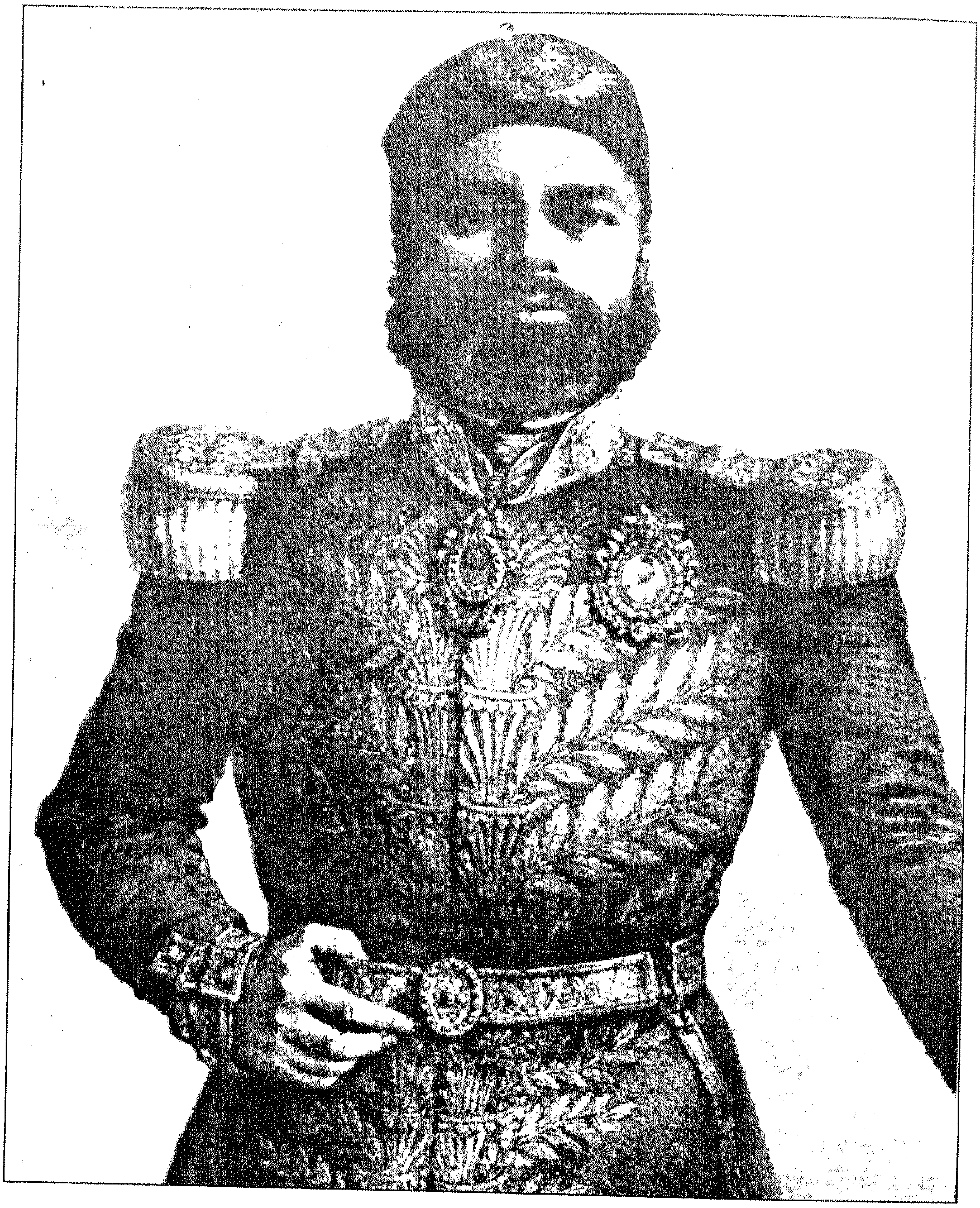

عباس حلمي الأول

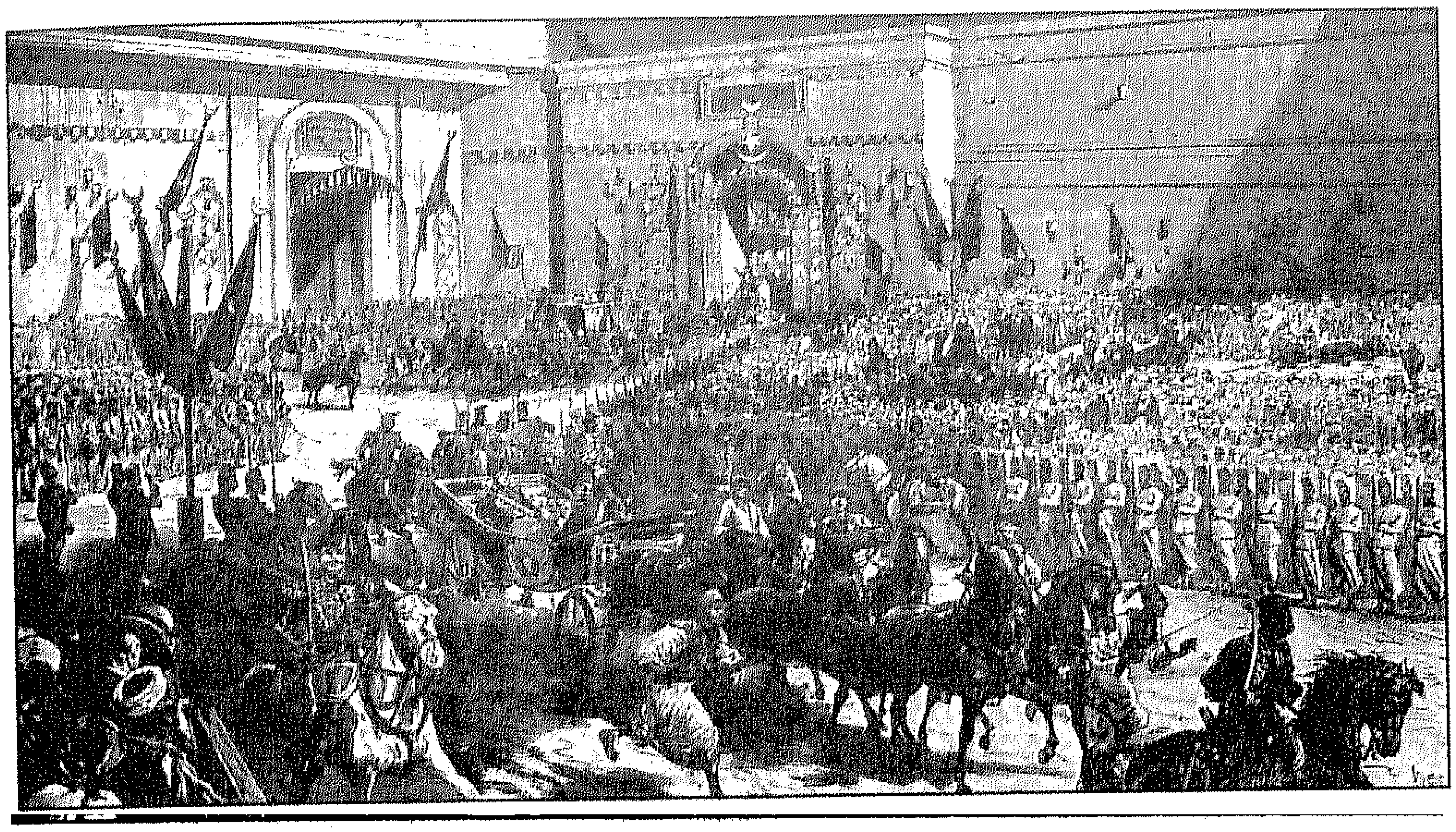

سراى الحلمية

سراى العباسية

أثبتت الحوادث ومجريات الأمور بعد عصر عباس بعد نظره حين أقام قصرا له فى صحراء الحصوة أو الريدانية، وكان لسياسات عباس التى تهدف إلى تحييد مصر فى الصراع الدولى ومحاولاته الحصول على استقلالها، وكرهه الفرنسيين مما كان له أثر فى نشأة آراء ضده لدى المؤرخين، ولم يكن قصر عباس، مكانا منفيا بالصحراء، بل شيد فى منطقة تعد امتدادا عمرانيا طبيعيا للعاصمة، حيث انتهت قرافة المماليك، بل دخلت قبة العادل طومان باى ضمنه. فضلا عن قربه من منطقتى الظاهر وباب الشعرية، وهما الامتداد الشمالى للمدينة، وصحب إنشاء قصر عباس تشييد حى سكنى جديد عرف بالعباسية وزعت أراضيه على أعيان مصر وأثريائها وأفراد الأسرة المالكة. ويتضح من المصادر التاريخية أن العباسية خططت كحى سكنى حديث. كان عباس قد أصدر أمرا فى ٢٧ جمادى الآخرة ١٢٦٥هـ/ ٢٠ مايو ١٨٤٩م إلى رئيس مجلس الأحكام بسرعة تنفيذ هذا المشروع لتعمير مدينة القاهرة، وحث رجال الدولة على سرعة البناء ووضع عقوبات على عدم أو تأخر التنفيذ، ونص هذه الإرادة:

"غنى عن البيان أن أبنية موطننا العزيز مدينة القاهرة ليست على الطراز الحديث – وهذا يعنى أن عباس أراد تشييد مساكن العباسية على الطراز الرومى أو الأوروبى الذى بدأ يشيع فى مصر – وأن المساكن الموجودة فيها قديمة ومشرفة على الخراب، وحيث إن البلاد وما حواليها والحمد لله فى أمن وأمان وأمراؤها كلهم من أصحاب الثروة واليسار، وهنا يشير إلى الاستقرار الذى حدث فى مصر بدءا من عام ١٨١١م حين نجح محمد على فى القضاء تدريجيا على خصومه وبالتالى درء الاضطرابات المستمرة التى كانت تسود القاهرة – وحيث إن صحراء الحصوة ممتازة بجودة هوائها فيجب فى هذه الحالة إقامة العمارة بها والإقامة فيها والاستفادة والتمتع من بهائها – الطقس الجيد هنا أحد أسباب رغبة عباس فى إقامته هذا الحى السكنى – لهذا قد صدرت إرادتنا بعد عودتنا من الأستانة لوضع خريطة وافية لهذه الصحراء وتقسيمها قطعا أساسية وتوزيعها على أمراء وذوات مصر ليبنى كل واحد قصرا فخما لنفسه ..."[١٢٧]. ويؤكد باقى الأمر على عدم التزام الأمراء والذوات بالبناء فى العباسية إلا عدد قليل منهم، وشدد عليهم بسرعة البناء.

والأمر يكشف عن تحول خطير فى توجهات الدولة تجاه السياسة العمرانية، وبدأ تدخلها بصورة مباشرة فى التخطيط العمرانى للمدينة، بل وإلزامها السكان بطرز محددة، وهو ما نرى صداه بقوة فى عصر إسماعيل. غير أن محاولة عباس لم تنجح بصورة جيدة، لأن الأرستقراطية وطبقة الحكم لم تستجب له رغم محاولاته، وربما مرجع هذا أن الاعتراض من قبل صفوة المجتمع على الإقامة هناك يرجع إلى قلة القطاع الخدمى فى العباسية، حيث لم توفر الحكومة البنية الأساسية للتعمير مثلما حدث فى الإسماعيلية مثلا، ولكنها تركتها رهنا لرغبة الناس فى وقت لم تكن فيه وسائل المواصلات تتيح فرصة للاتساع فى نطاق يبعد كثيرا عن القاهرة مقر الأعمال والمصالح فى تلك الفترة، بل فى بيئة أكثر صحراوية من شبرا مثلا، لكن المحاولة أصبحت أكثر جرأة ونجاحا فى عصر إسماعيل، ونحن نرى أن قصر فترة حكم عباس، وهى ست سنوات غير كافية للحكم على هذا المشروع، إذ إن المشروعات العمرانية تتطلب وقتا كافيا لكى تكتمل بخاصة فى مشروع لم يعتد المصريون على مثله من قبل، إذ كانوا غالبا ما يرغبون فى السكنى إلى جوار المدينة القديمة وفى داخلها أو بالقرب من شاطئ النيل لا فى الصحراء.

وإعادة تعمير المدينة القديمة يحتاج إلى أموال طائلة بخاصة إذا أراد عباس فتح شوارع جديدة أمام حركة العربات، وإقامة قصور له على نحو ما فعل إسماعيل. بينما الأسهل والأقل كلفة الانتقال إلى خارجها. وكان لعلاقة عباس القوية مع القبائل العربية التى كان يراها ظهره الذى يحميه ويرتكز عليه فى مواجهة أعدائه، بخاصة تركيا والأجانب، مع العلم بأنه سعى إلى إعلان مصر دولة مستقلة عن تركيا، كما سعى إلى نقل ولاية العهد لابنه إلهامي، كان لهذه العلاقة أثر فى اختيار قصوره خارج المدينة حتى لا يسببوا أية اضطرابات أمنية بها، وحتى يسهل له الاتصال بهم، بخاصة فى قصر الدار البيضاء الواقع على طريق القاهرة السويس[128]. وكان قد شرع فى بناء هذا القصر فى عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م[129].

القصر

اتسم قصر عباس باشا بالعباسية والذى يقع فى المساحة الواقعة الآن من طريق صلاح سالم حتى الكلية الفنية العسكرية، وذلك من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب من معهد إعداد فنى القوات المسلحة وحتى ميدان العباسية، وقد وصف القصر العديد ممن شاهدوه من الأجانب ومنهم جاسبرن الذى شاهد القصر عام ١٨٤٨م. وذكر أن كل شيء أتى من باريس ما عدا ثلاثة أشياء هي: فسيفساء صالة البلياردو، الأرضية الرائعة المكونة من البلاطات الكبيرة من الألبستر المحلى، الحمام[130].

وفى عام ١٨٥٥م يصف فردناند ديليسبس هذا القصر بأنه يضم ٢٠٠٠ نافذة، وهو ما يعكس ضخامته[131]. أما شارل ديدر فى عام ١٨٦٠م، فيرى أن عمارته ليس لها مثيل فى القاهرة، والتى يرى أنها تفتقد روح وعاطفة الفن الشرقي، وكان من جراء ذلك أن ضاعفت من قيمة ما تبقى من هذا الفن[132]. والتكوين المعمارى للقصر أمكن التعرف عليه بصورة مبدئية، فهو يشمل السلاملك، والذى كان به الاستقبال ومكاتب عباس باشا وبعض الدواوين بخاصة ديوان الخديوى وأماكن الحرس الخاص، والحرملك وهو القسم الخاص بالحريم، ويبدو أن القسمين كانا متوازيين، ويتكون كل منهما من طابقين بينهما أدوار مسروقة[133]. وأُلحق بقصر العباسية إسطبل كبير حوى أندر أنواع الجياد، كما زُود أيضا ببرج للحمام به أشهر أنواع الحمام العربي، وألحق به أيضا حديقة عرفت باسم فرحة النفوس[134]. تعود نظرة الأجانب لهذا القصر إلى أنهم ينظرون إلى القاهرة فى تلك الفترة على أنها مدينة ألف ليلة وليلة وبالتالى هم ينتظرون أن يروا فيها كل ما هو يتصل بروح الشرق وعمارته التى جاءت فى الليالي، وما رأوه فى عمارة قصر عباس ضخامة مستلهمة من العمارة الأوروبية المعاصرة فاستهجنوا ذلك.

أهمل هذا القصر بعد وفاة عباس وآل بالشراء إلى الخديوى إسماعيل، الذى شيد به مجمعا عسكريا وميدانا لسباق الخيل عام ١٨٤٦م، وبنى هناك كشكا سماه "الأنفياترو" يشرف على ميدان السباق لكى يستطيع هو

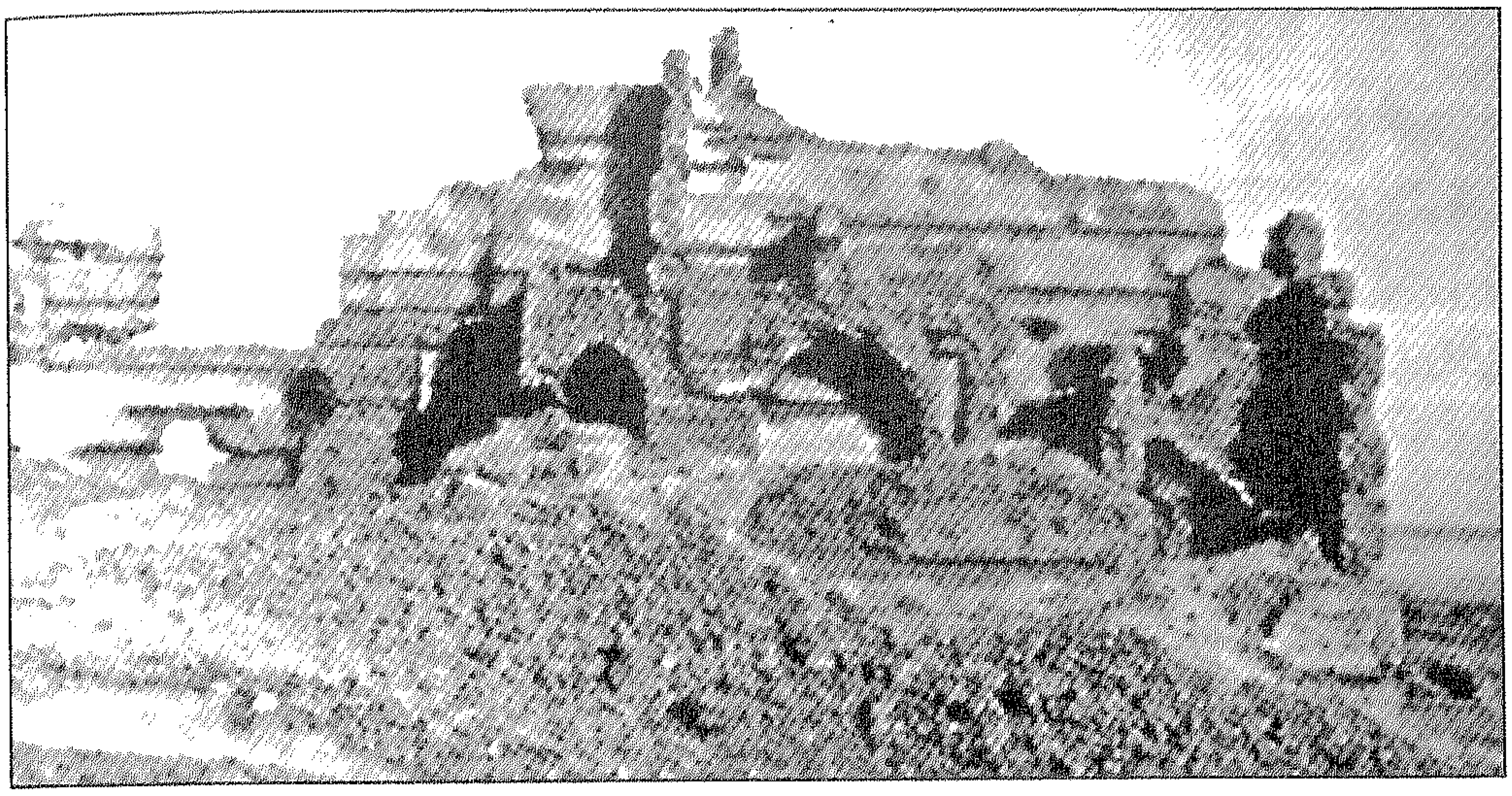

سراى الدار البيضاء

وضيوفه الأجانب مشاهدة المسابقات[١٣٥]. واهتم إسماعيل بربط العباسية بالقاهرة بطريق سمي بسكة العباسية. كما شيد قصرًا بالعباسية، احترق فيما بعد وتستخدم بقاياه كمستشفى للمجانين حاليا[١٣٦].

وصفوة القول أن العباسية كانت مشروعا عمرانيا لم تتح له فرصة النمو الكاملة، ولكن أثبتت الأيام جدواه، ولو كان عباس نجح فى نقل الحكم إلى ابنه لاكتسبت المنطقة أهمية متزايدة، لكن التحول السياسى بنقل السلطة إلى سعيد باشا ثم إسماعيل من بعده، كان له الأثر فى التحول العمرانى تجاه المنطقة المحصورة بين القاهرة وشاطئ النيل. وقد بقيت بعض الأجزاء من القصر وثكناته إلى اليوم.

• كان لاستقرار الحكم فى أسرة محمد على أثره أيضا فى ظهور عدد من القصور الريفية، وقصور خارج القاهرة، كقصر رأس التين بالإسكندرية، وقصر بنها الذى شيده عباس واغتيل فيه [١٣٧]. وكان القصر الأخير يقع على الشاطئ الشرقى من النيل، على خط سكة حديد القاهرة الإسكندرية، وكان متسعا ذا جدران مزخرفة، ألحق به بستان عرف بالأورمان وألحقت به بيوت لأتباع عباس باشا[١٣٨].

مقر الحكم فى عهد سعيد باشا

تعددت مقار إقامة الحاكم منذ عصر محمد على، ولكن ظلت للقلعة رمزيتها كمقر رئيسى للحكم، فقد شهدت تولية عباس باشا الحكم فى قصر الجوهرة، فى حفل حضره أفراد أسرة محمد على وكبار العلماء ورجال الدين وكبار رجال الدولة[١٣٩]، كما شهدت تولية سعيد باشا واستخدامه لها كمقر للحكم[١٤٠] على الرغم من شرائه قصر النيل وإعادة بنائه له. وكذلك قصر النزهة. والقصران الآخران استخدما من قبل سعيد باشا فى إدارة دفة الحكم إلى جانب القلعة.

قصر النيل

بنى هذا القصر لنازلى هانم ابنة محمد على باشا على ساحل النيل أمام جزيرة إبراهيم (الزمالك)، وأصلح فى ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧ م، ثم اشتراه سعيد باشا وهدمه بعد ذلك ووسعه وألحق به ثكنات للجيش تسع ستة آلاف جندي، ومد إليه خط سكة حديد. قام بتصميم هذا القصر المعمارى الإيطالى كيرو بانتيلى[١٤١] CIRO PANTANEELLI، كما قام بتوريد مواد البناء له المقاول الايطالى الشهير لوريا Loria الذى قام فى عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠ – ١٨٦١م

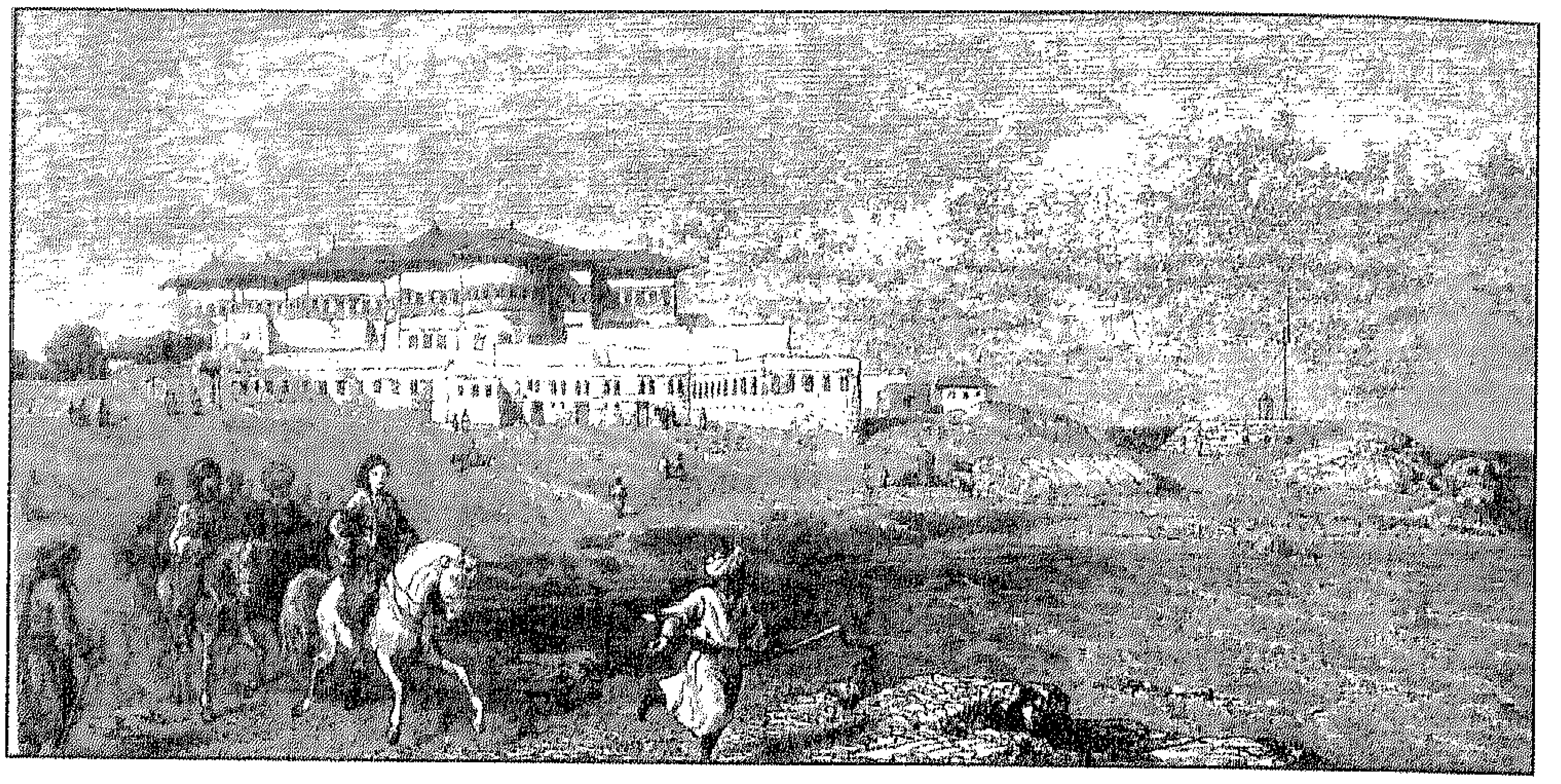

سراى رأس التين - الإسكندرية

بتوريد ٢٥٠ برطوم خشب للقصر[١٤٢]. سجل هذا القصر فى عداد الآثار الإسلامية فى ٩ يناير ١٩٥٢م، ثم أخرجته مصلحة الآثار من عداد الآثار الإسلامية فى ٢٦ مايو ١٩٥٤م لوقوعه فى امتداد شارع كورنيش النيل الذى فتح فى هذا الوقت، مع التوصية بالاحتفاظ بالزخارف الخشبية الإسلامية الطراز التى كانت توجد فى القاعة الكبرى الشرقية. والأعمدة الرخامية التى كانت توجد فى الشرفة الغربية المطلة على النيل[١٤٣]. وحل محل هذا القصر الآن فندق النيل هيلتون وجامعة الدول العربية .

قصر النزهة

كان هذا القصر يقع بالقرب من جزيرة بدران، بناه القنصل الفرنسى دلى بورت، ثم اشتراه سعيد وأضاف إليه قصرا إلى الجنوب منه[١٤٤]، ثم استخدمهما فى بعض مهام الحكم، وكان سعيد قد اشتهر بحبه للإسكندرية، ولذا كان يكثر الإقامة بها، حتى توفى هناك فى عام ١٨٦٣م، حيث دفن فى مسجد النبى دانيال[١٤٥].

مقر الحكم فى عهد إسماعيل

جاء نقل مقر الحكم من قصر النيل والقلعة فى عهد إسماعيل، ليجسد تكريس النفوذ المعمارى الغربى فى مصر، والذى بدأ فى عهد محمد على، ويعود نقل مقر الحكم من القلعة لأسباب عدة منها انتهاء عصر المماليك، أو الفرسان المحاربين بالسيوف، نتيجة لتطور المدفعية والبنادق وتحولهما إلى سلاح أساسى للدفاع والهجوم وبالتالى قلة أهمية القلاع كمراكز للتحصن وصاحب ذلك تغير تركيبة الطبقة الحاكمة من جنود محاربين يعتمدون على الشجاعة فى إثبات شرعيتهم، إلى طبقة متمدينة تعتمد على العلم، وعلى توارث الحكم بينها، وظهور الجيوش النظامية التى تخضع وتربى للولاء للحاكم.

قصر عابدين

سكن الخديوى إسماعيل قبل توليه حكم مصر فى منطقة عابدين، حيث اشترى دارين إحداهما لخورشيد باشا المعروف بالسنارى، والأخرى لإبراهيم بك الخوجة دار. وهدم أجزاء منهما لكى يدمجهما فى بعضهما، هذه الخطوة من المرجح أن إسماعيل قام بها بعد عودته من إستانبول، عند تولى عمه حكم مصر، أى بين عامى ١٨٥٤م و١٨٦٠م، وهو عام تولى سعيد حكم مصر. هذا ما ذكره لنا عبد الحميد نافع عن القصر[١٤٦] الذى أضاف أن إسماعيل قام بردم بركة البيرقان[١٤٧] التى تقع إلى الشرق من السراى وجعلها ساحة أمامها[١٤٨].

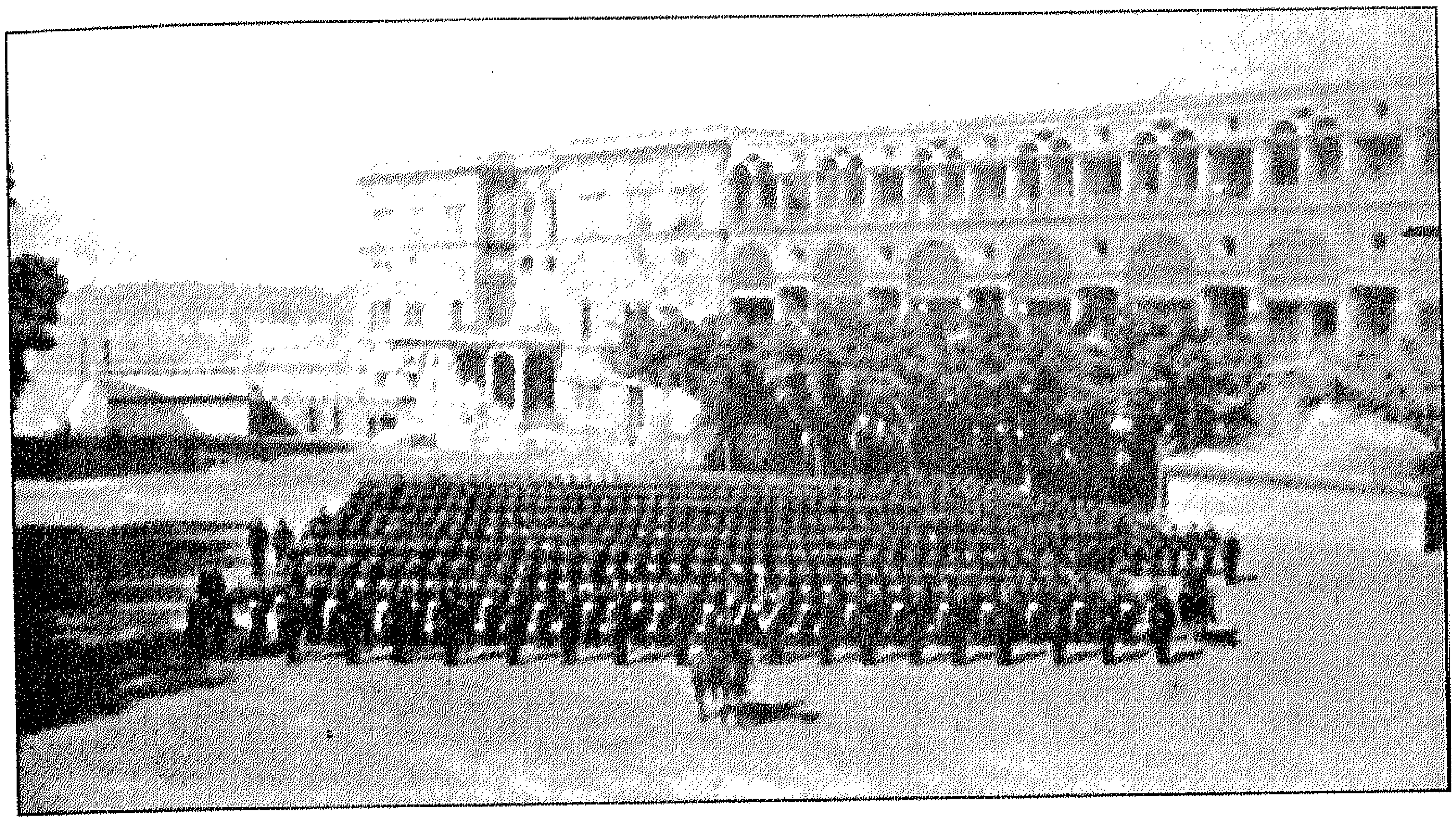

قصر النيل

ولكن حدث تطور مهم أدى إلى تغير خطط إسماعيل بالنسبة لهذه السراى، إذ رأى إسماعيل فى عام ١٨٦٨م، أن يحول السراى بعد أن أصبح حاكما لمصر إلى مقر للحكم على النمط الأوروبي، كما فعل من سبقوه مثل عباس فى قصرى العباسية والحلمية وسعيد فى قصر النيل، وتم وضع خطة لنزع ملكية العديد من المنشآت فى المنطقة المحيطة بالسراى، منها منازل وجوامع وزوايا وحدائق فى دائرة مساحتها ٢٤ فدانًا، شملت سراى الشربتلى ودار محمد بك ودار عثمان بك ابن إبراهيم الكبير والدرب الجديد بما فيه من دور، وعطفة التوتة، وحارة الزير المعلق التى أصبحت مبنى السلاملك، والحوش القبلي، ومنافع وميضأة جامع عابدين بك ....[١٤٩]. وأقام ديوان أمور خاصة بدفع ٢٠٤٨ كيسة وكسور ثمنًا للمنازل والحديقة التى نزعت ملكيتها من أجل بناء السراى[١٥٠] وقام الخديوى إسماعيل باستبدال أرض وقف عابدين بك أحد الأمراء العثمانيين، وكان أميرا للواء السلطاني، والتى بنى عليها القصر بخمسة وأربعين فدانا فى الأقاليم[١٥١]. وبلغ المصروف الشهرى لبناء السراى ٢٠٠ كيسة شهريا[١٥٢]، وتجاوزت المصروفات الخاصة بهذه السراى المخصصات المالية المحددة لها، إذ بلغت الزيادة المطلوبة لهذا الغرض فى عام ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م، ٣٨ ألف جنيه إنجليزي، واستوفى المبلغ من سندات الدين[١٥٣]. كان الخديوى إسماعيل مهتما بمتابعة العمل بنفسه، وعندما يتغيب خارج البلاد كان إسماعيل صديق المعروف بالمفتش، يتفقد العمل يوميا بصحبة توفيق باشا[١٥٤].

توضح الوثائق السابق ذكرها أن إسماعيل بدأ فى إعادة بناء سراى عابدين لتكون مقرا للحكم عام ١٨٦٣م، حين أمر فى ٥ نوفمبر، بشراء ما حول السراى، وهو العام نفسه الذى تولى فيه حكم مصر، واستمرت هذه المرحلة خمس سنوات، حيث لم يبدأ المهندس (دي كوريل دل روسو De Curel del rousseou)، العمل فى تشييد السراى الجديدة إلا عام ١٨٦٨م، وظل العمل جاريا بها إلى عام ١٨٧٥م. وخلال تلك الفترة استمر إسماعيل فى شراء المبانى التى حول القصر، إذ قام مراد باشا غالب مأمور خاصة خديوية فى عام ١٨٧٢م بشراء منزل من حسين آغا خربوتلي وزوجته روشان بنت عبد الله[١٥٥]. واشترى مراد باشا سنة ١٨٧٣م قطعة أرض مجاورة للإسطبل والعربخانة الخاصين بقصر عابدين، وهى

محمد توفيق باشا

نصف حصة خاصة بخورشيد أفندى طلعت بن عبد الله معتوق المرحوم أمير اللواء يعقوب بك، وتعرف هذه القطعة بحوش الجراكسة، وهى تقع جنوب قصر عابدين. ومن الواضح من هذا كله أن القصر بلغ مساحته الحالية فى عصر إسماعيل، وهو يتكون من طابقين بينهما عدد من الأفنية، وله عدة مداخل، تتركز الرئيسية منها فى الواجهة الشمالية، والباقى فى الواجهة الجنوبية ومداخل هذه الواجهة باب باريس، وباب رجب آغا، وباب ٣٢ الذى يواجه مرأب السيارات.

كان كورديل أشرك مجموعة من الفنانين الإيطاليين والفرنسيين والأتراك والمصريين لعمل الزخارف[١٥٦]. ومن هؤلاء فوريه وجيرار اللذين أجريا أشغال الزخرفة بالقصر تحت إشراف المسيو جران والمسيو أركولانى وبلغت قيمة هذه الأعمال ٥٣٥٦٨ فرنكًا[١٥٧]. وبلغت تكلفة القصر ٧٠٠٠٠٠ جنيه إنجليزي[١٥٨]، عدا الأثاث الذى تكلف ٢ مليون جنيه[١٥٩]. كما قام المقاول الفرنسى "بارتملى ريموندي" بتنفيذ العديد من الأشغال فى هذا القصر[١٦٠].

ووصلنا وصف للطابق الأول من القصر فى عصر إسماعيل حيث يذكر مكاون عنه (وهذا القصر هو صرح فسيح ولكنه بناء وضيع الشكل من الوجه الهندسي، وقد خصص جانب منه لدواوين الحكومة ومصالحها، وفى هذا الجانب بهو للحفلات والمآدب التى يقيمها سموه فى أوقات معينة، وفيه أيضا مجموعة من الغرف فى الطبقة الأولى يشرف فيها سموه على أعمال الدولة ويستقبل فيها زواره، وعلى مقربة منه سكرتيره الخاص وحاجبان مصريان يقفان على قمة السلم خارجا، أما البهو نفسه فلا يشف أثاثه أو زخرفه عن أى شيء من العظمة، ففيه سجادة عجمية كثيفة ومتكأ مكسو بالحرير وبضعة كراسٍ بنسيج يلائم نسيج المتكأ، وسجف النوافذ من ذلك النسيج عينه، وستة مصابيح بللورية معلقة على الجدران المزخرفة زخرفا عربيا، ومنضدة صغيرة مذهبة يجلس وراءها الأمير)[١٦١].

وهذا رأى فى القصر، خاص بصاحبه، ولكننا نستشف منه العديد من الملاحظات منها:

- أن جانبا من القصر خصص مقرًا للدواوين الحكومية ومصالحها.
- أن بالقصر قسما للحفلات والمآدب العامة.
- أن القصر شمل قسما خاصا بمكاتب الخديوي.

هذا يعنى أن مكاون يتحدث عن السلاملك، وهو

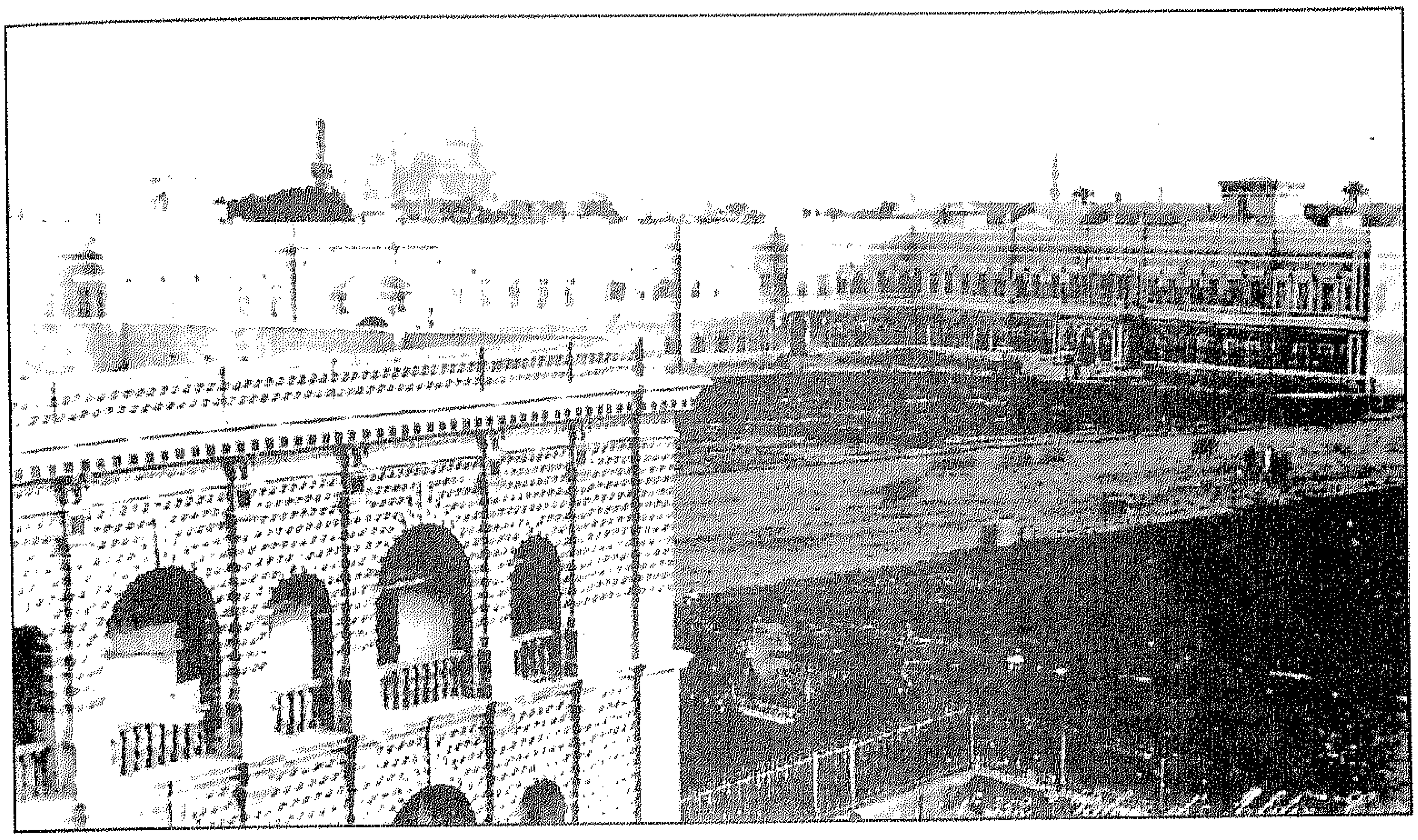

قصر عابدين

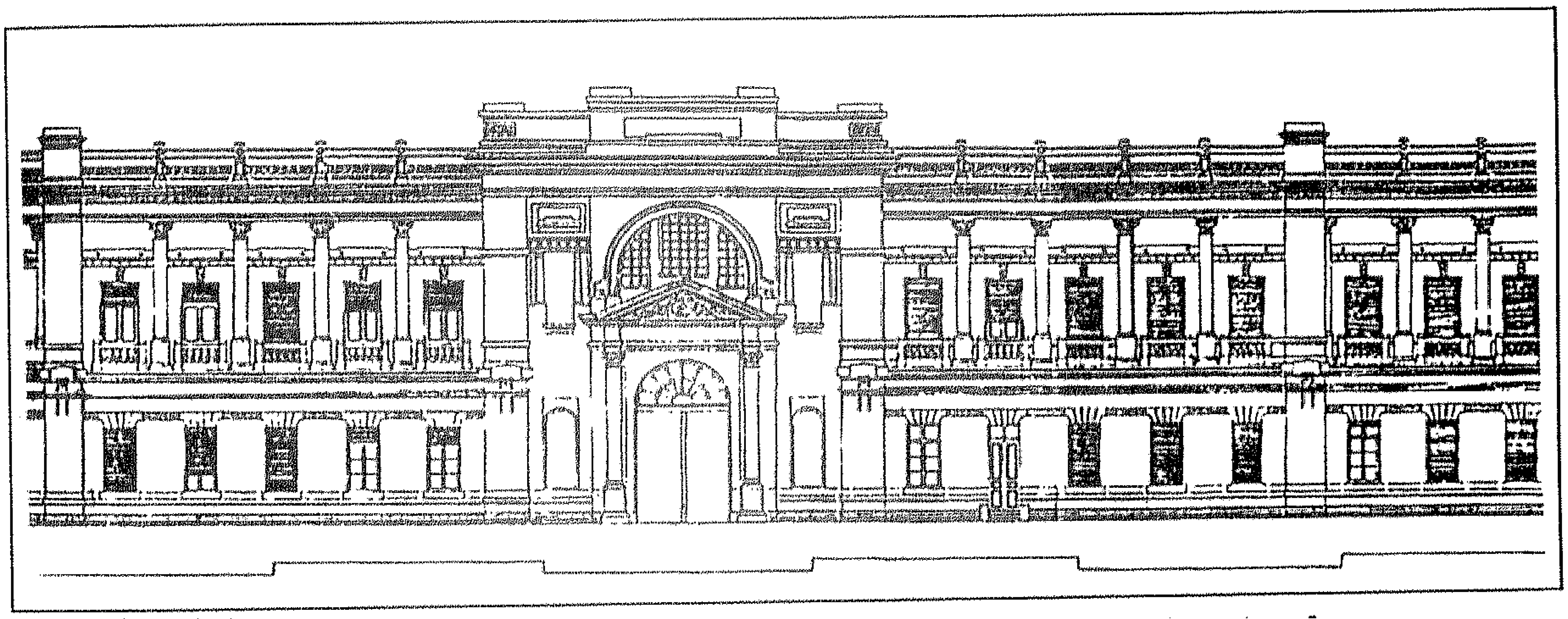

قصر عابدين – الواجهة الشمالية

الجانب الشمالى من القصر المواجه لميدان عابدين، وضم بالإضافة إلى ذلك الدائرة السنية الخاصة بإدارة أملاك الخديوي. كان القصر مقسما إلى قسمين رأسيين هما السلاملك السابق ذكره، والحرملك ويقع خلف القسم السابق ويحتل قسم منه الطرف الشرقى من واجهة القصر، بالإضافة إلى المطابخ، والحديقة الجنوبية الغربية، أكبر حدائق القصر، والتى ما زال باقيا بها من عصر إسماعيل كشك الشاى القبلي. كان القصر قد تعرض لعدد من الحرائق بدءا من عام ١٨٧٩م. أول حريق شب فى القصر، حيث بدأ من الطابق الأول الذى به السلاملك وامتد إلى الحرملك الذى اشتعل عن آخره، كما احترقت الغرف المجاورة له[١٦٢].

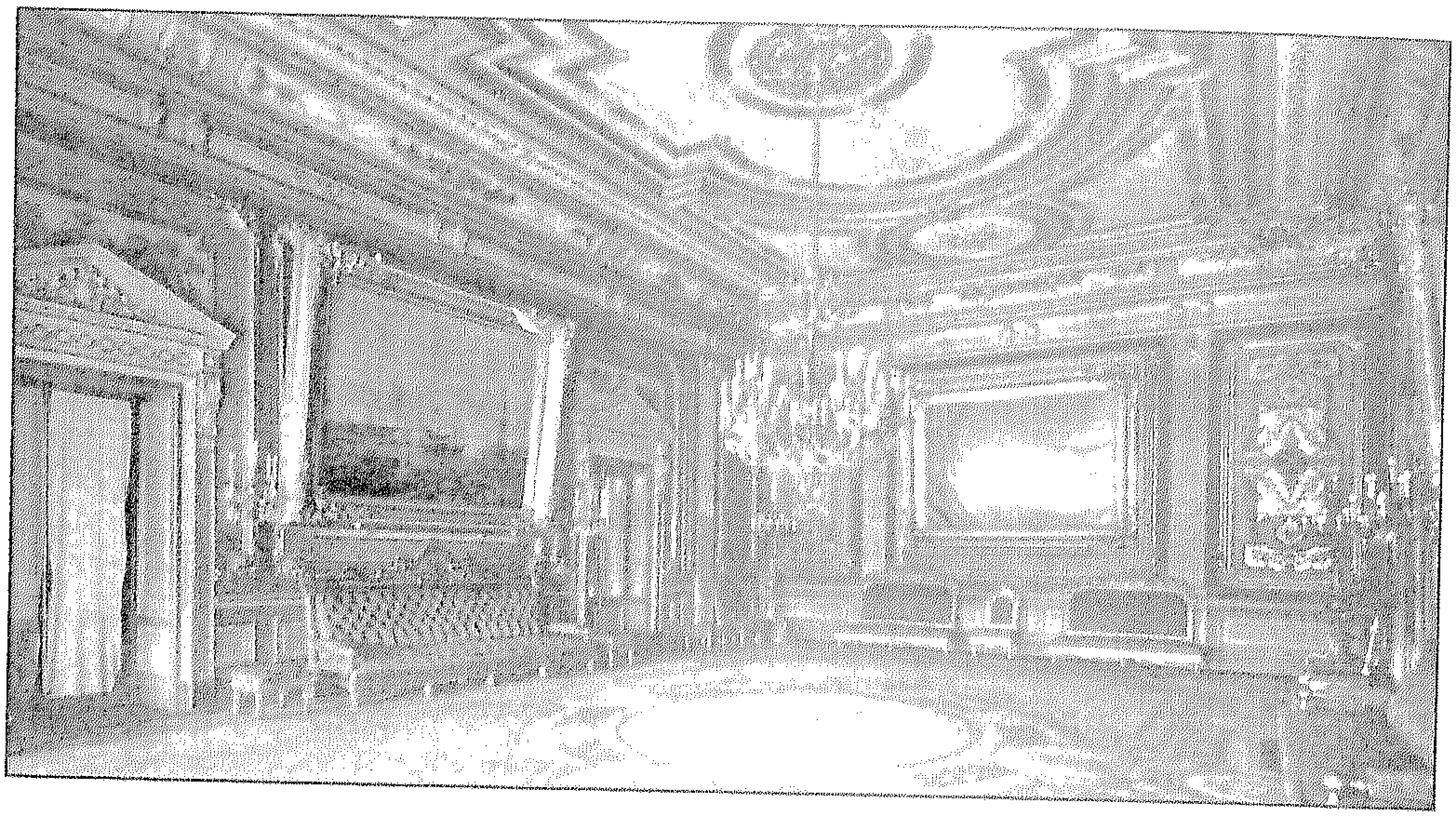

قصر عابدين - صالون قناة السويس

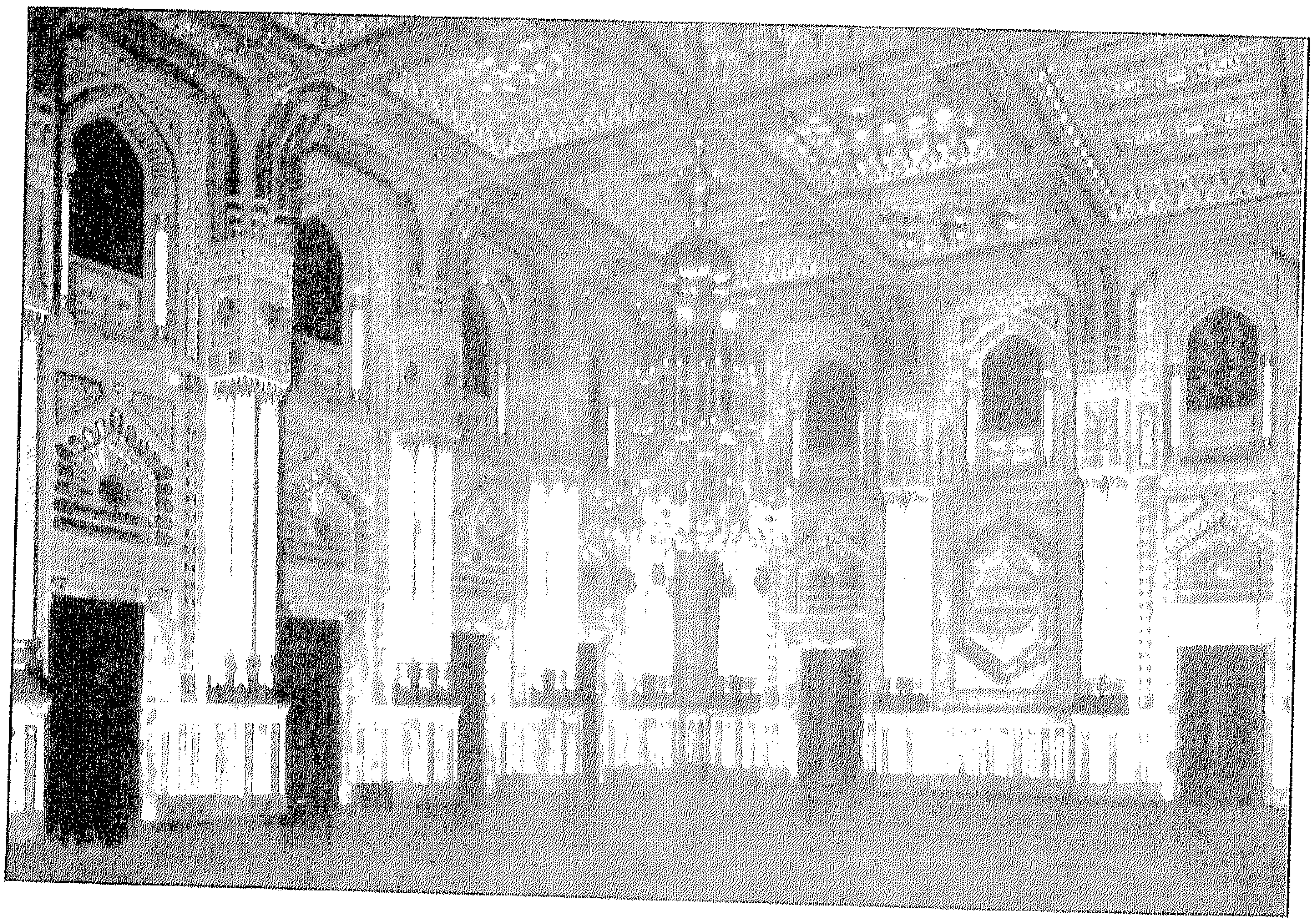

قصر عابدين - قاعة العرش

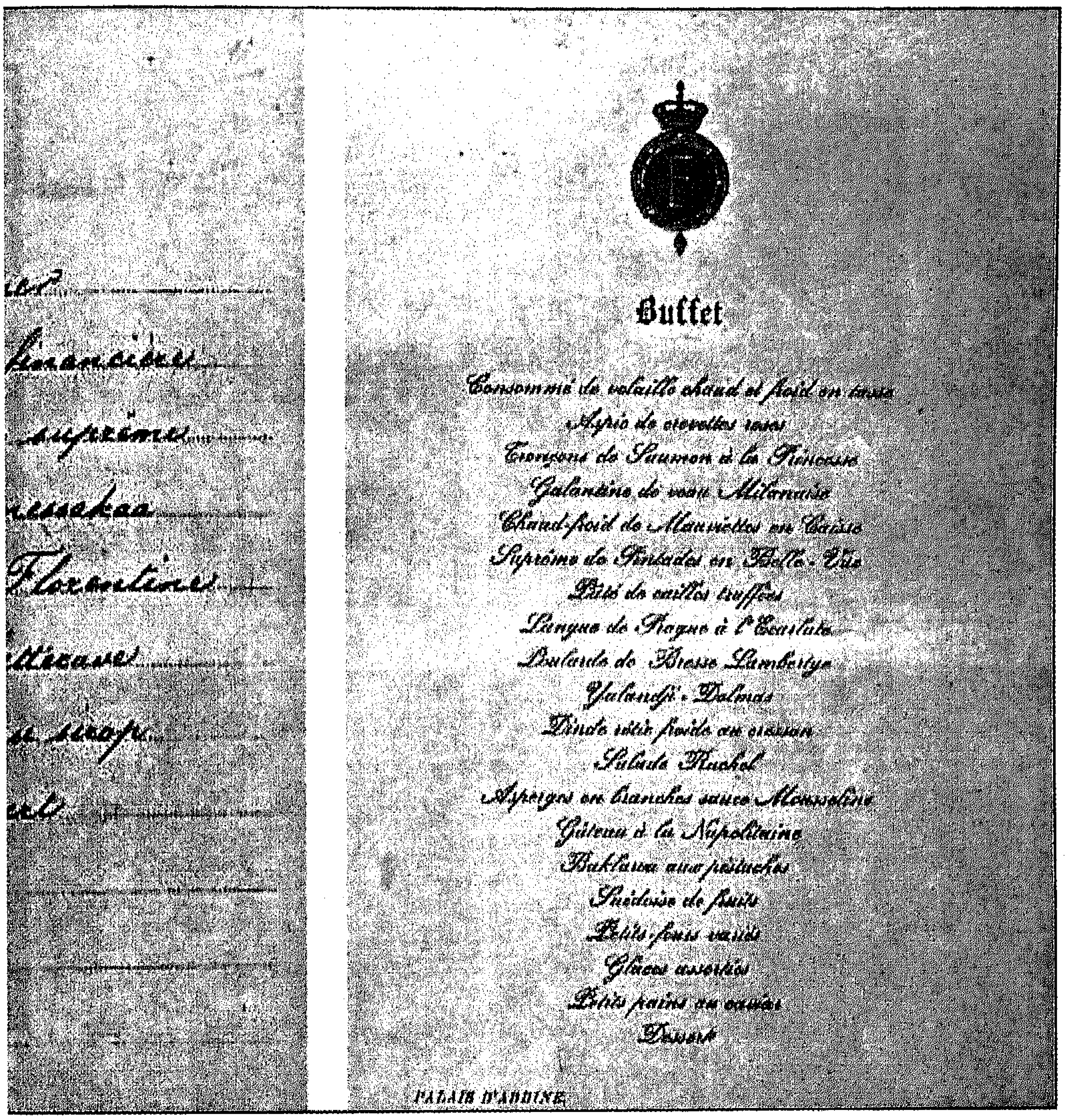
Buffet
Consommé de volaille chaud et froid en tasse
Aspic de crevettes roses
Tronçons de Saumon à la Princesse
Galantine de veau Milanaise
Chaud-froid de Mauviettes en Caisse
Suprême de Pintades en Belle-Vue
Pâté de cailles truffées
Langue de Rayne à l'Ecarlate
Poularde de Bresse Lambertye
Yalandji - Dolmas
Dinde rôtie froide au cresson
Salade Rachel
Asperges en branches sauce Mousseline
Gâteau à la Napolitaine
Baklawa aux pistaches
Suédoise de fruits
Petits-fours variés
Glaces assorties
Petits pains au caviar
Dessert
PALAIS D'ABDINE

قصر عابدين – قوائم الطعام

قام الخديوى توفيق بتدمير الجانب الجنوبى الشرقى من قصر عابدين، عند توليه السلطة فى عام ١٨٧٩م بالديناميت وأدخله ضمن حديقة القصر، وكان هذا الجانب مخصصا لإقامة إسماعيل باشا المفتش[١٦٣]. وفى ٢٣ يوليو ١٨٩١م شب حريق فى القصر دمر الجناح الذى كانت تشغله الدائرة السنية (أو الخاصة الملكية فيما بعد)، ووصل الحريق إلى قاعة المائدة التى تم فصلها عن بقية السراى بالمعاول والفئوس والديناميت حتى لا يمتد الحريق إلى باقى أجزاء السراى[١٦٤]. ترتب على هذا الحريق انتقال الخديوى للسكن فى سراى حلوان[١٦٥]، حيث إن سراى عابدين لم تعد صالحة للسكن. وقدرت تلفيات السراى بحوالى ٣٠ ألف جنيه، وتم تشكيل لجنة للنظر فى الأعمال التى تلزم لإعادة بناء القسم المدمر من السراى على الوجه

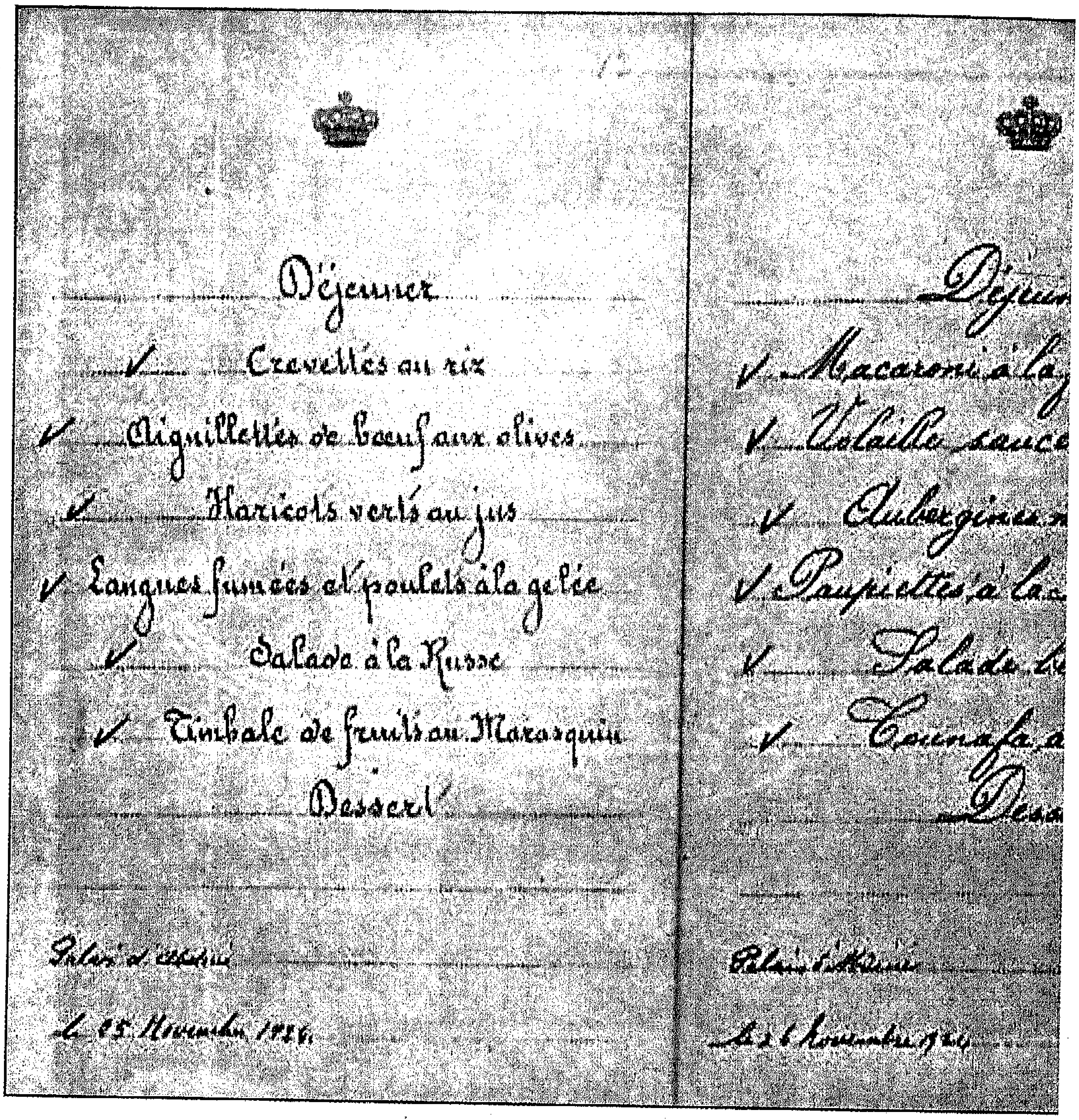

الذى مازالت باقية عليه إلى اليوم، وأثناء أعمال الترميم اتضح أن بناء سراى عابدين ردىء، مما أتى بنتائج غير متوقعة، إذ تهدمت أجزاء كثيرة أثناء عمليات الإصلاح، وهو ما تطلب زيادة المبالغ المرصودة لإعادة إعمارها. وصاحب ذلك إدخال الكهرباء لإضاءة قصر عابدين[١٦٦].

وأحدث تغيير فى السلاملك فى أثناء ذلك، فقد تم فتح باب على ميدان عابدين مباشرة، تتقدمه ظلة استغل الجزء العلوى منها كشرفة، يظهر منها الخديوى فى المناسبات الرسمية والاحتفالات.

تم أيضا تجديد موبيليات القصر فى عام ١٨٩٣م، حيث قام كل من بوانيه بك وفانيسا لكى بتقديم مذكرة أوضحا فيها أن الموبيليات والأبسطة الموجودة فى مخازن القصر غير صالحة للاستخدام، وطلبت لجنة سراى عابدين من نظارة المالية فتح اعتماد قدره ٨٦٨٧

الملك أحمد فؤاد الأول

جنيهًا مصريًا لفرش السراى بوجه نهائي. وتم نقل الموبيليات القديمة لمخازن المالية لبيعها[١٦٧]. وفى عام ١٨٩٥م أجريت بعض التجديدات بقصر عابدين، ويتضح من كشف الموظفين المستخدمين الذين اشتركوا فى هذا التجديد أن من بينهم الفرنسيين جران بك مدير عموم المبانى الذى وصلت مدة خدمته للحكومة إلى أكثر من ٢٥ عاما ونال رتبة الميرميران فى سنة ١٨٩١م. ومسيو آنسز المهندس بالقلم المعمارى بنظارة الأشغال[١٦٨]. وأضيف إلى السراى فى عصر الملك فؤاد الأجزاء الشمالية الغربية من السراى والتى استخدم الجزء المطل منها على ميدان المبدولى كمقر للخاصة الملكية والجزء الخلفى مقرا للأوقاف الملكية. وبصفة عامة فقد طال التجديد جميع أنحاء السراى التى يبلغ عدد غرفها ٥٠٠، ولكننا نستطيع أن نقرر أن العديد من الأجزاء المجددة تعود أصولها إلى عصر الخديوى إسماعيل، ولو أن بعضها جدد بكامله، فقد جدد على الأصول القديمة، ونقرر فى اطمئنان أن من هذه الأجزاء، صالون قناة السويس، حجرة البلياردو المهداة من أوجينى ملكة فرنسا لإسماعيل، وصالون محمد على، والصالون الأبيض، وقاعة العرش وهى على النمط العربي، وكانت تعرف قبل ذلك بالقاعة العربية، وقاعة الطعام وهى على الطراز العربي، وكان المهندس الإيطالى إيليو برنزفالى ELIO PRINZIVLLI قد قام بتصميم زخارف هاتين القاعتين وهو من أبرز المعماريين الأجانب الذين تخصصوا فى الزخارف الإسلامية. وقد جددت القاعتين فى عهد الملك فؤاد وهذه الأقسام خاصة بالسلاملك، أما أقسام الحرملك، وهو ينقسم إلى عدد من الأجنحة والغرف والصالونات، وقد جرى تجديدها فى عصر الملك فؤاد، وحملت بعض أجزائها حرف f نسبة إليه. وكان نتيجة اهتمام إسماعيل بسراى عابدين، واستقراره بها كمقر للحكم، أن تحولت المنطقة المحيطة بها إلى ثكنة عسكرية، وبنى بها قشلاق له سور فتحت به نوافذ حديدية وزرعت حول هذه المنطقة الأشجار[١٦٩].

كان لانتقال السلطة إلى ذرية إسماعيل[١٧٠] أثره فى استمرار سراى عابدين كمقر للحكم، إذ أتاح ذلك فرصة لارتباطها بهم، لتكوين مقر دائم للحكم، على العكس مما حدث عندما انتقلت السلطة من أكبر أفراد أسرة محمد على إلى الأكبر، كما حدث فى عهد عباس وسعيد.

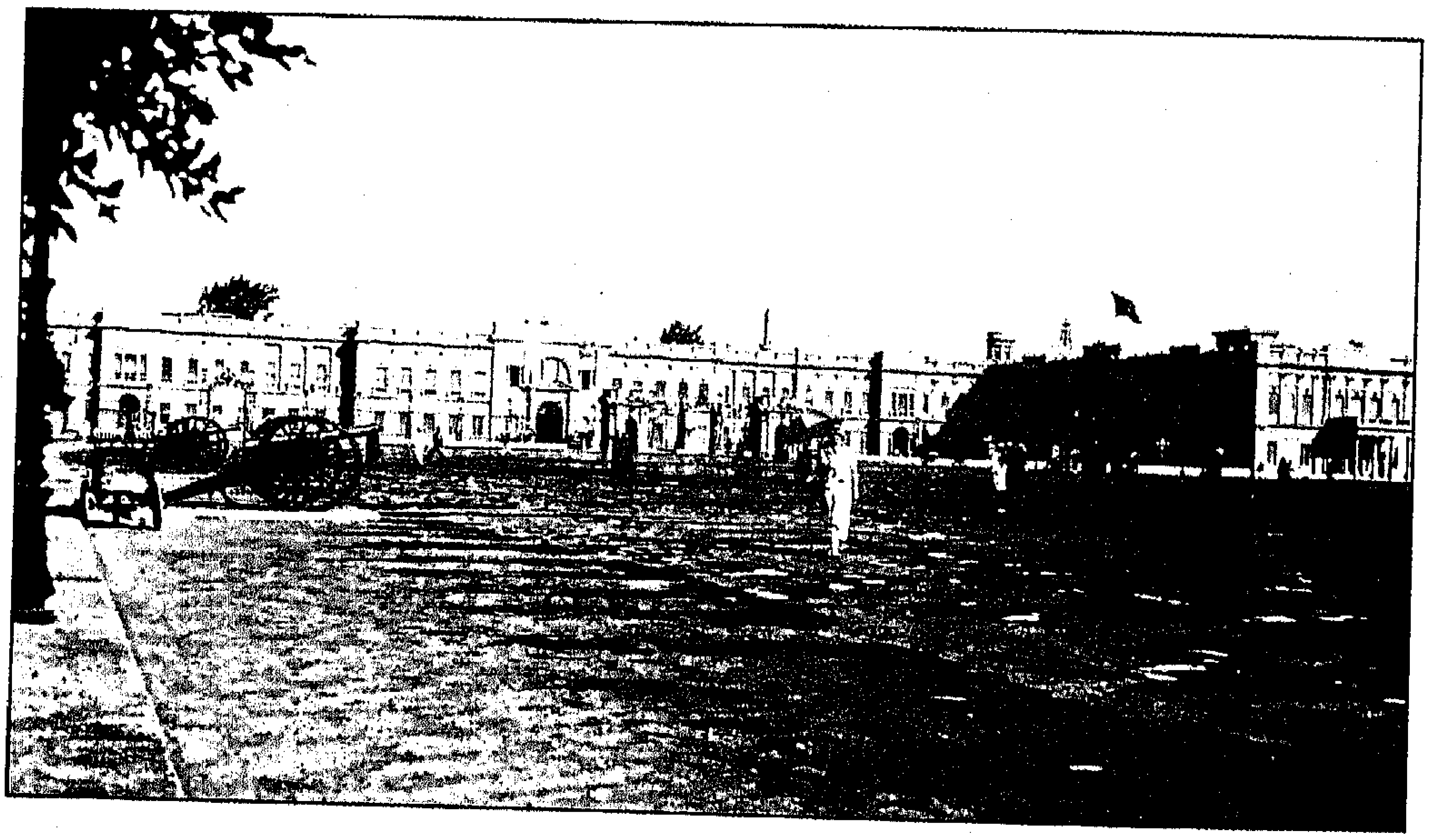

قصر عابدين سنة ١٩٢٤

الملك فاروق

مثل انتقال الحكم إلى قصر عابدين، العديد من الدلالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت عمارة القصر على النمط الأوروبى على طراز عصر النهضة الفرنسى المستحدث صدى لها، لعل أولى هذه الدلالات، التأثر بالنشأة الإيطالية للبلاط الملكي، تلك النشأة التى أثرت فى سائر أوروبا، فالبلاط بمفهومه الحديث نشأ فى إيطاليا خلال عصر النهضة، وساعد عليه ظهور المجتمع المدنى بها مبكرا عن بقية أوروبا، ففى الوقت الذى كان فيه الأمراء الإقطاعيون لا يزالون قابعين فى قلاعهم الحصينة وسط فرسانهم وأفنانهم، كان أمراء المدن الإيطالية قد بنوا قصورهم الأنيقة داخل مدنهم التى كانت تعج بالتجار والصناع. وكانت الإضافة الأساسية لتقاليد البلاط الملكى جاءت من فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر (١٦٦٠ - ١٧١٥م) ولكن جاء التأثير الإيطالى فى مصر للقرب الجغرافي، ولعدم وجود أطماع سياسية إيطالية فى مصر فضلا عن وجود جالية إيطالية كبيرة فى مصر. وهى جالية كانت أقرب إلى الشرق عن غيرها من الجاليات الأوروبية[١٧١].

كان الانتقال إذن من القلعة من بناية يتمترس الحاكم داخلها، ويحيك فيها المؤامرات لضرب خصومه الذين كانوا ينازعونه السلطة، بخاصة من كبار الأمراء المماليك، إلى بناية تعبر عن استقرار الحكم المركزى الذى صنعه محمد على بكل تقاليده الجديدة التى أرساها إسماعيل. كان هذا الانتقال تعبيرا عن تغير نمط السلطة وتغير نمط العمارة السائدة فى مصر بل وتغير فى التقاليد. وتمثلت التقاليد الجديدة فى استقبالات ولى النعم والاحتفالات التى تحدد لها مواقيت بعينها، وما ارتبط بذلك من تطبيق قواعد البروتوكول والإتيكيت، تختلف عن تلك التى كانت تتم فى القلعة[١٧٢]. ونقل لنا أحمد شفيق فى مذكراته، وقائع استقبال الزائرات فى سراى عابدين، وتقضى القواعد بأن يتقدم الأغا ويساعد الزائرات على النزول من العربة، ويرافقهن إلى باب الحريم، وهو الباب الواقع على يسار الواجهة الشمالية الرئيسية للسراى، وهنا تأتى جوارٍ مدربات يرافقن الزائرات إلى الدور الأسفل، وهو مؤثث بالأثاث الفرنسي، ثم تتوجه الزائرات إلى الصالون الخصوصى للأميرات فى الدور الثاني[١٧٣].

مارس إسماعيل حكم مصر على النظم الغربية من حيث الشكل، وعلى سطوة السلطة من حيث الفكر، فمن حيث الشكل وهو محور دراستنا، نجده يأكل وينام ويستقبل ضيوفه، على الطريقة الغربية المحضة، وليس أدل على ذلك من صنع آنية مائدة تحمل حرف E بالذهب الخالص[١٧٤]. وهى ظاهرة ظلت مستمرة حتى عهد كل من فؤاد وفاروق، حيث صُنعت لهم أوانٍ تحمل أول حرف من اسميهما.

قصر الجزيرة

كان قصر الجزيرة أحد القصور التى أعاد بناءها الخديوى إسماعيل، وهو فى الأصل كان يعرف بالقصر الكبير، شيده عبد الرحمن كتخدا قبل سنة ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م. وذلك لإقامة الباشاوات المعينين لحكم مصر عند قدومهم

إليها قبل انتقالهم إلى القلعة المقر الرسمي للحكم، وأيضا لإقامة كبار رجال الدولة العثمانية عند زيارتهم لمصر[١٧٥].

كان هذا القصر يتكون من عدد كبير من الوحدات المعمارية، تصطف على طول شاطئ النيل، وهذه الوحدات هي: باب يؤدى إلى مجاز ودركاة بمسطبة، يتوصل منها إلى صحن كبير على يمينه إسطبل بجواره طاحونة وفرن، ويوجد بهذا الصحن باب الحريم وخمس حواصل وسلم يصعد منه إلى أماكن علوية، وباب آخر يدخل منه إلى قاعة سفلية تشتمل على إيوانين ودور قاعة وثلاث سدلات، وبالإيوانين الكبير والصغير شباكان يطلان على النيل، أى أن القاعة موازية للنيل، وبالدور قاعة فسقية من الرخام الملون، ويتوصل من باب بالقاعة إلى مساكن علوية، وبالقصر قاعة أخرى مطلة على النيل تتكون من إيوان واحد وسدلة، وبها شبابيك تفتح على النيل، وتطل على النيل أيضا غرف لإقامة المماليك. وبالقصر قاعة علوية كبرى بإيوان واحد ودور قاعة وسدلتان إحداهما مطلة على النيل والأخرى مطلة على المقعد، والمقعد يتكون من ستة عقود ترتكز على خمسة أعمدة من الرخام الأبيض وهو مطل على النيل، يوجد أسفله ديوان مطل على النيل بستة عقود ترتكز على خمسة أعمدة، بالمقعد باب يؤدى إلى مساكن الحريم، وغرف ومطبخ وحمام. كما خصصت غرفة بالقصر لتناول القهوة. كما ألحق بالقصر حديقة وصهريج ومصلى وبلغت مساحة هذا القصر فدانين ونصف[١٧٦].

قام إبراهيم بن محمد على بهدم هذا القصر وإعادة بنائه مرة أخرى[١٧٧]، ويبدو أنه كان مستغلا أيضا لاستقبال ضيوف الدولة، حيث شيد إبراهيم قصرًا لإقامته فى منطقة جاردن سيتى عرف بالقصر العالي[١٧٨].

آل هذا القصر إلى الخديوى إسماعيل عن أبيه، وهدمه فى عهد سعيد باشا وأعاد بناءه[١٧٩] ثم تغيرت خططه بالنسبة لهذا القصر بتوليه حكم مصر، فقد رأى استغلاله لإقامة ضيوف مصر الأجانب أثناء حفل افتتاح قناة السويس. وأعيد بناء القصر من ثلاثة أقسام رئيسية، وهى الحرملك والسلاملك الصغير، والسلاملك الكبير وشبه عدد كبير من المعماريين هذا القصر بجواسق قصور الحمراء بغرناطة، غير أنه فى الواقع يجمع فى الشكل الخارجي بين طراز الروملى الذى بدأ يشيع فى مصر منذ عهد محمد على، وغلبة الزخارف الإسلامية عليه، أما

قصر الجزيرة - السلاملك

التصميم الداخلى فهو يجمع بين طراز الروملى والطرز الأوروبية للقصور فى ذلك العصر. وقد تبقى من ذلك القصر السلاملك الكبير. قام بتصميم هذا القصر المهندس النمساوى يوليوس فرانس باشا[١٨٠]، كما قام المعمارى الألمانى كارل فون ديبيتش بتنفيذ البوائك الحديد وأعمال التذهيب والزخارف الداخلية التى بلغت تكلفتها ١١٠٠ جنيه إسترليني، كما قام كل من الإيطاليين أرنستو نيروتشى وأنجلو أركولانى ببعض أعمال الزخارف والديكورات للقصر[١٨١]، وأشرف على البناء حسن بك نور الدين[١٨٢] ويصف ديلشيفالرى السلاملك الكبير بقوله "إن طوله يبلغ أكثر من مائة متر تحمله عدة أعمدة منقوشة بأجمل النقوش العربية، ووسط هذا القصر عبارة عن ردهة فسيحة الأرجاء لا يحجبها شيء عن السماء أرضها من المرمر قائمة على عمد بينها نافورة أثرية، وفى أحد جناحى القصر حجرات مفروشة بأجمل الأثاث روعة وزخرفا، ومنها غرفة فاخرة أولم فيها الخديوى إسماعيل وليمة لولى عهد إنجلترا وقرينته وحاشية بلاطه فى عام ١٨٦٩م، فى الجناح الآخر لهذا القصر أبهاء الاستقبال والمخادع وحجرات الزينة والحمامات وكلها فاخرة الأثاث مصنوعة على أجمل الطرز الشرقية"[١٨٣].

شيد السلاملك الصغير (قصر الأعياد) على ضفاف النيل، أمام مرسى بولاق، وكان أحب مساكن إسماعيل إليه، وكانت تقام به أعياد الجلوس فى ٨ يناير من كل عام[١٨٤]. وهو من المناسبات التى اقتبسها إسماعيل من الغرب. وأمام المدخل البحرى لقصر الأعياد بساط سندس تزينه أجمل أنواع الأزهار وأينعها طوال الشتاء، وفى وسطه نافورة بديعة من المرمر الناصع المنقوش، نصب بها تمثال أوزيريس فى وسط حوض مستدير الشكل منحوت من قطعة واحدة من المرمر الأبيض محيطها اثنى عشر مترا[١٨٥]، ويرى تيموثى ميتشيل أن تصميم بعض غرف هذا القصر تماثل تصميم غرف قصر التويلرى بفرنسا، وكأن الخديوى إسماعيل أراد بتصميم هذا القصر أن يجمع بين قاهرة ألف ليلة وليلة التى ولع بها الأوروبيين فى القرن التاسع عشر فى تصميم واجهاته على النمط الإسلامى وبين رغبته فى كسب ود الأوروبيين فى تشييده عمائر تظهر مدى ولائه للحضارة الأوروبية فى اتباعه التصميم الأوروبى لداخل القصر، وكلف إسماعيل المهندس الفرنسى باريل بتحويل الأرض الزراعية المحيطة بالسراى إلى حديقة[١٨٦]، فقام بردم أرضها بارتفاع مترين[١٨٧]. وقسمت الحديقة إلى عدة حدائق هي:

– الحديقة الخديوية لفلاحة البساتين وأقلمة النباتات: كانت تستخدم فى التجارب، وكان بها فى عام ١٨٧٦ م ما يربو على مليون من النباتات الأجنبية بعضها للزينة وبعضها للإثمار.

– الحديقة الخديوية لقصور الجزيرة: وهى التى بها القصر، ويقع شمالها طريق الجزيرة، وهو يبدأ من ضفاف النيل، ثم يؤدى إلى طريق الموصل إلى الجيزة ومنه إلى طريق الهرم.

– حديقة الأسماك: وهى عبارة عن أكمة (جبلاية) ذات كهوف كلف الخديوى إسماعيل كوبماز ودومبليو الخبيرين المتخصصين فى مثل هذه الأعمال بتنفيذها، وغرست فوق سقفها أشجار جبلية باسقة مستوردة، تقع غرب حديقة القصر. ومازالت هذه الحديقة باقية إلى اليوم.

– الصخرة: وهى عبارة عن تبة من كتلة واحدة وتقع بالقرب من قصر الأعياد، قام ببنائها المهندس العثمانى (م. سيبوز) وتحت هذه الصخرة أنفاق وسراديب تفضى إلى جوسق مركزى وضعت فى أركانه مقاعد من خشب متحجر جيء به من الصحراء، وشد بعضه إلى بعض بالأسمنت، ومن هذه الصخرة تنفجر عيون فياضة تتدفق فى جدول ينساب فى أرجاء الحديقة والسلاملك، وإلى الجنوب توجد بحيرة فى وسطها جزيرة صغيرة وكهوف للطيور المائية النادرة.

وألحق بهذه الحدائق صوب لنباتات أوراقها زخرفية جميلة ادخرت لتزين الحفلات والأعياد التى كانت تقام فى القصور الخديوية.

– روضة الزهور: تقع هذه الروضة قبالة جسر كوبرى قصر النيل وبها أنواع عديدة من الزهور المستوردة[١٨٨].

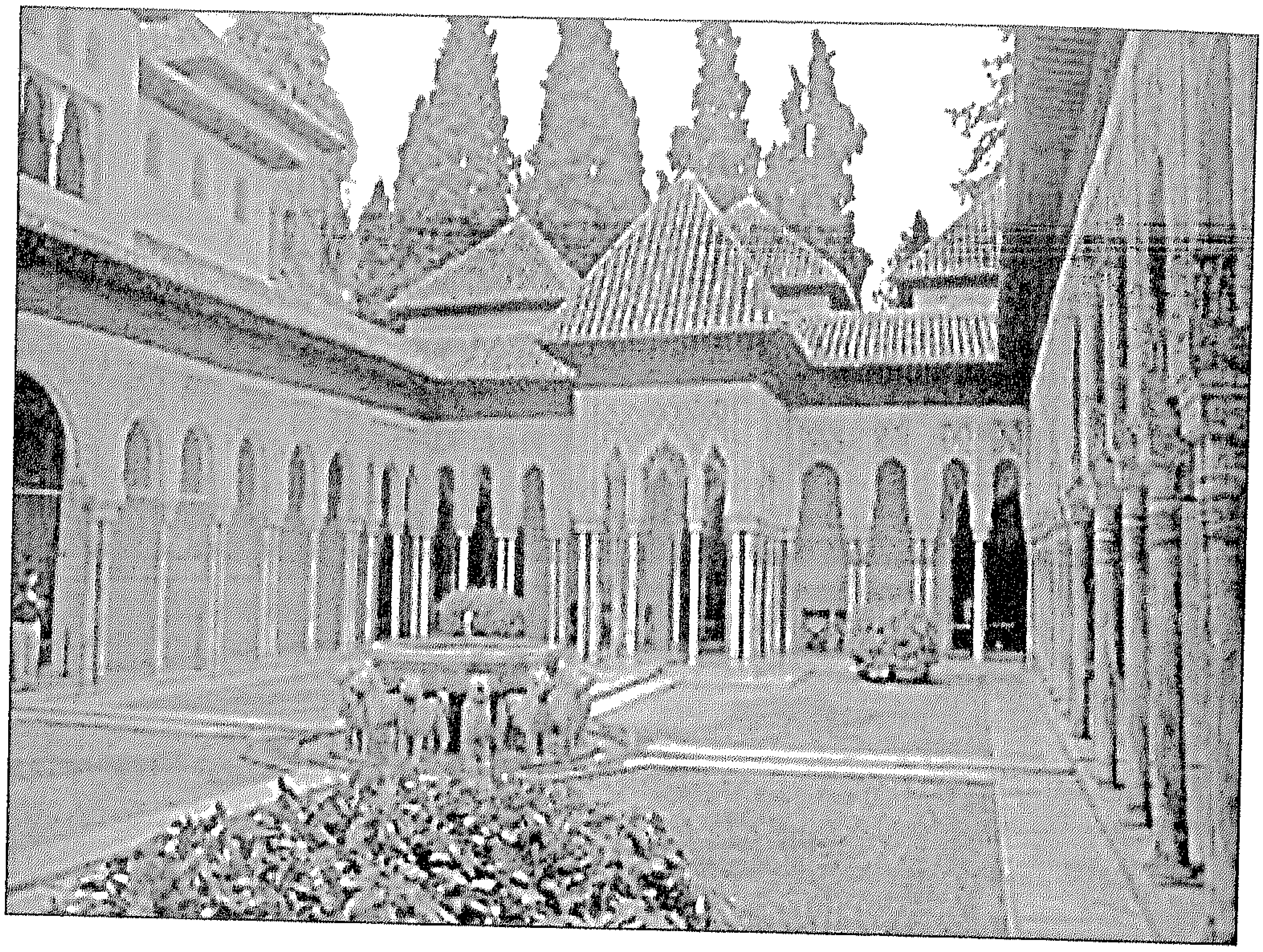

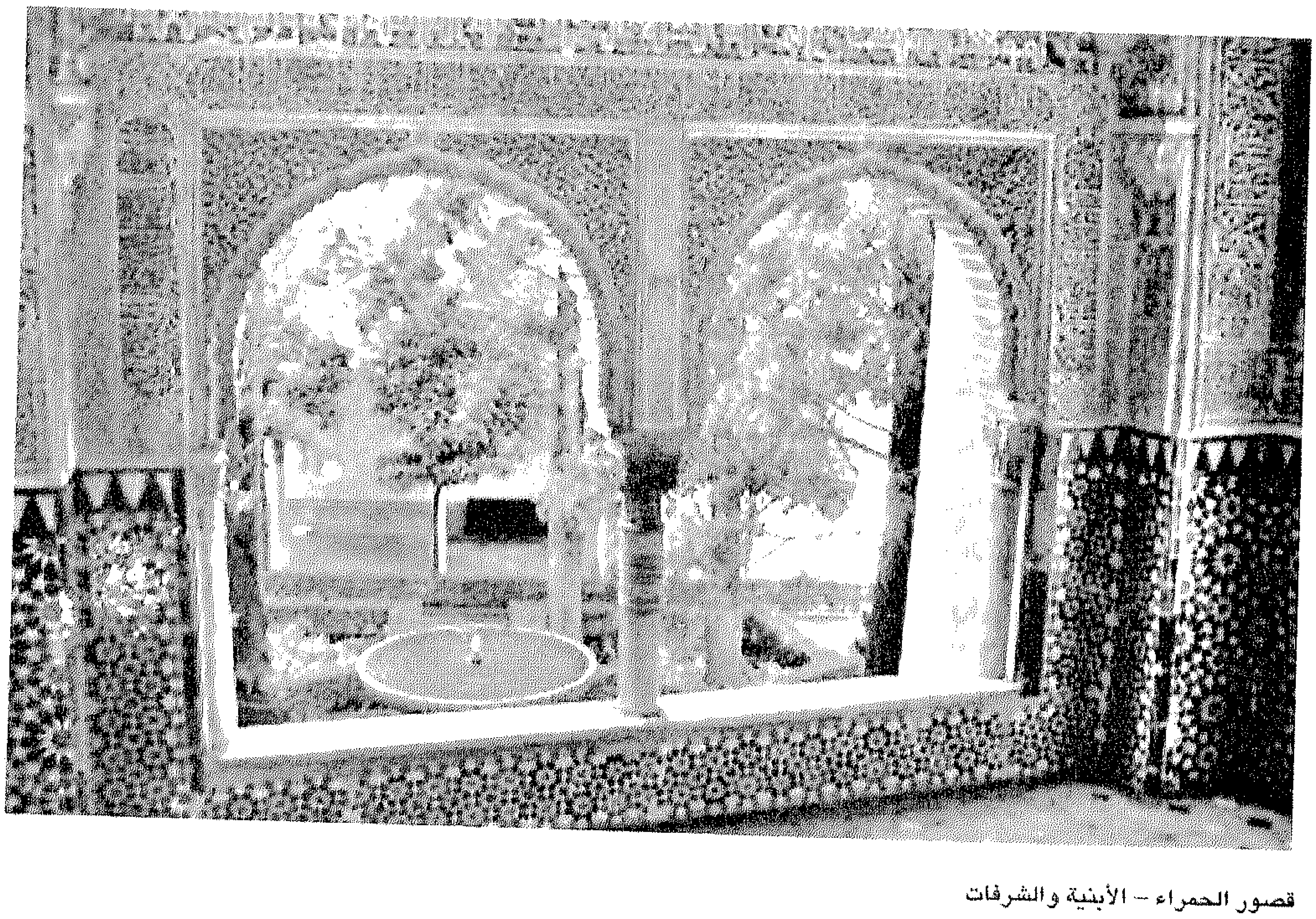

قصور الحمراء - الأبنية والشرفات

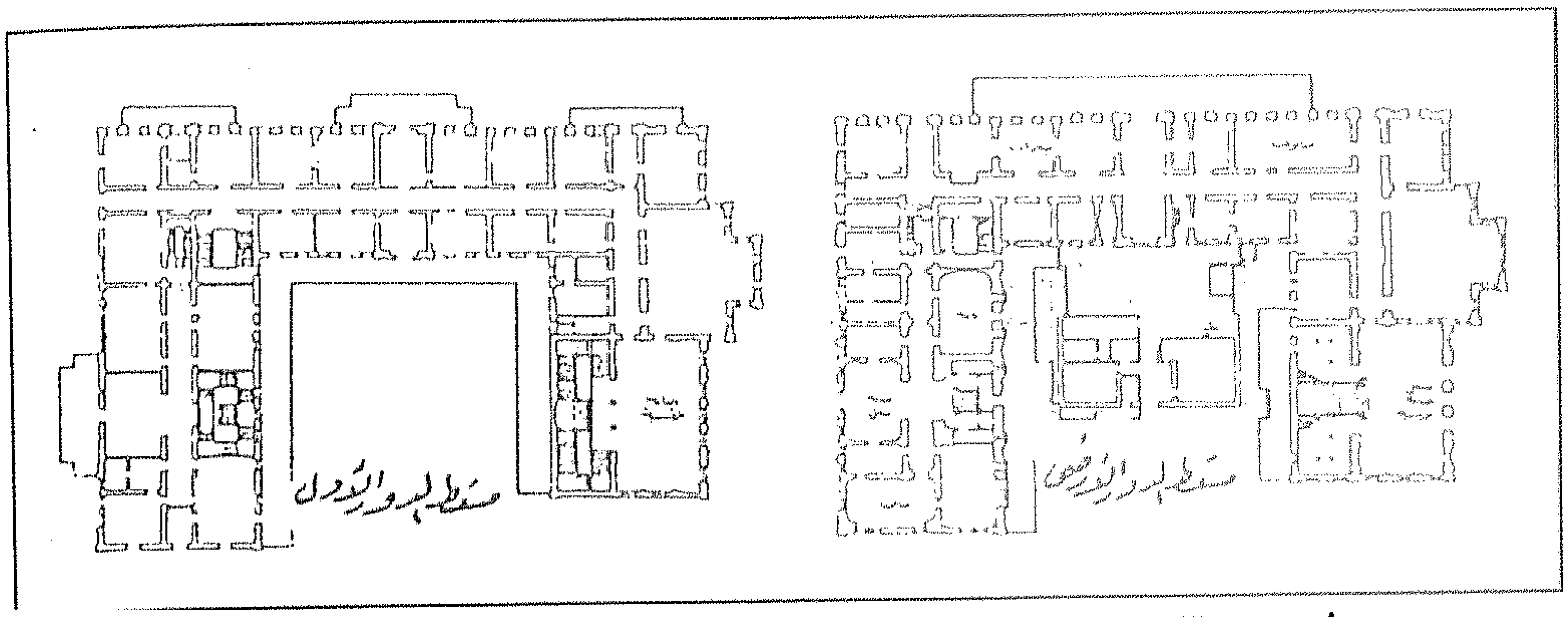

قصر الجزيرة – مسقط أفقى للسلاملك

سراى الإسماعلية الصغرى

كانت عند كوبرى قصر النيل، وقد صرف فى أجر الصناع والمفروشات والنقوش ونحو ذلك ٢٠٠٢٨٦ جنيهًا، وسميت بهذا الاسم لأن إسماعيل شيد بالقرب منها سراى الإسماعيلية الكبرى.

سراى الإسماعيلية الكبرى

اشترى إسماعيل موقع هذه السراى فى عام ١٢٨٨هـ/١٨٧١م. ويحتل موقع هذه السراى الآن مبنى وزارة الخارجية القديم، ومجمع المصالح الحكومية، وكانت مقسمة كذلك إلى سلاملك وحرملك[١٨٩]، واشتهرت ممرات الحرملك بأنها مغطاة بالبلور الملون وتحيط بها مجموعة من الأشجار النادرة[١٩٠].

وعلى الرغم من اتخاذ القصور مقار لأسرة محمد على فإن القلعة ظلت لها رمزيتها، فقد شهدت مراسم توليتهم، وكان آخر من نصب منهم فى القلعة الخديوى توفيق فى حفل حضره السفراء وكبار الأعيان وأعضاء مجلس شورى النواب وغيرهم، وقرأ فى هذا الاحتفال فرمان توليته[١٩١]، غير أن الخديوى عباس حلمى قرأ فرمان توليته فى حفل أقيم فى الفناء الأمامى لقصر عابدين فى حفل حضره الأعيان والعديد من الشخصيات الأجنبية والمصرية[١٩٢].

الخديوى عباس حلمى الثانى

حددت إحدى وثائق مجلس النظار المصرى الصادرة فى ١٨٨٢ السرايات الخديوية التى اشترتها الدولة لتكون مقرا للخديوي، وهى سرايات عابدين، النزهة، الرمل، رأس التين، والأخيرتان بالإسكندرية بالإضافة إلى قصر الجوهرة بالقلعة. ووضعت كلها تحت إدارة واحدة تشرف على مصروفاتها من خلال ميزانية يقرها مجلس النظار[١٩٣]. ومن الواضح تصاعد دور هذا المجلس فى الحياة السياسية فى مصر تدريجيا منذ عصر محمد على.

ظل أمر الحكم فى يد الوالى أو الحاكم غير أن تأثر أسرة محمد على بالنظم الأوروبية دفعهم إلى اتخاذ سياسات تنحو نحو إقامة مجلس للنظار تحت مسميات عديدة، غير أن الضغوط الأوربية أجبرت إسماعيل على تشكيل مجلس للنظار برئاسة نوبار باشا له سلطات واسعة[١٩٤]. وكان إسماعيل قد بدأ فى تشييد مبان لهذه النظارات ما زال باقيا منها إلى اليوم مبنى نظارة الأشغال، الذى كان عقد مجلس النواب اجتماعاته فى قاعته فى أخريات عصر إسماعيل وحوكم فى هذه القاعة أحمد عرابى [١٩٥]. وكان قد أعيد بناؤها بعد ذلك لتكون مقرا لمجلس الشيوخ.

أحمد عرابى باشا

الحواشي

١ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٤٩.

٢ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٦١.

٣ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٦٨.

٤ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٦٨ – ١٦٩.

٥ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٨٠، ١٨٤.

٦ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٩٣، البكرى، المنح الربانية، ص ٨٨.

٧ أنشأ هذا القصر السلطان قايتباى فى سنة ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩ م، ليكون سكنا لابنه محمد، وكان نزول ابن السلطان لذلك القصر لأول مرة فى صفر ٨٩٩ هـ/ ١٤٩٣ م. ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٩٤؛ عبد الرحمن عبد التواب، قايتباى المحمودى، ص ١٩٧.

٨ جين هاثواي، سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية، ص ١٦، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣م.

٩ نللى حنا (دكتورة)، التغير فى الهيكل السياسى فى القرن الثامن عشر وأثره على وظائف قصور الأمراء فى القاهرة، ص٨٣ – ٨٤، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة (٥٧) ١٩٩٢ م؛ جين هاثواي، سياسات الزمر الحاكمة، ص ٢٣١ – ٢٣٩.

١٠ محكمة الباب العالي، سجل ٣٠٢ مادة ٦٨٧، ص ٤١٩: ٤٢١؛ نللى حنا (دكتور)، التغير فى الهيكل السياسى فى القرن الثامن عشر، ص ٨٥.

١١ نللى حنا، التغير فى الهيكل السياسى فى القرن الثامن عشر، ص ٨٥.

١٢ الجبرتى، عجائب الآثار، ج٢، ص٤٢٧.

١٣ الجبرتى، عجائب الآثار، ج٢، ص ٤٢٧.

١٤ انظر: الدمرداش، الدرة المصانة، ص ٦٠؛ الشاذلى، ذكر ما وقع لعسكر مصر، ٣٢٤: ٤٠٠؛ نللى حنا (دكتور)، التغير فى الهيكل السياسى فى القرن الثامن عشر، ص ٨٦.

١٥ الدمرداشى، الدر المصانة، ص ١٤٨.

١٦ الجبرتى، عجائب الآثار، ج١، ص ٢٨٨.

١٧ الجبرتى، عجائب الآثار، ج١، ص ٢٦٥، ٢٧٥.

١٨ نللى حنا (دكتور)، التغير فى الهيكل السياسى فى القرن الثامن عشر، ص ٨٩.

١٩ وثيقة وقف رضوان بك، رقم ٩٩٦، سطر ١٥٦. ١٥ رمضان ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م.

٢٠ وثيقة وقف رضوان بك، رقم ٩٩٤، سطر ٥٣: ٥٥. جماد أول ١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م.

٢١ يعتبر هذا المقعد من أكثر المقاعد انتشارا فى العمائر السكنية فى العصر المملوكى والعثمانى، وهو يتكون من مساحة مستطيلة مفتوحة بالكامل على فناء الدار فى اتجاه الضلع الطويل لمسقط المقعد. وتتألف واجهة المقعد من بائكة مكونة من عدد من العقود أكثرها ستة عقود ترتكز على خمسة أعمدة وأقلها ذو عقدين يرتكزان على عمود فى المنتصف. غزوان ياغى، المقاعد فى عمائر القاهرة السكنية فى العصرين المملوكى والعثمانى، ص ١٩٦: ٢٠٤. رسالة ماجستير، كلية الآثار جامعة القاهرة، ١٩٩٩ م.

٢٢ وثيقة وقف الأمير على أغا، رقم ١٢٩، سطر ٤١ :٤٢، غرة ربيع الأول ١٠٩٠ هـ/ ١٦٧٩ م.

٢٣ وثيقة وقف رضوان بيك، رقم ٩٩٤، سطر ٤٦، ٤٧.

٢٤ وثيقة وقف رضوان بيك، رقم ٩٩٤، سطر ١٦٥.

٢٥ غزوان ياغى، المقاعد فى عمائر القاهرة، ص ٢١١.

٢٦ نللى حنا (دكتور)، التغير فى الهيكل السياسى فى القرن الثامن عشر، ص ٨٩.

٢٧ حسام إسماعيل، أربعة بيوت مملوكية من الوثائق العثمانية، ص٦٨: ٧٦. حوليات المعهد الفرنسى للآثار، المجلد٢٤، ١٩٨٨م.

٢٨ الأمير أزبك من ططخ نسبة إلى الأشرف برسباى ثم الظاهرى نسبة للظاهر جقمق، جلبه تاجر المماليك ططخ من بلاد الجركس، فاشتراه الأشرف برسباى سنة ٨٤١ هـ، فجعله أحد كتبته، ثم انتقل لولده العزيز، ثم اشتراه الظاهر جقمق فأعتقه وزوجه ابنته فلما ماتت تزوج أختها، وقد تدرج فى الرتب حتى وصل إلى أمير مائة مقدم ألف، وهى أعلى رتبة فى رتب المماليك، وكانت أهم وظيفة تقلدها أزبك هى آخر وظيفة له أتابك العساكر أى مقدم المماليك السلطانية وقائد الجيش، وذلك فى بداية حكم السلطان قايتباى سنة ٨٧٢هـ، واستمر بها نحو ٢٨ عاما، وكانت له جولات عديدة فى التجاريد والحملات، انتصر فيها على أعداء الدولة التركمانية المتاخمة لحدودها، وكذلك انتصر على الدولة العثمانية عدة مرات. وكان عظيم القدر والمهابة، حج عدة مرات، وكان ينوب عن السلطان فى الاحتفال بكسر سد الخليج وإمارة الحج والسفارات وغير ذلك، وكان عظيم الثراء وخلف ثروة طائلة، توفى يوم الأحد ٢٤ رمضان ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م. عن عمر يناهز ٨٤ عاما، ودفن بتربة أستاذه الملك الظاهر جقمق، وهى تربة قانى باى الجركسي. انظر: السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج ٢، ص٢٧٠، ٢٧٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٤١١، ٤١٣؛ أنا مارى شميل، الأتابكى أزبك من ططخ مؤسس الأزبكية، ص١٨: ٢٥، مجلة فكر وفن، عدد خاص بالعيد الألفى للقاهرة ١٩٦٩م

٢٩ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١١٧؛ نزهة الأمم فى العجائب والحكم، ص ٢٥٩: ٢٧٥. مكتبة مدبولى – دون تاريخ.

٣٠ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١١٨.

٣١ القيسارية: اسم يطلق على أحد أنماط المبانى، ويرجح أن الكلمة مشتقة من اليونانية بمعنى إمبراطورى (قيصرى سوق القيصر) وهناك إشارات إلى أنها نشأت بجوار المعابد، وكانت تحت إشراف ملكى، بينما القيسارية فى العصر الإسلامى غلب عليها الطابع الخاص، وكان بالاسكندرية معبد للقيصر ألحق به سوق ومخازن مما يوضح منشأ هذه التسمية. واستعملت الكلمة أيضا للدلالة على مبان تجارية فى مناطق كانت تحت الحكم البيزنطى. والقيسارية عبارة عن مبنى به عدة ممرات مسقوفة توجد حول صحن كبير ويكون له عدة مداخل متشابهة "وهى تحتوى على محلات تجارية. صالح لمعى (دكتور) التراث المعمارى الإسلامى فى مصر، ص ٦١ – ٦٢، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٥.

٣٢ نشر محمد الششتاوى وثيقة وقف أزبك من ططخ التى توضح مدى عمارة الأزبكية على يد أزبك نشرا علميا فى كتابه متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى، ص ١٥٥، ١٦٢.

٣٣ أنا مارى شميل، الأتابكى أزبك من ططخ مؤسس الأزبكية، ص ٢٤.

٣٤ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٣٧.

٣٥ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٩٦، ٢٣٣.

٣٦ أندريه ريمون، فصول من التاريخ الاجتماعى، ص ١٨٢.

٣٧ الجبرتى، عجائب الآثار، ج١، ص ٤٨٦.

٣٨ أندريه ريمون، القاهرة تاريخ حاضرة، ص ٢٧٧.

٣٩ عبد الرازق معاذ (دكتور)، سويقة صاروجا والأزبكية، دراسة مقارنة، ص١٢٣، مجلة كلية الأداب جامعة القاهرة، العدد٥٧ ١٩٩٢م. نللى حنا (دكتورة) تجار القاهرة فى العصر العثمانى، ص٢١٢– ٢١٣، ترجمة الدكتور رءوف عباس، الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧ م.

٤٠ a. Raymond , grandes villes araes a l epoque ottoman , p 170 , paris , 1985

٤١ أسرة الشرايبى من أصل مغربى، وكان أفرادها أكبر تجار مصر فى القرن ١٢هـ / ١٨م. وكان يتردد إلى منزلهم العلماء والأدباء والفضلاء، وكان لديهم مكتبة مفتوحة للاستعارة والاطلاع، وكان صالونهم الأدبى لا ينقطع. المصرى، التاريخ العينى، ص ٥٨٩.

٤٢ كان رضوان كتخدا الجلفى منصرفا إلى لذاته وخلاعته، وإليه تنسب عمارة باب العزب بالرميلة، وقد آلت إليه أملاك عديدة من قصور وأراض بطرق شرعية وغير شرعية. الجبرتى، عجائب الآثار، ج١، ص ٢٨٤، ٢٨٩.

٤٣ الجبرتى، عجائب الآثار، ج ١، ص ٢٨٥.

٤٤ على مبارك، الخطط التوفيقية، ج ٣، ص ٣٧٩.

٤٥ هو الأمير طاهر باشا الأرنؤوطى، تولى مصر ٢٦ يوما فقط، وقتل فى رابع صفر ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م، ودفن بقبته ببركة الفيل الملحقة بجامع حسن باشا طاهر. على باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج ٣، ص ٣٨١ – ٣٨٢؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ص٣٥٧.

٤٦ هو الأمير حسن باشا طاهر يقال إنه ابن أخت محمد على باشا، كان ناظرا على ديوان الجمارك ببولاق، وقد توفى فى جمادى الآخر ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م. ودفن بقبته التى تقع جنوب مسجد السيدة زينب، ثم دخلت فى توسعاته. على باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج٣، ص ٣٧٩؛ محمد الششتاوى، متنزهات القاهرة، ص ١٦٥.

٤٧ أطلق على تلك المنطقة منذ ذلك الحين العتبة الخضراء بدلا من العتبة الزرقاء، واختلاف التسمية يرجع إلى اختلاف لون عتبة كل قصر، وبقى قصر والدة عباس باشا إلى عصر الخديو إسماعيل، حيث هدم بسبب إعادة تنظيم المنطقة وبقى جزء منه كان به المحكمة المختلطة. على باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج٣، ٣٧٩؛ محمد الششتاوى، متنزهات القاهرة، ص ١٦٥.

٤٨ الأمير إبراهيم كتخدا انتهت له السيادة فى مصر، هو وقسيمه رضوان كتخدا الجلفى، وكان هو الذى يتولى الحكم بشكل فعلى بينما انكب رضوان كتخدا على ملذاته، امتلك إبراهيم عدة دور وقصور بالقاهرة منها داره المجاورة لدار رضوان كتخدا، ودار بباب الخرق وهى دار زوجته بنت البارودى، والقصر المنسوب لها بمصر القديمة، والقصر عند سبيل قايماز بالعادلية، مات عام ١١٦٨ هـ / ١٧٥٤م، وهى نفس سنة وفاة رضوان كتخدا. الجبرتى، عجائب الآثار، ج ١، ص٢٨٢، ٢٨٤.

٤٩ مات الأمير إبراهيم شوربجى الصابونجى عزبان فى شوال ١١٣١ هـ / ١٧١٩ م، وكان له عزوة وأتباع ومماليك. الجبرتى، عجائب الآثار، ج ١، ص١٧٠ – ١٧١، ٢٩٢.

٥٠ أندريه ريمون، فصول من تاريخ القاهرة الاجتماعي، ص ١٨٤.

٥١ هو الأمير على بك الكبير، قاد حركة استقلال مصر عن الدولة العثمانية، وطد حكمه وقضى على الفتن، واستتب الأمن فى عهده، وقد خانه قائد جيوشه وزوج ابنته محمد بك أبو الذهب الذى اتفق مع العثمانيين فانقلب عليه وتغلب عليه، وجرح على بك الكبير فى معركة معه فتوفى متأثرا بجراحه بعد أسبوع فى صفر ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م. ودفن بتربة أستاذه إبراهيم كتخدا بالإمام الشافعى. الجبرتى، عجائب الآثار، ج ١، ص ٤٣٠، ٤٣٧.

٥٢ الجبرتى، عجائب الآثار، ج ١، ص ٢٤٦، ٤٣٧.

٥٣ هى نفيسة خاتون إحدى المعمرات الخيرات، كانت تتمتع بالعز والسيادة والكلمة النافذة وقد تزوجت مراد بك بعد موت على بك الكبير، وظلت مكانتها مرموقة حتى توفيت عام ١٨١٦م. الجبرتى، عجائب الآثار، ج٣، ص ٥٢٨، ٥٣٩؛ محمد الششتاوى، متنزهات القاهرة، ص ١٦٧.

٥٤ الألفى هو الأمير محمد بك الألفى المرادى، كان من كبار الأمراء فى نهاية الدولة العثمانية. وقد لعب دورا كبيرا فى الدولة، وكان شجاعا فارسا ومماليكه أكفاء مدربين، وكان له أملاك عديدة، وكان له اهتمامات أدبية وعلمية، وله عدة قصور بالقاهرة، وكان كثير التنقل بالأقاليم، قاوم الحملة الفرنسية عند دخولها مصر، توفى سنة ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م . وبموته اضمحل شأن المماليك فى مصر وصفا الجو لمحمد على ليرسخ قواعد دولته .

٥٥ الجبرتى، عجائب الآثار، ج٢، ص ٥٦٧.

٥٦ الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٨.

٥٧ كريستوفر هيرولد، بونابرت فى مصر، ص ١١٠.

٥٨ الدرندلي، عزت حسن أفندي، ضيانامه، ص ٣٥٣، ٣٥٥.

٥٩ الدرندلي، عزت حسن أفندي، ضيانامه، ص ٣٥٥.

٦٠ الدرندلي، عزت حسن أفندي، ضيانامه، ص ٣٩١.

٦١ doris abouseif, azbakiyya and its environs, p 81. I. F a.0. 1983

٦٢ الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٤٤.

٦٣ الجبرتي، عجائب الآثار، ج٣، ص ٣٣١، ٢٤٤.، Gaston wiet mohammed ali et les beauxants, p 223. Le caire. 1950

٦٤ الجبرتي، عجائب الآثار، ج٤، ص ٧٠.

٦٥ الجبرتي، عجائب الآثار، ج٤، ص ٢٢٢: ٢٢٥.

٦٦ الجبرتي، عجائب الآثار، ج٤، ص ٧٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤.

٦٧ الجبرتي، عجائب الآثار، ج٤، ص ٣٠٩ .

٦٨ كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، ج٢، ص ١٢ - ١٣. ج ٣، ص ١٦٠، ١٦١، ٢٢٠. ج٤، ص ١١٥؛ محمد فؤاد شكري وآخرون، بناء دولة مصر محمد علي، ص ٨: ١٤. دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٨ م.

٦٩ على باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج ١٤، ص١١٦؛ حسام إسماعيل، مدينة القاهرة، ص ٨٨.

٧٠ الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٤، ص١١، ٩١، ١٣٧، ١٤٤، ١٤٥، ٢٠٠، ٢٢٨، ٢٨٣.

٧١ عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، ج٢، ص ٩٦، دار المعارف. ١٩٨٧ م؛ يونان لبيب رزق (دكتور)، الأهرام ديوان الحياة المصرية، ج١، ص ١٢٩. الأهرام ١٩٩٥؛ أحمد شفيق، مذكراتي في نصف قرن، ج١، ص ١٣٠، سلسلة تاريخ المصريين (٨٣) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.

٧٢ الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٨٣.

٧٣ كتاب وقف عبد الرحمن كتخدا، رقم ٩٤٠، بتاريخ ١٨ ربيع الأول ١١٧٤ هـ/ ١٧٦٠ م. ص ١٤، ١٥، ١٦. أرشيف وزارة الأوقاف المصرية؛ الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٩٨.

٧٤ المصري، أوضح الإشارات، ص .

٧٥الجبرتي، عجائب الآثار، ج٤، ص ٦٣.

٧٦ عبد الحميد نافع، ذيل المقريزي، ص ٥١. أمين سامي، تقويم النيل، ج٢، ص ٢٩٨. حسام إسماعيل، مدينة القاهرة، ص ٧٢.

٧٧ شغل دورفتي منصب قنصل فرنسا في مصر مرتين: الأولى من ١٨٠٤ إلى ١٨١٤ م، والثانية من ١٨١٩ إلى ١٨٢٩، وكانت علاقته وطيدة بمحمد علي، وساعده كثيرا بالمشورة عند الغزو الإنجليزي لمصر عام ١٨٠٧ م. ولد دورفتي عام ١٧٧٦ في مدينة بيمونت ودرس القانون ثم عمل محاميا في تورين. وفي عام ١٧٩٧ م عمل سكرتيرا لدى ضابط في سلاح الفرسان. وفي ٢٨ يوليو ١٨٠٠ عمل في وزارة الحربية الفرنسية. وفي عام ١٨٠٢ أصبح مسئولا عن العلاقات التجارية الفرنسية في الإسكندرية، كان دورفتي من المغرمين بالآثار ونقل تحفا كثيرة من مصر إلى فرنسا. لمزيد من التفاصيل عن حياته انظر: Koening (v): drovetti et l egypte de mohamad aly, p 237: 245, annales islamalogiques, tome, xviii, i. F.O, le caire, 1982

٧٨ حسن عبد الوهاب، قصر شبرا، مجلة العمارة، ص٢٥، المجلد الثالث، العدد ٣، ٤. ١٩٤١ م.

٧٩ wiet, mohammed ali et les beauxants, p 1340

٨٠ ديوان خديو تركي، سجل ١١، مادة ٥٧٧، شعبان ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٢م.

٨١ حسن عبد الوهاب، قصر شبرا، ص ٢٧. مجلة العمارة، المجلد الثالث، العدد (٣، ٤). ١٩٤١م.

٨٢ لينان دي بلفون، أعمال المنافع العامة، ص ٢٢٩.

٨٣ روبير سوليه، مصر ولع فرنسي، ١١٠، ترجمة لطيف فرج، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م .

٨٤ ثناء عميرة، تحديث القاهرة، ص ٢٣٠.

٨٥ محافظ ديوان خديو تركي، م٧، ترجمة الوثيقة رقم ١١، من محمد علي إلى باقي بك وكيل ديوان مصر الملكي ٢٢ محرم ١٢٦١ هـ/ ٣١ يناير ١٨٤٥ م.

٨٦ ثناء عميرة، تحديث القاهرة، ص ٢٣٠ .

٨٧ سجلات ديوان خديو، تركي، سجل رقم ٧٦٢، ترجمة المكاتبات رقم ٢٤٣ من الجناب العالي إلى أمين دار الأمتعة في ١٢ شعبان ١٢٥٢هـ/ ٢٢ نوفمبر ١٨٣٦ م.

٨٨ سجلات ديوان خديو، تركي، سجل رقم ٧٦٢، ترجمة المكاتبات رقم ٢٤٣ من الجناب العالي إلى أمين دار الأمتعة في ١٢ شعبان ١٢٥٢هـ/ ٢٢ نوفمبر ١٨٣٦ م.

٨٩ دلشفالري، حدائق القاهرة، ص ٣٣. ترجمة يوسف شتباي، القاهرة ١٩٢٤ م.

٩٠ سجلات المعية تركي، سجل رقم ١١، ترجمة الوثيقة رقم ٥٧٧ من الجناب العالي إلى الخواجة بوغوص، ٢٧ شعبان ١٢٣٨ هـ/ ٩مايو ١٨٢٣ م.

٩١ سجلات الديوان الخديو تركي، سجل رقم ٧٢٩، ص ٥١، ترجمة الوثيقة رقم ٦٥٦. من الديوان الخديوي إلى ناظر شبرا مصطفى أغا، غرة صفر ١٢٤٢ هـ/ ٤ سبتمبر ١٨٢٦ م.

٩٢ سجلات ديوان خديو تركي، سجل رقم ٨٦٨، ص ٢٣٢، من الديوان الخديوي إلى عمر أغا ناظر البناء في سراي شبرا، والمهتراباشي

عبد الله، ٧ صفر ١٢٤٢ هـ/ ١٠ سبتمبر ١٨٢٦ م. ثناء عميرة، تحديث القاهرة، ص ٢٣٢.

٩٣ حسن عبد الوهاب، قصر شبرا، ص، ٢٥؛ مختار الكسباني (دكتور)، تطور نظم العمارة في أعمال محمد علي، ص ٨٢- ٨٣. ثناء عميرة، تحديث القاهرة، ص ٢٣٠.

٩٤ مختار الكسباني (دكتور)، تطور نظم العمارة فى أعمال محمد علي، ص ٨٤- ٨٥؛ محمد على عبد الحفيظ، دور الجاليات الأجنبية والعربية فى الحياة الفنية فى مصر، ٢٣١ - ٢٣٢. gaston wiet, mohammed ali et les beauxants, pl xxiv

٩٥ حسن عبد الوهاب، قصر شبرا، ص ٢٥: محمد على عبد الحفيظ، دور الجاليات الأجنبية والعربية فى الحياة الفنية فى مصر، ٢٣٢- ٢٣٤. gaston wiet, mohammed ali et les beauxants, pl xxiii.

٩٦ هو يوسف بك حكيكيان ولد عام ١٨٠٧م وتوفى عام ١٨٧٥م. تولى نظارة مدرسة المهندسخانة. والعديد من المناصب المتعلقة بالتعليم فى مصر فى عصر محمد على. محمد رفعت، الأرمن فى مصر فى القرن التاسع عشر، ص ١٢٥، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢. طبع بدار نوبار القاهرة ١٩٩٥؛ محمد على عبد الحفيظ، دور الجاليات الأجنبية والعربية فى الحياة الفنية فى مصر، ص ٩٩، ١٦٨.

٩٧ سجلات المعية تركي، سجل رقم ٥٦، ص، ١٦، ترجمة الوثيقة رقم ٧٧، من المعية السنية إلى ناظر شبرا، ١٩ محرم ١٢٥٠هـ/ ٢٩ مايو ١٨٣٤ م. ثناء عميرة، تحديث القاهرة، ص ٢٢٣.

٩٨ سجلات المعية تركى، وثيقة رقم ٨٩، ص ٢٠، من المعية السسنية إلى ناظر شبرا، ٢٣ محرم ١٢٥٠هـ/ ١ يونية ١٨٣٤م.

٩٩ سجلات المعية تركي، سجل رقم ٦٢، مكاتبة رقم ٣٩٢، من الجناب العالى إلى ناظر الأبنية فى ١١ شوال ١٢٥٠ هـ/ ١٨٣٥م.

١٠٠ سجلات المعية تركى، سجل رقم ٦٧، ص ٧، وثيقة رقم ٥٤، من المعية السنية إلى خير الله أفندى، رجب ١٢٥١هـ/ ٢٩ أكتوبر ١٨٣٥م.

١٠١ سجلات المعية السنية تركى، سجل رقم ٦٦، وثيقة رقم ٦٣٠، من المعية السنية إلى خيرالله أفندى، ٢٨ جمادى الأولى ١٢٥١ هـ / ٢١ سبتمبر ١٨٣٥ م. ثناء عميرة، تحديث القاهرة، ص ٢٣٣.

١٠٢ ديوان مدارس عربى، سجل رقم ١٥٠، صادر، ص ٢٠٨٧، ديوان المدارس إلى المالية، ٤ جمادى الآخرة ١٢٦٦هـ/ ٢٩ أبريل ١٨٤٩م.

١٠٣ سجلات المعية عربى، سجل رقم ١٦٤، مكاتبة رقم ١٦٥، من ناظر عمارات شبرا إلى ديوان المدارس، ذو الحجة ١٢٦٥هـ/ أكتوبر ١٨٤٨م. سجلات المعية السنية، سجل رقم ٤٢، ص ١، ٤، من المعية السنية إلى قسم شبرا، فى ١٧ جمادى الاول ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م. ثناء عميرة، تحديث القاهرة، ص ٢٣٤.

١٠٤ ديوان المدارس عربى، سجل رقم ٢٥، صادر، ص ١٧٢٥، مكاتبة رقم ٢٧٤، من ديوان المدارس إلى المعية، ٦ جمادى الأول ١٢٦٧هـ/ ٧ فبراير ١٨٥٢ م.

١٠٥ سجلات المعية تركي، سجل رقم ٨٩، وثيقة رقم ٣١١، من الجناب العالى إلى مفتش الأبنية، ٨ شعبان ١٢٥٢هـ/ ١٨ نوفمبر ١٨٣٦. أمين سامى، تقويم النيل، ج ٢، ص ٤٧٨.

١٠٦ محافظ ديوان خديو تركي، م٨، من الجناب العالى إلى باقى بك وكيل الديوان، ٨ رمضان ١٢٦١هـ / ١٠ سبتمبر ١٨٤٥م. ثناء عميرة، تحديث القاهرة، ص ٢٢٤.

١٠٧ دليشفالرى، حدائق القاهرة، ص٣٢.

١٠٨ ديوان المدارس عربى، سجل رقم ١٥٨، ص ١٦٢، وارد وثيقة رقم ٣٠٧. من ديوان الأبنية إلى ديوان المدارس، ٢ ذى الحجة ١٢٦٥هـ/ ١١ أكتوبر ١٨٤٩م. سجلات المعية عربى، سجل رقم ٤٢، ص ٤٠٧، من المعية السنية إلى ناظر الأبنية الميرية، ١٧ جمادى الأولى ١٢٦٦هـ/ ٣١ مارس ١٨٥٠م

١٠٩ حدثت تجديدات بهذه السراى فى عصر الملك فؤاد. انظر مختار الكسبانى (دكتور)، تطور نظم العمارة فى أعمال محمد علي، ص ٩٨.

١١٠ ثناء عميرة، تحديث القاهرة، ص ٢٢٢؛ مختار الكسبانى (دكتور)، تطور نظم العمارة فى أعمال محمد علي، ص ١٠١، ١٠٧.

١١١ سجلات المعية تركى، سجل رقم ٦٢، وثيقة ٤١٥، من المعية السنية إلى ناظر شبرا، ١٩ شوال ١٢٥٠ هـ/ ١٩ مارس ١٨٣٥ م.

١١٢ مختار الكسبانى (دكتور)، تطور نظم العمارة فى أعمال محمد علي، ص ٩٠.

١١٣ على شافعى، أعمال المنافع العامة فى عصر محمد على، ص ١٤، ١٥. الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٠م.

١١٤ عبد الحميد نافع، نيل المقريزى، ص ٥١؛ الرجبى، تاريخ الوزير، ص ١٨٦، ١٨٧.

١١٥ دليشفالرى، حدائق القاهرة، ص ٢٩: ٣٤.

١١٦ سجلات ديوان المدارس عربى، سجل رقم ١٥ ج، وارد دواوين الأقاليم، من ديوان الخديو إلى ديوان المدارس ن١٧ محرم ١٦٠هـ/ فبراير ١٨٤٤ م.

١١٧ ثناء عميرة، تحديث القاهرة، ص ٢٢٧.

١١٨ حسن عبد الوهاب، تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها، ص ١٧، دار النشر للجامعات ١٩٥٧ م. حسام إسماعيل (دكتور)، مدينة القاهرة، ص ٦٠. Jane I. Abo lughod, cairo 1001 years of the city victorous. P 89

١١٩ tarek (m.R.S), early twentietlet century islamic architecture ,p 8. The american university in cairo press 1992 .

١٢٠ الجبرتى، عجائب الآثار، ج ٤، ص٢٧٧.

١٢١ الجبرتى، عجائب الآثار، ج ٤، ص ٣٠٩.

١٢٢ ولد عباس حلمى بن طوسون باشا بن محمد على سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨١٢م، وتنقل فى عدد من الوظائف الحكومية أثناء حكم جده

وعمه، واشترك فى حروب إبراهيم باشا بالشام وتولى مديرية الغربية سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م، فمفتشا للأقاليم البحرية سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م، فمفتشا عاما على الدواوين المصرية سنة ١٢٥٢هـ /١٨٣٦م ثم كتخدا بك حتى عين واليا على مصر بعد وفاة عمه ابراهيم سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م. كلوت بك، لمحة عامة، ج ١، ص ٨٧ – ٨٨؛ أمين سامى، تقويم النيل، ج٣، ص ٤؛ عبد الرحمن الرافعى، عصر إسماعيل، ج ١، ص ١٥: ٢٧. دار المعارف ١٩٨٧م.

١٢٣ عبد الحميد نافع، ذيل المقريزى، ورقة ٥٤؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، ج١، ص ٨٤؛ أمين سامى، تقويم النيل، ج٣، ص ٧١؛ حسن عبد الوهاب، العمارة فى عصر محمد على، ص٢٠، مجلة العمارة، العدد (٣، ٤).

١٢٤ محمد الشقشتاوى، متنزهات القاهرة، ص ١٠٥: ١٣٥.

١٢٥ على باشا مبارك، الخطط، ج ٢، ص ١٦٥؛ حسام إسماعيل (دكتور)، مدينة القاهرة، ص ١٦١.

١٢٦ ثناء عميرة، تحديث القاهرة، ص ٢٤٢.

١٢٧ أمين سامى، تقويم النيل، ج ٣، ص ٢١، ٢٢.

١٢٨ ميخائيل شاروبيم، الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث، ج٤، ص ١٠٧. المطبعة الأميرية.

١٢٩ محافظ أبحاث، م ١٣٨، دوسيه متنوعات من عباس إلى ديوان المدارس، ١٢٦٥ هـ/ ١٨٤٩ م.

١٣٠ Mme de gasparin, journal de un voyage au levant, p 12,13,14. Paris 1848. Wiet, Mohammed Ali et beaux art, p 121

١٣١ عبدالرحمن الرافعى، عصر إسماعيل، ص ١٦.

١٣٢ Charles didier, les nuits du caire, p 118, 119. Pairs, hachette 1860 .

١٣٣ Nihal tamraz, nineteenth century cairene houses palaces, p 40: 55.

١٣٤ ثناء عميرة، تحديث القاهرة، ص ٢١١.

١٣٥ ثناء عميرة، تحديث القاهرة، ص ٢١١.

١٣٦ على مبارك، الخطط، ج١، ص ٢١٢.

١٣٧ أنور لوقا، إدريس أفندى فى مصر، ص ١١٠: ١١٢، كتاب اليوم ١٩٨٨ م؛ الرافعى، عصر إسماعيل، ص ٢٤: ٢٦.

١٣٨ عبدالحميد نافع، ذيل المقريزى، ورقة ٥١ – ٥٢.

١٣٩ أنور لوقا، إدريس أفندى فى مصر، ص ١٠٦.

١٤٠ إلياس الأيوبى، تاريخ مصر فى عهد الخديو إسماعيل، المجلد ٢، ص ٢٦، ٢٧، دار الكتب ١٩٢٣ م؛ أنور لوقا، إدريس أفندى فى مصر، ص ١١٨.

١٤١ أحمد عبد الوهاب رزق، تطور العمارة فى مدينة القاهرة فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، ص ٦١ رسالة ماجستير، كلية الهندسة، جامعة الأزهر، ١٩٩١ م.

١٤٢ محمد على عبد الحفيظ، دور الجاليات الأجنبية والعربية فى الحياة الفنية فى مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، رسالة دكتوراه، كلية الآثار – جامعة القاهرة، ٢٠٠٠ م، ص ٢٣.

١٤٣ على مبارك، الخطط التوفيقية، ج ١، ص٨٣. عبد الحميد نافع، نيل المقريزى، ورقة ٤٩، ٥٠. أمين سامى، تقويم النيل، ج٣، ص ٤٣٣. كراسات لجنة حفظ الآثار العربية، كراسة ١١، ص١، ٢. حسام إسماعيل (دكتور)، مدينة القاهرة، ص ١٨٧، ١٩٨.

١٤٤ عبد الحميد نافع، ذيل المقريزى، ورقة ٥٢.

١٤٥ الرافعى، عصر إسماعيل، ص ٧١.

١٤٦ عبد الحميد نافع، نيل المقريزي، ورقة ٥٣.

١٤٧ عرفت هذه البركة فى العصر المملوكى ببركة الشقاف أو القرابين، وقد أطلق عليها هذا الإسم فى أواخر العصر المملوكى، وموضعها اليوم فى المكان الذى يشغله ميدان عابدين ومبنى محافظة القاهرة. محمد الشقشتاوى، متنزهات القاهرة، ص ١٤٢: ١٤٤ .

١٤٨ عبد الحميد نافع، ذيل المقريزي، ورقة ٥٣.

١٤٩ على باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج٣، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥؛ حسام إسماعيل، مدينة القاهرة، ص ٢٩٥ – ٢٩٦.

١٥٠ سجلات المعية عربى، سجل رقم ١٩٠٧، الرقم الحديث س١ / ١ / ٤٤، ص ٤٤٠، أوامر كريم إلى ديوان أمور خاصة ٢٣ جماد أول ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م. ثناء عميرة، تحديث مدينة القاهرة، ص ٢٤٣.

١٥١ محافظ أبحاث، م ١٣٨، مظروف خاص به محفوظات تاريخية من ديوان جلالة الملك، مذكرة عن أصل أرض سراى عابدين.

١٥٢ سجلات المعية عربى: سجل ١٩٢٧، الرقم الحديث، س ١ / ١ / ٣٩ أوامر، أمر كريم إلى ديوان أمور خاصة، ٢٦ محرم ١٢٨٦هـ/ ٨ مايو ١٨٦٩م، ص ١١١ .

١٥٣ سجلات المعية عربى: سجل رقم ١، الرقم الحديث س ١ / ١ / ٥٦ أوامر، أمر كريم إلى ديوان خاصة، ٢٣ جمادى ثاني / ٣٠ ستمبر ١٨٦٩ م، ص ٢٠.

١٥٤ محافظ المعية السنية، م٤٢، الرقم الحديث ٩٢، من إسماعيل صديق ناظر المالية إلى أحد رجال المعية، ٢٢ ربيع الآخر ١٢٨٥هـ/ أغسطس ١٨٦٨ م.

١٥٥ وثيقة رقم ١٤٠٦، أرشيف وزارة الأوقاف. (وثائق أوقاف الأسرة المالكة).

١٥٦ مصطفى فهمى، عصر إسماعيل، القصور والمنشآت العامة والمتنزهات، ص ٩؛ محمود الجوهرى، قصور وتحف من محمد على إلى فاروق، ص ١٥. دار المعارف ١٩٥٤ م.

١٥٧ ديوان المعية السنية عربى، سجل ١٩٣٦، أوامر، أمر ٢٩٨، ص ١٣٤، ٢٠ رجب ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤ م.

١٥٨ ثناء عميرة، تحديث القاهرة، ٢٤٤؛ محمود الجوهرى، قصور وتحف، ص ١٦.

١٥٩ محمود الجوهرى، قصور وتحف، ص ١٦. محمد على عبد الحفيظ، دور الجاليات الأجنبية والعربية فى الحياة الفنية فى مصر، ص ٤٨.

١٦٠ محمد على عبد الحفيظ، دور الجاليات الأجنبية والعربية فى الحياة الفنية فى مصر، ص ٤٩.

١٦١ بيير كرابيتس، إسماعيل المفترى عليه، ص ٤٣، ٤٤. ترجمة فؤاد صروف، دار النشر الحديث، ١٩٣٧ م؛ حسام إسماعيل (دكتور)، مدينة القاهرة، ص ٢٩.

١٦٢ محافظ عابدين، م ٢٨٥، أمر كريم إلى طلعت باشا محرم ١٢٩٦ هـ/ يناير ١٨٧٩م.

١٦٣ أحمد شفيق، مذكراتى فى نصف قرن، ج١، ص ٩٠، سلسلة تاريخ المصريين (٨٣) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م

١٦٤ أحمد شفيق، مذكراتى فى نصف قرن، ج١، ص ٥١٩، ٥٢٠؛ يونان لبيب رزق (دكتور) الأهرام ديوان الحياة المعاصرة، ج٣ ق١، ص ٢٢٤: ٢٢٨. الأهرام ١٩٩٩م.

١٦٥ محفوظات مجلس الوزراء، البيت الحاكم ٢، السرايات والقصور، مكاتبة بتاريخ ٢٥ يوليو ١٨٩١م من المعية السنية. أرشيف دار الوثائق القومية.

١٦٦ محفوظات مجلس الوزراء، البيت الحاكم، السرايات والقصور، ترجمة مكاتبة بتاريخ ٢٧ مايو ١٨٩٣م، من ديكران باشا بشأن المصروفات اللازمة للعمليات المقتضى إجراؤها بسراى عابدين.

١٦٧ محفوظات مجلس الوزراء، البيت الحاكم، السرايات والقصور، ترجمة مذكرة إلى مجلس النظار، بتاريخ ٢٨ يونية ١٨٩٢م.

١٦٨ محمد على عبد الحفيظ، دور الجاليات الاجنبية والعربية فى الحياة الفنية فى مصر، ص ٤٩.

١٦٩ سجن أحمد عرابى وزعماء الثورة العرابية فى أعقاب فشلها فى قشلاق عابدين مما يدل على مدى حصانته. الأهرام العدد ١٨٩، ص ٢، ٣١ أغسطس ١٨٨١ م؛ يونان لبيب رزق (دكتور) الأهرام ديوان الحياة المصرية، ج١ ق١، ص٢٨٢.

١٧٠ نجح إسماعيل فى إصدار فرمان من السلطان عبد العزيز فى ٢٧ مايو ١٨٦٦، بنقل ولاية العهد إلى أكبر أبنائه، وهو ما أثار غضب أخيه الوارث الأصلى للحكم. وعمه عبد الحليم الذى كان يتطلع إلى الحكم، وسبب هذا صراعا داخل أسرة محمد على، وتولى توفيق الحكم بموجب هذا الفرمان. عبد الرحمن الرافعى، عصر إسماعيل، ج١، ص ٧٩، ٨٢.

١٧١ يونان لبيب (دكتور)، الأهرام ديوان الحياة المصرية، ص ٩٨.

١٧٢ يونان لبيب (دكتور)، الاأهرام ديوان الحياة المصرية، ص ٣٣.

١٧٣ أحمد شفيق، مذكراتى فى نصف قرن، ص ٨١، ٨٢.

١٧٤ إلياس الأيوبى، تاريخ مصر، ج٢، ص ٢١١.

١٧٥ كتاب وقف عبد الرحمن كتخدا، رقم ٩٤٠ أوقاف، ص ١٦.

١٧٦ كتاب وقف عبد الرحمن كتخدا، رقم ٩٤٠ أوقاف، ص ١٤، ١٥، ١٦.

١٧٧عبد الحميد بك نافع، نيل المقريزى، ورقة ٢.

١٧٨ هدم هذا القصر وقسمت أراضيه سنة ١٩٠٠ م، وأصبح مكانه حى جاردن سيتى، وتبقى منه واجهته التى نقلت إلى عائلة الوقاد بقرافة المماليك شرقى القاهرة، وسجلت مؤخرا فى عداد الآثار الإسلامية. سيد كريم، قاهرة إسماعيل فى ميزان التاريخ، ص ٢٣، مجلة العمارة، مجلد ٥، سنة ١٩٤٥م. عدد (٦، ٧).

١٧٩ عبد الحميد بك نافع، نيل المقريزى، ورقة ٥٠.

١٨٠ خدم هذا المُعمارى ستة وعشرين سنة وأحد عشر شهرا ويومين منذ تعيينه موظفا فى الحكومة المصرية ابتداء من ٦ يوليو سنة ١٨٥٨ م وحتى إحالته على المعاش فى ١٥ مايو ١٨٨٨ م، وقد عين فى البداية رساما بديوان الجهادية برتبة صاغقول أغاسى ثم نقل إلى الدائرة الخاصة حيث عين مهندسا مقيما للإشراف على الأعمال الجارية فى سراى نمرة ٣ بالإسكندرية، ثم عمل بدائرة سعيد باشا بوظيفة رسام حتى ١٨٦٠م وفى ١٨ نوفمبر ١٨٦١م عين مهندسا بقلم الهندسة بنظارة الأشغال العمومية وفى سنة ١٨٦٢م عينه إسماعيل مهندس الدائرة الخاصة وفى عام ١٨٧١م نقل إلى العمل فى نظارة الأشغال إلى جانب قيامه بتدريس مادة العمارة فى المدارس الملكية وفى سنة ١٨٧٥م نقل إلى الدائرة الخاصة وعين ناظرا لحمامات حلوان وأشرف على توزيع أراضى مدينة حلوان، وتقلد وظيفة ناظر قلم هندسة الأوقاف وفى عام ١٨٨٥م منح رتبة الميرميران "أمير الأمراء" ورفع راتبه إلى ٨٠ جنيهًا شهريا. محمد عبد الحفيظ، دور الجاليات الأجنبية، ص ٦٧– ٦٨.

١٨١ Fehle (i) maurisch kiosk in linderhof der carl von diebitsch munh, p 8, 1992.

محمد على عبد الحفيظ، دور الجاليات الأجنبية والعربية فى الحياة الفنية فى مصر ٧٧.

١٨٢ على باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج ١، ص ٨٠، ٨٤. ج ١٢، ص ٦٠.

١٨٣ دليشفالرى، حدائق القاهرة، ص ٤.

١٨٤ دليشفالرى، حدائق القاهرة، ص٨.

١٨٥ دليشفالرى، حدائق القاهرة، ص ٩.

١٨٦ كمال الدين صلاح الدين أحمد، تأثير العمارة الغربية على العمارة المصرية حتى عام ١٩٥٢ م، ص ١٣٢، رسالة ماجستير، الكلية الفنية العسكرية ١٩٩٣ م.

١٨٧ على باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج١، ص ٢١٣.

١٨٨ دليشفالرى، حدائق القاهرة، ص ٢: ٥.

١٨٩ على باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج ١، ص ٨٥؛ سيد كريم، قاهرة إسماعيل، ص٢٣؛ حسام اسماعيل، مدينة القاهرة، ص ٢٩٨.

١٩٠ محمود رمزى، قاهرة إسماعيل، ص ١٧١، ضمن كتاب القاهرة فى عصر إسماعيل لعرفة عبده، الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٨ م.

١٩١ أحمد شفيق، مذكراتى فى نصف قرن، ص ٨٨؛ يونان رزق (دكتور)، الأهرام ديوان الحياة المصزية، ج٢، ص ١٦٧.

١٩٢ يونان رزق (دكتور)، الأهرام ديوان الحياة المصرية، ج٣، ص ١٢، ١٣.

١٩٣ محفوظات مجلس الوزراء ٢، البيت الحاكم، السرايات الخديوية، مذكرة نظارة المالية بشأن السريات الخديوية ٢٢ فبراير ١٨٨٢ م.

١٩٤ عبد السميع الهراوى، لغة الإدارة فى مصر فى القرن التاسع عشر، ص ٣٩٩، ٤٠٠. القاهرة ١٩٦٣ م.

١٩٥ يونان رزق (دكتور)، الأهرام ديوان الحياة المصرية، ج٣، ص ٢٢٧.

الفصل السادس

العمارة والسياسة - دراسة تحليلية للعلاقة بينهما

تعددت المناهج التى درست العمارة الإسلامية[1]، ومعظمها درس من منظور بسيط غير مركب، وهو ما أدى إلى أحادية النظرة لهذه العمارة، وبالتالى إلى قصور فى إدراك ماهيتها. وكانت معظم الدراسات خلال العقود الماضية تركز على الدراسة الوصفية التى ترسم الشكل المعمارى من خلال الكلمات، دون البحث عن البنية التى صاغت هذه العمارة ونحتت زخارفها المبهرة نحتا يخطف الأبصار، أو تأصيل عناصرها المعمارية والزخرفية إلى أن تصل أحيانا بها إلى عمارة ما قبل الإسلام، دون أن يدرك هذا المنهج التأصيلى أن هناك بوتقة صهرت فيها هذه العناصر، وأعيد إنتاجها مرة أخرى بما يتوافق مع روح الحضارة الإسلامية، بطريقة تحمل فى أغلب الأحوال إبداعا يفوق ابتكار العنصر نفسه.

مستويات الدراسة

إذن فنحن أمام عدد من مستويات الدراسة ومحدداتها لكى نستطيع أن ندرس العمارة الإسلامية. وأول هذه المحددات هو تحديد بنية العمارة الإسلامية، ونحن نقصد هنا بالبنية، العلاقة المتشابكة بين المكونات المادية والفكرية للعمارة، فالبنية هنا تربط بين الكل الواقعى أو تجمع أجزاءه، لذا فالبنية تعد القانون الذى يضبط هذه العلاقة.

يجب هنا التمييز بين (البنية السطحية) و(البنية العميقة)، فالبنية السطحية هى هيكل الشيء ووحدته المادية الظاهرة، أما البنية العميقة فهى كامنة فى صميم الشيء، وهى التى تمنح الظاهرة هويتها وتضفى عليها خصوصيتها. وعادة ما يعى المرء إدراك البنية السطحية المادية المباشرة، فإدراكها أمر متيسر، أما إدراك البنية الكامنة فهو أمر أكثر صعوبة، يتطلب استخدام الحواس وإعمال العقل والخيال والحدس؛ لذا عادة ما يعيش البشر داخل بنى اجتماعية وتاريخية واقتصادية يستبطنونها فتؤثر فى سلوكهم وتشكيل رؤيتهم للكون وتحدد خطابهم الحضارى دون وعى منهم[2].

لذا لكى نصل إلى بنية العمارة الإسلامية، يجب أن نفكك هذه العمارة ونعيد تركيبها مرة أخرى، وعبارة (فك الشيء) تعنى فصله وفرق أجزائه بعضها عن بعض، وعكسها (ركب الشيء) أى –جعل الشيء بعضه فوق بعض– وضمه إلى غيره– وهذه العملية تهدف إلى فصل مكونات العمارة، ثم إلى إعادة ضمها إلى بعضها، من خلال نموذج تفسيرى يوضح هذه العملية، وبذلك يمكن الوصول إلى ماهية العمارة الإسلامية.

وتعتمد هذه الدراسة فى بناء النموذج التفسيرى على دراسة العلاقة بين التحول السياسي، والذى يعنى انتقال السلطة من جماعة سياسية إلى أخرى، وهو ما يطلق عليه ابن خلدون العصبية السياسية[3] التى تقوم عليها الدول، على نحو ما حدث من انتقال للسلطة من الأيوبيين إلى المماليك فى مصر، ومن المماليك إلى العثمانيين ثم إلى محمد على وأسرته.

وهذا الانتقال عادة ما يصاحبه تغير فى نمط أو طراز العمارة وفى تخطيط المدن، ولا يكون مثل هذا التغير سريع الحدوث، بل يأخذ وقتا من الزمن، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون (فى أن رسوخ الصنائع فى الأمصار، إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها)[4]. ونستطيع أن نترجم هذه العبارة معماريا بأن الطراز المعمارى المميز لأى عصر لابد له من وقت لكى تتضح معالمه وهذا التميز المصاحب لأى طراز لابد أن ينشأ فى ظل استقرار سياسى يتيح للمعمارى الإبداع.

هناك ثلاثة مستويات من البنى تحدد العلاقة بين العمارة والسياسة:

– **المستوى الأول:** العمارة كشاهد سياسي.

وهو يمثل البنية السطحية: وفى هذا المستوى تكون العمارة سجلا للعديد من الأحداث السياسية التى مرت عليها، أو حدثت فى المنشأ المعماري، أو تركت أثرها عليها، ومن أمثلة ذلك باب زويلة الذى شيد فى العصر الفاطمي[5] ليكون أحد أبواب حصن القاهرة مقر حكم الفاطميين بالعاصمة المصرية، وكان ذا وظيفة حربية، إذ إنه كان يغلق على الحصن الذى كان يضم قصور الفاطميين ومسجدهم الجامع وجندهم ومواليهم.

ولكن منذ عام ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م، حين وسط المظفر قطز أحد رسل التتار بظاهر باب زويلة ثم علق رءوس رسل التتار الأربعة على باب زويلة[٦]. اكتسب الباب منذ ذلك الوقت وظيفة سلطوية سياسية بخاصة مع تضاءل دوره الحربي[٧]، وتوالت حوادث الإعدام عليه، منذ ذلك الحين حتى القرن التاسع عشر الميلادي، وأعدم السلطان المملوكى طومان باى آخر سلاطين المماليك على هذا الباب[٨]، وكان هذا الإعدام رمزا لبداية عصر العثمانيين فى مصر ونهاية عصر المماليك. وفى العصر العثمانى وعصر محمد على توالت عمليات تنفيذ حكم الإعدام على هذا الباب[٩] حتى عصر الخديوى إسماعيل. كان لجلوس متولى الحسبة[١٠] بالقاهرة عند هذا الباب أثره فى تغير اسمه لدى العامة إلى باب المتولي. وبمرور الوقت نسى الناس السبب الحقيقى لهذه التسمية، وتصوروا أن المقصود بالمتولى أحد الأولياء الصالحين، ومن ثم ظل هذا الباب يتقرب إليه بعض العامة بربط الخرق بمساميره[١١].

كما يسعى السلاطين بإثبات انتصاراتهم على عمائرهم بصورة أو بأخرى لتكون شاهدا على هذه الانتصارات، ومن ذلك تعليق خوذة ملك قبرص على باب مدرسة السلطان الأشرف برسباى بالقاهرة، والتى انتهى من تشييدها عام ٨٢٩هـ/١٤٢٥م، وهى السنة التى فتحت فيها قبرص[١٢]. وظلت هذه الخوذة باقية حتى القرن ١١هـ/١٧م[١٣].

– **المستوى الثاني: الرمزية السياسية للعمارة.**

وهو يمثل أحد جانبى البنية العميقة: فى هذا المستوى تجسد العمارة قوة الدولة وتوجهاتها السياسية. ومثل هذا النوع من العمائر شاع فى العمارة الإسلامية. تتمثل هذه الرمزية فى عدد من المدلولات المعمارية، يحمل بعضها مضمونا حضاريا وبعضها الآخر مضمونا سلطويا سياسيا، ويجمع بينهما أحيانا بعض العمائر ذات الدلالات المتعددة.

تعد قبة الصخرة والحرم القدسى الشريف حولها أبرز العمائر التى تحمل مضمون حضارى· يعود تشييد القبة إلى العصر الأموي، الذى شهد نزاعا حضاريا بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية على السيطرة على العالم القديم. واتخذ هذا النزاع صورا متعددة. منها تعريب طراز أوراق البردى التى كانت تصنع فى مصر[١٤]. وتعريب النقود فى إطار سياسة رسمها عبد الملك بن مروان الهدف منها إرضاء الشعور الدينى والسياسى للمسلمين، ورغبته فى إعطاء حق ضرب النقود إلى الخلافة فى شخص الخليفة كمظهر من مظاهر الملك والسلطان بعد أن انتزع حق ضرب النقود كثير من الولاة والثائرين فكان الإصلاح النقدى سببا مهما فى القضاء على الفوضى السائدة تحقيقا للاستقرار السياسي، فضلا عن أن النقد العربى الخالص يعبر عن سيادة الدولة وخروجها من تحت عباءة النفوذ الاقتصادى البيزنطي، لذا اتجه عبد الملك إلى الاستقلال الاقتصادى بتعريب النقود، فضلا عما يتيحه هذا من توحيد النظام النقدى فى دولة تمتد عبر مساحات شاسعة من الأراضي[١٥].

اتجه عبد الملك بن مروان فى إطار هذا المخطط الشامل إلى العمارة التى ترمز إلى سيادة الدولة واتجاهها الفكري، ففى القدس تبنى مشروعا ذا طابع سياسى دينى حضاري، يرتكز على الاهتمام بعمارة الحرم القدسى الشريف بخاصة قبة الصخرة والمسجد الأقصى لارتباط هذا الحرم بالعقيدة الإسلامية فهو أول القبلتين، وفيه صلى الرسول بالأنبياء وإليه كان إسراؤه ومنه كان معراجه[١٦]. ولما كانت عمارة الحرم آنذاك بسيطة لا تتناسب مع ما حولها من كنائس، بخاصة كنيسة القيامة المقدسة لدى المسيحيين، ومع ما قد تحدثه عمارة الكنائس فى نفوس بعض المسلمين، ورغبة عبد الملك فى إثبات الهوية الحضارية الجديدة للمدينة[١٧]. تبنى مشروع عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

ويلفت الانتباه من هذا المشروع قبة الصخرة، أبرز آثار الحرم، فهى تعد أول عمل معمارى واع لعظمته بل متباه بها، انتهى من بنائها عام ٧٢ هـ/٦٩٢م. وهى ترى من مسافات بعيدة، وهى مبنية فوق صخرة مقدسة، حولها ممران يدوران حولها بمسقط مثمن، شامخة فى الهواء فى مركز الحرم القدسى على تل من تلال القدس.

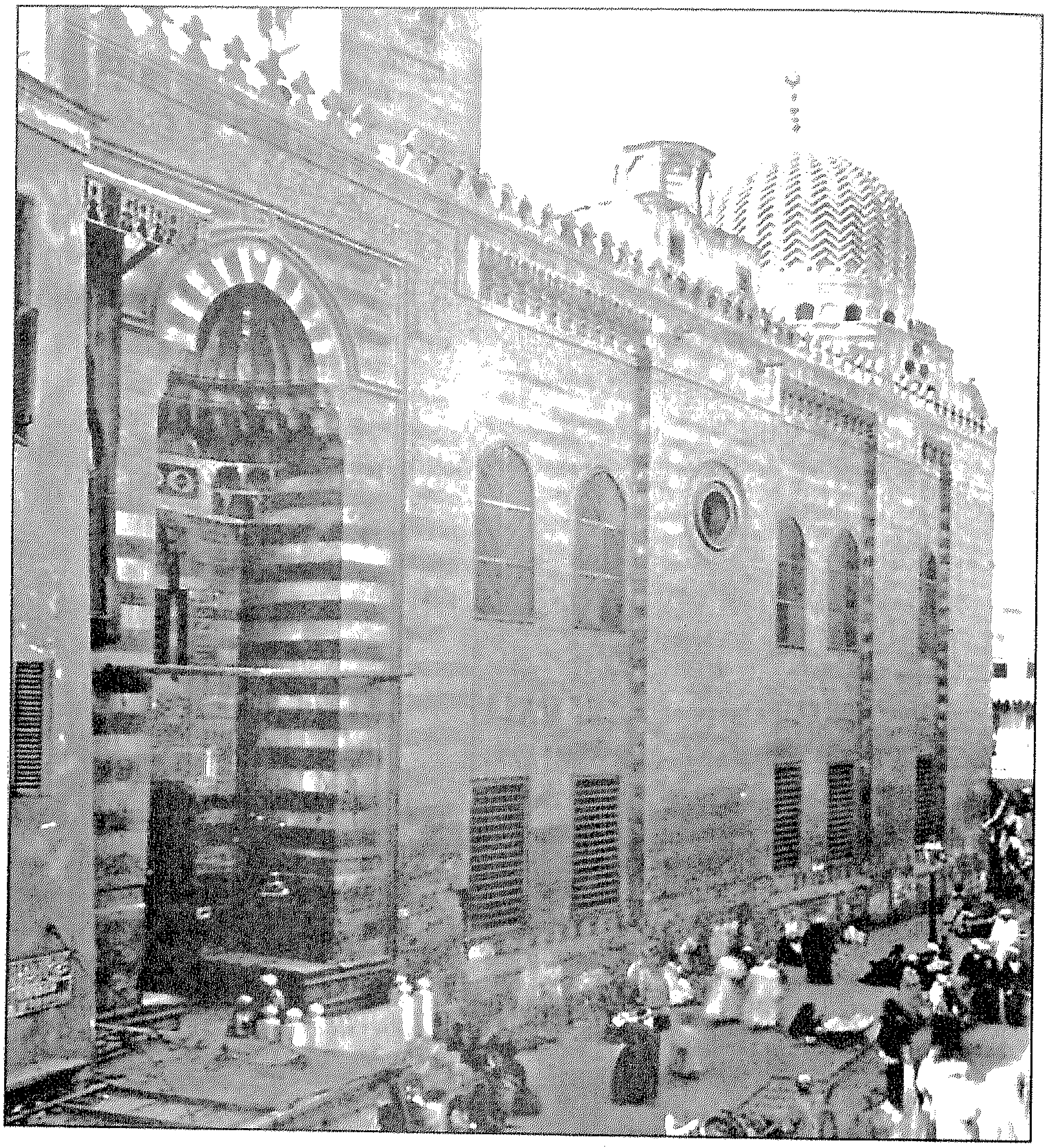

مدرسة الأشرف برسباي

وهذه القبة ذات التصميم الهندسي الذى يصل لحد الكمال والروعة كانت مزخرفة بالفسيفساء على كل سطوحها داخلا وخارجا، وكانت ومازالت تبهر الرائين حتى إن كثيرا منهم لم يملكوا أنفسهم من إضفاء كل صفات البريق واللمعان عليها، مهملين فى الوقت نفسه، للأسف، أن يخبرونا ماذا كانت تلك اللوحات الفسيفسائية تمثل، ولا نستطيع أن نحكم على موضوعات فسيفساء القبة حكما كليا لأن جزءا كبيرا من الفسيفساء الأموية فُقد، ولكننا نملك بعض الشواهد على هذه الموضوعات من فسيفساء الرواق المثمن الداخلي، يمكن عند ربطها بدقة عمارة القبة الانتهاء إلى الرمزية السياسية لها.

مخطط القبة ليس غريبا بالدرجة التى يبدو بها اليوم، يرى بعض المستشرقين وعلماء الآثار العرب أن تخطيط قبة الصخرة ذو أصل رومانى يعرف بمخطط ضريح

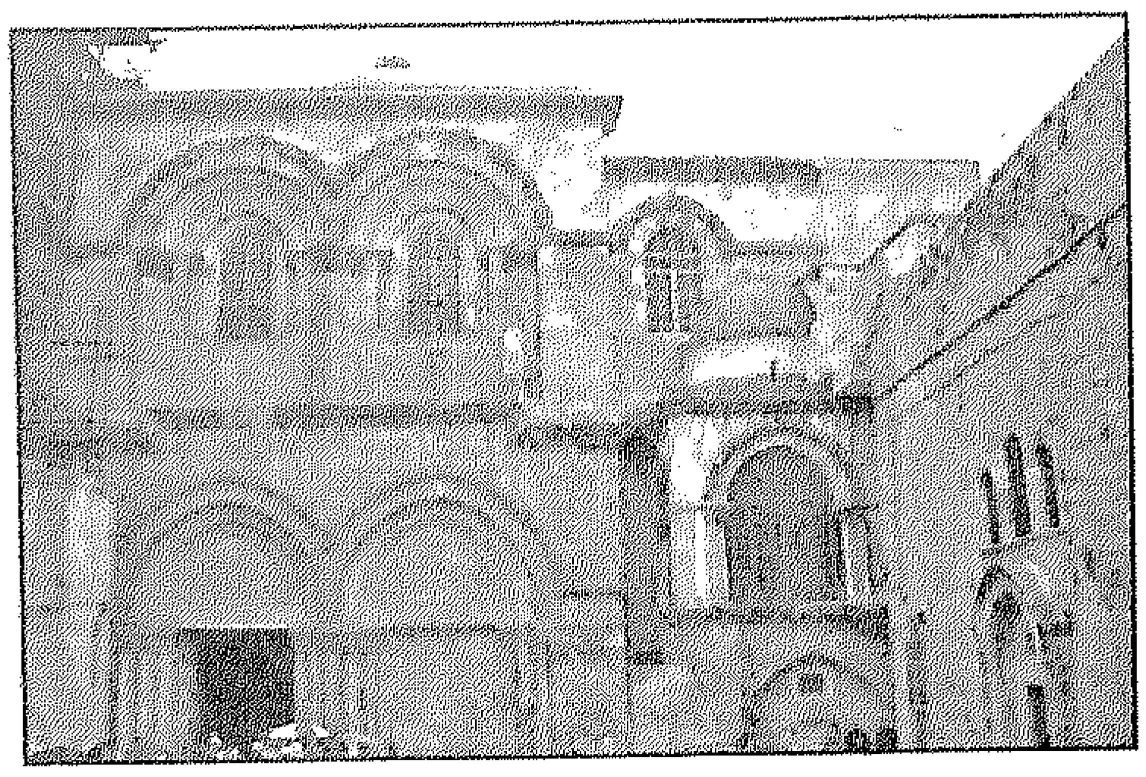
كنيسة القيامة

الشهيد، وهو عبارة عن مخطط مركزى يتحلق حول بؤرة مهمة كضريح عظيم أو تمثال إله لتمكن الزوار الطواف حوله، وظيفته إذن طقوسية طوافية. وهو لهذا السبب استعمل فى الفترة المسيحية المبكرة فى بلاد الشام، وفى مجمل الأراضى البيزنطية، فى عمارة العديد من الكاتدرائيات المهمة، ككاتدرائية بصرى فى حوران التى لا تزال بقاياها قائمة إلى اليوم، وكنيسة القيامة فى القدس نفسها، وهما الاثنتان تعودان إلى فترة الحكم البيزنطى فى عهد جوستينيان (حكم ٥٢٧ – ٥٦٥م). ولكن قبة الصخرة أكثر هذه المخططات توازنا هندسيا، وهى من دون أى شك قد قصد بها التمايز والتنافس مع قبة قبر المسيح فى كنيسة القيامة التى تطل عليها من أعلى جبل مورياه[١٨]. ويرى الدكتور فريد شافعى أن تخطيط قبة الصخرة لا يطابق أى تخطيط لنماذج العمائر البيزنطية فى منطقة بلاد الشام أو فى غيرها، بل هو تحوير واقتباس منها ليتفق مع الغرض الذى شيد من أجله البناء وهو أن يحيط بالصخرة، وهى البقعة المباركة التى عرج منها محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء حين أسرى به ربه من مكة المكرمة إليها. ولذا فقد روعى فى التخطيط أن يوفر غرض تعيين تلك البقعة، ثم غرض الطواف حولها للتبرك بها. وهو أمر يختلف تماما عن الذى شيدت من أجله تلك العمائر الدينية البيزنطية ذات التخطيطات المشابهة التى عادة ما توجه نحو الحنية، ولا تتعدد فيها المداخل كما تعددت فى قبة الصخرة، ومهما يكن من أمر فإن تخطيطات تلك العمائر الدينية البيزنطية ليست إبتكارات

المسجد الأقصى

بيزنطية أو سورية، بل كانت فى الأصل تخطيطات رومانية دينية سابقة، أخذت بدورها من أصول إغريقية[١١].

وتعد فسيفساء قبة الصخرة من الناحية الحرفية امتدادًا للفسيفساء البيزنطية فى بلاد الشام والدولة البيزنطية، ولها العديد من الأمثلة فى كنائس بلاد الشام والعاصمة القسطنطينية، وأشهرها آيا صوفيا، وكنائس سالونيكا الإغريقية، غير أن فسيفساء قبة الصخرة ذات مواضيع معقدة فى أصولها وكيفية اختيارها ومعانيها، فعلى خلاف النماذج البيزنطية التى تتشارك وإياها فى التقنية، تركز لوحات قبة الصخرة على المواضيع المحورة عن الطبيعة، وتحصرها بالكتابات القرآنية والتسجيلية وبالتوريق والزخارف النباتية، بعض الأشكال الغامضة اليوم، والتى ربما تكون تحويرا لتيجان ملوك ومستلزمات وظيفتهم من صولجانات ومجوهرات وما شابهها.

إننا هنا أمام تساؤلات عديدة تطرح نفسها حول هذا المبنى ورمزيته. إن التوجهات السياسية والإعلامية والعقيدة تبرز فى الآيات القرآنية المختارة بدقة، وفى تركيز وضع صور تيجان الملوك فى الرواق حول القبة وبمواجهتها، فالنص القرآنى يحتوى على كل الآيات التى تتكلم عن المسيح فى موقعه الإسلامى المختار كنبى مرسل[٢٠]. والتيجان تبدو أشبه ما يكون بالتيجان الحقيقية للملوك المغلوبين، التى كان أباطرة الرومان والبيزنطيين يضعونها فى معابدهم وكنائسهم كعلامات نصر ورمز إيمان بأفضلية معتقدهم. وبالتالى يمكن هنا أن ننظر إلى هذين العنصرين الزخرفيين على أنهما بالنسبة لبناة قبة الصخرة وسيلتا دعاية لدينهم ولدولتهم المنتصرين، خاصة إذا تذكرنا أن قبة الصخرة قد بنيت فى القدس التى كان أغلب سكانها المسيحيين ما زالوا يدينون بالولاء لإمبراطور القسطنطينية البيزنطي، فى وقت كانت الدولة الأموية فيه فى خضم صراع مرير مع البيزنطيين فى شمال بلاد الشام[٢١].

فالقبة مبنى معمارى ذو رمزية سياسية ينبئ فى القدس عن رغبة الدولة الأموية فى بث حضارة جديدة تعبر عن أتباع الدولة المقيمين فى المدينة، ويوجه رسالة إلى الآخرين عن مدى قوة الدولة ومضمون رسالتها. وظلت قبة الصخرة بلونها الذهبى رمزا لمدينة القدس، يعلوها الهلال الذى يوازى اتجاه القبلة. وعندما استولى الصليبيون على القدس نزعوا الهلال من فوق قبة الصخرة، وأقاموا مكانه صليبا من الذهب. وعندما استرجع صلاح الدين القدس مرة أخرى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، تسلق بعض المسلمون القبة واقتلعوا الصليب، وأعادوا الهلال إلى مكانه[٢٢]. هكذا شكل الموقع الذى شيدت عليه قبة الصخرة جانبا من الرمزية السياسية.

وإذا كان للقباب فى بعض استخداماتها رمزية سياسية مباشرة كانت أو غير مباشرة، فقد استخدمت أيضا للتعبير عن مقر الحكم أو العرش بصورة صريحة فقد كان يعلو قصر الإمارة فى دمشق قبة خضراء أعطت القصر اسمه[٢٣]. كما قام الحجاج بتقليد سادته بإقامة قبة خضراء لدار الإمارة فى واسط[٢٤]. وكان يعلو قاعة العرش أو الحكم بقصر الذهب فى بغداد قبة كبيرة خضراء على رأسها تمثال فارس بيده رمح يعبر عن قوة الدولة وبطشها فى مواجهة أعدائها[٢٥]. وفى سامراء تميزت الدار الخاصة بالخليفة المعتصم بجناح قاعة العرش المؤلف من قاعة مربعة مركزية مسقوفة بقبة[٢٦]. واستخدمت القبة الخضراء كذلك لتسقيف دار العدل فى قلعة صلاح الدين الأيوبى بالقاهرة، التى شيدها الناصر محمد بن قلاوون لتكون مقرا لنظر المظالم ولاستقبال السفراء وكذلك للعرش المملوكى، ومقرا للاحتفالات الرسمية، هكذا كان للقبة مدلول سلطوى رمزى منذ فترة مبكرة فى تاريخ العمارة الإسلامية.

– المستوى الثالث: يتمثل فى العلاقة الفكرية بين السياسة والعمارة.هذه العلاقة هى التى تحكم طبيعة العمارة وموضوعاتها وحركيتها وتخطيطها. وهى تنبع من التوجه السياسى للسلطة، هذا التوجه يكون أيديولوجيا، ينعكس على العمارة فى صور متعددة، وهو لا يحدث دفعة واحدة، بل يطل على العمارة القائمة على مراحل حتى يكسبها عند التحول من نمط إلى نمط بتغير السلطة شخصية جديدة، تعرف عند الأثريين والمعماريين بالطراز المعمارى.

تنشأ السلطة السياسية عادة من حاجة البشر إلى التجمع، فالإنسان مدنى بطبعه أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية، وهى فى اصطلاح ابن خلدون تعنى العمران[٣٧]. فسر ابن الأزرق[٣٨] ما ذكره ابن خلدون فى هذا الشأن بقوله إن "الإنسان مدنى بالطبع، أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية عندهم –الفلاسفة– ليحفظ به وجوده وبقاء نوعه إذ لا يمكنه انفراده بتحصيل أسباب معاشه"[٣٩]. وتحدث ابن تيمية عن الاجتماع المدني. وقال "إن بنى آدم لا تتم مصلحتهم فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون، التعاون على جلب منافعهم والتناصر لدفع مضارهم" وينهى كلامه بقوله: "ولهذا يقال إن الإنسان مدني"[٣٠].

مما سبق نرى أن الاجتماع الإنسانى فطرة مجبول عليها الإنسان للحصول على منافعه فى الدنيا بدأت بالعجز الفطرى والذى دفع إلى الخضوع للخالق ومن ثم البحث عن الرزق، ثم التعاون لسد حاجات البعض للبعض، لتنتهى إلى اتخاذ المدن، وهى الصورة الإنسانية للاستقرار المؤقت الذى يدوم بدوام الحياة. والإنسان عند بداية ظهوره على الأرض تعاون مع أخيه الإنسان فقامت الحضارات، وظهرت الزراعة والقرى والمدن التى تتشكل منها أقاليم ثم من الأقاليم دولة. هكذا كان الحال فى حضارتى مصر والعراق.

هذا ما عبر عنه القزوينى[٣١] عند حديثه عن ضرورة المدن بقوله: "إنه عند حصول الهيئة الاجتماعية لو اجتمعوا – يقصد البشر – فى صحراء لتأذوا بالحر والبرد والريح، ولو تستروا بالخيام والخرقاهات لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو، ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب كما ترى فى القرى التى لا سور لها، لم يأمنوا صولة ذى البأس، فألهمهم الله تعالى اتخاذ السور والخندق والفصيل، فحدثت الأمصار والمدن والقرى والديار، ثم إن الملوك الماضية لما أرادوا بناء المدن، أخذوا آراء الحكماء فى ذلك، فالحكماء اختاروا أفضل ناحية فى البلاد، وأفضل مكان من السواحل والجبال ومهب الشمال، لأنها تفيد صحة أبدان أهلها وحسن أمزجتها، واحترزوا من الآجام والجزائر وأعماق الأرض، فإنها تورث كربا وهرما.

واتخذوا للمدن سورا حصينا، وللسور أبوابا عدة حتى لا يتزاحم الناس بالدخول والخروج، بل يدخل ويخرج من أقرب باب إليه. واتخذوا لها قهندزا لمكان ملك المدينة والنادى لاجتماع الناس فيه، وفى البلاد الإسلامية المساجد والجوامع والأسواق والخانات والحمامات، ومراكض الخيل، ومعاطن الإبل، ومرابض الغنم، وتركوا بقية مساكنها لدور السكان، فأكثر ما بناها الملوك العظماء على هذه الهيئة، فترى أهلها موصوفين بالأمزجة الصحيحة والصور الحسنة، والأخلاق الطيبة، وأصحاب الآراء الصالحة والعقول الوافرة، واعتبر ذلك بمن سكنه لا يكون كذلك مثل الديالم والأكراد، والتركمان وسكان البحر فى تشويش طباعهم وركاكة عقولهم واختلاف صورهم.

ثم اختصت كل مدينة لاختلاف تربتها وهوائها بخاصية عجيبة، وأوجد الحكماء فيها طلسمات غريبة، وأحدث بها أهلها عمارات عجيبة، ونشأ بها أناس فاقوا أمثالهم فى العلوم والأخلاق والصناعات"[٣٢].

وحديث القزوينى يحمل العديد من الدلالات المعمارية والتى تتعلق بتكوين ارتباط العمارة بالسلطة، فعندما تكون الهيئة الاجتماعية تتشكل المدن التى تحتاج إلى سور يوفر لها الأمن، وأشار إلى القيمة الحضارية لحياة المدينة وما تتميز به عن غيرها، وتميز المدن عن بعضها، وفى هذا إدراك مبكر للفروق بين المدن سواء كانت طبيعية أو ناشئة عن أنشطة ساكنيها. ويظهر من كلام القزوينى تأثره بنمط مقر الحكم فى مدن أواسط آسيا، حيث إنه ولد بقزوين وطاف بهذه المنطقة وبلاد فارس والعراق (ويطلق على مقر الحكم هناك القهندز[٣٣]). وهو عبارة عن قلعة داخل المدينة قد تكون على تبة جبلية منفصلة، أو سور يحيط بقصر الحكم والدواوين يتوسط المدينة، بينما يحيط بالمدينة ككل سور كبير، وأشهر الأمثلة على ذلك فى مدينتى بخارى وسمرقند[٣٤]. وفرق القزوينى بين المدن الإسلامية وغير الإسلامية من حيث التكوين الداخلى.

وهذا يعنى أن هناك ترابطاً تلازميا بين المدينة والعمارة والسلطة الحاكمة، وهى مكونات تتكامل مع بعضها، وتؤثر فى بعضها، وربط بناء المدن بالتطور

الحضارى للإنسانية، وبوجود ملوك عليها يتولون بناءها، أو حكام لها يقومون عليها، فيبنون الأسوار والمرافق العامة. وفى ضوء هذه العلاقة نستطيع أن نرى الصيغة التى تربط بين مكوناتها، هذه الصيغة عادة لا تكون مرئية بصوره مباشرة لأنها الفكر الذى يشكل المجتمع. نرى هذا منذ وقت مبكر فى تاريخ الإنسانية، حيث ارتبط اصطلاح السياسة police بمعنى المدينة ونسب إلى الاصطلاح الإغريقى politiea بمعنى اجتماع المواطنين وممارستهم شئون الحكم والسلطة فى إطار دولة المدينة[٣٥] وهذا ما كان يتم فى أثينا حيث نشأ الاصطلاح، كان ينقص أثينا الكثير من مظاهر الراحة المادية، مقارنة بكبريات المدن، فقد كانت مدينة للمزارعين الذين يتوجهون إلى أراضيهم للعناية بها، تناولت أثينا السلطة، بطريقة مثالية، فكان يتم اختيار ممارسى السلطة بالقرعة من بين الذكور، وعندما كانت تنشأ الحاجة الماسة إلى محترفين لإدارة شأن من شئون المدينة، كان المختارون بالقرعة يعينون مجالس من المحترفين لإدارة الأمور الفنية كالإدارة المالية أو بناء أحواض السفن. وتتخذ القرارات المصيرية بالنسبة لمدينة على يد مجلس الجماهير الذى يضم كل من له حق التصويت بالمدينة. وقامت إلى جانب ذلك منشآت معمارية أثرت الحياة والمشاركة الحياتية لأهل أثينا، مثل الأكروبول الذى يشرف على المدينة. وفى مهرجان الباناثينيا panathenea كان يتجمع الأثينيون لتقديم الهدايا للربة أثينا.

ولقد كان المسرح الأثينى، وهو شبه دائرة هائلة من الدرجات التى نحتت فى جبل منحدر متنفسا للمشاركة بالمدينة، إذ شهد عروضًا مسرحية تعكس طبيعة هذا المجتمع إذ كان المشاهد والممثل يتبادلان الأدوار. وكان هذا مما يعمق الوعى الخاص والتعبير الحر. لعب المسرح فى أثينا دورا سياسيا مهما حيث عكس واقع المجتمع وعمق من المشاركة الاجتماعية لأهل المدينة. وبرز هذا الدور أثناء الغزو الإسبرطى لأثينا حين قدم أريستوفانيس مسرحية أهل أرخاميا the archarnians التى قام بطلها بعقد سلام خاص مع العدو.

تمثل أرسطو مدينته الفاضلة من خلال حياة أهل أثينا التى جمعت بين العمل والمشاركة الشعبية التى تتطلب وقت فراغ بقوله "إن المدينة يجب أن تكون على نحو يمكن سكانها من العيش مع الاستمتاع بوقت الفراغ باعتدال وحرية"[٣٦].

كان أرسطو أقل انبهارا من أفلاطون بالأشكال المثالية، وأشد اهتماما بالمسار والهدف والنمو والإسكان بالنسبة للمدينة، وهو ما أعطى رؤيته درجة من الحيوية.

كان من المتوقع أن يتأثر الإسكندر الأكبر أشهر تلاميذ أرسطو بأستاذه، حين شيد سبعين مدينة أطلق على معظمها اسم الإسكندرية، كتب البقاء منها للإسكندرية المصرية، التى شيدها الإسكندر لتكون عاصمة للحضارة الهللينية فى مصر. اتبع الإسكندر فى تخطيط هذه المدن صورة أقرب لمدينة أفلاطون[٣٧]. كان أرسطو فى دراسته للمدينة الفاضلة، أشد تقديرا للتنوع والتعدد والاحتياجات المحلية الخاصة من أستاذه أفلاطون. إن مدينة أفلاطون المثالية هى بمثابة المطلق الهندسي، قوامها ٥٠٤٠ مواطنا و٥٠٤٠ قطعة أرض، وثلاث طبقات من الناس تتعلم وتعيش منفصلة، والمدينة مقسمة إلى اثنى عشر قسما ينفرد كل منها بإلهة ومعبده. ويمتد كل بيت منها كالسور (وتتخذ المدينة هيئة المسكن الواحد) كل ما فيها – باختصار – منتظم وموحد. نشأت هذه الرؤية الأفلاطونية من إعجابه بالانضباط والتنظيم العسكرى الإسبرطي[٣٨]. ولعلها الجذر الذى اشتقت منه فكرة النظام التى خضعت لها الدولة ومن ثم المدينة فى الفكر الأوروبى المعاصر. وتركت آثارها بصورة واضحة على المدينة الغربية.

صمم الإسكندر مدينته الإسكندرية المصرية، بعد أن ربط بينها وبين الجزيرة التى تتقدمها على شاطئ البحر بلسان، فشق الطرق العريضة بها على شكل مستطيل متشابك، تمتد الطرق الطويلة منها شرقًا وغربًا بحذاء اللسان. أما الطرق القصيرة فتمتد شمالاً وجنوباً من البحر إلى البحيرة. ويصل أتساع الشوارع ما بين ١٨ و١٩ قدماً، أما الشارع الرئيسى الممتد شرقاً وغرباً،

وهو شارع كانوبيس، فلعله كان يصل فى اتساعه إلى مائة قدم[٣٨] وهكذا نجد أن كل شيء صمم لضمان الحركة المنسابة المباشرة. لقد كان الهدف أن تكون الإسكندرية مثلاً يحتذى فى الفاعلية والبساطة الواضحة. فكانت الإسكندرية المثل الأعلى لحاكم سيطر على العالم، ويريد أن يظهر إتساع سلطاته وانتظامه، ونموذجاً لقائد أجنبى يخشى التهديد المحتمل من جانب أحياء وطنية تحميها شوارع ضيقه ملتفة[٣٩].

لقد عكست الإسكندرية رغبة السلطة فى السيطرة عليها، بل وزرعت الإبهار والرهبة فى نفوس زائريها، ومثل ذلك نص ذكره الروائى اليونانى "أخيل تاتيوس" "Achilles Tatius" الذى زار المدينة فى أوج ازدهارها حيث قال "بلغنا الإسكندرية بعد رحلة استغرقت ثلاثة أيام، ودخلتها من بوابة يقال بوابة الشمس وبهرنى على التو جمال المدينة الأخاذ الذى ملأ عينى بالبهجة. فقد كان هناك صفان متوازيان من الأعمدة يمتدان فى خط مستقيم، من بوابة الشمس إلى بوابة القمر (وهما المعبودان اللذان يقومان على حراسة المدخل) وقرب منتصفها يقع الجزء المكشوف من البلدة، ويتفرع منه عدد من الشوارع يبلغ من الكثرة حدًا يجعلك تتخيل، حينما تمر بها، أنك فى بلاد أخرى، مع أنك مازلت فيها. ولما تقدمت قليلاً، وجدتنى فى الحى الذى أطلق عليه اسم الإسكندر – يقصد الحى الإغريقى – وقد قسمت هذه المدينة الرائعة إلى مربعات صف من الأعمدة يقطعه صف آخر مساو له فى الطول بزاوية قائمة ... وقد جلت فى شوارعها، فلم يشبع منى النظر أيضًا. لقد راعنى شيئان غريبان شاذان بصفة خاصة وكان يستحيل على أن أحدد أيهما أعظم .حجم المكان أم جماله، المدينة نفسها أم سكانها، فالمدينة كانت أكبر من قارة، والسكان يفوقون الأمة عددًا. ولما تطلعت إلى المدينة شككت فى أن يتمكن أى جنس من الأجناس من أن يملأها، ولما نظرت إلى أهلها سألت نفسى إن كان يمكن لأى مدينة أن تتسع فتستوعب هؤلاء جميعًا. ومع ذلك فقد بدا التوازن تامًا فى كل شيء"[٤٠].

هكذا نجح البطالمة فى جعل الإسكندرية مبهرة، فقد أصبحت أكبر مدينة فى العالم بعد تأسيس الإسكندر لها عام ٣٣١ ق. م بقرن. وتكونت من ثلاثة أحياء أساسية: الحى اليونانى ويقع على الساحل والحى المصرى الوطنى فى الغرب، والحى اليهودى فى الشرق، بالإضافة إلى أحياء الوافدين، وكانت هذه الأحياء مدنًا قائمة بذاتها. وهو ما يكرس العنصرية البطلمية أو الرومانية ضد المصريين من خلال العزل المدينى، وليس هناك وجه للمقارنة بين أحياء المدينة المنفصلة. فقد بنى الإسكندر وكل من تبعه من البطالمة والرومان قصورهم الخاصة كوسيلة لزيادة فخامة المدينة بشكل متصاعد. فاحتلت القصور ما بين ربع وثلث المدينة. وكان بها إستاد ضخم، ومسرح مدرج، وحدائق عامة غناء، وفنار عده القدماء إحدى عجائب الدنيا[٤١].

تعكس الإسكندرية فلسفة السلطة فى الحضارة الهلينستية التى تسعى إلى تجميل الحياة باعتبارها أثرًا تالدًا أو فنًا أو فكرًا أو قوة، وهو ما جعل المدن الهلينستية ومنها الإسكندرية تفتقد التفاعل الإنسانى والتلقائية، لخضوعها لفكرة النظام الصارم والقوة المتنامية، واستعيض فى الإسكندرية المدينة ذات الفخامة والإبهار المطلقين عن البشر بالصروح، وعن الإحساس بالفن بالمتاحف وعن الشعراء بالقصور حتى تحولت المدينة إلى عمل فنى، وتحول الناس من فاعلين مؤثرين، إلى متفرجين مشغولين لا ينتهى بصرهم من التأمل فى كل شيء، وسعى الحكام إلى هذا فجعلوا على سبيل المثال مواكبهم حدثًا ينتظره الناس بشغف لمشاهدته، وحاولوا أن يبلغوا به حدًا لا نستطيع أن نراه فى أى عنصر آخر. لاحظ لويس ممفورد هذا: "تأمل المسرح" المعد لتتويج فيلادلفوس البطلمى، وهو نموذج لملوك هذا العصر فى قمة قوتهم، لقد جهز موكب تتويجه ليشترك فيه ٥٧ ألف من المشاة، ٢٣ ألف من الخيالة وعدد لا يحصى من العربات بينها ٤٠٠ تحمل أوانى من الفضة و٨٠٠ مليئة بالعطور، وعربه سيلينوس (أبو ديونييوس إله الخمر) التى يجرها ٣٠٠ رجل تتلوها عربات تجرها الأيائل والجاموس والنعام والحمر الوحشية. فهل ثمة سيرك حديث يمكن أن يطاول

هذا السيرك الأقدم؟ مثل هذا الموكب ما كان ليستطيع أن يشق طريقه حتى بنظام مختل، عبر شوارع أثينا في القرن الخامس [٤٢]. ويبرز ممفورد من خلال ذلك اختلاف طبيعة السلطة بين أثينا والإسكندرية وأثر ذلك على المدينتين، فيؤكد على (أن النظم الديمقراطية تضن بإنفاق المال على الأغراض العامة، لأن مواطنيها يشعرون بأن المال مالهم، أما الملوك والطغاة فيبسطون أيديهم كل البسط لأنهم يدسونها بحرية في جيوب غيرهم. زيادة على ذلك لم يكن التتويج هو المشهد الوحيد الرائع في المدينة، وإنما كانت الحياة بأسرها مشهدا من هذا النوع. ويرى ممفورد أن المدينة الهلينستية "لم تعد ساحة لدراما ذات مغزى، لكل إنسان فيها دور يقوم به وأبيات يقولها، بل أصبحت مكانا مبهرجا لاستعراض القوة، ولم تقدم شوارعها إلا واجهات ذات بعدين فقط، لكي تكون بمثابة قناع لإخفاء نظام الإخضاع والاستغلال الشامل [٤٣]".

وإذا انتقلنا من هذا النموذج السلطوي من المدن والذي بلغ أسوأ أمثلته في روما، حيث تحولت حياة اللهو إلى غاية بلغ فيها الأمر التلذذ بالوحوش تأكل البشر، بعيش الأثرياء ومدراء السلطة في فخامة تامة في عزلة عن باقي أهل المدينة. إلى الفسطاط ذلك المجتمع العمراني الذي شكل على أسس ولغايات مغايرة، كان ذلك في عصر الخلافة التي قامت على اختيار الحاكم من بين أفضل أفراد المجتمع، قبل أن يتحول الأمر إلى ملك عضود.

بعد أن استقر الأمر لعمرو بن العاص اختار تشييد عاصمة جديدة لمصر قرب منف العاصمة الوطنية التي ترمز إلى وحدة دلتا النيل في الشمال مع الصعيد في الجنوب، وبدأ أولى خطواته لتخطيط المدينة، بتشييد مسجده الجامع، والذي بلغت مساحته ٢٥×١٥ م٢، وهو أساس التنظيم العمراني للمدينة، وفي شرق الجامع بنى عمرو دار الإمارة، والتي عرفت بدار عمرو الكبرى، وإلى جوارها بنى عبد الله بن عمرو دارًا له، عرفت بدار عمرو الصغرى، وترك عمرو أمام داره فضاء ليكون ميدانًا واسعًا لدواب الجند، والتفت الأسواق حول المسجد [٤٤].

ولما وجد عمرو القبائل تتنافس على المواضع المحيطة بالمسجد، اختار أربعة من قواده يمثلون القبائل الكبرى للفصل بين المتنافسين، وتقسيم الخطط بينهم، حتى لا تنشب نزاعات .. وهؤلاء الأربعة الذين أسندت إليهم هذه المهمة هم: معاوية بن حديج التجيبي، وشريك بن سمي الغطيفي، وعمرو بن قحزم الخولاني، وحبويل بن ناشر المعافري، وباشر هؤلاء توزيع الخطط على القبائل [٤٥]، وعند هذا الحد ينتهي دور السلطات الإدارية بالمدينة، حيث يقف عند التخطيط العام والإشراف على المناطق الرئيسية، وقد تولت كل قبيلة بعد ذلك تقسيم خطتها بين أعضائها. فجاءت هندسة الخطط بسيطة، حيث تقيم القبيلة منازل لأفرادها على حدود خطتها، وتترك ما يدور عليها فضاء، وأخذ هذا الفضاء يضيق شيئًا فشيئًا، نتيجة للهجرات التي كانت تتوافد على المدينة، بحيث أصبحت الخطة كتلة من المباني تتخللها الدروب والأزقة.

كانت كل خطة تحتوي على مرافقها الخاصة، بصورة مصغرة، وأول هذه المرافق مساجد الخطط، والمعروف أن أول ما بني بالفسطاط هو المسجد الجامع، وهو المسجد الرئيسي الذي يجتمع فيه المسلمون جميعًا، ويؤدون فيه صلاة الجمعة، ولكن كان إلى جانب هذا المسجد مساجد أخرى صغيرة خاصة بالقبائل، وتقع في داخل خططها، ذلك أن عمر بن الخطاب لما فتح البلدان كتب إلى ولاة البصرة والكوفة ومصر يأمر كلًا منهم أن يتخذ مسجدًا للجماعة، ويتخذ للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة [٤٦].. فكان لكل قبيلة مسجدها الخاص في خططها، وربما أكثر من مسجد، ومن أمثلة مساجد القبائل بالفسطاط، مسجد لخم [٤٧] ومسجد عنزة بن ربيعة [٤٨] ومسجد مهرة [٤٩] والمسجد الأبيض [٥٠].. إلخ. عرفت هذه المساجد بمساجد الصلوات الخمس.

قامت مساجد الخطط بدور كبير في حياة المدينة، لاسيما في العصور الإسلامية الأولى، فلم يكن المسجد مكان عبادة فحسب، وإنما كان مكان اجتماع ومدرسة علم، ومجلس حكم، ولذلك كان لكل قبيلة مجلس وربما

مجلسان، مجلس فى مسجد الخطة، وثان فى المسجد الجامع. ومن هنا يفهم أن المجلس كان مرفقًا حيويًا للخطة، ففيه كان أبناؤها يجتمعون، وعلماؤها يعلمون، وقضاتها يحكمون، وربما عن طريق هذه المجالس كانت تبلغ التعليمات الرسمية وقرارات الوالى إلى القبائل[١]. وبالإضافة إلى مساجد القبائل الخاصة، كانت الخطط تحتوى على الأسواق الخاصة بها، وعلى المطاحن والأفران، بحيث تتوفر فيها الخدمات الخاصة بالحياة اليومية لسكانها، واحتوت بعض الخطط كذلك على حمامات عامة[٢].

لم يفكر عمرو بن العاص فى إحاطة الفسطاط بسور، إذ كان موقعها تحميه التلال من الشرق والجنوب، ويحميه مجرى مائى طبيعى هو نهر النيل فى الغرب. وهناك سبب أساسى فى عدم تفكير عمرو بن العاص فى تحصين المدينة بسور يدور حولها، وهو أنه جاء إلى مصر بهدف نشر الإسلام بها، وهو المشروع الفكرى الذى من أجله فتحت، وفى حالة تسوير مدينته سيعزلها عما حولها، وستتحول إلى مدينة سلطوية خاصة بالطبقة الحاكمة وجيشها، بينما أراد هو أن ينفتح وجيشه على مصر والمصريين، وهذا يفسر سماحه بإقامة الأقباط بها وبنائهم كنائس، فقد اندمج العرب مع المصريين وهو ما ساعد على سرعة انتشار الإسلام بمصر.

مما سبق نستطيع أن نستخلص العديد من النقاط التى أثرت فى عمارة المدن الإسلامية فى الفترات الزمنية التالية وهى:

- أن تدخل السلطات فى الشئون الإدارية للمدينة، يقف عند حد الخطة المركزية لها، التى تشتمل على المسجد الجامع، ودار الإمارة، وبيت المال، والسوق، والشوارع الرئيسية.
- أن تقسيم الأحياء من الداخل يتعلق بالقاطنين فيها، وفى ذلك يتحمل المجتمع داخل الحى إدارة نفسه بنفسه.
- أصبح توفير المرافق بكل حى مسئولية القاطنين فيه، فإدارة المدينة بنت المسجد الجامع والقاطنين فى الخطة أو الحى بنوا مسجد خطتهم، وكان لهم مجلس يجتمع كبراؤهم فيه، للبت فيما يتعلق بشئون الحى.

وفى ذلك توزيع للمسئولية، مسئولية إدارة المدينة بصفة عامة، فالإدارة العامة تقع على عاتق والى المدينة، وإدارة شئون الأحياء تقع على عاتق القاطنين فيها، ومثل هذا النوع من توزيع المسئولية، يولد تفاعلاً بين الناس وبيئتهم العمرانية، تفتقده المدن المعاصرة، ويعمق الإحساس بالمسئولية لدى كل أفراد المجتمع .. واشتق توزيع المسئوليات هذا من قول رسول الله صلى عليه وسلم "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته "(متفق عليه).

تميزت الفسطاط بوجود إطارين من السلطة، السلطة العامة التى تحتاج إليها المدن فى المرافق العامة كالطرق والأسواق والمساجد الجامعة. ومثل هذه السلطة نظرت حدودها وطبيعتها من قبل علماء السياسة الشرعية، والإطار الآخر السلطة داخل الخطة، وهى سلطة تخضع لقيم المجتمع وقوته على أفراده، وهى نظرت من قبل الفقهاء فيما يعرف بفقه العمارة.

وهنا نرى الفارق بين المدينة الإسلامية وعمارتها وبين عمارة أثينا والإسكندرية فقد جمعت الفسطاط بين طبيعة المدينتين دون أن تتعدى أى سلطة على الأخرى بخاصة مع تطور حاجات الإنسان، واندماج المدن فى دول كبرى. واستحالة نموذج أثينا، وهو نموذج المدينة الدولة المحدودة الإمكانيات والحاجات.

رؤية علماء السياسة الشرعية لعمران المدن:

تقوم السياسة على الفاعلية الحركية للحاكم والتى يسعى من خلالها إلى تحقيق مصالح المحكومين، وتنبه فقهاء السياسة الشرعية إلى ذلك، فذكروا بأن "للسلطان سلوكًا سياسة، وهى الحزم عندنا، ولا تقف على ما نطق به الشرع[٣]".

وهو الأمر الذى فصله ابن عقيل الحنبلى صاحب التعريف السابق من خلال إحدى مجادلاته لفقيه شافعى

قال "لا سياسة إلا ما وافق الشرع"، فرد عليه "بأن السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا نزل به وحي، فإن أردت بقولك: لا سياسة إلا ما وافق الشرع: أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة"[٤].

كما يترابط معه تعريف ابن نجيم الحنفي في البحر الرائق "وظاهر كلامهم هنا أن السياسة: فعل شيء من الحاكم لمصلحة يراها، وإن لم يرد بها دليل جزئي"[٥].

ومن هذه التعريفات يمكن الوصول إلى مضمون السياسة وجوهرها في النقاط التالية:

- أن شرعية السياسة تستند في حد ذاتها إلى ضرورتها المبدئية، قبل أي معنى لبناء شرعيتها على أساس القبول الفردي أو الجماعي.
- أن العلاقات الإنسانية التي تتناولها السياسة ليست علاقات فردية بقدر ما هي تعبير عن علاقات جماعية: فرد بجماعة وجماعة بجماعة.
- أن السياسة بجوهرها لا تنفصل عن مقصدها وغاياتها، فتصبح غاياتها غايات بوسائل[٦].

فإذا ما حاولنا تطبيق تلك الأسس في رؤية السياسة الشرعية لأمكننا مجددًا التأكيد على عدة عناصر أساسية تشكل الدلالات الاصطلاحية لمفهوم السياسة الشرعية منها، أن السياسة تقوم على فقه المصالح فيما لا نص فيه. فإن أساس السياسة هي المصلحة المعتبرة. وهي فاعلية حركيه تستهدف التوافق مع مضمون الشرع[٧]. والسياسة إذن تخضع لرؤية الحاكم لمصلحة الأمة المرتبطة بضوابط شرعية. وفي هذا الإطار نستطيع أن نستقرئ رؤية علماء السياسة الشرعية لدور الحاكم في المجال العمراني.

وضع الماوردي ضوابط عامة لمواطن الاستقرار، بمعنى أنه لا يمكن اعتبار المكان صالحًا للاستيطان ما لم يتضمن هذه الضوابط، حددها عند حديثه عن المقصود بالمصر أي المدينة، حيث يذكر أن المقصود بالمصر خمسة أمور:

الأول: أن يستوطنها أهلها طلبًا للسكون والدعة.

الثاني: حفظ الأموال فيها من استهلاك وإضاعة.

الثالث: صيانة الحريم والحرم من انتهاك ومذلة.

الرابع: التماس ما تدعو إليه الحاجة من متاع وصناعة.

الخامس: التعرض للكسب وطلب المادة[٨].

إن المتأمل لهذه الضوابط يجدها صالحة لكل زمان فإنك لا تجد موطنًا صالحًا للاستقرار يخلو من هذه الضوابط الجامعة المانعة لأنها تشمل السكون، وحفظ الأموال، وحفظ الحرمات، التماس الصناعة والحاجات الأساسية، وأخيرا طلب الكسب والسعي لطلب مواده، لهذا فقد غطى الماوردي الحياة الاجتماعية، والاقتصادية والأمنية، ولهذا تجده يجزم بأن المكان الذي يخلو من هذه الضوابط لا يصلح لاستقرار الإنسان[٩] كما في قوله "فإن عدم أحد هذه الأمور الخمسة فليست من مواطن الاستقرار وهي منزلة قيعة ودمار"[١٠].

حدد علماء السياسة الضوابط الواجب مراعاتها من قبل الحاكم عند اتخاذ المدن والحواضر وإنشائها وفقا لشروط دقيقة، من هذا ما ذكره ابن خلدون في شروط اختيار مواضع المدن وهي:

١- أن تحاط بسور يدفع المضار عنها.

٢- أن تحتل موضعا متمنعا من الأمكنة على هضبة أو على نهر أو باستدارة بحر.. إلخ.

٣- مراعاة الموقع الذي يتمتع بطيب الهواء للسلامة من الأمراض.

٤- جلب الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائه عيون عذبة.

٥- طيب المراعي لسائمتهم.

٦- مراعاة المزارع، فإن الزروع هي الأقوات[١١].

وهذه الضوابط تتيح لأي مدينة أن تنمو وتتطور فصل ابن الأزرق ما تحدث عنه ابن خلدون، فأشار إلى أن ما يجب مراعاته في أوضاع المدن أصلان مهمان: دفع المضار،

وجلب المنافع، ثم يذكر أن المضار نوعان: أرضية، ودفعها بإدارة سور على المدينة أو وضعها فى مكان ممتنع أو محصن طبيعيا حتى لا يصل إليها العدو. والنوع الثانى من المضار سماوى ودفعه باختيار المواضع طيبة الهواء لأن ما خبث منه بركوده أو تعفن بمجاورته مياه فاسدة، أو منافع متعفنة، أو مروج خبيثة، يسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة، كما هو مشاهد بكثرة.

ويضرب لذلك مثلا بفاس التى كانت عند استعار العمران بإفريقية كثيرة السكان فكان ذلك معينًا على تموج الهواء وتخفيف الأذى منه، فلم يكن فيها عفن ولا مرض، وعندما خف ساكنوها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض. ويضرب مثلاً عكسيا ببلاد أخرى وضعت، ولم يراع فيها طيب الهواء، وكانت أمراضها كثيرة لقلة ساكنيها وعندما كثروا انتقل حالها من ذلك، كدار الملك بفاس لهذا العهد المسمى "فاس الجديد" وكثير من ذلك فى العالم[٦٢].

والأصل الثاني، وهو جلب المنافع يتأتى بمراعاة أمور منها: توفر الماء كأن يكون البلد على نهر أو بإزائه عيون عذبة لأن وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهى ضرورية. وطيب المراعى للسائمة وقربة، إذ لا بد لذى قرار من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ومتى كان المرعى الضرورى لها كذلك كان أوفق من معاناة المشقة فى بعده، وقرب المزارع الطيبة لأن الزرع هو القوت، وكونها كذلك أسهل فى اتخاذه وأقرب فى تحصيله، والشجر للحطب والخشب، فالحطب لعموم البلوى به وقود النيران والخشب للمبانى – وكثير مما يتحصل فيه ضرورى أو كمالي، وقربه من البحر لتسهل الحاجة القصية من البلاد النائية، ولا خفاء فى أن هذه الأمور تتفاوت بحسب الحاجة وما تدعو إليه ضرورة الساكن[٦٣].

وإذا كان ما ذكره ابن خلدون هو شروط تتعلق بالموضوع، فقد انتقل ابن أبى الربيع بنا إلى دور الحاكم فى تخطيط المدينة، ونراه يحدد هذا الدور بدقة شديدة، فهى بالنسبة للحاكم مسئوليات عليه تنفيذها. ولخصها ابن أبى الربيع فى ثمانى نقاط هي:

إحداها: أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب حتى يسهل تناوله من غير عسف.

الثانية: أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق.

الثالثة: أن يبنى فيها جامعًا للصلاة فى وسطها ليقرب على جميع أهلها.

الرابعة: أن يقدر أسواقها بكفايتها لينال سكانها حوائجهم من قرب.

الخامسة: أن يميز قبائل سكانها بأن لا يجمع أضدادًا مختلفة متباينة.

السادسة: إن أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها وأن يجعل خواصه كنفا له من سائر جهاته.

السابعة: أن يحوطها بسور خوف اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة.

الثامنة: أن ينقل إليها من أهل الصنائع بقدر الحاجة إلى سكانها[٦٤].

يتضح من كلام ابن أبى الربيع المتوفى سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٥ م، مدى الفهم المقرون بالتحليل المنطقى فى أسس إنشاء المدن، ففى سوق المياه للمدينة للشرب، لتسهيل مهمة الحصول عليه "دون عسف" دليل على وصول المخطط الحضرى إلى مرحلة الحرية فى اختيار الموقع المدنى متخطيا ما يسمى بالحتمية الطبيعية (de termanism) التى تحتم على المخطط أن يبنى مدنه بالقرب من وديان الأنهار والمواقع ذات الثروات الطبيعية"[٦٥].

– فابن أبى الربيع يشترط على الحاكم لعمارة المدينة التى قد يكون موقعها بعيدًا عن مصادر المياه، أن يجلب الماء إليها، وهو ما حدث فعلاً فى العديد من المدن الإسلامية، فقد جلب المسلمون الماء إلى مدينة مدريد من تلال بها مياه جوفية، تبعد عن المدينة بما يتراوح بين سبعة واثنى عشر كيلومترات، وذلك فى قنوات تجرى بها المياه فى انحدار متدرج، يسمح بجريان الماء إلى المدينة.

ويتراوح الفرق بين ثمانية ومائة متر. ولذا لم يكن من الغريب أن يطلق الأندلسيون على مدينتهم الجديدة لفظًا مثل (مجريط)، وهو مركب من كلمة مجرى العربية، ومن تلك النهاية اللاتينية الدارجة (... يط)، التى تدل على التكثير، فمعنى الكلمة إذن (المدينة التى تكثر فيها المجارى)، والإشارة هنا إلى المجارى أو القنوات المائية الجوفية، التى كانت تحمل الماء إلى سكان المدينة.

- أما الشوارع فيرى ابن أبى الربيع أن تقدر بصورة تناسب الاستخدام البشرى، ووسائل النقل المتاحة آنذاك والتى كانت إما على الدواب وإما بواسطة الإنسان. وإذا حدثت طفرة فى وسائل النقل كالتى بدأت فى العصر الحديث وصاحبها انتشار استخدام العربات التى تجرها الخيول ثم السيارات، فيجب أن تتناسب الشوارع مع وسيلة النقل وطبيعة استخدامها فى كل عصر، ولذا فإن من درسوا المدن الإسلامية وعابو عليها ضيق شوارعها، درسوها من منظور المتطلبات المعاصرة لحركة النقل، فلم يراعوا طبيعة العصر الذى شيدت فيه هذه المدن.

- أما اشتراط المركزية فى مواقع المساجد، فهذا غاية فى اختيار الموقع المناسب لمرفق يستخدمه الناس خمس مرات فى اليوم، فالمركزية تسهل الوصول إليه من جميع الأماكن المحيطة، بمسافات متقاربة نوعًا ما. ولعل اختيار قلب المدينة ليكون مسجدها، يعود كذلك إلى المكانة التى يحتلها الإيمان فى قلب كل مسلم، وأن المسجد الجامع كذلك يمثل العلاقة الترابطية بين جميع أنحاء المدينة، فكما تحتل الكعبة مركز العالم الإسلامي، ويتوجه إليها المسلمون خمس مرات فى اليوم لأداء الصلاة، فإن المسلمين يتوجهون إلى المسجد الجامع فى قلب المدينة لأداء الصلاة.. ولعل الفارق بين المسجد الجامع ومساجد الصلوات الخمس، يعود إلى أن المسجد الرئيسى هو الجامع ليشمل المدينة كل يوم جمعة، فى خطبة أمير المدينة التى عادة ما تحمل مغزى سياسيًا واجتماعيًا.

- أما شرط تقدير الأسواق بكفايتها، فيدل على أمور كثيرة منها: ألا تزيد عن حاجة السكان، فتنهار الأسعار، وتبور البضائع، وألا تقل أيضًا عن الحاجة فترتفع أسعارها. كما أن فى ذلك إشارة لتحديد الحجم المناسب للأسواق بصورة تناسب حجم السكان[٦٦].

- أما شرط تمييز قبائل ساكنيها، وخطورة خلط الأضداد فى القطاع السكنى فى المدينة. فهذا غاية العبقرية فى التخطيط الإسكانى المبنى على الفهم الدقيق للأجناس البشرية. بمعنى آخر هو يحرص على إيجاد ما يسمى بالانسجام العرقى الحضرى (Ethono - urban Homogenity) ونبذ التضاد العرقى الحضرى (Ethono - urban Hetrogenity) لأنه سيؤدى بالتالى إلى التكتل segrega tion وتحويل المدينة إلى بقاع عرقية موزعة توزيعًا غير منسجم (groups of divers). وفى الواقع أن الكثير من المخططين المعاصرين لم يعيروا هذه الظاهرة اهتمامًا كثيرًا فى خططهم المدنية، مما أدى بالتالى إلى عودة السكان مرة أخرى إلى الهجرات الداخلية وراء القرابة العرقية والعائلية.

- أما شرط إحاطة المدينة بسور فهذا من خصائص المدن قبل الثورة الصناعية، حيث كانت الأسوار تؤدى وظيفتين رئيسيتين الأولى: حفظ المجتمع الداخلى كأسرة واحدة، وهذا مصداق قول ابن أبى الربيع "لأنها بجملتها دار واحدة" .. والوظيفة الأخرى: الحماية، وذلك نظرًا لمحدودية السلاح آنذاك وكثرة الحروب، وبخاصة فى المدن الحدودية. وسنجد أن العديد من المدن الإسلامية لم تكن ذات أسوار، ولكن أدى تفتت دولة الخلافة إلى دويلات ونشوب النزاع بينها، إلى تشييد مدن

ذات أسوار للدفاع عنها وأدى الغزو الصليبى لبلاد الشام وتهديده مصر إلى تشييد الأسوار حول المدن والاهتمام بها وتجديدها. فعندما تولى صلاح الدين حكم مصر. حمل معه مشروعا جهاديًا للدفاع عن مصر وتحرير بلاد الشام من الصليبيين وتضمن هذا المشروع تأمين الجبهة الداخلية بإقامة سور حول العاصمة المصرية بشقيها القاهرة والفسطاط، ليسهل الدفاع عنهما، بخاصة أن الفسطاط أحرقت على يد الوزير الفاطمى شاور خوفًا من وقوعها فى يد الصليبيين لعدم وجود سور لها يحميها، وأيضًا تداعى أسوار القاهرة الفاطمية، وكان قد ثبت لصلاح الدين من خلال التجربة الفاطمية صعوبة الدفاع عن الفسطاط والقاهرة فى وقت واحد، فرأى أنه لو بنى لكل واحدة منهما سورًا مستقلاً لاحتاجت كل مدينة إلى قوة منفردة للدفاع عنها، وبالتالى سينقسم الجيش المخصص للدفاع عن العاصمة إلى قوتين، وفى ذلك إضعاف له، ولذا كان من الضرورى بناء السور ومدة ليضم الفسطاط، وبناء قلعة بينهما تكون مقرا لقيادة الجيش المدافع عن العاصمة[٦٧].

وأدى تطور سلاح المدفعية من القرن الخامس إلى القرن التاسع عشر إلى تلاشى أهمية أسوار المدن تدريجيا، فقد كانت الأسوار تتهاوى أمام قذائف المدافع. وهذا التطوير للمدفعية تم على يد العثمانيين والأوروبيين، فقد أحدث العثمانيون بنيران المدفعية رعبا غير مألوف فى ذلك الزمان، ففى معركتهم مع المجريين فى موقعه "موهاتش" قسمت نيران المدفعية خط الحشود المجرية إلى قسمين، وبلغت قذائف المدفعية العثمانية التى سقطت على القوات المدافعة عن مالطة فى عام ١٥٦٥م ستين ألف قذيفة، أما عدد القذائف التى أمطر بها العثمانيون فاماجوستا من عام ١٥٧١م إلى ١٥٧٢م فكانت ١١٨٠٠٠ قذيفة[٦٨]. بدأت ردود أفعال فى أوروبا على تهاوى الأسوار أمام المدفعية تدريجيا، وحلت المتاريس الترابية الكثيفة التى لم تكن ترتفع ارتفاعًا كبيرًا محل الأسوار فى الدفاع عن المدن، فكانت قذائف المدافع تغوص فيها، وتضيع دون جدوى، ثم اتخذوا تبات فى أكثر المواضع ارتفاعًا، أسموها كافالييه cavaliers أى خيالة، وضعوا عليها المدفعية الدفاعية. أثبت هذا النظام، فاعليته حتى عمم فى أوروبا. واستخدم نابليون هذا النظام، فأقام طابية على تلال الدراسة، ضربت القاهرة والأزهر منها وذلك أثناء ثورة القاهرة الأولى[٦٩]. أدى ذلك إلى توارى أهمية أسوار المدن وكذلك القلاع وإلى ظهور مفاهيم جديدة للدفاع عن المدن حتى أزالت باريس أسوارها لعدم جدواها عام ١٩١٩م [٧٠].

– اشترط ابن أبى الربيع على الحاكم أن ينقل إلى المدينة ما تحتاجه من الصنائع. وهو شرط يؤدى إلى ازدهارها، وتوافر الحاجات الضرورية بها.

ومن الملاحظ أن علماء السياسة الشرعية لم يضيفوا الكثير لما ذكره ابن أبى الربيع، وإن كان ما ذكره قد خضع لمزيد من التفسير والتوضيح على نحو ما ذكر كل من ابن خلدون[٧١] والماوردي[٧٢].

نظرة علماء السياسة الشرعية للصروح المعمارية:

يبقى لنا تساؤل حول نظرة علماء السياسة الشرعية للصروح المعمارية المرتبطة بالسلطة، قدم ابن خلدون صاحب المقدمة رؤية لهذه العلاقة، فهو يربط بين قوة الدولة وعظم آثارها المعمارية، فعلى قدر قوة الدولة يكون الأثر، أكد ابن خلدون على تفاوت روعة العمران ورهبته وقوته بتفاوت قوة الدول وهو فى ذلك يقول "فإن أحوال العمران متفاوتة ومن أدرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها، ونحن إذا ما اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بنى العباس وبنى أمية والعبيديين وناسبنا الصحيح من ذلك، والذى لا شك فيه بالذى نشاهده من هذه الدول التى هى أقل بالنسبة إليها وجدنا بينها بونا، وهو لما بينها من التفاوت فى أصل قوتها وعمران ممالكها، فالآثار كلها جارية على نسبة الأصل فى القوة كما قدمناه ... فخذ من الأحوال المنقولة مراتب الدول فى قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها "[٧٣]. وعد ابن رضوان

المالقي[71] المآثر المعمارية من مفاخر الدول وعمارة وإصلاح المملكة وسبل الخيرات وأخذ يعدد ما شيده ملوك المسلمين من صروح ومنشآت معمارية"[72].

غير أن الفقهاء نظروا إلى هذه الصروح نظرة مغايرة، فعندما أشرف الخليفة الناصر في الأندلس في البناء حتى إنه اتخذ قراميد مغشاة ذهبًا وفضة في قبته بقصر الزهراء أنفق عليها مالاً كثيرًا، وجعل سقفها صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة تستلب الأنظار، جلس فيها إثر تمامها يوما لأهل مملكته، فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك وما يتصل به من البدائع الفتانة وقال هل رأيتم أو سمعتم ملكًا كان قبلي فعل مثل هذا أو قدر عليه ؟ فقالوا لا والله يا أمير المؤمنين، إنك لأوحد في شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره، فأبهجه قولهم وسره. وبينما هو كذلك إذ دخل القاضي منذر بن سعيد، وهو ناكس الرأس، فلما أخذ مجلسه قال له كالذي قاله لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه. فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته، وقال له: والله يا أمير المؤمنين ما ظننت الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين، فانفعل الناصر، وقال: انظر ما تقول، وكيف أنزلتني منزلتهم. قال: نعم أليس الله يقول (لولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ...) الزخرف آية ٣٣. فوجم الخليفة وبكى خشوعا لله تعالى وشكر القاضي وأمر بنقض السقف الذهبي[76].

كان ابن خلدون حصيفا حين ربط بين العمران والدولة وأطوارها وحركية العمران، فعند ابن خلدون يمر التمدن بأربعة أطوار رئيسية. طور تكون فيه النواة الحضرية الأولى صغيرة ومساكنها وسكانها قليلين، يليه طور تزداد فيه المساكن وتتنوع كما يزداد السكان، وطور ثالث تتوقف فيه المباني عن التعدد ويقف السكان عند حدود معينة ويقل النمو. ثم مرحلة نهائية، وهي العودة مرة أخرى إلى الحالة الأولى: حالة البساطة واندثار الحضارة وأحيانا فينشئ الله تعالى غيرها قرنا آخرين[77].

يذكر ابن خلدون المرحلة الأولى فيقول "اعلم أن الأمصار إذا اختطت أولا تكون قليلة السكان وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يعالى على الحيطان كالزليج والرخام والربج والزجاج والفسيفساء والصدف فيكون بناؤها يومئذ بدويا وآلاتها فاسدة"، ثم تأتي بعد ذلك المرحلة الثانية: "فإذا عظم عمران المدينة وكثر سكانها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ وكثر الصناع إلى أن تبلغ غايتها من ذلك". وهذه مرحلة ازدياد السكان وكثرة الخطط بالمدينة، وبداية ظهور مواد التأنق كالرخام والفسيفساء.

أما المرحلة الثالثة: "فإذا تراجع عمرانها وخف سكانها قلت الصنائع لأجل ذلك فقدت الإجادة في البناء .. ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما ... ويصير بناؤهم وتشييدهم من الآلات التي في مبانيهم فينقلونها من مصنع إلى مصنع لأجل خلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل بقلة العمران" وهذه المرحلة كما هو واضح مرحلة تراجع النشاط العمراني بشتى صوره بسبب قلة السكان، والتي يقل على أثرها جلب مواد البناء، ويستعاض عنها باستخدام مواد بناء من المباني القائمة".

أما المرحلة النهائية: "ثم لا تزال تنقل من قصر إلى قصر ومن دار إلى دار إلى أن تفقد الكثير منها جملة فيعودون إلى البداوة في البناء". وهنا العودة إلى الأصل مرة أخرى، فهي إذا دورة مشابهة للدورة الحياتية للإنسان حيث يبدأ طفلا ثم شابا ثم إلى أرذل العمر، وهذا قريب بشكل كبير إلى الواقع لأن التمدن ظاهرة بشرية تشب وتشيب مع الإنسان وظروفه[78].

ويضيف ابن خلدون أن هذه الأطوار مرتبطة بعمر الدولة نفسها، فطور الدولة الأول هو التأسيس وهو طور البداوة والبعد عن الترف وفيه الشدة والشجاعة، ثم طور ثان أسماه بطور "الانفراد بالملك" وهو طور الانتقال من حياة البداوة الخشنة أو العمران البدوي إلى الحياة

المترفة أو العمران الحضري، أما الطور الثالث وهو طور نسيان البداوة والخشونة والانغماس فى الترف وتمكن الجبن وفقدان الرجولة والشجاعة وهو طور "الفراغ والدعة"، ثم المرحلة النهائية وهى مرحلة تنتهى فى الغالب الدولة فيها إلى الانقراض "حيث تذهب الدولة بما حملت" كما يقول ابن خلدون، وهذا يعنى زوال الحضارة نفسها[٧٩]. وقبل ابن خلدون أشار الماوردى لهذا بقوله: "إن الدولة تبدأ بخشونة الطباع وشدة البطش لتسرع النفوس إلى بذل الطاعة، ثم تتوسط باللين والاستقامة لاستقرار الملك وحصول الدعة، ثم تختم بانتشار الجور، وشدة الضعف لانتقاص الأمر وقلة الحزم"[٨٠].

وإذا كان الترف المصاحب للعمارة وزخرفتها فى كثير من الأحيان مظهرًا حضاريا يدل على الارتقاء فإنه من جانب آخر عامل مهم من عوامل سقوط الدول سياسيا يقول ابن خلدون فى ذلك: "النعيم والكسب وخصب العيش والسكون فى ظل الدولة يؤدى إلى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك فى المبانى والملابس والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع ذلك، فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة، ويتنعمون فيما أتاهم الله من البسطة. وتنشأ بنوهم وأعقابهم فى مثل ذلك من الترف عن خدمة أنفسهم وولاية حاجتهم ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية فى العصبية حتى يصير ذلك خلقًا لهم وسجية فتنتقص عصبيتهم وبسالتهم فى الأجيال بعدهم بتعاقبهم إلى أن تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض"[٨١].

ويذكر ابن خلدون "إذا تمادى الناس فى الترف ظهرت بينهم صناعات لا يستدعيها إلا من فرغ من الضروريات كالغناء مثلاً وهى آخر صفة فى الحضارة" يقصد التفنن فيها وجعلها وظيفة[٨٢]. ومن خطورة الترف أن يعجز الإنسان عن الدفاع عن نفسه لأنه قد عود نفسه على النعيم فهو قد استأجر من يقوم بأعماله ويؤدى مهماته إلى أنه وصل به الأمر إلى الاستعانة بمن يدافع عنه باستخدام أمواله. ومعلوم أن المرتزقة والمستأجرين للدفاع عن البلاد أكثر خطرًا عليها[٨٣]، يقول ميكافيللى فى السبب "لأنها قوات غير مجدية لأنها مجزأة وطموحة لا تعرف النظام ولا تحفظ العهود والمواثيق وتتظاهر بالشجاعة أمام الأصدقاء وتتصف بالجبن أمام الأعداء فهى إذن إيذان بدمار الدولة إما عن طريقها وإما عن طريق تسهيل مهمة الطامعين من خارج البلاد"[٨٤] وما ذكره ميكافيللى يحمل درجة عالية من الصدق، غير أن هناك فى التاريخ حالات خاصة، تخرج عن ما ذهب إليه. وإن كانت تحمل فى باطنها فى أخريات عصرها صفات المرتزقة، ومن ذلك المماليك كظاهرة مشابهة.

ظاهرة المماليك

كان المماليك من أكثر الفئات حبًا للعمارة، ولما كانوا فى الأصل ظاهرة سياسية، فقد كان للسياسة دور فى تشجيعهم على تشييد المنشآت – ويجيء ذلك من كون النظام المملوكى فريدًا، إذ لا يوجد ما يشبهه فى الحضارات القديمة على الرغم من اعتمادها على الرق فى إعداد جيوشها. وتأتى فرادة النظام المملوكى فى تمكنه من التحول إلى مؤسسة لها قوانينها الصارمة، وهو ما مكنها من الاستيلاء على السلطة والدفاع عن ديار الإسلام ومحاربة أعدائه الشرسين الذين تمثلوا بالأخص فى الصليبيين والمغول.

لقد تنبه المؤرخون المسلمون إلى أهمية النظام المملوكى وتمكنه من الدفاع عن الإسلام بعد أن انهارت الخلافة العباسية وسقطت بغداد فى يد المغول، ومن أشهرهم ابن خلدون، الذى أرجع هذه الظاهرة، إلى انغماس العرب فى الترف[٨٥].

وتعود نشأة المماليك فى مصر إلى عصر الصالح نجم الدين أيوب، حيث كان له مماليك أتراك ثبتوا معه فى محنته فى الوقت الذى أنفض من حوله الأكراد، فأكثر من شرائهم ووضع نظامًا صارمًا لتربيتهم، حتى صاروا عصبة خاصة بعد معركة المنصورة التى هزموا فيها الصليبيين ومعركة عين جالوت التى هزموا فيها المغول[٨٦].

وصار لهم بعد ذلك الحل والعقد فى بلاد الشام ومصر، ويقول القدسى فى ذلك "إن الأتراك هم القائمون الآن عن عامة المسلمين، فالناس لا يحملون أى نوع من السلاح

مهما قل شأنه، وقد ألقى رعبهم فى قلوب المفسدين، وأصبح أهل الإسلام مطمئنين على أهلهم. والناس يقبلون قول الأتراك[٨٧].

ولكن هذه المؤسسة أصابها الضعف والوهن لعدة أسباب أبرزها انعدام جلب المماليك صغار السن، وبالتالى تربيتهم، وبالتالى ضمان ولائهم للدولة، وعد ابن خلدون ذلك صناعة حيث يقول "أعلم أن المصطنعين فى الدول يتفاوتون فى الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم فى الالتحام بصاحبها، والسبب فى ذلك أن المقصود فى العصبية من المدافعة والمغالبة إنما يتم بالنسب لأجل التناصر فى ذوى الأرحام والقربى والتخاذل فى الأجانب والبعداء كما قدمناه والولاية والمخالطة بالرق أو بالحلف تنزل منزلة ذلك، لأن أمر النسب وإن كان طبيعيًا فإنما هو وهمي، والمعنى الذى كان به الالتحام إنما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحبة بالمربى والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة، وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر. وهذا مشاهد بين الناس واعتبر مثله فى الاصطناع فإنه يحدث بين المصنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تنزل هذه المنزلة وتؤكد اللحمة وإن لم يكن نسبًا فثمرات النسب موجودة"[٨٨]. انعكس هذا على مفهوم الأسرة لدى المماليك الذين حكموا مصر زهاء قرنين ونصف من الزمان (٦٤٨– ٩٢٣ هـ/ ١١٢٠ –١٥٢٠م)، حيث لم تكن الأسرة لديهم هى الأسرة المكونة من الأب والأم والابن، بل لم يكن لديهم حياة عائلية بالمعنى المعروف، ورغم أن غالبية أفرادها حرصوا على الزواج وعلى إنجاب الأطفال، وأيضًا على نظام التسرى واقتناء الجوارى والمحظيات، وذلك أن نظام المماليك قام على العلاقات التى جمعت بينهم من أواصر الرق والعتق والتربية والخدمة، وكذلك العلاقات بين المملوك الكبير والصغير والتى تشبه روابط البنوة، وأحيانًا روابط الأخوة، ولم يكن فى حياة المملوك من الروابط العائلية غير واحدة منها فقط، وخير ما يوضح ذلك معانى ألفاظ المصطلح المملوكى، فالأستاذ[٨٩] هو الأب، والأغا[٩٠] هو الأخ الأكبر، والآني[٩١] هو الأخ الأصغر، وورد فى المصادر المملوكية ما يشير إلى أن لفظ أخ يرادف لفظ خشداش[٩٢] ولفظ أخوة يرادف لفظ خشداشيه، وكان الابن فى أحيان كثيرة لا يخلف الأب فى مركزه ولا يرثه أيضا فى ثروته[٩٣].

وإنما المملوك هو الذى يحل محل أستاذه ويرثه حتى فى الاستيلاء على حريمه[٩٤]. وخير ما يوضح ذلك أن الواحد منهم كان لا يأكل مع أبنائه وحريمه إنما يفضل أن يأكل مع مماليكه، ونصت بعض الحجج الخاصة بأوقاف المماليك على أن الأستاذ أحق الناس بالتمتع بريع الوقف الذى يقفه المملوك[٩٥]. ومن ثم فقد أصبحت الحياة العائلية لطبقة المماليك لا تقوم على أساس العلاقة بين الرجل وزوجته وأبنائه بقدر ما تقوم على أساس العلاقة بين الأستاذ ومماليكه وبين المماليك وبعضهم البعض[٩٦].

غير أن هذه العلاقة القائمة على الاحترام المتبادل وعلى حقوق الزمالة كان انهيارها مقدمة لانهيار دولة المماليك وسقوطها لتتبع الدولة العثمانية، ويروى القدسى حكاية فى تاريخه تفسر فساد حال المماليك فى الطباق بالقلعة حيث يدربون ويربون، حدثت فى دولة الأشرف برسباى٨٢٥–٨٤١هـ/١٤٢٢–١٤٣٧م والحكاية فيها معنى ودلالة ولذلك آثرنا أن نلخصها هنا، تقوم الرواية على حكاية كتبها أحد العلماء لأبى حامد القدسي، وكان قد رواها بمجلس بعض الأمراء، وهو الشيخ شمس الدين فقيه الأسياد، إنه كان يقرئ المماليك السلطانية بقلعة الجبل. وقد تقاتل مملوكان فضرب أحدهما الآخر فقتله، فبلغ السلطان الخبر فطلب الفقيه المؤدب فأرسل إليه، فجاء بين يدى السلطان، فقال له هذا "أنت فقيه الطبقة ؟ "فقال "نعم ولى جامكية (أى مرتب) ولحم وعليق"، فقال السلطان "كم جامكيتك ؟"، فأجاب "ألف درهم وخمسة أرطال لحم وثلاثة وعلائق" فقال السلطان "يا قسم تأكل جامكية السلطان واللحم والعلق وتعلم المماليك يقتل بعضهم بعضًا ؟. فقال له "يا مولانا السلطان أنا ما علمتهم إلا الإسلام والقرآن والصلاة والآداب، والذى علمهم يقتل بعضهم بعضا غيرى وأنا أعرفه". فقال من هو ؟ "فأجاب الفقيه "أقدر على تسميته فأنا أخشى حرمته"، ولكن

السلطان منحه الأمان وعندئذ قال له إن السلطان مسئول عن ذلك. ولما أراد السلطان أن يعرف جلية الأمر أوضح له الفقيه أن المملوك الجلب كان يجتاز أربع طبقات ويقضى فى كل طبقة خمس سنوات فى الطبقة الأولى كان يقدم النعال ويملأ أباريق الوضوء ويكنس الطبقة، فإذا نجح فى ذلك نقل إلى طبقة ثانية فيخرج يصلى الجمعة فى الجامع، وعندما يستحق أن يرقى يخرج إلى باب القصر يمسك نشابة أغا عند دخول الخدمة. فإذا تم الخمسة الثالثة نقل إلى الرابعة ويخرج له أكديش. وفى الطبقة الرابعة يطلع وينزل مع آغاته. وهكذا يمكث هذا عشرين سنة يتعلم من الفقيه ومن الأغوات ومن الخشداشين الآداب، ومن الضنك والحصر الذى هو فيه، فيبقى مع الناس صفة الحرير، ليس عنده تشويش على أحد. فيتهذب ويتربى على ذلك "أما الآن فيسمع مولانا" بأن فلانا وصل من بلاد جركس فيرسل له إلى حلب لملاقاته فرسًا يسرج ذهبًا وكنبوشًا وكاملية صرف. ويقف النائب بخدمته فلا ينسب الذنب يا مولانا السلطان إلى غير فاعله"[٩٧].

وهناك سبب آخر أساسى أدى إلى سقوط دولة المماليك وتبعيتهم للدولة العثمانية، وهو جمود المؤسسة المملوكية، فهى لم تكن قادرة على التطور والاستمرارية. بسبب عدم استيعابها للتحولات التى حدثت فى مجال فنون الحرب، وأهمها الاعتماد على الأسلحة النارية، فقد انتصر العثمانيون على المماليك فى معركة مرج دابق عام ١٥١٦م بسبب حداثة معداتهم، بينما كان المماليك يمقتون الأسلحة النارية ويعتبرون أن الحرب تقوم على الفروسية والبطولة الشخصية[٩٨].

وهناك تساؤل حول نظرة العلماء إلى الحكم المملوكى الذى قام على عبيد مجلوبين دربوا تدريبا عسكريا، ومدى شرعية هذا الحكم؟.

كان العلماء يتطلعون إلى النظام المملوكى من أجل حماية الجماعة ولما كانوا يفتقرون إلى المهارات القتالية والتنظيم فقد احتاجوا إلى مساعدة المماليك لحماية المجتمع، فاعتمدوا على نظام عسكرى لضبط الأمن فى المدن المصرية والشامية. ولحماية المجتمع من أى غزو خارجي، ولم يكن العلماء بالضرورة موالين لأى نظام أو أى طائفة أو أى صيغة حكومية، فكل نظام عسكرى مسلم مستقر يمكنه حماية الجماعة من الأذى كان يعتبر ملائمًا. وتذهب نظريتهم السياسة إلى أن الدولة العسكرية كانت ضرورية لحفظ نظام سليم فى المجتمع، وإنه فى حالات الصراع المملوكى حول العرش، كانوا يعترفون للمنتصر فى حقه بالحكم، جاعلين المجتمع فى منأى عن هذه الصراعات وهذا يفسر أيضًا قبولهم فى الشام ومصر بالسلطة العثمانية المنتصرة على المماليك[٩٩]. فأمن المجتمع وسلامته عندهم مقدم على كل شيء وساعد العلماء الظاهر بيبرس على نقل وإعلان الخلافة العباسية إلى مصر لإضفاء الشرعية على الحكم المملوكى. وكان العلماء يمثلون ذلك الجزء من المجتمع الإسلامى المثقف فى الآداب والشريعة، والعقائد الإسلامية، لقد كانوا قضاة وأئمة، وفقهاء ومدرسين، وحفظة للقرآن الكريم، ورواة للحديث الشريف، وتولى بعضهم مناصب فى الدواوين، وعمل البعض منهم محتسبين ووزراء فى الدولة المملوكية. ولذا فقد كانوا حلقة الوصل فى المجتمع بين الطبقة الحاكمة والمجتمع، هذه الحلقة ازدادت قوة باندماج أبناء المماليك فيها[١٠٠].

الحواشي

١ ناقش الدكتور فريد شافعى مناهج المستشرقين فى كتابه العمارة العربية فى مصر الإسلامية. وبين مدى تعسفهم فى تناول العمارة الإسلامية. كما ناقش ودحض العديد من مفترياتهم خاصة كريزويل. انظر حول ذلك: فريد شافعى (دكتور)، العمارة العربية فى مصر الإسلامية، عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية ١٩٩٤ م. Creswell (k. A. C), early muslim architecture, vol, 1,2. Oxford 1969; Briggs (m.S), muhammaden architectue in egypt and pallestine, oxford 1924.

٢ سامى خشبة، مصطلحات فكرية، ص ٤٦، ٥٠. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ م.

٣ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربى، المقدمة، ص ٩٢، دار ابن خلدون الإسكندرية ١٩٩٧ م.

٤ ابن خلدون، المقدمة،ص ٢٨٢.

٥ باب زويلة أحد أبواب حصن القاهرة الفاطمى، وهو يقع فى الضلع الجنوبى لهذا الحصن، والباب الحالى شيده بدر الجمالى وزير الخليفة الفاطمى المستنصر بالله سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١م، وكان الباب الأول الذى أنشأه القائد جوهر الصقلى يقع إلى الجنوب من هذا الباب عند زاوية سام بن نوح وينسب هذا الباب إلى قبيلة زويلة إحدى قبائل البربر التى جاءت إلى مصر مع الفتح الفاطمى لها. عبد الرحمن فهمى (دكتور)، أسوار القاهرة وأبوابها، ص ١٣٦، بحث فى كتاب القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها، د. حسن الباشا وآخرون، الأهرام ١٩٦٩ م؛ حسن الباشا (دكتور)، أحداث عند أبواب القاهرة التاريخية، ص ١٦، بحث تحت النشر.

٦ المقريزى، السلوك، ج١، ص ٤٢٩؛ قاسم عبده قاسم (دكتور)، السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص ١١٢. دار القلم دمشق ١٩٩٨م.

٧شجع صلاح الدين الأيوبى أفراد الشعب المصرى على الإقامة فى القاهرة. وذلك عقب إسقاطه الدولة الفاطمية. وبالتالى إنهاء دور القاهرة كحصن لهم. شحاتة عيسى، القاهرة، ص ١٢١، ١٢٢. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م.

٨ ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ٥، ص ٣٠٠. تحقيق محمد مصطفى. القاهرة ١٩٦١ م.

٩ الجبرتى، عبد الرحمن الحنفى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، ج ٤، ص ٢٤٦، ٢٧٧.

١٠ حول الحسبة والمحتسبين: انظر: سهام أبو زيد، الحسبة فى مصر الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٨٦ م .

١١ حسن الباشا (دكتور)، أحداث عند أبواب القاهرة التاريخية، ص ٦.

١٢ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ص ٢٢٢. حسنى نويصر (دكتور)، العمارة الإسلامية فى مصر، ص ٤٢٦. مكتبة زهراء الشرق ١٩٩٦ م.

١٣ الإسحاقى، محمد بن عبد المعطى ابن أبى الفتح المنوفى، أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، ص ١٢٢. الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٨ م.

١٤ سعيد مغاورى (دكتور)، البرديات العربية فى مصر الإسلامية، ص ١٣٥، ١٣٦. الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٦ م.

١٥ رأفت النبراوى (دكتور)، قصة أول نقود عربية فى الإسلام، ص ٥٨: ٦٢. مجلة القدس، العدد ١٣٤، ١٩٨٨ م.

١٦ الزركشى محمد بن عبد الله، إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ٢٧٥: ٢٩٨. تحقيق أبو الوفا المراغى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٤٠٣ هـ.

١٧ يوسف شوقى (دكتور)، قبة الصخرة، ص ١٦، وزارة الإعلام، سلطنة عمان ١٩٨٧م.

١٨ ناصر الرباط (دكتور)، نحو إعادة تقييم للثقافة الفنية الأموية، ص ٩٩، ١٠٠. مجلة أبواب ١٩٠. دار الساقى ١٩٩٩ م.

١٩ فريد شافعى (دكتور)، العمارة العربية فى مصر الإسلامية، ص ٤٠، ٤١، ٧٧، ٧٨. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٤ م.

٢٠ نشر أولج جرابار هذه النصوص كاملة فى كتابه عن العمارة المبكرة فى القدس، ومنها: إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله ولاتقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا، لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله ······· الخ. Olg Graybar , the shape of the holy , early Islamic Jerusalem , p 184 , 185 ,186. new jersey , 1996.

٢١ فريد شافعى (دكتور)، العمارة العربية، ص ١٠١.

٢٢ يوسف شوقى (دكتور)، قبة الصخرة، ص ٦٤.

٢٣ عفيف بهنسى (دكتور)، الشام لمحات أثرية وفنية، ص ١٤٦ – ١٤٧. دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٠ م.

٢٤ البلاذرى، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، ص ٢٨٨. دار المسيرة، بيروت ١٩٨٧ م.

٢٥ القزوينى، زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٣١٤، ٣١٥. دار صادر بيروت ١٩٨٨ م؛ كمال الدين سامح (دكتور)، العمارة فى صدر الإسلام، ص ٦١. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.

٢٦ عبد القادر الريحاوى (دكتور)، العمارة فى الحضارة الإسلامية، ص ١٠٧. جدة ١٩٩٠ م.

٢٧ ابن الأزرق، أبو عبد الله محمد الأندلسى، مؤلف كتاب بدائع السلك فى طبائع الملك، وهو كتاب نفيس، يقول محقق الكتاب الدكتور

محمد عبدالكريم، إن فيه رد زعم من زعم أن أول من عرف بأفكار ابن خلدون ودرس نظرياته هم الأوروبيون. وهذا الزعم باطل ليس له نصيب من الصحة بل هو باطل ومردود عليه. والصحيح أن ابن الأزرق الذى أتى بعد ابن خلدون بثلاث وعشرين سنة هو أول من عرف بأفكاره ودرس مقدمته دراسة عميقة استوجب تلخيصه إياها تلخيصا محكما ثم دمجه بهذا التلخيص فى كتابه بدائع السلك. انظر ابن الأزرق، بدائع السلك فى طبائع الملك، ص ٧. تحقيق محمد بن عبد الكريم. الدار العربية للكتاب تونس، ليبيا ١٩٧٧م.

٢٨ ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٠.

٢٩ ابن الأزرق، بدائع السلك فى طبائع الملك، ص ٧١.

٣٠ ابن تيمية، تقى الدين أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، ج ٢٨، ص ٦٢. مكتبة ابن تيمية. ١٩٨٢م.

٣١ هو زكريا بن محمد بن محمود أبو عبد الله جمال الدين أبو يحيى الأنصارى القزوينى، ولد فى قزوين من إقليم الجبال بفارس والعراق والشام، وشغل منصب قاضى واسط الحلة بالعراق. توفى سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م. ترك كتابين كبيرين أحدهما فى الطبيعيات وهو عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. ويسمى أحيانا عجائب البلدان. والآخر فى الجغرافيا وهو آثار البلاد وأخبار العباد.

٣٢ القزوينى، زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥، ٦ دار صادر بيروت ١٩٩٠م.

٣٣ القهندز: كلمة فارسية تعنى القلعة أو الحصن القديم، وتكتب بالفارسية كهندز. النرشخى، أبو بكر محمد بن جعفر، تاريخ بخارى، ص ٩، تحقيق الدكتور أمين بدوى ونصر الله مبشر الطرازي، الطبعة الثانية. دار المعارف ١٩٩٢م.

٣٤ النرشخى، تاريخ بخارى، ص ١٠ – ١١؛ أمجد بوهميل بورخانكا، بخارى، ص ٤٤، منظمة العواصم والمدن الإسلامية. ١٩٩٣م. فيتالى نومكين، بخارى، ص ٢٠، ٢١، ١٢٣. ترجمة صلاح صلاح. نشر المجمع الثقافى أبو ظبى ١٩٩٥ م.

٣٥ محى الدين قاسم (دكتور) السياسة الشرعية ومفهوم السياسية الحديثة، ص ٢٥. المعهد العالمى للفكر الإسلامى، القاهرة ١٩٩٧م.

٣٦ كافين رايلى، الغرب والعالم، القسم الأول، ص ١٠٢: ١٠٦. ترجمة عبد الوهاب المسيرى وهدى حجازى، مراجعة فؤاد زكريا (دكتور). سلسلة عالم المعرفة. العدد (٩٠) سنة ١٩٨٥ م.

٣٧ كافين رايلى، الغرب والعالم، القسم الأول، ص ١٠٧.

٣٨ كافين رايلى، الغرب والعالم، القسم الأول، ص ١٠٨.

٣٩ Mustafa El Abbadi, Alexandria thousand year capital of Egypt, p 35, 38 In Alexandria the site and the history, Mobil oil Egypt, 1992.

٤٠ كافين رايلى، الغرب والعالم، القسم الأول، ص ١٠٨.

٤١ كافين رايلى، الغرب والعالم، القسم الأول، ص١٠٩؛ جونيفييف هوسون ودومينيك فاليل، الدولة والمؤسسات فى الفراعنة الأوائل إلى الأباطرة الرومان، ص ٢٢٥ ترجمة فؤاد الدهان. دار الفكر للدراسات ١٩٩٥ م.

٤٢ إبراهيم نصحى (دكتور)، مصر فى عصر البطالمة، ص ١٩، ٢٠، ٢١. موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، العصر اليونانى الرومانى والعصر الإسلامى. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر والترجمة. دون تاريخ.

٤٣ لويس ممفورد، المدينة عبر العصور، أصلها وتطورها ومستقبلها، ص ٣٦٣، ترجمة الدكتور إبراهيم نصحى، مكتبة الأنجلو ١٩٤٦ م؛ كافين رايلى، الغرب والعالم، القسم الأول، ص ١١١، ١١٢.

٤٤ لويس ممفورد، المدينة عبر العصور، ص ٣٦٤.

٤٥ محمود الحسينى (دكتور) التطور العمرانى لعواصم مصر الإسلامية، ص ٢٦. رسالة دكتوراه غير منشورة. كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٧ م.

٤٦ يذكر المقريزى (أن الخطط التى كانت بالفسطاط، بمنزلة الحارات فى القاهرة، فقيل لتلك خطة فى الفسطاط وحارة فى القاهرة) المقريزى، الخطط، ج ١، ص ٢٩٦.

٤٧ المقريزى، الخطط، ج ٢، ص ٢٤٦.

٤٨ ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أعين القرشى، فتوح مصر والمغرب، ص٨٦، طبعة ليدن، ١٩٢٢م.

٤٩ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٨٤.

٥٠ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٨٧.

٥١ الكندى، أبوعمر محمد بن يوسف، الولاة والقضاة، ص ٣٦٠. مطبعة الآباء اليوسوعيين، بيروت ١٩٠٨ م.

٥٢ عبدالله خورشيد، القبائل العربية فى مصر، ص ٢٣٢، ٢٣٣. القاهرة ١٩٧٧م.

٥٣ فريد شافعى (دكتور)، العمارة العربية، ص ٣٤٨.

٥٤ صالح المحمد الخالد الرشيد، أبو الوفاء بن عقيل، حياته واختياراته الفقهية، ج٣، ص ٧٠١. رسالة دكتوراه غير منشورة. كلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر ١٩٧٩ م.

٥٥ ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين، ج٤، ص ٤٦٠، ٤٦١. دار الكتب الحديثة ١٩٦٨ م.

٥٦ ابن نجيم الحنفى، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ج٥، ص١١. وقد أورد كذلك فى الجزء نفسه ص ٧٠: "ولم أر فى مشايخنا تعريف السياسة. وقال المقريزى فى الخطط: يقال ساس الأمر سياسة بمعنى قام به، وهو سائس من قوم ساسه وسوس، وسوسه القوم: جعلوه يسوسهم. والسوس: الطبع والخلق. فهذا أصل وضع السياسة فى اللغة، ثم رسمت بأنها "القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال. والسياسة نوعان: سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهى من الأحكام الشرعية، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وقد صنف العلماء فى السياسة الشرعية كتبا عديدة. والنوع الآخر: سياسة ظالمة،

بالشريعة تحرمها. كما علق ابن عابدين في "منحة الخالق على البحر الرائق "أن المؤلف ذكر في باب حد الزنا: أن السياسة هو فعل شيء من الحاكم لمصلحة يراها، وإن لم يرد بها دليل جزئي. ولفت محي الدين قاسم، أن هذا التعريف لم يرد في كتاب السياسة الشرعية لابن نجيم الحنفي. المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢؛ ابن نجيم الحنفي، السياسة الشرعية، مخطوط بالمكتبة الأزهرية، رقم ٤٩٦ مجاميع و٢٦٩ و٢٨٧؛ محيي الدين قاسم (دكتور)، السياسة الشرعية، ص ٧٧، ٧٨.

٥٧ محيي الدين قاسم (دكتور)، السياسة الشرعية، ص ٨٥.

٥٨ محيي الدين قاسم (دكتور)، السياسة الشرعية، ص ٨٦، ٨٧، ٨٨.

٥٩ الماوردي، أبو الحسن على بن حبيب البصري الشافعي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر بأخلاق الملك وسياسة الملك، ص ١٦١، تحقيق محي هلال السرحان، مراجعة حسن الساعاتي، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١ م.

٦٠ وليد المنيس (دكتور) الحسبة على المدن والعمران، ص ٤٦، ٤٧. حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية السادسة عشر، الرسالة المائة وستة، ١٩٩٥ / ١٩٩٦ م.

٦١ الماوردي، تسهيل النظر، ص١٦١.

٦٢ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، ص ٢٤٤، ٢٤٥. دار ابن خلدون الإسكندرية ١٩٩٨ م.

٦٣ ابن الأزرق، بدائع السلك، ج٢، ص ٧٦٤.

٦٤ ابن الأزرق، بدائع السلك، ج٢، ص٧٦٥، ٧٦٦.

٦٥ ابن أبي الربيع، شهاب الدين، سلوك المالك في تدبير الممالك، ص١٩٢، تحقيق ناجي التكريتي. دار الأندلس بيروت ١٩٨١ م.

٦٦ وليد المنيس (دكتور)، التفسير الشرعي للتمدن، ص ٢٢، رسائل الجمعية الجغرافية الكويتية، الرسالة ٢٢، فبراير ١٩٨٤ م.

٦٧ وليد المنيس (دكتور)، التفسير الشرعي للتمدن، ص ٢٢.

٦٨ أسامة عبد النعيم (دكتور)، أسوار صلاح الدين وأثرها في امتداد القاهرة حتى عصر المماليك، ص ٣٥، ٣٦، ٣٧. رسالة ماجستير كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٩٢ م.

٦٩ فرنان بودل، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، ج١، ص ٥٤٢، ٥٤٣. ترجمة د. مصطفى ماهر، دار الفكر للدراسات، القاهرة ١٩٩٣ م.

٧٠ الجبرتي، عبد الرحمن الحنفي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٣، ص ٣٤، ٣٥، مطبعة الأنوار المحمدية ١٤٠٣هـ.

٧١ صديق شهاب الدين، تخطيط المدن وتاريخ الحصون، ص٤٥٣، مجلة العمارة، العدد التاسع ١٩٣٩ م.

٧٢ ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤٤، ٢٤٥.

٧٣ الماوردي، تسهيل النظر، ص١٦١، ١٦٢، ١٦٣.

٧٤ ابن خلدون، المقدمة، ص٢٢٤، ٢٤٢، ٢٤٣.

٧٥ هو أبوالقاسم عبدالله بن يوسف بن رضوان النجاري الخزرجي، ولد عام ٧١٨ هـ / ١٣١٨م في مالقة بالأندلس، تولى القضاء في مالقة ثم رحل عن الأندلس، ليعمل في خدمة بني مرين في المغرب، توفي عام ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م. له العديد من المؤلفات معظمها كتبها على هيئة رسائل لبني مرين. انظر مقدمة على سامي النشار (دكتور) على تحقيقه لكتاب، الشهب اللامعة في السياسة النافعة لابن رضوان، ص٣ :٣١، دار الثقافة الدار البيضاء ١٩٨٤ م.

٧٦ ابن خلدون، المقدمة، ص ٢١٧.

٧٧ أكرم ضياء العمري (دكتور) قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، ج١، ص ١٣٦، سلسلة كتاب الأمة (٣٩) قطر ١٩٩٤ م.

٧٨ ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص ٨٥٨، بتحقيق على عبد الواحد وافي (دكتور). طبع لجنة البيان العربي ١٩٥٨ م.

٧٩ وليد المنيس (دكتور)، التفسير الشرعي للتمدن، ص ٤٨.

٨٠ زينب الخضري، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، ص ٢٠٧: ٢١١. دار الثقافة بيروت القاهرة ١٩٧٩م.

٨١ الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر، ص ١٥٥.

٨٢ ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص ٤٢٤، بتحقيق على عبد الواحد وافي.

٨٣ ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ٩٦٩.

٨٤ وليد المنيس (دكتور)، التفسير الشرعي للتمدن، ص ٥٠.

٨٥ ميكافيللي، الأمير، ص ٧٨، ترجمة خيري حماد، دار الآفاق بيروت ١٩٨١م.

٨٦ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩٢.

٨٧ المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٣٦، ٢٣٧.

٨٨ القدسي، أبو حامد محمد بن عبد الله القدسي، دول الإسلام الشريفة البهية، ص ١١٩، ١٢٤. تحقيق صبحي لبيب وأولريش هارمان. المعهد الألماني للأبحاث الشرقية. بيروت ١٩٩٧م.

٨٩ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٢٩، ١٣٠.

٩٠ الأستاذ لفظة معربة لأنه يقال إنه ليس في العربية كلمة عربية أصيلة تجتمع فيها الذال والسين، وهي فارسية تعني السيد أو المشهور، وقد كان لقب الأستاذ يطلق في عصر المماليك أيضا على التاجر أو السيد الذي يقوم بشراء المملوك وتربيته. حسن الباشا (دكتور)، الفنون والوظائف على الآثار، ج١، ص ٥٩: ٦٣؛ سعيد عاشور (دكتور) العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٣٨٩، دار النهضة العربية ١٩٦٥ م؛ أحمد عبد الرازق (دكتور)، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم، ص ١٨٩، مجلة كلية الآثار، العدد الثاني ١٩٧٧ م.

٩١ الأغا: كلمة أصلها آغا وهي من الكلمات المغولية، ومعناها الأخ الأكبر وترد كثيرا في تاريخ المغول، ودخلت هذه الكلمة اللغة الفارسية واستخدمها الكتاب الذين جاءوا بعد غزو جنكيز خان وجمعها آقان أو آقاوان أو آقايان. حسن الباشا (دكتور)، الفنون والوظائف، ج١، ص ١٣٦؛ أحمد عبد الرازق (دكتور)، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم، ص ١٨٩.

٩٢ أنى أو أينى جمعها أنيات أصلها أنياك أو أيناك وهى من الكلمات المغولية، وتعنى الأخ الأصغر، وهى من الكلمات المألوفة فى تاريخ المغول. أحمد عبد الرازق (دكتور)، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم، ص١٨٩.

٩٣ خشداش أو خجداش معرب اللفظ الفارسى خواجاتاش أى الزميل فى الخدمة أو الرق أو العتق. أحمد عبد الرازق (دكتور)، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم، ص١٨٩.

٩٤ المقريزى، السلوك فى معرفة دول الملوك، ج٣، ص ٣٩٠؛ أحمد عبد الرازق (دكتور)، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم، ص ١٨٩.

٩٥ أحمد عبد الرازق (دكتور)، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم، ص١٨٩.

٩٦ حجة وقف الغورى، أرشيف وزارة الأوقاف رقم ٨٨٣؛ أحمد عبد الرازق (دكتور)، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم، ص ١٩٠.

٩٧ أحمد عبد الرازق (دكتور)، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم، ص ١٩٠.

٩٨ القدسى، دول الإسلام الشريفة البهية، ص ١٢٨، ١٣٠.

٩٩ انظر حول مقاومة المماليك للتطور التقنى فى مجال الأسلحة: عبدالرحمن زكى (دكتور)، ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية، ص٩٧، كتاب ندوة ابن إياس دراسات وبحوث، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية والهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧م. وحول مفهوم الفروسية والقتال لدى المماليك انظر الحوار الذى دار بين السلطان سليم والأمير المملوكى كرتباى فى أعقاب أسر العثمانيين له. إبراهيم طرخان (دكتور) مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ٢٠١، ٢٠٢. القاهرة ١٩٦٩ م.

١٠٠ إير لابدوس، مدن إسلامية فى العصر المملوكى، ص ٢١٩، ٢٢٠. ترجمة دكتور على ماضى. الأهلية للنشر والتوزيع ١٩٨٧م.

١٠١ إير لابدوس، مدن إسلامية فى العصر المملوكى، ص ١٨٢، ١٨٣.

المراجع والمصادر

المصادر العربية

- ابن أبى الربيع، شهاب الدين، سلوك المالك فى تدبير الممالك، تحقيق ناجى التكريتى. دار الأندلس بيروت ١٩٨١ م.
- ابن الأخوة، معالم القرية فى أحكام الحسبة، تحقيق روبن لوى، مكتبة المتنبي، القاهرة بدون تاريخ.
- ابن الأزرق، محمد بن على أبو عبد الله الاصبحى الغرناطى، بدائع السلك فى طبائع الملك، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب تونس، ليبيا ١٩٧٧ م.
- ابن الأزرق، محمد بن على أبو عبد الله الاصبحى الغرناطى، بدائع السلك فى طبائع الملك، ج٢، تحقيق على سامى النشار (دكتور)، وزارة الثقافة العراقية، ١٩٧٨ م.
- ابن الحاج، أبو عبد الله بن محمد بن محمد العبدرى الفاسى المالكى، المدخل، ج٢.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد، الاحاطة فى أخبار غرناطة، ج١، تحقيق دكتور محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٩٧٧ م.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد، اللمحة البدرية فى الدولة النصرية، تحقيق محب الدين الخطيب، دار الآفاق الجديدة، بيروت. ١٩٨٠م.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفى بروفنسال، الرباط ١٩٣٤م.
- ابن الرامي، محمد بن إبراهيم اللخمى، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق دكتور فريد سليمان، مركز النشر الجامعي، تونس ١٩٩٩ م.
- ابن الرامى، محمد بن إبراهيم اللخمى، الإعلان بأحكام البنيان، مجلة الفقه المالكى، وزارة العدل المغرب، الأعداد (٢، ٣، ٤). ذى القعدة ١٤٠٢هـ.
- ابن الشحنة، محب الدين محمد، الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، تحقيق جوزيف أليان سركيس، بيروت ١٩٠٩م.
- ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، خمسة أجزاء، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٦١ م.
- ابن أيبك الدودار، صفىّ الدين أبو بكر، كنز الدرر، ج٨ (الدرة الزكية فى تاريخ الدولة التركية)، تحقيق أولرخ هارلمان، المعهد الألمانى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٧١ م.
- ابن أيبك الدوادارى، صفى الدين أبو بكر، كنز الدرر، ج ٩ (الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر)، تحقيق أولرخ هارلمان، المعهد الألمانى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٧١ م.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى، تحفة النظار وعجائب الأسفار، طبعة مصورة بيروت ١٩٨٣م.
- ابن تغرى بردى، يوسف بن تغرى بردى الأتابكي، النجوم الزاهرة، ج ٩ – ج ١٢، سلسلة تراثنا، وزارة الثقافة، القاهرة.
- ابن تيمية، تقى الدين أحمد بن عبد الحليم، قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة، مكتبة ابن تيمية القاهرة ١٤٠٣ هـ.
- ابن تيمية، تقى الدين أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، ج ٢٨، مكتبة ابن تيمية. ١٩٨٢م.
- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، دار ابن خلدون، الإسكندرية. ١٩٩٦م.
- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، دار ابن خلدون الإسكندرية ١٩٩٧ م.
- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، دار ابن خلدون الإسكندرية ١٩٩٨ م.
- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، ج٢، تحقيق د. على عبد الواحد وافى. طبع لجنة البيان العربى ١٩٥٨ م.
- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون، ج٤، بيروت ١٩٧٠م.
- ابن رضوان، أبى القاسم المالكى، الشهب الامعة فى السياسة النافعة، تحقيق على النشار (دكتور)، دار الثقافة، المغرب، ١٩٨٤م.
- ابن شاهين، غرى الدين خليل، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس ١٨٩٤ م.
- ابن شداد، عز الدين محمد، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، مملكة حلب، م١، ق١، تحقيق دومنيك سورديل، دمشق، ١٩٥٣ م.
- ابن عبد الحكم، أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أعين القرشى، فتوح مصر والمغرب، طبعة ليدن، ١٩٢٢ م.
- ابن عبد الظاهر، محى الدين بن عبد الظاهر، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض ١٩٧٦م.
- ابن عراق، أبو نصر منصور بن على، رسالة المسائل الهندسية، نشر جمعية المعارف العثمانية حيدر آباد.
- ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين، ج٤، دار الكتب الحديثة ١٩٦٨ م.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد الدمشقى، زاد المعاد فى هدى خير العباد، ج ١، تحقيق شعيب الارنؤوط وعبد القادر الارنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٧م.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن جلال الدين الخزرجى الافريقى، لسان العرب، المجلد الأول، إعداد يوسف خياط، ونديم مرعشلى. دار لسان العرب، بيروت.
- ابن نجيم الحنفى، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ج٥.
- ابن نجيم الحنفى، السياسة الشرعية، مخطوط بالمكتبة الأزهرية، رقم ٤٩٦ مجاميع و٢٦٩ و٢٨٧.
- أبو القاسم عبدالله بن يوسف بن رضوان النجارى الخزرجى، الشهب اللامعة فى السياسة النافعة لابن رضوان، تحقيق على سامى النشار (دكتور)، دار الثقافة الدار البيضاء ١٩٨٤م.

- أبو يعلى، محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي، الأحكام السلطانية، دار الفكر، القاهرة ١٩٧٤م.
- أحمد تيمور، المهندسون الإسلاميون، مجلة الهندسة، العدد (٢)، فبراير ١٩٢٣م.
- الاسحاقي، محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح المنوفى، أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٨م.
- البغدادي، عبد اللطيف بن يوسف، الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، مصرية ١٩٨٨م
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، دار المسيرة، بيروت ١٩٨٧م.
- البنداري، الفتح بن على بن محمد، سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوى، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٩.
- التجيبي، القاسم بن يوسف بن محمد بن على، مستفاد الرحلة والاغتراب، الدار العربية للكتاب ليبيا بدون تاريخ.
- الجبرتي، عبد الرحمن الحنفي، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الأجزاء ١، ٣، ٤، مطبعة الأنوار المحمدية ١٤٠٣هـ.
- الزركشي، محمد بن عبد الله، إعلام الساجد بأحكام المساجد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٤٠٣ هـ.
- السرخسي، محمد بن أبى سهل، المبسوط، ج٢، القاهرة، ١٣٢٤هـ / ١٩٠٧ م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الحاوى فى الفتاوى، ج٢.
- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة.
- الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ج٧ – ج٩، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف ١٩٦٩ م.
- العباسى، الحسن بن عبد الله، آثار الأول فى ترتيب الأول، بولاق، ١٨٨٧ م.
- العجلوني، إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء ومزيل الألباس، ج١، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢، ١٤٠٢ هـ.
- العسقلاني، الحافظ بن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، ج٢، تحقيق الدكتور حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٤ م.
- العسقلاني، شافع بن علي الكاتب المصرى، الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، تحقيق دكتور عمر تدمرى، المكتبة العصرية صيدا ١٩٩٨ م.
- العمري، شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله، مسالك الأبصار لابن العمرى، تحقيق دورو تياكرافولسكي، بيروت ١٩٨٦م.
- الفراء، أبو يعلى محمد بن حسن، الأحكام السلطانية، القاهرة ١٩٦٦م.
- القدسي، أبو حامد محمد بن عبد الله القدسي، دول الإسلام الشريفة البهية، تحقيق صبحى لبيب وأولريش هارمان. المعهد الألمانى للأبحاث الشرقية. بيروت ١٩٩٧م.
- القدسي، أبو حامد، الفوائد النفيسة الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة فى مذاهب الأئمة الأربعة، تحقيق دكتورة آمال العمرى، هيئة الآثار المصرية. سلسلة المائة كتاب ١٩٨٨ م.
- القزويني، زكريا ابن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت ١٩٨٨م.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت ١٩٩٠ م.
- القلقشندي، أبو العباس احمد، صبح الأعشى، ج٣ – ج٤ – ج٥.
- الكندى، أبو عمر محمد بن يوسف، الولاة والقضاة، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨ م.
- الماوردى، أبو الحسن على بن حبيب المصرى الشافعي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر بأخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق محى هلال السرحان، مراجعة حسن الساعاتي، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١ م.
- الماوردى، أبو الحسن على بن حبيب المصرى الشافعي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩٦م.
- الماوردى، أبو الحسن على بن حبيب المصرى الشافعي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر فى أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق محى هلال سرحان، ومراجعة حسن الساعاتى (دكتور)، دار الكتب بيروت. بدون تاريخ.
- المصرى، احمد شلبى بن عبد الغنى الحنفي، التاريخ العينى.
- المقريزي، تقى الدين أبى العباس أحمد بن على، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٨٧ م.
- المقريزي، تقى الدين أبى العباس أحمد بن على، السلوك فى معرفة دول الملوك، ج ١ – ج ٣.
- النرشخي، أبى بكر محمد بن جعفر، تاريخ بخارى، تحقيق الدكتور أمين بدوى و نصر الله مبشر الطرازى،الطبعة الثانية. دار المعارف ١٩٩٣م.
- النووى، أبو زكريا يحيى بن شرف الدمشقي، روضة الطالبين، ج٤، نشر المكتب الإسلامي، بدون تاريخ.
- اليعقوبى، أبو العباس أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب، كتاب البلدان، ليدن ١٨٩٢ م.
- حجة وقف حسن آغا.
- حجة وقف الغورى، أرشيف وزارة الأوقاف رقم ٨٨٣.
- سجلات محكمة الباب العالى بالقاهرة، سجل ٧٣، مادة ١٣.
- سجلات محكمة الباب العالى، سجل ٨٧، مادة ٤٥.
- سجلات محكمة الباب العالي، سجل ١٤٤، مادة ٧٤٦.
- سجلات محكمة الباب العالي، سجل رقم ١٩٣، مادة ٨٨٣.
- سجلات محكمة الصالح طلائع بالقاهرة، سجل ٣٢٣، مادة ٥٨٢.

- سجلات محكمة الصالح بالقاهرة، سجل ٣٢٣، مادة ٤٥٣.
- علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج١ – ج٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ م.
- علي باشا مبارك، تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين، القاهرة، طبع في مطبعة المدارس الملكية ١٢٩٠ هـ.
- مؤلف مجهول، الفروسية والطعن والضرب والتبطيلات، مكتبة الفاتح استنبول مخطوط رقم ٣٥٠٩.
- مؤلف مجهول، كتاب في معرفة الخيل والجهاد وما يتعلق من آلات الفرسان، مكتبة أحمد الثالث استنبول رقم ٢٠٦٦.
- مؤلف مجهول، مجموع في الفروسية والجهاد والصيد والقنص، مكتبة البلدية بالإسكندرية مخطوط رقم ١٢٠١.
- نظام الملك الطوسي، سياست نامة ترجمة وتعليق السيد محمد العزاوي، القاهرة ١٩٧٦م.

المراجع العربية والمعربة:

- إبراهيم بن يوسف الفائز، البناء وأحكامه في الفقه الإسلامي، رسالة دكتوراة، معهد القضاء العالي جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨٥م.
- إبراهيم طرخان (دكتور) مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة ١٩٦٩ م.
- إبراهيم طرخان (دكتور)، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطي، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٨ م.
- إبراهيم نصحي (دكتور) مصر في عصر البطالمة، موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، العصر اليوناني الروماني والعصر الإسلامي. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر والترجمة. بدون تاريخ.
- أحمد السعيد سليمان (دكتور)، تأصيل ما ورد من الدخيل في الجبرتي، دار المعارف، ١٩٧٩م.
- أحمد عبد الرازق (دكتور) المماليك ومفهوم الأسرة لديهم، مجلة كلية الآثار العدد الثاني ١٩٧٧م.
- أحمد فؤاد متولي، قانون نامة مصر، مكتبة الانجلو، ١٩٨٦م.
- أسامة عبد النعيم، أسوار صلاح الدين وأثرها في امتداد القاهرة حتى عصر المماليك، رسالة ماجستير كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٩٢م.
- إسماعيل حقي أوزون، مدخل إلى مؤسسات الدولة العثمانية، عثمانلى دولتى تشيكلاتنه مدخل، أنقره ١٩٧٠م.
- إسماعيل سراج الدين (دكتور)، التجديد والتأصيل في عمارة المجتمعات الإسلامية، جائزة الآغا خان للعمارة جنيف ١٩٨٩م.
- أكرم حسن العلبي، خطط دمشق، دار الطباع دمشق ١٩٨٩ م.
- أكرم ضياء العمري (دكتور) قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، ج١، سلسلة كتاب الأمة (٣٩) قطر ١٩٩٤ م.
- السيد عبد العزيز سالم (دكتور) العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، مجلة علام الفكر، المجلد الثامن، العدد الأول الكويت ١٩٧٧ م.
- الصفصافي أحمد المرسي (دكتور) استانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة، دار الآفاق العربية ١٩٩٨م.
- أمجد بوهميل بورخازكا، بخارى، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، ١٩٩٣ م.
- أنور طاهر رضا، سنان ... قمة الهندسة المعمارية الإسلامية، مجلة المنهل العدد ٥١٩ أكتوبر / نوفمبر ١٩٩٤ م.
- أوقطاي آصلان آبا، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد عيسى، أرسيكا. استانبول ١٩٨٧ م.
- أولج جرابار، العمارة، بحث في كتاب تراث الإسلام، ترجمة حسين مؤنس (دكتور). العدد (٨). سلسلة عالم المعرفة. الكويت ١٩٧٨ م.
- اير لابدوس، مدن إسلامية في العصر المملوكي، ترجمة دكتور علي ماضي. الأهلية للنشر والتوزيع ١٩٨٧م.
- برنارد لويس، استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، ترجمة سيد رضوان علي (دكتور)، الدار السعودية للنشر والتوزيع ١٩٨٢ م.
- جان بول رو، الفن العثماني في الأراضي التركية، بحث ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية، ج٢، تحرير روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة ١٩٩٣ م.
- جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨ م.
- جونيفيف هوسون ودومينيك فاليل، الدولة والمؤسسات في الفراعنة الأوائل إلى الأباطرة الرومان، ترجمة فؤاد الدهان. دار الفكر للدراسات ١٩٩٥ م.
- حسام مهدي (دكتور) مجموعة السلطان قلاوون، دراسة معمارية أثرية، دراسة تحت النشر.
- حسن الباشا (دكتور) أحداث عند أبواب القاهرة التاريخية، بحث تحت النشر.
- حسن الباشا (دكتور) الفنون والوظائف على الآثار، دار النهضة العربية، ١٩٦٥ م.
- حسن الباشا (دكتور) عمارة تاج محل الفخامة والجمال، مجلة المنهل العدد (٥٧)، العام ٦١. أكتوبر نوفمبر ١٩٩٥.
- حسن عبد الوهاب، الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية، مجلة سومر، الجزء الأول والثاني، العدد الرابع عشر ١٩٥٨ م.
- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، القاهرة ١٩٤٦ م.
- حسن فتحي، عمارة الفقراء.

- حسنى نويصر (دكتور) العمارة الإسلامية فى مصر، مكتبة زهراء الشرق ١٩٩٦ م.
- حسنى نويصر (دكتور) عوامل مؤثرة فى تخطيط المدرسة المملوكية، أبحاث ندوة تاريخ المدارس، سلسلة تاريخ المصريين (٥١)، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٢ م.
- حسين فوزى النجار (دكتور) على مبارك أبو التعليم، سلسلة أعلام العرب، العدد (١٢٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ م.
- حسين مؤنس (دكتور) المساجد، سلسلة عالم المعارف. (٣٧)، الكويت، ١٩٨١ م.
- خالد عزب، مشكلة المياه وحلولها فى التراث الإسلامى، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبى، القاهرة ١٩٩٥ م.
- خالد عزب، الخصائص المعمارية والفنية لمساجد قوة الأثرية، ندوة عمارة المساجد، المجلد ٧، جامعة الملك سعود ١٩٩٩م.
- خالد عزب، فقه العمارة الإسلامية، دار النشر للجامعات المصرية، ١٩٩٧ م.
- درويش النخيلى (دكتور) السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤.
- دوجان كوبان، سنان مبدع الأبنية القبابية، مجلة المتحف .
- رأفت النبراوى (دكتور) قصة أول نقود عربية فى الإسلام، مجلة القدس، العدد ١٣٤، ١٩٨٨م.
- رأفت النبراوى، النقود الإسلامية فى مصر.
- رضوان السيد (دكتور)، " قضاء المظالم: نظرة فى وجه من وجوه علاقة الدين بالدولة فى التاريخ الاسلامى" مجلة دراسات، المجلد ١٤، العدد (١٠)، ١٩٨٧ م.
- رفعة الجادرجي، البعد الاجتماعى لما يبني، مجلة أبواب العدد (١٨)، ١٩٩٨ م.
- زينب الحضرى، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، دار الثقافة بيروت القاهرة ١٩٧٩م.
- سامى خشبة، مصطلحات فكرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ م.
- سامى عبد الحليم (دكتور)، الحجر المشهر حلية معمارية بمنشآت المماليك فى القاهرة، القاهرة ١٩٨٤م.
- سامى نوار، المنشآت المائية بمصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ١٩٩٩ م.
- سعيد عاشور (دكتور) العصر المماليكى فى مصر والشام، دار النهضة العربية ١٩٦٥ م.
- سعيد عاشور (دكتور) المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية ١٩٦٢.
- سعيد مغاورى (دكتور) البرديات العربية فى مصر الإسلامية، الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٦ م.
- سليمان بن وائل التويجرى، حق الإرتفاق، دراسة مقارنة، رسالة دكتوراة مخطوطة، بجامعة أم القرى ١٤٠٠ هـ.
- شحاتة عيسى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م.
- شربل داغر، الفن الإسلامى فى المصادر العربية، صناعة الزينة والجمال، دار الآثار الإسلامية، الكويت ١٩٩٩ م.
- صالح المحمد الخالد الرشيد، أبو الوفاء بن عقيل، حياته واختياراته الفقهية، ج٣، رسالة دكتوراه غير منشوره، كلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر ١٩٧٩ م.
- صديق شهاب الدين، تخطيط المدن وتاريخ الحصون، مجلة العمارة، العدد التاسع ١٩٣٩ م.
- طارق عبد الرؤوف، عمارة ما بعد الحداثة، رسالة ماجستير، كلية الهندسة جامعة القاهرة ١٩٩٦ م.
- عبد الحميد سليمان (دكتور) نظم إدارة الأمن فى مصر العثمانية، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة العدد (٧٥) ١٩٩٢ م.
- عبد الحى الكتانى، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية والولايات الدينية، ج٢، دار الكتاب العربى، بيروت، بدون تاريخ.
- عبد الرحمن الرافعى، عصر إسماعيل، ج١، دار المعارف، ط٤، ١٩٨٢م.
- عبد الرحمن النفيسة (دكتور) مسئولية المهندسين والبنائين، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، السنة السادسة العدد (٢٢)، ١٤١٥ هـ.
- عبد الرحمن زكى (دكتور) ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية، كتاب ندوة ابن إياس دراسات وبحوث، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية والهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧م.
- عبد الرحمن زكى (دكتور) غرناطة زينة الدنيا، مجلة الفيصل العدد (١١)، السنة الأولى، مايو ١٩٧٨ م.
- عبد الرحمن زكى (دكتور)، الفن الاسلامى، دار المعارف ١٩٨٤ م.
- عبد الرحمن زكى (دكتور)، قلعة صلاح الدين.
- عبد الرحمن فهمى (دكتور) أسوار القاهرة وأبوابها، بحث فى كتاب القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها، دكتور حسن الباشا وآخرون، الأهرام ١٩٦٩ م.
- عبد القادر الريحاوى (دكتور) العمارة فى الحضارة الإسلامية، جدة ١٩٩٠ م.
- عبد القادر الريحاوى (دكتور) قصور الحكام فى دمشق، الحوليات الأثرية السورية، المجلد ٢٢، ١٩٧٢-١٩٧٣م.
- عبد القادر المعاضيدى، واسط فى العصر العباسى، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، بغداد ١٩٨٣ م.
- عبد المنعم جميعى (دكتور) مشايخ حارات القاهرة فى القرن التاسع عشر، المجلة التاريخية المصرية، المجلد (٣٩)، ١٩٩٦ م.
- عبدالله خورشيد، القبائل العربية فى مصر، القاهرة ١٩٧٧م.

- عفيف بهنسى (دكتور) الشام لمحات أثرية وفنية، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٠ م.
- على غالب (دكتور) التناسب فى عمارة مدارس العصر المملوكى فى القاهرة، مراجعة دكتورة آمال العمرى. كتاب تحت النشر فى سلسلة المائة كتاب، المجلس الأعلى المصرى للآثار.
- عوض الإمام (دكتور) الأصول الوثائقية الجامعة لأوقاف الغورى، رسالة دكتوراة، كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط ١٩٨٨ م.
- فرنان بودل، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، ج١، ترجمة د. مصطفى ماهر، دار الفكر للدراسات. القاهرة ١٩٩٣ م.
- فريد سليمان (دكتور) الفقهاء والمدينة، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، تونس، العدد (٩ - ١٠). ١٩٩٤.
- فريد شافعى (دكتور) العمارة العربية الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، جامعة الملك سعود ١٩٨٢ م.
- فريد شافعى (دكتور) العمارة العربية فى مصر الإسلامية، عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية ١٩٩٤ م.
- فيتالى نومكين، بخارى، ترجمة صلاح صلاح. نشر المجمع الثقافى أبو ظبى ١٩٩٥ م.
- قاسم عبده قاسم (دكتور) السلطان المظفر سيف الدين قطز، دار القلم، دمشق ١٩٩٨ م.
- كافين رايلى، الغرب والعالم، القسم الأول، ترجمة عبد الوهاب المسيرى وهدى حجازى، مراجعة فؤاد زكريا (دكتور). سلسلة عالم المعرفة. العدد (٩٠) سنة ١٩٨٥ م.
- كريم عوف، حسن فتحي، أحد رواد العمارة الإسلامية المعاصرة، مجلة المنهل، العدد (٥١٩) المجلد ٥٦، أكتوبر نوفمبر ١٩٩٤ م.
- كمال الدين سامح (دكتور) العمارة فى صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.
- لويس ممفورد، المدينة عبر العصور، أصلها وتطورها ومستقبلها، ترجمة الدكتور إبراهيم نصحى، مكتبة الانجلو ١٩٤٦ م.
- محمد التميمى، جولة دراسية فى قصر الطوب قابى، مجلة المتحف العربى، السنة الثانية، العدد الثالث، مارس ١٩٨٧ م.
- محمد الجمل (دكتور)، الكتابات الأثرية فى منشآت يوسف الأول بقصور الحمراء، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٩٣ م.
- محمد الششتاوى، ميادين القاهرة فى العصر المملوكي، دار الآفاق العربية، ١٩٩٩ م.
- محمد الكحلاوى (دكتور) آثار مصر فى كتابات الرحالة المغاربة والأندلسية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٤م.
- محمد الكحلاوى (دكتور) أثر مراعاة اتجاه القبلة وخط تنظيم الطريق على مخططات العمائر الدينية بالقاهرة، مجلة كلية الآثار، العدد السابع. ١٩٩٦ م.
- محمد أمين (دكتور) و ليلى إبراهيم، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية، دار النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٩٠ م.
- محمد بن عبد الله نويصر(دكتور) خصائص التراث العمرانى فى المملكة العربية السعودية (منطقة نجد)، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٩٩ م.
- محمد حرب (دكتور) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، دار القلم دمشق ١٩٨٩م.
- محمد حرب (دكتور) آليات اتخاذ القرار فى الدولة العثمانية، مجلة آفاق الثقافة والتراث، السنة الثالثة العدد (١٢)، شوال ١٤١٦ هـ / مارس ١٩٩٦ م.
- محمد حسام الدين إسماعيل (دكتور) بعض الملاحظات على العلاقة بين مرور المواكب ووضع المبانى الأثرية فى شوارع القاهرة، حوليات إسلامية، المعهد الفرنسى للآثار، المجلد ٢٥. ١٩٩٥.
- محمد حمزة، السلطان المنصور قلاوون، مكتبة مدبولى ١٩٩٣ م.
- محمد صدقى البرنو، الوجيز فى إيضاح قواعد الفقه الكلية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٤ هـ.
- محمد عارف، خلاصة الأفكار فى فن المعمار، بولاق ١٣١٩ هـ.
- محمد عبد الستار عثمان (دكتور) نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية الباقية بمدينة القاهرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ٢٠٠٠ م.
- محمد عبد اللطيف البحراوى (دكتور) من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم، مجلة الدارة العدد الرابع، السنة الثالثة عشرة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م.
- محمد عبد الله عنان (دكتور) الآثار الأندلسية فى أسبانيا والبرتغال، مكتبة الخانجى، الطبعة الثانية ١٩٩٧م.
- محمد كرد على، خطط الشام، ج٥.
- محمد نور الدين (دكتور) قصر دولما بهجه فى استنبول.
- محمود الحسينى (دكتور) التطور العمرانى لعواصم مصر الإسلامية، رسالة دكتوراة غير منشورة. كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٧ م.
- محى الدين قاسم (دكتور) السياسة الشرعية ومفهوم السياسية الحديثة، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، القاهرة ١٩٩٧ م.
- مصطفى الموسوى، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد، بغداد ١٩٨٢ م.
- مصطفى بركات (دكتور)، دراسة للخط والألقاب والوظائف من خلال النصوص التأسيسية الباقية للعمائر العثمانية بمدينة القاهرة، رسالة ماجستير كلية الآثار، ١٩٨٨م.
- ميكافيللى، الأمير، ترجمة خيرى حماد، دار الآفاق بيروت ١٩٨١م.
- نادر عبد الدايم (دكتور) التأثيرات العقائدية فى الفن العثمانى، رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الآثار. جامعة القاهرة ١٩٩٠ م.

- ناصر الرباط (دكتور) نحو إعادة تقييم للثقافة الفنية الأموية، مجلة أبواب، ١٩، دار الساقى ١٩٩٩ م.

- ناصر الرباط ناصر (دكتور)، دار العدل : قصة منشأة إسلامية قروسطية، مجلة الاجتهاد، العدد ٢٢ السنة السادسة، ١٩٩٤م.

- نصر عارف، فى مصادر التراث السياسى الإسلامى، المعهد العالمى للفكر الإسلامى. هيرندن فيرجينيا. ١٩٩٤ م.

- هدايت تيمور، جامع الملكة صفية. دراسة أثرية حضارية، رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الآثار، جامعة القاهرة ١٩٧٧ م.

- هشام جعيط (دكتور)، الكوفة، نشأة المدينة العربية الإسلامية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، ١٩٨٦ م.

- وليد المنيس (دكتور) التفسير الشرعى للتمدن، رسائل الجمعية الجغرافية الكويتية، الرسالة ٢٢، فبراير ١٩٨٤ م.

- وليد المنيس (دكتور) الحسبة على المدن والعمران، حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية السادسة عشر، الرسالة المائة وستة، ١٩٩٥ / ١٩٩٦ م.

- وهبه الزحيلى، الفقه الإسلامي وأدلته، ج٥، مؤسسة الرسالة ١٩٨٤م.

- يوسف شكرى فرحات (دكتور) غرناطة فى ظل بنى الأحمر.

- يوسف شوقى (دكتور) قبة الصخرة، وزارة الإعلام، سلطنة عمان ١٩٨٧م.

المراجع الأجنبية:

- Balibas (t), les villes musulmames de espagne, 1942, 1947.

- Briggs (m.S), muhammaden architectue in egypt and pallestine, oxford 1924.

- Chevalier (d), la ville arabc notre vision historique ,espaceocial ville arabe,pairs,1969.

- Christel kessler, funeray arhitecture wilhin the city.

بحث ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ج٢، دار الكتب المصرية. ١٩٧١ م.

- Creswell (k.A.C), early muslim architecture, vol, 1,2. Oxford 1969.

- De planhol (x), les fondements geograhiques de la histoire de islam. Pairs 1968.

- Doris behrens Abousief, The citadel of Cairo, stage for mamiluk ceremonial. Annules islamologiques.

- Doris behrens abousief, the minarets of cairo. Cairo 1985.

- Evliya celebi, seyahat namesi, mumin cevik. Istanbul 1984.

- Jorgen nielson: "mazalimand dar al adel under the early mamluks" ,the muslim world. Vol 66 , n2. (April 1976).

- Lila ibrahim and j.M. Rogers "the hangah of the emir qawsun". Mitteilungen des deutschen archaologischen instituts, abtelung kairo 30,1 (1974).

- Michael meinecke " die mamlukischen faience dekorationen: eine werkstatte aus tabrizin kairo (1330 – 1335). Kunst des orients 11 (1976 – 77).

- Mostafa el abbadi, alexandria thousand year capital of egypt, in alexandria the site and the history, mobil oil egypt ,1992.

- Nasser rabbt,the citadel of cairo.

- Olg garber, the case of the mosque, p.P. 35-36; The formation of islamic art. London, 1973.

- Pelagia astrnidou , the architect in ottoman period.

بحث فى الكتاب التذكارى الذى صدر عن مؤسسة التميمى للبحث العلمي تكريما لمايكل كيل، تونس ٢٠٠٠ م.

- Ronald lewcock, materials and techniques.

- The encyclopedia of islam 2 (e 12),art. " Iwan " by olg graber, ,vol 1v.

الفهرس

المقدمة	٣
تمهيد	٧
الفصل الأول	
مقر الحكم فى مصر من الفتح الإسلامى حتى بداية العصر الأيوبى	١١
الفصل الثانى	
نشأة القلعة	٢٥
الفصل الثالث	
مقومات القلعة كمقر للحكم	٦٧
الفصل الرابع	
القلعة فى عصر محمد على وخلفائه	١٢٣
الفصل الخامس	
التحول السياسى واتخاذ القصور كمقار للحكم	١٦٧
الفصل السادس	
العمارة السياسة - دراسة تحليلية للعلاقة بينهما	٢٢٧
المصادر والمراجع	٢٥٣

المراجعة اللغوية : **آمال الديب**
الإشـراف الفنـى : **نسرين كشك**

هذا الكتاب يرصد مقر الحكم فى مصر: مكانه وتطور عمارته، منذ فتح مصر على يد عمرو بن العاص الذى أنشأ الفسطاط كمقر لعسكره وعاصمة يحكم منها مصر، إلى أن تغير اسمها إلى مدينة مصر لكونها تجمع كل المصريين عند التقاء الوجه البحرى بالصعيد، وهو المكان نفسه الذى شيدت فيه منف من قبل لتعبر عن تواصل مصر من الشمال إلى الجنوب عبر نهر النيل، ثم يرصد الكتاب ظهور ضواحى شمال الفسطاط التى اتخذت مقاراً للحكم مثل العسكر والقطائع، ويعرج على الحصن الفاطمى الذى سمى القاهرة، شيده الفاطميون ليكون حصناً معزولاً عن مدينة مصر "الفسطاط"، ثم يدرس تفصيلاً قلعة صلاح الدين الأيوبى التى شيدها ببراعة بهاء الدين قراقوش، ومقومات هذه القلعة كمقر للحكم من دواوين وأسوار وأبراج وقصور ودار عدل وغيرها من المنشآت التى توحى بوجود مقر سلطانى يليق بدولة عظمى، استمر حتى فى ظل الحكم العثمانى مقرا للحكم فى مصر.

المجلس الأعلى للثقافة

تصميم الغلاف: هبة حجازى